خاتم النبيين
محمد (ص)

٢

دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة
بيروت - لبنان

خاتم النبيين

محمد (ص)

٢

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف . ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الاولى
١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مَّا كَانَ **مُحَمَّدٌ** أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

بالحُبِّ الرَّاسِخ ، وَالتقديرِ البالغ ، اللَّذين أودعهما اللّهُ سُبحانه في قلوبِ أهلِ المدينة ، نتيجةَ إيمانهم الصَّادق باللهِ ورسُولِه ، انطلقت هذهِ الأنشودة الرَّبانيَّة مِن أفواهِهم ، عِندما طلع عليهم الرسُولُ الكريمُ بوجْهِهِ البهيّ ، الذي أنارَ أرجاءَ يثرِب ، فدُعيت مُنذُ دُخولِهِ إليها وحُلولِه في رحابِها : المدينة المُنوَّرة .

طَلعَ البدرُ علينا مِن ثنيَّاتِ الوداعْ
وجبَ الشُكرُ علينا مادعا للّهِ داعْ
أيُّها المبعوثُ فينا جئتَ بالأمرِ المطاعْ
جئتَ شرَّفتَ المدينا مرحبًا يا خيرَ داعْ

فالكلمةُ التي تدخلُ إلى القلبِ تكونُ صادرةً عن القلب ، والكلمةُ التي تتبخَّرُ قبلَ أن تتجاوزَ الآذان تكونُ صادرةً عن اللسان ، ذاكَ أنَّ الكلمةَ الصادرةَ عن القلب تخرجُ مصحوبةً بمشاعرِ المُتكلِّم ، فيتأثّرُ السامعُ بفحوى العِبارة ، ويستشعرُ منها إيمانَ صاحبِها .

ولِذا تأثّرَ الرسُولُ الكريمُ بهذا الاستقبالِ المثير الذي حرَّكَ مشاعرهُ النبيلة نحوَ أهلِ المدينة ، فاطمأنَّ إليهم ، ورضِيَ عنهم .

المَـدِينَـة المُـنَوَّرَة « يَـثْرِبْ »

... ودخل رسول الله ﴿ﷺ﴾ مدينة يثرب ..

وكان دخوله بداية تاريخ يفصل بين مقوّمات الوجود الأرضي كله ...

وكانت تلك البداية ، يومَ أن أتخذ سيد الخلق محمد ﴿ﷺ﴾ ، قراره بالارتحال عن مكة فطوى التاريخ صفحاته القديمة ، واستأنف مسيرته بين يدي صاحب القرار ، حتى بلغ يثرب ، فأناخ التاريخ رحاله ، ليسطّر صفحات جديدة في عمر الزمان ، كانت أحداثها بداية لعهود يجب أن تعرفها البشرية على حقيقتها ، حتى تكون نوراً هادياً للفكر الإنساني طالما بقي في مسيرته على هذه الأرض ، وطالما ظلَّ يدرك أنه يوما سيترك هذه المسيرة ، ليلقى ربَّه وخالقه في نهاية المطاف .

ويقف التاريخ يتأمل فيما حوله ، فإذا هو يرى في يثرب كلَّ شيء مختلفاً ... ويتأمل في وجوه الاختلاف ، ثم يسترجع ذكرى مكة ، فإذا الحياة هنالك كانت باهتة ، جدباء ، مقفرة .. ولولا أن جعلَ الله سبحانه في ذلك البلد آيته الخالدة ، الكعبة الشريفة ، لما كان لأحد أن يطيق البقاء في مكة ، ولا أن يجعلها موطناً له .. لأنها في واقعها الجغرافي ليست أكثر من واد مقفر ، أحاطت به الجبال من جميع جوانبه ، فحصرته بشدة ، وضيّقت عليه الخنّاق ، حتى لتكاد

تلك الجبال تتلاصق ، أو يتصل بعضُها ببعض من نواحي الشرق والغرب والجنوب . . . ويزيد في قساوة تلك البقعة ما تتميَّز به من أرض صخرية صلبة ، لا تتيح للزرع أن ينبت إلا فيما ندر ، ولا للشجر أن يُغرس إلاَّ فيما قلّ ، ولذا تراه حواليها نادرا في ظهوره ، باديَ الضمور كنبات السّباخ والبوادي ، ينحصر ببعض ما جادت به الأرض الصحراوية من نخيل وأراك . . .

فالمطرُ لا يألف النزول في تلك الناحية ولذا يبقى ماؤها شحيحاً ، وعلى شُحِّه كثيرَ الملوحة ، اللهم إلاَّ ماءَ زمزم ، فإنه محتفظ بميزة العذوبة ، وبانبجاسه من بئر أزلية دائمة التدفق ، حتى كأن وجوده في تلك البقعة معجزةٌ أرادها الله ـ سبحانه ـ باقيةً إلى الأبد ، لتذكِّر الناس ، بما لأصحاب هذا البئر ومائِه من مكرُمة عند خالقهم . . وهذا الجدب ، وقلة المطر ، يلتقيان مع قلة ارتفاع مكة عن سطح البحر ، بما لا يزيد على ثلاثمائة وثلاثين متراً ، مما جعل كل هذه العوامل تُصيِّرا جوها مشحوناً بشدة الحرارة ، وأرضها مغطاة بالرمضاء اللاهبة . .

اما هنا في المدينة ، فالأوضاع تختلف كلّياً . . فيثرب بلدٌ يقوم في واد منبسط فسيح ، تكثر فيه الحدائق الغناء ، وتحيط بمنازل ساكنيه ، وتنتشر فيه البساتين التي تحفل بالأشجار الباسقة لتملأ الأماكن ظلالاً وارفة ، وتتفرَّق الينابيع وعيون المياه العذبة ، في مختلف الجنبات لتغطيها بالاخضرار والنضارة ، ولتجعلها على مدار طويل من السنة غنيةً بالثمرات والخيرات ، مشبعةً بطيب الهواء

واعتدال الجو . .

وهكذا جعل الوضع الطبيعي بين البلدين ، اختلافاً كبيراً في الموقع والمناخ ، وفي الخصب والجدب ، كما في سهولة الأرض وحزونتها ، وفي عذوبة المياه وملوحتها ، بل في مختلف مشاهد الطبيعة وظواهرها . . . ولكنَّ شيئاً واحداً ، كانت تشترك فيه مكة المدينة ، وهو اصطباغهما معاً بالصبغة العربية ، الناجمة عن البيئة الاجتماعية وظروف العيش وطرق الحياة المتقاربة .

ومع ذلك يظلُّ التناقض قائماً ، لأنه لا يقتصر على ظواهر الطبيعة وحسب ، بل هو يتعداها إلى العناصر البشرية التي كانت تقيم في كلا البلدين . .

فأهل مكة كانوا في كثرتهم الساحقة من العرب ، ومن قبيلة قريش بالذات ، التي تربعت على عرش السيادة بين القبائل العربيةبفضل سدانتها للبيت العتيق ، وبجهود رجالات عاشوا في مكة ، وكانوا في تلك الأيام ذوي حكمة وحنكة في تدبير شؤون القوم ، أمثال قصيّ ، وهاشم ، وعبد المطلب ، وأبي طالب . . . وقد دفع هاشمٌ نفسه أهلَ مكة للدأب علىَ أعمال التجارة حتى ازدهرت لديهم ، وصاروا يسيِّرون قوافلها إلى البعيد ، لنواحي بلاد اليمن ، وبلاد الشام ، فيجنون الأرباح الوفيرة التي عَوّضت عليهم قساوة الطبيعة وشحّها غير أنها في الوقت نفسه ، أثّرت على أخلاقهم ، فأفسدتها وزادت في إفسادها ، بل أعْمت عقولهم وزادت في جهالتها ،. إذ أبطرتهم النعمة ، وأضلهم اليسار وتزاحم

الأقدام حول البيت العتيق . الأمر الذي جعل تلك العقول تجمد على الوثنية وترفض نور الدعوة الإسلامية التي بُعث بها أحد أبنائهم ليهديهم إليها . . ثم يؤدي بهم هذا الرفض = أخيراً = إلى تهجيره ليعيش ردحاً من حياته السامية بين ظهراني أهل المدينة ، الذين وإن جمعت بينهم وبين المكيين بعض عادات البادية وتقاليدها ، إلاّ أنهم كانوا يختلفون عنهم في تركيبهم الاجتماعي ، وفي نمط حياتهم المعيشي . . .

فأهل المدينة لم يكونوا في ذلك الزمن عنصرا واحداً ، بل تألفوا من عنصرين متميّزين ، العنصر العربي ، والعنصر اليهودي . . والعرب أنفسهم كانوا منقسمين إلى قبيلتين مختلفتين : الأوس والخزرج ، وقد وجد اليهود في اختلافهما الفرصة السانحة للدسّ وزيادة الفرقة ، فكان لهم ما أرادوا ، وقد نجحوا لشدة ما يمتلكون من خبث ودهاء ، حتى أدت فعالهم تلك إلى العداوة البغيضة ، والوقيعة القاتلة بين الأوس والخزرج ، وقضت على الوئام السالف ليحلّ محله الخصامُ الدائم ، وانعدمت المودّةُ لتشيع بعدها البغضاء . . .

وكانت نتائج ذلك كله حروباً شديدة ، وأياماً مشهورة ، ووقائع مذكورة ، تحدّث فيها الرواة مفصحين عما أدت إليه من سفك دم ، وهدر مال ، وتبديد طاقة ، ثم ظلت قائمه على هذا المنوال حتى كان يوم « بُعاث » قبل هجرة الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى المدينة بخمس سنوات . . ويُعدُّ يوم « بعاث » بعينه من ايامهم المريرة تلك ، لما كان له من أثر حاسم على القبيلتين ، إذ دارت الدائرة فيها

على الخزرج بعد أن أُنهكوا ، واشتدَّ فيه بطش الأوس فأرادوا أن يبيدوا الخزرج عن بكرة أبيهم ، وأن يقضوا عليهم حرقاً في ديارهم ، لولا أن تداعى بعض كبار السن ، من ذوي العقل الراجح ، وحالوا دون المجزرة الرهيبة ، واقفين في وجه المتقاتلين ، وهم يقولون لهم : « ويحكم إنهم إخوان لكم في كل حال ، وإنَّ جوارهم لخيرٌ من جوار الثعالب ، بني يهود » . . . .

ولئن كان لليهود ما رغبوا من نفث الأحقاد ، وزرع سموم العداوة بين العرب في المدينة ، فإنَّ فساد البين لم يكن مقصوراً على هؤلاء وحدهم ، بل لقد تفشّت العداوة بين أفراد العنصر اليهودي أنفسهم فقامت بينهم أيضاً الخلافات ، ونشبت الحروب ، وطال القتال بين جماعاتهم من بني النضير وبني قريظة حيناً ، وبين بني قريظة وبني قينقاع حيناً آخر ، من غير أن يثنيهم عن ذلك تحريمٌ في شريعتهم ، ودون أن يردهم عنه واجب أخلاقي في بيئة هم عليها دخلاء . .

فلم يأبه اليهود في دسّهم ، وفي قتالهم ، لأي وازعٍ إنساني أو ديني ، ولم يحفلوا بأي عهد سماوي كان قد كتب عليهم ، فعيّرهم الله سبحانه وتعالى بحنثهم للعهود ، في محكم كتابه العزيز إذ قال عزَّ وجلَّ : «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ،

وإنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

وهكذا دأب اليهود في المدينة على الفِعَال الشنيعة ، يحرّضون العرب بعضَهم على البعض ، ولكنهم لا يسلَمون هم من الكراهية والشحناء فيما بينهم ، فيحالف فريقٌ منهم الأوسَ ، وفريقٌ آخر ينصرُ الخزرج ، ثم تقع الحروب بينهم ، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي ، مخالفين حكم التوراة في جوهره ، ومؤمنين به في ظاهره ، إذ يجتمعون ، بعدما تضع الحرب أوزارها ، كي يفتدوا أسراهم بالمال ، وهم يتذاكرون ، من أجل ذلك ، بأنهم ينزلون على حكم التوراة . . . وهذا ما عناه الله تعالى بقوله : « أَفَتُؤمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » . .

تلك كانت احوال المدينة في تلك الحقبة الزمنية . . فهي مسرحٌ للنزاع الدائم ، وحقلٌ للتنافس المستمر بين العرب أنفسهم ، وبين اليهود أنفسهم ، وبين العرب واليهود ،. . وكأن المدينة توزعت فرقاء وعداوة ، كل فريق يتربص بعدوّه الدوائر ، ويتحيَّنُ الفرص للانقضاض عليه وإهلاكه ، ولو استعان بخصم عنيد له أو عدو لدود . .

وإذا كانت الأمية تشفع لعرب المدينة بعض ما يفعلون ، لأنهم

قوم جهلوا القراءة والكتابة ، وغابت عنهم الأديان السماوية حتى يومذاك ، فأيُّ شيء يشفع لليهود حتى ينتحلوا تلك النزعة القتالية المهلكة ، وهم ذوو كتاب سماوي ، وأهل علم ؟ بل يزيدهم تجريماً أنهم كانوا يعيرون على العرب أمِّيتهم ، ويحقرون وثنيتهم ، ثم يفعلون ما لا تقرُّه أعرافُ وثنية كانت أو غير وثنية . . .

ولعلَّ ذلك التعبير كان أحد الدوافع التي جعلت عرب المدينة يتبرَّمون بديانتهم القائمة على الشِّرك ، ويتمنون لو يكون لهم دين سماوي مثل دين اليهود ، وكتابٌ مثل كتابهم ، على ألاَّ يبقوا في حالتهم تلك وألاَّ يكونوا مثل اليهود يختبئون وراء ادِّعاء العمل بالأحكام الدينية وهم بعيدون عن ذلك أشد البُعد . .

لقد غرس اليهودُ في نفوس أهل يثرب ، من غير أن يدروا ، كراهية الشرك ، وبُغضَ الوثنية ، فباتت نفوسُهم مهيّأةً لقبول دعوة جديدة ، ومستشرِفةً لرسول يبعثه الله .

وها إنَّ الله ـ سبحانه ـ يحقق الأماني ، فيتهيأ عرب المدينة لاستقبال الرسول ، محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ حامل الدين السماوي الجديد ، دين الاسلام ، الذي ترامت أخباره إليهم ، واعتنقته جماعة منهم . .

لقد جاء اليومُ المؤمّلُ حقاً . . وها إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ يدخل المدينة وقد ازدانت أرجاؤها بمظاهر البهجة والاحتفال ، وعمَّت جنباتها أضواءُ المشاعر تنعكسُ وهَّاجة على وجوه أصحابها ، وتتلألأ سروراً على حياة أهليها . .

المدينة كلها في عرس . . بالزغاريد تترنّم الأفواه ، وبالأناشيد تصدح الحناجر . . والفرسان يندفعون فوق ظهور الخيل ، والرجالة يزحفون على درب الموكب . . والجميع يحتفون بالوافد العظيم ، حتى ربات الحجال لم تفتها المناسبة ، لأنها الأولى من نوعها على مدينتهم . . .

فالنساء يظهرن من الأخبية ، لتغصّ بهنّ الشرفات والسطوح ، ومنهنّ من تُطلق الزغردة ، أو تنثر على رأس القادم العظيم الورود والأرز ، أو ترش العطور والروائح الطيبة . . وكان يزيد الابتهاج رونقاً نزول الإماء والجواري للمشاركة في الموكب غناء وحَدْواً . . فضربت الدفوف وتعالى الغناء وصدحت الألحان ، فانتشت بها الأجواء واختلط ذلك كلّه برنّات الدروع وقرقعة السيوف في أيدي اللاعبين المهَرة ، الذين كانوا يرسمون الإشارة على النغم ، ويتقنون الفن على الفرحة .

ويتهادى الموكب المباركُ المهيبُ في سيره ، ومن حواليه حشد أهل المدينة ، الذين لم يخطر ببالْ أحدهم أنه في تلك البرهة قد اعتدل ميزان التاريخ ووقف ليأخذ وجهته الجديدة .

وما أعدَّهُ القدرُ لمدينتهم من جلال وعظمة يبقيان على الزمن ، ما بقي الزمن ، ويدومان على الحياة ، ما بقيت الحياة . . ولكنهم قد أحاطوا برسول الله «ﷺ» من كل جانب ، وفي نفس كلٍّ منهم رغبة في الوصول إلى قربه ، ولمس رجلَيه المتدلِّيتَين من على ظهر الناقة التي يعتليها ، أو للمزاحمة على إمساك زمامها ، ولينازع صاحبه في

الوصول إلى تلك الأمنية الغالية . ويظل الموكب في سيره . . ولا يمرّ الرسول «ﷺ» بدار من دور المسلمين ، إلاَّ اعترض أهله طريقه ودَعوه أن يقيم عندهم . . ولا يحاذي منزلَ سيِّد من سادة القوم إلاَّ ورجاه أن يحط رحاله فيه . فكل قبيل يريده ضيفاً ومقيماً ، وكلّ يعرض عليه القوة والمنعة والثروة . ولكنَّ رسول الله «ﷺ» كان لا يجيب أحداً لطلبه ، وكان في الوقت نفسه لا يرفض ما يرغبون به إليه ، بل يفْترُّ ثغره الشريف عن ابتسامة مشرقة ، تترجم فرحه بلقائهم ، وشكره على احتفائهم ، ودعاءَه لهم جميعاً بالخير والبركة ، ثم يشير إلى ناقته قائلاً « خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة » .

لم يكن رسول الله «ﷺ» قد اعتزم الاقامة في ناحية معينة في المدينة ، بل ترك الأمور تسيرُ على هُدى من الله سبحانه وتعالى . فهذه دُور المدينة التسعة ، وكل دارة منها تشكِّل محلة مستقلة لقبيل يقوم فيها بأهله ومنازله ونخيله وزروعه . . حتى ليتراءَى بأن كل واحدة من تلك المحلات تؤلف قرية بذاتها ، ولكن يجمعها التلاصق والتقارب .

نعم لقد كانت تلك الدور كلُّها مشرعةَ الأبواب لاستقبال رسول الله «ﷺ» ولكنه لم يكن لِيُؤْثِرَ إحداها على الأخرى ، بل يتابع السير إلى أن يبلغ دار سالم بني عوف ، وكانت صلاة الجمعة قد أدركته ، فأمر بالركب أن يتوقف ، ثم طلب الوضوء ، فتوضَّأ ، وتبعه المسلمون ، ثم نهض يؤمُّهم بالصلاة التي كانت أول صلاة جمعة أقامها صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام . .

وبعد أن فرغ من الصلاة ، نظر إلى الحشود التي مازالت تنتظره ، وهي ترقب ذلك المشهد العظيم ، الذي استوى فيه المسلمون من وراء رسول الله «ﷺ» وقد وقفوا بين يديْ الله خاشعين، منيبين مبتهلين. . واختار رسول الله «ﷺ» مكاناً يقف فيه ، حيث يراه ويسمعه كلُّ من تواجدَ هنالك في تلك الساعة ، فإذا الجموع صامتة ، محدّقة ، ترقب ما يريد أن يقول . .

وانطلق صوت رسول الله «ﷺ» يشيع الطمأنينة في النفوس ، وهو يبدأ بحمد الله ، والثناء عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس ، فقدِّموا لأنفسكم ، واعلموا ، والله ليُصعقنَّ أحدُكم ، ثم ليَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه ، وليس له تَرجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتِك رسولي فبلَّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمتَ لنفسك ؟ فَلينظرنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثمّ لَينظرنَّ قدامه فلا يرى غير جهنَّم ! . . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بِشقٍّ من تمرة فليفعلْ ، ومن لم يجد فبكلمة طيِّبة ، فإنَّ بها تجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

لقد كانت خطبة رسول الله «ﷺ» الأولى موجزة ، تعبّر عن النهج القويم الذي يعتمده ، والمسلك الذي يؤدي إلى هدفه السامي . . ومذ فرغ «ﷺ» عاد يركب ناقته ، وراحت هي تسير فيه ، وقد أرخى لها الزمام ، حتى أتت دار بني مالك بن النجار

فبركت هناك . وسأل الرسول ﴿ﷺ﴾ : لمن هذا المكان ؟ فقيل له: إنه لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار. فسأل عنهما ، فقال له معاذ بن عفراء: إنهما سهل وسهيل ابنا عمرو ، وهما في حجري يا رسول الله . فإن شئت أن تتخذه مسجداً أو مقاما ، فلك ذلك يا رسول الله ، وأنا أرضيهما منه » . . عندئذ تطلّع رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ إلى السماء ثم قال :﴿ربِّ أنزلني مُنْـزَلاً مُـباركاً وأنتَ خيرُ الـمُنزلين﴾ .

وكرّر الرسول ﴿ﷺ﴾ ذلك أربع مرات . . ثم أخذه الذي كان يأخذه عند الوحي . فلما سُرِّي عنه ، قال : « هنا إن شاء الله يكون المنزل » .

ثم أمر أن يُحَطّ رحله ، وسأل :

« اى بيوت اهلنا أقرب » ؟

فقال أبو أيوب ، خالد بن زيد الأنصارى ، وكان منزله بجوار المربد الذي أناخت عليه ناقة رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « إنها دارى يا رسول الله ، وهذا بابى . . »

فقال له الرسول ﴿ﷺ﴾ : «فانطلق فهيّىءْ لنا مقيلاً » - أى مكانا نجلس فيه -

وطار أبو أيوب على جناح السرعة إلى داخل بيته ، يهيء لاستقبال الرسول الأعظم! ولينال فرصة العمر التي هي سعدُ فُرص الدهر . . ثم لم يلبث إلاّ قليلاً حتى عاد ، ودعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يشرِّف منزله بالدخول إليه .

وانتهت رحلة المهاجرة ، واستراح المهاجرون من وعْثاء السفر وأتعابه ، وحان وقت العمل الجديد . .



تأسيس الدّولة الإسلاميّة

أقام رسول الله «ﷺ» في منزل أبي ايوب الأنصاري ، واتجه همُّهُ منذ حطَّ قدمَيه في داخله ، إلى القيام بعمل في المدينة ، مُعلن عن نهج الاسلام في البناء والتوحيد . ولذلك دعا إليه المسلمين وأمرهم بالبدء في إقامة مسجد ، اختار له المكان الذي بركت فيه ناقته . ولم يترك الوقت يمر ، بل دعا إليه معاذ بن عفراء كي يُنقِده ثمن الأرض التي بركت فيها الناقة . فأبى الرجل وأعاد على مسامع رسول الله «ﷺ» بأنه سيكفي الغلامين بدلاً عنه ، ولكن رسول الله «ﷺ» لم يرضَ إلاَّ بشراء الأرض من ماله الخاص ، ودفع ثمنها عشرة دنانير . . ولما اطمأن الرسول الكريم إلى امتلاك المسلمين مكاناً عاما ، توجه من فوره أمام جمع حافل ، وضرب أولْ معول في الأرض لحفر الأساس ، فاندفع المسلمون إلى العمل وملؤهم القوة والحماس . .

ولم يكن العمل صعباً ، ولا موادُّ البناء كانت نادرة . . فهي عبارة عن قليل من الحجارة وكثير من اللبن الذي يُعْجن من التراب ويسوّى بشكل احجار صالحة للبناء . وما على البنائين سوى ردم الأساس ورصفه بالحجارة ، ثم إقامة الحيطان بمداميك من اللِّبن . .

ولكن هل المهمُّ كله هو أن تتوفر الحجارة والطين ؟! . . .
لا ! . . .

فالأهم هو تلك الحماسة التي تبدَّت شعلةً في نفوس القوم ، الذين اقبلوا على العمل الجماعي ، وكأن كلّ واحد منهم يعتبره عمله الخاصَّ به . . وكان يزيدهم إقبالاً واندفاعاً ، رؤيتهم سيِّدهم ونبيَّهم وقد أبى إلا أن يكون واحداً منهم ، يعمل بيديه الشريفتين ، وينقل الحجارة واللبن على صدره وكتفيه . . ولم يستغرب بعض الصحابة ما يقوم به رسول الله «ﷺ» ، فقد رأوه منذأيام معدودات يعمل معهم بنفس الهمة عندما أمر بتأسيس مسجد « قباء » ، وها هو اليوم في المدينة ، يُقدم مع العاملين على بناء مسجد المدينة ، منخرطاً بين جموعهم بلا تمييز ولا أثرة ، بل الكل سواسية في ميادين العمل العام ، وعلى الكل واجب العطاء والبذل . .

ويرقب الرسول «ﷺ» مسيرة العمل فتطمئن نفسه الطيبة لطيب الرجال واندفاعهم ، ويحسُّ عند اشتِداد لظى الظهيرة فتوراً ، يتجلى في خفوت الأهازيج والأناشيد ، فيأمر بأخذ قسط من الراحة ، ليَقيل الرجالُ ويطعموا ويستروحوا ولكنهم لا يلبثون إلاَّ قليلاً ، ثم يهبون إلى متابعة العمل وقد زال عنهم كل كدٍّ أو تعب . . إنه الإخلاص لصاحب الرسالة ، وما بناء هذا المسجد إلاَّ عملاً مادياً بسيطاً من الأعمال التي يجب أن تقوم بها الرسالة لتأسيس الدولة الإسلامية . . وهو قبل ذلك ، بل وقبل كل شيء ، الإيمان بالله ، والعمل في سبيل مرضاته وثوابه . . فالكل يشارك ، والكل يريد أن يأخذ بحظه من ثواب الله تعالى ، والرسول «ﷺ» واحد من هؤلاء

العاملين ، يريد حظاً من ثواب الله الوفير . . فقد رآه أحدُهم وقد عَلته غَبَرة كثيرة ، فأوجف إذ ظنَّ الأمر مهولاً ، فتقدم من الرسول الكريم ، يرجوه أن يجلس ويرتاح ويُشرفَ عليهم ، ويعطيهم الاوامر ، وهم يكفونه أمر المشاركة في الشغل ، ثم يقول لرسول الله ، وقد أقبل يُثقله ما حَمَلَهُ من اللَّبن :

« أعطنيها يا رسولَ الله ، واهدأ بجوارنا آمراً مُطاعاً » ! . .

ويدهش الصحابيُّ ، ويُعقل لسانه عن الكلام ، وهو يسمع رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، يقول له :

« اذهب فخذ غيرها . . فلستَ بأفقرَ إلى الله منِّي » .

ويتفكّر هذا الصحابي : « سبحان الله . . إنه رسول الله ، وصاحب المكرمات عند باعثه ، فكيف يكون فقيراً إلى الله » ؟! . .

ذلك هو الإسلام ، عدالةً ومساواة في كل شيء . والفضل يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة ، وبهذا الفضل ثوابٌ من الله . . والرسول ﴿ﷺ﴾ كغيره من المسلمين ، لا يطلب إلاَّ ثواب الله . . حملُ الدعوة مكرمةٌ من الله وثواب ، والدأبُ على إيصالها للناس ، رحمةٌ من الله وغفران ، والتعبُ في سبيل هذا الايصال تعزيزٌ من الله وإكرام ، والرسول ﴿ﷺ﴾ ليس مدعواً للعمل في هذا النهج وحدَه ، بل هو فريضة على كلِّ مسلم يعمل ـ ومن واجبه أن يعمل ـ في سبيل الله عزَّ وجلَّ . .

. . ويسمع الصحابةُ ما يقوله الرسول الكريم لأخيهم ، فيزدادون اندفاعاً لنيل ثواب الله ، وهم يتغنون ، منشدين :

لئــن قعَـدْنــا والنبــيُّ يعملُ لذاكَ منَّا العمــلُ المضلَّــلُ

ويريد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يزيد في حماسة القوم ، فيرتجز :

لا يستــوي من يـعْمـرُ المساجدا يدأبُ فيه قائماً وقاعدا

ومن يُـرَى عن الغُبار حائدا

ويسير العمل فترةً قصيرةً من الزمن ، يستوي بعدها المسجد قائماً ، بناء متواضعاً ، بسيطاً ، لا تعقيد في بنيانه ، ولا زخرفة ولا نقش . . بل هو فِناءٌ من الأرض لا يتجاوز خمسة وثلاثين ذراعا في طُوله ، ولا يقـلُّ عن ثلاثـين في عَرضـه ، تحيط به جدران لا يزيد ارتفاعها عن قامة الرجل إلا قليلاً ، جُعلت له أبواب ثلاثة ، أحدها من الشرق ، والآخر قبالتـه من الغــرب ، وثالثُـهــا في ناحيتــه الجنوبية . وقد أقيمت في أحد جوانبه ظُـلَّـة من الجريد على قوائـم النخل ، سميت « الصفَّة » بينما تركت باقي الجوانب مكشوفة . وقد خصَّـصَ الرسول ﴿ﷺ﴾ تلك الناحية لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يمتلكون مسكناً ، فلقبوا بأهل الصفَّة . .

وهـا هنـا تكمـن ناحية من نواحـي السمـوِّ في فكر الرسول ﴿ﷺ﴾ . .

فبنـاء المسجـد ، ليس تعبـيراً عن عزم من عملـوا في تشييده فقط ، بل هي مظهرٌ عن قناعتهم بصدق ما يعملون في سبيله ، . . والأنصار وإنْ كانوا حديثي العهد بمعرفـة رسـول اللـه ﴿ﷺ﴾ ،

فإنهم هم أيضا كان لهم ذلك الاندفاع ، إبرازاً للقناعة التي تعبِّر عن الإخلاص والصدق .

أما أهل المدينة جميعاً ، فإنهم كانوا يرون هذا التكاتف والتضامن بين المهاجرين والأنصار ، فيدهشون ويتساءلون : « ما هذا الدينُ الجديدُ الذي يصهر الناس في مثل هذه اللُّحمة الشديدة » ! ثم يتداولون الأحاديث في ندواتهم « من هذا الرسول ، الذي يبني جامعاً للمسلمين ، وفي نفس الوقت يفكر بالفقراء ، فيجعل لهم فيه مكاناً يأوون إليه » ؟! . .

هذه الغايات السامية المتشعبة التي أبرزها بناء المسجد ، تجعل الانسان أسير التفكير فيها والتقدير لها ، فلا يعود يتأثر بمظهر المسجد ، ولا على أي شكل قام تشييده . . . الأمر الأساسي ، أنه كان بيتا لله سبحانه ، وقد جمع المسلمين من مهاجرين وأنصار على أول عمل مشترك ، كما أنه جُعل فيه نصيبٌ لايواء الفقراء ! فكان مثالا للعمل الخير الرائع . .

وزاد في تكريس علوِّ شأنه ، أن الرسول «ﷺ» صار يقضي جُلّ أوقاته فيه ، متعبِّداً ، مصلِّياً بالمسلمين ، خاطباً فيهم ، معلِّماً لهم اصول دينهم . .

ولقد اتخذ الرسول «ﷺ» في أول العهد ، مرقاةً له كي يخطب في الناس ، وكانت المرْقاةُ جذعاً من جذوع النخل بقي يستعمله إلى ان جاؤوه بمنبر من خشب مصنوع على شكل بسيط متواضع ، فيه درجتان ، ومقعدٌ للجلوس ، فكان يقف «ﷺ» على أدنى الدرجتين

كلّما قام للخطابة . . ولم يكن في المسجد مصابيح تنيره ليلا ، فكان إذا اشتدّ الظلام ، أتوا ببعض الحطب يشعلونه حتى تنشر نارُه الضوء في جنبات المسجد . وظلت حالهم كذلك حتى قدم المدينة تميم الداريّ من الشام ، فجلب للمسجد مصابيح ، وعلّقها في سواريه ، مما أفرح الرسول الكريم وقال له داعيا : « نوّرت مسجدنا ، نور الله عليك » . .

وهكذا تبدّى أنّ أول اهتمامات رسول الله (ﷺ) في المدينة كان بناء هذا المسجد الذي نعرفه اليوم بمسجد رسول الله (ﷺ) . - إذ ما زال ، منذ أن وضع الرسول الكريم أساسه قائما ، ولسوف يبقى ، بإذن الله ومشيئته قائماً ما بقي الدهر . .

ولكن لم كان ذلك الاهتمام بإقامة المسجد قبل مباشرة اى شيء اخر ؟

إنه فوق تلك الغايات السامية التي تجلّت في إقامته ، كما تتجلى أية غاية من إقامة مسجد جديدٍ بني لإقامة الصلاة ! . . ولم الصلاة بصورة خاصة ؟

وكيف لا ، والصلاة هي الصلة الأقوى والأمتن بين العبد وربّه ! . .

وهو صحيح أن كل فعل خير ، يلاقي فيه الإنسانُ وجْه ربّه ، وينعم من خلاله برضوانه ورحمته ، وكلّما اتسع عمل الخير ، فاضت تلك النعمة الربانية ، إيماناً وهدى وطمأنينة وبركات . . ولكن رغم مآثر عمل الخير ، وحبّ الله سبحانه لهذا

الخير وفاعله ، فإن الصلاة تبقى الأساس لاتصال الانسان بربّه ، ولقائه كل يوم ما زال موجودا على الأرض . . .

فالانسان عندما يتهيأ للصلاة وينضوى فى رحابها الفسيحة ، يلج فى تلك الرحاب وقد عافت نفسه كل موبقات الأرض وماديات الحياة الزائفة ، واشرقت فى داخله انوار من الصفاء تنقله بروحه إلى آفاق الله العليا حتى يحقق الاتصال به بالوقوف بين يديه . . وأية روعة أجلّ وأسمى من هذه الصلة ، وقد قدر الانسانُ على تحقيقها ! . .

أو ليس فى هذه الصلة حقا معين من الطمأنينة لا ينضب ، ومدد من الرحمة لا ينقطع ، وادراك لكنوز من المعرفة لا ينفد ! .

ومن استطاع أن ينال تلك الطمأنينة والرحمة ، وأن يحوز ذلك الادراك ، ألا يكون قد حقق كل ما يرجوه ، ويعمل له ، ويصبو إليه ، بل وكل ما يحلم به فى الدنيا وفى الآخرة .

وهل يقدرُ أن ينال تلك النعمة الكبرى ، إلاّ عبد صلّى صلاة تصله بخالقه ، فانجذب إليها بصفاء نفس ، ورقة حواش ، وشفافية وجدان ، حتى امتلأ وجوده وكيانه وذاته إيمانا بالله ، وفرقا منه ، وشوقا إليه ، فكان حديرا بها وأهلها . وبمثل تلك الصلاة ، ان يتفكر الانسان بآيات الله العظمى التى هى ذاتها تزوِّده بالقدرات التى تمكنه من بلوغ الصِّلة ! . .

نعم من احل هذه الصِّلة كانت الصلاة أول فريضة من فرائض الاسلام ، وأكثرها دورانا مع الليل والنهار ، لأنها وحدها قبل

غيرها ، الوسيلة الكافية ، الوافية لتمكين العبد من لقاء ربِّه ما زال في دنياه الأرضية . . ولأن للصلاة تلك القيمة ، فقد أراد الرسول «ﷺ» أن يقيم بيتاً للصلاة ، حتى يُمكِّن للمسلمين من أن يتنعموا بتحقيق الصلة الربّانية في رحابه ، ويطلعوا على الحقائق التي يريدهم الاسلام أن يهتدوا إليها . .

ولقد بقي رسول الله «ﷺ» منذ قدومه المدينة يقيم في دارة أبى ايوب الانصارى ، فلقد عمل هذا الرجل منذ البداية ، على توفير كافة أسباب الراحة للرسول «ﷺ» ، إذ كانت دارته تتالف من طبقتين ، شاء أن ينزل الرسول «ﷺ» في الطبقة العلوية ، وان يكتفي هو وعياله فى السفلية ، فقال لزوجته أم ايوب : « نمشى فوق رأس رسول الله «ﷺ» ؟ معاذ الله ! سأذهب وارجوه ان يتحوّل في العلو » .

فقالت له زوجه : « الحق ما تقول يا ابا أيوب ، لا يليق بنا ، ولا بأحد من الناس أن يعلو سقيفة ورسول الله «ﷺ» تحتها » . .

وجاء أبو أيوب يعرض ذلك على رسول الله «ﷺ» يقول له :

« يا نبيَّ الله ، بأبي أنت وأمي ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهرْ أنت فكنْ فى العُلْو ، وننزل نحن فنكون في السفل » . .

فقال له الرسول الكريم : « يا أبا أيوب ، إنَّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت». وتلعثم أبو أيوب (رحمه الله) فلم

يعرف بماذا يجيب ، إذ كان يشعر بضيق وامتعاض أن يتحرك فوق منزل الرسول الكريم ، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يخالف أمره ، فبان على وجهه الحزن ، فطيب رسول الله خاطره ودعا له باليمن والبركة ، وحمله على الاقتناع بأن مثل هذه الأمور المادية لا تؤثر في حياة الإنسان ، طالما أنه يتخذ المُثلَ العُليا منهجاً ، والقيمَ سلوكا ، ورضوانَ الله ورحمتَه معتقداً ومأرباً . .

وقنع أبو أيوب بما قاله له الرسول الكريم ، وأقام في المسكن العلويّ ، ولكنه كان يحاذر أن يأتي بحركة يشعر فيها مصدر إزعاج لرسول الله «ﷺ» ؛ ففي مرة كُسِرت له جرَّة مملوءة بالماء ، فقام هو وزوجه أم أيوب ، ينشفان الماء ، بما عندهما من لحاف وثياب ، مخافة أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه شيء يضايقه . .

وكان أبو أيوب ـ رحمه الله ـ يأبى إلاّ أن يحمل بنفسه صحفة الطعام التي تعدُّه زوجه ، ويضعها بين يدي رسول الله «ﷺ» كل مساء . . وقد رأى الرجال من أهل المدينة ينافسونه على هذا الفضل ، فلا يحيد الوقت عن صلاة العشاء إلاّ وقد جاء ثلاثة أو أربعة يحملون الطعام للنبيِّ «ﷺ» . وكاد يثقل عليه هذا الأمر ، لولا ان طرد الأثرة من نفسه بعد أن ناجاها قائلاً : « هؤلاء أحباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكيف لا تزيدني سروراً رؤيتُهم يتكاثرون على تكريم النبي الكريم وتعزيزه . . إني إن فعلت لرجلٌ أنانيٌّ ، وأكرهُ أن أكونه . . فحبي لله ولرسوله الكريم هو أول المكرمات وأعظمها » . . وهكذا هدأ بالُ أبي أيوب ، ولكنه لم يتخلَّ عن عادته ، مهما تكاثر المتدفقون على خدمة الرسول

العظيم ، فكان إذا ردَّ عليه بعض الطعام تيمَّـمَ هو وزوجه أم أيوب موضع يده الشريفة فأكلا منه يبتغيان البركة .. وكم فاضت عليهما البركات منذ حلَّ رسول الله «ﷺ» في دارهما ! ..

ورغم الحفاوة والإكرام اللذين كان يتمتع بهما الرسول الكريم منذ مجيئه المدينة ، فقد عزم على بناء مسكنٍ له يقيم فيه . ولذا فإنه ما أن فرغ من بناء مسجده الشريف ، حتى انصرف إلى بناء مسكنه بجواره ، فشيَّـدَ لنفسه وأهله منزلاً متواضعاً قرب المسجد . ولما أنهى بناءه بَعَـثَ زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ، ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ، كي يجيئا بأهله وعياله من دون ابنته زينب التي حَبَسَ عليها زوجها أبو العاص بن الربيع الخروج من مكةواللحاق بأبيها الى المدينة .

وذهب الرجلان إلى مكة ،وجاءا بأهل بيت النبيِّ «ﷺ» ، وقد هاجرت معهم أم أيمن زوجة زيد بن حارثة ، وعبد الله بن أبى بكر مع أهله ، حتى إذا قدموا المدينة نزلوا في الأماكن التي كان الرسول «ﷺ» قد أعدَّها لهم . وقد انتقل منذ وصولهم من بيت أبى أيوب الأنصاري (رحمه الله) بعدما دام بقاؤه فيه سبعة شهور ، وأقام مع زوجه سودة بنت زمعة في إحدى الحجرتين اللتين ابتناهما . وقد دأب رسول الله «ﷺ» ، على نفس هذا النهج ، إذ كان كلما تزوج بامرأة ، ابتنى لها غرفة واحدة ، حتى صارت مساكنه حول المسجد تسعة ، أقيمت في جنوبيِّ المسجد وشرقيِّه ، وكانت كلها مساكن غاية في التواضع والبساطة ، ميزتها الدَّالة عليها غرفة يكتنف أرجاءها التقشف والزهد ..

بنى محمد ﷺ مسجده ومسكنه وانتقل من بيت أبي أيوب إليه . ثم جعل يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتح بها ، والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة في دور جديد من أدوارها ، فلم تعد الدعـوة مقتصرة على التثقيف والتفاعـل ، وفي المهاجرين والأنصار يكمن التفاعل بأقصى درجاته ، بل أصبحت واقعاً قائماً يريد له تطبيقا عملياً يمارسه النـاس ويتجلى في علاقاتهم الخاصة والعامة . . وهذا لا يكون إلاَّ بإقامة الحكم المدعَّم بالقوة المادية إلى جانب قوة العقيدة . .



نقطة الارتكاز

وهنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة الرسول «ﷺ» لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل ، ألا وهو الطور السياسي الذي أبدى فيه النبي «ﷺ» من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشا يطأطىء الرأس له إجلالاً واكبارا . فقد كان أكبر همه أن يصل بيثرب ، موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر انحاء الحجاز ، بحيث تكون نقطة الارتكاز التي يرتكز عليها الإسلام في تطبيق أحكامه وانشاء جيشه لحمايته من اعدائه . ولذلك توجّه اهتمامُه إلى تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم للقضاء على كل ما يمكن أن يثير العداوة القديمة بينهم . وقد اتخذ الرسول أساساً لهذا الأمر وحدة العقيدة الإسلامية التي تجمع بين المسلمين كافة من مهاجرين وأنصار ، وتؤلف بينهم . فأفكارهم ومشاعرهم واحدة ! وتنظيم علاقاتهم بالإسلام أمر بديهي . ولذا ركّز الرسول «ﷺ» في إقامة هذه العلاقات على الأساس الواحد الجامع المتين الذي هو العقيدة ، ذلك الأساس الذي ظلَّ يقيم عليه بنيانه طيلة ثلاثة عشر سنة ، بقوة الإيمان الصادق بالله الواحد الأحد ، فبرز البناء شامخاً عالياً ، ظهرت مآثره في حياة الفرد ، كما في حياة الجماعة ، عملاً صالحاً ينقطع به الفساد ، ويعمُّ به

الصلاح . . لأنه في الحقيقة لا جدوى من العقيدة ، أياً كانت ، إن ظلّت فكرة مستقرة في طوايا النفس ، وقابعة في خفايا الضمير . .

ولا قيمة لها قطُّ إن لم يكن صاحب العقيدة المثل الحيّ الصادق والترجمة العملية لها ، في كل ما يأخذ وما يدع ، وفي جميع ما يخفي وما يُعلن . ولذا لا بد من أن تمتلك العقيدة نفس الانسان ، حتى يندفع المؤمن بها إلى العمل في ظاهر الأمر وباطنه ، وفي صغيره وجليله ، وفيما يتصل بشؤون نفسه وشؤون غيره ، سواء في ذلك قريب الناس او بعيدهم عنه ، على أن أكثر ما يكون تركيزه على من يشاركه في عقيدته ، لأنه يكون العضد له ، على تكريسها ونشرها في سبيل النفع المرتجى منها لجميع الناس .

ولقد كانت المأثرة الفريدة من مآثر الرسول «ﷺ» التي هي واحدة من جملة مآثره العظيمة ، هي دعوته المسلمين لترجمة العقيدة واقعا عمليا ، يراه بتآخيهم في الله ـ أخوَين أخوين ـ حتى يكون لأخوتهم الأثر الحاسم في معاملاتهم وأموالهم وكافة شؤونهم . . وهذا ما أراده ونفذه . وأراد أن يكون في هذه الخطوة كما هي عادتُه في جميع الأمور الهامة ، المثالَ المُحتذي فبادر إلى المؤاخاة بين صحابته الكرام اثنين اثنين من أولهم إلى آخرهم ، فكان عمه حمزة بن عبد المطلب ومولاه زيد بن حارثة أخوين ، وكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين . . . ثم عَمدَ إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فخاطب الأنصار قائلا : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . .

وببساطة تامة كان جواب الأنصار له واحدا : « أموالنا بيننا

قطيع يا رسول الله » . .

فكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين ، وطلحة بن عبيد الله وأبو أيوب الأنصاري أخوين، وقال عليٌّ: يارسول الله قد آخيتَ بين سائر أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد فقال النبي «ﷺ» ياعلي لقد أبقيتك لنفسي أنت أخي في الدنيا والآخرة ثم تآخى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وكان لاجتماعهما على الأخوّة معنى دلّ على حقيقتها وفعاليتها ، إذ قال سعد لعبد الرحمن : ـ أنت أخي يا عبد الرحمن ، وأنا اكثر الناس في المدينة مالاً ، فانظر شطر مالي فخذه . . وتحتي امرأتان ، فانظر أيهّما أعجبُ لك حتى أطلّقها . . فقال له عبد الرحمن :

ـ بارك الله لك في أهلك ومالك يا أخي فإني لا أريد منك إلاّ أن تساعدني في معرفة السوق هنا حتى أبيع وأشتري . .

وبالفعل قام سعد على تقديم كل مساعدة لأخيه عبد الرحمن بن عوف ، فوجّهه إلى أحوال التجارة في المدينة ، وراح عبد الرحمن يعمل فيها بادئا ببيع الزبد والجبن ، وقد استطاع بمهارته التجارية أن يصل الى الثروة في زمن قصير ، وأن يمهر إحدى نساء المدينة مهرا محترما من ماله الخاص ، وأن تكون له قوافل تذهب في التجارة وتجيء مع قوافل التجار .

ولم يكن عبد الرحمن بن عوف وحده من المهاجرين الذين عملوا في التجارة ، بل فعل مثله كثيرون غيره ، لأن لأهل مكة دراية واسعة في شؤون التجارة ، حتى قيل في أحدهم : « إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهبا » . ومن لم يعمل في التجارة ، فقد اشتغل في الزراعة ، أمثال أبي بكر وعمر وعلي بن أبي طالب

وغيرهم ، فكانوا يعملون فى أراضى الأنصار مزارعة مع مُلاَّكها ، وقد قال لهم الرسول «ﷺ» « من كانت له أرض فليزرعها او ليمنحها أخاه » . أمّا من لم يجد عملا فى تجارة أو زراعة فقد انصرف إلى عمل غيره يزاوله مهما كان شاقا ومجهدا حتى لا يكون كلاً على غيره ، ولم يكن بين المسلمين أحد بلا عمل إلا جماعة من العرب ، وفدوا على المدينة وأسلموا ، وكانوا في حال من العوز والمتربة حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ اليه ، وهؤلاء هم الذين افرد لهم النبىّ «ﷺ» الصفّة في المسجد حتى يبيتوا فيها ويأووا إليها وجعل لهم رزقا من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين اتاهم الله رزقا حسنا .

هذه هى المؤاخاة بين المسلمين ، التي أرادها رسول الله «ﷺ» ثابتة الأسس ، قوية الدعائم من الناحية العقائدية ، كما من الناحية الواقعية المادية. وقد برزت آثارها الملموسة فيما أظهره الأنصار لاخوانهم المهاجرين من كرم وحُب ، ومساعدة ، حتى أن بعضهم اراد ان يطلّق إحدى زوجتيه كى يزوجها من أخيه المهاجر كما رأيت . .

فقد كانت المؤاخاة مشاركة حقيقية في الأموال والارزاق ، وفى حاجات الدنيا كلها ، تماما كما كانت مشاركة في المشاعر والأفكار ، وفى التوجهات العامة . . وقد بلغ من حرص الأنصار على إنصاف إخوتهم المهاجرين حدّا يفوق كل تصوّر ، إذ لم تقتصر مشاركتهم على الأموال المنقولة يقتسمونها ، ولا على الحقوق يتوزعونها ، بل حاؤوا رسول الله «ﷺ» قائلين :

« يا نبيّ الله ، لقد بذلنا ما في وسعنا لنواسي إخواننا المهاجرين فيما آتانا الله من مال ، ولم يبق لنا إلاّ النخيل ، فاقسمه يا رسول الله بيننا وبينهم » . .

فقال عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام : «لا ، ويشركونكم في الثمرة » ! . . .

قالوا : سمعنا وأطعنا يا رسول الله .

وإذا كان الأنصار أصحاب الفضل والعطاء ، فقد أعطوا بما زاد حتى استكثره المهاجرون الذين لم يكونوا في الحقيقة يريدون غير الإيواء والكفاف ، لا ، اقتسام الأموال والارزاق مع إخوانهم . . إنهم لم يفكروا في طمع ، ولم يبتغوا مثل ذلك الاكثار ، بل تألّموا منه ، وراحوا يشتكون كرمهم للرسول «ﷺ» ، فسألهم عن سبب شكواهم ، فقالوا له :

« يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم ، أحسن مواساة في قليل ، ولا أكثر بذلا من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله » . .

فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم مطمْئنا : « لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم » . .

ذلك هو العطاء الحق . .

وذلك هو الأخذ الحق . .

الكل يريد أن يعطى بسخاء ، ولكنَّ الكل لا يريد أن يأخذ إلاّ بمقدار . .

وفى مثل هذا العطاء والأخذ ، لا أحد يريد إلا ثواب الله . . حتى كان الخوف من أن يعود أجرُ الله ـ سبحانه ـ لمن أعطى . . ولكن قبول الآخذ والدعاء منه لأخيه المعطي ، يجعل الأجر موزعا بين الجميع إذا شاء الله ، ما دامت النية صافية ، والغاية شريفة . .

وإن مثل هذا العطاء والأخذ ، اللذين تقوم عليهما الحياة الحرّة الكريمة ، لو اعتمدا في أيامنا هذه وفي كل زمان ، بمثل ذلك الوجه الذي اعتمده المسلمون منذ ما يزيد على ألف واربعمائة سنة ، لتبدَّلت حال الأنسانية اليوم بغير ما تشهده من المآسي ، حيث الشبع وقد أتخم فئات حتى ليكاد يقتلها ، بينما الجوع يعتصر بأنيابه فئات أخرى ويميتها فعلا كلّ يوم فى أطراف كثيرة من الكرة الأرضية . فأية نظم هذه التى تُقرّ مثل هذه الفوارق المجحفة بين الناس ، حتى بدت الصرخات تتعالى ، من أفواه المسؤولين في المنظمات الدولية عن الاخطار التي تتهدد البشرية ، إذا استمرت الحال كما يشهدها الناس كافة . . وبفعل تلك النظرة الشاملة ، الهادفة التي اعتمدها الرسول العظيم ، استطاع ان يهيىء السبل لنشر الإسلام. فقد بات تطبيقه بين المسلمين ، واضح المعالم ، اذ صهرهم على الحب والإخاء ، والتضحية ، وجمعهم على التكافل والتعاون والتضامن . .

وكان لا بد للنبى ﴿ﷺ﴾ بعد تهيئة تلك السُّبل من أن يبني

المجتمع الذى يريده مجتمعا يعيش فيه الناس ، كلُّ الناس ، مسلمون وعير مسلمين ، إخوة متعاونين ، يسودهم الوئام ، ويظلهم الأمن والسلام. وقد أخذ العدّة لمثل هذا البناء .



بِنَاءُ المجْتَمَع

ليس بناء المجتمع ، بمعناه الحقيقي أمرا سهلا ، كما يتوهم البعض أو يظنّون .

فإذا كان الله - سبحانه - قد فطر في الإنسان غريزة البقاء ، وكان من مظاهرها تجمع الإنسان مع غيره أمرا عاديا ، واجتماع الناس مع بعضهم طبيعيا ونتيجة حتمية للأمور الغريزية في الحفاظ على الوجود والكيان والحماية من المخاطر والأخطار ، إلا أن مجرَّد هذا الاجتماع لا يؤلف مجتمعا ، بل يوجد بين الناس مفهوم الجماعة . . ويظل هذه المفهوم قائما ، إذا اقتصرت حياتهم على مجرَّد الاجتماع . أمّا إذا نشأت بينهم العلاقات لجلب المصالح لهم ودفع المفاسد عنهم ، فإن هذه العلاقات تجعل من تعايش الجماعات ، مجتمعاً .

ومن المفروض أن يكون المجتمع واحداً ، ولذا فإن تلك العلاقات تستلزم توحيد النظرة من خلال توحيد الأفكار ، وما يستتبعه من وحدة الرِّضا أو السخط ، أي وحدة المشاعر ، وتتوحد تبعا لذلك أيضا معالجتهم لتلك العلاقات بتوحيد النظام الذي يستهدفها ، فكان لا بد من التركيز على الأفكار والمشاعر والأنظمة حين النظر إلى المجتمع ، لأنها هي التي تجعله مجتمعاً معيَّناً ، له طابعه المعين ، ولونُه الخاص به . .

فكيف كان المجتمع في المدينة حين قدمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ لقد آراد الرسول العظيم ، ومنذ حطَّ قُدميه في المدينة ، أن يبدأ ببنيان الدولة الإسلامية ، فأمر ببناء المسجد مكانا للصلاة والاجتماع ، وللتشاور في الإدارة والشؤون العامة . وكان في الوقت نفسه يقضي بين المسلمين .

وقد التف المسلمون من حوله ، ولا سيما بعد تلك المؤاخاة الرائعة المثال ، وكانوا يرجعون إليه في كل أمورهم ، فكان يقوم بأعمال الحاكم ، والإداري ، والقاضي في آن معاً ، إلى جانب أنه رسول من رب العالمين وحامل دعوة من السماء . . وكانت نظرته البعيدة المرامي ، تهدف إلى بناء المجتمع السليم الذي تقوم على أساسه دولة الإسلام والذي يقوم هو = نفسه = على أساس الإسلام . . ولكن كانت هنالك قوى كثيرة تقف بالمرصاد لإقامة هذه الدولة . وإذا كانت قريش قد حالت دون قيامها في مكة ، فإن نواة الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله «ﷺ» في المدينة ! قد جعلت أعداء الإسلام، يَفْرَقون خوفاً منه ، وبذلك ظهر أعداؤها في المدينة كما كان لها أعداؤها في مكة ، ولكن مع فارق كبير وهو أنهم هنا في المدينة كثرت أطرافهم وتنوعت وسائلهم العدوانية واساليبهم الهدامة .

ولقد برزت تلك الأطراف متمثلة بأعداء الإسلام من أهل المدينة وما حولها يهوداً ، ومنافقين ، ومشركين ، مع قبائل العرب الأخرى التي كانت ما تزال تتربّص بالدعوة الدوائر . . فاليهود وقد

توزعوا أربعة أقسام : بنو قينقاع في داخل المدينة ،وبنو النضير ، وقريظة حولها وخيبر بعيداً عنها ، وكانوا أهل علم وكتاب سماوي ، وكان أولى بهم ، من الناس جميعاً ، أن يؤمنوا بالنبيِّ محمد «ﷺ» وأن يصدِّقوا بما جاء به من دين لا ينقضُ ما في كتابهم ، بل يؤكده ويوافق على ما يعرفونه من صفات هذا النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة . . ولكنهم لم يحفلوا بما في كتابهم ، بل غلبت عليهم طبيعة الأثرة ، وعزّ عليهم أن يبعث الله نبياً من العرب لا من اليهود ، وفي ظنهم أن المكانة الدينية لهم وحدهم لا ينازعهم فيها شعب ، ولا تشاركهم فيها أمة ، بل هي ميزة يحتكرونها ، ويتفردون بها على العالمين . . وقد أتاهم هذا الظن من اعتقادهم الخاطىء بأنهم « ابناء الله واحباؤه » بأنهم « شعب الله المختار » ، على الأرض ، فلا يمكن أن يكون الأنبياء والمرسلون إلاّ من اليهود .

وهكذا ولما بعث الله ـ سبحانه ـ محمد بن عبد الله نبيّاً ورسولا ، وبعدما رأوه بأم العين بين ظهرانيهم في المدينة ، دائباً على إرساء قواعد دولة الإسلام ، طار صوابهم ، وملأ الحسدُ نفوسهم ، وأكل الحقد والغيظ قلوبهم ، فاندفعوا يحاولون التشكيك في نبوّته ، وينشرون الأكاذيب والأباطيل حول رسالته ، وأخذوا يرددون في كل محفل وناد :

«لا! . . ليس محمّد هو الرسول الذي ننتظر . . وليس الدين الذى به ينادى هو الدين الموعود . . » ولكي يقرنوا القول بالبرهان ، وصل بهم الحسدُ الى تحريف كتابهم ، وطمس كل دليل فيه ، من

إشارة أو صفة أو اسم ، يؤكد نبوّته ورسالته .

ولم يقف بهتانهم عند هذا الحد ، بل أضمروا له العداوة والبغضاء ، وراحوا يؤججون لهيبهما كلما رأوا سلطانه يعلو ، ومكانته ترتفع ، ودعوته تنتشر ، حتى لم يعودوا يقوّوا على الاستخفاء ، فجاهروا بالعداوة مفصحين ، وصرحوا بالبغضاء معلنين ، وبالكفر والكيد والمكر موغلين .

ولقد أبان صفاتهم تلك أحدهم وكان حبرا عالما من كبار أحبارهم وعلمائهم ، قبل أن يهديه الله ويدخل في الإسلام .

ذلك هو عبد الله بن سلام ، الإنسان المؤمن حقّا ، الذي عَرَفَ مِن كتابه أن الله يبعث نبيّا ، معروفاً بصفاته وزمانه ، فلما سمع بصدوعه بالدعوة في مكة ، تريّث في السعي إليه ، حتى تتبين حقيقة هذا الرجل ، ويتضح له فيما إذا كان الذي يدّعي النبوة أو هو النبي المنتظر حقّا . . فلما انقضت سنوات طويلة ، وعرف أخباره التي انتشرت في الجزيرة العربية كلها ، أيقن حقّاً أنه النبي الموعود ، ولكنه لم يذهب إليه إلى مكة ، خوفاً من بني قومه ، حتى إذا عرف بقدومه ، ونزوله في قباء عند بني عمرو بن عوف ، إذ جاءه رجل يخبره بذلك ، وهو على رأس نخلة له = لم يتمالك نفسه أن صرخ بأعلى صوته مكبراً الله سبحانه . . وكانت تجلس تحت تلك النخلة ، عمة له تدعى خالدة بنت الحارث ، فدهشت لتكبيره ونادته من أسفل :

ـ « وواعجباً يا عبد الله ، لأُقسم أنك لو سمعتَ بموسى بن

عمران ، ما زدت ! » . .

فقال لها ، وقد بدأ ينزل من على الشجرة : « هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه . بُعث بما بُعث به » . . واطمأنت خالدة الى ما سمعت ، فقالت مستفسرة : « يا ابن أخي ، أهو النبيُّ الذي كنّا نُخبرُ انه آخر رسول تقوم بعده القيامة » ؟

قال : « هو ، والله يا عمتاه » .

قالت خالدة : « فذاك إذن » . . .

ولم يلبث عبد الله بن سلام ، أن ترك نخيله ، وتوجه مع عمته إلى حيث ينزل رسول الله ، فاجتمع إليه وأسلم على يديه هو وعمّته ، ثم رجع هانىء البال ، الى أهل بيته ، وأخبرهم بإسلامه ، بعدما أبان لهم حقيقة هذا الرسول الذي دخل في دينه ، وحقيقة ما أمروا به في التوراة من التصديق به واتّباعه . ثم ما زال يبينّ ويوضح الأمر لهم حتى اعتنقوا الاسلام ، ولكنه طلب إليهم ألاّ يُعلنوا إسلامهم ، حتى يحين الوقت لذلك . .

لقد كان عبد الله بن سلام يخاف من أذى اليهود له إن عرفوا باسلامه ، ولكنّه بعدما توسَّم خيرا في خطوات الرسول ﴿ﷺ﴾ ، وإقامته أُسس الدولة الاسلامية في المدينة ، أراد أن يحذره من شر أولئك القوم ، وبأنهم قوم زور وبهتان ، حتى يتخذ الحيطة اللازمة في تعامله معهم ، فقصده مفصحا عما يخالجه ، ثم يطلب إليه الوقوف على الحقيقة بنفسه ، ورجاه أن يبعث إليهم كي يأتوه ثم يسألهم عن عبد الله بن سلام ومكانته الدينية وقيمته وقدره في نفوسهم

ومن بعدها يعلمهم بإسلامه ، فيتبين له افتراؤهم على الحقيقة وتنكّرهم لها .

وأرسل النبيّ «ﷺ» الى اليهود فدخلوا عليه ، وكان قد طلب الى عبد الله ان يغيب عن أنظارهم ، فقال لهم النبيّ «ﷺ» : « يا معشر يهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلاَّ هو إنكم لتعلمون أني رسولُ الله حقّاً وأني جئتكم بحق ، فأسْلموا » !

فقال كبيرهم : ما نعلمه ..

وردّد اخرٌ من بعده : ما نعلمه ..

ثم أعقبه غيرُه : ما نعلمه ..

فسألهم النبيُّ «ﷺ» : « فأيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ » .

قالوا : « سيدنا وابن سيدنا ، وأعْلمُنا وابنُ أعْلمنا » ..

قال النبيّ «ﷺ» : « أفرأيتم إنْ أسْلم » .

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليُسلم » ..

قال عندها النبيّ «ﷺ» : « يا ابن سلام ، اخرج عليهم » ..

فخرج وخاطبهم بقوله : « يا معشر يهود ، اتقوا الله . فوالله الذي لا إله إلاَّ هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، باسمه وصفته . وإني أشهد أنه رسولُ الله ، وأؤمنُ به وأصدّقه » .

فقالوا له : « كذبت .. إنك شرُّنا وابنُ شرِّنا » : ..

فنظر عبد الله إلى الرسول «ﷺ» وهو يقول : « هذا الذى كنت أخافه يا رسول الله » ..

ولم يكن عبد الله بن سلام وحده الذي حفظ التاريخ شهادته على إفك اليهود وبهتانهم ، فإن من بعده صفية بنت حيّ بن أخطب من بنى النضير ، التي صارت فيما بعد زوجا لرسول الله «ﷺ» تروى أنها في حداثتها لم يكن أحد من وُلْد أبيها وعمِّها أحبَّ إليهما منها ، لم تلقهما في وُلْد لهما قطّ ، تهشُّ إليهما إلاَّ وأخذاها دونه ، حتى كان يوم قدم رسول الله «ﷺ» قُباء ، قرية بنى عمرو بن عوف ، فغدا إليه أبوهاوعمُّها أبو ياسر بن أخطب مُغْلسين وما عادا إلاَّ مع مغيب الشمس ، ولكنْ في حالة فتور وكسل ، ساقطين ، يمشيان الهوينى ، فهشَّت إليهما كما كانت تصنع ، فما نظرَ إليها واحد منهما ، ثم سمعت عمَّها أبا ياسر يقول لأبيها : « أهو هو » ؟ .

فيقول أبوها : « نعم والله » ! ..

فيقول العمُّ : « تَعرفه بنَعته وصفتِه » ؟

فيقول أبوها : « نعم والله » .

فيقول العمُّ : « فماذا في نفسك منه » ؟ .

فيقول أبوها : « عداوتُه والله ما بقيت » ! ..

فتلكما شاهدان في التاريخ ، من أبناء اليهود أنفسهم قبل أن يسلما ، يؤكدان ما اتخذت جماعة اليهود في المدينة من موقف عدائي حيال الإسلام ورسوله ..

ولم يقف اليهود وحدهم في موقع العداوة تلك، بل المنافقون أيضا كانوا مثلهم، وهم الذين قالوا: «آمنّا»، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهؤلاء أشدّ خطرا، لأنهم في ظاهرهم كانوا يشاركون المسلمين جميع شعائرهم، فيصلّون معهم ويصومون، ولكنهم كانوا في باطنهم ألدّ أعداء الاسلام وأهله. وقد تفاوتت نظرتهم إلى الاسلام، بتفاوت مصالحهم الذاتية، ومآربهم الخاصة. ففريق كره الاسلام لما فوّت عليه من فرص النفع المادي الملتوي، وآخر لما رأى فيه من خطر على هدم معتقداته المزوّرة، واقتلاعها من جذورها، وآخرون رأوا في المهاجرين دخلاء على المدينة، وعُنصرا غريبا يجب العمل على إخراجه لأنه يقوي أعداءهم.

هذه كانت افكارهم فيما أبطنوا. وهي التى زينت لهم كذبا عدم قدرة الاسلام على الانتصار على اليهود والوثنيين. ولكن خشية أن يتورّطوا في هذا الاتجاه أو ذاك، آثروا الانتظار والترقب، حتى يروا مايكون من أمر محمد بن عبد الله (ﷺ) وما يحمله من أفكار وخطط. حتى إذا تبين لهم أنه يزداد قوة يوما بعد يوم، وأن سلطانه في المدينة يتوطّد، أخذ بعضهم يتظاهر بالدخول في الاسلام نفاقا، وليتّقوا بهذا الدخول شرّ العداوة الظاهرة. وقد برزت هذه الفئة المنافقة بين صفوف المسلمين في المدينة فقط، في حين لم تعرفها مكة من قبل. ولعلّ الوضْع والحالة التي كان عليها المسلمون يومئذ من الضعف في مكة لم يترك مجالا لمنافق يدخل في الاسلام كى يتخفّى وراء حيله وأكاذيبه، فظهر المسلمُ مسلما، والوثني وثنيا، دون نفاق، ما دام المنافق لا يتظاهر باعتناق عقيدة إلاّ رغبة او رهبة،

وإن أسقطت أيام مكة بعض النفوس الضعيفة ، التي جذبها الإسلام وبصورة طبيعية ، حتى إذا وقع أصحابه في المأزق ، عافت ذلك الانجذاب ، بل وغلّقت الأبواب دونه ، حتى تنعم بالطمأنينة في ظل قريش ، ولذا لم تشكل تلك الفئة القليلة الساقطة أي خطر على المسلمين هناك ، بخلاف ما هو عليه الآن في المدينة ، فإن المنافقين الذين يندسون في صفوف المسلمين ، لمعرفة أسرارهم ، والاطلاع على خفاياهم ، كانوا يرمون إلى ذلك من أجل أن يمدّوا بها اعداءهم ، وليتيحوا لهؤلاء رسم الخطط لمحاربة الإسلام . . ولقد ظهر من المنافقين أشدهم شرا ، عبد الله بن أبي بن سلول ، إذْ حنقَ على الاسلام وعلى رسول الله «ﷺ» أشد الحنق ، بعدما فقد الأملَ الذي كاد أن يحققه ، عندما أوشك الأوس والخزرج أن يملّكوه عليهم في المدينة لولا أن قدمها رسول الله «ﷺ» وثّبت فيها أقدامه ، فآمنوا به وبدعوته ، وصدّقوه وآمروه عليهم ، وتخلّوا عن ابن أبي بن سلول ، وعن تمليكه عليهم ، وتركوه وشأنه ، لما وجدوا الفارق كبيرا بين ملكه وبين إيمانهم بالله الواحد . الذي أرسل اليهم نبيا هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

وإلى عداوة رأس النفاق ومَن دار في فلكه من المنافقين واليهود ، اجتمعت عداوة الأعراب الذين كانوا يحيطون بالمدينة ، ويقيمون في الطرق الواقعة بينها وبين مكة . فهؤلاء ظلوا على الشرك ، كالأعراب الآخرين ، المنتشرين في أنحاء الجزيرة العربية كلها، طالما أن الإسلام لم يقو بعد على قهر شركهم ووثنيتهم تلك هي الأطراف او الفئات التي تواجدت في المدينة او حواليها ، يوم دخلها

الاسلام بقيادة رسوله الكريم .

وقد اختلفت تطلعاتها باختلاف معتقداتها وخلفيات أفكارها ، فتباينت في الائتلاف مع المجتمع الذي أرسى قواعده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وإلى تلك الأطراف ، تضاف فئة صغيرة من عرب الأوس والخزرج ، كانت قد ظلت على الشرك ولم تدخل فى الاسلام . ولكنّها بحكم عنصريتها القبلية ، واشتراكها في العادات والتقاليد مع أبناء قومها ، الذين صاروا في الغالبية من المسلمين ، كان لا بدّ لها أن تخضع في علاقاتها العامة ، للأفكار وللمشاعر الاسلامية ، وأن تنضوي تحت لواء النظام الاسلامي ، وإن لم تدخل فى الدين .

تلك هي الأطراف والفئات التي كانت موجودة في المدينة يوم بدأ الرسول بتأسيس النظام الاسلامي فيها . وقد تباينت مواقفها من هذا النظام تبعا لخلفيّات معتقداتها التي ظلت متحكمة فيها ، ولنوازعها الشخصية التي أرادت المحافظة عليها ، ومن هنا ظهرت مقدرة الرسول العظيم السياسية فى إقامة النظام الاسلامى رغم تعدّدية الجماعات في البيئة الواحدة .

ولقد برزت تلك المقدرة السياسية في الكتاب الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار وفيه واعد اليهود وعاهدهم واشترط عليهم وشرط لهم ، بما يشكل وثيقة لصيانة الحقوق ، ولا سيا حقوقهم فى حرية المعتقد الديني ، ضمن النهج الواحد ، الذي تطبق قواعده على الجميع .

ولقد جاء في الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من محمد النبيِّ نبي المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (استقامتهم) يتعاقلون بينهم وهم يَفْدون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ـ ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بني الحارث ، وبني ساعدة ، وبني جُشم ، وبني النجار ، وبني عمرو بن عوف ، وبني النَّبيت إلى أن قال : ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً (المثقل بالدين والعيال) بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتّقين على من بغى منهم او ابتغى دسِيعة ظُلم (طبيعته) أو إثم أو عدوان او فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يَقتُل مؤمنٌ مؤمناً بكافر ، ولا ينصرٌ كافرا على مؤمن . وإن ذمّة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم . وأنه من تبعنا من يهودَ فإن له النصر والأسوة (المساواة) غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم . . وأنّ كل غازية غزت معنا يعقُب بعضُها بعضا . وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن . . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مرده إلى الله والى محمد (عليه الصلاة والسلام) . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين . لليهود دينهم

وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلاَّ من ظَلَم أو آثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته . . وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحدُ إلا بإذن محمد (ﷺ) وأنّه لا يتحجّر (لا يلتئم) على ثأر جرحٌ . وأنه من فتك بنفسه وأهل بيته إلاَّ من ظلم . . وأن الله على مَنْ أبرّ هذا. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . . وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم . وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وأن النصر للمظلوم . وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم . وأنه لا تجارُ حرمة إلا بإذن أهلها . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإنَّ مردَّه إلى الله والى محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأن الله مع من ما في هذه الصحيفة وأبرّه . وأنه لا تجارُ قريش ولا من نصرها . وأن بينهم النصر على من دهمَ يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبّسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وأنهم اذا دعوّا الى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا مَنْ حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم . وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة . وأنَّ البر دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلاّ على نفسه . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم : وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأنَّ الله جارٌ لمن برّ واتّقى » .

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها النبيُّ محمد بن عبد الله،

﴿ﷺ﴾ منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، والتي تقرّر الحقوق المدنية والسياسية ، وتحرّم الجريمة ، وتدعو الى الوفاق والوئام ، وإلى تقوى الله وبرّه ، وإلى كل ما يكفل للإنسان حياة مليئة بالقيم والمثل وسليمة من الشوائب والرذائل ويكفي أن تقرّر هذه الوثيقة حرّية العقيدة لأهل الكتاب السماوي ، حتى يبرز الإسلام سمحاً ، معطاء ، غايته التكامل الإنساني في الأرض ، وعبادة الله وتقديسه وحده ، في الأرض والسماء . .

وهذه هي الوثيقة التي حدّدت القواعد العامة أيضاً للعلاقات بين مختلف الفئات والجماعات التي تعيش في المدينة . فصارت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها ، عليهم أن يدافعوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها ، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قرّرت هذه الوثيقة من الحقوق والضمانات ، كما عينت هذه الوثيقة الحدود التي يلتزمها كل فريق ، حتى لا تترك دون قيود أو ضوابط قد يساء استعمالها أو يؤدي إلى استغلالها وإشاعة الفوضى بما لا يتفق والمصلحة العامة ، ولذا كان لا بد من قيود لضبطها حتى تأتي متوافقة متفاعلة مع تلك المصلحة . . . فكان التحريم في الوثيقة لأي انتهاك لحرمة المدينة بحرب او بنصرة على حرب ، والتحريم على اليهود خاصة ، أن يجيروا قريشاً ـ عدوّة الإسلام ، المتربصة في مكة للانقضاض والقضاء عليه ـ كما كان التحريم لأي فساد أو ظلم ، والتشديد ، في كل حدث أو خلاف على اتقاء وجه الله ، وأن يكون الفصل في كل الامور للحاكم الأوحد في المدينة ، الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولقد وقّع على تلك الصحيفة جماعات اليهود التي ذكرت فيها ، كيهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة وبني جشم ، وبني الأوس ، وبني ثعلبة .. أما الآخرون منهم ، الذين لم يشتركوا في تلك الصحيفة ، أمثال بني قريظة ، وبنى النضير ، وبني قينقاع ، فإنهم عادوا وعاهدوا الرسول «ﷺ» على الانصياع لأحكامه وأوامره ، فعقد معهم صُحفاً مماثلة ، وبذلك سُوِّيت العلاقات بين جميع أهل المدينة ، ولم يبق نفرٌ أو قبيلٌ إلاَّ وقد عرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات ..

وبتوقيع هذه الصحف ، وما انبثق عنها من علاقات جديدة لم تعرفها المدينة من قبل ، اطمأن الرسول العظيم «ﷺ» إلى هذا الفتح الجديد من الله سبحانه ، الذي أيَّده به وحَباه بالعزة والمنعة كي يقيم دعائم مجتمعه الذي يريده ، وركائز دولته التي يعمل على تأسيسها ، والتي سوف يكون هدفها الأعلى نشر دين الإسلام لا في ربوع الجزيرة العربية وحسب ، بل في بقاع الأرض وأمصارها ما دامت للمسلمين إرادة يتوجهون فيها إلى الله تعالى .

في هذه الفترة كان الوحي ينزل على النبي «ﷺ» بالتشريع الذي يدعِّمُ نظام المجتمع الذي يبنيه . فأوحى إليه بالأذان[1]

(١) مهما تكن الملابسات او التفصيلات حول الأذان وبيان جزئياته ، فإنه لا يمكن ان يكون إلاّ بأمر من الله لأن الأذان شعار من شعائر الاسلام ، وبه تُعرف الجماعات الاسلامية اينما وجدت . وما يكون كذلك لا يمكن ان يترك لشورى المسلمين أو اجتهاداتهم كما ذكرت بعض السِّير .. كما وأن الأذان بحد ذاته ، عبادة ، والعبادة لا تُعرف اجزاؤها إلاّ بوحي من الله تعالى لنبيه الكريم ، لا برؤيا لغيره ، مهما كانت مكانة هذا الغير في الإسلام ، فقد نزل به جبرائيل الأمين عليه السلام على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فعلّمه للناس ..

للصلاة . . وصار أهل المدينة يسمعون كل يوم ، دعوة تتردد خمس مرات ، يطلقها بلال بن رباح مرتَّلةً بصوت رخيٍّ ساحر أحسن ترتيلٍ ، فتنقلها الرياح نشوى ، وتحملها إلى الآفاق البعيدة تترنم بها مغناةً للحق الأزلي وتتلقفها الأسماع لتهزَّ القلوب معلنة : « الله أكبر . . الله أكبر » . أكبرٌ من أن يوصف ، وأكبر من الوجود وخلائقه ، ومن الكون وعوالمه ، لأنه سبحانه خالق الوجود ، وخالق الكون وخالق الوصف والنعوت . .

وبمثل هذا الاطمئنان الرائع ، أوتي النبي «ﷺ» قوة معنوية جلبت إلى نفسه الاطمئنان إلى سلامة السير والمسيرة وجعلته يفكر في ترتيب شؤونه الخاصة . .

فتلك عروسه عائشة التي عقد قرانه عليها منذ ثلاث سنوات في مكة ، قد قدُمت المدينة ، وليس مستحسناً أن تبقى عند أهلها ، خاصّة وقد صارت مؤهلة لدخول بيت الزوجية . فبنى بها الرسول «ﷺ» في شهر شوال ، وكان لها نعم الزوج الشفوق الرفيق ، وكانت له نعم الزوجة التى تسلّيه عن دائم تفكيره في العبء العظيم الذي أُلقي عليه ، وفي سياسة المدينة التي بدأ يوجّهها نحو حياة جديدة .

الحيَاة في المَدينَة

للإسلام طريقته الخاصة في الحياة . . وعلى تلك الطريقة تقوم الحضارة الاسلامية ، التي تختلف عن حضارات الدنيا ، والحضارة هي جمع مفاهيم عن الكون والإنسان والحياة وما قبل ذلك وما قد يعقبه ، وتتلخص طريقة الاسلام في الحياة بأمور ثلاثة :

أولها : أن الأساس الذي تُبنى عليه ، هو العقيدة الاسلامية .

وثانيها : أن مقياس الأعمال في الحياة يتحدد تبعاً لأوامر الله ونواهيه ، أو بعبارة أخرى إن تصوير الحياة في نظر الاسلام يبرز في إطارين متناقضَين أحدهما يحتوي الحلال وما ينبثق عنه من خير ، والآخر ينطوي على الحرام وما ينجُم عنه من شر .

وثالثها : أن معنى السعادة يختصر بمشاعر الطمأنينة الدائمة ، وهذه لا تتحقق إلا برضوان الله تعالى . هذه هي طريقة الإسلام في الحياة . . وهذه الحياة التي ينشدها المسلمون طلباً للسعادة والسير على نهجها . . ولأجل أن تكون لهم مثل هذه الحياة لابد وأن تكون لهم دولة تطبق الإسلام وتنفِّذ أحكامه . .

والمسلمون حين انتقلوا إلى المدينة المنوَّرة بدأوا يعيشون على هذا النهج الذي تأسَّسَ على العقيدة الاسلامية . وكان القرآن

الكريم يتنزَّل تِباعاً على النبيِّ «ﷺ» لتبيِّن آياتُه العظيمة حُكم الله في المعاملات والعقوبات ، ولتكمِّل مالم يُنزَّل بعدُ من العبادات .

فلما جاءت السنة الثانية للهجرة ، نزلت فرائض الزَّكاة والصِّيام .. فالزكاةُ فُرضت تقريراً لقاعدة التكافل العام بين جميع أفراد المجتمع ، فلا يبيت فرد على جوع ، ولا ينامُ آخر على تخمة .. والصيام شُرِّع تقوية للإرادة الفردية ، وتربيةً للنفس على التحمُّل والصبر ، وإرهافاً للإحساس الإنساني نحو الفقير والمسكين .. وهما فرضان شُرِّعا كما يبدو من وضوحهما وصراحتهما لحمل الإنسان على التكامل في حياته ..

وفي هذه الأجواء التي تعبق بشذى اتصال السماء بالأرض تحوَّلت قبلة المسلمين عن بيت المقدس إلى الكعبة المكرَّمة في مكة ، وكان لم يمض على مكوث النبي «ﷺ» في المدينة أكثر من سبعة عشر شهرا ..

وظلت الآيات تترى نزولا مع الوحي الكريم ، لترسم للمسلمين كلَّ خطوة في العبادات والمباحات والمحرَّمات والأخلاق والمعاملات ..

فنزل تحريم شرب الخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بهِ .

كما نزلت الآيات التي تبيِّن حدودَ الله ، والجنايات ، وأحكام البيع ، وتحريم الرِّبا ، وما إليها من الأحكام التي تعالج مشاكل الحياة بأسرها ..

وكان الرسول العظيم «ﷺ» يتلقّى الوحي ، ثم يبلّغ الناسَ ، ويفصِّل الأحكام التي يتلقّاها ، ويبين صورها ومفاهيمها وآثارها ، ثم يقضي في أمور الناس ، ويعالج مشاكلهم ، ويدّبر شؤونهم ويَفْصِلُ في خصوماتهم على ضوء تلك الأحكام وبالاستناد إلى مضامينها .

وأكثر ما يدهش الإنسان في هذه الحقبة من الدعوة الإسلامية ، هو اهتمام السماء بالأرض ومراقبة الناس الذين يدورون في فلك رسول الله «ﷺ» في دقائق حياتهم وأبسط شؤونهم . وتلك عناية الله سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة التي تشمل الناس أفراداً وجماعات ، لتضع من خلالها الأسس السليمةَ القويمةَ للحياة عامة . .

وتتجلى تلك الرحمة الإلهية في العناية بالمسلمين آنذاك ، في حادثة خولة زوجة أوس بن الصامت من الأنصار ، التي كانت ذات حسن وجمال ، وقد رآها زوجها ساجدةً في صلاتها فراقت له ، حتى إذا فرغت من صلاتها دعاها إليه فأبت عليه . . ويبدو أنه كان امرأ سريع الحكم ، إذا استبدَّ به الغضب ، يجعل خُلق الجاهلية يسيطر عليه ويتحكّم به ، فلمْ يكنْ منه في سورة غضبه إلاّ أن قال لها : « أنتِ عليَّ كظهْرِ أمِّي » . . وكان هذا الظِّهار من طلاق الجاهلية . . ثم لم يلبث أن استعادَ وعيه ، فندم وقال لها :

ـ ما أظنك إلاّ وقد حُرِّمْت عليّ .

ودهشت المرأة وصرخت في وجهه : لا تقل ذلك . .

وحار الرجل فيما يفعل ، فأشارت عليه أن يذهب إلى رسول

الله «ﷺ» حتى يُفتيَه في أمره .

ولكنّ الرجل أبى استحياء من رسول الله «ﷺ» وخجلاً من سؤاله في هذا الأمر . فما كان من المرأة إلاّ أن قالت : « أنا أذهب إلى رسول الله «ﷺ» وأسأله . . » .

وجاءت خولة إلى بيت الرسول «ﷺ» فوجدته يغسل رأسه الشريف ، وزوجه عائشة تصب له الماء . فقالت له : ـ يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة جميلة ذات مال وأهل ، حتى إذا أكل مالي وافنى شبابي وتفرق أهلي وكَبُرَ سني ، ظاهر منِّي ، وقد ندم ، فهل من شيء يجمعني وإياه فتنعشني به . » .

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم إنه يَرى أنها حَرُمت على زوجها .

فقالت : يا رسول الله ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو أولادي وأحبُّ الناس إليَّ .

ورأى الرسول «ﷺ» شدة انفعال المرأة ، وحُرقتها مما فعل زوجُها لسبب ندمَ عليه ، فقال لها : « لم أُؤْمَر في شأنك بشيء يا امرأة » .

ولكنها أبت إلاّ أن تحصل من النبيِّ «ﷺ» على حلٍّ لمشكلتها . فجعلت تشكو إلى الله فاقتها وحاجتها وشدة حالها وهي تتضرع قائلة : اللّهمَّ فأنزل على لسان نبيك ما تُنعش به أملي ، وتسكن فيه روعي . .

وكانت عائشة (رضي الله عنها) ترقب ما يدور ، فإذا المرأة تَلُحُّ في الطلب وتُلِحُّ في الدعاء ، فقالت لها :

ـ اقصري يا امرأة حديثك ومجادلتك أما ترَين وجهَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ ؟!..

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أنزل عليه الوحي ، أخذه مثل السُّبات .. فسكتت المرأة ، وراحت ترقُب رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتى إذا انتهى الوحي ، طلب إليها أن تذهبَ وتدعوَ له زوجها . وطارت المرأة على جناح السرعة ، تدفع زوجها دفعا حتى أتت به رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فقرأ عليه الرسول الكريم ما أنزل الله سبحانه من وحي بشأن قصته :﴿قَدْ سمع الله قوْل الّتي تجُادلُك في زوْجها وتشْتكي إلى الله ، والله يسْمعُ تحاوُركُما ، انّ الله سميّع بصير . ألّذيْن يُظاهرُوْن منْكُمْ منْ نسائهمْ ما هُنَّ أُمّهاتهمْ إنْ أُمّهاتُهُمْ الاّ اللائي ولَدْنهُمْ وانّهُمْ ليقوْلُوْن مُنْكرا من الْقوْل وزُوْرا وإنّ الله لعفُوٌّ غفُور . والّذيْن يُظاهرُوْنَ منْ نسائهمْ ثُمَّ يعُودُون لما قالُوا فتحْريْرُ رقبة منْ قبْل أنْ يتماسّا ذلكُمْ تُوعظُوْن به ، والله بما تعْملُوْنَ خبير . فمنْ لمْ يجدْ فصيامُ شهْريْن مُتتابعيْن منْ قبْل أنْ يتماسّا ، فمنْ لمْ يسْتطعْ فاطْعامُ ستين مسْكينا ذلك لتُؤْمنُوا بالله ورسُوله ، وتلْك حُدُودُ الله ، وللْكافرين عذاب أليم . إنّ الّذيْن يُحادُّون الله ورسُولهُ كبتوا كما كُبت الّذيْن منْ قبْلهم وقدْ أنْزلْنا آيات بينات وللْكافرين عذاب مُهينٌ﴾ .

يا سبحان الله !..

فمَن من الناس لا يقشعرُّ بدنه ، وترتجف أوصاله ، وهو يسمع قول الله تعالى . . الذي من عليائه كان يرقب جدال خولة زوجة أوس بن الصامت لرسول الله «ﷺ» ويتلقى شكواها . . إنه من فوق عرشه يسمع تحاورها مع الرسول «ﷺ» ، لأنه سميع قريب . . نعم ، من لا ترتعد فرائصه خوفاً ووجلا وهو يعلم أن الله يرقبه في كل حركة يقوم بها ، وفي كل قول يقوله ، وفي كل تحاور يجريه ! . . أوَ يعلم الإِنسانُ ذَلك ، ويجرؤ على قول بهتان أو زور ، أو على فعل حرام أو منكَر ؟ ! . . . ومن يفعل فإنه يسيء لنفسه وتحلُّ به مصيبة خاصة به . أمَّا من يفعل ذلك لوطنه ، أو لدينه ، أو لأمته ، فتلك هي المصيبة العظيمة . . إيه أيها الانسان ، تفكَّر أن الله سبحانه دائماً معك ، يرقبك في كلِّ قول وفعل ، إنه يسمع حوارك ، ويسمع همسات نفسك وخلجات صدرك ويرى فعلك إن الله سميعٌ بصير . . فهلاً اتَّقيت الله وخجلت من خالقك فلا تفعل إلاَّ خيراً ؟ . . .

تلك هي ظلال الرحمة التي كان يحفُّ بها الله سبحانه وتعالى نبيهُ الكريم ، فلا يترك شاردة ولا واردة ، إلاَّ ويُنْزل عليه بها حكماً يسري على مَدى الدهر ، وهو الحُكم الإلهيُّ العادل ، الثابت ، الذي لا يتغيَّر مهما دار الزمان ، أو اختلف المكان ، ولذا كان حلالُ محمد «ﷺ» حلالاً إلى يوم القيامة ، وحرامه حراما إلى يوم القيامة .

أجل كان الرسول العظيم يتلقى نغمات الألوهية ، ويتفيأ في

ظلال الرحمة الربانية ، فينشر آيات الله أقوالا وفعالا تكرّس لنا شريعة ثابتة ، وسنّة نبَويّـة دائمة ، لأنه في كل أقواله ، وفي كل فعاله ، كان لا يقول إلاّ الحق ، ولا يفعل إلاّ الحق الذي نزل إليه من الاله الحق ، لأنه لا يَـنْطِقُ عَن الهوى ، إنْ هُـو إلاّ وحْىٌ يـوْحى . .

ومن جميل أقواله ، وحسن فعاله ، بنى الأساس الذى وضعه للحضارة الجديدة التي كان يقيمها والتى تتلخص فى إجابته لعلى بن أبي طالب (رضي الله عنه) حين سأله عن سُنّته ، فقال : « المعرفة رأسُ مالي ، والعـقلُ أصـلُ ديـني ، والحـبُّ أسـاسي ، والشـوق مـرْكبي ، وذكرُ الله أنيسي ، والثقـةُ كنـزي ، والحـزنُ رفيقـى ، والعلْـمُ سلاحـي ، والصبرُ ردائـي ، والرِّضـا غنيمتـي ، والفقرُ فخري ، والزهدُ حـرْفتي ، واليقينُ قوتـي ، والصـدقُ شفيعـى ، والطاعةُ حسبي ، والجهادُ خُلقي ، وقـرّةُ عيني في الصلاة » .

هكذا كان رسـول الله ﴿ﷺ﴾ محمـد بن عبـد اللـه = بذاتـه وبتصرفاته = المثل الأعلى للتعاليم التي أرادها ، ولقّنها لابن عمه على ابن أبـي طالـب ، سنّـة نبـويّة ، إنسـانية ، هي حجـر الأسـاس للحضارة الإسلامية . .

وقد قرن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قوله بالفعل فأبى أن يظهر فى أى مظهر من مظاهر السّلطان أو المُلك أو الرياسة الزمنية ، بل كان يردد على مسامع أصحابه :

« لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنـا عبـدُ الله ، فقولوُا عبد الله ورسوله » . وخرج على جماعـة من أصحابـه

متوكئا على عصا ، فقاموا له ، فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظِّم بعضهم بعضاً . . وكان اذا بلغ مجلساً من مجالس أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حِجْره ، ويُجيب دعوة الحر والعبد والأمةِ والمسكين ؛ ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويَقبل عُذر المعتذر ، ويبدأ من لقيهُ بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس اليه أحد وهو يصلي إلا خفَّف صلاته وسأله عن حاجته . فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

وكان في حياته الخاصة يُطهِّر ثوبه ويرقعُه ، ويحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويخدُم نفسه ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين . وكان إذا رأى أحدا في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة .

ولم يقف بالبر والرحمة اللذين جعلهما دعامة لخُلقهِ الذي يستقي منه خلق كل إنسان كامل ، وأساساً لحضارته التي تتزود منها الحضارات ، بل عدَّاهما إلى الحيوان كذلك فكان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأً ، أو يقوم على تمريض ديكٌ مريض ، وكان يمسح جوادَه بكمِّ قميصه . . حتى شملت رحمته كلَّ ما اتصل بها ، وأظلّت كل من كان في حاجة إلى تفيؤ ظِلالها .

وهكذا كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ المثالَ الأعلى والقدوة السامية للمسلمين ، ولغير المسلمين ممن أراد أن يحتذي بسنَّته ، وبالفعل لقد تأثر الكثيرون بهذه السنة الشريفة فأقبلوا على الإسلام ، يزداد

بهم قوة ، ويعلو بهم شأواً .. فانطلقت الحياة فى المدينة على طريقة الإسلام فكراً وقولاً وممارسة عمل ..

وأقبل المسلمون في غالبهم ، على ملازمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعلمون أحكام دينهم ، ويحفظون آيات القرآن ويتثقفون ويتربّون على سنّة الله ورسوله ..

ولكنَّ هذا الوضعَ بدأ يُخيف غير المسلمين من يهود ومنافقين ، فراحوا يفكرون من جديد في موقفهم من محمد «ﷺ» ودعوته .. فهل يتركون هذه الدعوة تنتشر ، وسلطانها الروحيّ يمتد مكتفين بالأمن في جواره ، فيجيء الوقت الذي يطغى فيه هذا السلطان على تعاليمهم ، ومصيرهم في بوتقته المتماسكة ؟!...

لا !...

لن يقعد اليهود وأشياعُهم ساكتين على هذه الحال .... ولكن ما السبيل إلى محاربة محمد بن عبد الله وهو لم يعد ذاك الضعيف الذي عَهِدَه الناسُ في مكة ، تَـقْوَى عليه قريش في كلِّ أمر ناصبته به العداء ؟!...

وإن السلاح الأقوى لمحاربته هو الدسيسة والنفاق . فدسَّ اليهود من أحبارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يُظهر غاية التقوى ، ثم ما يلبث = حينا بعد حين = أن يبديَ من الشكوك والرِّيَب ويُلقي على محمد «ﷺ» من الاسئلة ما يحسبه يزعزع من أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التي يدعو إليها .

وفطن المسلمون لأمر خصومهم ، وعرفوا غاية سعيهم ، ورأوهم يوماً في المسجد يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم الرسول «ﷺ» فأُخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً . ولم يثنهم ذلك عن كيدهم ، فسعوا إلى الوقيعة بين المسلمين . . . فقد مرَّ أحدهم « شاس بن قيس » على نفر من الأوس والخزرج في مجلس يجمعهُم فغاظه صلاحُ ذاتِ بَيْنهم وقال في نفسه :

« قد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد ، وما لنا معهم اذا اجتمع ملأهم بها من قرار » . وأمر فتى شاباً من اليهود كان معه أن يندسَّ بينهم حتى اذا انتهز فرصة ذكر فيها يوم « بعاث » وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج . . ونفذ الفتى ما أمر به ، وما أن سمع القوم بذكر ذلك اليوم اللعين حتى تنازعوا وراحوا يتفاخرون ويتخاصمون ، فقال بعضهم لبعض : « إن شئتم عُدنا إلى مثلها » . .

وبلغ محمدا «ﷺ» خبرهم ، فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه ، يذكِّرهم بما ألَّف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين ، ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً .

لم تُجْدِهم هذه الدسائس نفعاً ، فتحوَّلوا إلى أساليب في العداوة أكثر وضوحاً ، فصاروا يأتون النبيَّ «ﷺ» إما منكرين نبوّته أو طالبين معجزات تُثبت هذه النبوَّة . فجاءه أبو صلوبا

الفطيوني وقال له :

« يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها » . فأنزلَ الله تعالى في ذلك قوله : «ولقدْ أنزلْنا إليْكَ آيات بينات وما يكْفُرُ بها إلاَّ الْفاسقُوْن » .

وجاءه رافع بن حُريملة ووهب بن زيد يقولان : « يا محمد ، ائتنا بكتاب تنزِّله علينا من السَّماء نقرأه ، وفجِّرْ لنا أنهارا نتبعك ونصدقْك » ! . . .

فأنزل الله تعالى في ذلك : «أمْ تريْدُون أنْ تسْألُوا رسُولكُمْ كما سُئلَ موسى منْ قبْلُ ومَنْ يتبدّل الْكُفْر بالإيْمان فقدْ ضلَّ سواء السَّبيل » .

ورأى هؤلاء السفهاء في صرف القِبْلة إلى الكعبة الشريفة منفذا للإيقاع برسول الله ﴿ﷺ﴾ ، لأنه ينقُض ما جاء في الكتب السماوية السابقة ، ويستنُّ لنفسه أموراً لا تأتلف معها ، فاجتمع وفد منهم ، وفيه رفاعة بن قيس ، وقَرْدَم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع بن أبي رافع ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقيق ، وأخوه كنانة ، وأتوا محمداً ﴿ﷺ﴾ قائلين :

« يا محمَّد ، ما ولاَّك عن قبلتِك الَّتي كنتَ عليها ، وأنت تزعم أنك على ملَّة ابراهيم ودينه ؟ إرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتَّبعك ونصدِّقك ـ وإنما كانوا يريدون بذلك فتنة ـ ، فأنزل الله

تعالى فيهم : « سَيَقُولُ السُّفهاءُ منَ ٱلنَّاس مَا وَلأَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتي كانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لله الْمَشرقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلىَ صِراط مُسْتَقِيم . وكَذٰلِكَ جَعلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتكُونُوا شُهداء عَلىَ ٱلنَّاس وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شهيداً ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُول مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلىَ عقِبَيْه » . . .

وقال سبحانه وتعالى : «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ ٱلْحَرَام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَه وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أنهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا الله بِغَافِلٍ عما يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب بِكُلِّ آيَة مَا تبِعُوا قِبْلتَكَ وَمَا أنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْض ، وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْم إنَّكَ إذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . .

فالله سبحانه وتعالى ، لا يبيِّن كذب المنافقين ، وفسق الفاسقين وحسب ، بل يحذِّر رسولَه العظيم من اتِّباع أهوائهم ، لأن العلم الذي جاءَه من ربه هو فوق كل علم ، والحق الذي بعثه به هو وحدَه الحق وليس ما يمترون . . .

ولم تُقنع آيات الله البينات أولئك المنافقين الفاسقين ، بل ازدادوا غيّاً في جدالهم للمسلمين حتى بلغ أحياناً حدَّ الاعتداء بالأيدي ، برغم ما كان بينهم من عهد . وحسبنا لتقديرِ ما وصل إليه

إفك تلك الفئات الباغية أن نذكر أن أبا بكر (رضى الله عنه) على ماكان عليه من دماثة الخلق وطول الأناة ولين الطبع ، تحدث إلى يهودي يُدعى « فنحاص » يدعوه إلى الإسلام ، فردَّ « فنحاص » بقوله : « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرّع إليه كما يتضرع إلينا . وإنّا عنه أغنياء وما هو عنا بغني . ولو كان غنيّا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويُعطيناه ، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا » (ولقد أراد فنحاص هنا أن يشير الى قول الله تعالى : «مَنْ ذا الَّذِيْ يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كثيرة » . ولكنَّ أبا بكر (رضي الله عنه) لم يطق على هذا الجواب صبرا ، فغضب وضرب وجه « فنحاص » ضرباً شديداً ، وهو يقول له :

« والَّذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوَّ الله » . .

واستغلَّ اليهود هذه الحادثة ، وأنكروا قولة « فنحاص » لأبي بكر (رضي الله عنه) ، وراجوا يشيعون الدسيسة بأنَّ المسلمين يعتدون عليهم بهتاناً ، فجاءت الآيات من الله تكذِّبهم وتتوعدهم بعذاب الله على سوء ما يفعلون : «لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذينَ قَالُوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِحَقٍّ، ونَقولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق » .

وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ = مهما بلغ بأولئك المنافقين الفاسقين الشططُ والزلَل ، ومهما غلَوْا في عناد الحق = لا يحيد أبدا عن دعوتهم

إلى الاسلام وترغيبهم فيه . . ولكن أنّى لنفوس امتلكها الشرُّ والدنس أن تحيد عن غيها وسفاهة أحلامها . . فقد كانوا في كلِّ مرة يدعوهم الرسول الأعظم إلى الحق ، يعكسون الآية ويحاولون فتنته ، أو يردّون عليه بالرفض المطلق محتجّين بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه اباءهم = فهم كانوا أعلم منهم وخيراً منهم ـ كما قال رافع بن جارحة ، ومالك بن عوف لرسول «ﷺ» = فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك : «واذا قيل لَهُمُ أتبعُوا مَا أنزَلَ الله ، قالُوا بَلْ نتبعُ مَا ألْفَيْنا عليْه آباءنا ، أوَلَوْ كانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يهْتدُون » .

وفي هذا الوقت الذي اشتد فيه الجدال بين المسلمين والفاسقين ، قدم المدينة وفدٌ من نصارى نجران عدّتهم ستون راكباً ، وكان بينهم مَن شَرُفَ فيهم ودرس كتبهم وحَسُنَ علمُه في دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرّفوه وأمدّوه بالمال والخدم ، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات . وقد جاء الوفد رغبة باستطلاع خبر نبيٍّ آخر الزمان ، وحبّاً بمعرفة الحقيقة ، وأملاً بأن يتسكّن على أساسه من اتخاذ موقف . . واتصل الوفد بالنبيِّ «ﷺ» وباليهود ، وأبدى كل فريق حججه وتعاليمه ، فكان موقف النبيِّ «ﷺ» واضحاً فيما أبدى ، إذ نظر إلى الجماعة النصرانية على أنها أهل كتاب ، فدعاها إلى الاسلام مستفتحا بقول تعالى : «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَاب، تعَالَوْا إِلىَ كَلِمةٍ سوَاء بيْننَا وبَيْنكُمْ، ألاَّ نعْبُد إلاّ الله ، ولاَ نُشْرِكَ بهِ شيْئا ، ولاَ يتّخِذ بعْضُنَا بَعْضا أرْبَابا منْ دُوْن الله ، فإنْ توَلَّوْا فقُولُوا اشْهدُوا بأنّا مُسْلِمُوْنَ » . .

وزادهم الرسول العظيم بوعده أن يجتمع وإياهم إلى اليهود ويتفقوا على مبدأ الوحدانية الذي لا يتخذ من دون الله أربابا ، بل يعتمدوا قول الله تعالى : «قُلْ هُو الله أحَدٌ ، الله الصَّمَدُ ، لَمْ يلدْ ولَمْ يُولدْ ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَد» . .

فهل بعدُ أبسط وأقوى من هذه الدعوة الصريحة ؟! . .

ويسأل اليهودُ والنصارى النبيَّ ﴿ﷺ﴾ في هذا المؤتمر الذي شهدته المدينة ، والتقت فيه الرسالات السماوية الثلاث الكبرى = اليهودية والنصرانية والإسلام = عمّن يؤمن بهم من الرسل ؟! . . . فيتلو عليهم قول الله تعالى :

«قُولُوا آمنَّا بالله ، وَمَا أُنْزلَ إلَيْنا ، وما أُنْزل إلى ابْراهيم وَإسْماعِيل وإسْحَق وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ ، وما أوْتي مُوسى وَعيْسَى ، وَما أُوتِي النَّبيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لا نُفرِّقُ بينْ أحد منهُمْ ، ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» . .

فماذا يستطيع اليهود ؟ وماذا يستطيع النصارى ، أو يستطيع غيرهم أن يقولوا في تلك الدعوة ، وفي هذا الإيمان الصريح بأنبياء الله كافة ، فلا فرق بين أحد منهم . . أوليسوا جميعهم بُعثوا بدعوة الحق وكلمة سواء بين الناس ألاَّ يَعْبُدوا إلاَّ الله ولا يُشركُوا به شيْئا ؟! . .

فأما الروح المخلصة الصادقة ، أو النفس الإنسانية التي كرَّمها الله تعالى بالعقل والعاطفة ، فلا تستطيع إلاَّ أن تؤمن بهذا دون غيره . . ولكنْ يتراءى في الحياة الإنسانية إلى جانب الجانب النفسِّي الجانبُ الماديُّ الذي يخذل الإنسان ويجعله يشتري زَيفَ الحياة الدنيا

بأحقية الآخرة ، فيأبىَ إ لاَّ أن يجذبه زخرفُ هذه الحياة البهيجة ، كما عبَّر عنه أبو حارثة ، أحد أفراد الوفد ، وأكثر نصارى نجران علماً ومعرفةً ، وهو يدلي إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد . . . فيسأله رفيقه :

ـ فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟

فيكون جوابه المعبِّر عن ذلك الجانب المادي : يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم (يعني ملك الروم) شرَّفونا وموَّلونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منَّا كل ما ترى ! . . .

هذا هو الغرور بزخرف الحياة الدنيا الفانية ، ولو كان فيه اتباعُ الباطل وتركُ الحقِّ المطلق الذى دعا إليه محمد بن عبد الله «ﷺ» اليهود والنصارى .

ويتشاور النصارى فيما بينهم ، ثم يطلبون إلى محمد «ﷺ» أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم فى اشياء اختلفوا عليها من أقوالهم .

فبعث معهم الرسول «ﷺ» أبا عبيدة بن الجراح ليقضي بينهم ، بالاسلام فيما اختلفوا فيه . .

وهكذا قضت قوة الفكر الإسلامى المستمدّ من دعوته ، بالحجة البالغة ، على جميع المجادلات الكلامية التي أثارها المنافقون فى المدينة ، ومن جاءها من النصارى . . . وبذلك اختفت الأفكار غير الاسلامية ، ولم يبق إلاَّ الاسلام ينشر لواء الفكر الانسانى ويقيم دعائم الحكم السماوى . .

بروز أجواء القتال

لم ينس رسول الله ﴿ﷺ﴾ في خضم معركة الجدل تلك ، وقد أرادها أعداء الله وأعداء الاسلام حربا علنية مستهترة ، متحللة من كل المسوغات الخلقية ، للاجهاز على النظام الاسلامي الذي يصممه محمد ﴿ﷺ﴾ قبل أن يكتمل ، والحؤول دون قيام قوته الفاعلة التي تضرب - اول ما تضرب = المخادعين والمحتالين .. نعم لم يغب يوما عن بال رسول الله ﴿ﷺ﴾ إبان تلك الهجمة الجدلية ، التخطيط لجهاد برزت دوافعه العديدة ، بل إنَّ كل دافع منها يشكل وحده سبباً كافيا لرصد تحركات الأعداء وإعداد العدة لمنعهم من التمادي في طرق الغيِّ والضلال التي اختاروها ، على انَّ اول تلك الدوافع وأهمها على الاطلاق ، كان نشر الدعوة الاسلامية ، اداء للواجب القدسي الذي فرضه الله - سبحانه - على رسوله وعلى المؤمنين وفي طليعتهم حامل الدعوة محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ ....

فإيصالُ الإسلام إلى الناس ديناً وعقيدة ، وحضُّهم على امتلاك المناقب والمُثل التي يحملها ، واعتناقُهم أفكاره ثقافة ومنهجا بطريقة الإقناع أصلاً لا بطريقة التبشير به على خطى المبشرين = من غير المسلمين = لا يمكن أن يتحقق ما دام هنالك أعداء يتربصون به الدوائر، ويعدون العدة للقضاء عليه .. وعددُهم وعُددهم وطرفهم

وأساليبهم ، هى ولا شك حواجزٌ مادية قوية قد تثبتُ أو تقف دون الاسلام وأهدافه العليا . .

إذن فالغاية التى تُبرِّر بُروز الجهاد فى الاساس سامية ، لأنها ترمي إلى تربية الانسان فى جوهره ، وإلى تخليصه من الشوائب والأدران التي سيطرت على عقله ونفسه حقبة طويلة من الزمن . .

وكان فى طليعة أعداء الاسلام والمسلمين قبيلة قريش ومن دار فى فلكها ، فهي التي حاربت الإسلام ونبيّه منذ أن انبلج فجرُه النورانيُّ فى مكة ، وهى التى كانت ولا تزال أهم القوى التى تُعدّ وتخطط للقضاء عليه ، فمن الواجب إذن ان تكون للمسلمين القوّة التي تحول دون قريش وأمثالها من الوصول إلى غايتها الخبيثة ، وأن يكون لهم الجيش الفاعل الذي يحمل مهمات الدفاع والقتال . . . .

فنشرُ دين الله = إذن = هو الهدفُ الأعلى الذى يفرض الاستعداد للمواجهة .

والمواجهةُ أصبحت أمرا لا محيص عنه للوقوف فى وجه تلك التيّارات الخطيرة . يضاف إلى هذا الهدف أهداف أخرى منها تحريكُ الحيويّة فى حياة المسلمين جميعاً ، وجعلهم جنوداً لدعوتهم يفتدونها بالغالى والنفيس ، ويضحُّون فى سبيلها بالنفوس .

فالمهاجرون مثلا ولا سيما فى الحقبة الأولى من الهجرة ، قد ضاقت بهم الأحوال كثيرا ، رغم ما غمرهم به إخوانهم الأنصار من سخاء اليد والبذل والعطاء ، ورغم تلك المساواة النادرة التى أقاموها

بينهم وبين المهاجرين فى الأموال والأرزاق . .

إذ بعد ما عمّ الشحُ وندرت الغلال أبى المهاجرون أن يزيدوا في إفقار إخوانهم ، وراحوا يعملون ولكنّ الأعمال التى قاموا بها لم تكن لتؤتى ثمارا سريعة ، فأحاطت الضائقة بالمسلمين وعصفت بهم الحاجةُ الى العمل الجدّى الذي يخّرج الإسلام من الدوامة والرتيبية والامهال فى اللقاءات والجدال مما ضيق بهم الحال حتى إنهم أمضوا أياما كانوا لا يجدون فيها ما يسدُّ الرمق من خشن الطعام ، وحتى كان ينزل الضيف عندهم أحياناً ، فيعرضه النبيُّ ﴿ﷺ﴾ على أهله وأصحابه ، فلا يجد عند أحدهم ما يكفى لإطعامه ، وحتى كان المسلم يسأل أخاه المسلم عن شيء يتبلَّغُ به ، ويسدُّ به شدّة جوعه ، فيجده وقد شدَّ على بطنه حزاماً أو حجرا من حدة هذا الجوع ، حتى إنّ الرسول الكريم نفسه كانت تمرُّ به وبعياله الليالى المتكرِّرة فلا يوقد في سكن له نارا ، ولا تطهو عياله طعاما . .

وكان من الطبيعى ، فى تلك الضائقة الشديدة ، أن يرنو المهاجرون بأنظارهم إلى مكة ، الموطن الذى تركوا فيه أموالهم وتجارتهم ، وغلالهم ، تظفر بها قريش وتستولى عليها ، وتحتل الديار والمتاجر ، وتتصرف بها تصرُّف المالك بملكه . . فهم يتفكرون فيما أجبروا على تركه هناك وما هم فيه من حالة الفقر المُدقع ، فيتأثرون كثيرا ، ويتحفَّزون لما لا يعلمون له تفصيلا الى الان . ثم يزيدهم تأثرا وارتقاباً بُعْدُهم عن مكة ، الموطن الذى ترعرعوا فى ظلاله ، وذادوا عنه بالمهج والنفوس ، حتى جاء اليوم الذى أخرجتهم قريش منه بالقوة ، وجعلتهم أغرابا في مَوْطِن آخر ،

يلوذون إلى الحنين والشوق ، ويتحسرون على أيام الصبا الخوالي ، حيث كانوا يرتعون هانئين ، سعداء مع عيالهم وأهليهم .

وأين هم أولئك الأهل ، وأين همّ الأقارب والأصدقاء ؟ وهؤلاء أيضاً بعيدون عن أنظارهم ، وعن رعايتهم ، والحرص على حياتهم . لقد أجبروا على الرحيل عنهم ، وخلوهم لذئاب مكة تنهش كرامتهم وتدوس عواطفهم . . . إنهم ما زالوا هناك بين تلك الزمر الخسيسة ، ضعافاً عن الهجرة لا يقدرون على تحمل المشقّات وقطع المسافات ، ولا على احتمال مهانة قريش ، وتذوق مُرّ علقمها وصابها .

فيا لله ! . أية حالة تلك التي عاشها المهاجرون . . لا عيال ولا أولاد ، ولا مال ولا ديار ! . . .

نعم ، تلك كانت حالتهم : ضنك في العيش ، ومشقة في العمل ، ووحشة في الغربة ، وحنين إلى الوطن ، وبعدٌ عن الأهل والأصدقاء ، وشعور بالظلم والعدوان ، وإخراج من الديار والممتلكات ، ونفادٌ من الأموال التي بذلها إخوانهم الأنصار . .

أما الأنصار الطيبون فلم يعد يطيب لهم عيش حتى في ديارهم وبين عيالهم ، ولا يهنأ لهم بال لأنهم يرون إخوانهم المهاجرين قلقين مهمومين ، في أحوالهم المادية والمعنوية . . فيصبحون على مثل حالهم ، قلقا وهماً وبؤساً لأن الإسلام قد تغلغل في نفوسهم ، فجعلهم يعيشون المشاركة الجماعية في كل حالاتها . .

وليست تلك المشاركة وحدها هي التي كانت تدفع الأنصار الى

رَصْد ما تُرهِصُ عنه الأيام القادمة ، وترقُّب التطورات المستقبلة ،
فهم أيضاً يتطلعون إلى مكة حيث البيت العتيق الذي كانوا يحجّون إليه في
جاهليتهم ، فكيف وقد صار البيت العتيق هو القبلة الوحيدة التي
يتوجهون إليها خمس مرات كل يوم ، وهم في توجههم يريدون وجه الله
العلي القدير آمّين بيته الحرام المحرّم . .

أفتطيب لهم حياة وهم لا يستطيعون الوصول إلى ذلك البيت
المقدس ، والتبرك بلمس جدرانه والطواف حول بُنيانه ، والجلوس
في اركانه ، هانئين ، إلى جوار الله في بيته المعظّم . . أو ليست
قريش هي الفئة المضالّة الغاشمة التي تقف حاجزا مانعا من الوصول
إليه ؟ . .

أو ليس في وجودها آمرة ، متسلطة على البيت الحرام ، ما
يتنافى مع شعلة الايمان التى تتوهج في نفوس المسلمين الذين يعيشون
في ظل نبيهم «ﷺ» وظلال مدينتهم ؟ . .

إذن فلِم لا يتحفَّزون لقتال تلك الفئة الباغية لاسترداد حق
المسلمين ؟

ولِم لايستعدُّون للقضاء على تكبُّرها وصلفها ، وإعادة
المشرَّدين ، المهجَّرين من إخوانهم إلى ديارهم ؟ تلك هى المشاعر
التى كانت تتأجج بها نفوس المسلمين فى المدينة ، من مهاجرين
وأنصار . . فهم يترقبون على أحرٍّ من الجمر اليوم الذى يؤذن لهم فيه
بالقتال ، إعلاء لكلمة الله . . وقد ذاق فريق كبير منهم المرارة
والعذاب والأذى طيلة ثلاث عشرة سنة في مكة ، حتى يؤمنوا انتشار

هذا الدين ، ويؤمنوا أتباعه ومريديه . . وقد جاء الآن دور الفريق الآخر مشاطرتهم هذه المسؤولية الكبيرة ، في الحفاظ على دينهم وإخوانهم ! . . .

افلا يحق للمسلمين = بعد هذا كله = أن يتخذوا القوّة سبيلا لازالة الفساد من حول الكعبة الشريفة ، وإعادة المهجّرين إلى ديارهم التي أُخرجوا منها من غير حق إلاَّ أن يقولوا : ربّنا الله ؟! . . . . أفلا يحق لهم الاستعداد لإنقاذ الأهل والإخوان من الظلم والاستبداد ؟!.

افلا يحق لهم استعادة الحقوق السليبة التى اعتدت عليها قريش وسلبتها دون وجه حق ؟! . .

نعم إن كل سبب من هذه الأسباب كان يكفى لأن يكون دافعا قوياً لاستعداد المسلمين لمواجهة قريش ، فكيف وقد اجتمعت هذه الأسبابُ كلها ؟

اما رسول الله «ﷺ» فكان يعرف كل هذه الأمور قبل غيره من المسلمين . وهو يأخذها جميعها بعين تقديره وحسابه . والميزانُ الأكبر في نظره ، كان يحمل في كفة الشرك وعبادة الأصنام ، وفي كفة الإسلام ، وعبادة الله الواحد الأحد.فإما أن ترجح كفةُ الدين ولا يكون إلاّ بالانتصار والغلبة ، وإما أن ترجح كفة الشرك وفيه انكسار لا تقوم للمسلمين بعده قائمة . . فالمسألة = إذن = مسألة حياة أو موت . . إما حياة الإسلام التي هي حياة للمسلمين ، وإما موت الإسلام وفيه موت المسلمين عامّتهم . .

ولكنَّ رسول الله (ﷺ) كان ينتظر في ذلك إذْن ربِّه بالقتال . ففي مكة رفع بين المسلمين شعار : « لم أؤمر بعد بالقتال » . واليومَ ، في المدينة قد اختلف الحال ، وإن الرسول العظيم يقدِّر بمنظار ميزانه الأكبر أهمية القوة التي يعتدل بها الحق على الباطل . . ولكنه لم يؤمر ، إلى أن جاء التنزيل العزيز من لدن ربِّه الحكيم :

« أُذِن للَّذينَ يُقاتَلُونَ بأنّهُم ظُلِموا وإنَّ الله علَىَ نَصرِهِمْ لَقَديرٌ . الذين أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بغَيرْ حَقٍّ إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنا الله ، ولَوْلاَ دفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ ببعْض لَهُدِّمَتْ صوامعٌ وبيعٌ وصلَوَاتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ الله كثيرا ولينصرُنَّ الله مَنْ يَنْصرُهُ ، إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزيز . الذين إنْ مَكَّنّاهُمْ في الأرْض أقامُوا الصَّلاة وآتَوُا الزَّكاةَ وأمرُوا بِالْمعْرُوف ونهوْا عن المُنْكَر ولله عاقبةُ الأمُور » .

لذلك ، بدأ رسول الله (ﷺ) يرسل الكتائب من أصحابه في طريق قريش ، ليعلم أخبارهم ، ويكشف أحوالهم ، إذ الخطوة العملية الأولى يجب أن تكون في قطع الطريق على تجارتهم ، حتى ينقطع الشريان الأهم الذي يمدُّهم بأسباب القوة والجبروت . فإن استطاع المسلمون بعد ذلك أن يغنموا شيئاً من أموال قريش ، فذلك بعض حقوقهم المسلوبة ، وأموالهم المغتصبة : « ولَمن انتصرَ بعْد ظُلمه فأوْلَئِكَ ما علَيْهِمْ مِنْ سَبِيل ، انَّما السَّبيلُ على الذين يظْلِمُونَ النّاس ويَبْغُونَ في الأرْض بغَيْرِ الْحَقِّ ، أولئك لهُمْ عذابٌ أليم » . . .

وجمع الرسول الأعظم أصحابه يشاورهم في الأمر ، ويتلو عليهم آيات الله العظمى : « وَأعِدُّوا لَهُمْ ما استَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة ومن رباط الخَيْل ، تُرْهِبُوْنَ بِهِ عدوَّ الله وعدُوَّكم ، وَآخَرِين مِن دونِهمْ لاَ تَعْلَمُونَهُم ، اَللهُ يَعْلَمُهُمْ » . . .

وطار المسلمون فرحاً بإذن الله تعالى ينزل على نبيه ويدعوه ويدعوهم لإعداد القوة للأعداء . . وتبدَّت الحماسة والشجاعة على الوجوه لتعكس ما في النفوس . . إنه اليوم الموعود ، فقد ذهبت أيام الهوان والانتظار، وأيام تحمُّلِ الأذى والسكوت على الظلم والعذاب . . لقد ولى زمن الإرهاب القرشي ، وظلم الصلَف الجاهلي . . وتدافعوا يريدون الخروج جميعهم إلى حيث يأمرهم رسولهُم الكريم . . . ولكنّ الرسول «ﷺ» كان قد خطَّط ورَسم ، وفكَّر وقرَّر كل ما يجب عليه فعله أو الإقدام عليه. ولذا حرَّض المسلمين على الاستعداد وعبَّأ قواهم ودعاهم للتهيئة التامة وانتظار الوقت الملائم لخوض القتال فيما إذا ظهر أن الاعداء لا يريدون إلاّ قتالا . . وفي الوقت نفسه أظهر لهم خطَّته العملية في إرسال الكتائب لتقصِّي الأخبار وجمع المعلومات . وقد اختار في ذلك المؤتمر الذى عقده مع المسلمين لأول عمل من هذا القبيل عمَّه حمزة بن عبد المطلب (رض الله عنه) ، إذ بعثه في ثلاثين راكبا من المهاجرين دون الأنصار ، وقد حدَّد له الوجهة التى يتبعها . .

سَرِيّة حَمْزَة

وخرج حمزة فى شهر رمضان من السنة الأولى (٦٢٣ م) ومن معه ، متوجِّهين إلى شاطىء البحر من ناحيةالعيص ، وما إنّ أدرك تلك المحلة حتى اُلتقى قافلة لقريش جاءت من الشام ، وعلى راسها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائةراكب. وأراد حمزة = على قلّةعدد فرسانه ، وكثرة أعدائه = أن يقاتلهم ، ثم استعدّ هو وجماعته لذلك ، لولا أن حجز بينهم مجدى بن عمرو ، سيّد جهينة ، وكان مصالحا للفريقين ، فانصرفوا عن بعضهم من غير قتال ، فرجع حمزة وأخبر النبى ﷺ بما حدث .

ـ سرية عبيدة بن الحارث ـ

وفي شوال من تلك السنة (٦٢٣ م) بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فى ستين راكبا من المهاجرين أيضا دون الأنصار ، حتى يستطلع أخبار قريش ، فذهب يقطع الصحراء ، ويتنقل فى الشعاب حتى بلغ وادى رابغ ، فاذا به يلقى أبا سفيان بن حرب وهو فى مائتين من أصحابه ، على ماء هناك . .وتشاور قائدالمسلمين = عبيدة بن الحارث = مع إخوته فى قتال القوم ، فوافقوا وتأهبوا لذلك ، وكان اول البادئين سعد بن أبى

وقاص ، وكان في تلك السرية ، فرمى العدو بسهم . . . ولكنَّ أبا سفيان امر اصحابه بعدم الرّدّ، وبعث من جماعته نفراً يعرضون عدم القتال ، فوافق المسلمون ، وانصرفوا عنهم ، ولكنهم لم يبتعدوا إلاَّ قليلا حتى لحق بهم المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان ، وقد فرّا من المشركين ، إذ كانا قد أسلما وكتما إسلامهما ، فوجدا في تلك المناسبة فرصةً للّحاق بالمسلمين في المدينة .

ـ سرية سعد بن أبي وقاص ـ

وفي شهر ذى القعدة من تلك السّنة نفسها بعث الرسول ﴿ﷺ﴾ سرية ثالثة بقيادة سعد بن ابي وقاص وفيها عشرون راكبا ، إلى محلة تدعى الخرار وهو واد في الحجاز يصب في الجحفة .

وكان الرسولُ الكريم قد عهد إلى سعد بألاَّ يتجاوز الخرار ، بل يتقصّى أخبار عير قريش التي تمرُّ من هناك ولكنّ سعداً وجد أن عير قريش قد مرّت آمس بخرار أي قبل اليوم الذي وصل فيه تلك المحلّة ، فعاد وفرسانه إلى المدينة ، دون أي قتال .

تلك هي السرايا[1] الثلاث ، التي بعثها الرسول العظيم ، تهيئة للظروف التى ستواجه المسلمين . وهي بالفعل قد بدأت

(١) لقد اتفق المؤرخون للسيرة النبوية الشريفة ، على تسمية البعثة التى كان يوفدها رسول الله (ص) والتي يؤلف عددا غير كبير ، للقاء المشركين او استطلاع أخبارهم باسم السرية ، مفرقين بينها وبين (الغزوة) التى توافقوا على تسميتها بهذا الاصطلاح لأن النبى (ص) كان يخرج فيها ، سواء قاتل ام لم يقاتل .
فالسرية هى التى لم يخرج بها رسول الله (ص) والغزوة هى التى كان يخرج فيها .

تباشيرها تلوح في أجواء المدينة . إذ أدرك المنافقون والفاسقون أن الذي حسبوه قد وقع ، محمَّد بن عبد الله «ﷺ» قد بدأ يبعث برجاله في سرايا إلى قريش تعترض طريقها . وما عليهم إلاَّ الترقب والانتظار ليروا ما سوف يكون من أمره وأمر أتباعه من المسلمين ولاحظ الرسول العظيم أن تلك السرايا لم تعد تفي بالأغراض التي يريدها ، فهيأ ستين راكباً من فرسانه وخرج فيهم على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة ، حتى بلغ (ودّان) وهو يريد عيرا لقريش ولبني ضمرة ، فلم يلق عير قريش ، ولكنه التقى بني ضمرة فعقد بينه وبينهم صُلْحاً على ألاَّ يغزوه ولا يغزوهم ولا يعينوا عليه عدواً ، وإذا دعاهم لنصر أجابوه . وكان سيدهم الذي عقد معه الصلح ، مخشي بن عمرو الضمري .

وعاد رسول الله «ﷺ» بعد ذلك الصلح، الذي اعتبره نصرا للدعوة ، إلى المدينة يعدُّ لغزوة أكبر . ثم ما لبث إلاَّ شهرا بعد ذلك حتى خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى يريد قافلة لقريش تناهى إليه خبرها بقيادة أمية بن خلف الجمحي ، وأنَّ عدَّتها ألفان وخمسمئة بعير يحميها مئة محارب من قريش ، فلم يدركها ، لأن العيون كانت تترصّد حركات المسلمين ، وقد اتخذت تلك القافلة = هرباً من حادث يفاجئها = طريقاً ملتوية غير الطرق التي كانت تسلكها القوافل عادة ، فنجت بذلك من المواجهة .

ولم تمضِ ثلاثة أشهر على مقام الرسول «ﷺ» في المدينة بعد

غزوة (بواط) حتى استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وخرج في أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل (العُشيرة) من بطن يَنبُع ، يريد عيراً لقريش كان قد جاءه الخبر بخروجها من مكة إلى الشام ، يقودها أبو سفيان بن حرب . . ولكن ما أن وصل النبيُّ ﴿ﷺ﴾ إلى العشيرة حتى عَرفَ من بني مدلج ـ وهي ناحيتهم ـ أن عير قريش قد عبرت الناحية . فرأى أن يوادع بني مدلج كما فعل مع حلفائهم بني ضمرة ، وبذلك أنزل رحاله واستبقى رجاله بضع ليالٍ من جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة . وقد كان له ما أراد ، إذ كسب في هذه الرحلة حلفاء له جددا هم بنو مدلج ، عاهدوه على نفس ما عاهده بنو ضمرة . . .

وعاد الرّسول ﴿ﷺ﴾ بعدها ليقيم في المدينة عشرة أيام ، فإذا بكُرز بن جابر الفهري ، وكان من المتصلين بمكة وبأهلها من قريش ، يُغير على إبل المدينة وأغنامها = وكان يرعى في جبل من جبال جهينة بناحية رضوى = ثم يستاقها . فخرج رسول الله ﴿ﷺ﴾ في طلبه ، بعد أن استعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وراح يتعقب آثار كُرز حتى بلغ وادياً يقال له (سفوان) من ناحية بدر . فتوقف هنالك ، بعدما تبين له أن كرزاً قد فاته ولم يعد قادراً على اللّحاق به . وعُرف ذلك الخروج ببدر الأولى .

ولكنَّ تلك السرايا والغزوات ، وإن لم تقع فيها حروب ، أو لم يحدث فيها قتال ، ألاّ أنها كانت الخطوات العملية الجادّة على طريق الحروب الكبيرة التي ستواجه رسول الله ﴿ﷺ﴾ والمسلمين ،

وهي في الوقت نفسه قد هيّأت الجيش الذي سيتولى مهمات القتال في تلك الحروب التي إما أنها ستفرض على المسلمين فرضا . وإما أن المسلمين سيتعمّدونها من أجل الهدف الأعلى الذي يبقى فوق كل سبب وفوق كل اعتبار ، ألا وهو نشر راية الاسلام خفاقة في أنحاء الجزيرة العربية . . وإذا كانت قريش هي القوة المانعة لتحقيق ذلك الهدف ، فإن الرسول العظيم قد أسس دولته في المدينة على سياسة حكيمة مبدأها الاسلام وحده ، وهي سياسة تقضي بوجوب تطبيقها أيضا في مكة المكرمة ولن تقف في وجهها عنجهيةُ قريش بإذن الله . وإذا كان لا يزال حتى الآن لم يبدأ مناوشة او قتالا ، فإن الأمر بات يفرض الدخول في ذلك . ولأجل هذا الغرض أعدَّ الرسول ﷺ سريّة أخيرة بعث بها عبد الله بن جحش . وكانت آخر السرايا ، ومقدمة لغزوة بدر .

ـ سرية عبد الله بن جحش ـ

كان شهر رجب من السنة الثانية للهجرة حين بعث الرسول ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي ، في ثمانية رجال من المهاجرين ، في مسيرة حدَّد له وجهتها دون أن يعين له مكانا محددا يقصده . ثم دفع إليه بكتاب وأمره ألاَّ ينظر فيه إلاَّ بعد يومين من خروجه ، فعندها يعرف الوجهة التي يُبعث إليها ، وشرط ألاَّ يستكره مِنْ أصحابه أحدَاً .

وانقضى اليومان ، وفتح عبد الله الكتاب فإذا فيه : « إذا

نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة (بين مكة والطائف) فترصَّد بها قريشا وتعلمْ لنا من أخبارهم » . . وعلم أصحابه بالأمر ، وبأنه لا يستكره أحداً منهم ، فمن شاءَ رجع ، ومن شاء تابع متابعةَ قد تحمل الشهادة (الموت) . . فساروا معه منطلقين إلى المصير الذي يريده الله لهم ، وتخَلَّف منهم اثنان ، هما سعد بن أبي وقَّاص الزهري وعتبة بن غزوان ، إذ ذهبا يبحثان عن بعيرهما الذي تاه وبعُد، حتى إذا سارا شوطاً بعيداً صادفتهما قريش فأسرتهما . . وأما عبد الله والباقون ، فقد تابعوا السير فنزلوا نخلة وأقاموا فيها عدة أيام يترصَّدون قريشاً ، وظلوا ينتظرون حتى آخر شهر رجب ، فإذا بهم يرون عيرا لقريش ، وقد أقبلت من الطائف ، تحمل تجارة من زبيب وأدم وجلود وغيرها ، عليها عمرو بن الحضرمي وبعض الرجال . . .

وتشاور عبد الله وأصحابه فيما يَصْنَعون ، لأن النبيَّ لم يأمرهم بشيء من قتال أو غير قتال واستقرَّ بهم الرأى على مهاجمة تلك القافلة واغتنام أحمالها ما دامت قريش قد استولت على أموال المسلمين جميعها في مكة . . . ولكنه الشهر الحرام ، فكيف يقاتلون فيه ؟ . . . فقال بعضهم لبعض :

« والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتَنعنّ منكم به ، وإن قتلتموهم لنقْتُلنَّهم فى الشهر الحرام » ! . . وتردّدوا وهابوا الاقدام ، وظلوا على تلك الحالة فترة ، لم يلبثوا بعدها ان شجّع أحدُهم الآخر فأجمعوا على مهاجمة العير ، وفى

حسبانهم انهم ان لاقوا شدّة فلسوف تكون الشهادة التى يتمنّونها فى سبيل الله . . .

عندها أخذ أحدهم سهما ورمى به قائد العير عمرو بن الحضرمى فقتله ، ثم اقبلوا على رفاقه يقاتلونهم ففرّ من فرّ منهم بعد ان وقع في أيديهما رجلان من قريش أسيرين فاستولوا على الأموال ، ثم اقتادوا معهم الاسيرين وقفلوا راجعين الى المدينة قاصدين فور وصولهم رسول الله ، واستقبلهم الرسول ﷺ غاضبا وهو يقول لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . . ووقف العير والاسيرين ، وقد ابى أن يأخذ من الاموال شيئا .

وأسقط في يد عبد الله بن جحش وأصحابه ، وظنوا انهم قد هلكوا ، وزادهم ألما وندامة ما عنّفهم به إخوانهم من المسلمين على ما صنعوا . .

تلك هى سرية عبد الله بن جحش ، التى أرسلهُ فيها رسول الله ﷺ ليرصد اخبار قريش . . ولكنَّ الحرقة التى كانت تتاجج فى صدر عبد الله بن جحش وتعتمل فى داخله من صَلافة قريش هى التى أبت عليه إلاّ ان يقاتل بعض رجالها الذين مرّوا بسريته ، وان يقتل بعضهم ويأسر البعض الآخر ثم يأخذ أموالهم ، وكل ذلك فى الشهر الحرام . . فماذا يؤثر موقفه ذاك على الإسلام ؟! . . بل ما هو موقف الإسلام من عمل من هذا القبيل ؟! . .

لقد فكّر الرسول الكريم فى هذه الامور وفي غيرها ، ولكنه آثر أن ينتظر حكم الله سبحانه ، الذي يرقب مسيرة دينه خطوة

بخطوة ، ويتدخل في أدق الأمور لبيان حقائقها ، فكيف والموقف حاسمٌ وتترتب عليه آثار عديدة ، وخاصَّة فيما يعود إلى القتال في الأشهر الحرم ؟! . . .

ورأت قريش فرصة كبيرة تنتهزها في عمل عبد الله بن جحش ، فأثارت ثائرة الدِّعاية للتشهير بمحمد «ﷺ» وبالاسلام ، وراحت تنادي في كل مكان : إن محمَّداً وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام وسفكوا الدم واخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال .

وتساؤل الناس : أيكون في الشهر الحرام قتال ؟

تساؤل فيه استنكار . . ونكرانه أشدّ، لأن الناس اعتبروا بأن محمّدا هو الذي قام به، وإن كان على يد عبد الله بن جحش، فكيف يفعل ذلك ، وهو الذي يزعم بأنه يسير في طاعة الله ويدعو إلى دين قويم لا يهدي إلاّ إلى صراط مستقيم ؟! . . .

وكان من الطبيعي أن يستغلَّ اليهود هذا الظرف ، ليدخلوا مع المسلمين في مجادلات طويلة ، ونقاشات حامية ، وأن يستغلوا حيرة المسلمين فيما يدفعون عن أنفسهم ، لأنَّ العمل خطير ، ويشكِّل قاعدة ثابتة في أنحاء الجزيرة كلِّها ، فقد كانت قبائلها ، تتوقف عن القتال في الأشهر الحُرُم، مهما كانت العداوات شديدة، ومهما كانت الحروب قاتلة . . وراح اليهود يشنِّعون على فعلة عبد الله بن جحش ، ويشهِّرون به ، حتى بات الوضع شديداً على المسلمين ، فراحوا يراجعون الرسول «ﷺ» فيما يفعلون ، وهو يطلب إليهم التريُّث في الحكم ، حتى ينزل الوحي عليه فيأتي الحُكمُ من الله

سبحانه . فإن جاء التحريم على القتال في الشهر الحرام ، فلسوف ينال عبد الله بن جحش عقابه ، وإلاَّ فالأمر متروك إلى الله سبحانه . . ونزل الوحي على النبيِّ ﴿ﷺ﴾ با لآيات المباركات : «يسْألونك عن الشَّهْر الحرام قتال فيه، قُلْ: قِتالٌ فيهِ كبيرٌ وصدٌّ عَنْ سبيل الله وكُفْرٌ بهِ والمسْجدِ الحَرام، وإخْراجُ أهْلِه منْهُ أكْبرُ عنْدالله ، والفِتْنةُ أكْبرُ منَ القَتْل ، ولا يَزالُون يُقاتلونكُمْ حتَّى يردُّوكُمْ عنْ دينكُمْ إن استطاعوا » . .

وسُرِّيَ عن المسلمين، فقد جاء الحكم من الله تعالى، يدفعُ حُكم العادات الجاهلية القديمة . . ولئن كانت هذه العادات تحرِّم القتال في أشهر معيّنة من السنة فاتباعها حسن ، ولكنّه لا يسوِّغ ولا يخوِّل الصدّ عن المسجد الحرام ، ولا يوازى إخراج أهله منه بدون حق ، ولا يسمح بفتنة المسلمين عن دينهم تلك الفتنة التى ما زالت قريش تمارسها بالوعد والوعيد وبالاغراء والتعذيب . . . كلُّ ذلك أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . . وليس في هذا القتال شيء ضد إنسانية الإنسان، بل الهدفُ منه هو حماية المسلمين من كيد قريش، وحماية الدعوة الإسلامية من أعدائها، سواء كان هؤلاء الأعداء قريشا ام غير قريش ، ولذا فإنه يجدرُ بالمسلمين أن يقاتلوهم أينما ثقِفوهم وفي اي وقت استطاعوا، فلم يعد من حساب لأشهر حُرم أوغير حُرم من أجل الجهاد في سبيل الله ! . . . وهكذا نزلت الآيات الكريمة لتضع الأمور في نصابها . فبورك عملُ عبد الله بن جحش ، وقبض النبيُّ ﴿ﷺ﴾ العير والاسيرين . . وحين عرفت قريش الخبر أرسلت تطلب الأسيرين من رجالها ، فكان ردُّ الرسول ﴿ﷺ﴾ « لا

نفديكموهما حتى يُقدم علينا صاحبانا ، سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحِبَيْكم » .

ونزلت قريش على أمر رسول الله ، وبعثت الرجلين ، وفاداهما النبيُّ «ﷺ» بالأسيرين اللَّذيْن كان أحدهما الحكم بن كَيْسان الذي أسلمَ واقام في المدينة ، ولم يرغب في قريش ولا في العودة إليها ، بينما رجع الآخر إلى مكة وظل بها حتى مات على الشّرك . .

هذه قصةُ سرية عبد الله بن جحش ، وقصةُ ما عقبها من نتائج وآثار هامة . . وقد كانت في واقعها حدثاً عادياً لا يزيد على قتال بضعة رجال من المسلمين وآخرين من المشركين . . . ولكنَّ وقوعه في الشهر الحرام جعل له أصداء بعيدة المدى ، وكان لا بد من حُكم سماويّ ، يفصل في العمل الذي وقع فيه . فالقتل في الشهر الحرام يعتبر من الكبائر ، وقدا تخّذت قريش منه حدثاًها مّاًتثيرفيه الرأي العام ، حتى تحقّق المآرب التي تنزع إليها ، فإذا بالقرآن الكريم يجيب المشركين عن تساؤلهم : أتستكبرون القتال في الشهر الحرام ؟ . . نعم إنه لكبير ولكن آكبر منه أن تُبيحوا أيها القرشيون لأنفسكم قتال المسلمين ، وتستعملوا كافةالوسائل وتسلكوا جميع الطُّرق لصدِّهم عن سبيل الله ، وإعادتهم إلى الشركْ والجاهلية ، ولفتنتهم عن دينهم . . ثم تنقمون على المسلمين أن يقاتلوكم في الشهر الحرام ؟! . . .

أيهما أكبر الفتنة أم القتل ؟

أو ليست الفتنة أكبر من القتل ! .. إذن فلا جناح على من يقاتل كلَّ من يعمل ويسعى جاهداً لفتنة الناس عن دينهم ، ولصدِّهم عن سبيل الله .

هذه هي النتيجة التي يجب أن تعيها قريش وغير قريش ، وهذا هو المنهج الذي بدأ المسلمون يسيرون عليه ...

وهكذا كانت سرية عبد الله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام ، وفي طريقة التعامل مع أعداء الدعوة الإسلامية .. فهو لا يأخذ بأحكام الجاهلية ولا بأحكام أهل الأرض كلها بل يستقي الحكم من الله سبحانه لا من غيره ... وفي هذه الحادثة كان الحكمُ السماويُّ نسخ تحريم القتال في أشهر معينة من السنة ، طِبْقَ ما دَلَّت عليه آيات القرآن الكريم التي نزلت في القتال .




خريطة
تبين المدن الكبرى
ومساكن القبائل الهامة
البحر المتوسط
نهر الفرات
نهر دجلة
تغلب
عدوان
عذرة
غسان
لخم
بلى
مؤتة
الكوفة
دومة الجندل
كلب
تبوك
ذبيان
طيء
أسد
غطفان
قضاعة
ذات الرقاع
وادى القرى
خيبر
المدينة
تميم
حنيفة
الخليج العربى
عبد القيس
مسقط
عمان
الأزد
بحر عمان
رابغ
ثقيف
خزاعة
خثعمة
همدان
الحارث
خولان
صنعاء
المدن الكبرى
مساكن القبائل

غـَـزوَة بـَـدْر

من الدعائم الأساسية التي قامت عليها = وتقوم = المجتمعات البشرية ، القوةُ الاقتصادية ، إذ بدونها يبقى المجتمع مفكَّك الأوصال ، يستجدي مقوِّمات العيش . . ولقد كانت قوة قريش الاقتصادية في تجارتها الواسعة ، التي جابت بها القوافل أقطاراً بعيدة وصلت بلاد الشام ، واليمن ، ومصر ، وجنت منها ثروات كبيرة ، هي التي جعلتها سيدة القبائل في جزيرة العرب .

ولم تكن تلك السرايا التي بعث بها رسول الله ﴿ﷺ﴾ في طليعة عهده المديني إلاَّ لغاية هامَّة ، وهي رصد أخبار قوافل قريش ، حتى يتدبَّر الخطة التي تمكِّن من القضاء على قوَّتها الاقتصادية ، تلك القوة التي كانت في نظر المسلمين بمثابة الأجنحة التي تحلِّق بها قريش في الأجواء البعيدة ، وكالمخالب التي تفتك بها في كلِّ من يحاول اعتراضها أو الوقوف في وجهها في أي شأن من الشؤون . . . فإذا أمكنهم قصُّ تلك الأجنحة ، وتقليم تلك المخالب ، فمما لا شك فيه أن شوكة قريش المؤذية سوف تنكسر ، وبكسرها ينهار طغيانها ويذهب استبدادها ، وعندها يمكن للمسلمين استعادة حقوقهم وأموالهم التي سلبتهم إياها ظلماً وعدواناً .

ولم تكن قريش ليغيب عن بالها ما يفكِّر به المسلمون ،

فراحت هي من جانبها أيضاً تُعِدُّ الخطط لحماية قوافلها ، و المحافظة على تجارتها ، متخذةً لذلك كافة الوسائل ، وجميع تدابير الحيطة ، فزادت الرجال الذين يرافقون القوافل ويحمونها ، وغيَّرت بعض الطرق التي كانت تسلكها في العادة ، وزادها تيقّظاً وحيطة ، ما فعله عبد الله بن جحش بإحدى قوافلها الصغيرة القادمة من الطائف ، إذ رأت في فعله أولَ تباشير الخطر لقطع طرق التجارة عليها ، وحصرها في داخل مكة ، مما جعلها تتخذ وسائل الحماية وتنفِّذها فعليا . .

وصادف أن خرجت قافلة = وخرج بها أبو سفيان بن حرب في تلك الفترة = من أعظم قوافل قريش ، وأجمعها لأموالها ، حتى إنَّ أهل مكة بأسرهم كانوا يشاركون في تلك الأموال ، التي قدِّرت بحوالى خمسين ألف دينار . . وهذا ما جعل رسول الله «ﷺ» يخرج بنفسه في غزوة العُشيرة ، يريد تلك القافلة ، بعدما تناهت إليه أخبارها ، ولكنها فاتته في ذهابها إلى الشام إذ تأخر عن إدراكها يومَين . . إلا أنه ، منذ ذلك الحين ، قدَّر المدة التي تستغرقها رحلة تلك القافلة ، وعيَّن الوقت الذي تعود فيه إلى مكة . . فبات في المدينة ينتظر اقتراب الموعد ، وفي الوقت نفسه ، بثَّ العيون ترصد أخبار تلك القافلة حتى إذا جاءه من يخبره بأن القافلة قد فصلت من بلاد الشام عائدةً إلى مكة ، فلم يتوانَ أبداً عن جمع أصحابه وإبلاغهم عزمه على الخروج لاعتراض أموال قريش .

ثم دعا إليه جميع المسلمين في المدينة من مهاجرين وأنصار يحضُّهم على الخروج ويقول لهم :

« هذه عير قريش وفيها أموالهُم وقوَّتهم ، فاخرجوا إليها لعلَّ الله يُغْنِمكُمُوها » . . .

وأمرَ من فَوره كلَّ من يريد الاشتراك في ذلك الخروج أن يتهيأ له ويستعدّ ، ثم بعث اثنين من المسلمين = طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد = يتَّسقطان الأخبار ويوافيانه بها . . وحرصاً منه «ﷺ» ألاَّ تفوته القافلة في إيابها كما فاتته في ذهابها ، لم ينتظر عودة مبعوثيّه ، بل جمعَ الرجال بعد أن تمَّ الاستعداد ، من غير أن ينتظر غائباً أو يقنع متراخياً . وبذلك أسرع من أسرع ملبّياً ، وأبطأ من أبطأ متخلِّفاً ، وفي ظن هؤلاء المتخلِّفين ، أنها غزوة ويعود رسولهُم والمسلمون بالفشل ، كما كان يحصلُ في السابق ، ودون أي قتال أو حرب . . وإذ رأوا جمعاً كبيراً من اخوانهم يلتفّون حول الرسول «ﷺ» لمرافقته ، فقد تصوروا أن عير قريش لا تستأهل أكثر من هذا العدد من الرجال ، وأنه لا حاجة بهم الى الخروج . . فتقاعسوا عن الخروج . . .

ومن ناحية ثانية أراد نفرٌ من غير المسلمين أن ينـدسَّ في الركب ، وأبدوا في الظاهر عوناً لمحمد «ﷺ» ولكنهم كانوا يخفون في الباطن مآربَ خاصةً وهي الطمع في الغنيمة الوافرة . . وأدرك رسول الله «ﷺ» الغاية الدنيئة التي يرمي إليها هذا النفر ، فطلب منهم واحداً من أمرين : إما الدخولُ في الاسلام والخروجُ معه إذا أرادوا هذا الخروج وإما الاستغناء عن مرافقتهم . وأسقط في أيدي هذا النفر ، إذ لم يكونوا ليتوقعوا أن يجبههم محمد «ﷺ» بمثل هذه

المجابهة ، فولَّوا من وجهه هاربين ،وبذلك أمن الرسول العظيم الخلاص منهم . . وحلَّت الليلة الثامنة من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، فسار رسول الله «ﷺ» على رأس تلك الفئة القليلة المؤمنة من المسلمين ، بعدما استعمل على المدينة أبا لبابة وأوكل إلى عمرو بن أم مكْتُوم البقاء للقيام بالصلاة في الناس .

وخطا الرسول «ﷺ» أول خطوة أمام جنوده البواسل ، وهو يدعو : باسم الله ، وعلى بركة الله . . . فردّد الجمع من ورائه :

بسم الله ، وعلى بركة الله ، ومضى رسول الله «ﷺ» كأمضى من السيف في عزمه . . ولم تطُل المسيرةُ بالركب أكثر من ميل عن المدينة ، عندما بلغ بيوتَ السُقْيا ، فأمر بالتوقف ، والنزول على الماء ، وطلب إلى رجاله الارتواء من تلك المياه العذبة ، وأخْذَ قسط من الراحة . .

وتعجب الرجال من هذا الأمر ، إذ لم يكن التعب قد بلغ منهم حدّاً يتطلب راحةً من هذا القبيل . . ولكنَّ نيَّة رسول الله «ﷺ» كانت تتجه إلى غير ما ظنوا فقد اعتزم ، وقَبْلَ التوغل بعيداً في الفيافي ، أن يستعرض من خرجوا معه ، حتى يتبين مَنْ كان منهم قادراً على حمل السلاح ، قويّاً على خوض القتال ، ومن منهم لا قِبَل له بذلك . . ولم يخفِ الرسول «ﷺ» مرادَه ذلك عن مرافقيه ، فطابت نفوسهم للفكرة واستحسنوها كثيراً . .

وبالفعل قامَ رسول الله «ﷺ» بالاستعراض الذي أرادَ ، ولكنه فوجىء أنّ بين الرجال عدداً من الفتيان كانوا صغاراً في السن ،

لا يقوَوْن على تحمُّل وعثاء السفر ، فكيف بهم في تحمُّل عبء القتال ، إذا ما فُرض عليه خوضُ غماره ؟! . .

وجَدَ الرسول «ﷺ» أولئك الفتية ، فجمعهم إليه ، وأخذ يمسَحُ على رؤوسهم وأكتافهم بيدَيه الشريفتين ، وهو يواسيهم بحسن حديثه ، وبشاشة وجهه ، حتى طابت نفوسهم ، وقبلوا بالرجوع إلى بيوتهم ، فدعا لهم بالتوفيق وطلب إليهم العودة فوراً ، فلبّوا راضين ، طائعين . . إلاّ واحداً منهم قد ذهب واختبأ وراء أخيه ، وهو يجهش في البكاء . . وعَرَف الرسول بأمره ، فجيء به إليه فسأله من يكون ، فأجابه : « إني عمير بن أبي وقاص يا رسول الله » . . وسأله الرسولُ «ﷺ» عن سبب بكائه ، فعرف منه أنه لا يرغب في العودة إلى المدينة مع رفاقه ، بل لقد اعتزم الخروج مع رسول الله «ﷺ» وهو ما يزال مصمماً على هذا العزم ، وأن ما يُبكيه هو حرمانه من ذلك الأمل الذي يراوده إلى جانب خوفه من مخالفة أمر رسول الله «ﷺ» . . واستكبر الرسول العظيم هِمَّة هذا الفتى ، وتلك الإرادة الصلبة التي حملته على اتخاذ قراره رغم حداثة سنّه ، فأجاز له المسير . .

وتتصدَّر على صفحات الزمان حكاية هذا الفتى ، وهو يتوارى عن عيون رسول الله «ﷺ» بعد استعراض رجاله في تلك المحطة على بيوت السُّقيا ، فيسأله أخوه سعد بن أبي وقّاص :

ـ ما بالك يا عُمير تختبيء وأنت واجفٌ على هذا الشكل ؟

فيجيب عمير : إن خوفي يا أخي أن يكون صغرُ سني هو الحائل دون خروجي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنا راغب في هذا الخروج لعلَّ الله يرزقني الشهادة في سبيله وإعلاء كلمة دينه !..

فيقول سعد : ولكنَّ خروجك يا أخي دون علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطأً لا يقبله منك الله سبحانه ، فقم إلى النبيِّ الكريم وأخبره بما تشتهي نفسك !..

فيقول عمير : ولكنني أخاف أن يردَّني على أعقابي...

فيقول أخوه : قلت لك : اذهب إليه يا عمير ، إنه رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو الذي يقرِّر ما يراه حقا ، ولن يبخل باللطف على إنسان ، صغيرا كان أم كبيرا ، إن أرادَ وجْهَ الله سبحانه وتعالى ..

وكان للفتى الذي هو في السادسة عشرة من عُمره ما أراده .. فقد حضر غزوة بدر ، وقاتل يبتغي لقاء ربه شهيداً ، فلم يبخلْ عليه ربُّه سبحانه وتعالى بتلك الشهادة ، بل نزلت الملائكة تحفُّ به يوم بدر ، وترفعه على أجنحة الايمان إلى السماء ، راضياً مرضيّاً ، ليترك على الدهر أنشودة الشهادة تتغنّى بها نفوس شبّاب المسلمين قبل حناجرهم ، وتهوي إليها أفئدة المسلمين صلاةً قدسيَّةَ لمن أرادَ أن يُخلَّد في حياة الطمأنينة الأبدية ، وفي نعيم السعادة الأزلية .. فطوبى لك يا عُميرُ تنالُ وسامَ شرف الشهادة في سبيل الحق ..

تلك حكاية من حكايات البطولة في الإسلام ، لا نذكرها هنا للتفاخر وحسب ، بل لنؤكد بأن المسلمين عندما آمنوا حقّاً بدينهم ، وعرفوا أهميته في حياة بني الإنسان ، وقدره في تربية هذا الإنسان ، أقدموا على ما أقدموا عليه من بطولاتٍ وتضحيات ردّدت أصداءَها أطرافُ الدنيا ، حتى جاءت العهودُ التي حاولت طمس معالمها وآثارها ، ليستقيم الشرُّ بدل الخير ، ويستشري الباطلُ بدلَ الحق ، على ما تشهده جوانب العالم الأرضي في وقتنا الراهن . .

إذن فقد باتت الغاية واضحةً من الوقوف على بُعد ميل من المدينة ؟ فخروج المسلمين على ذاك النحو الذي خرجوا فيه ، كان يخالف أبسط قواعد التنظيم للعمل الجماعي ، ولا يأتلف أبداً مع طبيعة وظروف السير في أرض هي للعدو ، قد تجعله يهاجم تلك الجماعة المسلمة بصورة مفاجئة ، فيُنزلُ بها ، وهي على غير أهبة للقتال ، خسارة كبيرة ، قد تأتي بأسوأ النتائج على مسيرة الدعوة ككل . . خاصةً وإنه كلّما بَعُدَ المسلمون عن المدينة ، ازداد الخطرُ من حولهم ، لا من قريش وحدها ، بل من جميع قبائل العرب التي تقطن تلك النواحي ، والتي استطاعت قريش أن تقنعها بوجوب محاربة الاسلام حفاظاً على دينها ودين آبائها وأجدادها . . من هنا عمد النبيُّ ﴿ﷺ﴾ إلى تنظيم صفوف رجاله على شكل يمنعُ مفاجأة العدو وغدره ، فجعل له مقدمةً على رأسها الزبير بن العوام ، ومؤخرة عليها قيس بن أبي صعصعة ، ثم عقد ثلاث رايات : راية بيضاء يحملها مصعب بن عمير ، ورايتين سوداوَين يحمل إحداهما علي بن أبي طالب ، والأخرى سعد بن معاذ من الأنصار .

وهكذا ، وبمثل هذا التنظيم ، جعل الرسول العظيم من رجاله جيشا له عدَّتُهُ التي هي الإيمان القوي بالله تعالى قبل كل شيء ، وله عَدَدُه الذي يتألف من هؤلاء الرجال ، الذين لا يزيدون على ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا . ولكنّهم كانوا يُقدَّرون بآلاف مؤلفة ، لما تمتلىء به نفوسهم من القوة والشجاعة ، ولما تجيش به صدورهم من العزم والصلابة . . أما وسائل النقل لذلك الجيش ، فكانت هزيلة ، وهي لا تتعدى في مجملها أكثر من فرسين ، واحدة للمقداد بن الأسود ، وأخرى للزبير بن العوام ، ومن الابل سوى سبعين بعيرا . . ولذا أمر رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ أن يتعقَّب كلٌّ اثنين أو ثلاثة بعيرا ، فيركب الواحدُ مرحلة أو بعض مرحلة ، ثم ينزل ليركب رفيقُه قسما آخر . . وبذلك كان لرسول الله ﴿ﷺ﴾ وعلي بن أبي طالب ، ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنويّ ، بعيرٌ ، وكان لحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة ، ورجلٌ يدعى آنسة ، بعيرٌ . . كما كان لأبي بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، بعير . . .

ورأى صاحبا الفرسينْ رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ يتعاقب مع رفيقيه على بعيرهم ، فجاءا اليه يرجوانه أن يأخذ أحدهما ، فيكون راكبهُ طول الطريق ، فأبى عليهما ذلك . ومثلهما كان صاحباه على البعير ، عليٌّ ومرثدٌ يتوسَّلان إليه أن يبقى في ركوبه ، وأنهما يحتملان المشي فيأبى إلاَّ أن يكون مثل أي فرد في جيشه ، لا يتميّز عن أحد بخصيصة قط ، قائلاً لهما كما هو معهود منه في صفاته الانسانية الرائعة ، وفي سويّ خلقه ، وعظيم إيمانه : « ما أنتما

بأقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » . .

تلك هي روعة الإسلام ، في شتى الامور واختلافها ، فالكلُّ سواء في الواجبات كما أن الكلَّ سواء في الحقوق ، ورسول الاسلام نفسه ، لا يخرج عن هذا النهج السوي المطلق . . . فالإسلام هو المبدأ . . . وتطبيقه واحدٌ على الجميع ، بما يتوافق ومصلحة الجماعة الإسلامية . . . وتلك هي الحقيقة التي تُعايشُ كلَّ زمان ومكان ، سوية عادلة ، ثابتة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا يخالطها تبديل ، اقامها الإسلام قاعدة ، وسنَّها الرسول العظيم سلوكا ، فكان طبيعياً أن تنتظم تلك الحقيقة ، جيش المسلمين في مسيرته ، وكان طبيعياً أن يكون قائد هذا الجيش ، مثالا لذلك التطبيق العمليّ في المعاملة بين أفراده . . .

وهكذا ، وبمثل هذه الروحية العالية ، انطلق أولُ جيش للمسلمين من محلة أبار السقيا في تشكيل مفتوح تحقيقا لغرضين اثنين : السرعة في السير ، وأمْنَ مفاجأة العدوّ في انقضاض غادر . . وزيادة في الحرص ، بعث الرسول ﴿ﷺ﴾ اثنين من أفراد الجيش ، يتقدَّمانه بمهمة استطلاعية ، وكانا بسبس بن عمرو وعدي ابن أبي الزغباء . . وانطلق الرجلان يتسقطان الأخبار عن قافلة قريش العائدة من الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب ، فلم يقفا على خبر حتى انتهى بهما السير إلى ماء بدر ، فنزلا عليه يرتويان ، ويأخذان قسطا من الراحة ، بعد ذلك التعب الذي أنهكهما في قطع المسالك الوعرة ، واجتياز الطرق الصعبة ، ولكنّهما لم يلبثا إلاّ قليلا ، حتى استرعى انتباههما حديث جاريتين كانتا على الماء

تستقيان ، عندما قالت إحداهما للأخرى :

ـ لكِ أن تلوميني يا أختاه على ما قصرت في أداء حقِّك عليّ !

ـ أنا لا أقصد لوماً ، ولكن طال الأجل كثيراً . . .

ـ حقاً ما تقولين ، ولكنْ أحسب أن الفرج قد قرب ، وسوف أوفي دينك عليّ قريباً . .

ـ ولكن كيف ؟

ـ لقد سمعت بأن العير التي يقودها أبو سفيان بن حرب سوف تصل غداً أو بعد غد ، وهي عندما تمُرّ من هذه الناحية سوف أعرض نفسي على خدمة مَنْ فيها من الرجال ، فأتقاضى أجراً على ذلك ، وأدفع لكِ ما بذمّتي . .

ـ إذن أصبحت قريبة قافلة قريش من هنا ؟

ـ نعم يا أختاه ، وآمل أن يستخدمني ابن حرب وينقدني أجرا كافياً . .

ـ أرجو ذلك . .

وسمع موفدا رسول الله «ﷺ» هذا الحديث ، فقاما من فَورهما ، يُسرعان في العودة لملاقاة رسول الله «ﷺ» وإخباره بقرب وصول القافلة . .

وإذا كان محمد «ﷺ» قد حسَب الزمن الذي تعود فيه عير قريش وهي تحمل أكبر تجارة لها ، فإن أبا سفيان بن حرب لم ينسَ بأن المسلمين قد خرجوا في طلب قافلته وهي ذاهبة إلى بلاد الشام ، ولذا فقد

تحسَّب هو أيضاً أثناء العودة من أن يكون المسلمون بانتظاره في ناحية من طريق تلك العودة ، فأرسل يقدِّم من يتقصَّى الأخبار ، حتى إذا عرف بأن محمداً قد خرج مع جماعة من أصحابه لاعتراضه ، خاف عاقبة الأمر إذ لم يكن في حراسة العير إلاَّ أربعون رجلاً ، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري وبعثه مسرعاً الى مكة ينبىء قريشاً بما اعتزمه محمد وأصحابه من اعتراض قافلتهم ، ويستنفرهم على عمل سريع لحمايتها ، على ألاَّ يترك وسيلةَ تثير القوم أو تستنهض همتهم للغوث والنجدة . . .

واتخذ ضمضمٌ لذلك كل مظاهر الصارخ الملهوف ، إذ ما إن وصل من مكة إلى بطن الوادي حتى قطع أذ نَـيْ بعيره ! وجدعَ أنفه ، ثم وقف وقد شقَّ ثوبَـهُ وجعل يصيح :

يا معشر قريش ! اللطيمةَ اللطيمـة ! (وهـو يقصـد مالهـم وتجارتهم) . . ادركوا أموالكم مع أبي سفيان فقد تعرض لها محمد وأصحابه . .

يا اهل مكة ! القوتَ القـوت ! . . . إن لم تهبُّـوا جميعـكم فقدْتُـم الرزقَ والعيش ! . .

يا معشر قريش ! أين أنتم والطيبُ والحريرُ والنفيسُ ، فقـد ضاع كل ذلك منكم ، وأنتم ها هنا قاعدون ! . . .

وتناهى صياح ضمضم إلى مسامع أهـل مكة ، فهبَّـت قريش دفعة واحدة ، تتراكض من كل جانـب ، وهـي تشـدُّ على خيولهـا

وإبلها ، وتتمنطق بدروعها وسيوفها ، وكان من لم يجد رمحا ولا سيفا امتشق عصا ، أو حمل مقلاعا ، وأخذوا يتنادون ويتأهبون للجيش واجتمعوا بعد وقت قصير، وقد وقف على رأسهم أبو جهل بن هشام يزعق فيهم كالغراب قائلا :

ويحكم يا معشر قريش ! . . . أتتركون محمدا يظن بأنها مثل عير ابن الحضرمي ؟ كلاً والله ليعلمنَّ أنها غير ذلك ! . . . فهيا بنا إليه لنريهُ وأصحابه من هى قريش ، سادة العرب ! . .

. . . واجتمعت قريش وهي تتلهّف لملاقاة محمد لالتردُّه عن أموالها فقط ، وإنما لتظفر به بعد أن نأى عن أذاها ، وتزيل الهمَّ الذى بات يُقض مضجعها ، ويحرمها لذة العيش ، فيما تسمع من أخباره في المدينة . وراح أشراف قريش وأبناؤها يستعدون للقتال ، ويتأهبون للانطلاق ومن لم يقدر على الخروج أناب عنه من يقوم عنه بديلا ، فتخلّف بذلك أبو لهب ، بعدما بعث مكانه العاص بن هشام ابن المغيرةمقابل أربعة الاف درهم كانت له ديناً عليه، ولم يكن قادرا على إيفائها بسبب إفلاسه . كما حاول التخلّف اميّة بن خلف ، لكبر سنّه وفتور همته، فقعد بجانب المسجد يشهد استعداد القوم ، ولكنّ عقبة بن أبي معيط وأبا جهل بن هشام ، لم يتركاه وشأنه ، بل ذهب الأول وجاء بمجمرة فيها بخور وجاء الثاني بمكحلة ومرود ، فقال له عقبة وهو يضع المجمرة أمامه :

ـ يا أبا عليّ استجمر فإنما أنت من النساء .

وقال له أبو جهل وهو يأبى إلاّ أن يناوله المكحلة بيده :

ـ اكتحل أبا علي فإنما أنت امراة . .

وطار صواب أميَّة بن خلف من تهكُّم الرجلَين وازدرائهما ، فقام يلملم شتات نفسه ، ويخرج مع القوم ، حتى لم يبق أحد في مكة قادرا على القتال إلاَّ وخرج . . .

وسارت قريش تريد ملاقاة أبي سفيان للاطمئنان على أموالها . . أمّا أبو سفيان فإنه ، بعد أن بَعثَ ضمضم لاستنفار قريش ، سبق العير ليستكشف الطريق بنفسه ، مخافة أن يداهمه محمد وأصحابه على حين غِرَّة . . فلما قَرُبَ من بدر ، وردَ الماء ، فإذا به يجدُ عليه مَجْديَّ بن عمرو ، فسأله إن كان قد رأى أحدا في تلك الناحية منذ فترة ؟! . . فأجابه مجديٌّ بأنه رأى راكبين قد أناخا على تلٍّ هناك بعدما استقيا ، ثم لم يلبثا أن رحلا . . فأتى أبو سفيان إلى حيث أشار الرجل من مُناخهما ، وراح يبحث عن أثرهما ، فوجد بعراً أخذه وفركه بيده فعرف أنه من علائف يثرب ، فقال في نفسه :

« هذه عيون محمد قد وصلت إلى هنا ، وقد تتقصَّى أخبارنا » ! . .

وقفل مسرعاً إلى قافلته ، يحوِّل وجهة العير عن بدر وقد تركها إلى يساره ، ويتوجه بها ناحية ساحل البحر ، وبذلك استطاع أن يبعد ما بينه وبين محمد وأن ينجو بأموال قريش . .

اما النبي ﴿ﷺ﴾ فقد كان رسولاه قد عادا وأخبراه بما سمعاه عن قرب قدوم القافلة ، فغذَّ السير مع جيشه حتى بلغوا واديا يقال له

ذفران نزلوا فيه ، وهناك جاءهم الخبرُ بأن قريشاً قد خرجت عن بكرة أبيها ، برجالها وفرسانها ، ليمنعوا عيرهم . إذ ذاك تغيّر وجه الأمر ، وأصبح محصورا بلقاء قريش أو عدم لقائها ، لا بقافلة أبي سفيانْ وما تحمله من أموال ! . . .

وجلس الرسول «ﷺ» مفكّرا قبل أن يعرض الأمر على المسلمين . .

فهل يعود من حيث أتى ؟! . .

وإن فعَلَ ألا يجعل ذلك قريشا تطمع به ، ثم تطمع به اليهود أيضا في المدينة ؟

وبماذا يعتذر إذا عمدت اليهود إلى الاستهزاء بالمسلمين ، وما كان لهم من موقف من قريش ؟

ولو فرضَ ورأى في المهادنة سبيلاً إلى تهيئة الأجواء التي يريد فهل يقدر أن يتّخذ موقفاً حاسماً لا يكون فيه جدال وكثرة أقاويل قد تُضعف موقف المسلمين ، أو تؤثّر على انتشار الدعوة ؟! . .

ورأى أن يستطلع رأيَ المسلمين فيما يجب الإقدام عليه ، فوقف في جنده وأخبرهم بفرار أبي سفيان بالعير ، وبخروج قريش وأهل مكة ؛ فقام المقداد بن عمرو ، متكلما بلسان المهاجرين وقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، ولا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : فاذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلاَ إنّا هاهُنا قاعدون ؛ بل نقول لك ؛ امْض لأمر ربِّك فإنا معك مقاتلون » . . .

فدعا رسول الله «ﷺ» له وللمهاجرين بالخير .. ثم سكت ، فخيم السكون بدوره على المسلمين .. ولكنها برهة عبرت ، وعاد الرسول «ﷺ» يقول : « أشيروا عليَّ أيها الناس » ..

ومَن يقصد رسولُ الله بقوله هذا ؟! ..

فالمهاجرون وَضَحَ موقفهم ، إنهم على استعداد للقتال ، وقد أبداه صراحة المقداد بن عمرو .. إذن بقي الأنصار ، والرسول «ﷺ» يعنيهم هم !.. نعم إنه يريد موقف هؤلاء الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على قتالٍ خارج مدينتهم ، فلهم الحقُّ في اتخاذ الموقف الذي يرون ، ولا غضاضة عليهم ، ولو امتنعوا عن القتال !.. ولكن هل يفعلون ؟! ..

وأحسَّ الأنصار أن رسولَ الله «ﷺ» يريدهم ، فقام سعد ابن معاذ صاحب رايتهم وقال له :

« لكأنك تريدنا يا رسول الله » ؟

قال الرسول العظيم : « أجل » .

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدَّقناك وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ولعلك يا رسول الله تخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها إلاَّ نَصْرَكَ في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار : فاظعنْ يا رسول الله حيث

شئت ، وصِلْ حبل من شئت ، أو اقْطَعْ حبلَ من شئت وسالم وعادِ من شئت ، وخُذْ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت ، وما أمرت فيهِ من أمر فأمرُنا تبع لأمرك . . فامضِ لما أردت فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضته لخضناه معك ، وما تخلَّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً . إنَّا لصُبُرٌ في الحرب صُدقٌ في اللِّقاء . لعلَّ الله يريكَ منا ما تَقَرُّ به عينك . فسر بنا على بركة الله » .

ولم يكد سعدٌ (رضي الله عنه) يُتِمُّ كلامه حتى أشرق وجهُ النبي ﷺ بالمسرَّة ، فقال مخاطبا الجيش : « سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتَين . والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وتأهّبَ المسلمون مرتحلين عن وادي ذَفِران ، حتى بلغوا مكانا قريباً من بدر[1] . . . فسألوا من لاقوه في تلك الناحية عن زحف

---

(١) بدر هى سهلٌ رملى ما بين مكة والمدينة ، وعلى مسافة تقارب المئة والستين كيلومترا من المدينة ، وتحدُّ هذا السهل تِلالٌ شديدة الانحدار من الشمال والشرق ، وكثبان رملية من ناحية الغرب . أما جنوبه فينتهي بمنحدر صخري منخفض . . ينساب فى واديه جدول ماء ، يعبره من الشرق إلى الغرب ، ويتقطّع هذ الجدول فى أماكن متفرقة ، فيشكل آباراً كان المسافرون يقيمون من حولها سدوداً صغيرة لتصير على شكل أحواض ، يقضون منها حاجاتهم ، ويسقون هوامهم .
وقد جعل الماءُ من بدرٍ محلة مشهورةً ، فكانت تقام بها مواسم العرب ، يجتمعون فيها مرة كل عام لإقامة سوق واسعة تتبادل فيها السلع والبضائع على اختلافها .

قريش ، فعرفوا أنهم ينزلون غير بعيدٍ من هناك . . فبعث الرسول «ﷺ» عليٍّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد ابن أبي وقّاص (رضي الله عنهم) في نفر من الصحابة إلى ماء بدر يتلمسّون له أخبار قريش . . ولم تلبث هذه الطليعة من جنود المسلمين أن عادت وهي تصطحب غلامَين ، قد يُفيدان بمعلومات يُعطيانها . .

وآنس هذان الغلامان من رسول الله «ﷺ» حبّاً يفيض من قلبه على حديثَي السن ، فوقفا بين يديه يجيبانه بما يعرفان عن قريش ، فسألهما عليه وعلى آله الصَّلاة والسلام عن مقام القوم ، فقالا له : إنهم في الناحية الأخرى وراء ذاك الكثيب من الرمال (واشارا إلى ما يريدان أن يدلاّه عليه) . .

فقال لهما الرسول «ﷺ» : وما عدد القوم ؟

فأجاب الغلامان بأن في القوم عدداً كثيراً ، ولكنهما لا يعرفان مقداره . .

فقال لهما : كم ينحرون كل يوم ؟

فأجابا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الجزور .

وأدرك النبيُّ «ﷺ» من ذلك أن عدد قريش يتراوح بين التسعماية والألف من المقاتلين . .

إذن فالأمرُ خطيرٌ على المسلمين . . إن قريشاً تزيدهم في العدد ثلاثة أضعاف . . ومع ذلك العدَدِ لابد أن يكون قد خرج أشراف قريش ، وسائر رجالاتها من أشداء العـزم ، وأقـوياء الشكيمـة ، وهذا كله سيجعل القتال على المسلمين شديداً ، لعدم وجود التكافؤ بينهما لا في العـدد ولا في العتاد . . . ولكن ! . . وأيّاً كانت القوة التي بلغتها قريش ، ومهما كان شأنها عظيماً ، فهـل هي تحـوز تلك الشعلة النورانية التي تتوهـج بهـا أفئـدة المسلمـين ، والتـي يحيلهـا الايمان ، ساعة الوغى ، شظايا لاهبة ، تذيب الحديدَ على أجسـام المشركين ، لتنفذ إلى قلوبهم فتحرقها وتجعلها رمادا تذروه الرياح في كل جانب ؟! . .

لا ! . .

إن قريشاً لا تملك هذه القوة . .

لأن هذه القوة للمسلمين وحدهم . . فهم يملكون نورَ الإيمان الصادق بالله تعالى ، ومع هذا الإيمان فلا خوفَ من عديدِ جُند ، ولا بأسَ من كثرة عتاد . . فأصحابها مشركون ، وكفى بهم شركاً يؤدي بهم إلى الخذلان والخسران . . .

ولكنَّ النبيَّ ﷺ إنسانٌ واقعيٌ ، وقائدٌ حكيم ، ولا يقبل بأن يدفع بجيشه الفتِيِّ إلى معركة سوف تكون حامية الوطيس قبل أن يطلعه على الحقائق تامة ، وخاصة في إظهار الفروقـات بينـه وبـين جيش المشركين . . فأخبرهم بعزمه الثابت بما عند قريش ، وأبان لهم نقاط قوتها ونقاط ضعفها ، كما أوضـح نقـاط ضعف المسلمين من

الناحية المادية ، وقوتهم من الناحية الإيمانية ، ثم نبّههم إلى أن مكة قد ألقت إليهم بأفلاذ أكبادها برمّتها ، وهم يتربصون بهم العداوة والبغضاء رغم ذهاب عيرهم ، ونجاة أموالهم . . .

ولعلَّ تلك المصارحة كانت سبيلاً نفذ إلى بعض القلوب الضعيفة ، فجاء الشيطان يوسوس في نفوس أصحابها ما هم عليه من ضآلة العدد ، وضعف الأهبة ، وقلة السلاح ، ويزيّن لها ما تتمتع به قريش من قوة في العدد والعدّة ، واستعدادها للقتال ، وهي لم تخرج إلاَّ ونية الحرب غايتها القصوى . . . وحيالَ هذا الفارق ماذا تكون النتيجة لو التقى الجيشان ، ودارت رحى الحرب تطحن الرجال والأبطال ؟! . . . ألا تكون لصالح قريش حتماً ؟! . . .

وزادَ في نفور تلك الجماعة القليلة من المسلمين ، من القتال وجودهم في مكان بعيد عن الماء ، يفصل بينهم وبينه كثيب من الرمل لا يُمكن قطعُه ، إذ تغوص فيه الأقدام ، فلا تقوى على المشي . . ولكن تلك الجماعة لم تُعلن مخاوفها ، بل ظلت تنتظر الفرصة ، لكي تقول ما تحسُّ به . . حتى إذا انقضى بعض الوقت ، وفقد منهم الماءُ ، وأعوزتهم الحاجة إليه للشرب وللوضوء والصلاة (إذ لم يكن قد رخص بعد التيمُّم) ، عادَ الشيطان من جديد يوسوس في الصدور ، ويلقي الرعب في القلوب ، مما قد يصيبهم من عطش يقطِّع الأمعاء ويهدُّ القوى ، فيكون السبيل مفتوحاً للمشركين كي يتحكَّموا في مصيرهم كيفما شاؤوا . . عندها ظهر أصحاب النفوس الضعيفة لأنهم لم يعودوا يطيقون اصطباراً، وتحملاً على ما يداخلهم

من تخـوّف ، وراحوا يجادلون النبيَّ ﴿ﷺ﴾ في فائدة قتال لا تكافؤ فيه بينهم وبين الأعداء ، وكانت حججهم قد تركّزت حول حاجتهم إلى الماء ، وهو مادة الحياة ، للإنسان ، فكيف إذا وجد في الصحراء وفي ظرف مثل ظرفهم ! وأي جيش يقدر على مواجهة عدو إذا فقد الماء ؟ أفلا يجعله ذلك يفقد أعصابه قبل فقدان حياته ؟ وأية نفوس يمكنها أن تدخل معركة وهي مزعزعة مهزومة في داخلها ، لما يخالطها من مثل هذا الحرج ، ومن مثل هذا القلق ؟! . . .

لقد برزت تلك الفئة في جيش المسلمين تريد العودة إلى المدينة بلا قتال ، وفيها نزل قول الله تعالى : « وإذ يَعدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحقّ بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين » . . وقوله سبحانه وتعالى : « كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق ، وإنّ فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعدما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » .

وإذا كانت للشيطان غوايةٌ تمكّن له أن يرميَ أقوى النفوس بسهام الضعف ، وأن تصيب الجماعة المتلاحمة المتكاتفة بالخوَر والهوان ، فإنّ سلطان الحق يبقى أقوى وأشدّ ، وإن فعله هو الغالب في نهاية المطاف . .

لقد أمكنَ للشيطان أن يُدخل الشك في نفوس جماعة من جند المسلمين وتربَّعَ يقهقه في تلك الساعة ، لشدة نشوة انتصاره ، إلاَّ أن قهقهته ما لبثت أن تحولت إلى صراخ وعويل ، وهو يرى نجدة

السماء تجيء المسلمين ، إذ أنزل الله سبحانه عليهم المطر مدراراً ، فتأمّن لهم الماء ، يشربونه رقراقاً صافياً ، ويملأون به قرابهم ، ويسقون به إبلهم ، ثم يقومون متطهِّرين مصلِّين ، وهم يشكرون الله على نعمائه ، ويلعنون الشيطانَ على وسوسته . .

وينتهي المسلمون من صلواتهم ، فيشدون الرحالَ من جديد ، إذ بلَّل المطرُ الرملَ تحت أقدامهم ، فتلبَّد وصار السيرُ عليه سهلا ممكنا لا يثقل الأقدام ولا يتعب الأجسام ، فعاجلوه قطعاً حتى لا يجف تحت أشعة الشمس ، ومازالوا يغذُّون السير ، حتى وصلوا وادي بدر ، فنزلوا في العدوة الدنيا مما يلي المدينة . . وهنالك في وادي بدر ، نزلوا يريدون راحةً مما أصابهم من جهد ، وما أقلقهم من حرج . . إذ لم يكن سهلا عليهم أن يروا بين صفوفهم جماعةً داخَلَ قلوبها الضعفُ واعتورَ عزيمتَها الوهنُ ؛ نعم كانت قاسية ، حرجةً تلك اللحظات ، التي استبدَّ بها الرأي في تلك الجماعة تريد العودة دون ملاقاة قريش . . أما الآن وقد ركن إليهم السكون ، فإنَّ في ذلك عزاء لهم ، وإن كانوا لا يزالون يشعرون بأن الاطمئنان غير كامل . . . إذ مازال في الأجواء تلبُّد غيوم ، ولكنهم لا يدرون مصادره . .

وفيما هُم وتلك الهواجس المقلقة يتصارعون ، إذا أصابتهم غشيةٌ من النعاس فانقلبوا نياما . .

نعم ، ناموا فجأة ، وبقدرة قادر ، خيَّمَ عليهم سباتٌ عميق . .

ناموا وكأنهم لا يحفِلون بأيٍّ أمر من أمور الدنيا ، وكأنهم في بيوتهم وبين عيالهم وأبنائهم ، لا بين أذرع الفَلاة أو في أجواء الحرب والقتال . .

. . ثم صحوْا من النوم ! . . .

الله أكبر ، ما هذا النعاسُ الذي غشاهم ، فاستفاقوا من بعده ، وحالهم غيرُ حال ! . .

إنهم جميعاً ، لا يشعرون بأدنى ريب أو شك ، بأنَّ عليهم مواجهة قريش ، وإعطاءها درسا فى الذل والهوان لا تنساه أبدا ما عاشت ! . . .

أين ذلك الخوف الذى استبد بهم حينا ؟! . .

وما هذا الأمن وهذا الأمان اللذان يرفرفان بأجنحتهما فوق رؤوسهم ؟! . . .

وأين ذلك القلق وقد تلألأت أشعة الشمس تغطيهم طمأنينة وسعادة ؟! . .

وأين ذلك الخور والتعبُ اللذان رافقاهم طوال الطريق ، ونزلا معهم في كل منزلة نزلوها ، ونفوسهم تطفح بالصلابة والعزم ؟! . . .

وأين تلك الوسوسة التي زيّنت لهم الإياب إلى الديار ، والشهادةُ تشدُّهم إلى ملاقاة العدو ؟! . . .

نعم أين ذلك كله ، وقد بات منسيا ! . . .

صحيح إنَّ المطر قد أذهب من طريقهم بعض الصعاب التي ظنوها كأداء ، وبدَّدَ كثيراً من الغيوم التي تلبّدت في سمائهم سوداء ، ولكنَّ هذا النوم الذي أتاهم ، قد جعل الأمور تختلف اختلافا كليّا فهو لم يُزح الأثقال عن صدورهم وحسب ، ولم يحطّم كل حاجز أو عائق وقف يحول بينهم وبين هدفهم الذي يريدون ، بل جعلهم كتلة واحدة ، متراصة ، ذات نفس واحدة ، وإرادة واحدة ، وتصميم واحد ، وإن تمثلت في ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا . . تلك هي قدرة الله ، وآياته العظمى دليل ساطع ، على تبدُّل حال المسلمين ، إذ نزلت تلك الآيات تنطق بحكمته عزَّ وجلّ : « إذ يُغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجْز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبّت به الأقدام » . . . .

الله أكبر ما أعظم حكمته ، وما أجَلّ قدرته . .

بأمره الجليل ، وفي برهة من سناء تقديره ، تغيرت الأحوال ، فعاد المسلمون إلى حقيقتهم ، مسلمين حقا لله ، وجنوداً لرسول الله ، لا شيء في كيانهم ، إلاَّ حبُّ الله العظيم وطاعة رسوله الكريم . .

فما أجمَل هدأة النفس بعد قلق يصيبها ، وما أروع عودة اللحمة إلى صفوف الجماعة بعد علامات تنذر بالتشتت والتصدع . . وليس عيباً ما يحلّ بالإنسان في ساعة ضعف يخذله بها الشيطان مادام نداءُ الحق يبقى قائماً في داخله، فهوكفيل بأن يعيده إلى حقيقته ، وأن

يقدّم له سبل الغلبة على ضعفه ، فيطرد الشيطان خاسئا حاسرا .. ولقد مكّن الله سبحانه وتعالى للمسلمين في تلك الواقعة من قوة الايمان ما يستطيعون به ان يطردوا الشيطان ويلحقوه بصفوف المشركين يزيدهم حقداً وضغينة على المسلمين وليس في نفوس المشركين ما يمنع الاستجابة لندائه الخبيث ...

نعم لقد أذهب الله سبحانه رِجْز الشيطان عن المسلمين ، فاسرع اللعينُ إلى جند المشركين يزيّن لهم اعمالهم ، ويصوّر لهم خروجهم من مكة على تلك المظاهر التى خرجوا فيها من القوة والخيلاء ، ويجذبهم إلى ادلالهم بالغطرسة والصلافة والتوهم بأنهم قادرون على سحق المسلمين في اقل وقت ، واهون سبيل ...

وظنّ المشركون انهم فعلا هم الاعزّة الذين لا يُذلّون ، وانهم كانوا وسيظلون اهل الحرم وسدنة البيت ، فإن جاء محمد بصحبه لينزع عنهم هذا الشرف التليد ، فلسوف يرى اىّ سوء عاقبة ينتظرُه ، وأىّ مصير سيلقى ، إنها ستكون ضربتهم الشديدة للقضاء عليه وعلى إسلامه ..

هكذا كان فعلُ الشيطان في نفوس المشركين ، كما يبيّنه قول الله سبحانه وتعالى بقوله: «وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم» ...

وخبث الشيطان لا يقف عند حدود ، إذا وجد التربة الصالحة لنفث سمومه .. وهل أكثر من نفوس أهل الشرك قبولا بوساوسه وتزيينه ، ماداموا أنصارا له ولباطله ؟! ...

وهل يهتم الشيطان لمصير أنصاره هؤلاء ؟! ...

إنــه عدو للانســان ، أيا كان هذا الإنســان ، ومهما كان معتقده . .

وإنّ له مآربا في تلك الساعة الجهنميّـة ، وهو أن يفتك ببني الانسان قدر ما يستطيع ، طالما أن الفرصة سانحة له . . وإذا كان قد أوهم معشر قريش بمظاهر القوة الخادعة ، فإنه ينوي في الوقت نفسه أن يبذّر الشقاق في نفوسهم ، وأن ينشر الخلاف في صفوفهم ، حتى يكون فيهم ضعف يؤدي إلى تقتيلهم شرَّ تقتيل . . . .

وها إنّ هؤلاء القرشيين يختلفون فعلاً فيما بينهم . . فقد تلقوا خبرا من أبي سفيان بن حرب يقول لهم : « يا معشر قريش ، إنكم خرجتم لتمنعوا العير وتحموا الاموال ، وقد نجّاها الله لكم ، فارجعوا » . .

وتلقى فريق منهم هذا الخبر بفرح وسرور ، إذ فيه ما يتيح لهم العودة إلى حياة الدَّعة واللذة ، وإلى ليالي الغناء والطرب والجواري ، وأين منها هذه الاقامة في البطاح ، وبين أحضان الرمال ، حيث يفترشون الأرض بحرها في النهار ، ويستظلّون السماءَ ببردها في الليل . . لا ! . . ليست هذه هي الحياة التي يحلُمُ بها أبناء قريش وقد اعتادوا سهولة العيش ورغد الأيام . .

ولكنَّ هذا الموقف لم يُرض أصحاب التكبُّر والخيلاء ، ولم يقنع ذوى الغطرسة الجوفاء ، إذ كيف يقبلون بالرجوع الى مكة ، وقد رابط محمد وأصحابه في الناحية الثانية ، ولا يُقدمون على ملاقاته ! . . .

فوقف أبو جهل بن هشام يصيحُ في وجوه دُعاة الرجوع بلا قتال ، وهو يقول : « يا معشر قريش ، أتحسبون وقد عدتم أنْ تظل لكم مكانة عند العرب تسودون فيها عليهم وتتصدون لطمع المسلمين ؟! . .

يا معشر قريش ، والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليها ثلاثا ، ننحر الجُزُر ، ونطعمُ الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف لنا القيان ، فتسمع العرب بنا وبمسيرتنا وجمعنا ، فلا يزالوا يهابوننا أبدا » . . .

واشتدَّ النزاعُ بين القوم ، فوقف فريقٌ دون أبى جهل الذي يريد تحقيقا لماربه الخاصة . . حتى إذا رأوْا إصراره وعناده ، تركوا القوم وقفلوا راجعين إلى مكة ، وكان من بين هؤلاء بنو عدى وبنو زهرة ، الذين اتبعوا قسورةالأخنس بن شرِيف ، وكان فيهم مطاعا ، فلم يشتركوا في القتال ، ولم يشهد بدرا زهريٌ واحد . . عاد هؤلاء بينما اتَّبعت سائرٌ قريش أبا جهل ، تحتذي حذوه ، وتسير على خطاه ، رغبة بملاقاة المسلمين وتقتيلهم ، وخوفا من لؤم أبي جهل وبطشه ، أو هربا من تشنيع بعض سفهائهم . . وأيا كانت الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك المنزلق الخطير ، فإنهم ساروا ، وهم يعلنون عن أنفسهم بكافة المظاهر المزيفة ، وشتى الوسائل الخادعة ، حتى وصلوا وادى بدر ، فنزلوا بالعدوة القصوى من ناحية مكة . .

وهكذا اجتمع الفريقان في وادي بدر . . المسلمون بالعدوة الدنيا ، والمشركون بالعدوة القصوى . . . ولم يكن هذا الاجتماع ،

بعدما ذهب الدافع إليه ، وهو نجاة عير قريش بأموالها ، إلاَّ تدبيرٌ من الله سبحانه . فله التدبير والحكمة العليا في كل ما يشاء . وقد كانت مشيئته سبحانه الجمع بين المؤمنين والمشركين في تلك الناحية ، من غير موعد اتفقوا عليه . «**وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ، إذ أنتم بالعُدوة الدنيا ، وهم بالعُدوة القصوى ، والركبُ أسفلَ منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد**» .

وإن هذا اللِّقاء ليكاد يكون بمثابة المعجزة .. فجنود محمد ﷺ وأنصاره إلى الله وعدَّتهم قليلٌ ، بالقياس إلى جنود المشركين وقوة استعدادهم .. وفيه اجتمعت كل عوامل النصر في ظاهره إلى جانب المشركين ، بينما ظهرت كل عوامل الهزيمة إلى جانب المؤمنين .. والإعجاز فيه إرادة الله الغالبة ، بأن تجري المعركة بين الكثرةِ المشركة والقلة المؤمنة ، لتكون فرقاناً بين تصوُّرَين مختلفين ، وتقديرين متناقضين ، أحدهما يعتمد العقيدة مسلكاً ، والآخر يتخذ دروب الضلالة مأربا ، ليتبينَّ للناس أن النصر دائماً للعقيدة الحقة الصادقة ، مادام منطق هذه العقيدة الايمانَ بالله الواحد الأحد وبقدسية الحق الذي يبعثه من عنده سبحانه .. فيكتب الله النصرَ للمؤمنين مؤيدا ، كما يدل عليه قوله تعالى في محكم كتابه المبين : «**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ... ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .. وما النصر إلاّ من عند الله إنَّ الله عزيز حكيم**» .. إلى ما هنالك من ايات محكمات في القرآن الكريم ، تدل كلها دواما على حقيقة قد

يتعامى عنها الناس ، أو قد يتغافلون عن مضمونها أو فهمها ، وهي الحقيقة الساطعة بأن الغلبة للحق ، وأن الهزيمة للباطل . . فإن ظنَّ الناسُ او اعتقدوا بأن الحق للقوة أو للكثرة والعتاد ، وخدعتهم المظاهر ، فذلك وهمٌ يخالف الحقيقة لأن القوة للحق ، والغلبة للحق ويجب أن تكون للحق ، لأنَّ الحق من عند الله تعالى ، وهو سبحانه مع الحق أبدا : « والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون » . .

أما رسول الإسلام ، محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ فكان أعرف الناس بتلك الحقيقة ، ولذا كان أوثق أصحابه وجنده إيمانا بنصر الله تعالى . . . فبات أصحابه نياما ، وبقي هو ساهرا ، قائما على الصلاة داعيا ربَّه تعالى أن ينجز له ما وعده به . . وطلع الفجرُ ، والنبيُّ ﴿ﷺ﴾ مازال يصليِّ ، فهبَّ الجيش بأسره ، يصلِّي وراء هذا الرسول العظيم ، والقائد الحكيم ، حتى إذا أتمّ صلاته بهم خرج إلى ماء بدر يريد أن يسبق قريشاً إليها ، فلما جاء أدنى ماء نزل به .

وكان الحُباب بن المنذر بن الجموحُ في جيشه ، وكان عليماً خبيراً بالمكان . فلما رأى النبيَّ ﴿ﷺ﴾ ينزل حيث نزل ، تقدم وسأله : « يا رسول الله ، أهذا المنزلُ أنزلكهُ الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة » ؟! . .

فقال له رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » .

فقال الحباب : « يا رسول الله ، إنَّ لي خبرة في هذه الأمكنة ، فقد

غشيتها مرات عديدة في حياتي ، وأعرف المواقع الاستراتيجية فيها ، فإن شئت موقعاً أكثر توافقاً لنزول المسلمين ، فانهض بهم حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، وافر المياه ، غزيرها ، فننزله ، ونُغَوِّر ما عداه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً نملأه ماءً ، فنشرب ولا يشربون »...

واستحسن الرسول الكريم ما قاله حبابٌ ، فقال (ﷺ) : « لقد أشرتَ بالرأي يا حبابُ » ...

وعلى الفور أصدر النبيُّ (ﷺ) الأوامر ، فانتقل القوم إلى الناحية التي ارتآها الحباب ، فنزلوا بها ، حتى صاروا أقرب منزل من قريش ، لا يفصلها عنهم إلاَّ كثيب من الرمل .. فباشرت جماعة ببناء الحوض على البئر ، وقامت جماعة أخرى بطمس ما وراء ذلك من آبار .

واستقرَّ المقام بالمسلمين ، فجاءَ سعدُ بن معاذ ، يشير على رسول الله (ﷺ) أن يُبْتَنَى له عريشٌ ، يمكنه منه الإشراف على المعركة ، وإصدار الأوامر والتوجيهات ، ويكون في الوقت نفسه المكان الآمن من غدرة العدو .. فقال سعد : « يا نبيَّ الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونصدُّ عنك ركائبك ، ثم نلقى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا ، فذلك النصرُ من عند الله ، وإن كانت الأخرى ، جلستَ على ركائبك ، فلحقتَ بمَن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنا أقوامٌ ما نحن بأشدَّ حبّاً لك منهم ، ولو ظنوا أنك

ستلقى حربا ، ما تخلفوا عن المسير بين يديك ، يمنعك الله بهم ، ويناصحونك ، ويجاهدون معك » . . .

أوليس رأيّ سعد كرأي الحباب ؟ بلى ، إنه من المقوّمات التي يرتكز عليها سير المعركة ، كما نعرفه في عصرنا ؟ ألا يكون همّ الجيش المحارب قطع الامدادات عن العدو ، وإنّ أهم إمداد آنذاك هو الماء في تلك الصحراء ، ثم ألاّ تكون للقادة التي يسيّرون المعركة ، غرفة للعمليات عنها تصدر الأوامر والتعليمات ، وفيها يُؤمَنّ على هؤلاء القادة من العدو ؟! . . .

إذن فالمسلمون اعتمدوا الأساليب الحربية الصحيحة ، التي من شأنها أن تؤمّن لهم النصر . . فكان قطع الماء عن قريش ، وكان بناء العريش للنبيّ «ﷺ» ، يشرف منه على المعركة ويسيّرها لأنه القائد المنوط به إعطاء الأوامر ، واصدار القرارات ! فأي فكر أدعى للاعجاب من هذا الفكر ، وأي إيمان يكفل النصر كهذا الايمان الاسلامى ! . . .

واثنى النبى «ﷺ» على سعد ، كما أثنى على الحباب ، فبُنى العريش على تلٍّ مُشرف يشكّل ظهره حماية طبيعية ، ويُقبل وجهه على المعركة بحيث يرى من فيه كل ما يجري أمامه بوضوح . . .

انتهت تلك الترتيبات ، فقام الرسول «ﷺ» يسوّي الصفوف ، وينظّم ترابطها بطريقة جعلت جنوده يتوجهون لناحية الغرب بحيث تكون الشمس من ورائهم ، حتى إذا أقبل المشركون كانت الشمس في وجوههم ، ثم دفع برايته إلى مصعب بن عمير ، وأشار إليه بأن يضعها في المكان الذي عيّنه ، ثم وقف صلى الله عليه

وآله وسلم ، ينظر إلى تلك الصفوف وقد رُصّت وسوّيت ، فانشرح صدرّه لذلك المنظر الرائع ، وخطب فيهم يحثّهم على القتال ، ويرغّبهم في الأجر . .

ثم تطلع الرسول العظيم إلى هذه الوجوه المؤمنة ، وإلى هؤلاء الرجال ، وقد وقفوا على أهبة الاستعداد ، فحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال :

« اما بعد ، فإنى أحثكم على ما حثّكم الله عليه ، وأنهاكُم عما نهاكُمْ الله عنه . فإنّ الله عظيم شأنه ، يأمر بالخير ، ويحبُّ الصدق ، ويُعطى الخير أهله على منازلهم عنده . وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله تعالى فيه من أحد إلاّ ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر فى مواطن البأس ممّا يُفرّج الله به الهم ، وينجى به من الغمّ ، وتدرك به النجاةٌ في الآخرة . . . فيكم رسول الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطّلع اللهُ عزَّ وجلَّ على شيء من امركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : « **لمقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسكم . .** » وأبلُوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين » .

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يخططون استعداداً لبدء المعركة ، كانت قريش قد أقبلت منصّبة من كثيبها إلى الوادي ، ونزلت منازل القتال . . وهكذا صار الفريقان في موقع

المواجهة . . .

وأراد أبو جهل أن يتبيّن عدد المسلمين ، فاختار لذلك عمير بن وهب الجمحي ، وكان فارساً شجاعاً وكلّفه بالقيام بجولة استطلاعية أمام جيش المسلمين ، فجاء هذا الفارس القرشيُّ يجول بفرسه قبالة عسكرهم ، ثم رجع إلى أبي جهل يقول له :

« إنهم في العدد لا يزيدون على ثلاثمئة إلاَّ قليلاً . ولا كمين لهم ولا مورد ، ولكنهم قومٌ ليس لهم مَنعَـةٌ إلاَّ سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله . . إنهم وما يبدون ، نواضح يثرب قد خرجت تحمل الموت الناقع ، ترونهم خرساً لا يتكلمون ، ويتلمّظون تلمُّظ الأفاعي . . فإن أصابوا منا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك » ؟! . . .

وسُرّ أبو جهل لخبر قلة المسلمين ، ولكنْ لم يُعجبه كلامُ عمير ابن وهب، فقال له بعدما أنهى كلامه : « كذبت وجبنت . . فما هم بقادرين على قتالنا . . ما هُمْ إلا أكْلة رأس ، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذا باليد » ! . . .

وأرادَ رسولُ الله أن يُشهد ربّه على أنه ، أوفى بالحسنى ، وأنه وإنْ كانت قريش عدوّة دينه وعدوه اللدود ، فإنه لا يريد إهراق الدم ، إن كان ثمة وسيلة للسلم والتفاهم أو ما يوصل إلى تقبُّل الحقيقة والانصياع لحكمها ، فبعث إليهم برسول يقول لهم :

« يا معشر قريش ، إن رسولَ الله يدعوكم للرجوع إلى دياركم ، فإنه يكره أن يبدأ بكم ، فخلُّوه والعرب حتى يرى أمره

فيكم » ! . . .

ورأى عتبة بن ربيعة صدقاً فيما بعث إليهم محمد . فصاح في قومه : « ماردَّ هذا قومٌ عقلاءُ قطُّ . . فأفلحوا يا معشر قريش ! . . . »

ثم ركب جملا له أحمر اللَّون ، وراح يجول بين المعسكرين ، ناهياً عن القتال ، فنظر إليه رسول الله «ﷺ» وقال : « إنْ يكُ عند أحد خيرٌ ، فعند صاحب الجمل الأحمر ، وإنْ يُطيعوه يرشدوا » .

وبعدما جالَ عتبة بن ربيعة على جمله مرات عديدة ، وقف يخطب في قومه وهو يقول :

« يا معشر قريش ! أطيعوني اليوم واعصوني الدهر . إنَّ محمدا له آلٌ وذمة ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجلٍ قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته . . فارجعوا وخلُّوا بينه وبين العرْب . فإن يكُ صادقا ، فهو ابنُ عمٍّ لكم ، وأنتم به أعلى عينا . وإن يكُ كاذبا كفتكُمْ ذؤبان العرب أمرَه ، وذلك الذي أردتم » . .

وثارت ثائرة أبي جهل لما يسمع ، وخاف أن يُفسد عليه عتبةُ ما دبره لقتال محمد ، فطلب عامرَ بن الحضرمي ـ أخاعمرو الذي قتل على يد رجال سرية عبد الله بن جحش ـ يؤجّجُ في صدره نار الثأر لأخيه ، وهو يقول له : « أرأيت يا عامرُ هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس . وقد رأيت ثأرك بأمِّ عينك ، فقم فأنشد مقتل أخيك » . .

وركب عمرو على فرسه ، وراح يصرخ في ملأ قريش : « واعمْراه ! واعمْراه ! . . . » . . .

وتواثبت صرخة الثأر من نفس إلى نفس ، تُهيّج عاطفة الجاهلية ، ولبّى نداءها زعاقُ الموت عويلا خانقا ، فدوّت في جنبات بدر أصداءُ المنايا وهي تهتف بالرجال : « هلموا إلى حتوفكم فقد دنت مواسمُها » . .

وانبرى من بين صفوف المشركين ، رجلٌ صعقهُ هتافُ الثأر ، يدعى الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، واندفع نحو المسلمين ، يريد أن يدهم حوض الماء الذي أقاموه ، وهو ينادي : « لأعاهدنَّ آلهة قريش ، ولأشربنَّ من حوضهم ولأهدمنّهُ أمام عيونهم ، أو لأموتنَّ دونه » . . . وقهقهت الهة قريش ساخرة من استنجاده بها ، وطلب كرامتها ، ثم قذفتْ به كمثل كرة تتدحرج ، فتلقّاه الحماةُ الأشاوسُ الذين وقفوا متأهبين لكل هجوم ، حتى إذا اقتربَ من الحوض ، اندفعَ إليه حمزةُ بن عبد المطّلب كاللّيث الجسور ، يستقبله بضربة من سيفه فيقطع ساقهُ ، فيسقط على الأرض يشخبُ دمُهُ ، ثم يعاجله بضربة أخرى ، تقضي عليه ، وتُرديه جثةً هامدة لا حراك فيها . .

ورأى أبو جهل ما حلَّ بالأسود ، فاستشاط غضبا على عُتبة بن ربيعة ، وراحَ يكيل له الشتائمَ ، ويُلصق به أشنَع الصفات وهو يقول له : ارأيت أيها الشيخ الهرم ما فعلَ سحرُكَ وجبُنك ؟ لقد حرّضت القوم على الرجوع إلى مكة لتقاعس منك وخوف ، فما أنت

إلاَّ حقيرٌ لا يقوى على قتال » . . .

ووقف عتبة في وجهه يردُّ عليه شناعته : « أيها اللئيم الخبيث ، أمثلي يجبن ؟ ستعلم قريشٌ أيُّنا جبانٌ وأيُّنا مفسد لقومه ! . . لقد زرعت الفتنة ونجحتَ ولكنك ستحصد شرَّ ما زرعت » . .

فلم يلبث عتبة بعدها إلاَّ أن دعا أخاه شيبة وابنَه الوليد ، واستحثَّهم على المبارزة ، ثم انطلق أمامهما نحو صفوف المسلمين وهو ينادي : « يا محمد . . . ها نحن سادةٌ من قريش قد جئنا نقاتلك ،فهل بعثت إلينا أكفاءنا من قريش » ؟ . . .

وما كاد يُنهي مناداته حتى وجد قبالته ثلاثة شبانٍ ، تفرَّس في وجوههم ، فلم يعرفهم ، وكان هؤلاء الشبان قد انحدروا نحوه وصاحبيه قادمين يريدون مبارزتهم ، فقال لهم :

« ما أنتم من أهل مكة ، ولا من مُعشر قريش » ! . . .

فانتسب الشبانُ ، وعرَّفوا بأنفسهم بأنهم من أنصار محمد ، وأنهم يريدون قتالهم . فأبى عتبة ذلك وقال لهم : مالنا بكم من حاجة يا أهل يثرب ، إنما نريد أمثالنا من قريش ، فهلاَّ بعثتموهُمُ إلينا ! . . .

وكان النبيّ ﷺ يرقب المشهد ، ويسمع ما يدور من قول ، فقال لمن حوله : « عجيب أمر عتبة ، لقد عَدَلَ عن خطة المسالمة وكان منذ قليل يدعو إلى العودة عن القتال . . . » ثم نظر إلى

عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو يومئذ في السبعين من عمره ، وقال له : قم عبيدة ! . .

وتطلّع إلى عمه حمزة بن عبد المطلب وقال له : « وأنتَ يا عمُّ ، انزلْ إليهم » . .

ثم جال بناظريه في المسلمين ، ثم دعا عليَّ بن أبي طالب بالوثوب نحو القوم وهو يقول له :

« هيَّا يا أصغرَ السن وأبطشَ الذراع » ! . .

ولبّى القُرشيُّون الأبرارُ (رضي الله عنهم) أمرَ نبيّهم ، فاندفعوا إلى ساحة المعركة ، بنفوس مؤمنة ، صادقة ، تتوقّد شجاعة وعزيمة ، فاختارَ عبيدةُ مواجهة عتبة ، بينما اختار حمزةُ مواجهة شيبة ، واختار عليٌّ مقاتلةَ الوليد . . وحتى في أحلك الساعات ، وأشدّ الظروف ، نجد السلوك الإسلامي قويماً مستقيماً . .

فما كان اختيار الرسول لهؤلاء الصحابة عبثاً إذ لما رأى المبارزين من المشركين ، بعث إليهم من هم صنو لهم قوةً وسنّاً . . ووقف كلٌّ من الأبطال الثلاثة في مواجهة نظيره تماماً ، الشيخ قبالة الشيخ ، والفتى في مواجهة الفتى ، والرجل أمام الرجل ، ولكنَّ الفارق ما لبث أن برز سريعاً في البطولة فإن هي إلاَّ جولة وكان حمزة وعليٌّ بعدها قد أجهزا على عدوَّيهما في مثلِ وَمْضِ البرق إذ عاجَلا بسيفهما ذَينَك الكافرين وجندلاهما على الثرى ، ثم التفتا نحو عبيدة وعتبة ، فإذا هما قد وقعا على الأرض ، وقد نالَ كل منهما الآخر بضربة ، فتقدما لا يمهلان عتبة ، بل يهويان عليه بضربة واحدة

تورِدُه حتف المنون ، ثم حملا عبيدة إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ والدم يسيل من ساقه المقطوعة ، فأفرشه الرسول ﴿ﷺ﴾ ركبته الشريفة ، وبشرَّه بالجنة حين كان يتربَّع على أكفِّ الشهادة الحقة في ذلك اليوم المشهود .. بينما هوى ثلاثةٌ من أعاظم رؤوس الكُفر والضلال إلى قعرِ جهنم وغضبِ الله فانكسرت بهذه الضربة البِكر شوكةُ قريش وذلَّتْ رقابهم إذ ما عتَّم أن خسروا ثلاثة من زعمائهم وأكابر وجهائهم وأبطالهم المقاتلين ..

.. ورأى المشركون ما حلَّ برجالاتهم الثلاثة من مصير ، فاندفعوا نحو المسلمين كالسيل الجارف ، وأبو جهل من ورائهم يحرِّضهم وهو يزعق كالغراب : « لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر أبناء ربيعة . عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً . وعليكم بقريش فخذوهم أخذاً حتى ندخلهم مكة ، فنذيقهم مرَّ العذاب ، فيعرفوا أيَّ منقلب ينقلبون » ..

فياالجهالة هذا الرجل الذي يُدعى أبا جهل بن هشام !...

أفبعدَ ما رأى بأم عينيه بطولة أول نفرٍ من المسلمين ، برز إلى المعركة يركب الضلالَ ، والوهمُ يحدد خطاه ، ويزيِّن له القدرة على تحقيق النصر ؟ لقد راح يُمنِّي النفس بأن يسوق المسلمين من أبناء قريش أسارى بين يديه إلى مكة فيمثِّل بهم حسبما تشتهي أهواؤه الخبيثة ، ونواياه الشيطانية ؟! .. أهذه كانت منه حماقةٌ أم جهالة ؟ أم هو حقد دفين شرس في نفسه أطاش حلمه وأذهب صوابَه ؟ .. لا وصف ينطبق عليه ! أليسَ هو أبا جهل .. وجهالته تكفي للدلالة

على ما تضمُّ جوانحه من فساد ؟!. . على أن المشركين لم يكونوا في معظمهم ؛ أقلَّ توهماً من زعيمهم أبي جهل . . فقد ظنوا بأن في كثرة عددهم ما يُدخل الرعبَ في قلوب أعدائهم ، حتى إذا رأوهم يندفعون نحوهم كالسيل العارم ، تراجعوا أمامهم وولوا الأدبار . . ولكن أين منهم ذاك الوهمُ ، والمسلمون في انتظارهم يتحرقون شوقا لملاقاة هذا العدو الغاشم .. وها هُم ، وقد رأوا هجومه نحوهم ، بقوا في أماكنهم ثابتين ، بسواعدَ شدَّت على الأقواس لتمطر الزاحفين بوابل من السهام والنبال ، فتخترق منهم الضلوع ، وتصيب الرؤوس والأحشاء ، فيهوي منهم من يهوي ، ويفلت من ينلت ، ثم ينقضّون عليهم كالنسور تهبط من أعاليها ، وقد شرعت مخالبها للقنص الوفير . .

واعتلى محمد «ﷺ» التلَّة قرب عريشه ، يحرِّض المسلمين على قتال أعداء الله ، وهو يُلقي على أسماعهم قولَ الحق ويقول : « **والَّذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رجل واحدَ ، فيُقتل صابرا محتسبيا ، غيرَ مُدبر ، إلاَّ أدخله الله الجنة** » . . .

ثم لا ينسى النبيُّ الكريم ، ورسولُ الحق ، حتى في هذا الموقف الحرج ، ومن خلال نداء تحريضه وحضِّه على القتال ، أن يهيب بالمسلمين ألاَّ يقاتلوا إلاَّ عدلا ، فلا يقتلوا من يقع في أيديهم أسيرا ، أو من يسلِّم نفسه إليهم ، وأن يتحاشَوا مصارع قوم ذُبُّوا عنهم في مكة ومنعوهم . . وأن لا يتوخَّوا من قتالهم إلاّ الذودَ عن دين الله ، وحماية الإسلام من الكافرين . .

ذلك هو الخُلق المحمديُّ يتلألأ مشعَل نور على جبين الدهر ، يُضيء جوانب الظلام كلما خيَّـمَ على حياة الإنسان . .

فهو في أول معركة يخوضُها = الإيمانُ ضد الكفر= لم يغفلْ عن نفر في عداد قريش قد وقف يوماً إلى جانبه يذودُ عنه وعن المسلمين في أحلك الظروف وأشدِّها صعوبة . . ولـم يكن ذلك النفـرُ إلاَّ بنـو هاشم ومن شايعهم من قريش ، أو وقفَ مثل مواقفهم . . فإنهم ما كانوا يوماً إلْبا على المسلمين في مكة ، يتهددون وجودهم وكيانهم . . بل على العكس كانوا الحماة يوم أرادتها قريش حملةً شعواءَ لا تُبقي ولا تذر . .

أوليس هُم الذين عاشوا النكبة مع المسلمين عندمـا فرضتهـا قريش مقاطعة لا تحمل إلاَّ القهـر والتجـويع ولا تبتغـي إلاَّ النفـيَ والمذلّـة ؟

بل يكفي أنـهُمْ لم يشتركوا في تعذيب المسلمين ، وفي إلحاق الأذى بهم ، لكي يحفظ لهم رسول الله ذلك الصنيعَ الجميل ، فكيف وقد كانت لهم تلك المواقف الرائعة منه ومن أصحابه إبَّـان المحـن والنكبات ؟! . . . فهل يعاملهم رسولُ الحق في قتال قد يكون فرض عليهم كرها من شياطين قريش بمثل ما يعامل هؤلاء ؟! . . .

لا والله لا يكون ذلك . . فهو محمد بن عبد الله ، الإنسـان العادل ، الذى يحفـظ العمـل الجميل ، ويفيه حقَّـه يوم يقـدر على الوفاء .

ومثل بني هاشم أيضاً ، كانت لنفر من قريش أياد بيضاء على

المسلمين ، يوم سعى هذا النفرُ لإيصال المؤن والمياه إلى المحاصرين متحمِّلاً المخاطر في سبيل ذلك ، ويوم حرَّض على نقض صحيفة المقاطعة غير آبهٍ لعنَت المتعنِّتين من زعماء قريش أو لصلافة المتكبرين منهم . .

نعم ، ومن أجل ذلك ، كان نداءُ رسول الله «ﷺ» لأصحابه ، وهم يشدُّون على المشركين ، ألاَّ يقاتلوا أصحاب الصَّنيع الحسن ، وهم معروفون منهم ، بمثل ما يقاتلون به رؤوس الشِّرك وأسيادَ الكفر ، ومَن نزا نزوتَهم الحاقدة على الإسلام . .

وإذِ الْتقى الجمعان ، تردَّد في آذان المسلمين نداءُ رسولهم وهو يعدهم بالجنة ، ويوصيهم بقتال شريف عادل ، فهفتْ قلوبهم الى الشهادة وأخذت تتنسَّمُ مشاعرهم رياحَ الخُلْد ، فإذا الحياة الدنيا عندهم بلا قيمة إلاَّ بما تمكِّن من عبور سريع للدخول في رحاب الله الفسيحة ، عابقةً برحمته ورضوانه . .

بل أخذتْ تهتفُ في أعماقهم الطمأنينةُ فرحةً جذلى ، فتردِّدُ حناجرُهم ذلك الهتافَ الرائعَ ، وكلُّهم يتغنَّى بلسان عمير بن الحمام : « بخ بخ ! . . . أفما بيني وبين الجنة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء ؟ إيهِ أيتها التمرات الطرية في يدي : اذهبي ، لئن أنا حييت حتى آكلكِ ، إنها لحياة طويلة » . .

ولم يَرْم عمير تمراتِه من يده فقط . . ولم يلفظ ما كان قد وضعه في فمه منها وحسب ، بل تأبَى عليه مشاعره إلاَّ أن يعبر عما يجول في صدره ، وصدور إخوانه ، في تلك الساعة ، وهم يندفعون

نحو الأعداء ، فيهتف منشداً :

ركضاً إلى الله بغير زاد
إلاَّ التُّقى وعمل المعاد .
والصَّبر في الله على الجهاد
وكلُّ زاد عُرضَة النَّفادِ
غير التُّقى والبِر والرشاد .

ويشتد احتدام المعركة فهنا يطير هامٌ عن جسد وهناك يهوي فارسٌ وبجانبه ينكبُّ راكب ، ويرتمي راجل . . ومن تحت الأرجل والحوافر يرتفع الغبار ، فيغطي الأجواء !! الكلُّ في كرٍّ وفرٍّ ، وصيحات الرجال تختلط بمقارعة الدروع والسيوف ، حتى ليخيَّل للرائي بأن الأرض قد مادت تحت الأقدام ، وأنَّ السماء تُنزل اللَّعنات على المشركين الفاسقين . . .

ووقف النبيُّ «ﷺ» في عريشه يشهد تلك الواقعة الحقيقية ، وهو يلعَنُ سفهاءَ قريش الذين أرادوها معركة شرسة ، وفضَّلوها على الانصياع لدعوة الحق ، والاهتداء إلى الإيمان . . وكان يُداخِلُهُ بعض الخوف على مصير الدِّين والمتدينين ، وهو يرى المشركين يلتفُّون بأعدادهم الكثيرة حول المؤمنين بقلة عددهم ، فيصعِّد بناظرَيه نحو السماء ، ويتوجه بخالص فؤاده إلى الله سبحانه وتعالى ، خاشعاً ، متضرعاً ، مبتهلاً ، مستعيناً بقدرة الله أن تؤيد المسلمين بالنصر . . . ثم يأتيه الاطمئنانُ ، استجابةً من ربِّه تعالى ، بكلمات صادقة كريمة : « **يا أيها النبيُّ حرِّض المؤمنين على القتال ، إن يكن**

منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئةٌ صابرةٌ يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » . .

ويستبشر رسول الله (ﷺ) بالنصر ، فيتعالى صوته يشقُّ عنان الفضاء ، ويغلب على قرقعة الحديد ، وصهيل الخيول ، وصيحات الرجال ، ويصلُ إلى المسلمين قبسا روحانيا ، ويحُلُّ في نفوسهم قوة وعزيمة ، فإذا بهذه القوة المعنوية تشعُّ من نفس محمد (ﷺ) لتنبت في نفس كل مسلم قوى مضاعفة ، حتى ليحِسُّ واحدُهم بأنه كفؤ لعشرة رجال ، وأنَّ يد الله سبحانه فوق يده تحرِّك سيفه فيضرب ، وتسدِّدُ رميته فتُصيب ، وأنه ليس وحيدا مع إخوانه المسلمين في المعركة ، بل هُم في حشد من جنود الله الخفية ، لا يُدركون كنهها ، ولا يعرفون مقدارها ، بل يحسُّون بوجودها تقاتل معهم جنبا إلى جنب .

وتضعُف في عيون المؤمنين شكيمةُ المشركين العاتية ، وتتضاءل في نفوسهم قِواهم الباغية ، فيفرقون صفوفهم ويشتتون جموعهم ، ويكتسحون دفاعاتهم كما يكتسح السيل العرم الغُثاء الأحوى ، وهم يبحثون عن زعماء قريش وأسيادهم ، حتى يكونوا الهدف الذي يريدون استئصاله واقتلاعه من جذوره ، فلا يعود من بعده للكفر معقل في بلادهم . . ويلمحُ بلالٌ ، في هذا البحث ، أميَّة بن خلف وإلى جانبه ابنه علي ، فيندفع نحوهما ، ويصرخ في وجهيهما ، يذكرهما بما كانا يفعلان به في مكة حتى يفتناه عن دينه ، فيقول

لأمية : إيه يا رأس الكفر ، ألا تحمل الصخرة العظيمة اليومَ بين يديك ، تريد بها صدر بلال الحبشي ؟! . . . فوالله لن أدعَك تفلت من يدي وأنت على كُفرِكَ الجهنمي حتى أُوردكَ نارَ جهنم . .

وتصدعُ صرخةٌ بلال أمية ، فترتعد أوصالُه ويُدرك أن ساعته قد دنت ، فيتطلع حواليه يريد هرباً ، فإذا به يلمح عبد الرحمن بن عوف ، وكان صديقاً له في مكة ، فينطلق نحوه وهو يصرخ بابنه أن يتبعه ، حتى إذا كان على مقربة منه ، صرخ فيه يستجيره ، ويطلب حماية له ولابنه ، وكان عبد الرحمن يحمل أدرعاً اغتنمها ، فيقول له أمية : « هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدرع التي تحمل » ؟

ويحاول عبد الرحمن أن ينجده ، فيطرح الأدرع وهو يقول له : «نعم والله ، فقد كنتَ لي صديقاً » . . ولكنّ بلالاً كان قد لحق بأمية ، وهو ينادي بأعلى صوته : « يا أنصارَ الله ، هذا رأس الكفر امية بن خلف » . .

وكان المسلمون يعرفون مقدار ما عاناه كثيرٌ من المسلمين على يد أمية اللعين من أذى وعذاب ، ويعلمون مدى ما يضمرُهُ من حقد على رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعلى دعوته . . فما أن سمعوا صرخة بلال تنطق باسم ذلك الكافر ، حتى جذبتهم تلك الصرخة والتفَّت جماعة من حوله مثل التفاف السوار من حول المعصم . . وحاوَلَ عبد الرحمن بن عوف ، أن يخفف من غلواء القوم كي يدعوا الرجل أسيره ، فلم يأبهوا له ، بل تقدموا من ابن عُتبة فأردوه قتيلاً . . ويرى عتبةُ ابنه يهوي أمام عينيه مضرجاً بدمائه ، فيصرخ ملهوفاً : وا إبناه ! . .

وتلتقي صرخته بصرخة عبد الرحمن بن عوف وهو يدعوه إلى الهرب قائلا :

« أنجُ بنفسك يا امية ، وإلاّ فلا نجاة بعد الان ، ولست بمغنيك عن شيء » . ولكن سيف بلال كان اسرع من الصرخات ، وأسبق من التحذير ، إذ تلقّف رقبة أميّة بن خلف بضربة المؤمن الذي ذاق لوعة التعذيب ، فجعله يتدحرج تحت سنابك الخيل ، وأخفاف الجمال . . فيشق إذ ذاك صوت بلال عنان السماء وهو ينادي : أحدٌ أحد ! . . ويردد المسلمون من ورائه هذا النداء : أحدٌ أحد . .

وينظر عبد الرحمن بن عوف إلى ما حوله ، فإذا الأمرُ قد انتهى إلى غير ما يشتهي ، فيقول: « رحم الله بلالا ، فما راعى حرمة صداقتي . وقد فجعني بأسيري وأدراعي » ! . .

هوى عتبة بن ربيعة ، كما هوى أمية بن خلف ، وكانا من أشد شياطين قريش عنتا على المسلمين ، ولكنّ رحى المعركة لم يتوقف ، بل ما زال في الفريقين ابطالٌ يشدُّون ويخوضون غمار القتال . .

ثم يخوضها حمزة وعلي، وعمرٌ، وأبطالُ المسلمين، تلك المعركةُ الهائلة ، معركة الحق مع الشرك ، ويلتقون في خضمّ القتال بعض الذين اوصاهُم رسولهُم الكريم الرفق بهم ، فيجهدون لأخذهم أسارى دون قتلهم إلاّ من أراد قتلَ نفسه ، لعلّة او لأخرى ، كما فعل أبو البختري بن هشام ، عندما لقيه المجذَّر بن زياد فناداه :

« يا أبا البختري ، لقد كنت عونا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الشدة ، وما أحب إليّ إلاّ أن تخلي ساحة الوغى يرحمك الله ، او تذهب إلى رسول الله تتفيّأ بعطفه وشفقته . . . » .

وتهدّ هذه الكلمات ابا البختري، فيلتفت إلى جنبه ويقول للمجذّر :

« وصاحبي هذا وقد لازمني منذ خروجي من مكة ، وما زال برفقتي » ؟

قال المجذّر : « وهل أعانك صاحبك هذا يوم نقض الصحيفة » ؟

قال أبو البختري : لا والله ! . .

قال المجذّر : « إذن فسلْهُ ، هل يريد الانصياع لأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ويذهب إليه صاغراً ، شاكي السلاح » ؟ .

وهنا أجاب الرجل : لا ! . . لن أفعل ، وتعيّرني قريش ! . .

عندها قال المجذّر لأبي البختري ينهاه عن مؤازرة صاحبه :

« أوقد سمعتَ ما قال الرجل يا صاح ، فخلّ بيني وبينه ، واذهب لأمرك » . . ولكنَّ أبا البختري بن هشام ، لم يمتثل لنصيحة المجذّر ، بل قال له :

« ما أنا بتارك لصاحبي ، ولأموتنَّ دونه حتى لا تتحدث عني

نساءُ مكة ، بأني آثرت الحياة على الوفاء بالعهد » .

وهكذا اختار أبو البخترى المصير الذي رآه ، فاشتبك مع المجذّر في قتال أودى بحياته ، ولم يكن نصيبُ صاحبه من الحياة بأوفر حظاً منه ، إذ لقي مصرعه اثناء المعركة . .

فالقتالُ يتأجج لهيبه ، واحتدام الغضب يشتدُّ سعيْرُهُ ، وهنا رؤوس تتطاير ، وهنالك هامات تتدحرج . . ولكن أين رأس الفتنة أبو جهل بن هشام في كل هذا ؟

إنه في وسط المعركة مثل الأفعى يتلوّى من ناحية إلى ناحية ، وهو يحاول ألاّ يدخل في اشتباك مباشر ، أو في مواجهة حاسمة . . بل يحرِّض قومهُ ، متجنّبا الضربات ، ويشدُّ عزم قريش ، متفاديا الهجمات ، حتى شدَّ عليه مُعاذُ بن عمرو بن الجموح من الأنصار وأمكنه أن يصل إليه بضربة أطنّت قدمه بنصف ساقه ، ولكن ابنه عكرمة كان من ورائه ، فتقدم من معاذ يضربه على عاتقه فقطع يده وبقيت معلّقة إلى جنبه بجلدة لها ، فلم يعد قادرا على قتال . . ويرى معوّذ بن عفراء ما حلَّ بمعاذ ، فيهجم على أبى جهل ، يرميه بضربة وهو يقول : « لقد أرسلك الله إليَّ يا مفسد القوم ، فخذها من يد المؤمنين جزاء وفاقا لما عذبتموهم في مكة ؟ ويهوي أبو جهل على الثرى مثخنا بالجراح ، فيظنهُ معوّذ قد قتل وذهب إلى الجحيم ، فيبتعد عنه ليواصل القتال ذودا عن دين الله . .

وفي هذا الجوّ المحموم ، وفي حمى هذا الوطيس ، كان الرسول ﴿ﷺ﴾ ما يزال على موعد مع ربه ، يناجيه ، ويضرعُ إليه أن يؤيد

المسلمين بنصره المؤزّر ، حتى لا تعلوَ كلمةُ الكفر ، وتحول دون نشر دينه الحق . . ولكنّه في الوقت نفسه لا ينفكُّ قائماً على تحريض المسلمين ، وشحذ هممهم ، ووعدهم بثواب الله الأوفى . . فيأخذ صلىّ الله عليه وآله وسلّم حفنة من الحصى ويرمي بها وجوه قريش وهو يقول :

« شاهت الوجوه » .

فلا يلبث بعدَهَا المشركون ساعة من وقت ، إلاَّ وتخور منهم القوى ، وتوهن العزائم . . فيجدون أن العديد من أشرافهم قد سقطوا صرعى ، وأنّ الأشداء من فتيانهم صاروا جثثاً هامدة ، وهم يجهدون في مواصلة القتال ، منهكين ، لاهثين ، ولكن دونما جدوى .

ويتطلعون فيما حولهم ، فإذا كل شيء قد تصدَّع ، وصاروا مثل ثوب مهترىء ، ممزّق . . وحيال هذا الواقع ، لم يروْا أجدى لهم من الفرار يتّخذونه سبيلا ، ومن الهرب من وجوه المسلمين ، يعتمدونه طريقا . . فولَّوا وجوههم نحو كثبان الرمال يحاولون النجاة ، وهم يلقون بأحمالهم واسلحتهم حتى لا تعوقهم عن الهروب . . ولكن أنى لهم نجاةٌ او هربٌ والمسلمون في أثرهم يجدُّون ويلاحقونهم بنفوس حمِّية ، وقلوب أبيّة ، فيأسرون منهم من يأسرون ، ويغنمون منهم ما يغنمون.؟ وما زالوا بهم يشتتون قواهم ، ويبدّدون عزائمهم ، حتى انجلت بدرٌ في عصر ذلك اليوم ، السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة

عن هزيمة ساحقة للمشركين ، ذهب فيها من الرجال سبعون قتيلا من الأعداء ، ووقع في أيدي المسلمين مثل عددهم أسارى ، فضلا عما خلّفوه من متاع وزاد وعدة حرب كانت غنائم كبيرة للمسلمين .. ومقابل هزيمة قريش كان نصرُ الله للمؤمنين ، فقد وعد به رسولُه الكريم ، وأيدَّه بقوى خفيّة ، حقّقت لهم ذلك النصر العظيم ..

وأقبلَ النبى «ﷺ» والمسلمون يتفقدون الجرحى من الفريقين ، علّهم يجدون من يسعفونه ويخلصونه من الموت ، وفيما هم في تفقدهم ذاك ، إذا بعبد الله بن مسعود يجدُ أبا جهل مطروحا على ظهره وما زال به رمقٌ من حياة ، فصعد على صدره ، وأمسك بلحيته يشدها إليه .. فأفاق هذا الشذُّ اللعين أبا جهل من غيبوبته ، وفتح عينيه ليرى عبد الله فوقه ، فيقول له : « لقد رقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم » .. ولم يتلفّظ بأكثر من ذلك حتى انفصلت روحُهُ الخبيثة عن جسده النتن ، فحزَّ عبد الله بن مسعود رأسه عن رقبته ، وحمله يركض به مهلّلا مكبِّراً ، ليضعه بين يدى رسول الله «ﷺ» ، وليشفي به قلوب المؤمنين الذين ذاقوا كثيرا من مرارة ما أصابهم به هذا الرجل من أذى وعذاب ، وعانوا طويلاً من شدّة ما حرَّض به على عداوتهم وقتالهم ..

تلك هي معركة بدر التي لم تزد عن بضع ساعات من نهار واحد .. ولكن لا تؤخذ قيمتها على انها واقعة حربية وحسب ، بل على أساس أنها أحدثت ، رغم قصر زمنها ، من الآثار والنتائج ما هي جديرة بأن تبقى ماثلة في أذهان المسلمين ، بل والناس أجمعين ،

كي يستقوا من معينها الدافق عبرا وعِظات يفيدون منها في مواجهة الحياة ، كلّما تبدّى النزاع أو الاختلاف حول شأنٍ من الشؤون التي حفلت بها معركة بدر . .

فمن دروس بدرٍ القيِّمة ، نستخلص أهمية وثوق الجماعة بالقائد ، واعتمادها على صدقه ، وحسن تقديره لمجرى الأمور . . فالمسلمون يوم خرجوا من المدينة كانوا يطلبون أموال قريش التي تمدُّها بالقوة المادية والمعنوية ، وهي القوة التي كانت ما تزال العقبة الأشدَّ في طريق الإسلام . . فلماَّ تبيّن لهُمُ نجاةُ تلك الأموال وهروبها من وجههم ، رأى بعضهم الرجوع ، بينما رأى قائدهم ، رسولُ الله «ﷺ» الثبات ومواجهة قريش ، بعدما جاءت ترابط على قرب منهم ، وتعرض مظاهر القوة والخيلاء ، متحدّيَةً مشاعرهم ، ومهدِّدة وجودهم . . وكانت عظمة المسلمين بإجماعهم على موافقة الرسول «ﷺ» فيما رآه ، حتى لم يشذَّ عن هذا الإجماع رجل واحد . .

وبخلاف ذلك كان وضع المشركين ، إذ لم تكن لديهم قيادة موحَّدة ، بل كان لكل قبيل قائدٌ ، وقد اختلفَ قادتُهم رأياً ومنهجاً وعملا . . ففي حين أقرَّ البعض الرجوع إلى مكة بعد نجاة الأموال ـ وقد رجعوا فعلاً ـ أصرَّ البعض الآخر على لقاء محمد «ﷺ» وأصحابه ، كي يلقِّنوه درسا لا ينساه ، وتكون بذلك نهايته ونهاية الدعوة التي يحملها على عاتقه . . وكان بين هذا الفريق وذاك ، مَنْ وقف موقفا لا يهتمُّ معه لأمر الأموال أو لقتال محمد ، بل يهتمُّ

بخلاصه من ضغط بعض زعمائهم ، ونجاته من الموت ، بعدما تأكد لهم استعدادُ المسلمين على خوض المعركة واستهانتهم بالموت ، غير آبهين لأية تضحية مهما غلت ، وغير عابئين لأية قوة مهما عظمت . .

وهكذا برزَ عامل رئيسي يميِّز بين الطرفين . . ففي طرف قائدٌ واحدٌ هو صاحب الأمر والنهي والجميع من حوله مطيع ، لأنه مؤمن بقدرة قائده وحكمته وإخلاصه ،وطرف توزع اشتاتا بين قيادات مختلفة ، كلٌّ منها ينزع نحو الغاية التى يراها توافق مآربه وأهواءه . .

وتوحي لنا بدرُ أيضاً بأهمية الأسلوب واعتماده كأحد مقومات الحرب الرئيسية . . والأسلوب في الحرب يعتمد أصلا على التخطيط والتنظيم . . فبقدر ما يجري من تخطيط سليم للمعركة ، وبقدر ما يحصل تنظيم في القوى والوسائل المستخدمة ، بقدر ما يتيح ذلك من تحقيق للنصر . . ولقد تميَّز أسلوب المسلمين فى معركة بدر ، باعتماده على التخطيط والتنظيم . . فقد منعوا عدوَّهم من التزوُّد بالماء ، وهو عنصر أساسي في الحياة عامة ، فكيف به في وقت القتال وفي الصحراء القاحلة . . وقد اعتمدوا الشمس وسيلة لإرباك العدو بحيث يستقبلها في عيونه فتعيقه عن سرعة الحركة واقتناص العدو . . وقد نظَّموا انفسهم جماعات جماعات ، جماعة للنبال ،وأخرى للسيوف ، وغيرها للرماح . . واوكل إلى كل جماعة موقع تشترك منه فى المعركة . . وكانت خطتهم المحكمة ان يجعلوا عدوَّهم هو البادىء في الهجوم ، والجيش المهاجم يتعرّض عادة لخسائر اكثر بكثير من عدوّه إذا كان هذا العدو كامنا له متربّصا به . . وهذا ما حصل فعلا يوم

بدر ، إذ عندما هجم المشركون انهالت عليهم النبال مثل المطر المدرار تفتك بهم وتثخنهم بالجراح ، حتى إذا تقدَّموا نحو المسلمين كان هؤلاء بانتظارهم في حرابهم وسيوفهم ، فانقضُّوا عليهم يطيحون الهام عن الأجساد ، ويجعلونهم أشتاتا متفرقة . .

وحيال هذا التكتيك الحربي السليم ، قد تُغني القلة عما لا تغني عنه الكثرة . . فأية فائدة من كثير لا يستجمع العناصر التي تحيل كثرته قوة فاعلة ، وأي نفع من الأعداد الغفيرة إن لم تتوفر لها عوامل التهيئة والاستعداد والغاية ؟! . . . أو ليس في واقعنا ما يعبِّر عن تلك الحقيقة عندما نجد العدوَّ الصهيوني ، على قلة عدده ، يهزم العرب أحيانا على كثرتهم ؟! . .

وتبقى أهم الفوارق بين طرفين متنازعين القوة المعنوية والدوافع التى تحرّكها . .

فالمسلمون كانوا يتمتعون بقوة معنوية عظيمة دافعُها الإيمان وصدْق العقيدة ، بينما لم تكن للمشركين قوة معنوية سوى حقدهم على الإسلام . . وهذا الحقد لم يكن دافعهم الأساسي يوم خرجوا من مكة ، بل كانوا يريدون ، كما رأينا ، حماية الأموال ، فلما وجدوها قد نجت ، ضعفت عزيمتهم عن القتال ، وكان الأهم من ذلك ، بالنسبة لقوتهم المعنوية ، أنهم يوم خرجوا كان الخلل مستفحلاً في اعماقهم بتأثير أوهام وخرافات كانت تتلبَّس عقولهم وأفئدتهم . . فقد ضربوا القداح قبل خروجهم فجاءت في غير صالح هذا الخروج ، وهذا ما جعلهم يتشاءمون ويفْرقون . . . وكانت الشائعات قد سرت

فيما بينهم عن رؤى كثيرة جعلتهم ينطيرون من الخروج .. فقبل ان يأتيهم نذير الاستنفار الذي بعث به أبو سفيان بن حرب ، كانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت في المنام بأن « رجلا أقبل على بعير له ينادي : يا آل غالب !.. اغدوا إلى مصارعكم ، ثم صعد هذا الرجل ببعير له على جبل أبي قبيس ، فأخذ حجرا ضخما ، دحاه من موضعه ، فاندفع نحو مكة لا يترك دارا من دور قريش إلاّ وأصابه بفلذة » ..

وانتبهت عاتكة فزعة ، خائفة ، ثم انطلقت الى العباس تخبره بما رأت في منامها .. وحمل العباسُ رؤيتها إلى عتبة بن ربيعة يقصُّها عليه ، فقال عتبة : « هذه والله مصيبة تحدث في قريش » .

وفشت تلك الرؤيا في القوم ، فهلعت منها القلوب ، حتى وصلت إلى أبي جهل بن هشام ، فقال ساخرا : « هذه نبيّة ثانيةٌ من بني عبد المطلب .. واللات والعزى لننتظرنَّ ثلاثة أيام ، فإن ظهر أن ما رأته يدلُّ على شيء اعترفنا بأنها قالت حقّا ، وإلاّ لنكتبنَّ كتابا بيننا : أنه ما منْ أهل بيت في العرب أكذب رجالا ونساء من بني هاشم » ... وخابَ ظن أبي جهل ، إذ لم تمرَّ الأيامُ الثلاثةُ الموعودة إلاّ ووقفت قريش ترتعد فرائصها لاستغاثة ضمضم الغفاري في بطن الوادي ... وهؤلاء نفرٌ من بني هاشم ، الذين أراد تكذيبهم والنيل من كرامتهم ، يخرجون معه ، وفي أنفسهم كارهين ، لأنهم يعرفون الرجل ومقدار خبثه ودهائه اللّذين قد يؤذيهم بهما إن لم يخرجوا ... وكان ممّن خرج من بني هاشم مع قريش العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب .. وتخلّف

أبو لهب ، وقد تيقن صدْق رؤيا عاتكة ، فكان يقول لمن حوله : « إنما رؤيا عاتكة أخذٌ باليد » . .

وأثناء طريق قريش الى بدر ، انفرد جُهَيْمُ بن الصلت ببعض أصحابه يروي لهم أنه رأى في منامه وكأنَّ راكباً أقبل على فرس ومعه عيرٌ ، حتى وقف فوق رأسه ، وهو يخبره بأن جمعاً من سادة قريش قد قُتلوا ، وبأن أشرافا منهم قد أُسروا . . وما زال فوق رأسه يُعدِّد من أسماء القتلى والأسرى حتى ذكر كثيرين ، ثم راح يضرب خنجره في كَبّة بعيره ويرسله بين عسكرهم ، والبعير يطوف بين الأخبية ، فلم يبق خباءٌ واحد إلاّ وأصابهُ من دمه . . .

وانتشرت هذه الرؤيا في معسكر القرشيين ، فأراد كثيرون منهم التخلّف والعودة من منتصف الطريق ، ولكنَّ مناياهم كانت قد سبقتهم الى بدر ، فشدتهم إليها ، تحول بينهم وبين العودة التي رغبوا فيها .

ومثل رؤيا عاتكة وجهيم ، كانت واحدة لضمضم الغفاري نفسه ، وهو الذي أعلن نداء الاستغاثة ، إذ قال للحارث بن عامر ، وهم في الكثيب الرملي ، على قرب من بدر : « أتدري يا حارث أني أفقت من نومي ليلة البارحة وأنا أرتعدُ خوفاً وغماً » ؟!

فسأله الحارث : وعمَّ الخوف والغمُّ يا ضمضم ؟

قال ضمضم : من رؤيا بغيضة . . فإنني وكاليقظان على راحلتي نظرت إلى واديكم = يعني مكة = فكأنَّ به دماً يسيل ! . .

فقال الحارث : ما خرج أحد وجها من الخروج أكره له من وجهي هذا !..

قال ضمضم : ولم لا نجلس ؟

قال الحارث : لو سمعت منك هذا وأنا في مكة ، ما خطوت وراءها خطوة واحدة ... فاطو هذا الخبر وإياك أن تعلمه لقريش ، حتى لا نتعرض لسوء شتم .. فإنهم يتهمون كل من يحاول أن يعوقهم عن المسير !..

تلك كانت حالة قريش النفسية التي رافقتهم في فترة معركة بدر ، وهي حالة لا تبعث على أية قوة معنوية ، بل على العكس إنها توحي بأسباب الضعف والهزيمة .. فالقوم ذهبوا الى الحرب وملء قلوبهم التشاؤم والتطيّر ، ولم تكن لهم غاية مشتركة قد اتفقوا عليها ، ولا بدّ لمن كان كذلك أن ينتدبوا الشقاق سيداً عليهم ، وأن يحتكموا للتفرقة تقود خطاهم ... ويزيد هؤلاء تصدّعا تسلط رجل مثل أبي جهل بن هشام عليهم ، يخافون حقده وغدره ، مثلما يخافون سليط لسانه وشنيع أقواله ... وكانت النتيجة الحتمية لذلك كله ما حلَّ بهم من انكسار وذل ، أدّى بهم لأن يقتل من قُتل ، وأن يولّي الأدبار من أراد النجاة خاسئا مهزوما .

أما المسلمون ، وقد أعزَّهمُ الله ، فقد راحوا بعد المعركة ، يجمعون القتلى ، ثم يحفرون لهم قليباً يدفنونهم فيه .. ووقف رسول الله ﴿ﷺ﴾ فوق ذاك القليب يخاطب أولئك القتلى من الكفَرة : « يا أهل القليب .. لبئس عشيرة النبيِّ كنتم أنتم ، كذّبتموني وصدَّقني

الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . . . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

قال المسلمون من حوله : يا رسول الله ، أتنادي قوماً امواتا ؟! . .

فقال عليه الصلاة والسلام : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

وحانت من رسول الله «ﷺ» التفاتة الى أصحابه ، ووقع نظره على أبي حذيفة بن عتبة ، فألفاه كئيباً ، غطَّت وجههُ إمارات الحزن حتى ليكاد الدمعُ أن يفرَّ من مآقيه ، فتقدم منه رسول الله «ﷺ» يواسيه ، ويسأله :

« ألعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شيء » ؟

قال أبو حذيفة : « لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من هذا الأب رأياً وحلماً ، فرجوت ان يهتدي الى الاسلام ، ولكنّه أبى إلاّ أن يبقى على كُفره ، وإني أتذكر الآن ذلك فيُحزنني أمرُه . . لَكان خيراً له لو ماتَ مسلماً » .

ودعا له النبيُّ «ﷺ» بالخير ، فأذهبَ عنه الحزن . .

. . وولّى ذلك النهارُ بخيره وشرّه . . إذْ كان خيراً على المسلمين ، وشرّاً على المشركين . . . ولكنَّ آثاره ما تزال ترتسم في

آفاق الأرض حتى اليوم ، بما أنتجت من دروس وعظات يمكن الاهتداء بها . .

واضطجع المؤمنون في مرابضهم بوادي بدر ، يستظلون تحت النجوم ، بنعيم الرحمة التي حفهم الله تعالى بها ، فتفيء على أفئدتهم ظلالا وارفة من الطمأنينة والسعادة ، فينامون قريري العين ، تكلأهم عين ربهم الساهرة بالرعاية ، بعدما أبلوا في سبيل دينه القويم بلاء حسنا ، فحق لهم أن يقروا عينا وأن يهنأوا بالا . .

وأصبح الصبح ، فارتحل المسلمون قافلين إلى المدينة ، يحفون بالركب المحمدي ، ومعهم الأسارى من المشركين ، وفي حوزتهم الغنائم التي أصابوها . . . حتى إذا قطعوا بعض الطريق ، أمر النبي ﴿ﷺ﴾ أن ينزلوا على كثيب وصلوا اليه ، وهناك قسم الغنائم (النفل) فيما بينهم سواء بسواء . . فجعل للفرس نصيبا ، وللفارس نصيبا ، وجعل لورثة المستشهدين من المسلمين حصصا . . وكانت حصة من قام بأعمال غير القتال ، مثل حصة من قاتل ، ومثل حصة من تخلف في المدينة لعذر شرعي ابداه لرسول الله ﴿ﷺ﴾ وقبله منه . . وقد عجب بعض الصحابة لهذه القسمة بالتساوي ، فسألوا رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن عدم تفريقه بين راكب أو راجل ، وبين مقاتل أو قائم بعمل ، وبين ضعيف أو يتيم ، وقالوا :

« يا رسول الله ، أتعطي فارس القوم الذي يغيظهم مثل الذي تعطيه للضعيف والبائس » ؟

فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « وهل تُنصرون إلاَّ بضعفائكم » ؟ تدليلاً منه «ﷺ» بأن الأمرَ ليس كلُّه للقوة قبل كل شيء ، بل هو للتضامن والتكافل بين الجماعة ، وللوحدة وألفة القلوب وجمع الكلمة ، والمصير المشترك . . .

وتابع المسلمون بعد القسمة ، السير إلى المدينة ، حتى إذا بلغوا «الأُ ثَيْل» ، أناخوا يستريحون من وعثاء الطريق . . .

واختلى النبيُّ «ﷺ» الى نفسه ، يفكّر حتى مضت ساعة من وقت ، فقام يستعرض الأسرى من قريش . . . فلما انتهى من استعراضه لهم ، طلب إلى بعض الصحابة أن يأتوه باثنين منهم ، وكانا النضرْ بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط . . وهما من شياطيْن قريش ، وأكثر من حرّض على أذى المسلمين وعذّبهم . وكانا أيضاً أشدَّ من حاول فتنة المسلمين عن دينهم ، وطرح المعجزات على النبيّ «ﷺ» كى ينالا منه ويسخرا . .

ونظر اليهما نبيُّ الله «ﷺ» نظرة ارتعدت لها فرائصهما ، وأيقنا أن الموت حالٌ بهما . . فأسرَّ النضر بن الحارث الى مصعب بن عمير ـ وكان قريباً منه ـ أن يطلب الى محمد عدم قتله . . . فنظر إليه مصعب شزرا ، وقال له : « أو ما حسبت يوماً ينقلب فيه الشر على أهله يا ابن الحارث . . . أو لعلّك نسيت ما كنت تفعل بالمسلمين . . اذهب إلى نار جهنم وبئس المصير ، لتلقى سوء عاقبة شرّك المستطير » وحاوَل عقبة بن أبي مُعَيْط أن يستدرَّ الشفقة عليه ، فصرخ بأعلى صوته :

« فمن للصبية يا محمد » !

قال له الرسول العظيم . « النار » ! . .

ثم امر رسول الله ﷺ علي بن ابي طالب ان يبتعد بهذين الرجلين عن اعين الناس ، وان يقتلهما لشدة فتنتهما ، فالفتنة اشد من القتل . . وهكذا دوما يكون مصير المفتنين ، الظالمين ، إذ لا بد وأن يأتي اليوم الذى يلقون فيه العقاب الذى يستحقون ، والقصاص الذي يستأهلون ، لأنّ في القصاص حياة لأولى الألباب . . .

وتابع أبطال بدر رجوعهم المظفّر إلى الديار ، حتى إذا ما بعدوا عن « الأثيل » بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، مقدماتهم إلى المدينة ، يبشرين بما فتح الله على المسلمين من نصر موعود . .

وطار الخبر في أرجاء المدينة ، فهلل المسلمون مستبشرين فرحين . . أما اليهودُ والمنافقون فلم يصدّقوا في بادىء الأمر ما يسمعون ، او لعلهم لم يريدوا ان يصدّقوا خبرا هو اصعب عليهم من القتل ، فخرجوا من أوكارهم يزرعون الشك في نفوس المؤمنين ، فلم يلقوا إلاّ صدا واستهزاء . . فلما رأوا ان محاولاتهم الدنيئة قد فشلت وافتضح كذبهم ومكرهم ، عادوا إلى بيوتهم يغلقون على أنفسهم أبوابها وهم يكادون ان يموتوا من الغيظ . . .

وخرج المؤمنون لملاقاة اخوانهم ، فاجتمعوا بهم في « الروحاء » . . وكان لقاء معبّرا بين الاخوة في العقيدة ، وبين الأهل والخلاّن . . فقد سالت المشاعرُ مندفقة ، وقد تلاقت

الأحضان ، واعتنقت الوجوه ، وتشابكت الأيدي ، وشدّت السواعد . . . واقبلوا على الرسول العظيم يهنئونه بالفوز العظيم ، ويجاملون ان يبدوا اعذارهم في تخلّفهم عن مرافقته ، فيقول أسيد ابن الحضير :

« يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك واقرّ عينك . والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن انك تلقى عدوّا وقتالا ! ولكن ظننت انها عير ، فعلت يكفيها من خرجوا » . . .

فقال له رسول الله ﷺ صدقت .

والتفت مسلمة بن سلامة إلى اسيد يمازحه ، وهو يقول :

« وما الداعي للخروج معنا ؟ فوالله إن لقينا الا عجائز صُلّعا كالبُدن المعلقة ، فنحرناها » ! . .

وتبسم رسول الله ﷺ ، من هذه المداعبة ، فقال : « أي ابن اخي ، اولئك الملأ » . . وكانت في ذلك اللقاء لطائف كثيرة راح الجميع يتداولونها ، تعبيرا عن السرور والفرح اللذين يحفّان بنفوسهم الطيبة . . .

وترك المؤمنون « الروحاء » يغذّون السير حتى بلغوا المدينة يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك . . ودخلها رسولُ الله ﷺ على رأس موكبه ، مظفرا منصورا ، وقد أعزّه الله تعالى واصحابه بما ايدهم به من نصر ، فأقبل من بقي في المدينة من المؤمنين يهنئونه بما أعزّه الله به ، وهم يدعون له بدوام النصر ونشر الوية الحق . . .

وكان وصولُ المسلمين إلى المدينة قبل الأسرى بيوم واحد. فلما جيء بهم في اليوم التالي ، أمر الرسول ﴿ﷺ﴾ بتفريقهم بين أصحابه وهو يوصي بهم خيراً ... وامتثل المسلمون لأوامر النبيّ ﴿ﷺ﴾ فكانوا يُكرمون أولئكَ الأسارى ، ويحسنون معاملتهم ، حتى ليؤثروهم على أنفسهم بطيبات الطعام .. ولم يعاملوهم قطُّ كأسرى الاَّ في الحد الأدنى من تلك المعاملة التي توجب بقاءهم محجوزين ، لا يتمتعون بحرية الذهاب والاياب ...

ولم يشعر أسارى قريش بأي استعلاء من المسلمين عليهم ، اذ لم يوجِّهوا لهم تعبيراً بهزيمة أو استهزاء بانكسار ، على خلاف ما كان هؤلاء الأسارى ينوون فعله مع المسلمين لوكان لهم النصر ...

أو لم يطلب اليهم أبو جهل ـ لعنه الله ـ بأن يقتلوا الأنصار ، وبأن يأسروا المهاجرين حتى يعودوا بهم الى مكة ويذيقوا لهم العذاب ألواناً وأصنافاً ؟! .. ولكنَّ الله سبحانه كذَّب وعده لنفسه ، فثوى في المعركة قتيلاً ، وبات في القليب دفيناً ، وهؤلاء أبناء قومه أسارى عند المسلمين ، ولكن لا يلقون الأَحسن معاملة ، لأن الاسلام ، يأمرهم بهذه المعاملة الحسنة ، ولأنَّ رسول الإسلام يطبق تعاليمه الحقة ، ومن قواعدها الأساسية الرفقُ والرحمةُ بالضعيف والمسكين ..

وهؤلاء ، وإن ظلُّوا على كفرهم ، فإنهم الآن ضعاف ، مهزومون ، مغلوبٌ على أمرهم ، والاسلام العظيم يوصي بالشفقة عليهم والرأفة بهم .. وكما تكون هذه المعاملة عدلا وقت الأسر ،

فإنها تبقى هي ، هي ، عدلاً من أجل إطلاق سراحهم .. فيتخذ الرسول «ﷺ» عدة طرق للمنِّ عليهم بحرياتهم .. فأما الفقراء والمساكين ، فقد ردَّهم الى أهليهم وعيالهم من دون أي فداء .. وهذا أحدهم ـ أبو عزَّة عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحي ـ يقول لرسول الله صلىَّ الله عليه وآله وسلَّم : « لي خمس بنات ليس لهنَّ شيء فتصدق بي عليهنَّ يا محمد ، وإني لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثِّر عليك أبدا » .. ومنَّ عليه الرسول «ﷺ» بما طلب ، وأخذ عليه العهد ألاَّ يُظاهر على المسلمين أحدا ... وأما الآخرون فكان على قريش أن تفتديهم ، وكان الفداء يومئذ من ألف الى أربعة آلاف درهم للرجل حسب ما عنده من إمكانيات مادية ...

وكان بين الأسرى أبو العاص بن الربيع ، زوج زينب ـ ابنة النبيِّ «ﷺ» ـ وهو من رجال قريش البارزين مكانة ، وصاحب مال وتجارة واسعة ، فبعثت زوجه بمال تفتديه ومن بينه قلادة لها ، ما إن رآها النبيِّ «ﷺ» حتى عرفها اذ كانت أمها خديجة (رضى الله عنها) قد أهدتها لها يوم زواجها من أبي العاص ، فرقَّ لها النبيُّ «ﷺ» رقة شديدة ، وقال لأصحابه من حوله :

« هذه قلادة ابنتى زينب ، فإن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها قلادتها فافعلوا » ...

وأجابه الجميع : نفعل يا رسول الله ...

وطلب النبيُّ «ﷺ» أبا العاص اليه ، بعدما صار حرا طليقا ، كي يتفق معه على أن يفارق زينب وقد فرّق الاسلام بينه

وبينها ، فنزل ابو العاص بناء على أمر الرسول ﴿ﷺ﴾ فبعث معه زيد بن حارثة وصاحبا له ، فجاءا بها الى المدينة . . .

هذه بعض النفحات من دروس محمد ﴿ﷺ﴾ في معاملة الأسرى ؛ وهي تحمل من المعاني الانسانية ما نسمو به شواهد ثابتة ، خالدة ، على عظمة ذلك الانسان ، وخصاله الفريدة ، التي ما كانت يوما الا نبراسا وهدى لمن أراد التكامل في حياته . . فقد نظر إلى الفقير بين الاسارى ، ومن له عيال يكفلها ، فما فرض عليه فداء ، بل منحه حريته ليعين العيال والأبناء . . ولم يأبه لصلة القرابة والرحم ، فعامل صهره مثل أي أسير اخر دون محاباة أو تفرقة إلا بما يتوافق والأسس التي اعتمدها لتلك المعاملة ، وكذلك لم يطلق سراح أبي العاص إلا بعد دفعه الفدية عن نفسه ؛ مال حق للمؤمنين ، فلا يعقل ان يفرّط الرسول العظيم بدرهم من هذا المال ، وليس من المتصوّر ان يأخذ هذا المال حتى ولو من زوج ابنته إلاّ ليوزّعه على المسلمين .

نعم هذا هو محمد ﴿ﷺ﴾ ، الانسان العادل في كل مواقفه ، وفي كل أعماله . . . وهذه هي عدالته التي جعلته لا يميّز ايضا بين عمّه العباس بن عبد المطلب وبين الآخرين من الأسارى ، وقد ظنّ كثيرون أن الرسول ﴿ﷺ﴾ سوف يطلب من أصحابه أن يطلقوا سراح العباس ، لأن المهاجرين يعرفونه من ذوي العزيمة الذين منعوا الرسول ﴿ﷺ﴾ ولأن الأنصار يعرفونه ايضا وقد رافق ابن أخيه محمدا ﴿ﷺ﴾ ليلة بيعة العقبة حتى يحميه من قريش . . ولكنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان فوق كل ظنّ ، وأسمى من كل توهّم ، إذ جعل عمّه بين

الاسارى حتى يؤتى إليه بمال يفديه ، ويفدى نفرا من اهله وحلفائه الذين خرجوا معه . . .

وطال الوقت وفدا العباس واصحابه لم يصل . . فطلب مقابلة النبيّ ﷺ والتحدث إليه . وجيء به إلى النبي ﷺ فقال له :

« يا رسول الله ، لقد كنت مسلما وفي صميم اعماقي مؤمنا بما تدعو إليه ، وقد رآني المسلمون أدفع عنهم الكريهة ، واذبُّ عنهم الاساءة ، فكيف اعاملُ مثل معشر قريش الآخرين » ؟ ! . .

فقال له الرسول العظيم : « الله اعلمُ بإسلامك يا عمّ ، فإن تكُ في جوارحك مسلما فالله سبحانه وتعالى يجزيك على إسلامك ، ولكنّ ظاهرك كان علينا لأنك ما خرجت إذ خرجت إلاّ لقتالنا . فوجب عليك افتداء نفسك ، وافتداء ابني أخويك : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ، وحليفك عتبة بن عمرو ـ اخي بني الحارث بن فهر » . .

قال العباس : « ما ذاك عندي يا رسول الله » ! .

قال له عليه الصلاة والسلام : « فأين المالُ الذي دفنته أنت وامّ الفضل ؟ لا أظنك إلاّ ادخرته لأبنائك الفضل وعبد الله وقثم ، ولكن صار فيه حقّ للمسلمين إذ خرجت لقتالهم » .

قال العباس : « يشهد الله أني ما نويت قتالك ، او قتال المسلمين ، ولكنني اردتُ حماية الأموال ، لئلا تقول قريش إنّ لها

فضلاً على بني هاشم ، فيعيرُوننا ، وينحون علينا باللائمة إن تقاعسنا ، وما ذلك من طباعنا ، أو نقبل لومة لائم » . .

ولكنَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أفهمَ عمَّه العباس أن الخروج كان خطأ بذاته ، وكان يمكنه وصحبه الرجوع مثلما فعل بنو زهرة حتى لا يشاركوا في القتال . . وإذ ذاك طأطأ العباسُ رأسه خجلا ، وقد ندم فعلاً على بقائه مع قريش ، فقال للرسول ﴿ﷺ﴾ : « والله إني لأعلم أنك رسول الله . إنَّ هذا لَشيءٌ ما علمهُ أحدٌ غيري وغير أم الفضل ، وقد أسررتُ لها بصدق ما بعثك الله به نبيا ورسولا ! فهل لي من عفو يا رسول الله ؟ وهل تحسب لي عشرين أوقية مال أصبتموه منى من أصل فديتي عندك وفدية أصحابي » ؟

قال له رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « لا ! . . فذاك شيء أغنمنا إياه الله تعالى منك » .

قال العباس : « سمعاً وطاعة يا رسول الله ، فما عرفت ابن أخي إلاَّ صاحب عدل وحق ، فكيف اذا كان نبيَّ الله ورسوله » .

وإذا كانت هذه سيرةُ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قولا وفعلا ، منهجا وتطبيقاً ، فمن أحق بالمسلمين من اتباعها والسَّير على هداها ! . . فهذا مصعب بن عمير ، يرى أخاه عزيزاً أسيراً لرجل من الأنصار ، فلا يأبه لأسره ، ولا يطلب إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يطلق سراحه ، بل على العكس يقف منه الموقف نفسه الذي وقفه الرسولُ ﴿ﷺ﴾ من أقربائه ، فيقول للأنصارى وقد رآه يوثقه : « شدَّ يدك به يا أخي فإنَّ أُمّه ذاتُ متاع ، لعلّها تفديه » . .

ويدهشُ عزيزٌ لما يسمع ، فيقول لمصعب : « عجباً يا أخي ، أهذه وصايتك بي » ؟!

قال مصعبٌ : « إنه أخي دونك » . .

ووصل خبرُ أسر عزيز إلى أمه ، وكانت ذات مال وفير ، فسألت : « ما أغلى ما فُدِي به قرشي » ؟

قيل لها : « أربعة آلاف درهم » .

فقالت : « تلك فدية ولدي عزيز . . » وبعثت بالأربعة آلاف درهم فدية لابنها هذا . .

. . . وعاد الأسارى كلٌّ إلى أهله ، ولهم أن يحدِّثوا بما لاقوه من معاملة حسنة من المسلمين ، ومن رأفة بهم ، ومن عدالة رأوها بأم العين محققة لم يعرفوا بمثلها في سابق عهودهم . .

عادوا وفي نفوسهم مشاعرُ متضاربة ، وفي عقولهم أفكارٌ مختلطة ، لا يدرون هل هُم فعلاً على حق فيما يفعلون ، أم أن محمداً وأصحابه هم على حق ؟! . . . ذلك هو شأنهم الخاص ، بما يحدِّثون أو يشعرون أو يفكرون ، وأما شأن المسلمين معهم ، فسوف لا يكون إلاَّ وفق المواقف التي يتخذون من دينهم ! . . ولكنَّ منهُم من أثَّرت فيه معاملة محمد «ﷺ» إلى الحدِّ الذي جعله يعدل عن مواقفه المعادية نحو الإسلام . . فهذا أبو العاص بن الربيع ، وقد عاد من أسره إلى مكة ، ليقعد الساعات الطويلة مفكِّراً ، مراجعاً لحساباته ومواقفه . . ثم يصمم على أمر ، فيجهِّز قافلة من مال

قريش يريد بها الخروج إلى الشام ، ولكنَّ سوء طالعه جعلهُ يقع في أيدي سريّة من المسلمين ، عندما كان على مقربة من المدينة ، فتصيب ما معه ، ويهرب مختبئا من مكان إلى مكان ، حتى يُسدل الليل ستاره ، فيدخل المدينة ويقصدُ زوجه السابقة زينب بنت رسول الله ﷺ يستجيرها، فأجارته ، وردّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمنا إلى مكة ، يردُّه لأصحابه من قريش ثم يقول لهم : « يا معشر قريش ! هل بقى لأحد منكم عندي مال لم يأخذه »؟ .

قالوا : « لا ! جزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيّا كريما » .

قال : « إذن فأنا تارككم إلى محمد بن عبد الله ، فوالله ما منعني من البقاء عنده إلاّ مخافة ان تظنوا انى إنما أردت أن اكل أموالكم ، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها ، فإني ذاهب إلى حيث أرى الحق » . .

وحمل ابو العاص بن الربيع ما عنده من مال ومتاع ، مرتحلا إلى المدينة ، ثم جاء رسول الله ﷺ بقلب مؤمن ، يُعلن إسلامه وهو يقول له : « أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله » . . .

ويُسرُّ الرسول ﷺ بإسلام الرجل لأنه كان أمينا في تعامله مع الناس ، وفيّا على عهوده مع الاخرين ، والإسلام يعتزُّ بأناس يحملون مثل صفات هذا الرجل ، فيبارك له إسلامه ، ويردُّ عليه زوجه زينب ، فيأتيها قرير العين وهو يقول لها : « والله يا ابنة . . .

عمّ ، ما خرجت من أسرى عند رسول الله إلاّ وأنا مؤمن بصدق رسالته ، حتى إذا أجرتني ، علقت بى الندامة حتى كادت تقتلني ، ولكن اعانني الله على الصبر حتى عدت سريعا إلى مَن هم في الناس أشراف ، وفى الحسنى نبراس ، وفي العدل ميزان » . . .

تلك هي معركة بدر ببعض مقدماتها وأحداثها ونتائجها ، وهى تحفل بالدروس والمشاهد العديدة المتنوعة ، ولكن يبقى أهمّها على الاطلاق الايمان بالعقيدة الحق ، واللحمة والوحدة بين أصحاب تلك العقيدة بما يرضى الله سبحانه وتعالى فيمدّها بنصر مؤزّر في أمور الحياة كلها . . .



حَـالة المُنـافِقين
وإجْلاء بَـني قيـنقاع

لقد كان لمعركة بدر أن تنتج آثارها ، وتؤتي مفاعيلها ، يوماً بعد يوم ، سواء في حياة المسلمين أم في حياة المنافقين واليهود . . .

فأما المسلمون ، فقد ذاع صيت انتصارهم على قريش في جزيرة العرب كلها . . . وبات العرب يرهبون قوتهم وبأسهم ، اللذين كانا يتبدَّيان بالتفافهم حول نبيِّهم ﴿ﷺ﴾ ، وبتكاتفهم وتماسكهم كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضهم أزر بعض فهم يخططون لنصر جديد ، والنصر عادة يعطي أصحابه دفقاً معنوياً جديداً ، يجعله أكثر تحفُّزاً وتصميماً لتحقيق انتصارات أخرى . . فكيف إذا رافق ذاك الدفق ، وصاحب هذا التحفُّز إيمان بالله تعالى ، وبأنه هو المعين والناصر ! . .

ولقد كان إيمان المسلمين بربِّهم ، وبصدق رسوله الكريم ، قوياً عزيزاً كما كانت ثقتهم بأنفسهم ، كبيرة ، بحيث جعلتهم لا يخشون قوةً تجابههم مهما تعاظمت ، ولا يرهبون بأساً يطلُّ عليهم مهما اشتدَّ . . أفلا يكفيهم الإيمان قوة فوق كل القوى ؟! . .

بلى والله ، وهو الغالبُ دائماً ، والناصرُ أبداً ! . . .

وهذا الوضعُ الجديدُ الذي ثبّت المسلمون دعائمه في المدينة ، قد سرَتْ نفحاته العابقة إلى إخوانهم في مكة ، وقد كانوا مستضعفين من قبل ، فباتوا الآن ، أكثر اطمئناناً وأقوى ثباتاً على عقيدتهم ، وزادَهُم ارتياحاً واستقراراً انحسارُ أذى قريش عنهم ، فلم تجرؤ بعد هزيمتها على الانقضاض عليهم وإفنائهم ، وربما خافت على أسراها إن فعلت ، كما لم تعد تنصب لهم الشرور ، تحسُّباً من مستقبل تخشاه . .

وكان رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ ، من بين المسلمين ـ سواء في المدينة أم في مكة ـ أكثرهم اغتباطا بما أفاءَ الله تعالى عليه من ظلال الرحمة ، ونواميس الرضوان ، يوم كتب له ولأصحابه النصر في بدر . . ولقد رأى في هذا الانتصار على عدوٍّ لدود ، قوي ظالم ، ما يزيده إقداماً ورجاء في تحقيق المستقبل الذي ينشده للعرب ولبني الإنسان . . ولكنه رغم ذلك لم يغفل قطُّ أن أعداء الإسلام ما زالوا كثيرين ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وأنَّ ما حققه منْ نجاح في إقامة المجتمع الإسلامي في المدينة ، وما أعقبه من نصرٍ على قريش ، قد أوغرَ الصدور عليه أكثر من أي وقت مضى ، وجَعَلَ أولئك الأعداء يخططون للقضاء عليه ، وإعادة النفوذ والسلطان اللَّذين فقدوهما . . فكان ﴿ﷺ﴾ لايني ، ينبِّه المسلمين ويحذِّرهم من غفلة قد يستغلُّها الأعداء ، أو من تقاعس قد يفيدون منه . .

وقد برَزَ المنافقون من هؤلاء الأعداء في المدينة ، مشتَّتين ، حائرين ، بعد معركة بدر ، فقد كانوا يعوِّلون على قوة قريش ومراسها في الحرب ، فإذا النتائج تأتي بعكس ما اشتهت قلوبهم ،

وتذرهم في تلك الحيرة ، لا يدرون ما يفعلون ! . فقد باتوا عاجزين عن إخفاء مكرهم ونفاقهم حيال المسلمين ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يجرؤون على الجهر بعداوتهم لهم ، خوفا من ان يصيبهم ما اصاب قريش . . ولكنّ ظنّهم بان نصر المسلمين قد لا يكون إلاّ نصرا هشّا وعارضا ، وأن الظروف التي ادت إليه لا تلبث ان تزول ، ويعودون بعدها إلى سابق عهدهم من الضعف ، هذا الظن جعلهم أيضا يخشون من أعداء المسلمين ، واتهامهم بالذبذبة والمراوغة ، إن عاد لهم الشأن يوما . . أو لبست إذن ورطة شديدة قد وقعوا بها ، يوم أن تظاهروا بالفهم مع الاسلام ، بينما هم في الحقيقة . وفي صميم أنفسهم ألدّ الأعداء لهذا الدين ، واشدّ الناس كراهية له ؟! . .

. . وراحوا يتشاورون فيما بينهم ، فاستقر رأيهم ، على انه ، ما دام الموقف لم يصبح نهائيّا ، ولم يستقرّ بعد الوضع لأي طرف أو جماعة ، فإنّ اسلم الطرق البقاء على موقفهم ، ويسعون إلى جانب من ستكون له الكلمة الفصل ، وصاحب الانتصار الأخير . . وبذلك تكون صفقتهم رابحة ، لا تحتمل الخسارة أو المجازفة . . ومثل هذا النفاق حكاه القرآن الكريم بكلمات موجزات معبرات : « **وإذا لقوا الذين امنوا قالوا : امنّا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنّما نحن مستهزئون** » . . .

وعلى هذا السلوك المخادع ساروا ، يتظاهرون إسلاما مع المسلمين ، ويبطنون كفرا مع الكافرين ، فكأنهم قوم يمسكون العصا من وسط ، ينحدرون إلى ناحية من يشدّها إليه ، او كمثل

قطيع من الثعالب يجرى مع الريح كيفما تتّجه ، ويميل معها مثلما تميل . .

وموقف هؤلاء المنافقين قد خفى على المسلمين فى أول الأمر ، فراحوا يندسّون بينهم ، ويقفون على أسرارهم . . لقد مارسوا لعبة ذكية ، أمكنهم أن يتقنوا خلالها دور الحذلقة والدهاء ، وأن يستعملوا أساليب الذبذبة والالتواء ، فليسوا مع المسلمين ولا مع الأعداء ، وإنهم في حقيقتهم لا ينتمون إلى أولئك ولا إلى هؤلاء . . إنهم قوم منافقون وكفى . . ولكنّ هذا النفاق الذي اتخذوه مبدأ ، وذلك الخداع الذي جعلوه منهجاً ، إن يخف على اهل الأرض إلى حين ، فإنه لا يخفى على الله سبحانه في أي حين . . فالله تعالى يعلم الجهر وما أخفى ، ويعلم ما تسرّ الصدور وما تبطن الأنفس ، وقد كان جلّ شأنه وعلا ، يرقب موقف هؤلاء المنافقين . فأنزل آيات قرآنه الكريم ترميهم بالتشنيع عليهم ، وتتوعدهم بما يستحقون من عذاب شديد : « **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** » . . فجعل الله سبحانه وتعالى عقابهم إليه وحده ، ولكنّ أبان ـ سبحانه ـ لرسوله الكريم ما يدور حوله من نفاق ، وما يحيط به من منافقين في المدينة ، محذّراً إيّاه من هؤلاء الأعراب المارقين ، عندما هبط جبريلُ عليه السلام ، بهذا التحذير الربّاني : « **وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذّبهم مرتين ، ثم يُردّون إلى عذاب عظيم** » . . عذابٌ في المرة الأولى على كفرهم ، وعذابٌ فى المرة الثانية على نفاقهم ، ثم سيكون لهم العذاب العظيم

الأبدي . . . سبحان الله الذي يعلم السرَّ والنجوى ، ويقف على النوايا ، خبيثها وطيبها ، ولا يغفل عن المظاهر الخادعة ، والأباطيل الكاذبة ، فلكل منها جزاؤه ، الخير بالخير ، والشر بالشرّ ، وما للإنسان إلاَّ ما صنعت يداه . .

ومَثَلُ اليهود كمثل المنافقين ، فهم أساطينٌ في المكر والدهاء ، ولكنهم مناكيد يقدمون على أفعالهم بتحدّ وجرأة . . فقد حاولوا منذ قدوم النبيِّ (ﷺ) إلى المدينة ، أن يمارسوا عليه وعلى أصحابه شتى أنواع الضغوط ، كي يبقوهم في موقف الضعف ، وحتى يظلوا محتفظين بالمكانة التي وصلوا إليها ، بعدما أصابوا العَربَ بالدسِّ والتفرقة . . وإذ لم ينجحوا في أساليبهم الضاغطة ، ولم يفلحوا في طرقهم الملتوية ، اضطروا لإقامة العهود مع محمد (ﷺ) صاغرين ، والى عقد المواثيق معه مكرهين . . وكانت خطتهم الترقب والانتظار إلى حين يأتي الوقت الذي ينقضُّون فيه على الإسلام وأهله بضربة ساحقة ! . . . ولكنَّ معركة بدر قد جاءت لتقلب الموازين ولتغيِّر التقديرات فالأمور قد اختلفت كلها والأوضاع جميعا قد تبدَّلت . . فكلمة الاسلام قد علت ، وصار للمؤمنين قوة تُرهب وسلطان يعلو . . وما دام الأمر كذلك ، فما يمنع أن يأتي اليوم الذي يطغى فيه هذا السلطان على كيانهم ، أو تقضي تلك القوة على وجودهم ! . . .

هكذا كانوا يفكرون . . . . ولذا قرروا عدم البقاء على السكون ، وانتظار المصيبة تحلُّ بهم ، فقد يتداركون بذلك الأخطار التى تحلُّ بهم ، ويبعدون الكارثة التي ستدمِّرهم . . . وتحرّكوا في

هذا الاتجاه ، فاندفع أحبارهم والرؤساء فيهم يجاهرون محمدا بالبغضاء ، ويرمونه بالافتراء ، على نقيض تماما ، لما كان يؤمل منهم ، انصياعا للحق ، وما كان يطمع منهم إيماناً بالدين ، لأنهم أهل كتاب وعلم ، ويفترض فيهم الاحتكام إلى كتابهم . وراحوا يؤلّبون أبناء قومهم على المسلمين ، ويدعونهم الى نبذ إسرار العداوة لمحمد ، بل الجهار بها ، وإعلانها سافرة وقحة . . . ونتيجة لذلك التحرّك ، بدأت العداوة تستحكم بين المسلمين واليهود رويدا رويدا ، والعلاقات تتدهور شيئا فشيئا حتى ظهر جليّا أن اليهود يُعدّون لمؤامرة كبيرة على المسلمين . .

وظهرت بوادرٌ تلك المؤامرة عندما أوفد زعماؤهم كعب بن الأشرف الى مكة ، وأوكلوا إليه أمر الاتصال بقريش والتنسيق معها في الاعداد لمقاتلة المسلمين . ولم يكن اختيارهم لذلك الرجل إلاّ لما له من مكانة مرموقة عند اليهود ، وخاصة عند بني النضير بانتمائه إليهم من أمّه ، وان كان أبوه من طيء ، وليس لما له من مال وجاه يجعله يبتني حصنا كبيرا ويقيم فيه بعيدا عن الآخرين ، بل لأنّ كعبا ذاك ، قد وقف من محمد (ﷺ) وأصحابه ، ومنذ قدومهم المدينة ، موقف العداء الساخر ، لا يترك بابا من أبواب الايقاع بهم الاّ ولجه ، ولا ناحية من نواحي الأذى إلا طرقها ، وقد أجفل من مهادنة بنى يهود فلم يوافقهم على دخولهم مع النبي (ﷺ) في أى من عهودهم ، أو يحفلْ لأى من المواثيق التي عقدوها وإياه . . حتى إذا بلغه نبأ هزيمة قريش في بدر ، قام ينوحُ ، ويصرخُ في مَن حوله : « ويلكم أحقٌّ هذا الذى تقولون ؟! . . أترون أنّ محمداً قتل هؤلاء ! . . .

وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس !.. والله لئن كان حقًا قتلهم فبطن الأرض خير من ظهرها » !..

تلك الخصائص من العداوة لمحمد «ﷺ» واصحابه ، هي التي دفعت زعماء يهود لاختيار كعب بن الأشرف رسولا لهم الى قريش ، يحرّضها على القتال ، متباكيا على اصحاب القليب ، نادبا مصارع الأشراف ، يساعده في تباكيه ، بيتُ شعر يقرضهُ بما يهيم ادْمُع قريش قوله :

طحنت رحى بدر لمهلك اهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

وتجتمع قريش من حوله ، تستمع الى رثاء قتلاها ، فيهيج بها الوجدُ على فراق الأحبّة ، وتتأجج لظى النيران في أحشائها ، فتتورم حقدا وكراهية على محمد «ﷺ» وعلى المسلمين ، فلا تجدُ إلاّ الثأر منهم ، شفاء لصدورها ..

.. عجيب أمر قريش العربية كيف تأمن ليهودي جاء يتلاعب بعواطفها ، ويتقاذف مشاعرها بأساليبه المضللة ، حتى صارت مجالسها في مكة لا تنعقد إن لم يحضرها ابن الأشرف ، ولا تفتح نواديها إن لم يطرق أبوابها !.. وحتى بات عندهم صاحب الرأي يستفتونه في أمورهم ، ويطلبون ارشاده فيما يجب عليهم لدفع المذلّة عنهم !.. ولعلّ ما قاله أبو سفيان بن حرب ، وقد صار رجل قريش الأول بعد بدر ، يعبر عن انصياع قريش لذلك الداهية المارق ، ابن الأشرف ، إذ استمع اليه أبو سفيان وهو يكيل الشتائم للمسلمين ، ويُنحي باللائمة على إسلامهم الذي جاء يبدِّل عقائد

العرب ويقصي على أشرافهم ، فسأله بذل وهوان : « أناشدك يا كعب ، ادينُنا احب الى الله أم دينُ محمد وأصحابه ! . . . وأينا أهدى في رأيك واقرب الى الحق . . . إننا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقي اللبن على الماء ، وإطعامنا دوما ما هبّت الشمال » ! . .

ويجيب اللعين ابن الأشرف : « بل دينكم خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه » .

اية زندقة هذه ؟

واى مارق مُدَّعٍ مخادع هذا الذى يُدعى كعب بن الأشرف ؟

او ليس هو يهوديا ، ويعتنق دينا سماويا ؟ فكيف يُبيح لنفسه ان يفضل الوثنية على دين أنزله الله ، وأن يجعل الشرك في موضع الحق بدلا من الحق نفسه ؟

ولئن كانت غاية هذا الشيطان إغواء قريش ، وتأليبها على الاسلام ـ ما كانت تنقصها عداوة للاسلام ـ فأية غاية دنيئة تنحدر بالانسان وتجعله يتنكّر للايمان ويقف بجانب الكفر ؟! . .

زنديق ، كافر ، حقًا ، أنت يا ابن الأشرف ، ولمثلك تكون الغايات الدنيئة ، والصفات الذميمة . . أتجعل هبل ، وإساف ونائلة ، ذوات دين خير من دين محمد ؟! . .

لا والله ما انت وأصنامك وأوثانك الا حصب جهنم !

. . . وأوفى ابن الأشرف بعهد الكُفر عند قريش ، فعاد الى المدينة ، وقد أُترعت نفسُه بنشوة الضلال ، ومتعة السفاهة ، فراح

يسكبها في أقوال شعر ينالُ بها المسلمين ، فتطال نساءهم الكريمات في أعراضهن ، الشريفات في كرامتهن حتى آلم المسلمين ، وضاقت به صدورهم . . . وتمادى في غيّه ، فراح يحرِّض بني النضير على نقض عهدهم مع محمد . . . والغريب في أمره أنّه كان يفعل ما يفعل ، ويقول ما يقول وهو بلا عشيرة تحميه ، أو قبيل يمنعه . . .

لقد طفح الكيلُ شرا عند ابن الأشرف ، فكان لا بد من القضاء عليه . . . إذ لم يَعُدْ وجودُه عارا على المسلمين يؤذي لاصعافهم بحسب ، بل صار خطراً على دينهم ، وحجر عثرة في طريق هذا الدين ، وتركه على حاله قد يغضب الله سبحانه وتعالى !. .

وأمرَ النبيُّ ﴿ﷺ﴾ بإهدار دمه ، ثم دعا اليه بعض الصحابة يتدبرون وسيلة في أمره ، فقال محمد بن مسْلمة الأنصاري : « أنا لَك به يا رسولَ الله ، أقتله وأريح المسلمين من شروره » .

وأبدى محمد بن مسلمة خطته لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ومن يريدهم من الصحابة في مهمته ، ثم قال للنبيِّ ﴿ﷺ﴾ : « وإنه لا بد لنا أن نقول يا رسول الله » . . . وهو يقصد بذلك ان يقولوا سوءاً بحق المسلمين إيهاماً للرجل ، فأجازه الرسول ﴿ﷺ﴾ بقوله : « قولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حِلٍّ من ذلك » .

ودعا محمد بن مسلمة اليه عبادة بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبا عيسى بن جبر ، وأبا نائلة سلكان بن سلامة (وكان أخاً

لكعب في الرضاعة) ، وأخبرهم بما كلّفهم به رسول الله «ﷺ» وبما أجازهم به ، فطابوا نفساً للخلاص من ذلك الآفك الذي لا ينفكُّ إلباً على المسلمين ، حقوداً عليهم . . . وبعدما اتفقوا على طريقة التنفيذ ، ذهب اليه أبو نائلة يستدرجه ، فجلس معه يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتبادلان الشعر ساعة من الوقت ، ثم قال له أبو نائلة :

« يا كعب ! لقد جئتك في أمر أريدك أن تكتمه ، فهل أنت فاعل » ؟

قال ابن الأشرف : أفعل .

قال أبو نائلة : أتدري يا هذا بأن قدوم محمد علينا كان بلاءً لا نقدر عليه ؟ . . فقد عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السبل حتى لتكاد العيال أن تضيع ، وحتى تجهد الأنفس أن تجد ما يريحها فيذهب جهدها هباء منثوراً » ! . .

لم يصدق ابن الأشرف ما يسمع ، ولكن أخذتْهُ الغفلة القاتلة ، فقال : « أنا كعب بن الأشرف والناس تعرفني ، قد قلت رأيي في ذلك الرجل ، وما زلت مخبراً القوم بخطره حتى بدا أن الأمر سيصير الى ما أقول » .

فقال ابو نائلة : « لي نفرٌ من أصحاب ، نتوخى غرضاً في أمر . . . ونريدك ان تبيعنا وترهن لنا ، ونحن نوثق لك ، وأنت تحْسن في ذلك » . .

قال ابن الأشرف : « أترهنوني أبناءكم » ؟

قال أبو نائلة : « أو تريد يا هذا أن تفضح أمرنا ؟ لقد قلت بأن معي أصحابا على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحّسن في ذلك » .

واشتمّ ابن الأشرف رائحة الدم في قول سلكان ، وعلّل النفس بأن يكون دم محمد ، فقال له يريد أن يطمئن : « وهلاّ أخبرتني عن غرضكم » ؟

قال أبو نائلة : « أقول بأننا عصبة لا نريد إلاّ أن نرهنك من السلاح ما فيه وفاء لدينك »

وأُدخِل في روع ابن الأشرف ، أن المؤامرة واقعة لا محالة ، وأن هذا النفر إنما جاء بحجة الرهن ليخبىء السلاح عنده بعيداً عن أنظار القوم ، فقال لأبي نائلة : « أنتم تضعون سلاحكم عندي » ؟ . .

وعادَ أبو نائلة يقول له : « بل نرهنه ليوم نعيّنه ، وإنّ في الأمر لوفاء ، فماذا تقول » ؟

قال ابن الأشرف : « حبّذا ، حبّذا . . تعالوا إليّ ساعة تشاؤون ، وهاتوا سلاحكم فهو عهد لكم بذمتي » . . .

وعاد سلكان الى صحبه يخبرهم بما دار بينه وبين ابن الأشرف . . . حتى إذا أرخى الليل ظلاله ذهبوا الى رسول الله ﷺ يعلمونه باعتزامهم الخلاص من الرجل ، فخرج معهم ، وكانت الليلة قمراءَ ، حتى بلغوا بقيع الغرْقد ، فتوقف يشدُّ على أيديهم ويدعو لهم : « انطلقوا على اسم الله ، اللّهم اعنهم على قتل عدوك » . .

وتابَع هذا النفرُ القليلُ من المسلمين سيرهم ، يتسللون ، خفية عن العيون ، حتى صاروا على مقربة من حصن كعب بن الأشرف ، فكمنوا في ناحية ، بينما تقدَّم سلكان إلى بابه يقرع ، ويهتف به . . وسمع ابن الأشرف صوت أبي نائلة يدعوه ، فهبَّ من جانب عروسه ، وكان حديث العهد بزواجه ، يسحب ملحفته وراءه ، فأمسكت عروسه بطرفها ، وهي تقول له :

« إنك امرؤ حرب يا كعب ، وأصحاب الحرب لا ينزلون في مثل هذه الساعة » .

فقال لها : « إنه أبو نائلة ، ولو وجدني نائماً لما أيقظني » .

فقالت : « إني لأحسُّ الشرَّ في صوته » .

ولم يأبه ابن الأشرف لما تحذِّره منه عروسه ، بل نزل سريعاً ، ملهوفاً لرؤية المتآمرين على محمد ، فالتقاهم مُرحِّباً ، يدعوهم للدخول عنده ، فأبدوا الرفض بحجة أن الموقف يتطلب منهم الحذر الشديد ، ولا يريدون أن يفتضح أمرُهم وأمرُه ، فلما آنسُوا منه اقتناعاً ، دعوه للسير معهم الى شعب «العجوز» ، حتى يكونوا بمنأى عن الأعين ، فسارَ معهم ، مترنحا في مشيته ، وهو يجزل في القول ، ويسرف في التمنِّي ، حتى قطعوا بعض الطريق ، فتقدم منه أبو نائلة ، ودسَّ يده في شعره ، ثم سحبها إلى أنفه وهو يقول : « ما شممت كالليلة طيباً أعطرَ قطُّ » فسرَّ ابن الأشرف لهذا المديح ، وراحَ يصف لرفقته نوع الطيب الذي يتعطَّر به ، وغلاء ثمنه ، وجودة صنعه ، مما جعَل أبا نائلة ، يمدُّ يَده الى شعره من جديد ،

ويقول مثلما قال منذ قليل ، فتنتفخ أوداج ابن الأشرف خيلاء وافتخارا ، فيضحك بملء شدقيه حتى تبين نواجذه ، ويأخذه الطربُ ، فيحاول أن يشدهم شعرا ، ولكنّ أبا نائلة ، يطلب إليه ألاّ يفعل خوفا من رقيب يسمعهم ، ثم يعود الى فعلته الأولى ثالثة ، ولكنّه يمسك هذه المرة بشعر ابن الأشرف ، ويشدّه اليه شدّة عنيفة وهو يصرخ في أصحابه : « اضربوا عدوّ الله » . . . فاختلفت عليه السيوف ، تثخنه بالجراح ، فأهوى الى الأرض صريعا ، يتخبّط بدمه . . فالى جهنّم وبئس المصير . . .

وعاد هذا النفرُ المقدامُ يخبر رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالقضاء على عدو الله ، ثم يذهبون الى بيوتهم ليناموا قريري العيون ، هانئين بما حقق الله على أيديهم من اجتثاث رأس من رؤوس الكفر ، بينما ظلّت جثة كعب بن الأشرف طريحةً في الفلاة ، حتى بعثت عروسه في الصباح من يبحث عنه ، فجاؤوها بجسده مضرّجا بدمه . .

وتطاير خبرٌ مقتل ابن الأشرف حتى وصل أحبار يهود ، فجاؤوا الى محمد ﴿ﷺ﴾ يحتجُّون ويشتكون . فلم يحفل النبيُّ ﴿ﷺ﴾ بما أبدوه ، ولا تنكّر لاغتيال المسلمين لرجلهم ، بل أبدى لهم بأن ما حصل لابن الأشرف ما كان ليحصل لو فرّ كما فرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ، أما وإنه نال المسلمين بالأذى ، وهجاهم بالشعر ، وعرض لأعراض نسائهن ، وذهب الى قريش يؤلّبها ويحرِّضها ، فإنه صار داء عضالا في عضوٍ فاسدٍ ليس له دواء الاّ البتر والقتل . . . وها هو قد لقي ما كان يجب أن يلقاه ، جزاء على فعاله المضلِّلة ، وأقواله الشنيعة . . .

وبات اليهودُ جميعهم في كمد وغمّ كبيرين . . ولكنَّ الحزن الذي أصابهم في الأعماق ، لم يقعد أحبارهم عن الاجتماع والتفكّر بما يفعلون حيالَ محمد وأصحابه . . . فقرَّ رأيهم على المجاهرة بعدائهم ، وعلى تحريض الناس عليهم ، وكان من الطبيعي أن يلقى هذا التحريضُ قبولاً شديداً عند بني يهود وخاصة منهم بني قيُنقاع . فراحوا يفتعلون المشاكل للمسلمين ، يتحرَّشون بمن يلقونه شتيمة ، أو يلحقون به أذى ، يساعدهم على ذلك ما يتميّزون به عن بني النضير وبني قريظة ، بسُكناهم في وسط المدينة (في حين كان بنو النضير و بنو قريظة يقيمون في أرياض المدينة وأطرافها) وبخشونة الطباع ، وحدة المشاكسة . . . فكان اختلاطهم بالمسلمين ، والاتصال اليومي فيهم ، عاملاً هامّاً للاحتكاك بهم . . . ولم يقف بنو قينقاع عند هذه الحدود من المناوأة ، بل دفعوا شعراءهم للاستهزاء بالمسلمين ، بما يغرونهم به من أموال وهدايا ، كي يتعرضوا لكراماتهم ، والتقليل من شأن انتصارهم في بدر ، ووصل هجاؤهم الى الرسول نفسه «ﷺ» ، يطاله بالكلام القارص ، والقول الساخر .

وزادَ في شناعة أفعال بني قينقاع ، إقدامهم على خيانة عهودهم مع النبيِّ «ﷺ» ، وعلى نقض المواثيق التي ربطهم بها . . فَكره الرسول «ﷺ» هذه الخيانة السافرة ، وهي خيانة مذمومٌ أهلها ، ملعون فاعلوها ، وعزم على تأديب هؤلاء الخائنين ، حتى لا يبقوا يعبثون بقيَم المجتمع الذي يبني ، ويقفون عثرة في وجه المُثل العليا التي ينشر . . وقد زادَه ايماناً فيما اعتزمه من تأديب ، نزولُ قول

الله تعالى بحق الخائنين ، بقوله جلّ وعلا : « وإمّا تخافنّ من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء ، إنّ الله لا يحب الخائنين » . .

واتخذ المسلمون الأهبة لايقاف بني يهود عند حدود لا يتعدّونها ، فراحوا يدفعون عنهم الأذى بكل قوة ، ويقفون مانعين ابوادر السوء بكل شدة ، لا يتركون فعل شرٍّ يقدم عليه بنو قينقاع الاّ وحاسبوهم عليه ، علَّهم يرتدعون ، ويعودون الى رشدهم . . ولكنّ هؤلاء القوم كانوا يزدادون كل يوم أذىً ، ويتوغلون في السفالة ، والوقاحة ، الى أن وصل بهم الأمر لرصد نساء المسلمين والتعرُّض لهن ، كما كان عندما قدمت امرأة إلى سوق بني قينقاع تعرض حلية لها على صائغ منهم . . . فجاء أحد اليهود من خلفها ، وأثبت ، فى سرٍّ منها ، طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها ، حتى إذا قامت المرأة انكشفت سوأتها ، فراحت تولول وتصرخ ، وبنو قينقاع من حولها يضحكون ويسخرون . . وصادف فى تلك الأثناء مرور رجل من المسلمين في ذلك الحيّ ، فرأى بأم عينه ما حصل للمرأة المسلمة ، فوثب على اليهودي فقتله ، فانقضّت عليه جماعة من اليهود بدورها وقتلته .

وطار الخبرُ في المدينة ، فتداعى المسلمون بسرعة يذبُّون عمن نزل من إخوانهم فى عراك مع بني يهود ، وتداعى اليهودُ من جانبهم ، يدفعون عن بنى قومهم فى الشجار الواقع . . وإذ ذاك دعا رسولُ الله ﷺ أحبار اليهود وزعماءهم إليه ، يحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد ، وهو يقول لهم : « يا معشر يهود ! احذروا أن ينزل الله بكم مثلما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم

أني نبيٌّ مرسلٌ ، تجدون ذلك في كتابكم ! وعهد الله إليكم » . .

لقد أراد صلىّ الله عليه وآله وسلّم ؛ أن يردَّهم إلى حكم كتابهم ، فيجدون فيه الهدى لتصديقه والإيمان بالحق الذي يدعو إليه . . ولكنّهم قوم أبعد ما يكونون عن الدين ، فقد شروا به الحياة الدنيا ، منكرين ماكرين ، وهاهم يجيبون رسول الله «ﷺ» وهو يهديهم ، بما ينضحُ عن سوء نواياهم ، وإدلائهم بالقوة والصلافة ، قائلين :

يا محمد ! أرأيتَ أنّا قومك ؟! لا يغرنّك أنْ لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنّا نحنُ الناس » . .

ماذا بعدُ إذن أمام محمد والمسلمين ؟

هؤلاء بنو قينقاع أظهروا عداوة للمسلمين وهم قد كشفوا عن حقيقتهم ، وبدَوا أكثر تنمّراً وتمّرداً من أي وقت مضى . . لا يأبهون لنداء الحق يدعوهم إليه محمد «ﷺ» ولا يحفلون بأواصر الجوار والتآلف ، همّهم الإيقاعُ بالمسلمين أيّاً كانت الوسيلة ، والقضاء عليهم أيّاً كان السبيل ! . .

إذن فالأمر باتَ واضحاً يستدعي اتخاذ الموقف الحاسم من بني قينقاع . فأمَرَ الرسول «ﷺ» بضرب الحصار عليهم في دورهم ، بحيث لا يَدعون أحدا يدخلُ عليهم أو يخرج من عندهم . . وظنَّ بنو قينقاع أن أبناءَ قومهم من بني النضير وبني قريظة ، سوف لا يلبثون أن يأتوا مدافعين عنهم ، ذابّين المسلمين من حولهم . . ولكنه

ظنٌّ بقي في إطاره الوهمي ، فهذا الحصار يدوم ، ويمضى عليه خمسة عشر يوماً ، ولا أحد يتقدم لنجدة بني قينقاع ، أو تقديم أي معونة لهم ، حتى ضاق بهم الحال ، ولم يبقَ لهم إلاَّ النزول على حكم محمد «ﷺ» والتسليم بقضائه . . ودعا الرسول العظيم كبار المسلمين يستشيرهم في أمرهم ، فأقرُّوا قتلهم جميعا ، حتى يقضي على أسباب التمرُّد والعصيان ، ويقطع الطريق على أية فئة باغية تناصب العداء للإسلام . .

وأوقع في أيدي بين يهود ، فجاء زعماؤهم إلى عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وكان ما يزال على مُحالفتهم ، ليرجوه أن يتدخّل لدى محمد «ﷺ» كي يعفو عن بني قينقاع ، فأتى النبيَّ «ﷺ» بقول له : « يا محمد ! أحسنْ فى مواليّ » .

فابطأ عليه الرسول العظيم في الرد ، فكرر طلبه ، فأعرض النبيُّ «ﷺ» عنه . .

وراحَ عبد الله بن أبي يلحُّ على الرسول «ﷺ» بإلحاح شديد ، حتى أهاجَ غضبه . . ولكنها هنيهةٌ ، وزال عنه غضبُهُ ، إذ أراد أن يعطي ابنَ أبيٍّ ، ويعطي الناسَ من بعده ، درسا في التسامح وغفران الإساءة ، وأن يُسدي هذا الصنيع الجميل إلى الرجل ، وإلى أطفال بني يهود ، إذ لعلَّ فيما يحسن به إليهم ، ما قد يُفيدهم فى مقبل أيامهم ، فيعرفون أن ما يقرره محمد بن عبد الله ، لا يكون إلاَّ فى سبيل الله ، ومن أجل خير الانسان . . وبمثل هذا التفكير السامي ، قبل الرسولُ العظيمُ ما عرَضه عليه عبد الله بن أبيّ ، من إحسان لبني قينقاع ، وتخليصهم من القتل ، ولكنه شرط عليه أن يجلو هؤلاء

المنافقون ، المتكبِّرون ، عن المدينة من فورهم ، ومن بقى منهم يكون مصيره القتل . . .

وطمع عبد الله بن أبيّ بن سلول في كرم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتسامحه ، فراح يلحُّ عليه من جديد بالرجوع عن قراره ، والسماح لبنى قينقاع بالبقاء في المدينة ، مما جعل الضيقَ يعلو وجه النبي ﴿ﷺ﴾ ، فيندفع أحد المسلمين يريد إبعادَ عبدالله بن أبيّ من وجه رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فيتشاجرُ معه حتى يُشجَّ عبد الله ، فيذهب لبني قينقاع يخبرهم بوجوب الرحيل عن المدينة . . ويراه بنو قينقاع على تلك الحالة ، والدم يسيل من رأسه ، فيقولون له « لا ، لم يعد لنا مقامٌ في بلد يشجُّ فيه ابن أبىٍّ ولا نستطيع عنه دفاعا » . . وهكذا أذعن بنو قينقاع لأمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ فتركوا المدينة في منتصف شهر شوال من السنة الثانية للهجرة ، وهم يخلّون وراءهم السلاحَ والمالَ وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغون ؟ لقد أُجْلوا وفي نفوسهم حسرة على الديار التى عاشوا فيها نعيما أزالوه بأيديهم . فساروا مكظومين ، مهزومين حتى بلغوا وادي القرى ، فأقاموا هناك زمناً ، ثم احتملوا القليلَ مما معهم ، وساروا صَوْب الشمال حتى استقرَّ بهم المقام في أذرعات على حدود الشام . .

وبترحيل بني قينقاع عن المدينة ، استكان المنافقون الآخرون من بني يهود وصاروا لا يجرؤون على المجاهرة بعداوة المسلمين ، أو على الإساءة إليهم ، وإن ظلوا في قرارة نفوسهم يناصبونهم العداء ، ويوطنون الأنفسَ على النيل منهم ، إن واتاهم الظرف ، أو سنحت لهم الفرصة . .

المشركون بعد معركة بدر

تلك كانت الحال التي أعقبت معركة بدر في المدينة : انهزام لليهود والمنافقين ، وانتصار جديد للمسلمين . . أما في مكة ، فلم تكن الأحوال أفضل ، إذ لم تكن قريش لتقدِّر أن أبطالها وهم على ما هم عليه من كثرة الأعداد ، ووفرة السلاح ، سوف يُهزمون أمام محمد وأصحابه . .

فلمَّا جاءَ النذيرُ إلى مكة ، يشيع هزيمة قريش ، ظنَّ المشركون أنَّ صاحبَ الخبر رجلٌ يهذي ، وقد أصيب في عقله ، فقال صفوان بن أمية لأصحابه ، وهو جالس في حجر الكعبة :

« إن يعقل هذا الرجل فسلوه عنِّي » ! . .

قيل له : ما فعل صفوان بن أمية ؟

قال الرجل :«ها هوذا جالسٌ أمامكم في حجر الكعبة ، وقد ـ والله ـ رأيتُ أباه وأخاه حين قتلا » .

وصُعِقَ صفوانُ لما يسمع ، فالخبرُ يسحقُهُ ، فينهار ويقع مُغمىً عليه . .

وتأكَّدَ لقريش نبأ الهزيمة فذهلت . . ولم تُردْ أن تصدّق أنَّ رجلاً حقيراً مثل هذا الرجل يأتي ناعياً إليها أشرافها ، وناشرا الشؤم فوق ربوعها . . ولكنَّ الواقع ردَّها عن الذهول ، فقامت تندبُ

حظَّها التعيس ، وسوء قدرها اللعين ، حتى أن البعض منهم لم يحتمل هوْلَ الكارثة، فمات كمداً، كما حلَّ بعدو الإسلام اللدود، أبى لهب ، إذ لم يُطقْ أن يسمعَ بأن قريشاً قد هوتْ مثخنة بالجراح ، لقد كان النبأ كارثة حلَّت به ، فمرض من توِّهِ ، وغُلّ سبعة أيام ، يتقلَّبُ فيها على فراش يحُسُّه نيرانا تتأجَّجُ ، ولهيبا يحرقه ، حتى أكل اللهبُ قلبهُ وأحشاءه ففارق الدنيا لعينا ملعونا ، ليلقاه سعيرُ الآخرة مذموما مدحورا . .

وأنَّ مَنْ لم تُصبْه المصارع ، هام على وجهه في العراء شريداً مشتتا ، أو وقع أسيرا في أيدي المسلمين . .

وقامت المنادبُ في قريش ، تبكى على القتلى ، وتنوحُ على الابطال . .

وتوشّحت بالرايات السود منازلُ مكة ، وخلت جنباتها من الضحكات . . إلاّ تلك الابتسامات الساخرة التي امتلأت بها اشداق آلهتها وهي تسخرُ من هؤلاء القوم الذين آمنوا بها واتخذوها معبودات لهم ! . . . لقد آن الأوان الذى تزيل فيه هذه الآلهة عنها مظاهر الوقار التى كانت تفرضها قريش ، وأن تستهزىء بجهالة هذه الجماعة وصغر أحلامها . . وها هى ترى في مناحات قريش ، وفي عويل نسائها ، وبكاء أطفالها ، ما يشفى غليلها مما نصَّبوها له ، وأقاموها عليه ! . . ولكنْ هل تكفيها هذه الشماتةُ ؟! . .

لا ! . . إذن لتزيّن لقريش ما يجب عليها أن تفعله ! . .

فلما طافت بها المنادبُ أوحت للطائفين أن اهدأوا . . هل حسبتم أن اعداءكم المسلمين سوف يعلمون بأحزانكم ، وشتات انفسكم ، وبأنَّ ذلك سوف يجعلهم يشمتون بكم ويفرحون

بمصيبتكم ؟!.. يكفيكم شهر من النواح على قتلاكم ، فاهدأوا الآن ، واعملوا من أجل الثأر ...

وهمدت الكآبة في أجواء مكة لتنساب آلاما في الأحشاء على صرعى بدر ، وتتغلغل حقدا في القلوب ، وغيظا في الأفئدة على محمد ابن عبد الله ﷺ ، لأنه هو أصل البلاء ، ومسبب الفواجع والمصائب التي حلّت بهم .. فلا طيب للحياة بعد اليوم إلاَّ بالانتقام من هذا الرجل ، واشفاء الغليل منه ..

وكانتْ نساءُ قريش أكثر من رجالها حقدا على محمد ... إذ جززن شعورهن ، وخاصمن ازواجهنّ ، وأقسمْن أن يقفن وراء الأزواج والأبناء حتى يأخذوا لهنّ بالثأر .. ومشى رجالٌ قريش على دروب نسائهن ، فَغَدَوا شّعثا غُبْرا ، يسود أيامهم الوجومُ والصمت ، وتخيمُ على لياليهم الأحزانُ والمآسي ؛ فأقفلوا أبواب الفرح والبهجة ، وسدُّوا منافذ اللذة والمتعة ، وراحوا يستعدون للقاء محمد وأصحابه ..

لقد أصبحت قريش بجميع مشركيها ، رجالا ونساء ، شيوخا وفتياناً ، لا همَّ لها في الحياة إلاَّ الثأر من محمد ﷺ وأصحابه . وتزعمت هند بنت عتبة هذه الحركة الثأرية ، فهجرت مضجع زوجها أبي سفيان بن حرب ، وحرّمت على نفسها الطيب ، حتى يأتي اليوم الذى تنالُ فيه من محمد ﷺ الثأر لأبيها وأخيها وعمِّها .. ولم تكن نسوة قريش الأخريات ، ممن فقدن الأزواج والأبناء ، أقلَّ حقدا من هند بنت عتبة ، بل حذون حذوها ، وفعلن فعالها .. أما أبو سفيان بن حرب ، فإنه لم يجدْ ما يواسى به

نفسه ، وقد رأى زوجته هنداً على تلك الحالة ، إلاَّ أن يُقسم بألاَّ يمسَّ رأسَه ماءٌ قبل أن ينتقم لقريش ، ويعيد لها مكانتها بين العرب ، وفي الوقت نفسه يرضي زوجته هنداً ويريحها من آلامها النفسية . .

وندب أبو سفيان بن حرب نفسه لزعامة قريش ، فدعاها إلى الاستعداد والتهيؤ . . حتى إذا كان شهرُ ذي الحجة ، ولم ينقض على معركة بدر أكثر من شهرين ونصف الشهر ، فرأى أن يخرج متقصِّيا أخبار محمد «ﷺ» وأصحابه راكباً في مئتين من رجال قريش ، منطلقين صوب المدينة ، متخفِّين في النهار ، جادِّين المسيرَ في الليل ، حتى بلغوا أطرافها ، وباتوا على مقربة من منازل بني النضير . . فطلب أبو سفيان من ركبه الاختفاء وراء كثيب رمليّ ، ثم قصد مع نفر معه دارَ حَيَّ بن أخطب يطرق بابَهُ ، فلما أن عرفه الرجل ومن معه ، طردهم من أمام بيته ، ولم يقبل أن يفتح لهم ، فذهبوا إلى باب سلام بن مشكم يطرقونه ، فلاقاهم هذا بالترحاب ، وأدخلهم يقدم لهم الطعام والشراب ، ويبالغ في إكرامهم ، وهو في ذلك كله لايني عن قصّ أخبار النبيّ «ﷺ» على مسامعهم ، حتى إذا أدركهُمُ السَّحَرُ ، خرجوا إلى جماعتهم ، يعاودون البحث في تلك الناحية ، فلمّا بلغوا ناحية يقال لها « العريض » ـ على بعد ثلاثة أميال من المدينة ـ وجدوا رجلاً من الأنصار ، وأجيرا له ، في حرث ، فقتلوهما ، وأحرقوا بعض البيوت هناك . . ثم أعطى أبو سفيان الأوامر بالإسراع في ترك تلك الناحية قبل أن يبلُغ خبرُهم محمدا ، فيأتي إليهم ، ويقعون في البلاء . . وإذْ فعلَ ابن حرب

فعلته تلك ، فقد اعتقد أن يمينه قد حلّت ، وفي ذلك حافز آخر للوصول إلى مكة والالتفاء بزوجه هند . .

وتناهى خبرٌ قتل رجلين من المؤمنين إلى المدينة ، وأن جماعة من المشركين في مكة ، هي التي هاجمت « العريض » ، وأقدمت على الجريمة ، فندب رسول الله ﷺ نفسهُ ومئتين من المهاجرين والأنصار ، وخرج على راسهم في أثر أبى سفيان وركبه يطلبون الوصول إليهم وتأديبهم . .

. . ورأى أبو سفيان تباطؤا من رجاله ، فصاح بهم :

« ويحكم يا أبناء قريش ، أوتظنون محمدا متقاعساً عن اللّحاق بكم ؟ ! . هيّا وانفضوا عنكم التعب ، وتخلّصوا مما يعوقكم . وارموا ما يُثقل سيركم ، حتى يمكنكم النجاة بأنفسكم » . .

وملأت صرخة ابن حرب قلوبُ القرشيين في ركبه ، فراحوا يلقون أجربة الزاد التي كانوا يحملون ، وهم يغذون السير فرارا بجلودهم ، وهربا بأنفسهم ، من قتل قد يصيبهم ، أو أسر قد يلحق بهم . .

وراح المسلمون ينبعون اثار الهاربين أمامهم ، فكانوا يعثرون فى الطريق على أجربتهم فيأخذونها ، مما جعلهم يتاخرون عن الجدّ فى طلب تلك الجماعة الفارة ، ويصعب عليهم إدراكهم . . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك التأخير ، أمر أصحابه بالعودة إلى المدينة ، وكان قد تركها منذ خمسة أيام ، وقد استعمل عليها ابا لبابة بشير بن عبد المنذر . . ولكثرة ما أصاب المسلمون من زاد قريش ، وكان

يدعى السويق ، سميت تلك الغزوة بغزوة « السويق » . .

. . ولئن أمكن لجماعة أبي سفيان بن حرب أن تنزل الضرر ببعض المسلمين ، فإن رجوعها إلى مكة على ذاك النحو من الفرار قد جعلها في موقع أشدَّ شراً من الهزيمة ، فدخلت مكة تتستر وراء هروبها ، وتخفي أخبار ما فعلته ، حتى تحفظ ماءَ وجهِها . .

وأدرك أبو سفيان بن حرب ، أنه لم يبلغ من تلك الغزوة المآرب الذي يريد ، بل عاد شبه مهزوم ، بعدما ظهرَ أمام عيون أصحابه بمظهر الخوف والجبن ، فراح يشحن نفوس قريش باستعداء اشدّ ، ويحرضهم على استعداد لغزو كبير ، يمكن لقريش أن تحافظ به على هيبتها في بلاد العرب .

وإذا كان عداء قريش للإسلام ، والعمل على استرداد كرامتها ، هما من الدوافع الهامة لها للتهيئة للقاء مع محمد ﴿ﷺ﴾ وأصحابه ، فإن عاملا أساسيّاً وهامّا آخر غير تلك الدوافع كان يفرض على قريش أن تستعدّ للقتال والحرب . . ذلك أن تأمين تجارتها بات ضرورة ملحّة ، تتقدم على أي حافز مهما كان نوعه ، فطرق قوافلها إلى الشام أصبحت محفوفة بالمخاطر ، وعيون المسلمين ترصدها ، وسراياهم لا تنقطع عن استكشافها ومراقبتها . .

وإزاء هذا الواقع ، تفكَّرت قريش بما يجب عليها فعله ، فما رأت إلاَّ أحد سبيلَين يمكنها أن تعتمده : فإما المجازفة وسلوك الطرق العادية المألوفة للقوافل ، وفي ذلك ما فيه من خطر استلاب المسلمين لأموالها ، وضياع تلك الأموال أو إتلافها ، فتنقطع موارد عيشها ؛ وإما سلوك طرق جديدة ليست مأمونة المخاطر بسبب ما

فيها من مشقة وعنت ، ومظنّة الهلاك في متاهات الصحراء ونجودها المترامية . . ورأت قريش أن تقوم بتجربة أخيرة ، فسيرت قافلة باتّباع طريق جديد ، فلاقت من الصعوبات ما حسبته ، ومن الخسارة ما جعلها تقرب نتيجة من تعرُّض المسلمين لأموالها . .

. . ووقعت قريش في الحيرة ! . . .

ماذا تفعل ، وقد سُدّت المسالك في وجه تجارتها ؟! . .

وقف صفوان بن أميّة يقول لقريش : « إنّ محمدا وأصحابه قد عوّروا علينا تجارتنا ، فما ندرى كيف نصنع بهم وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامّتهم معه ، فما ندرى أين نسكن ؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس اموالنا فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء » ! . . .

فقال له الأسود بن المطلب ، بعد أن اتفقوا على أن يسير صفوان بتجارة جديدة لقريش : « تنكّب الطريق على الساحل ، وخذ طريق الطرف ، فإنما هى أرض نجد ، وفياف ليس يطأها أحد من أصحاب محمد » . . .

وجيء برجل من بني بكر بن وائل ، يدعى فرات بن حيان ، ليكون دليله في الطريق ، فوافق صفوان على الخروج بالقافلة ، وراح يجهِّز أحماله ، وتجهَّز قريش بضائعها من الأواني الفضية ، والسلع المتنوعة ، حتى بلغ ما دفعت به في تلك القافلة مئة ألف درهم ، انطلق بها ابن أميّة ، وفى ظن قريش أن خبرها لن يبلغ المسلمين . . ولكنّ هؤلاء عرفوا بأمر القافلة واحمالها النفيسة ، فأمر

رسول الله «ﷺ» زيد بن حارثة أن يخرج إليها في مئة من المقاتلين ، مهاجرين وأنصار . . وامتثلَ فرسان المؤمنين لأمر نبيهم «ﷺ» ، فخرجوا يبحثون عن قافلة قريش حتى وجدوها عند ناحية تدعى « القَردة » ـ وهي ماء من مياه نجد ـ فانقضُّوا عليها كالليوث الهصورة ، يفرقون رجالها ، ففرَّ هؤلاء من وجوههم لا يُلوون على شيء ، وقد خلَّوا وراءهم العير وما يثقل ظهورها من نفيس المتاع . . . فأخذها المسلمون غنيمةً سهلَةَ باردة . . فكانت أول غنيمة أحرزها المسلمون بلا عناء ولا قتال ، وعادوا بها إلى المدينة ، فأفردَ منها رسول الله «ﷺ» الخُمسَ ثم قسَّمها بين المسلمين . .

وعادَ صفوان بن أمية إلى مكة ، لتلقاه قريش خالي الوفاضَ ، وقد خسِر أموالها ، وتركها لقمةَ سائغة للمسلمين ، مما جعلها تعاوِدُ المناثح مثلما فعلت يوم بدر ، لأن ضياع تلك الأموال قد جعلها في حالة من الفقر المدقع ، وصارت في مأزق حرج ، يُراوحُ وجودها بين الحياة والموت . . فإما قضاءٌ على المسلمين وإعادة تجارتها إلى سالف عهدها ، وإما خنوعٌ وذلٌّ وقعودٌ عن مقاتلتهم ، وهذه أقرب الى الموت والفناء البطيء . .

لقد باتَ الموقف في أشد حالات الخطورة ، فاجتمع زعماء قريش : عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان ابن أمية، وسائر المنكوبين في بدر ، وفي قافلة ابن أمية ، ودعوا إليهم أبا سفيان بن حرب ، ليتخذوا موقفاً موحَّداً من حربهم القادمة مع المسلمين ، فلا يَضيعون أشتاتاً ، كما حدث لهم في معركة بدر ، إذ لم تكن لهم قيادة موحَّدة ، بل كانت تتوزعهم قيادات مختلفة ،

كانت أبرزها بيدي أبي جهل ، وعقبة بن أبي معيط ، وقد رأوا من سوء ذلك ما رأوا ، وحل بهم من جرائه ما حلّ . . .

وبعد نقاش طويل ، واحتدام في الرأي ، أخذ كلٌّ يدّعى أنه صاحب القدرة على القيادة . ثم اتفق الرأي أخيرا على أن يبقى أبو سفيان بن حرب ، زعيم قريش الذي يقود جيشهم إلى ساحة الوغى يوم التقاء محمد وأصحابه . . .

وبعد أن قرّ رأيهم على قيادة أبي سفيان ، تباحثوا في توفير الأموال لاقتناء السلاح ، وإعداد الجيش الذي يقدر على حمل هذا السلاح ، فرأوا أن يجمعوا من قريش ، وخاصة من اولئك الذين نجت أموالهم على يد أبي سفيان ، والتي كانت السبب في معركة بدر ، ما يمكنهم جمعه ، حتى يحققوا النجاح الذي يسعون إليه . . فدعوا إلى اجتماع عام ، وقام أبو سفيان خطيبا ،يبيّن لهم ما وصلت إليه حالُ قريش ، والويل والدّمار اللذين يلحقان بها إن هي قعدت عن قتال محمد ، حتى وصل إلى المأرب الذي يريده فقال لهم :

« يا معشر قريش ! إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بالمال على حربه لعلّنا ندرك منه ثأرا . . وكانت قريش مستعدة بكل جوارحها لتلبية هذا النداء ، فاندفعت النساءُ تقدم حلاها وأدوات زينتها ، قبل الرجال ، وانبرى الكلُّ يدفعون كلّ ما يقدرون عليه من مال أو يقدمون ما يملكون من عتاد ، وكان بعضهم يقول لبعض : « إنها الذلة والخزي والعار إن لم ننل من المسلمين مأربا وثأرا ، أو نسترد شرفا ضاع وندفع عارا » . . .

تلك كانت حال مكة واهلها . . حزنٌ يخيّم على الجميع ،

وقهرٌ بغرس في النفوس آلاماً وأحقاداً .. ولكن في الوقت نفسه استعداد للحرب ، وتهيئة لجيش كبير وأسلحة وعدة كثيرة ، حتى يمكنهم ملاقاة محمد ﴿ﷺ﴾ وأصحابه في يوم قتال لا مفرّ منه ، يكون فيه الثأر من هزيمة بدر ..

أما في الجانب الآخر ، هنالك في المدينة ، فالاجواء مختلفة تماما .. فلا خوف ولا قلق على المصير بعد اليوم ، إذ ذهب الضعف الذي كان يفت من عضد المسلمين ، واستبدله اللّه سبحانه بقوة ترهب ألدّ الأعداء ، وأكثرهم قوة وشدّة .. وهل كان في الجزيرة العربية ، في تلك الحقبة من تاريخها ، غير قريش سيدة القبائل ، وغير سلطانها الأعلى ؟! .. وها هي اليوم باتت مهزومة ، مشتتة القوى على أيدي المسلمين ، فكيف لا يهابهم القاصي والداني ، ولا يحسب لهم أهل الصحاري والحضر ألف حساب ؟! ..

على أن ما وصلَ إليه المسلمون لم يكن ليقعدهم عن مواظبة التهيئة والاستعداد لمواجهة كل الاحتمالات التي ينتظرون ، وهي ما تزال أمامهم كثيرة .. ولذا فإنهم لم ينصرفوا ، كغيرهم من الأمم والشعوب ، بعد انتصارات حربية تحرزها جيوشها ، إلى الملذات ، والاستكانة إلى العيش السهل ، بل ظلوا على إيمانهم ثابتين ، وعلى العزم قائمين ، وبذلك أمكنهم أن يكشفوا دسائس بني يهود في المدينة ، الذين حاولوا عبثاً أن يقللوا من شأن النصر الذي حققوه ، وأن يدفعوا الى المواجهة فئةً منهم ، تمثلت في بني قينقاع ، فكانت النتيجة وبالا عليها وعليهم ، فلاقتْ سوء العاقبة التي كان يجب أن تنتظره .

أفـراح المسلمين

على أن ذلك السلوك السوي ، وهذا الاضطلاع الدائم بأداء الواجب ، لم يمنعا المسلمين من أن ينعموا بما أكرمهم الله تعالى به ، وأن يهنأوا برحيق السعادة التي يستحقونها . فأشاعوا الأفراح في ديارهم ، وأقاموا الأعراس في جنبات بلدهم .. وبذلك يعطون للرسالة المقدسة ما تفرضه من إقدام وتضحية ، ويبذلون في سبيلها ما توجبه من عمل واندفاع ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، ولا يتخلون عما تستحقه الحياة من عيش هنيء ، كريم ..

وإذا كانت مظاهر هذا العيش كثيرة ، فإنّ أقربها الى نفس الانسان ، وأشدّها لصوقا بالنظام الطبيعي الذي أراده الله تعالى لبني البشر كي يحققوا وجودهم في دنيا الأرض ، هو الزواج ..

فالزواج فضلا عن أنه رابطة قدسية تجمع بين إنسانين ، يتراضيان على التعاقد والمشاركة في السراء والضراء ، فإنه في الوقت نفسه واجب تحتمه الحياة في المجتمع ، كي تنتظم علاقاته بصورة سليمة وصحيحة ..

ومن هنا نرى الانسان ، في كل زمان ومكان ، بعد قيامه بالواجب العام ، أو فراغه من الشأن الخاص الذي يشغله ، يسعى أول ما يسعى إلى البحث والعمل على إنشاء البيت الزوجي ..

فالمحارب بعد المعركة التي يخوضها وطالب العلم ، او المتخرج في الطب او الهندسة ، او الحرفة او الصنعة والمزارع وكل عامل يذهب إلى نفس الغاية من نشدان حياة الاستقرار . .

وبمقتضى هذه السنَّة في الحياة ، انصرف المسلمون ، بعد معركة بدر ، يقيمون الأفراح ، ويعمرون الأعراس ، لمن شاء الزواج منهم . .

وهكذا تشهد المدينة في غضون تلك الأيام السعيدة ، كثيراً من تلك الأعراس ، تتْرى على مدى بضعة شهور ، ويكون للبيت النبوي الشريف منها نصيبه الوافر ، إذ رمقته الأنظار من هنا ومن هنا ، وامتدّت اليه الأعناق من كل صوب ، رغبة في الاتصال بالبيت الرفيع وبالشجرة الطيبة التي أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء ، بل نستطيع ان نقول إنه قد طمع في قرباه علية القوم ، ورغبوا في الاتصال ببيت هو مهبط الوحي والتنزيل ، وهو مهوى الملائكة ومزار جبرائيل والملائكة المقرَّبين ، وهو = بعد هذا = همزة الربط بين فيض السماء وبرِّ الأرض لأنه بيت يشرِّفه فوح الرسالة ـ خاتمة الرسالات السماوية ـ وروح الدين الكريم ـ خاتم الاديان ـ وعبق نبوة خاتم الانبياء وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلّم . . .

ولذا تسابق أكابر الصحابة إلى خطبة سليلة الوحي وسيدة نساء العالمين ، رغم أنهم كانت تأخذهم الرهبة وتقصر خطاهم هيبة الرسول (ﷺ) من جهة ، وصغرُ سنِّ الزهراء عليها السلام من جهة ثانية ، وخوفُ الردِّ من جهة اخرى إلى جانب أشياء كثيرة ربما كنا لا

نستطيع التعبير عنها ، لأن مفاجأة النبي «ﷺ» بهذا الأمر شيء مرهوب على كل حال . . . وبالفعل ، تجرأ - أول ما تجرأ - ابو بكر الصديق (رض) فأمّ منزل الوحي ، ثم استأذن على النبيّ ودخل وجلس بين يديه يحّييه ويخطب فاطمة دون مقدّمات لئلا يعترض ما يقف دون الجرأة على البوح بهذه الرغبة في مجلس النبّوة المهيب .

وأطرق النبي «ﷺ» لحظة ثم رفع رأسه وقال : انتظرّ بشان فاطمة أمْر ربى عزّ وجل . . وخرج من فوره ليخبر اصدقاءه بما حصل ، فابدى عُمر بن الخطاب (رض) رغبته الشخصية في مفاتحة النبى «ﷺ» بالموضوع والخطبة لنفسه ايضا فشجعه السامعون . . . وما هي إلاّ أيام حتى استأذن ودخل بيت النبوة وباح للرسول «ﷺ» برغبته فاستمع اليه النبيّ «ﷺ» باصغائه الكريم المعروف ثم ما لبث أن صدر الجواب كسابقه : إنى أنتظر امر ربى عزّ وجل بشأن فاطمة الزهراء . . فما معنى هذا الرد بهذا الجواب يا ترى : إنى أنتظر أمر ربي بشان الزهراء ؟

ولماذا سيكون لزواج الزهراء ميزة خاصة يُنتظر فيها رأى السماء ؟ . . . أليست واحدة من هؤلاء الأبكار اللواتي يخطبهنّ رواد الزواج فتجاب طلباتهم حين يكونون اكفاء كما جرت سنّة النبى «ﷺ» وعادة الناس أجمعين ؟ . .

طبعا ، لا . . .

فإنها بنت خاتم النبيين وسيد الأولين والاخرين . .

وهى بضعة النبى وحبيبتُه ، بل هى امّ ابيها بعد فقد خديجة الكبرى رضوان الله عليهما . . وهي - بعد - سيدة نساء العالمين .

وأمرها بيد رب العالمين . . لأنها مرصودة لإرهاصة عُظمى سيكون لها شأن من الشأن !! ولذا = ولهذا بالذات = كان رسول الله ﷺ واضحا مع جميع الناس ، سواء أكانوا من أقرب المقرَّبين إليه أم من سائر الناس لأن شأنه في جميع الأمور العامة والخاصة أن لا ينطق عن الهوى . . فهو ينتظر الوحي بشأن زواج فاطمة لأن الله تعالى قدّر له في سابق علمه تقديراً خاصا جعل النبي ﷺ يصارح به صاحبيه الجليلين أبا بكر وعمر ، ويردُّهما منتظراً أمر ربه عزَّ وعلا . .

. . ثم يشيع ذلك . . ويتساءل الناس : لِم جعل الله تعالى أمر زواج فاطمة بيده ، لا بيد أبيها ؟ هل هي وحيدة فتمنعه حرصه الشديد عن السخاء بها للخاطبين ؟

لا فعنده بنات غيرها . . وهناك غرضٌ ربَّانيٌ وراء ذلك الزواج المنتظر . . وهذا ما ستكشفه الأحداث في السنة التاسعة للهجرة . . أي بعد عدة سنوات من وقت هذه الخطبة التي تناولتها الأحاديث . . .

يومَ أن جاء وفد نجران يحاجُّون رسول الله في حقيقة عيسى وحقيقة آدم أبي البشر سلام الله عليهما ، بل في حقيقة الخلق كله . . أي حين وقف أهل أكبر ديانتين في العالم : الإسلام والمسيحية ، في يوم تاريخيٍّ أبدى فيه كل منهما جميع ما عنده من تفسيرٍ لتلك الحقائق منفردة ومجتمعة .

حتى إذا اتضحت القضية ، وظهر الحق جليّاً ، ولم يبقَ من مجال للافتراء فيه ولا للأخذ والرد ، بقي العنادُ وحده في ساح الجدل

والحجاج ، فأمر الله تعالى نبيّه بأن ينهى كل جدل وختم كل مناظرة ، وأن يدعو الوفد المعاند إلى المباهلة !! فنزلت عليه الاية الكريمة : « فمنْ حاجّك فيه = أى عيسى (ع) - منْ بعْد ما جاءك من العْلم ، فقُلْ = يا محمد = تعالوْا ندْعُ ابناءنا وابناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفُسنا وأنفُسكُمْ ، ثمّ نبْتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

أجل ... فى تلك السنة ستكشف الأيام أن ابناء رسول الله «ﷺ» = من الصبية = جميعا قد ماتوا ، ولم يبق إلا ابناء بنته فاطمة الزهراء عليها السلام ، الذين هم ابناؤه المدعوون للمواجهة النارية بين الدّيانتين يومذاك ، ولحمل أعباء مهمات الرسالة بتبيين السّنة وتفصيل الأحكام وتفسير المبهمات ، لأنهم عترته واهل بيته الذين يوجب عليهم حملُ الأمانة لأنهم أهلها ومحلّها ...

من أجل ذلك كان زواج فاطمة بيد الله العليم الخبير ، لأنه قدّر له تقديرا تخفى أسراره على سائر الناس ، ولم يبق شأنا من الشؤون التي يقررها النبي «ﷺ» بذاته دون أن يرجع فيه إلى ربه فزواجها كان يتعلق بشأن عامٍّ إن شئت فقل هو أمر يتعلق بالعقيدة برمتها سوف يتجسد في فئة اختارها الله تعالى لتقف في وجه كل عقيدة وتنتصر عليها ...

وهذا الأمر لا تدركه بصيرة أي إنسان ...

ولكن أدرك كل إنسان أن فى الأمر سرّاً ... وعرف كل صحابيّ خطب بنت رسول الله «ﷺ» أو رغب في خطبتها ان الرّد

معقول مرضيٌّ خصوصاً وهو يصدر عن نبيٍّ ؛ قال الله تعالى له : « وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عظيم ، » وأن الأمر فيه إلى الله سبحانه ، شاءه على نسق معين : ستكون فيه الزهراء عليها السلام ممثلة لكلمة : « نساءنا » في تلك المباهلة الخطيرة . . وسيكون عليٌّ عليه السلام رمزاً لنفس النبيِّ فيها ، وممثلاً لكلمة : « أنْفُسَنا » في الآية الكريمة . . . وسيكون فيها الحسنان عليهما السلام ممثلين لكلمة : « أبناءنا » عند موقف حقٍّ وباطل . . . ولا عجب في ذلك والزهراء فتحت عينيها على قول أبيها : فاطمة بضعة مني ، وسمع الصحابةُ ذلك مرارا وتكراراً . . وعلي كان الأخ الذي استبقاه رسول الله ﴿ﷺ﴾ لنفسه يوم المؤاخاة . . وعرف الجميع ذلك من فم النبي ﴿ﷺ﴾ . . . .

والحسنان سيدا شباب أهل الجنة . . إمامان قاما أو قعدا (عن الأمر) . . وعلم هذا الحديث القاصي من معاصري رسول الله ﴿ﷺ﴾ والداني من صحابته .

ولذا اتخذ النبي ﴿ﷺ﴾ هذا الموقف بوحيٍ من ربه . . .

فسيحتاج في ظرف معين ، ومناسبة معيَّنة إلى من هو مثل نفسه ، وإلى من هي بنته ومثلُ أمِّه ونسائه وإلى من هما سبطاه وابناه . . في موقف حقٍّ تقفهُ النبوَّة أمام عناد المعاندين . . .

فقد شاع خبر الخاطبين . . وشاع الرد . . وتحدَّث الناس . . . والنبى ﴿ﷺ﴾ مازال ينتظر أمر الله عزَّ وجل .

ولعل المشيئة كادت ان تتمَّ ، إذ لم يخرج الخاطب الثاني حتى

اشتهر أمر الخطبتين عن طريق الخليفتين ذاتهما ، وذاع خبر ما كان وما جرى ، وتناقل الأصحابُ الحديث مجملًا ومفصلًا ، وتذاكر فيه الإخوان طويلاً . . .

وتفاعل الأمرُ في نفس عليّ وشجّعه عليه الشيخان الجليلان ، وحبذه له الأصحاب وارتأوا له المبادرة الفورية ، فقصد بيت النبوّة واستأذن فأذن له ، فدخل وسلّم وجلس حييًا خجولاً من عظيم الطلب وثقل المفاجأة على نفسه . . . .

وكان الرسول العظيم يلاحظ أنّ في نفس عليّ شيئًا يريد الإفصاح عنه ، ولكنّ الحياء كان يغالبه ، فيمتنع عن البوح بما يريد . . فسأله ﴿ﷺ﴾ عمّا به ، وما يشغل فكره ، فقال له بعد لأي - وددت أن أخطب فاطمة بنت رسول الله .

وتهلل وجه الرسول ﴿ﷺ﴾ بشرا ، ونظر إلى علي برقة وحنان ، ثم أدناه منه وضمه إلى صدره ، وقبله في جبينه وأثنى عليه وعلى فاطمة وقال :

« فاطمة بضعة مني ، من أرضاها فقد أرضاني ، ومن أغضبها فقد أغضبني » . إن أخي جبرائيل قد أخبرني أن الله قد زوّجك الزهراء في السماء ، وأنا أزوجك إياها في الأرض بأمر ربي وأبارك هذا الزواج كما باركه الله عز وجل . . .

ثم يأخذ الرسولُ ﴿ﷺ﴾ رأس علي ، ويقبّله في جبينه ، ويقول له :

« إني حين أقبل فاطمة أشمُ منها رائحة الجنة » . . .

وتتدحرج على خدّيْ عليٍّ دمعاتٌ ، تعبّر عن هذا الحنان النبوي الذي يغمره الرسول به ويكنه له في أعماقه ، فيشعر بمثل إحساس الطفل ، وقد احتضنه صدر الأم الرؤوم ، إذ لا شيء في الوجود أسمى من الشعور الإنساني الصادق ، ولا شيء أغلى من عاطفة المحبة المخلصة . ويستأنس عليٌّ بهذا الفيض من الحنان ، حتى ليكاد ينسيه ما جاء من أجله ، ولكنّ الرسول ﴿ﷺ﴾ يعيده من ذلك الاستغراق في نشوة الإيمان والحمد إلى دنيا الواقع ، وهو يطلب إليه أن ينتظره حتى يدخل على فاطمة ويشاورها فيما جاء يطلبه . . .

ويختلي رسول الله ﴿ﷺ﴾ بابنته الغالية ، ويخبرها بأنَّ ابن عمه عليّاً جاء يخطب يدها . . وتسكت فاطمة قليلا ويغمرها خجل الأنثى الشريفة الكريمة الأصل في هذه المناسبة ، ثم تسأل أباها :

ـ ما أكثر ما خُطبت إليك قبل اليوم يا أبي ، وما علمت إلاَّ أنك تردّ الخاطبين لأنك تنتظر فيَّ أمرَ السماء ، فهل أُذنت حتى جئت تسألني ؟

ويجيب الرسول الكريم ابنته قائلاً : أجل يا أمَّ أبيها ، قد زوّجك الله تعالى من عليٍّ في السماء وأعلن ذلك لملائكته وأنا مزوِّجك إياه بناء على أمر ربي عزَّ وجلَّ وقد جئتك الآن وأريد أن أخطبك إلى أقوى الناس إيمانا ، وأكثرهم علماً ، وأفضلهم أخلاقاً ، وأعلاهم نفساً » .

وتدرك بنت رسول الله أن أباها لا يقرر أمراً إلاَّ إذا كانت فيه مرضاة الله سبحانه وتعالى فترتاح نفسها لهذه الخطبة ، ولكنها يغلب

عليهـا الحياءُ فتسـكت ولا تعـود تقـول شيئـا . . ويتفـرّس الرسـول «ﷺ» فيما ينطبـع على ملامـح ابنتـه من أحـاسيس وانفعالات ، فيرى الـرضى باديا عليهـا ، ويحس أنهـا مرتاحـة ، فيبتسم ثم يُشعرها بأن سكوت الباكر علامـة رضاهـا ، ثم ينصرف عنها ، وهو مطمئن ، قرير العين . .

ويرى عليٌّ (ع) كيف عادَ إليه رسـول الله «ﷺ» ووجهـه الشريف يطفـح بالبشر ، ثم يزف إليه البشرى السـعيدة بموافقـة فاطمة ، ويهنئه على خطوبته ، بعد أن يخبره كل مادار بينه وبين ابنته من حديث . . فيفتر ثغره عن ابتسامة هانئة ، ثم يشكر الله على هذه النعمة وعلى كل نعمة .

ثم مضى بياضُ نهار . . وأتى ليلٌ طويل . . وانبلج الفجر على صوت بلال وهـو ينتشر في الأرجـاء بنـداء الحـق : الله أكبـر الله أكبر . . . فتطن الكلمات في أذني علي بن أبي طالب ، فيُقبل عليه النهار وهو ممتلىءٌ صحـة وعـافية ، فيذهـب إلى المسجـد ليصليّ مع المؤمنين وراء رسول الله «ﷺ» . . .

ثـم يفـرغ المؤمنـون من صلاتهـم ، فيلتفـون حولَ رسـول الله «ﷺ» كعادتهم يتلقّفون منـه الحِكم الغـالية ، ويتفقهـون في الـدين ، ويسألـون عن كل ما يجيش في صدورهـم ، حول كافـة المسائل التي يريدون الوقوف على حُكم الاسلام فيها ، وتدوم الحلقة الدراسية حتى ترتفـع الشـمس ، فينصرف كل إلى شأنـه على بركة الله . .

ويتوجه عليٌّ من جديد إلى بيت رسول الله ليتذاكر معه في التدابير التي يجب اتخاذها قبل مراسم الزواج ، واستأذن ودخل وسلَّم وجلس وعقد لسانه الخجل فلم يدر ما يقول ؛ إذ لم يكن يملك من المال شيئا . .

ويدرك رسول الله «ﷺ» ما يخبىء سكوت علي ، فيسأله عن الدرع التي أصابها يوم بدر ، فيقول له : ـ هي عندي يا رسول الله . . .

ويتهلل وجه النبيِّ «ﷺ» بالبهجة ، فيطلب إلى علي أن يذهب ويبيع الدرع ثم يأتيه بالثمن . . ويذهب علي إلى بيته ، فيأخذ الدرع ، ويدور على الصحابة يعرضها عليهم ، حتى وصل إلى عثمان بن عفان (رض) فاشتراها منه باربعمئة وسبعين درهماً ، فيحملها إلى رسول الله «ﷺ» ويضعها ملبياً ، فدفع إليه بعض المال: ليشتري طيبا وعطراً ، ثم عهد بالباقي إلى أم سلمة (رض) كي تشتري به جهاز ابنته فاطمة .

ونشطت أم سلمة في تجهيز العروس الغالية ، فاشترت لها قميصاً بسبعة دراهم ، وخماراً بأربعة دراهم ، وقطيفة سوداء خيبرية ، وسريراً مزملا بشريط ، وفراشين من خيش حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم ، وأربع مرافق من أدم الطائف حشوها أذخر ، وستراً رقيقاً من صوف ، وحصيراً هجريا ، ورحى لليد ، ومخضباً من نحاس ، وهو إناء تغسل فيه الثياب ، وجرة خضراء وكوزاً من خزف ، وقربة ماء وما إلى ذلك مما أتمت أم سلمة

شراءه من جهاز بسيط جاءت به رسول الله «ﷺ» ، فجعل يقلبه بين يديه الكريمتين وهو يقول : « بارك الله لأهل البيت » .. ثم رفع رأسه إلى السماء داعياً :

« اللّهم بارك لقوم جُلُّ آنيتهم من الخزف » .

وكان علي (ع) في هذه الأثناء قد راح يهيء بيته لاستقبال عروسه ، حتى إذا أتمَّ تجهيزه على النحو البسيط ، جاء رسول الله «ﷺ» يستأذنه في إتمام معالم الزواج المبارك .

وأمر رسول الله «ﷺ» نساءه أن يزيّنَّ فاطمة ويطيّبنها ويُصلحن من شأنها في حجرة أم سلمة ، وأن يُعدَّ ترتيب بيتها الذي هيأه ابن عمها .

فدبّت الحركة في البيت النبوي الشريف ، هذه تزين العروس ، وتلك تعد الجهاز ، وأخرى ترتب البيت الزوجي ، وغيرهن تُعِدُّ آنيةً من التمر .. وكذلك الرجال من المسلمين فقد كان هذا يدور في المدينة داعياً الناس للحضور إلى بيت رسول الله «ﷺ» وذاك يذهب باحثاً عن الصحابة في كل مكان ، والمجتمعون كانوا يجلسون بين يدي رسول الله ، متأهبين لتلبية أوامره ، وكلهم في فرح وسرور ، يملأهم الحبور وهم يرون نبيّهم الكريم سعيداً بذلك الزفاف الميمون ..

وراح بيت رسول الله «ﷺ» يغصُّ بالمؤمنين وخيمت فوق رؤوس الجميع علائم الوقار ، وعلت وجوههم إمارات الحبور ، لأنهم كانوا يأنسون بحديث النبيِّ الكريم .

ثم اكتملت الافراح حين دخل رسول الله «ﷺ» على ابنته وخرج ليعلن على الملأ زواجها في هذا العرس الملائكي الكريم . . وجلس النبي «ﷺ» وحوله حمزة والعباس وعقيل وبنو هاشم وجميع صحابته من رجال المدينة ، ودار عليهم طبق التمر الذي كان رمز تمام هذا الفرح ، وفي هذه الأثناء صدح صوت بلال الرنان ، مكبراً ، مهللا . . . وتقدم عليٌّ يشكر رسولَ الله «ﷺ» على عطائه الثمين ، فقام الرسولُ «ﷺ» إلى ابنته وادخلها إلى بيت عليّ ، ثم وضع يدها في يده واحتضنهما وقال لهما : بارك اللهلك يا علي في ابنة رسول الله . . . ثم ضمهما إلى صدره وقبَّلهما ما بين أعينهما ، وعاود القول لعلى : نعم الزوجة زوجتك ـ ثم قال لفاطمة : نعم البعل بعلك . . .

ووقف يتأملهما قليلاً ، ثم طلب وعاءَ فيه ماء ، فأمسك به وذكر اسم الله كثيراً ، وتلا دعاءه النبويَّ الطاهر ، ثم أخذ يغمس يده الكريمة في الإناء ، وينفح العروسين وهو يدعو لهما قائلاً : اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما » .

وودَّع رسول الله «ﷺ» العروسين بعد أن قبَّل ابنته وقبَّل صهره وهمَّ بالانصراف ، فلاحظ أن ابنته ترنو إليه بنظرات ملؤها المحبة والحنان ، فلم يتمالك نفسه إلاَّ أن يعود ويحتضنها إلى صدره الشريف ويقبل جبينها ؛ ثم ينصرف عنها وهو يتمنى لها حياة ملؤها البركة والتوفيق . .

هكذا كان عرسُ الزهراء ، فاطمة بنت رسول الله «ﷺ» الذي تمَّ على أبسط ما تكون الأعراس من مظاهر الابتهاج والافراح .

فلم تتخلله الولائم الكبيرة ، ولم توزع فيه أشكال عديدة من أصناف الحلوى وضروبها ، أو تدار فيه كؤوس الشراب والمرطبات بل كل ما قُدِّم للناس كان بعضاً من التمر في عدة أوانٍ تكفي الحاضرين ، فما كان النبيُّ «ﷺ» ليحفل بتلك المظاهر المادية التي يبذل الناس أكثرها في غير مرضاة الله تعالى ، ويبذخون ويصرفون مبالغ تكفي لإنعاش مئات الفقراء والمساكين ، ولكنه أبى «ﷺ» إلا أن يكون عرس ابنته فاطمة ، عرساً نبوياً يتميّز بالبساطة وبكل ما هو عادي من المظاهر ، حتى لا يرى البسطاء من الناس وذوي الدخل المحدود اية غضاضة أو ينتابهم أية مهابة حين الإقدام على الزواج ، إذا كانوا لا يملكون القدر الكافي للبذخ في أعراسهم وحتى يعرف الناس أن البذخ والترف ليسا حكما إسلامياً ، وأن إقامة الأعراس والأفراح ليست مناسبة للمفاخرة والمباهاة ، وإنما هي أمور حياتية ، شأنها شأن سائر الأمور الأخرى ، لها حدود تقف عندها ولا يجوز أبداً أن تتعداها . .

وتمرُّ الأيام سريعاً ، فيجد عثمان بن عفان (رض) أن لا مناص له من الزواج ، بعد رحيل زوجته رقية بنت رسول الله «ﷺ» إلى جوار ربها ، يوم أن داهمها المرض وأودى بحياتها في نفس الوقت الذي جاءت البشائر إلى المدينة بانتصار المسلمين في بدر . . .

وتفكَّر عثمان (رض) فيمن يجب أن يتزوجها بعد بنت رسول الله «ﷺ» فما وجد خيراً من خطبة يد أختها أم كلثوم ، فذهب إلى رسول الله «ﷺ» يخطبها ؛ فسرَّ الرسول «ﷺ» بذلك ، وسأل ابنته رأيها فيما يطلب عثمان ، فما وجد عندها ممانعةً أو رفضاً . .

ولم تدم فترة الخطوبة طويلاً ؛ إذ ما أن حلَّ شهر جمادى الثاني من السنة الثالثة للهجرة ، حتى استأذن عثمان (رض) النبيَّ «ﷺ» بأن ينقل إليه أهلهَ .

واعتمدت في زواج أم كلثوم نفس المراسم التي تمت وقت زواج أختها فاطمة ، فأقيمت الأفراح ، وحضر العرس أهل المدينة جميعهم وهم فرحون لفرح رسول الله «ﷺ» .

وانقضى ما يقارب الشهرين على زواج عثمان من أم كلثوم ، فإذا المدينة تشهد فرحاً جديداً إذ تزوج الرسول نفسه «ﷺ» من حفصة بنت عمر بن الخطاب (رض) في شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة ، بعد أن انقضت عدتها على زوجها السابق الخنيس ابن حذافة السهمي ، أحد السابقين إلى الإسلام ، وقد توفاه الله سبحانه بعد رجوعه من معركة بدر وترمّلت حفصة وهي في ريعان الصبا ، إذ كانت في الثامنة عشرة من عمرها ، فأثَّر في نفسها هذا الترمّل ، بما جعل الكآبة تخيِّم على حياتها ، والحزن يملأ فؤادها ، حتى باتت تفضل العزلة ، ولا تأنس بلقاء أحد ، او تهنأ بطعام أو شراب . . .

وهَال أمرُها أباها عمر ، فخاف على صباها أن يذوي من الحزن والأسى . . فصار همه أن يجد الوسيلة التي تخلّصها من هذا العذاب . . . ورأى عمر (رض) بعد طول تفكير ان أفضل ما يعالج به أحزان ابنته ، أن يزوجها إلى من يليق بها ، ويكون قادراً على أن يبعد عنها اشباح اليأس والكآبة . . ولكن ظل يقلق باله حيرةٌ

استبدت به ، وهو أنه كان يسائل نفسه دوماً : إلى من أزوّج هذه الابنة العزيزة ؟ . .

وراودته خاطرة أعجبته ، فذهب يسعى لملاقاة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وهو يشعر في نفسه اطمئناناً إلى مصاهرة رجل يحبة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وله فضل كبير في الإسلام ، فالتقاه وفاتحه في الأمر قائلاً :

ـ يا أخي أبا بكر ـ ما تقول في زواجك من ابنتي حفصة ؟

وكان مثل هذا الطلب مفاجأة لأبي بكر ، فلم يجب . .

ورأى الارتباك بادياً عليه ، فعاد يسأله :

ـ ما بالك لا تجيب يا أبا بكر ؟

فقال له أبو بكر (رضي الله عنه) : اعذرني يا أخي ، فلست بقادر على هذا الأمر . .

وغضب عمر ، فتركه ، وهو لا يصدق أن هذا الرجل الذي يحبه ويجلّه يرفض طلبه الزواج من ابنته ، وعادَ الى بيته مهموماً ، ليجد ابنته على حالها من التعاسة والشجن ، فتزيده رؤيتها وجداً ، ويبيت مؤرقاً ، محزوناً . . .

وتنقضي بضعة أيام ، فيذهب إلى عثمان بن عفان ـ وكان لم يتزوج ابنة الرسول ﴿ﷺ﴾ أم كلثوم بعد ـ ويعرض عليه الزواج من ابنته حفصة ، فلا يجد عنده رضى بذلك ، بل اعتذر إليه ، كما فعل من قبل أبو بكر ، مما زاد عمر غيظا ، وجعله يشعر وكأن الدنيا قد

أطبقت عليه ، وغلّقت منافذ اليسر في وجهه ، إذ كان يؤمل في أحد الرجلين خير زوج لابنته ، ولكنهما رفضا هذا الزواج ، حتى جعلاه يقارب حافة اليأس ، ولا يفكر في أحد سواهما . .

وليس أشد إيلاماً على نفس الأهل من رؤية ولد لهم يتألم ، وهم لا يستطيعون سبيلاً إلى رد الألم عنه . . ولقد تألم عمر بن الخطاب كثيراً حتى أحسَّ بأن آلامه تكاد تقضي عليه ، ولم يجد حتى يريح نفسه خيراً من رؤية رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فهو الوحيد القادر على أن يذهب عنه الشجن ، ويعيد الطمأنينة الى قلبه ، فأسرع يستأذنه في الدخول عليه ، فيلقاه الرسول ﴿ﷺ﴾ مرحباً ، ولكنه يرى الهموم تملأ وجهه ، فيطلب إليه أن يخبره عما يستبدّ به ويضنيه . . . ويتنفس عمر الصعداء ، ثم يحدث الرسول ﴿ﷺ﴾ بحال ابنته ، ثم يشكو إليه ابا بكر وعثمان (رضَ) فيبتسم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ويطيب خاطره وهو يقول له : « يتزوج حفصة من هو خيرٌ من أبي بكر وعثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة » . . وينجذب عمر لقول رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتشرق في خاطره الآمال ، فيقول لرسول الله ﴿ﷺ﴾ بلهفة : إنه شرف عظيم يا رسول الله ، وما كنت أحسب أنَّ الله سبحانه ينعم لي بهذا الفضل الكبير . . ويقوم عمر (رضي الله عنه) يصافح الرسول ﴿ﷺ﴾ بحرارة شديدة ، ثم يذهب الى أهل بيته يزف إليهم البشرى السعيدة .

ويشيع في المدينة خبرُ خطبة رسول الله ﴿ﷺ﴾ لحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وتهنأ المدينة بزواج نبيها العظيم من حفصة وتبارك وتمتدح هذا الزواج ، الذي أراده الرسول ﴿ﷺ﴾ مواساة

لقلب إنساني كسير ، هو قلب تلك الصبية الذي امتلأ حزناً وأسى خلال بضعة شهور ، فامتدت يدُ مباركة تنتزع منه ذلك الحزن ، لتحلَّ مكانه الفرح ، ولتجعل صاحبته في أكرم الدرجات ، وهي تصبح أماً للمؤمنين . .

ذلك هو العمل الإنساني في أروع غاياته وأسمى مراميه ، وليس غير محمد بن عبد الله الرسول الأعظم (ﷺ) بقادر على إتيان مثل هذا العمل . . .

إذن فالإنسانية بمختلف المضامين والمعاني التي تحمل ، وبشتّى الغايات التي تبعث عليها ، كانت هي رائدة محمد الإنسان . فما افترق يوماً عن إنسانيته تلك في سلوك سلكه ، أو فعلٍ قام به ، ولا حادَتْ عنها كلمةٌ قالها . فهو كما يدل عليه مسارُ حياته كله ، ما كان يتوخّى إلاّ الخيرَ لبني الإنسان وإلاّ نفْعهم على المستوى الفردي ، أو على الصعيد الجماعي ؛ ومن هنا كان زواجه من العجوز أو الصبية ، لا يريد به إلاّ أن يردَّ غائلة وحدة قاتلة أو أن يشُدَّ أواصر لحمة صالحة ، أو أن يحقق هدفاً قد يمكن لنا نحن أن ندركه وقد يستعصي علينا ادراكهُ ، لأن التطلّع والفكر المحمديّيْن ، هما نسيج وحدهما ، ولا يمكن لنا ، مهما كانت قدراتنا الفكرية ، أن نصل إلى منتهى المقاصد المحمَّدية . .

وهكذا تشهد المدينة الأعراسَ والأفراح ، وتستمرُّ فيها تلك الأجواء ، عابقةً بشذى النصر ، مفعمة بأصداء الايمان ، حتى يحُلَّ شهرُ شوال ـ من السنة الثالثة للهجرة ـ فإذا أخبارٌ تصل من مكة

وتدعو إلى القلق ، فتنشر الضباب فى الأجواء ، وتدعو إلى اتخاذ الحيطة والحذر . .

ذلك أن قريشا كانت قد أنهتْ استعداداتها للقتال ، فباعت البضائع التى نجا بها أبو سفيان بن حرب ـ والتي أدت إلى موقعة بدر ـ بعد أن وقفتْ أرباحها لتجهيز الجيش الذي سينتقم لقتلى بدر ، وأضافت إلى تلك الأرباح ما تبرَّعَ به رجالُ مكة ونساؤها ، من أموال وفيرة ، أعدَّتْ ايضا لتلك الغاية القتالية ؛ حتى إذا استدار العامُ ، صار عند قريش جيشٌ كبيرٌ ، يضم الآلاف من المقاتلين ، وصار مجهزا بأسلحة كثيرة وأعتدة متنوعة ، وقد انضمَّ إليه مَن وَالى القرشيين من تهامة وكنانة ، ومن حالفهم من الأحابيش أمثال بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة . .

وكانت قريش قد طفِقتْ عامَها ترسل إلى قبائل العرب منْ حولها ، تستنصرُها على قتال المسلمين ، فأوفدتْ لذلك الرسل والداعين ، يحرِّضون تلك القبائل ، ويوغرون صدور أبنائها بالكراهية على من يريدون ان يخرجوهم عن دين آبائهم وأجدادهم . . وكان من بين أولئك المحرِّضين ، الذين راحوا يجوبون مختلف النواحي ، متنقلين من ديرة إلى ديرة ، ومن مضارب إلى أخرى ، أبو عزّة ، الشاعرُ المخادِعُ الذي رجا رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ أن يعتقَهُ يوم كان بين أسرى بدر ، من أجل بناته اللواتي لا معين لهنَّ غيره ، وهو يعاهده ألاَّ يُظاهر عليه أحداً أو يكثِّر عليه جمعاً ، وقد منَّ عليه الرسولُ الكريمُ بحريته من غير فداء بعد أن أخذ عليه الميثاق ؛ وها هو الآن ينكُثُ العهدَ ، وينقُضُ الميثاق ، فيكون أولَ رُسل

قريش إلى القبائل ، وإلى كنانة وتهامة خاصة ، يدعو للاستعداد لمقاتلة محمد والقضاء عليه وعلى جماعته . .

فهل بعد فعلة هذا الرجل الكاذب ، الماكر ، من خيانة للعهد ، أو تنكّر لصّنع الجميل ؟! . . .

وكأنى بالتاريخ قد أراد أن يحفظ فى هوامش صفحاته ذكر أبي عزّة الشاعر ، حتى يرمز في كل حين إلى الغادرين والسفهاء ، ممن يتصدّون للخير ويعادونه ويقفون في طريقه ، ويُقبلون على الشر ويؤيدونه ويشجّعون عليه ، ويبعدون عن الحق مرتجى ، ويتخذون الباطل مأربا . .

وهل من غرابة فيا رامهُ أبو عزّة وهو فى وسط بيئة قرشية ، قد طبعت الجهالةُ على قلوب أبنائها ، وأعمى الحقد بصائرهم ، فلم يعودوا يرون إلا شيئا واحدا في دنياهم ، وهو ضرب محمد والمسلمين الضربة القاصمة التي تقضي عليهم ، وتميت الدعوة التي يحملونها ، في مهدها ، وتقضي على حملتها ؟! .

وهكذا ، وبانقضاء ذلك العام ، كان لقريش ما أرادت ، وغدت في أتمّ أهبة ، وأكمل استعداد . .

ودقّتْ في مكة ساعةُ النفير للخروج إلى المدينة والقضاء على الأعداء فيها ، وبرزت النسوة فى قريش يأبين إلاّ أن يسرْن مع الغزاة ، ويبدو أنهنّ كُنَّ قد اخفين هذا الأمر عن الرجال ، في اتفاق ضمني بينهنّ ، لأنه ما إن ظهرنَ يردن الخروج ، حتى وقع الجدال بين القوم بين مؤيد ومعارض . .

فأمّا الذين أيّدوا الخروج فقالوا : « هذا حق ، وينبغي أن يغضبكم ويذكّركم قتلى بدر . . ونحن قوم مستميتونْ لا نُريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندركَ ثأرنا أو نموت دونه » . .

وأما من كانوا يعارضون فيه فقالوا : « يا معشر قريش ! هذا ليس برأي أن تعرِّضوا حُرَمكم لعدوِّكم ، ولا نأمن أن تكون الهزيمة عليكم فتفضحوا في نسائكم » . .

وتضاربت الآراءُ حتى كادتْ أن تَشُقَّ وحدة الصف ؛ عندها صاحتْ هندُ بنتُ عتبة ، زوجُ أبي سفيان بن حرب ، وقد تزعَّمتْ حملة خروج النساء ، تهاجم من يمانعون في هذا الخروج وهي تقول : « لقد سلمتم يوم بدر فرجعتم إلى نسائكم ! والله لنَخْرج فنشهد القتال ، ولا يردُّنا أحد كما رُدّت الفتيات في سفرهنَّ إلى بدر ، فقتلت الأحبة يومئذ ، ولم يكن معهم من يحرِّضهم » . .

وهل يمكن لهند أن تصبر على البقاء في مكة لتنتظر الأخبار ، ولا تكون مع الجيش ؟

لا ! . . إنها لا تُطيق ذلك وفي أحشائها معركة قائمة يتلهب لظاها منذ مقتل أبيها وأخيها يوم بدر ؛ وهي لا تقدر على مغالبة ذلك الحقد الذي يَفْغَرُ فاهُ يريد أن يبتلعها إنْ لم تشارك بنفسها في القتال وتثأر من ألدِّ عدوَّيْن لها ، محمد وعمِهِ حمزة ، فتروي في نفسها ذلك الغلّ الذي صبرت على آلامه طويلاً ، ويلتئم في قلبها ذلك الجرح الذي تحملت نزفه كثيراً . .

لا ! . . لن تفوِّت هندُ بنت عتبة على نفسها منظرَ الدماء

تسيلُ ، وهي وحدها كفيلةٌ بأن تردَّ إليها رونق الحياة .. فهل تقنع إذن بعدم الخروج ؟! .

وتصايحَت نساءُ قريش من خلفها ، يُردْن ثأرا ممن قتل الأحبّة والأعزاء .. فلم يَر القوم إلاَّ النزول على تلك الرغبة الجامحة ، والانصياع لتلك الإرادة العاتية ..

وتأهّب المقاتلون للسير ، ووقفت النسوة مستعدات ، فإذا الكل في حماسة الموتور ، وسورة المغيظ المحنق ، همهم الأوحد ملاقاة محمد وأصحابه ليظهروا للعرب وللعالم : كيف يكون القتال العنيد ...

وكان قائد الحملة ، أبو سفيان بن حرب ، أكثر القوم وأشدّهم حرصاً على بث الروح القتالية ، فجاء بني عبد الدار ، وكان اللواء لهم ، يقول متهكّماً ، متوعداً : « يا بني عبد الدار ! لقد وُلّيتم اللواء يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يُؤتى الناسُ من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ؛ فإمّا أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه » .

وهمّوا به ، وأرادوا القضاء عليه لولا حراجة الموقف ، والتهيئة للمسير ، فأبعدوه رافضين طلبه ، وهم يقولون : « نحن لن نسلم لواءنا لأحد ، ستعلم غداً يا أبا سفيان يوم اللقاء ، كيف تكون صناعتنا في الحرب » ..

وتوزع الجيش في ألوية ثلاثة عُقدت في دار الندوة ، فكان على اللواء الاكبر منها طلحة بن أبي طلحة ، وعلى الميمنة خالد بن

الوليد ، وعلى الميسرة عِكرمة بن أبي جهل ؛ أما الرجّالة فقد وضع على رأسهم صفوان بن أمية . .

وكانوا ثلاثة آلاف من المقاتلين ، أكثريتهم الساحقة من قريش ، والباقون كانوا جماعات من المناصرين والموالي .

ولقد توفرت لهذا الجيش ، بالاضافة الى ضخامة عدده ، كثرةٌ سلاحه وعُدته . فكان معه سبعمئة من الدروع الصلبة الواقية ، يلبسها سبعمئة من الدارعين ، ويتمنطق مثل عددهم بالزَّرد العريض . . وقد أمكنهم جمع مئتي فرس مع فرسانهم المدربين ، وثلاثة آلاف بعير يركبونها ويحملون عليها الأسلحة والذخيرة والأمتعة ، وكان يقوم على خدمة هذا الجيش وقضاء حوائجه جمعٌ غفيرٌ من الغلمان والعبيد ؛ إلاَّ أن نفراً من هؤلاء أوكلت إليهم أدوارٌ خاصة وهامة ، كما هو الحال مع عبد حبشي يُدعى « الوحشي » ، كان مولى جبير بن المطعّم ، وقد عهد إليه مولاه هذا بأن يترصّد أثناء المعركة حمزة بن عبد المطلب ، عم محمّد ، ويقتله ، لأنه قتل يوم بدر عمَّه طعيمة بن عدي بن المطعّم . . وعهدت إليه بنفس الدور ، هند بنت عتبة ، لأن حمزة كان ايضاً يومذاك قاتلَ أبيها وأخيها . . ولقد اختاراه لهذه المهمة ، نظراً لما عرف به من حسن الرماية والقذف بالحربة على طريقة الحبشة ، إذ كان يجيد مثل هذا القذف إلى حد قلّما يخطىء به هدفاً صوّب عليه . . ولقد منّاه سيده جبير ، كما منّته هند بالمال الكثير ، وبعَتقه وإعطائه حريته إنْ هو قتل حمزة ، وذلك عندما قالا له ، بلسان واحد : « إن أنت قتلت حمزة عم محمد ، فأنت عتيق » ! .

وها هو اليوم ، يحمل حرابه ، ويقفُ على أتم استعداد ، حتى يكون في ساحة الوغى ، ويقتل حمزة فينعم بالحرية الموعودة والمال الكثير ! . . وبئسَ الحرية للعبد تلك التي لا تكون إلاّ بقتل الأحرار أمثال حمزة بن عبد المطلب ، حامي لواء الحق ، والذائد عن قائد دين ما جاء إلاّ ليحرِّر الانسان من كافة أشكال العبودية الأرضية ، فلا يكون عبدا إلاّ لخالقه وحده . . وشتّان بين عبودية من هذا القبيل هي جوهر الحرية في دنيا الناس ، وبين عبودية اعتمدتها البشرية نظاما ظاهرا أو خفيّا ، هي التعدّي على حقوق الناس وكراماتهم ! . .

ولكن هل يدرك « وحشي » ذلك ؟

أما كان قميناً به أن يرفض عبوديته ، وينضوي تحت لواء الايمان ، الذي ينادي به محمد ﴿ﷺ﴾ لتحرير الانسان ، فكان حينئذ قد اعتق نفسه حقا ، بدل أن يكون قاتلا مجرما ليدفع ثمن هذا الانعتاق ؟! . .

ولقد كان في جيش المشركين ، كثيرون ممن هم في قرارة أنفسهم على شاكلة ذلك العبد الوحشي ، من الذين وترهُمُ الحقدُ على محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ ، فانزلقوا إلى الهاوية ، ينضوُون تحت لواء قريش في ذلك الزحف الجهنمي فكانوا عبيدا لأنفسهم الأمّارة بالسوء ، بل عبيدا للشيطان . . ومن أبرز هؤلاء كان أبو عامر بن صيفيّ الأوسي ؛ فلقد كان هذا الرجل فيما مضى ، مترهبا ، يكثر من الحديث عن ظهور نبي قُرب زمانه ، وكان يقول للناس بأنه يعرف صفات هذا النبيّ ، وسيكون أول المؤمنين به وبالدَّعوة التي

يحملها . . ولكنه ، ما إن جاء محمد «ﷺ» إلى المدينة ، وعرف أبو عامر أنه نبيُّ الله حقًا ، حتى تبدّلَ موقفُه ، وراح على خلاف ما كان يُشيع بين الناس عدم صحة دعوته ويضمر له البغضاء ، ويناصبه العداء ، بل زاد في حسده له ، وحنقه عليه ما رأى من إيمان الناس به نبيّا ورسولا كريما ، وما جعل زعامته في الأوس تبدأ في الذبول ، ورئاسته للقوم تقترب من الأفول . .

ثم لم يكن منافسُهُ على الزعامة في المدينة ، عبد الله بن أبي بن سلول ، زعيم الخزرج ، بأقلّ منه حسدا لرسول الله «ﷺ» وحقدا عليه ، ولكنَّ عبد الله هذا قدر أن يغالب مطامعه ، وأن يسيطر على زمام نفسه ، فدخل في الاسلام منافقا ، يُظهر الإيمان به بين الناس ، ويُبطن له العداء بين أهله وأصحابه حتى أمكنَهُ بتلك المخادعة ـ وما كان يخدع في الحقيقة إلاَّ نفسه ـ أن يبقى في المدينة ، يراقب مجرى الأحداث ، ويتحينُّ الفرصَ التي تمكّنه من إظهار ما تُخفيه جوارحُهُ من نفاق . . فكان فعلهُ هذا بخلاف ما فعله سيد الأوس ، أبو عامر ، إذ لم يقدر أن يتحمَّل وجود محمد في المدينة ، وإرساءه لقواعد مجتمع جديد ، فارتحل عنها معاندا ، كافراً ، بعدما أغوى خمسين من شباب الأوس وغلمانهم للالتحاق به ، والخروج معه . .

وذهب ابو عامر إلى أشدّ الناس حقداً على محمد بن عبد الله ، وأكثرهم عداوة له ، وهم معشر قريش . . وقد وجَد في هزيمة قريش يوم بدر ، دافعا جديداً لزيادة كراهيته لمحمد وأتباعه ، وسبيلا لاظهار التضامن مع قريش في استعدادها ليوم قتاله . . فراح يُوهِمُ قريشاً بأنه قادر على أن يلعب دوراً هاماً في المعركة ، لما له من مكانة

عند قومه ، إذ يستطيع يوم الملتقى أن يخذِّل هؤلاء القوم عن محمد ، وأن يخرجهم من صفوف المسلمين ؛ وكثيراً ما كان يحدّث عن تلك المكانة التي لا تزال له عند الأوس ، وبأنه يكفيه أن يسمعهم صوته كي يستجيبوا له ، حتى لقد بلغت به الحال أن يقول لقريش ، في يقين الواثق المطمئن : « لو قدمتُ على قومي ، لم يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء نفرٌ معي منهم قادرون » ! . .

وبهذا الوهم الطائش ، تأهّبَ أبو عامر الأوسي للخروج مع الجيش المشرك إلى القتال . . وكانت قريش قد صدّقت أقاويله وادعاءاته ، فأعطته مكانا بارزا في زحفها ، وهي تُمنّي النفس بأن يلعب هذا الرجل الدور الذى وعدها به كثيرا ، وأن يقدر على انتزاع قومه الأوس من بين صفوف المسلمين ، فيحقّق بذلك أكبر العوامل على تمزيق وحدتهم ، وإلحاق الهزيمة بهم . .

وهكذا ، وبمثل هذه الاستعدادات ، وتلكم التأهبات ، سارت قريش في اوائل شهر شوال ـ لِستٍ خلَوْن منه ـ تريد غزو المدينه والقضاء على المسلمين . .

وكانت قريش ، فيما يبدو ، قد خرجت على خطة موضوعة ، وهي أن تفاجىء المسلمين في عقر دارهم ، لأن في تلك المفاجأة ما يشتت قواهم ، ويجعلهم غير قادرين على التعبئة التى تمكنهم من المواجهة . . ولقد حسبت قريش أنه إن أخفق عنصر المباغتة هذا ، فإنها تعمد إلى إسلوب آخر قد يكون أشدَّ أثرا وأضمن نتيجة ، ألا وهو التخذيل وإشاعة التفرقة بين المسلمين ، معوِّلة في ذلك على أبي

عامر الأوسي فيما كان يعدُها به ، وعلى أمثاله من المنافقين الذين ظلوا في المدينة يتظاهرون بالاسلام . بل لقد ذهبت قريش في التخطيط للمعركة إلى أبعد من ذلك . فإن أخفق أسلوب التخذيل ، والتحمَ الفريقان ، فإن أول همها سيكون التركيز على قتل محمد وكبار الصحابة من المهاجرين . وبذلك تحقق مأربين : القضاء على قتلة سادتها يوم بدر ، فتكون واحدة بواحدة ، ومن ثمّ الانقضاض على بقية جيش المسلمين والفتك به ، وبذلك تحقق النصر ، وتنزل بعدوها الهزيمة الشنيعة . .

ولقد أمضى صانعو هذا التخطيط الليالي الطويلة حتى اهتدوا إليه ، فأرادوا الإبقاء عليه سرا ، حتى تحين ساعة المعركة بالضبط ، فيبثّونه بين صفوف مقاتليهم ، ويؤكدون على ضرورة تنفيذه . . ولقد حرصوا بشكل أساسي ، على ألاّ يعلم بسرهم المسلمون القلائل في مكة ، وعلى أن لا يعلم به بنو هاشم ايضا . . ويبدو أن هذا التكتّم ، وتلك السرية ، كانت ضربا من الخيال والتصوّر . فقد كان العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله «ﷺ» يقف على كل ما يدور في مكة ، ويعرف كل ما يأتمرون به ويقررونه ؛ ولقد رفض أن يماشيهم في استعدادهم للقتال ، وها هو يوم خروجهم يأبى السير معهم ، فيبقى في مكة ، دون أن يجرؤ أحد على مساءلته عن شيء من ذلك . . وهكذا فإنه ما إن بدأ جيش قريش في المسير ، حتى دفع إلى رجل من بني غفار ، بكتاب وأوكل إليه إيصاله إلى النبيّ «ﷺ» في المدينة ، وأكّد عليه بأن يذهب متخفياً عن العيون ، وأن يصل الى محمد خلال أيام قليلة ، دون تمهّل أو تباطؤ . فانطلق رسول العباس

على جناح السرعة حتى وصل المدينة ، فسأل عن النبىّ «ﷺ» فقيل له إنه في قباء ، فذهب إليه يسلّمه كتاب عمه العباس ، فدفعه إلى أبىّ بن كعب يقرأه عليه ، فعرف منه ما خرجت به قريش من جيش لجب ، ومن عدة وعتاد ، وبذلك تأكّدت له الأخبار التى كانت تأتيه ممّن بثّهم فى كافة الجوانب والأنحاء ، ما بين مكة والمدينة ، حتى يكون على بيّنة مما يجرى عند عدوه اللدود . .

وطلب النبىّ «ﷺ» من أبىّ أن يكتم خبر الزحف القرشى ، ثم عاد من توّه إلى المدينة ، ودخل على سعد بن الربيع فى داره ، فقصّ عليه ما بعث به العباس إليه ، فقال له سعد : « والله إنى لأرجو أن يكون فى ذلك خير » ؛ فدعاه النبىّ «ﷺ» ان يكتم الخبر حتى يرى ما يقرّر فى الأمر . .

وبات الرسول «ﷺ» تلك الليلة مصلّيا ، متفكرا حتى طلع الفجر ، فدخل المسجد يصلىّ فى الصحابة ثم يُطلعهم بعد الصلاة على الأمر . . والتفّ الصحابة الأبرار حول رسولهم الكريم ، فعرض عليهم ما جاءته به الأخبار من خروج قريش فى جيش لجب ، تريد غزو المدينة ، وطلب إليهم ان يبداوا الاستعداد لمواجهة شتى الاحتمالات ، وأن لا يضيّعوا اية فرصة فى الأخذ والرّد ، لأن الوقت قصير ، وموعد وصول قريش قد بات قريبا . .

وكان نور الصّباح قد انتشر ، فأرسل عليه وعلى اله الصلاة والسلام في طلب بعض الفتية الأشداء ، وبعث بهم يترصدون قدوم قريش ، ويستطلعون مكان نزولهم . . حتى إذا قارب ذلك النهار على الأفول ، عاد أولئك الفتية يخبرون رسول الله «ﷺ» بان قريشا

قد نزلت ببطن الوادى فى أحد . فأدرك النبيّ «ﷺ» أن العدو قد بات على أبواب المدينة ، إذ لا تفصل بينها وبين نزوله اكثر من خمسة أميال . ولذا فإن الخطر قد حلّ، ووقوعه بات وشيكا . .

وكان وصول قريش إلى أحد يوم الاربعاء في الثانى عشر من شهر شوال ، فحطت الرحال ، وركنت إلى الراحة بعد سفر طويل ، وعناء شديد ، ونامت ليلتها في تلك الناحية ، بينما ظلت العيون ساهرة فى المدينة ، خوفاً من هجوم غادر يفاجىء أهليها ، حتى إن بعض الفرسان من المسلمين قد باتوا مدججين بالسلاح حتى في المسجد خوفا على رسول الله «ﷺ» ، بينما استنفر الباقون فضربوا حول مدينتهم نطاقا يحرسونها من العادين .

وأفاقت قريش في الصباح ، تسأل حُرّاسها عن اخبار اهل المدينة ، فقالوا : لم نلاحظ بوادر حركة منهم ، ولم نر بادرة تدلّ على انهم ينشطون لقتال . . وأدرك أبو سفيان بن حرب ما وراء ذلك فقال :

« أحلف بالله أنهم جاؤوا محمداً فأخبروه مسيرنا وحذّروه ، وهم الان يلزمون حصونهم ، ولن نصيب منهم شيئا في وجهنا » . .

فقال صفوان بن أمية : « إن لم يخرجوا إلينا فى فضاء الصحراء عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ، وتركناهم ولا أموال لهم ، فلا يجتبرونها ابداً ، وإن اصحروا لنا (واجهونا في الصحراء) فعددُنا أكثر من عددهم ، وسلاحُنا أفتكُ وأوفرُ من سلاحهم ، ولنا خيل ولا خيل لهم ، ونحن نقاتل على وتر (ثأر) عندهم ، ولا وتْر لهم عندنا » .

أما رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقد جمع اهل الراي من المسلمين ، كي يتشاوروا فيما يجب عليهم فعله ، وأن يقرروا كيف يلقون عدوّ الله وعدوّهم .. فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « اشيروا عليّ » ! .. وكان في الجمع عبد الله بن ابى بن سلول ، راس المنافقين ، فانبرى وكان أول المشيرين وراى التحصّن في المدينة ، وعدم الخروج للمواجهة ، وقال : « يا رسول الله ، لقد كنا ونحن في الجاهلية نقاتل فيها ونجعل النساء والاطفال في هذه الصيّاصي (الحصون) ، ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . وترمى المرأة والصبى بالحجارة من فوق الصياصي والاطام ، بينما نقاتل العدو باسيافنا في السكك . إنّ مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضّت علينا قط وما دخل علينا عدوٌ فيها إلاّ أصبناه ، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلاّ اصاب منا . فدعهم يا رسول الله ، فإنهم ان اقاموا ، اقاموا بشر محبس ، وان رجعوا ، رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيرا ، يا رسول الله ، اسمع لى في هذا الأمر ، فإني ورثت هذا الراى عن اكابر قومي واهل الراى منهم ، وقد كانوا أهل راى وتجربة » ...

ووجد رسول الله ﴿ﷺ﴾ في راى ابن ابىّ ما يدعو للأخذ به ، وهو ما رآه الأكابر أيضا من اصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « نمكث في المدينة ، ونجعل النساء والذرارى فوق الآطام ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة ، فنحن اعلم بها منهم ، ورمُوا من فوق الصياصى بالحجارة » ...

ولكنَّ حميّة الشباب ، ابت على البعض ممن لم يشهدوا بدرا ،

الآ الخروج الى العدو وملاقاته حيث نزل . فقالوا لرسول الله ﷺ وهم يرغبون في الشهادة : « اخرج بنا يا رسول الله الى عدوّنا . . ؟!! وقال رجال ، من أهل النية الحسنة ، الخالصة لوجه الله تعالى : « إنا نخشى يا رسول الله ان يظنّ عدوّنا أنّا كرهنا الخروج اليه جُبْنا عن لقائه ، فتكون له جرأة علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة فظفرك الله على عدوك ، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فقد ساقه الينا في ساحتنا » .

وقال مالك بن سنان ، محبّذا الخروج : « يا رسول الله ، نحن بين إحدى الحسنيين ، إمّا أن يظفرنا الله بهم ، وهذا الذى نريد ، واما ان يرزقنا الشهادة . . والله يا رسول الله ما أبالى أيهما كان . . إنّ كلاّ لفيه خير » . . .

فقال حمزة بن عبد المطلب (رض) : « والذى انزل عليك الكتاب لا اطعم بعد اليوم طعاما حتى اجالدهم بسيفى هذا خارجا من المدينة » .

وقال النعمان بن مالك ، معقبا على حماسة حمزة : « يا رسول الله ! لم تحرمنا الجنة ؟ فوالله الذى لا آله الا هو لأدخلنّها » . . .

وهزّ حديث الاستشهاد هذا رسول الله ﷺ ، فسأل النعمان : « وبم » ؟

فقال النعمان : « إنى امرؤ أحب الله ورسوله ، ولا أفرّ يوم الزحف » .

فقال إياس بن أوس : « إنى لا أحب ان ترجع قريش الى قومها فيقولون : حصرنا محمدا في صياصي يثرب وآطامها ، فتكون

هذه مجرِّئة لقريش . وها هم أولاء قد وطئوا سقفنا . فإذا لم نذّبّ عن شجرنا لم يزرع . وإن قريشا قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها مع من تبعها من احابيشها . ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الابل حتى نزلوا بساحتنا . افيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكْلموا ! لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشنّوا الغارات علينا واصابوا من اطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا » .

وقال خَيْثمةُ ابو سعد بن خَيْثمة : « عسى الله ان يظفرنا بهم او تكون الاخرى فهى الشهادة . لقد اخطأتنى وقعةُ بدر وكنت عليها حريصا حتى بلغ من حرصي عليها ان ساهمت ابنى في الخروج ، فخرج سهمه فرُزق الشهادة . وقد رايت ابنى البارحة في النوم وهو في احسن صورة . يرتع في جنان الخلد ، ويهنا بنعيم السعادة الخالدة . وهو يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة . فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا . فادعُ الله . يا رسول الله . ان يرزقنى الشهادة لأكون مع ولدى سعد في الجنة . فوالله لقد اصبحت مشتاقا الى مرافقته . وقد كبرت سنى . ورق عظمى . واحببت لقاء ربّى » .

ورأى رسول الله ﷺ إجماع الغالبية على الخروج ، وهم لا يرومون إلا الشهادة ، فهل يفرّق بينهم وبين حق يطلبونه ، وعزة يرتجونها ما بعدها عزّة ؟!..

إنه كان يكره هذا الخروج ، ويفضّل الدفاع عن المدينة من داخلها ، ولكنّ كثرة المؤمنين ترنو إلى ملاقاة العدو حيث نزل ولذلك ترك اتخاذ القرار النهائي إلى اليوم التالي ، وبعث بعض الفتية يرقبون

تحركات جيش قريش ، فجاءه الخبر بأن خيول قريش قاربت المدينة وهي ترعى الزروع المحيطة بها ، فأشار على الجميع أن يبقوا متأهبين ، وأن يكملوا الاستعداد للقتال .

وانقضت تلك الليلة كسابقتها ، وأصبح يوم الجمعة ، ومازال المسلمون في حالة تأهّب ، حتى كان الظهر فصلى بهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ووعظهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، وأن لهم النصر ما صبروا ، فأيقن الذين أرادوا الخروج أن الرسول ﴿ﷺ﴾ عازم عليه ، وظلّ الذين يمانعون فيه كارهين له لمعرفتهم بأن رسول الله ﴿ﷺ﴾ هو كارهٌ له أيضاً .

فلما كان العصر ، صلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ثم دخل بيته بعدها وترك الناس وراءه يتحاورون ، وكلٌّ فريق مازال مصرّاً على رأيه ، فقال سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير ، وكانا ممن أشارا بالتحصّن بالمدينة ، للذين رأوا الخروج منها : « لقد قلتم لرسول الله ما قلتم ، واستكرهتموه على الخروج ، وهو كارهٌ له . . إنه يتلقى الأمر من السماء ينزل إليه ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه » .

ومازالوا كذلك حتى رأوا رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد خرج من بيته وهو يلبس درعه ويتقلّد سيفه ، فأيقنوا عندئذٍ أنه قرّرَ الذهاب لملاقاة العدو ، فأقبل عليه الذين كانوا يلحُّون في الخروج وهم يقولون : « ماكان لنا يا رسول الله أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك . وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك » .

فقال لهم رسول الله «ﷺ» : « لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فابيتم . وما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لامتهُ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم إن شاء الله ما صبرتم » . ودعا الرسولُ العظيمُ الناس إليه ، فأمّر على المدينة ابن أم مكتوم يصلي بالناس ، ثم أمر أن يرفع النساء والأولاد فوق الحصون والآطام ، حتى إذا فرغ من إعداد الجو الداخلي وتأهيله ، عاد إلى الجيش يرتِّب أوضاعه وفق تنظيم دقيق ، فجعله في ألوية ثلاثة ، ثم عهد إلى أسيد بن حُضير بلواء الأوس ، وإلى الحباب بن المنذر بلواء الخزرج ، وإلى مصعب بن عمير بلواء المهاجرين . . . ثم لـمّا فرغ من هذا الإعداد ، اعتلى ظهر فرسه ، وخطب في الجيش ، يبث فيه روح التضحية والفداء ، ويبيّن عظمة الجهاد في سبيل الله ، وسمّو البسالة من أجل إعلاء الحق ، وذكّرهم بضرورة الحفاظ على النظام ، والتقيّد بقواعد التنظيم والالتزام بالأوامر ، لكي يكون الجيش قادراً على مواجهة عدوٍّ عاتٍ ، يفوقه عدة وعددا ، ولكي يفوِّت عليه الفرصة التي استعدّ لها خلال عام كامل ، فيعيده إلى مكة أشتاتا مبعثرة . . .

ولقد أفاض رسول الله «ﷺ» في التحدث والتشجيع ، وشدِّ العزائم وشحذ الهمم ، وأبان كل ما يجب على جيش المسلمين القيام به . وبعد أن أبان ، وبلّغ ، وأعلم ، دعا بالمسير على بركة الله . . .

وسار الجيش الإسلامي ، وقوامه ألف مقاتل ، جلُّهم من المشاة ، ولا يزيد عدد الدارعين فيهم على مائة ، وتقدم أمامهم السعدان : ـ سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ـ يعدوان في

الطليعة ، حتى إذا بلغوا مكاناً يقال له « الشيخين » ، أمر رسول الله «ﷺ» بالتوقف وإقامة معسكر لهم هناك .

وراح الرسول «ﷺ» = فيما كان المسلمون يعدّون معسكرهم = يستعرض الخارجين معه فرداً ، فرداً ، فإذا به يجد بينهم بعض الغلمان ، من حديثي السن ، وقد طاب لهم حضور القتال والمشاركة فيه ، فأبى عليهم ذلك ، ودعاهم إلى الانصراف والعودة إلى ديارهم في المدينة ، ولكنَّ أحدهم ، وكان يدعى رافع بن خديج ، أبت عليه نخوتُه العودة ، فتقدم من رسول الله «ﷺ» يرجوه البقاء ، ويبيِّن له أنه يجيد الرماية ، وقد خرج يريد أن يرميَ في سبيل الله ، فأجازه الرسول «ﷺ» راضياً ، كارهاً ردَّه عن أمرٍ يريده لله سبحانه وتعالى . . .

ورأى سمرة بن جندب ، أن رسول الله «ﷺ» قد سمح لرفيقه رافعٍ بالبقاء ، فدمعت عيناه وبكى . . وسأله من حوله عما يبكيه ، فقال : كنت أصارع رافعاً فأغلبه ، وقد أجازه رسول الله «ﷺ» وردّني ! . . وأوصلَ بعض الرجال أمره للنبيِّ «ﷺ» فدعاه إليه وابتسم له ، ودعا رافعاً ، وأمرهما بالبقاء في صفوف المقاتلين . .

وحلّ ليلُ ذلك اليوم ، فأعدَّ الرسول «ﷺ» بضع فرقٍ للتناوب على الحراسة ، وجعل قيادة الحرس على الجيش لمحمد بن مسلمة ، بينما أوكل إلى ذكوان بن قيس تولِّيَ أمر حراسته الخاصة ، حتى إذا كان السّحرُ هبَّ الجند من رقادهم ، وتهيأوا للمسير ،

وكان موعد الصلاة قد حلَّ ، فصلَّوْا الفجر ، ثم ساروا بقيادة رسولهم العظيم حتى بلغوا بستانا ـ ما بين المدينة وجبل أحد ـ يقال له « الشوط » ، فإذا بحركة غريبة تدبُّ بين الصفوف ، وتدعو الرسول ﷺ للتوقف حتى يرى ما الخبر ، فإذا به يجد أنّ عبد الله بن أبيّ بن سلول قد انتحى عن الجيش هو ورجاله ، وكانوا يبلغون ثلاثمائة مقاتل ، وأبى التقدم وقال : « لقد أطاع الغلمان ، وأبى أن يقبل رأيي ، فعلام نقتل أنفسنا ههنا » ؟! . .

وتقدّم منه عبد الله بن عمرو بن حرام ، يحاول أن يثنيه عن عزمه ذاك ، ويناشده ألاّ يشق عصا الجماعة ، وألاّ يخذل القوم ونبيّهم وهم في أدق مرحلة من مواجهة الأعداء ، فما كان رد ابن أبيّ إلا التهكّم ، وقال : « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » .

وهكذا أبى ذلك المنافق إلاّ العودة برجاله إلى المدينة ، فرجع ساخراً ، مستهزئاً . .

ولكنّ فعلته الشنيعة تلك لم تمرّ بسلام ، إذ تركت أثرها فى الجيش ، وهو ما كان يتوقعه ابن أبيّ ويخطط له في الخفاء ؛ إذ ما إن انصرف حتى ظهرت البلبلة بين الصفوف ، وحدث بعض الاختلال في التنظيم . . وليت ذلك الأثر توقف عند هذا الحدّ ، بل لقد دبت الذبذبة في بعض النفوس إلى درجة همّ معها بنو حارثة من الخزرج ، وبنو سلمة من الأوس ، أن يفعلوا مثلما فعل ابن أبيّ ، لولا أن عصمهم الله سبحانه بالايمان ، فعادوا إلى لحمة الصفّ ، ووحدة المسيرة . .

غـــزوَة أحُـــد

وتتابع المسير حتى بلغ الجيش الإسلامي جبل أُحد ، وهو الجبل المعروف بكثرة مسالكه وشعابه ، وبما فيه من وديان تقطعه ، وبما هو عليه من شكل يبدو للناظر إليه وكأنه يلتفُّ حول نفسه التفافاً ، ليشكل وحدة قائمة مستقلة عن غيره من الجبال ، فكانت من جراء ذلك تسميته بجبل أحد . .

وكان أمام هذا الجبل سهل ضيق ، وهو السهل الذي نزلت قريش عند أطرافه . . وربما اختارت هذا المكان لكثرة تعاريج أرضه وانحدارها في فجوات تشبه الحفر الكبيرة ، بحيث تصلح للاختفاء في حرب دفاعية ، وتكون مناسبة تماماً لرمي الأعداء وقذفهم بالنبال والحراب . .

أما رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقد اختار النزول في الشِّعب من أحد ، على عُدوة الوادي (جانبه) ، وعلى القرب من تلٍّ مشرف يقال له « جبل عينين » . . ولم يلبث بعد هذا النزول أن عادَ ووضع لجيشه التنظيم الأخير الذي يدخل به المعركة ، وذلك عندما جعلَ الجبل من ورائه بحيث يشكل عاملاً طبيعيّاً للحماية من الخلف ، وأقام خمسين من الرماة الأشداء على « جبل عينين » ، يتخذونه مكاناً ثابتاً ، ولا يبرحونه أبداً حتى يأتيهم الخبر . . وجعل الإمرة على هؤلاء الرُّماة بيد

عبـد اللـه بن جبير، أوكل إليه مهمةأسـاسية، وهـي حمـاية ظهور المسلمين عند القتال ، وعدم تمكين العدو من التقدم نحوهم واقتحام مواقعهم ، وذلك برميه بالنبال والحراب و بما يحول بينه و بين أي تقدم نحوهم . .

ولقد كان الرسول «ﷺ» يعوّل كثيرا على أولئك الرمـاة في تسيير المعركة ، نظرا للدور الكبير الذي عهد به إليهم ، ومن أجل ذلك كانت أوامره المشدّدة بألاّ يبرحوا مكانهم على التلّ ، مهما ظهرت لهم أوضاع القتال ، وكيفما بدا لهم مسار المعركة ، سواء كان النصر بجانب المسلمين ، أم كان لأعدائهم . .

وكان مما قاله لهم صلى الله عليه وآله وسلّم : « ايها الرّماة ، يا جند الله ! . . احموا ظهورنـا لأننـا نخـاف أن يجيئونـا من ورائنـا ، والزموا أمكنتكم ولا تبرحوا منها، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، و إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تُقدم على النبل » . .

و بعد أن فرغ من إعطاء الأمر للرّماة وأعـدهم في مكانهم على التل المشرف ، عاد إلى سائر الجيش ، يسوّي صفوفه ، وينظّم اوضاعه ، على شكل جعل كل مقاتل يعرف دوره ومكانه ، وكيف يدخل المعركة و يواجه فيها عدوّه الشرس . . حتى إذا اتـمّ التهيئة ، وقف قبالة ذلك الجيش ، يلقي عليه النظرة الأخيرة ، فلما اطمأنّ إلى تنظيمه ، حمل سيفه بيده ، وقال :

« من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟! . .

فقالوا : وما حقه يا رسول الله ؟

قال : « أن يضرب به العدوَّ حتى ينحني » . .

وأرادَ الكثيرون أخذ السيف ، ولكنهم تهيّبوا الموقف ، إلاّ أبو دجانـة ، سمّـاك بن خرشـة الأنصاري ، فإنـه تقـدم من رسـول الله «ﷺ» وقال : أنا آخذه يا رسول الله «ﷺ» ! . .

وكان رسول الله «ﷺ» يعرف شجاعة أبي دجانة ، وشدّته في القتال ، فأعطاه السيف ؛ وما أن صار بين يديه ، حتى عصب أبو دجانة رأسه بعصبة حمراء ، كان الناس يقولون عنها : إنها عصابـة الموت ، ثم ابتعدَ عن رسول الله «ﷺ» وأخذ يتبختر في مشيته مُدلاً بقوتِه وبأسه ! ونظر إليه الرسول العظيم وهو يتبختر على تلك الحالة فقال : « إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموضع » .

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدّون ، كانت قريش من جانبها قد سوَّت هي الأخـرى صفوفهـا ، فأبقـت التنـظيم كما خرجت من مكة . فعلى الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل ؛ وظلَّ عبد العزى طلحة بن أبي طلحة يحمل لواءها ، ثم تقدمت في السهل المنبسط أمام التل بجيشها اللجب ، وبفرسانها الأشداء ، ومن معهم من المناصرين والعبيد ، ومشـت النسـوة مع الجيش ، يضربن بالدفوف ، ويسرن تارة أمام الصفوف ، وتارة على جوانبها أو من خلفها ، وهن يحرّضن على القتال ، ويثرن الحمية . .

وكانت هند بنتُ عتبة = زوجة أبي سفيان = على رأسهـن ، تزيدهن تحريضاً وإثارة ، وهي تنشد ، فيرددن معها :

ويهـا بنـي عبـد الدار ويْهـا حُمـاة الديار
ضرباً بكلِّ بتَّار

ثم كانت هند تُغير أرجوزتها ، وتبدِّلها بأحرى ، فتقول هي والنساء :

نحـنُ بنـاتُ طارقْ نمشي على النمـارق
إنْ تُقبلـوا نُعانقْ ونفرُش النمـارقْ
أو تُدبـروا نُفارقْ فراق غـير وامقْ . .

. . وتقدّمت قريش ، وتقدم المسلمون ، والتقى الجمعان ، وصارا وجها لوجه ! . .

وأراد أبو سفيان المبادأة بتنفيذ ما اتفق عليه من خطة ، وهي أولا التخذيل بين الأنصار والمهاجرين ، فرفع صوته صارخا : « يا معشر الأوس والخزرج ، خلّوا بيننا وبين بني أعمامنا وننصرف عنكم » . .

ولكنَّ صراخه كان كعويل ذئاب تبدّده فيافي الصحراء . . إذ لم يكن رد المسلمين عليه إلاَّ السبَّة واللعنة ، فرجع خاسئا مذموماً . . عندها ظهر أبو عامر الأوسي يعدو على فرسه مسرعاً ، وهو يريد أن يُري قريشاً كيف تكون الاستجابة لندائه حتى إذا قارب جيش المسلمين ، صاح بأبناء قومه السابقين من الأوس : « يا معشر الأوس ! أنا أبو عامر ، إليَّ إليَّ ، فلا تتباطأوا . . » فما كان جواب الأوس من المسلمين إلاَّ اللعن له ، بل أخذوا يقولون : « لا أنعم

الله بك عيناً يا فاسق » ! . وخاب ظنُّ هذا المخادع ، وخذلته آماله الكاذبة ، فولّى هارباً من وجوههم ، وهو يولول بهذيان المجنون : « لقد أصاب قومي من بعدي شر » . .

وظهر لقريش أن القتال وحدهُ باتَ سيّدَ الموقف .

فالمباغتة التي منّت بها النفس في هجوم على المدينة قد فشلت بفعل وصول أخبارها إلى المسلمين واتخاذهم وسائل الحيطة والحذر والاستعداد ؛ وها هي ترى اليوم أن خطة التخذيل قد ذهبت ايضاً سدىً ، لأنها رأت الأنصار يهزأون من أبي سفيان ، وتدوّي ضحكاتهم عليه ، الأمر الذي جعله يرتدُّ إلى الوراء وهو يشعر وكأن الأرض تميد من تحته ، وتكاد تنشق لتبتلعه . .

ثم ها هوذا الآخر ، أبو عامر الأوسي ، لا يلقى من قومه إلاَّ أشدَّ مما لقيه أبو سفيان ،لعنات تخزي صاحبها وتخذله . .

وإزاء هذا الموقف ، اندفع عِكرمة بلوائه مبادئا في القتال ، وهو يعمل على أن يأخذ المسلمين من جناحهم في حركة التفاف سريعة ، فإذا النبال تنهار على المهاجمين مثل وابل من المطر وتمنعهم من التقدم ؛ فحاول خالد بن الوليد أن يهجم من الميمنة ، بدوره من حول عسكر المسلمين ، فلم يكن نصيبه هو وفرسانه ، بأحسن من نصيب عكرمة ، إذ ارتدت الخيول على أعقابها ، وكادت ترمي مقاتليها عن ظهورها ، لكثرة ما نزل عليها من نبال . .

فما هي إلاَّ محاولات قام بها فرسان قريش ، فإذا بها نذائر شؤم وتخاذل ، ولذا كانوا يرتدّون إلى مواقعهم ، ويعودون إلى أماكنهم

التي كانوا عليها عند بداية المواجهة ..

واشتعل الحقد في قلوب المشركين ، وهاج الغضب في نفوسهم ، فتصوَّر للبعض منهم أنهم يملكون من القوة والشجاعة ، ما يجعلهم قادرين على البطش بأبطال عدوهم ، إذا ما تقابلوا و إياهم وجهاً لوجه ، فانبروا يطلبون المبارزة ..

وكان أول من تقدّم يصيح في المسلمين : من يبارز ؟ طلحة بن أبي طلحة ، حامل اللواء ،فينبري له علي بن ابي طالب (ع) في هجمة بطولية نادرة ، وما أن وصل إليه ، حتى عانقه سيفه البتار بضربة واحدة فلقت هامتهُ ، وهوت به إلى الارض يمتزج لحمه ودمه بترابها ..

وتعالت من جانب المسلمين هتافات التكبير والتوحيد ، وكان أول المكبرين رسول الله ﴿ﷺ﴾ إذ سرَّه أنّ يرى ضربة الحق تفلق هام الباطل ؛ وبقي عليٌّ (ع) في الساح ينتظر من يخرج إليه ، فدفعت المنية عثمان بن أبي طلحة إلى النزول لملاقاة علي ، فكان حظه من الموت مثل حظ أخيه طلحة ، عندها برز أخوهما سعد يريد ان يقتل علياً بأخويه ، فاختلفا ضربتين ، فنبتْ ضربةٌ ابن أبي طلحة ، بينما أسقطته ضربة علي عليه السلام وهوى على الثرى ، فرُؤي علي وهو ينصرف عنه ، ولا يجهز عليه . ولقد سأله أصحابه عن السبب الذي حمله على ترك سعد بن أبي طلحة من غير ان يقضي عليه ، فقال : « إنه استقبلني بعورته ، وعلمت أن الله قد قتله » ..

واندفع عددٌ آخر من المشركين يحملون لواءهم ويريدون الثأر

لاهليهم من علي ، فإذا بعلي يلحقهم بهم إلى جهنم وبئس المصير بضرباته الْبِكْرِ التي بعد الدراسة والتأمل كأنها كانت وحيدة ، فريدة ، تميَّزت عن سائر ضربات الأبطال . .

وأين من يجرؤ من قريش بعدها على الاقتحام ، وإلقاء نفسه في أتون الغضب للحق ؟؟ إنَّ في الساحة سيّدَ الوغى ، لا يحول ولا يزول . . إنه عليٌّ يقف صامتاً كالطود الشامخ ، في تطلّعه نحو المشركين ! . . يومىء إليهم بالنزول ، فتنقضُّ نظراته عليهم لتدبَّ الرعبَ في قلوبهم ، وتنتشل أفئدتهم من مكانها ، فيجمدون في أماكنهم ، ولا يجسرون على التحديق به على الأقل ! . .

وينظر كلاب بن طلحة إلى هام أبيه ، فيثور الغضب في نفسه ، ويندفع نحو علي يريد قتاله ، ويعرفه عليٌّ فيحيد من دربه ، ويأبى أن يقتله بعدما قتل أباه وأعمامه ، فينزل إليه الزبير بن العوام ، كالأسد الهصور ، فيثخنه بالجراح ، ثم يهوي عليه بالضربة القاضية فيلقى مصيره المحتوم . .

وراح من بعده ، بعضُ المشركين ، يبرزون إلى القتال ، فيلاقيهم أبطال المسلمين ، ويقضون عليهم واحداً تلوَ الآخر ، حتى رأت قريش أن المبارزة لم تعد أبداً في صالحها ، وأنها إن بقيت على تلك الحال فإنها سوف تفقد أشدّاء أبطالها وأقواهم . . عندها صاح أبو سفيان بن حرب ، قائد حملة الكفر ، مهتاجاً ، مسعوراً ، يدعو القوم إلى هجوم شامل . . فاندفع جيش الشرك في هجمة عاتية ، شرسة ، تروم انتزاع المهج ، وسلب الأنفس ، فتلقّاه الجيش

الاسلامي ، بقلوب ملؤها الإيمان ، وبنفوس ذُخرها الحق ، ليصدَّ عنه القوة العاتية ، ويدفع ذلك البلاء الشديد. . فإذا الجموع تختلط بعضُها ببعض ، فلا تعود تُسمع إلاَّ قرقعات السيوف ، وأصوات الضرب والطعان ، ولا تعود تُرى إلاَّ هامات تهوي ، وسواعد تتطاير ، ورؤوسٌ تتدحرج . . .

وكان طبعا في قلب المعركة أبطالُ المسلمين ، عليّ وحمزة وأبو دجانة وغيرهم الكثيرون من الأنصار والمهاجرين ، يذودون عن الحق في قتال لا تكافؤ فيه ، لا من حيث العتاد والسلاح ، ولا من حيث العدد ، ولكنهم لم يأبهوا لذلك كله ، بل كانوا ينزلون بالأعداء أشدّ الضربات وأقسى الطعان التي كان يعبّر عنها أبو دجانة ، وهو يضرب يمينا وشمالاً ، وينشد غير مهموم ولا متكدّر :

انا الذي عاهدني خليلي ونحن في السفح لدى النخيل
الاَّ أقوم الدهر في الكيّول[1] أضرب بسيف الله والرسول

وقد أبلى كذلك في القتال أسدُ الله ، حمزة بن عبد المطلب ، اشدّ البلاء ، وكان يكرّ على جيش المشركين ، يفرقهم بسيفه البتّار ويدق أعناقهم دقّا ، ويلاحقهم زرافات ووحدانا ، فيفرُّون أمامه فرار النّعاج من أسد كاسر ، إذ كان لا يقترب من أحد إلاَّ وتكون الحياة خانقة عليه تريده أن يذهب عنها ، فيخلّصها منه حمزة ، ولا ينقضّ على مشرك إلاَّ ويجعل روحه تفارق جسده . .

ثم يستمرُّ حمزة على تلك الحال ، يحمل على المشركين فيهدّهم

---

(١) الكيول : مؤخرة الصف . .

هدّاً ، حتى انقضت ساعة من الوقت ، كان خلالها العبد الحبشي المأجور « وحشي » يلاحقه خلالها من مكان إلى مكان ، ومن قتال إلى قتال ، وهو لا يجرؤ على التقدم منه ، بل يراقبه من البعيد ، حتى أمكنه في ومضة من ظهور الباطل على الحق أن يرميه بحربته فتُصيبه ، وتطاله يدُ النذالة والخيانة فيهوي في وسط المعركة يعانق الشهادة ويخلد في جبين الدهر ، سيِّدَ الشهداء ، بمنطوق الوحي الالهي على لسان رسول الله ﷺ إذ قال يوم وقف يبكيه : « سيدُ الشهداء حمزةُ بن عبد المطلب ، ورجلٌ قال كلمة حق أمام سلطان جائر ، فقتله » .

ورآه المشركون ، فراحوا يصيحون ويشيعون في الصفوف : « قتل حمزة بن عبد المطلب .. قتل حمزة ..» .. وظنَّ المشركون أنهم بتلك الصيحات يخذلون المسلمين ، ويفتُّون من عضدهم .. ولكن أنى لهذا الظن الكاذب أن يحقق لهم ما يصبون إليه ، وفي نفوس المسلمين قوة في الايمان لا تزحزحها خسارة ولا يثنيها مصاب ، مهما عظم !..

هو صحيح أن حمزة بطل لا كالابطال ، وقد يعدُّ كألفٍ من الرجال الأشداء ، وفقدانه في حمأة الوغى يُفقد المسلمين قوةً لا يستهان بها ، وليس من السهل أن يعوّضوها في هذا الموقف الحرج ، ولكنَّ استشهاده كان دافعاً جديداً لهم في استزادة قوتهم واندفاعهم أكثر في القتال .. ولذا فقد رأى المشركون أن موت حمزة لم يوهن جيش عدوهم ولم يضعفه ، كما توهموا ، بل رأوا ذلك الجيش ، يزداد شدة وإقداماً ، ويستمر في الالتحام معهم ، وكأنه يستمرىء اللقاء ، ويتحدّى الموت صارخاً فيه : أن اقْدم إننا ها هنا لصامدون

ثابتــون ، لا يغـيرٌ من موقفنــا شيء ، فإن مات منــا سيدٌ ، قام سيّد ! . .

ويظل المسلمـون على بطولاتهـم ثابتـين ، حتى يمكنهـم أن يظفروا بعدوهـم ، ويحققـوا معجـزة النصر فعـلاً ، قبـل أن تُدرك الشمسُ كبدَ السماء ؛ فينال الضعفُ من جيش عدوِّهـم وتضـعف قوته ، وتخبو في نفوس أصحابه روح القتال ، فيدرك أنه غـير قادر على متابعة المعركة ، وتبدأ جحافلـه بالفـرار ، ويطلقـون لخيولهـم وجمالهم العنان ، تحملهم بعيداً عن ضربات المسلمين ، وتحميهم من غضبهم اللاَّهب .·.

ثم أخذ يندفع المشركون في الهرب ، وهـم يخلُّـون وراءهـم الأمتعة والأسلحة والأرزاق التي احتملوها من مكة ، وكانت كثـيرة وافرة ، بل كانوا يتخلّون عن نسائهم ، فيذهبن هاربات في شعاب الجبل حتى لا يقعن أسيرات ذليلات . .

وأخذ المسلمون ايضاً يتابعون عدوَّهم في فراره بعيداً عن ساحة المعركة ، ثم يعودون لأخذ الغنائم التي خلَّفها ، ولجمعِ المتاع الذي تركه . .

ونظر الرماة المسلمون على « جبل عـينين » ما يصيبه اخوانهم من غنائم ، فقال بعضُهم لبعض : « الغنيمـة ! أي قوم قد غلـب أصحابكم ، فما تنتظرون » . .

وصاح فيهم قائدهم عبد الله بن جبير : « ويحكم أنسيتم ما أوصاكم به رسول الله ألاَّ تبرحوا مكانكم ؟»

ولكنَّ الغنيمة كانت قد أفقدتهم الصواب ، فقالوا له : « والله لنأتين الناس ولنصيبنَّ من الغنيمة ، فإن المشركين قد انهزموا ، فما مقامنا ها هنا » ؟! . . واندفعوا يخلُّون مراكزهم ، دون أن يسمعوا لقائدهم الذي ثبت في مكانه ومعه نفرٌ قليل كان أمرُ الرسول «ﷺ» عندهم فوق كل مكسبٍ أو مغنم . .

ونَظَر خالد بن الوليد وراءه ، فوجد أن الجبل قد خلا من الرمَاة إلاّ قليلاً منهم ، وأن ظهور المسلمين باتت مكشوفة ، وقد انشغلوا بالغنيمة ، فصاح في خيله من المشركين فجمعهم وحمل على المسلمين من خلفهم ، ونزل بهم تقتيلاً ، فشتت قواهم ، وبدَّد فرحتهم بالنصر . .

ورأى رسول الله «ﷺ» ما حلَّ بالمسلمين من مصيبة مفاجئة ، فثبت في مكانه لا يتقدم ولا يتأخّر ، بل بقي يرمي بالنبل حتى لم يبق معه شيء ؛ ورآه رجل من المشركين اسمه ابنُ قميئة الليثي ، فرماه بالحجارة ، فأصيبت رباعيته الشريفة وشُجَّ في وجهه الكريم وكُلمت شفتُهُ ودخلت حلقتان من المغفر الذي كان يستر به وجهه في وجنته ، ثم تقدّم نحوه يريد أن يقتله ، فذبَّ عنه مصعب بن عمير الذي كان يحمل راية رسول الله «ﷺ» ، راية العقاب ، وما زال يستمرُّ في الذب عن رسول الله «ﷺ» ، والعدو يهاجمه من كل ناحية وصوب حتى لم يعد يستطيع الصمود لكثرة ما نزف من دمه ، فوقع على الارض مضرَّجاً بالدم الزكي دفاعاً عن رسول الله «ﷺ» ، وكان علي ابن ابي طالب قد وصل ، فاندفع يكشف المشركين عن مصعب ، ثم أخذ الراية ورفعها كي يراها المسلمون فلا يتفرقون ، ولا يقتلهم

التشتت ؛ ولكن هيهات أن يبقى لهم حولٌ أو تجتمع لهم قوة ، وقد تفرّقت صفوفهم ، وتمزقت وحدتهم ، فراحوا يقاتلون فرادى لينجوا من براثن الموت ، بعد أن كانوا لساعة يقاتلون مجتمعين بأمر ربهم ، متراصّين متضامنين منتصرين . .

ورجع ابن قميئة بعد ان قتل مصعب بن عمير وهو يظن أنه قتل رسولَ الله «ﷺ» فراح يصيح في قريش : « إنـي قتلـت محمّداً . . »

وتطايرت أصوات الابتهاج في صفوف المشركين ، من كل جانب تنادي : ألا إن محمداً قد قتل . .

وعلى غفلةٍ من قريش ، وقد أعماها خبر مقتل محمـد ، دعـا رسول الله «ﷺ» أصحابه إليه ، فاجتمع منهـم حولـه ما يقـارب الثلاثين ، يحمونه بالمهج ، ويذودون عنه بالنفوس . . فرمى سعـد ابن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ، وأصيب طلحةبن أبي عبيد الله في يده ، فشلتَّ على الفور ، كما أصيبت عين قتادة بن النعمان ، حتى نزلت فوق وجنته . .

وكان أبيّ بن خلف الجمحي ، قد رأى النبيّ «ﷺ» ، وعرف أنه ما زال على قيد الحياة ، فهجم عليه مثل وحش كاسر ، يريد أن يقتله وهو يصرخ مسعوراً : يا محمد ! لا نجوتُ إن نجوت ! .

وأراد أصحاب الرسول أن يقتلوه ، ولكنّه أمرهم أن يخلُوا بينه وبين عدوّه ، حتى إذا دنـا من رسـول الله «ﷺ» ، تنـاول حربـة الحرث بن الصمّة ثم استقبله فطعنه في عنقه ، ولكنَّ الحديد الذي

كان يلبسه قد ردَّ عنه القتل ، وإنْ لم يـحْـمه من جرح أحسَّ بالدم ينـزف منـه ، فولَّى هاربـاً لا يلـوي على شيء ، حتـى وصـلَ إلى أصحابه ، فوقع عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ، ويصيح : لقد قتلني محمد . .

وظنَّ أصحابه أن التعب قد أنهكه ، وأن ما يقوله عن بقاء محمد على قيد الحياة هو نوع من الهـذيان ، فاحتملـوه وهـم يشـدون من عزمه ، ويطمئنونه بأنَّ ما أصابه ليس سوى جرح صغير سوف لا يؤثّر عليه ، ولكنّه أجابهم بهَلع :

« لو كانت الضربة بربيعة أو مضر لقتلتهم ! أليس هو من قال لي : أنا أقتلك ؟ فوالله لو بصق عليَّ بعد تلك المقالة لقتلني » . .

وسأله بعض أصحابه ، ممن احتملوه : ولكن متـى قال لك ذلك ؟

فقال لهم : لقد كنت ألقى محمداً في مكة فأتوعده وأقول له : إنَّ عندي عوداً أعلِّقه فوق رأسي ولسوف أقتلك به ، فكان يردُّ عليَّ ويقول : بل أنا سأقتلك إن شاء الله . .

ثم قال ابن خلفٍ بعد أن صمت قليلاً : وها هو اليوم ، والله قد قتلني . .

وعادَ أصحابه يقولون له : ما بك بأس يا أُبيّ ! . . .

ولكن أنّى لأصحاب ابن خلف أن يطمئنوه ، وهو يشعـر في قرارة نفسه أنَّ اليأس ، كل اليأس ، يتغلغل في أعماقه ويشدّه إلى

مهاوي الموت !..

أوَ يعرف أولئك الأصحاب أو غيرهم أن الوجْدَ والوجَلَ من محمد بن عبد الله يلاحقانه منذ بضع سنوات ، وأنّهُ ما قصد الخروج مع قومه إلاَّ وله مأربٌ وحيدٌ ، وهو النيل من محمد ، حتى يُذهب عنه تلك المشاعر التي تقضُّ مضجعه ، وتلازمه في كل حين ؟! ..

لا !.. إن أحداً لا يعرف مصيبته ..

وها هو إحساس ذلك اللعين يصدقه ، فيرى شَبَح الموت ماثلاً أمام عينيه ، حتى إذا كان اليوم التالي لأحد ، انقضّت المنية عليه تجتثُّ روحه من خلال جرحٍ بسيط أحْدثه رسولُ الله في عنقه ، ولو وقع ذلك الجرح في عنق حشرة واهية لما نال منها شيئاً .. ولكنه توعُّدُ محمد ﴿ﷺ﴾ له بأنه سيقتله بمشيئة الله ، وهو توعُّدُ النبيِّ الصادق الذي لا يمكن أن يقع على نفس كافرةٍ ، مثل نفس ابن خلف إلاَّ ويقتلها ، مهما طالت المدة أو استدار الزمن ..

نعم .. لقد انتشر خبر مقتل محمد ﴿ﷺ﴾ بين المشركين فأذهلهم .. أذهلهم ذهول الفرح والابتهاج ، إذ أمكن لقريش بعد سنين طويلة ، أن تقضي على هذا العدو اللدود ، الذي جاء يزيل مكانتها بين العرب ، ويهدم كيان وجودها ، ويسحق ما تعبد هي وآباؤها وأجدادها من أصنام وأوثان ..

أما المسلمون ، فقد كان للخبر وقْعُهُ المميت في نفوسهم .. وكيف لا ، وهم يجدون أنفسهم قد فقدوا في لحظاتٍ حاميَهُمْ ، ومحرِّرهم ، ورائدَهم في الحياة !.. وكيف لا يزلزل الارض بهم هذا

الخبرُ زلزالاً شديداً والموت والذل بعد محمد «ﷺ» ينتظرانهم لا محالة ؟! . .

وسرت في نفوسهم روح الهزيمة ، وتفرقوا في الجبل ، كلٌّ يلوذ بالفرار ، أو يأوي إلى ناحية يختبىء بها ، إلاَّ من عَصَمَ الله أمثال علي ابن أبي طالب، وأبي دجانة، وأم عمارةالأنصارية، وغيرهم، وغيرهم من الذين ثبتوا في المعركة ،،أو استماتوا في الدفاع عن نبيِّهم استماتةً لا يُقهر صاحبُها أبداً .

فأمُّ عمارة الأنصارية ، نسيبة بنت كعب المازنية ، كانت تجوب ارض المعركة منذ الصباح وهي تحمل وعاءً فيه ماءٌ ، تدور به على المسلمين تسقي من استسقى. فلما انهزم المسلمون، ورأت ما حلَّ برسول الله «ﷺ» ألقت سقاءها واستلَّت سيفاً ، وراحت تقاتل وتذبُّ عن رسول الله «ﷺ» ببسالة نادرة ، وجرأة لا توصف ، حتى أذهلت المشركين ، ولم يجدوا إلاَّ التكاثر سبيلاً للانقضاض عليها ، فإذا بها تفرُّ منهم ، ولكنَّ الجراح التي أصابتها ، وقد زادت على ثلاثة عشر ، كانت قد أوهنت قواها ، وجعلتها تسقط شهيدة تتخبط بنزيف دمائها الزكية ، فيلقي عليها رسولُ الله «ﷺ» نظرة الوداع ويدعو لها قائلاً : « رحمك الله يا أختاه ، إن موعدك الجنة . . واللهِ ما التفتُّ يميناً وشمالاً إلاَّ ورأيتك تدافعين عني » . .

إنها بطولة إسلامية ، لا تقابلها إلاَّ تضحية إسلامية ، فكما استماتت حورية الجنان أم عمارة ، في الذبّ عن رسول الله «ﷺ» ، هكذا فعل أبو دجانة الذي كان يجعل من نفسه وجسمه ترساً للرسول

«ﷺ» فينحني فوقه مرة ، أو يدير ظهره للمشركين مرة فتنزل عليه نبالهم ، فلا ينثني ولا يلتفت وراءه ، إلى أن يهوي من كثرة النبال وهو يقرىء رسولَ الله «ﷺ» السلام ، ويقول له : فداك أبي وأمي ، ليتني أموت وأحيا ألف مرة يا رسول الله لأحميك من عدوِّك اللئيم . .

إيه أبا دجانة ما أروع التضحية التي قدَّمت ، والوفاء الذي خلَّدت ! . .

أو يظنون أن سهامهم نالت منك ؟

لا وحقك فأنت فوق كل سهام الغدر ، وفوق كل نبال الحقد ! . .

لقد دافعت عن حياة رسول الله «ﷺ» بتضحيتك الباهرة فقدمت للحياة كلِّها سببَ وجودها وبقائها ففرحت بك الحياة لتكون أنموذجاً للتضحية ، ولم تقبل أن يأخذك الموت منها فعشت رغم كثرة سهام الاعداء بإذن منه تعالى الذي يهب الحياة لمن يشاء . .

وأنت يا حباب بن المنذر ، ما بالك ، وأين هذه الغيبة وحبيبك محمدٌ في خطر ؟! . .

إن عُذرك أيها البطل المقدام ، أن كثافة المشركين من حولك قد غطت الأنظار فلم تعد تراك إلاَّ وأنت تفرقهم أشتاتاً ، وتحوشهم كالغنم ، وتدقُّ أعناقهم بسيفك ، وتحمل عليهم وهم يفرون أمامك حتى تجلوهم بعيداً عن رسول الله «ﷺ» . . .

فمثل هؤلاء الأبطال الصابرين ، الذين قاتلوا دون رسول الله «ﷺ» ، نفرٌ كثير . إذ قامكذلك زياد بن السكن في مجموعة من الأنصار ، يدفعون عن النبيِّ «ﷺ» بكل قوة وثبات ، فيُقتلون رجلاً بعد رجل ، حتى يكون زياد آخرهم ، فيقاتل حتى توهنه الجراح ، وتسلب منه كل عزيمة ، فيقع قرب نبيِّه الكريم ، مستقبلا الشهادة ، فيشدُّهُ النبي «ﷺ» صوبه ، ويوسِّده ركبتَيه الشريفتين حتى تفيض روحُه الطاهرة . .

وانفلت أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك ، من براثن الموت ، ليبحث بين الشعاب عن إخوة له يلمُّ شملهم ، ويأخذهم بيدهم حتى يعودوا إلى المعركة ـ وكان أنس مثال المؤمن الصادق ، المخلص ، الذي يفنى في عقيدته ويستميت في الدفاع عنها ـ فوجدَ نفراً منهم قعوداً ، وقد ألقوا ما بأيديهم ، فتقدم منهم صارخا : وما يحبسكم ها هنا ؟

قالوا : لقد قُتل النبيّ . . .

قال : « فما تصنعون بالحياة من بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه » .

ثم استقبل القوم ، وقد أذهله خبر مقتل النبيِّ «ﷺ» فأخذ يقاتلهم حتى قتل ، فوُجد بعد المعركة وبه سبعون ضربة وطعنة ، وقد مُثِل به ، وشوِّهت خلقته ، واختلطت معالمه ، فما عرفه إلاَّ أخته ، وقد أمكنها أن تستدلَّ عليه بواسطة خاتم كان في إصبعه .

إنها لأمثولات كثيرة ، وبطولات نادرة قدَّمها شهداء المسلمين

يوم أحد . . ومثل ذلك العطاء إن وجد لدى أحد الفريقين في معركة ، لا يعود يجدي معه التساؤل : لمن كان النصر ؟!. . فمثل ذلك العطاء هو النصر بعينه ، لأنه يحقق المقاصد لأصحابه إن عاجلا أو آجلاً ، ما داموا ينفحون غيرهم بالروح التي كانت فيهم . .

وتلك هي الروح التي قاتل فيها مثلَ إخوانه السابقين ، سعدٌ ابن الربيع ، حتى لم يعد قادراً على حمل سيف أو رمح ، أو أن يلقي بحجرٍ ، فتوسَّدَ الثرى يصوِّب ناظريه إلى السماء ؛ فإذا بإخوة له يرونه ، فيتقدمون منه ليسعفوه ، فيبادرهم بالسؤال : « أين رسول الله » ؟

وسكتوا ، ولم يجيبوه . . فعادَ يلحُّ عليهم ، فلما رأوه يجود بنفسه ، ولكي لا يستشهد وفي نفسه حرقة لمعرفة أخبار رسول الله ﷺ ، قالوا له : إن الرسول قد قتل يا سعد ؟

فقال سعد : « أشهد ان محمداً قد بلغ رسالة ربه ، فقاتلوا عن دينكم فإن الله حي لا يموت » ؟

فأيُّ إيمان هذا ، وأيةُ عقيدة تلك ، إلاَّ أن تكون الإسلام ، حتى تجعل سعداً وأمثاله يسمون بذلك الفكر النوراني الذي يبلغ معارج السماء !. .

وعلى غرار سعد ، كان إيمان عبد الله بن جحش ، إذ كانت أمنيته الوحيدة الأَّ يموت إلاَّ شهيداً في سبيل الله . . وها هو يقاتل في أُحد ، قتال الأبطال الأشداء ، فيلقى الشهادة التي وعَدَ نفسه بها ، لينتصر بها على أهل الخبث والحقد ، الذين لم يكفهم قتله ، بل

دفعتهم قلوبهم الصدئة بالقسوة إلى التمثيل به أشنع تمثيل . .

وهكذا تعاقب على الشهادة يوم أحد صحابةٌ أبرارٌ ، حتى بلغوا نحواً من ثلاثين ، منهم من لقي وجه ربّه عندما التقى الجمعان ، ومنهم من جادَ بروحه دفاعاً عن رسوله الله . بعدما ضحَّى بحياته فداءً له ، وهو يقول : « وجهي لوجهك الفداء ، ونفسي لنفسك الوفاء ، وعليك سلام الله غيرَ مودَّع يا رسولَ الله » . .

وإذا كانت الشهادة في سبيل الله رحمةً ونعمةً تفيضان من سناه الجليل على عباده الصالحين ، فإن تلك الرحمة والنعمة قد شملت ايضاً يوم أحد فئة من المسلمين ، لم يكن قتالها دون قتال المستشهدين الأبرار . ولكنَّ الله سبحانه وتعالى لم يرزقها الشهادة ، بل ادخرها ، وادَّخر قواها لمهمات أخرى في الإسلام ، أو لمواقيت أخرى تنال فيها تلك الشهادة بنفوس راضية مرضية ، وهي الفئة التي ثبتت في المعركة ، أو صدت عن الرسول ﴿ﷺ﴾ ، تدفع عنه البلاء ، وتحمله بعيداً عن خطر الأعداء ، حتى يكمل الله سبحانه دينه ، ويتم على البشرية نعمته ، ويرضى لها الإسلام ديناً .

ولقد كان هؤلاء الذين ثبتوا في المعركة ، بل الذين استشهدوا ايضاً ، من الشاكرين لله تعالى ، إذ كان ثباتهم واستشهادهم نعمة عليهم من الله ، فنزل بحقهم قرآن كريمٌ يُثيبهم فيه ربهم على شكرهم : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُم ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ

وراحت الشمس يوم أحد تنحدر نحو المغيب ، فهدأ أوار المعركة ، وتوقف القتال ، وكان التعب قد أخذ من الفريقين كل مأخذ ، وأصابهم الإعياء ، وهدّهم الجهاد والقتال ، فانبرى كل واحد الى جمعه يتّخذ فيه شأنه ويدبّر أمره . . .

فأمّا المسلمون ، فراحوا يجمعون شتات شملهم ، ويقبلون على بعضهم البعض ، وجلّهم لا يعرفون عن أمر النبي «ﷺ» شيئاً ، لأنَّ الذين كانوا ينضمون إليه لم يكذّب أحد منهم خبر قتله إطاعة لأمره ، مخافة أن ترتدّ عليهم قريش وتغلبهم على أمرهم دونه . . وكان كعب بن مالك قد أقبل مع نفر نحو جماعة من المسلمين رآهم يلتفّون حول بعضهم البعض ، فما إن قاربهم ، حتى عرف رسول الله «ﷺ» بينهم ، من عينيه اللّتين كانتا تُزهران تحت الخوذة التي يلبسها ، فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله » . .

فأشار اليه الرسول «ﷺ» أن يسكت . . ثم نهض المسلمون بالرسول «ﷺ» نحو الشعب ليحتموا به ولكي يركنوا الى الراحة بعيداً عن قريش ؛ وأراد الرسول «ﷺ» أن يعتلي صخرة ، فما استطاع لكثرة ما نزف من دمه الطاهر ، فأسرع اليه طلحة بن عبيد الله ، يعينه وينهض به حتى استوى عليها ، يلتقط أنفاسه ، ويصبر على آلامه وجراحه . . وأسرع علي بن أبي طالب عليه السلام الى ماء فملأ منه وعاءه ثم جاء الى رسول الله «ﷺ» يغسل به الدم عن وجهه ، ويسقيه ، بعد أن كان أبو عبيدة بن الجراح قد نزع حلقتي المغفر من جبينه الشريف .

أجل ، إن المسلمين في الشعب يلوذون بالسكوت ، ويواسي بعضُهم بعضاً ، بينما كانت الزغردات في معسكر المشركين تتعالى ، والأهازيج تصدح ، والطبول تدقّ ضربات الفرح والابتهاج . . .

لقد حقق المشركون النصر ، وانتقموا ليوم بدر ، وشفوا نفوسهم بمقتل محمد بن عبد الله كما زعموا ، وبمقتل أصحابه فلْيهنأوا بما وعدهم به هُبل ، ولينعموا بما منّت عليهم أوثانهم وأصنامهم ! . .

ودار عليهم الغلمان والعبيد بالخمرة يترعون كؤوسها ، وانبرت القيان يغنين لهم ويرقصن ، بينما راحت النساء ترشُّ عليهم العطور ، ويقبلن على عناقهم جذلات هانئات ، إلاّ بعضهنّ ، فقد انطلقن مع هند بنت عتبة يُمثّلن بالقتلى من المسلمين ، فيجْدعن آذانهم وأنوفهم ، ويتخذن منها قلائد وأقراطاً . . ووقفت هند ، فوق هام حمزة سيد الشهداء ، بعدما جاءت تبحث عنه وأخذت تقهقه جذلى ، وقد أسكرها مرآه بدمه النازف ، ثم لم تلبث أن انقضّت عليه كوحشٍ كاسر ، فأخذت السكين التي حملتها من مكة ، وراحت تقطع أنفه وأذنيه ، ثم لم يَشْفِ غليلها هذا التقطيع ، فأنشبت أظافرها في وجهه ثم عادت الى السكين فبقرت بطنه وانتزعت كبده من جوفه ، وأخذتها بيديها محنقة ، ثم دفعتها الى فمها مسعورة وأخذت تلوكها وتمضغها وتحاول أن تزدردها ولكنّ الكبد الطاهر يأبى الدخول الى جوفها النجس ، فكانت تلفظه ليستريح في العراء حرّاً من دَنسِ تلك الوحشة ، آكلة لحوم البشر . .

وتفقّد أبو سفيان زوجَه هنداً بين النسوة ، فلم يجدها ! . .

فقد أرادها في تلك الساعة لكي ترافقه في البحث بين القتلى عن محمّدٍ . . فلماّ لم يعثر عليها بين الجموع أدرك أين تكون ، لأنه يعرف مقدار حقدها على حمزة بن عبد المطلب ، قاتل أبيها وأخيها ، ويعرف ما دبرّت من أمر العبد الحبشي « وحشي » للغدر به ، فقال في نفسه :

« لا شك بأن هنداً هناك » ! . . .

واندفع أبو سفيان الى مكان المعركة ، وتبعه الحليسُ بن زبان أخو بني الحارث بن عبد مناة وهو يومئذٍ سيد الأحابيش ، وهناك شاهدا هنداً مع العبد « وحشي » . ولمّا نظرَ أبو سفيان الى يديها وفمها وقد غطتهما الدماءُ ، أمر العبد أن يقودها الى المعسكر مع النسوة الأخريات ، وما أن بعُدْن ، وكان ما زال في مكانه ، حتى أمسك برمحه وراح يضرب به شدق حمزة ويقول : « ذق عقق » . فهذه مجافاه الأهل وعقوقهم . . .

أما الحليس فنظر الى أبي سفيان منكراً ما يفعله ، وقال له : وكيف تفعل هذا يا أبا سفيان وقد نهيت يوم أن مررنا بالأبواء عن نبش قبر آمنة بنت وهب .

فقال أبو سفيان : لقد أبيت تلك الفعلة حتى لا تكون سنّة عند العرب .

فقال له الحليس الذكيُّ الداهية : بل لقد حرصت على قبوركم من أعدائكم ! . . أما قلت ذلك اليوم لمن أرادوا النبش : لا تفعلوا ذلك ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا ؟

فقال له أبو سفيان وقد خجل أمام الرجل مما فعله بجثة حمزة : « ويحك اكتمها عنّي فإنها كانت زلّة » .

ثم راح أبو سفيان مكرراً البحث بين القتلى عن جثة محمد بن عبد الله ، فلما أعياه التفتيش ولم يجده ، خامره الشك في أن يكون قد قتل ؛ ولكنه أراد أن يقف على حقيقة الأمر ، فانطلق ناحية الشعب حيث قبع المسلمون ، فنادى من بعيد ، وهو يختبىء وراء صخرة خوفاً من أن يرشقه المسلمون بالنبال :

« أفيكم محمد ؟ أفيكم ابن أبي قحافة ؟ أفيكم ابن الخطاب » ؟

ولم يسمع جواباً على ندائه ، إذ كان الرسول ﴿ﷺ﴾ قد نهى أصحابه أن يجيبوه ، فظنَّ أن من ذكرهم قد هووا في المعركة ، فعاد يصرخ بصوت عالٍ : « أما هؤلاء ، فقد قتلوا » !

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه ، فردَّ عليه قائلا : كذبت يا عدو الله فقد أبقى لك ما يخزيك »

وكأنما أراد أن يردَّ على شتيمة عمر له ، فقال مرتجزاً :

نَعِمتْ فِعالْ .. إن الحرب سجالْ ... أُعْلُ هُبَلْ ، أُعْلُ هُبلْ !..

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « قولوا له : الله أعْلى وأجلّ » ..

فقال أبو سفيان : « إنّا لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم » ..

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « قولوا له : الله مولانا ولا مَولى

لكم » .

فقال أبو سفيان : « يومٌ بيوم بدر » .

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « قولوا له : لا سواء ! قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار » . . .

عندها صاح أبو سفيان : « إن موعدكم بدرٌ للعام القابل » .

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « قولوا له : « هو بيننا وبينكم موعد » .

وكأنما خاف أبو سفيان ، قبل أن ينصرف ، أن يتهمه المسلمون بأنه هو الذي حرَّض على التمثيل بالقتلى ، فأراد أن يدفع عنه التهمة فصاح يقول :

« إنه قد كان في قتلاكم مُثلةٌ ، فإني لم آمر بها ولم تسُؤني ! . . »

ثُم عاد أبو سفيان الى قومه ، فوجدهم قد دفنوا موتاهم ، وتأهبوا للرحيل ، فأعطى إشارة المسير ، وانطلق المشركون من أحد ، وما زالت الفرحة تعمر صفوفهم ، والأغاريد تسبق حوافر خيولهم ، حتى بَعُدوا بعض المسافة ، والمسلمون يرقبون ذهابهم ، ولكنهم لا يأمنون غدرهم وخبثهم ، ولذلك بعثَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ عليَّ بن أبي طالب يرقب مسيرتهم ، ويقف على وجهتهم ، بعد أن قال له : « اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون . . فان كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوْا

الابل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة » . .وانطلق عليٌّ في أثرهم ، فرآهم قد خلوا الخيل ، واعتلوا ظهور الابل، وقد وجّهوا رحالهم نحو مكة ، فعاد يخبر رسول الله «ﷺ» بما رأى ، فاطمأنَّ رسول الله على مدينته ، وقال بلهجة الصادق الواثق : « والذي نفسي بيده ، لئن أرادوا المدينة لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنَّهم » .

وذهب جيش الشرك وانجلى النقيع من أجواء أحد . . . فهدأ روع المسلمين ، وعادت اليهم أواصر اللُّحمة فكان لا بد لرسول الله «ﷺ» أن يعظهم من غير توبيخ أو تأنيب ، فطلب اليهم أن يستووا وراءه صفوفاً حتى يُثني على ربِّه عزَّ وجلّ ، ثم رفع يديه وناظريه الى السماء وراحَ يدعو الله سبحانه في ابتهال جليل ، وهو يقول :

« اللّهم لك الحمدُ كلُّه ، اللّهم لا قابضَ لما بَسطتَ ،ولا باسطَ لما قبضتَ ، ولا هادي لما أضللتَ ، ولا مُضِلَّ لمن هَديتَ ، ولا مُعطيَ لمن منعت ولا مانعَ لمن أَعطيتَ ، ولا مُقرِّب لما باعدتَ ولا مُبعِّد لما قرَّبت . اللّهم ابسُط علينا من بركاتِك ورحمتك وفَضلِك ورزقك . اللّهم اني أسألك النعيمَ المقيمَ الذي لا يحولُ ولا يزول . اللّهم توفَّنا مُسلمين وأحْينَا مُسلمين وَألحقْنا بالصَّالحين غير خزايا ولا مَفتونين . اللّهم قاتلِ الكفرة الذين يُكذِّبون رُسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك إنك سميع قريب ، مجيب يا رب العالمين » .

فلما انتهى الرسول «ﷺ» من دعائه ، والمسلمون يرددون من ورائه ، كان الألم يعتصرهم ، فاذا بالغالبية الساحقة منهم تبكي

ولكنه بكاء الفرح النابع من الايمان الذي يشد القلوب ، وبكاء الندم ممن خالفوا أمر نبيهم وبان لهم الخطأ الفادح الذي ارتكبوه ، فتقدموا من النبيِّ «ﷺ» بعد ذلك يعتذرون ، ويسألون ربّهم المغفرة . وكان النبيُّ «ﷺ» لا يرد معتذرا ، ولا يجافي خاطئاً ، بل يطلب منهم الابتهال الى الله تعالى ، والثناء عليه عزَّ وجلَّ عسى أن يرحمهم ولا يُنزل غضبه بهم . . .

وعاد الصحابة الأجلاء يمدّون رسول الله «ﷺ» بما يحتاج من اسعافات أولية ، ثم ينزلون على أمره فيلحقونه الى مكان المعركة ، كي يلقي نظرة الوداع على المستشهدين الأبرار . .

وطاف رسول الله «ﷺ» في ذلك المكان يرقب بأم العين ما حلَّ بالمسلمين من نكبة وما نزل بهم من مصاب ، حتى بلغ عمّه حمزة ، فوجده قد مُثّل به أشنع تمثيل ، فحزن لمراه حزنا شديدا وبلغ الغيظ منه كل مبلغ ، فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « ما وقفت موقفاً أغيظ اليَّ من هذا الموقف » . . . وذرفت عيناه الدموع يبكي حمزة ، أسد الله وسيّد الشهداء ، فبكى المسلمون معه ذلك البطل المسجّى الذي اختلط دمّه الزكي بالتراب . .

وتهادى الرسول «ﷺ» في مشيته يحصي القتلى ، فوقف على مصعب بن عمير صريعا في بُرده ، فنعاه لمن حوله فقال : « لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقّ حلة منك ولا أحسن لِمّة ، ثم أنت أشعث الرأس في بُردة » .

وتدفقت الآلام من نفس الرسول «ﷺ» لتلك المشاهد القاسية ، فلم يقدر على حبسها ؛ بل لقد انعكست تلك الآلام

مجسَّدة في جراح جسده الشريف ، التي عاد بعضُها ينزف ، ويثور منه الوجع حتى يمنعه «ﷺ» من المسير ، فيقف مودعاً الشهـداء ، داعياً لهم الله سبحانه بقولـه : « إنه ما من جريح يجُـرح في الله إلاً ويبعثه الله يوم القيامة يدمى جرحُه . اللون لون الدّم ، والريح ريح المسك » . وكان قتلى المسلمين قد بلغ عددهـم في أحـد نحـوا من سبعـين شهيدا ، منهـم أربعـة من المهاجـرين ، والآخــرون من الأنصــار ، بينما لـم يزد عدد قتلى المشركين على أربعــة وعشرين قتيلا » .

وطلب الرسول «ﷺ» من الصحابة ان يلفُّوا أجساد الشهداء بدمائهم وجراحهم وان يدفنوهم بعد ان ينظروا أكثرهم جمعاً للقرآن فيجعلوه أمام أصحابه في القبر . . ثم جاؤوه بفرسه ، فركب ودعا بالعودة الى المدينة ، فساروا من ورائه ، بعد أن حمَل بعضُهم قتلاهم يريدون أن يدفنوهم في المدينة . . .

ووَصل جيش المسلمين الى أبواب المدينـة ، فإذا النـاس بالانتظار ، وقد جاءتهـم أخبـار المعـركة ، فراحـت النسـاء تبـكي القتلى ، وتندب الهزيمة ، ومعهنَّ الأولاد يجهشون في البـكاء . . . وتدفقـت تلك الجمـوع المنتظـرة نحـو رسـول الله «ﷺ» تتلهف لرؤيته ، وقد نسيت النساء أحزانهن ، وشُغلن عن أنفسهن بمـرأى النبي «ﷺ» وقد بدا عليه الجهد والتعب . . . وهانت لمرآه عليهن المصيبـة ، فقالـت أم عامر الأشـهلية تعبِّـر عن مشاعـر الثـكالى والحزانى : « كل مصيبة بعدَك جلَل يا رسول الله » . وتقدمتْ نحوه أم سعد بن معاذ ، فقال لها الرسـول العـظيم : « أبشري وبشري

أهليهم يا أم سعد ، إن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعا » . . . فتقول أم سعد : « رضينا برسول الله سالماً ، وليس من يبكي عليهم بعد هذا » ولكنها عادت تسأل رسول الله «ﷺ» الدعاء لذوي قرباهم وقالت : (ادعُ لمن خلّفوا يا رسول الله) . . . فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبُر مصيبتهم وأحسن الخُلف على من خلّفوا » .

ثم اقبلت صفية بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله «ﷺ» تريد أن ترى حمزة أخاها لأبيها وأمها ، لأنها كانت تعتقد أنه بين القتلى المحمولين الى المدينة فأمر رسول الله «ﷺ» الزبير أن يدركها ، فجاءها يقول لها : اهدئي يا أماه ، فأبت عليه وقالت :

لقد بلغني أنه قد مُثّل بأخي وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله » . . . ولكنَّ ابنها الزبير عاد يهدِّىء خاطرها وأبدى لها بأن خاله حمزة ليس بين القتلى ، بل دفن مع ابن اخته عبد الله بن جحش ومصعب بن عمير في مكان واحد حيث قتلوا .

ونظَر رسول الله «ﷺ» الى النساء وقد تجمَّعن حلقات ، يندبن قتلاهن ، وهنَّ والهات ، وعلى احبائهن باكيات ، فتأثر للمشهد المؤلم ، وافتقد نساءَ بني هاشم يبكين شهيدهم حمزة ، فقال «ﷺ» والدموع تترقرق في عَينيه : « أين البواكي على حمزة » فتخلى الجميع عن قتلاهن واجتمعن في حلقة واحدة يبكين على حمزة. لشدة ما أثّر فيه هذا المشهد ولكثرة ما رأى من الفواجع أمر أن يعيدوا القتلى ويدفنوهم في أرض المعركة حيث صرعوا رغبة منه في تخفيف أجواء

الأحزان ، وتهدئة الخواطر ، ومن ثمّ لمنع ما يراه من فجيعة تنمُّ عن جاهلية يأنفها الاسلام ، إذ كانت بعض النسوة يجززن شعورهن ، ويخدشن وجوههن ، ويشققن جيوبهنَّ ، وهذه كلها فعال منكرة ، لا تجدي المحزونين فتيلاً ، ولا تغيِّر من القدر كثيراً ولا قليلاً . إلاَّ أنه لم يمنع عليهنَّ البكاء ، لما في ذرف الدموع من تنفيس عن المشاعر ، وتفريج عن النفوس ، فقال محذراً من العويل والصراخ : « البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان » وتداولَ الناسُ قولَ رسول الله «ﷺ» ، فهدأت النسوة وخفتَ صراخهنَّ ، وهدأت ولولتهن ، ورحن يبكين مفارقات ، صابرات . . .

وبعد أن فترت حُـمَّى المصيبة قليلاً ، أمر الرسول «ﷺ» أن يتفرق الجميع وأن يعودوا الى منازلهم ، ليُخلد المحاربون الى الراحة ، وليداوى الجرحى . فامتثلوا لأوامره راضين ، وانصرفوا يوقدون النيران لغلي الماء وتضميد الجراح ، او إعداد الطعام للمتعبين والجائعين . . .

ومضى رسول الله «ﷺ» الى بيته ، وبجانبه السعدان ، فلما أرادَ أن ينزل عن فرسه ، شعر أنه مرهق ، فتقدم منه الصاحبان فنزل ومشى يتوكأ على كتفيهما ، ثم دخل منزله واستلقى على فراشه بادي الإعياء .

ولَمَّا هدأ روعه طلب الى الصحابة أن يذهبوا ويستريحوا لأنهم بحاجة الى الإخلاد للسكينة بعد أتعابهم . . .

وما أن خلا بيت رسول الله «ﷺ» حتى اندفعت نحوه نساؤه وابنته فاطمة الزهراء ، يرتمين على أقدامه ، ويهنئن أنفسهن بعودته سالما . . .

واحتضنته فاطمة بين ذراعيها ، باكية تمسح دموعها برأسه الشريف ، ثم أخذت تنظّف جروحه من الدم فرأت أن تلك الجروح لا يرقأ دمها ، فأتت بقطعة من الحصير ، وأحرقتها ثم أخذت تجعل الرماد فوق الجروح ليستمسك الدم النازف .

وأخلدَ رسول الله (ﷺ) الى الراحة ، حتى أقبل المغرب ، واذّن بلال في الناس فخرج (ﷺ) الى المسجد يصليّ بهم ، وظلّ بينهم الى ما بعد العشاء ، ثم عاد الى داره ، وبرفقته بعض وجوه الصحابة الأبرار ، الذين أبوا إلاّ السهر على بابه ، يحرسونه ، ويذودون عنه شرور الأعداء وغدر اللؤماء .



ظِلال

آثار غزوة أحُد

خفايا السرائر ، هى خفايا قلوب ونفوس لا يقف على مكنوناتها إلاَّ رب العالمين وحده . فالإنسان يتصرف في الحياة ، ويسلك دروبها وفق ما ينبع من ذاته ، ووفق عوامل عديدة ومتنوعة تبعثه إلى ما يُشاهد في تصرفاته وفي جميع حركاته وسكناته . .

ولكننا = في أحيان كثيرة = نرى أن الإنسان قد يصبح أسير ظرف معين يعترضه ، فيقف أمامه متحيّراً ، مترددا لا يعرف ماذا يفعل ، ثم لا يلبث أن يندفع إليه بكل جوارحه ، وهو لا يدري القوى ، ولا العوامل التي أثّرت فيه وجعلته يتقبّل هذا الأمر الذي يواجهه وينجذب إليه ، دون إرادة ، ودون إعمال فكر . .

إن مثل هذا الانجذاب الظرفي ، هو الذي يجعل بعض الناس يقدمون على أفعال لا يريدونها في الواقع ، او يقومون بتصرفات لا يرضون عنها في الحقيقة . . ولكنهم = عند مواجهة الانفعالات والمشاعر = يفقدون كل قدرة على الادراك والتمييز ويُقبلون على تلك الافعال بكل جوارحهم . . ثم لا يلبثون = بعد أن يهدأ الانفعال ، ويذهب الانجذاب = أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية ، إذ يعود إليهم

الوعي ، فيجدون أنَّ ما قاموا به كان غريباً عنهم ، فيحزنون لذلك ويندمون ، ولكن ما نفع ندم يكون أوانه قد فات ، وما حصل يكون قد حصل ؟!..

وهكذا ، فإننا إذا تتبعنا الوقائع التي سبقت أُحدا ، ورافقنا الأحداث التي جرت أثناءها ، لوجدنا أنها قد أظلَّها كثير من المعاني ، وامتلأت بعديد من الصور ، تبعا لما جبلت به القلوب ، أو انجذبت إليه النفوس في تلك الواقعة ...

فمنذ أن اتضح للمسلمين مجيء قريش لتغزوهم في عقر دارهم ، تعدَّدت بينهم الآراء ، وكثرت المحاورات .. فكان بينهم من دعا إلى البقاء داخل بلدهم والتحصّن فيه حتى إذا هاجمهم العدو أوقعوا به الخسائر الفادحة ، لما يتعرّض له المهاجم من أخطار يُعدُّها له المدافع ... بينما كانت الآراء الغالبة مع الخروج لملاقاة العدو ، بعيداً عن البلد لأن في ذلك موقفا أعزّ لهم ، وأشدّ بأسا في المواجهة ..

ووقف الرسول ﷺ بين الداعين بالتحصُّن وبين المظاهرين على الخروج ، يقلِّب آراءهم على مختلف وجوهها ، فرأى أن الخروج قد لا يكون مأمون العاقبة ، نظرا لكثرة عدد العدو ، وتنوع سلاحه وعدّته ، فكره ذلك الخروج ، وصرّح بكراهيته له ، إلاَّ أن الاكثرية ظلت على حماسها ، ولم تقنع برأي الأقلّية ... هنا أراد رسول الله ﷺ أن يثبت للمسلمين ، وللناس أجمعين ، ان نظامه لا يقوم على القسر وفرض الرأي = تماما كما أنه لا إكراه في الدين = وأن ما تقرره

الأكثرية في مثل هذه المناسبة الحربية يجب اعتماده حتى يتبين خطلهُ من صحتـه وإن كان في ذلك تجربـة قد تؤدي إلى نتائـج لا تتوقعهـا الأكثرية ، أو لا تريدها في الحقيقة .. ولذا فقد أبى صلىّ الله عليه وآله وسلم ، أن يتردّدَ في اتخاذ القرار ، فترك النـاس في جدالهـم ومحاورتهم ، ثم ذهبَ إلى داره فاستعدَّ للقتال ، وظهر أمام الأعين ، متأهباً للخروج . فكان ما فعله الرسول الأعظم أمراً طبيعياً ، إذ لا يمكن أن يتردد الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾ في المواقف الحاسمة عن اتخاذ القرار النهائي الذي يحسم الجدل ولا يمكن أن يكون في مواقفه أي تردد أو حيرة كي لا يرى الناس في خطواته الشريفة مظاهرَ ضعف قد يقود إلى الخذلان ، وحاشـا لرسـول الله ﴿ﷺ﴾ أن يكون نهجـه إلا الصواب ، وأن يكون دأبـه إلا الحقيقـة ، وان يكون هداه إلا إلى الصلاح .. فقد حباه الله سبحانه وتعالى بقدرة التفكر والتبصر ، ومنحه ملكة توقُّع الصحيح من الباطل .. ولـذلك أظهـر كراهيتـه للخـروج مبـدئياً ، ثم وافـق عليه أخـيراً لأنـه أراد أن يكون للمسلمين ، في بداية تأسيس قوة الإسلام ومنعته ، بناءً ذاتى قوى ، اساسه اتفاق كلمتهم بعد كل شورى وحوار فيما بينهم ، ليصيروا فى النهاية إلى وحدة الرأي واجتماع الكلمة . . .

والإسلام في حقيقته لا يتخذ في أمر من أمور الحياة موقفاً يمليه ظرف معين ، ثم يعود فيتخذ موقفاً مناهضاً في ظرف آخر مشابه .. بل يستنُّ القاعدة التي تدوم على طول الزمـان والتي تصلـح لكل مكان . . .

وإذا كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ قادراً على فرض السنن ، وإرساء

القواعد ، فإن الاسلام يحتاج في كل وقت إلى أصحاب فكر عميق ، وإلى ذوي رؤية صادقة ، وقدرة على القيادة الحقة . .

ومتى وجد هؤلاء ، وكان لهم العزم الثابت ، فإنهم يحملون لواء شعلة الحق ، بعد التوكل على الله ، ليلجوا شتى الأبواب ، ويَرِدوا سائر الميادين في الحياة ، وليأخذوا بيد الإنسانية إلى ما يحقق نفعها ، ويؤمن لها الخير والسعادة . .

وهكذا فإن محمداً ﴿ﷺ﴾ قد ظهر متأهباً للخروج ، بعد أن فكرّ وقدَّر ، وبعد أن عزم وتوكَّل ، تطبيقاً لهدفين اساسيين :

ـ ترسيخ نظام وحدة الكلمة ووحدة الرأي ، وإرساء قواعد ثابتة لا تتزعزع ، من حيث العمل برأي الأكثرية في مثل هذا الموقف .

ـ إنفاذ أوامر الله : « فإذا عزمت فتوكل على الله » .

وإنْ في هذين الهدفين ، ما يجعل ظروف أحد تهّيىء لما هو أبعد منها بكثير ، أي لما يتعلق بوحدة كلمة المسلمين عامة في مستقبل أيامهم . . .

ثم تتلاحق بعد ذلك الظروف الكثيرة التي تدلّ على خفايا القلوب والنيات ، ويتراءى فيها ما يكون لتلك الخفايا من تأثير على وحدة الصف ، وتعاقب الأحداث . . .

فقد بدأ جيش المسلمين وقت خروجه وعددُه الف مقاتل جمعاً ملتئماَ ، وبرز في مطلع مسيرته وحدة متراصّة متكاتفة ؛ إلاَّ أن ذلك

كله لم يكن سوى ظاهر حاله فقط ؛ إذ ما كاد يقطع بعض الطريق ، حتى تكشّفت نوايا المنافقين بين صفوفه ، وظهرت حقيقة نفوسهم المريضة ، التي استبطنت الخداع والمراوغة .. فقد افتعلَ زعيم المنافقين ، عبد الله بن أبيّ مشكلة أدت إلى اثارة الخلاف ، وإلى إشاعة الشقاق والفرقة ، حين توقف فجأة وأمر جماعته = وكانوا يؤلفون ثلث الجيش = بالرجوع ..

وتوقف جيش المسلمين بأجمعه ، ليرى ما الذي دفع ابن أبيّ لبفعل ذلك ، وراحوا يسأل بعضهُم البعض ، فما وجدوا سبباً يدعوه للرجوع ، لأنه لم تبدر من أحد منهم ، بادرة تسيء إليه أو إلى أحد من جماعته ..

ووقف الجيش يرقب ابن أبيّ حال رجوعه ، فاذا بلبلة جديدة تدبُّ بين صفوفه ، وإذا طائفتان أخريان بنو حارثة وبنو مسلمة - يتشاوران فيما بينهما بالرجوع للالتحاق بذلك المنافق . ولكنهما لم يطل بهما التشاور ، إذْ تدخلت إرادة الله سبحانه ، في تلك اللحظة ، ومنعتهما من اقتراف الإثم الذي اقترفه رأس النفاق ، لأن افراد الطائفتين كانوا من المؤمنين والله تعالى هو وليّ المؤمنين . وقد ذكر ما كان من أمْرِ هاتين الطائفتين في كتابه العزيز حين حكى عن تلك المعركة ، فقال عزّ من قائل : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ ، وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ، وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون ﴾ ..

فقد كاد ابن ابيّ ان يُصدِّع البنيان المرصوص ويقوِّض أركانه غير أن مشيئة الله تعالى قدْ فوَّتت عليه تحقيق نواياه الخبيثة ، فعاد

الورع إلى نفوس جيش المسلمين ، وعاد هذا الجيش يتابع مسيرته للقاء العدو الظالم .. ولكنَّ وضعه ظلَّ مترجرجاً ، ولحمته باتت مضعضعة ، الأمر الذي جعله في حال تشبه إلى حد بعيد حال قريش عند مجيئها إلى معركة بدر حين تخلَّف عنها في الطريق بنو زهرة ، وبنو عديّ ..

واذا كان رجوع المنافقين من بين صفوف المسلمين يمكن اعتباره خيراً على المسلمين ، بل من الأفضل أن يحصل قبل ملاقاة العدو ، حتى لا يكون الشرُّ أشدَّ ، والخطبُ أفدحَ حين وقوع المعركة ، حيث يكون انفضاض المنافقين من بين الصفوف حينئذ مفاجأة للمقاتلين بأمرٍ لم يكونوا ينتظرونه ، فيؤثر على كيانهم المادي والمعنوي ، ويجعل العدو يقوى في موقفه ... نعم إذا كان في رجوع أولئك المنافقين خيرٌ للمسلمين ، فإن ذلك الرجوع يظل بحد ذاته ظاهرة من ظواهر اضعاف جيش المسلمين ، وبادرة من بوادر الهزيمة المدبرة ، إذ أوشكت العَدْوى أن تسريَ في صفوف الجيش ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أنقذ الموقف وأظهر المنافقين على حقيقتهم قبل فوات الأوان .

وتتعاقب ظلالُ ظواهر ما سبق وقعة أُحد ، فيبرز أكثرها أهمية وأشدُّها أثراً على مسار القتال ونتائجه ، متجلياً في مخالفة أوامر رسول الله ﴿ﷺ﴾ تلك المخالفة الفادحة التي ارتكبها الرماة ساعة تخلَّوا عن موقعهم ، واندفعوا وراء الغنيمة ، رغم أن الرسول ﴿ﷺ﴾ كان قد شدَّد عليهم ألاَّ يبارحوا أماكنهم حتى ولو رأوا العدو يقتل إخوانهم ! ..

ففي مثل هذا التصرف من الرماة ما يدل على التنكر للجندية التي خرجوا فيها ، وما يباعدهم عن روحية المعارك ومواجهة الاعداء !.. فإذا كانت إطاعة الأوامر قوام الجندية ، وجوهرَ نظامها ، فإن اختلال هذا النظام يؤدي إلى فقدان الجندية كل مقوماتها ، وفي مقدمتها إخلاص الجندي وتضحيته في سبيل القضية التي من أجلها يدافع او يقاتل ..

من هنا كان من بديهيات الأمور ، ومن أولى واجبات الجندي إطاعة أوامر قادته ورؤسائه .. وبالمقابل فإن مهمة القادة والرؤساء ، تكون في الدرجة الأولى التخطيط الحكيم للقتال ، وحسن إدارة المعركة ، وما يتعلق بكل ذلك من اعتماد أفضل الوسائل وانتقاء أحسن الأساليب ، الكفيلة بتحقيق النصر ..

ولكن !.. أية فائدة تبقى للخطة مهما كانت جذرية ، وأي نفع يظل للوسائل والأساليب مهما كانت سليمة ، بل أين يكون للقادة والرؤساء من مركز أو سلطة ، إذا انعدمت الطاعة بين الجنود ، وتحلّلوا من تنفيذ الأوامر ؟! ففي مثل هذه الحالة الخطيرة ، تكون النتيجة معروفة مقدماً ، وهي الهزيمة لا محالة ...

وما حدث بالضبط في معركة أحد عندما خرج الرماة على خطة القائد الأعلى ، الرسول الأعظم ﴿ﷺ﴾ هو أنهم عصوا أوامر قائد كتيبتهم عبد الله بن جبير الذي كان يلحّ عليهم بعدم ترك أماكنهم . وعصوا أمر رسولهم الكريم الذي ركز كثيراً على ثباتهم في أماكنهم ، فأحدثوا بذلك ثغرة واسعة نفذ منها العدو الى صفوفهم وبدّلَ نصرْهم

الذي بدأوه في أول المعركة بالهزيمة التي انتهت بها ، تلك الهزيمة التي كادت ان تقضي على المسلمين جميعاً وتلتهمهم عن بكرة أبيهم ، لولا عناية الله ولطفه . .

ولقد كان في هذا الدرس القاسي ، من دروس الجندية التي قدمتها أحد ، ما جعل الناسَ يدركون أنَّ النصر لا يكون إلاَّ بأسباب كما وأن الهزيمة يجب ان تكون لها أسبابٌ ايضاً . . كما أنها قد ظهرت للناس عندئذ سُنةٌ من سنن الله في خلقه ، وهي أنَّ الله سبحانه لا يكون مع الإنسان إلا إذا كان الإنسان مع الله ، وأنَّ الله تعالى يتخلى عنه إن هو اشتغل بنفسه عن الله ، أو تلهى عنه بأمر عارض من أمور الحياة الدنيا . .

فهاهم اولاء المسلمون يرون بأم العين أن الله سبحانه وتعالى قد نصرهم على عدوهم حين جعلوا همهم الوحيد مقاتلة هذا العدو ، ومحاربته ، لأنه عدوّ ضالّ جاهل . . وأنه تعالى قد قاصصهم عندما شغلهم عَرَضُ الدنيا وجمعُ الغنيمة . . فكان لا بدَّ أن يأتيهم الدرس مليئاً بالعظات والعبر ، فكان البلاءُ العظيم الذي أوقعوا أنفسهم فيه . . .

ولكن كم هو عزَّ وجلَّ رؤوف رحيم بالعباد ، وبالمؤمنين منهم خاصة ، وإن زلّوا أو أخطأوا . . فمن الصحيح أن المسلمين قد وقعوا في بلاء يوم أحد ، ولكنه كان قصاصا أكثر منه ابتلاء . . وفي القصاص حياة لأولي الألباب . . فإذا ما نالوا القصاص الذي استحقوه ، وأدركوا الخطأ الذي ارتكبوه ، كان عفوُ الله عنهم فضلاً

من فضائله السنية التي لا تحدّ ، ولذا امتنّ سبحانه عليهم بالعفو بعد الابتلاء وقال : ﴿ ولقدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إذْ تحُسُّونهم بإذْنِهِ حتى إذَا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم منْ يريدُ الدُّنيا ، ومِنْكُمْ مَنْ يريدُ الآخرة ، ثُمَّ صرفكُمْ عنْهُم ليبتليكُمْ ، ولقدْ عفا عنْكُمْ ، والله ذو فضلٍ على المؤمنين ﴾ ثم تتعاقب الظلال عديدة ومتنوعة .. ولكنّ ما يثير العجب في تلك الظلال يوم أحد ، هو ذلك الضعف الذى سيطر على نفوس فئة كبيرة من المؤمنين ، ساعة ارتداد العدو عليهم . فقد وقع التشتت في صفوفهم ، وحلّ القعود عن القتال بينهم .. بل إن اكثرهم قد فرَّ من المعركة ، موليا وجهه شطر المدينة حتى بلغ جوارها ، فأربكه فراره وأوقعه في حياء منع عليه دخولها .. أو لم يكن مفروضاً بالمؤمنين بدل آن يسيطر عليهم الضعف ، ويفرقهم التشتت ، أن يعودوا إلى توحيد صفوفهم ، ويتماسكوا كتلة واحدة متراصة في وجه عدوهم ، فيفرضون تشتيت صفوفه بتماسكهم ، ويوقعون البلاء في كيانه ، وهم قادرون على ذلك لأن إعدادهم كان إعدادا صحيحا منذ المراحل الأولى للمعركة ، ذلك الأعداد الذي كان ينبغي أن يجعل قلوبهم ملأى بالإيمان ، ونفوسهم مفعمة بالتقوى ، وكيانهم قائماً على التماسك التام ! .. نعم لقد كان حرياً بهم ، وهم على مثل هذا الإعداد منذ بدء الدعوة وقبل أية معركة ، ألاّ يهنوا ولا يضعفوا أمام العدو .. على أنه قد يتراءى مثل هذا الضعف أقلّ مدعاة للعجَب من موقف آخر ظهر عند فئة كبيرة منهم ، وهي أنها تخلّت عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتركته وحيداً ، في

أكثر اللحظات خطورة وأشدّها حرجاً . . . فأين محبة تلك الفئة لرسول الله «ﷺ» ، وأين إيمانها بصدقه وبالحق الذي يدعو إليه ؟! . . بل أين التفاني والإخلاص اللذان دفعا المسلمين لحمايته وحماية أنفسهم يوم كانوا في اشدّ حالات ضعفهم في مكة ، حيث كانوا يتخلّون عن كل شيء في سبيل إسلامهم ، ويضحون بكل غال ونفيسٍ من أجل نبيِّهم ؟! . .

فهل جفت عندهم تلك النفوسُ الخيرة في ساعة الشدة ، وجعلت قلوبهم تطاوعهم على الابتعاد عنه في ساعة خوف على أنفسهم ، وساعة تمسُّك بحياتهم ، مع أنهم يعلمون حق العلم أن أعداءه يريدونه قبل كل الناس ، وقبل اي أحد آخر من المسلمين ؟! . . إنه الضعف البشري قد فعل فيهم فعله في تلك الساعة ، فكان أن بدر من تلك الفئة ما بدر من التخلي عن الرسول الكريم «ﷺ» في ساعة العُسرة . .

ولكنْ ، وإن افتقد رسولُ الله «ﷺ» الرجال من حوله في لحظات الشدّة ، فإنه سرعان ما عوّضت عن ذلك هجمةُ أبطال أشاوس اندفعوا نحوه يذبّون عنه ، ويدفعون الاعداء من حوله ، ويهَبون نفوسهم للموت دونه . . .

أجل ، لقد جاءت هذه الفئة الخيرة تفدي نبيَّها بالأجساد والمهج قبل أن تدافع عنه بالسلاح ولكنها كانت قليلة أمام كثرة الأعداء ، فراحت تتساقط شهيداً تلو شهيد ، غير آبهة للموت ، حتى أمكنها أن تُبعد الاعداء عن الرسول «ﷺ» بفضل الله ورعايته له ، لأن تلك الفئة البارّة الباسلة ، ما كانت لتعنيَ عنه في الحقيقة

شيئاً ، لو لم تتدخل إرادة الله عزّ وجلّ وتمكنها من الذبّ عنه والوقوف بجانبه ، والله تعالى هو الحافظُ له على كل حال ، وفي جميع الأحوال . . .

وقد كان أبعد ما يمكن تصوُّره في مواقف الفئة الهاربة هو عدم اكتراثها لصوت رسول الله «ﷺ» الذي كان يلاحق أصحابها بالرجوع ، معاوداً تكرار النداء إليهم بالعودة مراراً فلا يستجيبون بل يمعنون في الهروب متخلّين عن كل ما وراءهم وتاركين كل شيء لا يلوُون على أحد . . . فسبحان الله الذي كان يرقب هذه الفئة بالذات ، ويحصي عليها حركاتها وسكناتها ، فينزل فيها قرآناً كريماً يصوّر ما كانت عليه من حال ، فيقول سبحانه وتعالى : « إِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىَ أَحَدٍ ، والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ في أُخراكُمْ » .

فلله ما أروعَ القرآنْ الكريم ، وهو يرسم في هذه العبارة الموجزة ، مشهداً كاملاً لأولئك الفارّين ، ويصوّر حركاتهم الحسية والنفسية في آنٍ معاً . .

إن هذا التصوير السماوي الذي أبرز هروب تلك الفئة يوم أحد ، لم يكن إلاّ تعبيراً عن ضعف تلك الفئة الذي يمثل الضعفَ البشريّ بصورة عامة . . ولعلّ أكثر ما يركّز عليه ذلك التصوير ، هو إبرازه الضعف البشري ، أي الحالة المعنوية البحتة ، التي هي واقعٌ حسيٌّ يكاد الإنسان أن يلمسه بحواسه المجردة .

وإذا كان ذلك الضعف الذي سيطر على نفوس تلك الفئة من

الفارّين من الزحف ، قد جعلها لا تستجيب لنداء رسول الله ﷺ وهو يدعوها للعودة والثبات في المعركة ، فإن القرآن الكريم بعد أنْ يبيّن قوة الضعف وتأثيره على الإنسان لا يقف عند حد تصوير الضعف وحسب ، بل يتناول حقيقة أخرى هامة جدا ، وهي ان الخطأ الذي يرتكبه الإنسان في حالة من حالات ضعفه ، لا غافر له ولا مسامح إلاّ الله سبحانه وتعالى ، وهكذا تأتي صورة العفو والمغفرة بأدق تعبيراتها ، وأصدقها بياناً ، في قول الله عز وجل : ﴿ إنَّ الذين تَوَلَّوْا منكم يَوْم الْتقَى الجَمْعَانِ ، إنَّما اسْتزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ ببعْض مَاكَسبوا ، ولَقَدْ عفا الله عَنْهُمْ ، إنَّ الله غفُورٌ حَليمٌ . ﴾ تلك هي بعض الظلال من وقعة أحد . . .

ولكنها لم تكن الظلالُ الوحيدة التي حفلت بها أجواء ذلك اليوم ، بل كان بجانبها ظلال أخرى مختلفة عنها أشد الاختلاف ، لأنها ازدانت بالإشراق والنور ، وطفحت بدُفعة من الشجاعة والبطولة ، وفاضت بدفق من العزة والكرامة حتى جعلت نصرَ قريش يخبو أمام لمعانها البرّاق ، ووهجها الساطع . . .

فهذا رسول الله ﷺ يثبتُ طوداً منيعا ، وإنسانا عظيما مهيبا في موقفه من الأعداء ، وفي موقفه مع نفسه فقد تصدّى بنفسه الكريمة للأعداء في الساعة الرهيبة التي رجفت منها القلوب ، وتخبّلت منها العقول ، وأخذت الكثرة في جيشه تتوزع أشتاتاً ، وتتفرق هروباً من الذعر ، بينما وقف يكافح ويقاتل بنفسه بتصميم وثبات ، حتى إنّ من كانوا يدافعون عنه قد صاروا يلوذون به

ويحتمـون في ظلـه من شدة الخـوف ، ويأوون إلى حمـى بطولتـه النادرة . . .

فقد يطير قلب الإنسان هلعا وترتعد فرائصه إنْ جابهـهُ خطر قاتل ، بل قد يفقد الإنسان زمام السيطرة على نفسـه في مثـل هذا الموقف العصيب فتخـور قواه ، ويتخـاذل عزمـه ، لما يحيط به من الأهوال . . نعم . . قد يحصـل ذلك لأشـد الرجـال تماسـكاً عنـد الشدائد ، وأكثرهم جلداً عند الصعاب، غير أن محمدا (ﷺ) قد ظلَّ الرجل القادر على امتلاك زمام نفسه ، الواعـيَ لكل حركة من عدوه ، بحيث لا يمكّنه منه إلاَّ بما يُصيبه به من بعيد ، فهو ثابت أبداً في مكانه يدفع عنه الأعداء ، ويرد عنه المهاجمين ، إلى أن بعث الله تعـالى إليه بصحابـة أبـرار أخيار ، يدفعـون عنـه ذلك الخطـر الشديد . . .

فهل أروع وأعظم مما تجلّت من بطولـة محمـد (ﷺ) وقـوة رجولته في ذلك الموقف ؟! . . .

لا . . وإنها إذا كانت الروعة والعظمة تتجليان بهـذا الموقف المحمدي ، فإن ما تلاهما بعد انتهاء المعركة وعودة المؤمنين إليه ، من تصرُّف حيالهم ، يجعله المثل الأعلى على الزمـان في مجال التسامح والعفو ، وفي مجالات اللطف والحنان والعطف . . . ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يعنِّف أحداً من المؤمنين ولا وجَّه إلى أحد لوماً أو تأنيبا . بل لم تبدُر منه سانحة غضب أو نفور ، ولم يُغلظ في قول أو يقسو في اتِّهام ، ولم يجابه أحداً أخطأ في دوره أثناء المعركة ، بل

راح = على العكس = يستقبل الجميع بقلب ملؤه الحنان ، وبنفس راضية تطفح بالاطمئنان : فهو يواسي الجريح ، ويهدّىء المتعب ، ويشدّ من عزم الضعيف ، ويعدُ الثابتين بنصرآت . . . فليس لخلق إلا خُلق محمد ﴿ﷺ﴾ هذه العظمة المنيفة ! . . .

وليس لصفات إلاَّ صفات محمد ﴿ﷺ﴾ هذه السجية الشريفة !

فقد نظر رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى الهزيمة من منظاره النبوي السامي ، فأرادها عظةً بالغة للمؤمنين ، يُفيدون منها في مواجهة الأعداء والتعامل مع الحياة ، لا شدّة تقضي عليهم ، وتذهب بقواهم النفسية والمعنوية . . وصحيح أنه قد ذوى في تلك المعركة شهداء أبرار أخيار ، ولكنهم كانوا الشعلة التي تضيء أمام الباقين الطريق ، والمثال الذي يجب أن يحتذوا به . . والشهداء = على كل حال = لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقد أثابهم الله تعالى رحمة منه ومغفرة ، لأنهم مضوا على العهد ، وماتوا وهم لله ولرسوله مخلصون .

نعم لقد عفا رسول الله ﴿ﷺ﴾ عمّن أخطأوا وتسببوا بالهزيمة فاستغفر الله سبحانه لهم ، فأثنى الله عزّ وجلّ على موقفه الرائع ، ونزل قرآن كريم بهذا الثناء الرَّباني : ﴿ فبما رحْمة مِن الله لِنت لهُمْ ، ولَوْ كُنْت فظًا غليظَ الْقلْب لانفضُّوْا منْ حوْلك ، فاعْفُ عنْهُمْ ، واسْتغْفِرْ لهُمْ . ﴾

أما الصحابة الأبرار فيأتون بعد الرسول العظيم ليزينوا ظلال

أحد بصدق الإيمان ، وقوة العزيمة ، لأن مواقفهم كانت كأنها صنعت النصر الحق رَغمَ مظاهر الهزيمة التي أحاطت بالمسلمين . . .

فمواقفُ حمزة وعلي ، وأبي دجانة ، والزبير ، وطلحة ، وسعد بن أبي وقاص ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش ، وأم سلمة الأنصارية . . . وغيرهم ، وغيرهم . . . مواقف أمجاد تبقى على الزمان مآثر خالدة في التاريخ . . . فقد وهبوا نفوسهم للموت في سبيل الله ، وكانت غايتهم القصوى نيل رضوان الله وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى . .

لقد كانوا سيوفاً لله تعالى يوم أُحدٍ ، ودروعاً للإيمان ، وحصناً للاسلام فصفّق لهم المجد عبر الأيام لأنهم لم ينشدوا مجداً ولا عظمة ، بل أرادوا وجه الله عزَّ وجل وأيقنوا ان لله وحده العزة والمجد والعظمة . . . وما زالت المعارك سِجالاً بحسب العادة طالما بقي العداءُ قائماً ، فلا بد أن يتأرجح النصرُ في كل معركة بين هذا الفريق أو ذاك ، ولكن النصر النهائي لا بد أن يكون دائماً للحق . وما كان الإسلام إلاّ حقاً كله ، فعلامَ لا يكون له النصر في النهاية ، مهما قوي أعداؤه أو ظنوا أنهم منتصرون .! . . .

ولئن كانت معركة أُحد بذاتها تجربة قاسية وامتحاناً عسيراً كما رآها المسلمون أو بعضهم ، إلاّ أنها كانت ضرورية يجب أن تحدث ليمحِّص الله سبحانه فيها السرائر ، ويمزق النقاب عن مخبوء بعض الضمائر وهذا ما حدث فعلاً ، فقد تميز النفاق من الايمان ، بل تميّزت مراتب الإيمان نفسه ، فعرف الذين ركلوا مباهج الدنيا بنعالهم

ولم يعرّجوا على مطمع من مطامعها ، تماماً كما عُرِف الذين مالوا إلى متع الدنيا بعض الميل ، فنشا عن أطماعهم المادية ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروِّعة :

﴿ وَما أصَابَكُمْ يَوْم الْتقَى الجَمْعان فَبِإذْنِ الله وَلِيعْلَم المُؤْمِنين ﴾ . . .

فلم تتجه إرادةُ الله عزَّ وجلَّ يوم أحد ، إلى تمحيص المؤمنين فحسب ولا إلى ابراز أخيارهم وأبرارهم للناس ، ولا إلى إظهار الفارق بين المؤمن والمنافق والكافر = وما أبعدها مسافات ، وأشدها فوارق = بل اتجهت أيضاً إلى تكريس حق الشهيد وما له من فضل كبير عند ربه ، ومن مقام عظيم في الدنيا والآخرة . .

وإذا كان هذا شرف الشهادة وعلو مقامها ، فما أعظم ما تكون عليه مراتب الصفوة من عباد الله الذين يختارهُم هو سبحانه وتعالى للشهادة ، وما أعلى منزلتهم وهو يسبغ عليهم من نعمائه ، ويُنعم عليهم من رضوانه ، ويختارهم للمقام الأسمى والدرجة العليا . ويقول الله تعالى في ذلك كله :

﴿ وَلاَ تَهِنُوا او تَحْزنُوا وأنْتُمُ الأعْلَونَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَومَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وتِلْكَ الايامُ نُداولُها بيْنَ النَاس ، ولِيَعْلَمَ الله الَذيْنَ آمَنُوا ، ويَتخذ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، والله لاَ يحِبّ الظَّالِمِينَ . ولِيمَحِّصَ الله الَّذِيْنَ آمَنُوا ويمْحَقَ الكافِرِينَ ﴾ .

.. وهكذا تظهر ظلال أُحد ، قاتمةَ حيناً ، ومشرقةً حيناً آخر ..

فقد أظهرت للمسلمين أخطاء ارتكبوها ، فرأوها بأم العين ، ماثلة أمامهم وقائع حسية ، ليتلافوها في مستقبل أيامهم ولا يقعوا بمثلها مرة أخرى ...

وقد أظهرت أيضاً للمؤمنين ما يتعالى على مصائبها ، وما يسمو على أحداثها ، إذ شعروا بأن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم في غمرة اليأس الذي يقتل النفوس ، بل مسح على أحزانهم برفق ، ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع ...

وزيادة على ذلك أبان لهم ان الهزيمة مهما كانت قوية لا يمكن أن تنال من شرف الغاية التي من أجلها يقاتلون ، ولا من سموّ المبدأ الذي عنه يدافعون ، بل يظل مبدأهم هذا هو أسمى المبادىء كلها ، وتبقى غايتهم هذه هي أشرف الغايات بأسرها ، وما النصر والهزيمة إلا عارضان يتداولان الناس لأنهما سنّة من سنن الله في الخليقة :

فيوم علينا ويوم لنا ويوماً نُساءُ ويوماً نُسرُّ

وكان اكثر التركيز بعد المعركة على فضائل الشهادة وسموّها فمن الطبيعي أن يحزن الناس لمقتل احبتهم وأن يكون قتلهم سبباً لشماتة الأعداء فيهم .

ولكن مهما بلغت جهالة المشركين ، ومهما تخابثتْ نفوس المنافقين ، فالشهادة تظل أرفع وأجل عطاء يمكن أن يقدمه الإنسان ،

سواء في سبيل الله ، أو في سبيل الذود عن حياض الوطن ومدافعة اعدائه . . .

ولذلك فإن الشهداء لا يموتون كما يتوهم الذين يجهلون معنى الموت الحقيقي والـذين لا يدركون من الحياة إلاّ مظاهرهـا الحيوانية البحتة . . .

بل هم أحياءٌ عِند ربهِّمْ يُرزقون ، ويتمنون = لشدة ما وجدوا من طيب الحياة هناك = أن تكون لهم عودة ثانية ليجاهدوا في سبيل الله فيُقتلوا مرة أخرى . . .

وهذا ما عبَّرَ عنه الرسول الأعظم ، يوم قال في شهداء أحد ، معزِّياً ذويهم :

« لمَّا أصيب إخوانـكم يوم أُحـد ، جعـل اللـه أرواحهـمَ في أجواف طير خضر ، تردُ انهار الجنة وتـأكل من ثمارهـا وتـأوي الى قناديل من الذهـب في ظل العـرش . . فلما وجـدوا طيب مأكلهـم ومشربهم ، وحُسن مقيلهم ، قالـوا : يا ليت إخواننـا يعلمـون ما صنع الله بنا ، لئلا يوهنوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب » . . .

فعلم الله عزَّ وجلّ أمانيَّ الشهداء ، فخاطبهم مُطمئنا : أنـا أبلِّغهم عنكم .

وكان التبليغ ما أنزل الله سبحانـه وتعالى من آيات بينـات :
﴿ ولا تحْسبنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سبيلِ الله أمْوَاتاً بَـلْ أحْياءٌ عِنْدَ ربهـم يُرزَقُونَ . فَرِحينَ بمَا آتاهُـمُ الله مِنْ فَضْلِهِ ، ويسْتبشِرُون بالَّذِين لَمْ يلْحقُوا بِهِمْ مِنْ خلفهـمْ ألاَّ خـوْفٌ عَليهـمْ ولا هُـمْ يحْزنُون ﴾ .

التّطوّرات بعْدَ أُحُد

انتهى يوم أحد ، وخيَّمَ الليل على المدينة ، ففريق نام من أهليها ، وفريق سهر . .

فأما المسلمون فقد أوَوْا إلى منازلهم ، يُخلدون إلى السكينة ، وقد لفَّتهم الأحزان ، وخيمت الكآبة على حياتهم . . وأما المنافقون وبنو يهوذ ، فلم يناموا ، بل تواعدوا على السهر والسمر . . وكيف يطيب لهم نومٌ ، وقد تحققت الآمال التي حلموا بها ، وعادت المطامع تراود أحلامهم ؟! . .

إنها مناسبة عظيمة قد جاءت مزدوجة : فهزيمة المسلمين نصرٌ لهم . . ويومُ أحد يومُهم . . ثم تزدادُ أهمية هذا اليوم في أعينهم لأنه لم يهزم الأعداء وحسب ، بل هو يوم القداسة لأنه كان يومَ السبت . .

وإن أهمية المناسبة تفرض عليهم الاحتفاء بها وفق ما يشتهون . . وها هو الليل قد حلَّ ، فتلألأت الأنوار ، في ديارهم ، والتهبت الألحان في نواحيهم . . فقد اجتمعوا في عدة دور معيِّدين ، وصدحت الأنغام ، وغنّت القيان ، فأوغلوا في اللذة والابتهاج ، وانتحى في كل دارة جمعٌ من شيوخهم ودهاتهم يتحدثون شامتين . .

فمن قائل :

ـ لقد سعينا بعد رجوع محمد وجماعته لتفريقهم عنه بكل ما أوتينا من قوة . . .

ومن قائل :

وبذلنا ما في وسعنا في زيادة فجيعة ذوي القتلى على موتاهم . .

إلى قائل : ونحن لم نألُ جُهداً في إسماعهم شتى ألوان التشفّي والشماتة، وزدناهم لوماً ، وأظهرنا بأننا كنا قوسا : أشدّ حزماً وأكثر حكمة ، حين رجعنا من الطريق ولم نمض معهم إلى القتال . . وأوجعناهم تأنيبا ونحن نُشيع بينهم بأنهم لو سمعوا لنا وأطاعونا ما قُتلوا . .

فمثل هذه الشماتة باتوا يتقوّلون ، هازئين ، ساخرين ، وبمثل ذلك الفرح راحوا يبتهجون. . ولكنّ الله عزّ وجلّ كان يرقب كل ما يقولون وما يفعلون ، فأنزل فيهم قرانا كريما يبيّن خطل ما يدعون ، ويتوعدهم بالحق الذي لن يفروا منه ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ الَّذِينَ قَالُو لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا : لَوْ أَطَاعُونا ما قُتِلُوا . قُلْ : فادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ . .

نعم هكذا كانت فعال بني يهود والمنافقين . . فقد سعوا ، بعد عودة المسلمين في نهار الأحد ، أن يشككّوا في رسول الله ﴿ﷺ﴾ وفي دعوته فراحوا يردِّدون على المسامع : « لو كان نبيا ما ظهروا عليه ، ولا أصيب منه ما أصيب ، ولكنه طالب مُلك تكون الدولة له أو عليه » !. . ولم تكن نواياهم الخبيثة تلك ، لتخفى على رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولا على المسلمين ، ولكنهم آثروا السكوت لأن الظرف لا

يساعدهم على التصدّي لدسائسهم . إلا أن ذلك السكوت ، لم يمنع على رسول الله «ﷺ» أن يبيت ساهراً تلك الليلة ، متفكراً فيما يجب عليه فعله حتى يعيد للمسلمين هيبتهم التي بدا للناس أنها تضاءلت ، وللإسلام مكانته التي تراءى لهم أنها أزيلت، لأنه ان لم يفعل شيئا ، فإن الأمور سوف تتعاظم وقد تخُوِّل نفوسٌ هؤلاء المنافقين ، وغيرهم من قبائل العرب التي ما تزال على عداوتها للدعوة ، ان ينقضّوا على المسلمين ويتمكّنوا من القضاء على كيانهم !. . وما من شكٍّ بأنه لا يمنعهم مانعٌ من القيام بعملٍ سريع وحاسم يتخذونه ، فتتمكن تلك الجماعات والقبائل من تحقيق أهدافها العدوانية ، ولذا صمَّمَ الرسول «ﷺ» أن يزيل أثر الوهن من نفوس المسلمين ، وأن يعيد إليهم الثقة في ثباتهم للدسائس والمناورات ، فعزم على الخروج في أثر قريش . رغم ما في المؤمنين من قَرْح ، وما هم عليه من إعياء . .

ولقد قدَّر صلى الله عليه وآله وسلَّم أن النتائج التي ستعقب ذلك الخروج ، تتركّز في هدفين : قطع الطريق على المرجفين في المدينة ، وإشعار قريش ومن والاها ، وكل من عداها من الأعداء ، ان المسلمين لم يضعفوا كما يتوهمون ، بل لا تزال عندهم قوة يستطيعون بها ان يُرهبوا عدوّ الله وعدوَّهم . . .

وطلع صباح غدِ يوم أحدِ يقع لست عشرة خلت من شوال ، فإذا صوتُ مؤذِّن الرسول «ﷺ» يتعالى في أرجاء المدينة يدعو المؤمنين للخروج ! . . وهبَّ المقاتلون ، وكأنهم بهذه الدعوة الصارخة ، قد ذهَب الوهنُ عنهم ، وخرجوا يمتشقون اسلحتهم ، ويتدافعون

نحو المسجد ، فيلاقيهم إخوانهم قائلين : إن رسول الله يأمر أن لا يخرج أحد إلاّ إذا كان قد حضر يومنا بالأمس . . .

وأطاعَ المسلمون أمْرَ رسول الله «ﷺ» ، فعاد من تخلَّف عن أحـد ، بينما اجتمع المقاتلون ينظِّمون الصفوف ، ويشدُّون العزائم ، فخرج إليهم رسول الله «ﷺ» في لباسه الحربي ونادى فيهم : « ألا عصابة تشدُّ لأمر الله تطلب عدُّوها وتطارده فإنها أنكى للعدو وأبعد للسمع ؟ . . » .

ثم استخلف رسول الله «ﷺ» ابنَ ام مكتوم على المدينة ، ودفع اللواء الى علي بن ابي طالب (ع) وسار في طليعة جيشه على بركة الله . .

وهكذا سار الجيش الإسلامي يريد اللحاق بقريش وفي النفوس توقٌ لمواجهتها ، وفي المشاعر اندفاع لقتالها . . .

لقد خرجوا جميعهم ـ مُعافين وجرحى ـ يلبون النداء ، من غير أن يكترث أحدهم لإعياء، أو يهتمَّ لألم . . بل إنَّ الجرحى كانوا أكثر حماساً ، كما يصوّر حالهم أحدُ الصحابة من بني عبد الأشهل فيقول : « شهدت أُحد أنا وأخ لي ، فرجعنا جريحين . . فلما أذَّن مؤذن رسول الله «ﷺ» بالخروج في طلب العدو ، وتليت علينا الآيةُ التي أنزلها الله تعالى على نبيِّه الكريم : ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا فِيْ ابْتِغَاءِ القَوْمِ ، إِنْ تكُونُوا تَألمُوْنَ فَإنهمْ يَألمُوْنَ كَماَ تَألمُوْنَ** ﴾ . . نعم لما أُنزلت تلك الآيةُ المباركة تواعدنا على ألاَّ تفوتنا غزوة مع رسول الله ، وخرجنا نلحق بالمؤمنين ، ونحن نكاد نزحف وراءهم على أرجلنا زحفاً . .

ثم يتابع الصحابي الجليل :

« وكان أخي رافعٌ أكثرَ مني جراحا ، فضعف عن السير ، بعد أن قطع مسافة من الطريق ، فتقدمت أحمله على ظهري ، وأنا أجهدُ في المسير كي أريحه ، حتى لا أعودَ أقوى على احتماله ، فأُنزله عن ظهري ، ليمشي قليلاً ، وأستريح أنا ، ثم لا ألبث أن أعود واحتمله من جديد . . وما زلنا كذلك حتى وصلنا إلى معسكر المسلمين ، فأتينا رسول الله «ﷺ» نعتذر عن تأخُّرنا . . ولكنَّ الرسول العظيم ما أن رآنا على تلك الحالة ، حتى عظُمَ عليه الأمر ، فراح يواسينا ويدعو لنا بالخير ، ثم قال : إن طالت بكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل وليس ذلك بخير لكم » . .

فقد تمكن هذان الأخوان من بني عبد الأشهل من اللحاق بإخوانهم المقاتلين في معسكرهم الذي أمر رسولُ الله «ﷺ» أن يقيموه في مكان بَلَغَهُ يدعى : « حمراء الأسد » ، ثم طلب إلى المقاتلين أن يجمعوا الحطب ، ويجعلوه أكواماً متفرقة في شتى أنحاء المعسكر ، حتى إذا جن الليل ، وأسدلت الظلمة خيوطها ، أمرهم جميعاً بأن يوقدوا النيران في أكوام الحطب ، ففعلوا ، وعلَت ألسنة اللهب تدلُّ على وجودهم للبعيد البعيد . . حتى ليظنّ من يراها أن المسلمين أعداد لا تحُصى ، وأنَّ لهم قوة لا يستهان بها . .

وانقضت تلك الليلة ونيران المسلمين لا تنطفىء . . وعادوا إليها في الليل التالي ، مما جعل أخبارها تصل قريشاً ، فتهِنُ منها العزيمة ، وتفترُ القوى ، فكان ذلك أحد العوامل التي كبتها اللهُ سبحانَه به . .

وعاد نهارٌ ثالث يطلُعُ من جديد ، فيمرُّ بقرب « حمراء الأسد » رجلٌ من خزاعة يدعى معبد الخزاعي . . فقصد رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ ، متوخياً التشرُّف بمجالسته وقتاً قبل ان يتابع سيره ، وكان بعض من أبناء خزاعة قد دخلوا في الإسلام ، بينما كان أكثرهم لا يزالون على الشرك ، ولكنّهم جميعهم كانوا يحبون محمداً ويجلُّونه ، ولا يضمرون عداوة لدعوته ، ولا حقداً على أصحابه . . فجاء معبد ، ولم يكن قد أسلم بعد ، يجالسُ النبيَّ الكريم ، ثم يقول له مواسيا :

« لقد عزَّ علينا ما أصابك في نفسك وفي أصحابك ، لوددْنا أنَّ الله أعْلَى مقامك ، وأنَّ المصيبة كانت بغيرك » . . فأثنى عليه رسول الله ﴿ﷺ﴾ لتلك العاطفة الصادقة ، وراح يسأله عن بني قومه ، وعن وجهة سيره ، ويحدّثه في شتى الشؤون حتى مضت ساعة من الوقت ، فقام معبد يودّع رسول الله ﴿ﷺ﴾ مستأذنا بالذهاب . . .

وسارَ معبد في طريقه ، يقطع مسافة طويلة ـ ثمانية وعشرين ميلاً ـ بعيداً عن « حمراء الأسد » حتى يبلغ « الروحاء » حيث يعسكر المشركونَ ، فعرّج عليهم يريد معرفة أخبارهم ، فوجدهم قد أجمعوا الرجوع لقتال محمد وأصحابه . . وأراد أن يتأكّد من صحة هذا الرجوع ، فجلس إلى أبي سفيان بن حرب يسأله إن كان حقاً ينوي معاودة القتال ، فيقول له أبو سفيان :

ـ لقد أصبنا قادتهم وأشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم . . وإنه لخطأٌ ارتكبناه ، فنريد إصلاحه » . .

ويسكت معبدٌ ولا يجيب ، فيسأله أبو سفيان : وما وراءك يا معبد ؟

فقال معبد : لقد رأيت محمداً وقد خرج يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قطُّ يتحرقون عليكم تحرقاً .. فقد اجتمع إليه من تخلّف بالأمس ، وهو نادم على صنيعه .. ثم يصمت معبد عن قصد منه ، فيقول له أبو سفيان :

ـ تابع يا معبد .. ولِمَ توقفت عن الحديث ؟! ..

فيعود معبد ويقول :

ـ وإني قد أيقنت أنَّ في نفوس القوم حنقاً عليكم لم تعرفه العرب من قبل ..

فصرخ أبو سفيان في وجهه :

ـ ويحك ما تقول يا معبد :

قال معبد : فإني ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ! ..

قال أبو سفيان : ولكنّا أجمعنا أن نكرَّ عليهم ثانية ، فنبيدهم عن بكرة أبيهم ..

قال معبد : لا أخالك قادراً على ذلك يا أبا سفيان . وأنا ناصحٌ لك الأَّ تفعل ! فوالله قد حملني ما رأيت من المسلمين أن قلت فيه شعراً .

قال أبو سفيان : وما قلتَ ؟!

فارتجل معبد على جَرْي اللسان وعلى الفَور :

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي — إذ سالت الارضُ بالجرد الأبابيل

تَرْدِي بأسد كرام لا تنابلة — عند اللقاء ولا خُرْقٍ معازيل

فظلتُ عدوا ظن الارض مائلة | لما سَمَوا برئيس غيرِ مخذول
وقلت : ويل ابن حرب من لقائهمُ | إذا تغطَّمت[1] البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البَسْل ضاحية | لكل ذي إربة منهم ومعقولِ
من جيش أحمد لاوخش[2] قنابله[3] | وليس يوصفُ ما نذرتُ بالقيل

.. وخيّم السكوت .. ووجم القائل والمستمع .. ثم ما لبث معبد بعدها إلاَّ قليلاً ، ثم ارتحل مخلّياً أبا سفيان في همٍّ وقلق ..

وراح أبو سفيان يَروي لقومه ما حدَّثه به الرجل الخزاعي ، فاجفلت قلوبهم ، وباتوا ليلتهم يتفكّرون : هل يتخلّفون عن الرجوع إلى مقاتلة محمد فيخبو وميض النصر الذي حققوه ، أم يسيرون إلى الديار فيحافظوا على هالة ذلك النصر ، وتبقى لهم السمعةُ الظافرة ؟!..

وارتأى القوم الحل الثاني ، فإذا هم يشدّون الرحال ويتوجهون إلى بلادهم . فيلاقون ركباً من عبد قيس ، فيسأل أبو سفيان :

أين وجهة أصحابنا ؟

فيقولون : نريد المدينة ..

فيقول زعيم قريش : فهل أنتم مبلِّغون عني محمداً

---

(١) تغطمت : اهتزت وارتجت .
(٢) وخش : رذال الناس واخساؤهم .
(٣) قنابله : جمع قنبلة وهي القطيعة من الخيل .

رسالة !.. وإن فعلتم لأُحمِّلنَّ لكم هذه الإبل زبيباً إذا ما وافيتمونا غداً بعكاظ !..

فأجابوا فرحين : نعم !...

قال أبو سفيان : إذن فأخبروه بأننا قد أجمعنا أن نعيد الكرة عليه وعلى أصحابه فنستأصلهم ..

.. وتابع اولئك النفر من عبد قيس مسيرهم حتى بلغوا « حمراء الأسد » ، فتوقفوا يبلّغون محمداً ﴿ﷺ﴾ ما أوصاهم به أبو سفيان ، فلم يزد رسول الله ﴿ﷺ﴾ على أن قال : حسبنا اللهُ ، ونعم الوكيل ..

وانقضت أيام ثلاثة : (الاثنين والثلاثاء والاربعاء) والمسلمون ينتظرون رجوع قريش ولكنها لم ترجع ، بل عادَ نفَرٌ المسلمين الذين بعثهم الرسول ﴿ﷺ﴾ يترصدون أخبار الأعداء ، ويرقبون تحركاتهم ، ليخبروه بأن قريشاً قد سار ركبها إلى مكة مرتحلاً ، ولم يتخلّف أحدٌ عن هذا المسير ... عندها أمر الرسول ﴿ﷺ﴾ برفع المعسكر ، وجمع الأمتعة ، والاستعداد للعودة .. فأنزل الله تعالى قرآناً كريماً ، يَعِدُ أولئك المؤمنين ، الذين خرجوا على رغم جراحهم لمقاتلة العدو الكافر ، بالأجر العظيم الذي يستحقون ، ويصف حالهم عندما جاءَهم أناس يوهنون منهم العزم ، ويثيرون الخوف في النفوس ، فما زادهم ذلك إلاّ إيماناً واحتساباً ، فقال عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُول من بَعْدِمَا أَصابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُم وَاتَّقَوْا أَجْر

عظيمٌ ؛ الَّذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ : إنَّ النَّاسَ قدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ ، فَزَادهُمْ إيمانا وقالُوا : حَسْبُنا اللهُ وَنِعْم الوَكِيلُ . فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفضْلٍ لمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ . . .

. . وسارَ ركب المسلمين عائدا . . وشاءت عدالةُ السماء أن يُلاقوا في طريق العودة أبا عزّة ـ الشاعر الجمحي ـ الذي خانَ العهد ، وراح يظاهر على رسول الله «ﷺ» ويُكثر عليه ، فأمسكوا به واقتادوه إلى الرسول «ﷺ» ليرى أمره فيه . .

واندفَعَ ذاك الشاعرُ المنافق يريد أن يُظهر للرسول «ﷺ» بأنه لم يكن راغبا فيما فعل ، بل إنه صفوان بن أمية هو الذي أغواه عندما قال له : يا أبا عزة ! إنك امرؤ شاعر فأعنّا بلسانك . . لئن خرجت معنا ، فلك عليّ عهدَ إن رجعت لأعيننك في بناتك . .

فقال له بعض المسلمين :

ـ ورضيت بعهد ابن أمية لك ، ونقضت عهدك مع رسول الله ! . . أليس كذلك ؟! . . . فما جزاء من ينقض عهد رسول الله ؟! . .

فقال مخادعاً : يعفو عني محمد . . .

فقال له الرسول «ﷺ» عندئذ : والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمداً مرتين . لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين » .

ثم أمر أن يأخذوه جانباً وتُضرب عُنقه . . . وتابع الركب مسيرته . . .

القضاء على الفتن والاضطرابات

وعادَ المسلمون الى المدينة أرفع رأساً وأعزّ جانباً .. فقد طاردوا العدو ، ولبثوا بضعة أيام ينتظرون رجوعه اليهم ؛ ولكنه آثر ـ رغم النصر الذي حققه ـ عدم مواجهتهم من جديد ، فولّى الى دياره ذاهباً ..

واعتقد المسلمون بأن تلك المطاردة ، سوف تخفف من غلواء أعدائهم ، في المدينة وخارجها ، ولكنّ اولئك الأعداء كانوا قد أيقنوا بصورة قاطعة أن المسلمين قد هُزموا نهائياً ، وأن مظاهر القوة التي أبدوها في المطاردة لا تُزيل الضعف الذي داخل صفوفهم ، فزاد تنكّرهم لهم ... وراح المنافقون واليهود في المدينة يتحرّشون بهم ، ويفتعلون المشاكل ، في محاولات حثيثة لمناوأتهم والنيل منهم ؛ ولم تكن قبائل العرب ، خارج المدينة ، بأقلّ تنكراً ، أو أخفّ معاداة ، إذا ما لبث معظمهم ان نقض المواثيق التي عقدها معهم محمد ﴿ﷺ﴾ ، وانقلبوا الى سابق عهدهم من العداوة ، وراحوا يستعدون لمهاجمته وقتاله ..

ولم يكن ذلك كله ليغيب عن بال رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، بل كان يعلم علم اليقين ما يُعدُّه أعداء الداخل والخارج من مؤامرات ضد الاسلام ، ومن استعدادات ضده وضد أصحابه ، ولذلك راح يبث

العيون في كل النواحي حتى يقف على كافة الأخبار ، ويكون على بيّنة مما يجري ، فاذا ما حانَ الوقت أمكنه ان ينزل أشدَّ العقاب بأولئك الذين تسوِّل لهم نفوسهم الحاقدة استصغار شأن المسلمين والاعتداء عليهم . . .

وانقضى شهر كامل على أحد ، والأوضاع المستجدة ما تزال على حالها من عدمِ الاستقرار . . . فهنالك مشركون يتربّصون الدوائر بمحمد ويريدون الانقضاض عليه . . وهٰهنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ يرقب ويتفكّر ويخطِّط . . فلما جاءه من يبلّغه أن بني أسد يريدون غزو المدينة ، وغرضهم اقتياد غنم المسلمين وهي ترعى في الأطراف ، دعا اليه على عجلٍ أبا سلمة بن عبد الأسد ، وعقد له لواء سرية بلغت مائة وخمسين مقاتلاً من خيرة أبطال المسلمين وأكثرهم شجاعة ، أمثال أبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وأسيد بن حضير ، وغيرهم ، وغيرهم من الرجال الأشدّاء ، وأمرهم بالمسير إلى بني أسد ، ليغزوهم في عقر دارهم ، قبل أن يقوموا هم بغزوهم في المدينة . . . وقد وضع لهم خطة لذلك ، بأن يسيروا في الليل ويقعدوا النهار ، وبأن يسلكوا طرقاً غير مألوفة ، ويستخْفوا عن الأنظار ، فلا يطّلع أحد على خبرهم ، وبذلك يُمكنهم مفاجأة العدو على غِرَّة منه . . .

وسارت تلك السرية المباركة تنفِّذ أوامر الرسول ﴿ﷺ﴾ بحذافيرها ، فلا تكترث لوعورة المسالك ، ولا تخاف ضياع الطريق ، حتى امكنها بلوغ منازل بني أسد ، فضربت حولها نطاقاً في عماية الصبح ، واندفع قائدها أبو سلمة أمام رجاله ، يحضّهم على

الجهاد في سبيل الله ، والنيل من أعدائه . . . ولبّى الأبطال نداء الواجب المقدس ، فانقضوا على العدو يرهبونه ، ويشتّتون شمله ، حتى أنزلوا به الهزيمة ، وألحقوا به الخسارة ، في ساعة ما رأى مثلها في حياته قط . . .

وانقضت تلك الغزوة ، فحمل المسلمون الأموال التي غنموها بقوة بأسهم ، وعادوا يهلّلون بالظفر ، ويهزجون بالنصر ، فاستقبلهم إخوانهم على أبواب المدينة ، مكبّرين ، مسرورين ، وهم يشعرون بالثقة تعود إلى نفوسهم ، وبالاطمئنان يسري في جوارحهم . .

ثم لم يمرّ وقت طويل على سريّة أبي سلمة ، حتى بَلغ رسولَ الله «ﷺ» أنَّ خالد بن سفيان الهذلي ، يستعدُّ هو أيضاً لغزو المدينة ، وقد أقام بعُرْنة يجمع الناس من حوله لهذا الغرض . . . فبعث رسولُ الله «ﷺ» عبد الله بن أنيس ليقف على حقيقة الخبر وقد ترك له حريّة الخيار في التصرُّف ، وفق ما يراه ويرتأيه . . .

وذهب عبد الله في مهمته ، مُخفياً أمره عن الناس ، حتى بلغ مكان خالد الهذلي ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه في جماعة من النسوة يرتاد لهنَّ منزلاً ، فقصده . .

ووصلَ عبد الله والْتقى خالداً ، فسأله هذا :

ـ من أنت أيها الرجل ، وما تريد منا ؟

قال عبد الله : أنا رجل من العرب ، وقد سمعت بجمعك لمحمد ، فجئت للانضمام إليك . . .

وبانَ الزهـو على وجه خالد الهـذلي ، فقـد تراءى له في تلك اللحظة أن امرَه قد بلغ مسامِعَ البعيد من قبائل العرب ، وأنه بات مشهوراً عندها ، فقال لعبد الله متفاخراً :

ـ نعم أنا أجمع على حرب محمد ، ولسوف يرى هو وأصحابه فعل الهذلي . . .

فقال عبد الله متحذلقاً : وأنا ما جئتك إلاَّ لهذا الأمر ! . .

وعاد الغرور يملأ نفس الهذلي ، فدعا عبد الله الى الجلـوس بقربه ، وراح يبيِّن له حقده على محمد ، وعزمه على قتله حتى يريح العرب بأسرها من همِّه وعبد الله يستمع اليه ، ويُبدي اعجابـه من تصميمه حتى شعر بأنه اطمأنَّ اليه تماما ، فقال له مستدرجاً :

ـ أرى أنك تجهد نفسك كثيراً يا خالد ولا أخالك ترْفض نزهة قصيرة في هذه الفلاة الرحبة تذهب عنك التعب ، وتزيل العناء . . .

قال خالد : لعلك ممن يدرك السرائر فوراً يا أخا العرب ، فأنا مجهد ، ويطيب لي أن أرافق أمثالك من ذوي الفهم والحذق . . .

قال عبد الله : إذن هيّا بنا . . .

وهبَّ خالد يتمايل بخيلائه وسار برفقـة عبـد الله حتـى قطعـا مسافة ليست بقصيرة . . . وصارا بعيدين عن عيون القوم .

وهنالك ووراء كثيب من الرمل ، استلَّ عبد الله سيفه ، وقفز على خالد وهو يقول له :

ـ أيها الكافر ! لقد أعمى الغرور بصيرتك فظننت انك قادر

على بلوغ أمانيك الخبيثة من محاربة رسول الله «ﷺ» وإراحة العرب من همّه ولكنك خسئت فيما ظننت ، فها أنذا مبعوث محمد إليك ، قد جاء يطلب حتفك ، فخذها ضربة تسلبك الحياة وترديك في أسفل الجحيم .. ثم ضربه بالسيف ، فشق هامه ، وتركه على الثرى يتخبط بدمائه ، ومضى في سبيله ، مرتاح النفس ، قرير العين ، حتى بلغ المدينة ، وأخبر رسولَ الله «ﷺ» بما فعلَهُ ، فهنّاه الرسولُ «ﷺ» على سلامته ، ودعا له بالخير ..

وتناقلت الأخبارُ ما حلَّ ببني أسد ، وبزعيم بنى هذيل ، فهدأت ثائرة القبائل منفردة ومجتمعة ، ولم تعدْ تجرؤ واحدة منها على الاستعداد لمهاجمة المدينة ، لئلا يعرف محمد بأمرها ، فيأتيها جنده ، وتقع الواقعة عليها .. إلاّ أنّ القبائل وان لاذت الى السكينة خوفاً ، فإنها راحت تنتظر الأيام بما تأتي من جديد ، وترقب الأحداث بما تغير من أحوال ... وإن كان ذلك لم يمنع بعضها من التفكير في أساليب ملؤها المكر والمخادعة ، كما فعلت قبيلة تجاور بني هذيل ، إذْ اوفدت الى المدينة رهطاً منها يقابل رسول الله «ﷺ» ، ويعرض عليه أمر قبيلته قائلاً : « يا محمد ! ان فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من صحابك يعلّموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن » ...

ولم يكن للنبيِّ «ﷺ» ان يتأخّر عن تلبية نداء واجب الرسالة ، مهما حمل من تضحيات ، فدعا إليه ستة من كبار الصحابة ، وأمرهم بالذهاب مع اولئك الرهط ، فامتثلوا راضين ، وساروا لأداء المهمة المقدسة ، ولكنهم ما إن بلغوا الحجاز ، ونزلوا على ماءِ لهذيل ، في ناحية تدعى « الرجيع » حتى استصرخ الرهط

الذي يرافقون هذيلاً عليهم ، فجاءت تغشاهم بالسيوف . . ورغم المفاجأة ، ورغم المداهمة التي لم يكونوا ينتظرون فقد استلَّ اولئك الصحابة سيوفهم ، وراحوا يقاتلون المهاجمين الغادرين قتالاً بلا جدوى ، إذ أنّى لهم الفوز والأعداء من حولهم كثيرون ، وجمعُ قبيلة بكامله كان ينتظرهم ! . . . ولكنهم دافعوا عن أنفسهم ، وقاتلوا ما وسعهم القتال ، فاستشهد ثلاثة منهم هم : عاصم بن ثابت ، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخالد بن بكير ، بينما وقع في الأسر الثلاثة الباقون وهم : عبد الله بن طارق ، وخبيب بن عدي الأوسي البدري ، وزيد بن الدثنة . . .

وأخذت هذيل هؤلاء الأسرى ، قاصدة مكة لتبيعهم من قريش ، ولكنهم بينما كانوا في الطريق اغتنم عبد الله بن طارق غفلة القوم عنه ، فانتزع يده من الغِلِّ ، وامتشق سيفه يريد مقاتلة القوم ، فلم يمكّنوه منهم ، بل قتلوه شرَّ قتلة ، وتركوه في الفلاة ، متابعين السير إلى تحقيق غرضهم الدنيء . . .

والتفّت قريش في مكة حول الأسيرين ، تهزأ بهما وتشمت ، وتثني على بني هذيل وتمتدح ، حتى وقف صفوان بن أمية يصرخ في الجمع :

ـ يا قوم ! اشهدوا عليَّ بأني ابتعت أحد أصحاب محمد لأقتله بأبي أمية . . .

وسارع يجذب إليه زيداً ، ثم يسلمه الى بعض الغلمان كي يقتلوه على مرأى من الناس جميعاً . . . فتقدم منه أبو سفيان بن

حرب ، وقال :

« يا زيد ! انشدك الله ، أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟

فانطلقت صرخةُ زيد بِدَويٍّ يهزُّ كيان أبي سفيان قائلاً :

ـ والله ما أحبّ أن رسول الله الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي !..

فاهتاج ابو سفيان لسماعه ذلك وقال : والله ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً ...

ثم التفت الى صفوان وصرخ فيه : إيه يا صفوان ألا تأمر بقتله ؟!

ولم يكن حقد ابن امية بأخف من حقد أبي سفيان ، فأمر نسطاس فقتل زيداً ، فذهب شهيد أمانته لدينه ولنبيِّه .

أما خبيب بن عديّ فقد اشتراه حجير بن أبي إهاب التميمي ، وحبَسهُ عنده مدة من الزمن ، كانت خلالها ، مولاةٌ له تدعى ماوية ، تأتيه بالطعام والشراب ، فتجده وقد جلس يتهجَّد بالقرآن ، فتقف بعيدة عنه تصغي لقراءته ، حتى يرقَّ قلبها وتبكي ..

وذات يوم ، بينما خبيبٌ كعادته يقرأ ويصلي ، إذ به يرى باب سجنه يفتح ، ودخل عليه القوم يقتادونه ، فسألهم بكل عزم وثبات :

ـ يا معشر قريش أتريدون قتلي ؟

قالوا : نعم ! وما نفعل بمثلك غير أن نذيقه طعم الموت الزؤام .

قال : لكم ما أردتم . ولكن ذروني أصليِّ ركعتين قبل أن ألقى وجه ربِّي .

ونزل القوم على رغبته فصلىَّ ركعتين وهو مقيَّد بالأغلال ، ثم رفع رأسه بأنفةٍ وخاطبهم قائلاً :

ـ أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت الصلاة جَزعاً من القتل لاستكثرت ! . . فتعجبوا من أنه لم يكترث وهو يقتل في سبيل الله وهزَّت رباطة جأشه نفوس المشركين ، فاندفعوا اليه يرفعونه على خشبة ويشدّون وثاقَهُ فأنشد قائلاً :

ولستُ أُبالي حين أُقتل مسلماً   على أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارِكْ على أوصالِ شلوٍ ممزَّعِ

وقبل أن يسمِّروا يديه ويصلبوه ، نظر اليهم بعين غضبى ، وصرخ فيهم ورفع رأسه نحو السماء وقال بصوت مرتفع : « اللهم أحصيهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً » . وأُرْتِجَ عليهم من صيحته تلك وشعروا وكأن اللعنة تصيبهم ، ثم عاجلوه بالقتل . .

وكان مصرع خبيب ـ رحمه الله في صفر من السنة الرابعة للهجرة . . حيث استشهد في سبيل الله وفي سبيل دينه الحق ، كما

استشهد قبله بشهور قليلة إخوة له ، يوم سقطوا صرعى في « الرجيع » في شهر شوال من السنة السابقة ، كما أن دماء الشهداء لم تكن قد جفّت في أُحد بعد .

إنها قوافل من الشهداء تترى في مسيرة التاريخ لتثبّت دعائم الدين في صراعه مع الشرك ، وتتعاقب مع مجرى الأحداث لتنير طريق بني البشر ، جاعلةً من أجسادها مشاعل النور والهداية ، ومن دمائها مداد هذه المشاعل . .

فبالأمس هناك . . . واليوم ههنا . . . وغداً في كل مكان ! تُزرع أجساد الشهداء تحت التراب . . ولكن ، وأيّان كان المثوى ، فهو المزار للمؤمنين من أهل الأرض ، يتنشّقون منه عبير الشهادة يعبق في النفوس هدىً وإيماناً . . فبالله عليك يا غادياً الى مزار الشهادة : أما شعرت بذلك العبير رجفةً في أوصالك ، وهزّةً في كيانك ، وانت تذكر مآثر الشهداء ، وترتسم أمام مخيلتك صورة أهل بدر ، وأحد ، ومشهد أبناء الرجيع ، وصرخة زيد ، وصلاة خبيب ؟! . .

إنهم كانوا رجالات الاسلام ، وغدوا شهداء الحق ، فبارِكْ لهم ، وسبّح لربهم ولكنْ : كن مثلهم ، فلا تبخلْ في العطاء . . .

وحزن الرسول ﴿ﷺ﴾ لأهل « الرجيع » وتألّم لفاجعة هؤلاء الأخيار ، من ذوي الفقه في الدين ، والجودة في قراءة القرآن . . وممّا زاده حزناً قتلُهم غدراً ونفاقاً ، والأسلوبُ الرخيصُ الذي استعمله الأعداء في امتهان كرامة رجال وهَبوا نفوسهم لله تعالى وحده . . . وحزن المسلمون على اخوانهم ، وأحسّوا بالجرح يصيبهم في

الأعماق ، ولكن هذه هي دربهم جميعاً : التضحية والفداء حتى تعلو كلمة الله سبحانه وتعالى . . .

وكان حريّاً بتلك الأحداث ان تهدَّ كيانهم ، وهي تتسارع عليهم منذ أحد ، لولا أن آيات القرآن كانت تنزل تباعاً ، فيتلوها عليهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ويبيِّن لهم ما تحمل من مواساة لمصائبهم ، واطمئنان لنفوسهم ، ويوضح لهم ما تعد به الصابرين منهم على طاعة ربهم ، من جنّاتٍ غرس الله سبحانه أشجارها بأمره ، وأسالَ أنهارها بتقديره ، وجعلها المقام الدائم الذي لا يزول للخالدين فيها من أهل طاعته وحملة دعوته . .

وكان يُريح المؤمنين ، ويزيد في اطمئنانهم ، إيمانُهم القويُّ بأ نَّ الله تعالى هو وليُّهم ، وأنه يدخل من يشاء في رحمته ، وأن الظالمين ما لهم من وليّ ولا نصير . . . .

وكانت آثار حادثة « الرجيع » ما زالت تتفاعل ، عندما قدم على رسول الله ﴿ﷺ﴾ أبو براء ، عامر بن مالك بن جعفر العامري ، المعروف بملاعب الأسنة ، فعرض عليه الرسول العظيم أن يدخل في الاسلام . ولكنَّ أبا براء من غير أن يظهر عداوة للإسلام استمهل الرسولَ قائلاً :

ـ يا محمد ! إني أرى أمرك هذا حسناً وقومي خلفي ، فلو بعثت لهم نفراً من أصحابك لرجوت ان يتَّبعوا أمرك ويستجيبوا لك ! . .

وتفكّر رسول الله ﴿ﷺ﴾ في الأمر . إنه واجب الدعوة وهو

مقدس ... ولكنَّ أهل نجد ظهروا ذوي غدر لما فعلوه في « الرجيع » ، فهل يأمن مثل هذا الغدر على صحابة آخرين لو أجاب أبا براء الى ما سأله !.

ولم يخفِ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ حرصه على سلامة أصحابه ، فذكّر الرجل بما حصلَ في الأمس القريب ، ولكن أبا براء انبرى يؤكد نواياه السليمة ، وعزمَهُ على الذود عنهم ، وحرصه على سلامتهم .. وبَلَغَ منه التأكيد لرسول الله ﴿ﷺ﴾ أن أعلن جواره لهم وهو يقول للرسول :

« أنا جار لمن تبعث يا محمد ، فلْيَفِدوا داعين لأمرك » .

لقد كان الرسول الأعظم يعرف أن أبا براء رجلٌ مسموع الكلمة في قومه وأنّه من أهل الشجاعة ، ويحفظ العهدَ الذي يأخذه على نفسه،وقد اشتهر بذلك بين العرب حتى دعوه « ملاعب الأسنّة » .. فهو أهل لمن يجير ، ولا خوف منه أن يخون الأمانة والعهد ... ولذلك ، ورغم أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كره استجابة طلبه ، إلاّ أنه فضّل إجابة نداء الواجب ، فانتدب للمهمة المنذر بن عمرو ، أخا بني ساعدة ، وأمرَه بالخروج في أربعين من خيار المسلمين وقرّائهم ، كي يذهبوا الى بني عامر - قوم ابي براء - يدعون إلى الإسلام ويفقهون في أمور الدين وكان خروج هذه البعثة من المسلمين في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة ، فساروا ملبين نداء الواجب حتى بلغت بهم الطريق مكاناً يدعى « بئر معونة » قريباً من بني عامر ، فنزلوا عنده يستريحون ، ولم يلبث بعدها قائد السرية أن

دعا إليه حرام بن ملحان ، وطلب منه أن يحمل كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ، ابن أخ أبي براء ، وفيه شرح لما دار بين هذا الرجل ورسول الله ﷺ . وذهب حرام بكتاب رسول الله ﷺ حتى أتى عامر بن الطفيل في نزله وأعلمه بأمره وغرضه فما كان من الرجل إلاّ أن طرح الكتاب أرضا ووثب على الرسول فقتله . فانتشر الخبر في مضارب بني عامر ، فتجمع هؤلاء القوم يستفسرونه سبب قتله لهذا الرسول . فأعلمهم بأمر جوار ابي براء لتلك الجماعة من المسلمين واستصرخهم ليشدوا عليهم في بئر معونة فيبيدوهم عن بكرة أبيهم .. فأبوا عليه ما يرغب ، ولم يستجيبوا له ، بل خذلوه قائلين : « والله لا يُخْفَرُ جوار أبي براء » ..

عندها انطلق عامرٌ اللعين إلى قبائل مجاورة لهم ، من بني سليم ، وذكوان ، ورعل ، يستحثهم على القضاء على تلك الجماعة من المسلمين التي جاءت تفتن الناس عن دينهم ، ولم تتوان تلك القبائل عن الاستجابة لنداء ابن الطفيل ، فانطلقت إلى بئر معونة وأحاطت بالمسلمين من كل جانب ، ثم انقضّت عليهم ، تنزل بهم تقتيلا ، والمسلمون لا يجدون من يناصرهم أو يذود عنهم فشرعوا بالدفاع عن أنفسهم ما وسعهم الجهدُ ، حتى إذا خارت قواهم ، ولم يعودوا قادرين على القتال ، تكاثرت عليهم تلك القبائل ، تضرب فيهم بكل حقد وضغينة ، حتى لم يبق منهم إلاّ من كتب الله سبحانه له النجاة ، وكانا اثنين لا ثالث لهما ، عمرو بن أمية الضمري ، الذي رأى ابن الطفيل أن يبقي على حياته ، وأن يعتقه عن رقبة كان يزعم أنها على أمه ، وكعب بن زيد الذي أغمي عليه من

كثرة ما أصابه من جراح فظنه المشركون مقتولاً فتركوه .

وقفل عمرو بن أمية راجعاً إلى المدينة ، بعدما رأى بأم العين أن جميع رفاقه قد ذووْا شهداء ، فراح ينهب الأرض نهباً ليخبر رسول الله «ﷺ» بحقيقة ما جرى وهو لا يصدق أنه نجا حقاً من تلك الواقعة الخبيثة حتى بلغ به المسيرُ مكانا يدعى « القرقرة » فنزل عليه يلتقط أنفاسه ، وفيما هو يستريح من عذابه ، إذا برجلين يقبلان وينزلان بجانبه ، فيعرف من حديثهما أنهما من بني عامر . . فثارت نفسه لوجودهما بقربه وأراد أن يذهب ، ولكنَّ نفسه سوّلت له القصاص من هذين الرجلين على فعلة بني قومهما بإخوانه ، فظلَّ في مكانه يرقبهما حتى إذا سنحت له فرصة انقضَّ عليهما وقتلهما ، ثم انطلق إلى المدينة يخبر رسول الله «ﷺ» بالمصيبة التي حلَّت بهم ، وبما جدّ معه في طريق عودته ، فيلوم رسول الله «ﷺ» عمراً على ما فعله بالرجلين ، بعد أن تأكد من وصف عمرو لهما ، أنهما الرجلان اللذان أجارهما . . ويقول له : « لبئس ما صنعت يا عمرو ، قد كان لهما مني أمان وجوار » .

وأسف عمرو أشدَّ الأسف ، وحزنَ كثيراً على ما قام به . . ولكنْ من أين يعرف أن رسولَ الله «ﷺ» قد أجار هذين الرجلين ومجرد سماع ذكر بني عامر يثير في نفسه الغضب والحقد ؟! .

ولم يجدْ أمامه إلاَّ الاعتذار لرسول الله «ﷺ» ، فأمره الرسول «ﷺ» بالانصراف . . وحزنَ رسولُ الله «ﷺ» على الصحابةِ الشهداءِ الأبرارِ حزناً شديداً . . فما ذنب هؤلاء الصحابة

حتى يقتلوا من غير أن يأتوا بمنكر ، بل كان هدفهم خير الناس وهدايتهم ! . .

إنها الرعونة تستبدّ بالقبائل البادية ، فتتخلى عن كل الأعراف والشرائع ، حتى العادات التي هي قوام حياتها باتت تتنكر لها ، فلم تعد ترعى للجوار حرمة ، ولا تقيم للشرف مكانة ! .

. . . في هذه الأثناء كان أبو براء يعاني من فعلة ابن أخيه أشدّ المعاناة ، حتى لم يعد يقدر على الاحتمال فمات حنقا وأسفا . . ورأى ابنه ربيعة ما حلّ بأبيه ، فانطلق الى عامر بن الطفيل ، يقتله ثأرا لأبيه ، ويجعله عبرة لكل من لا يحفظ حرمة الجوار[1] . . .

---

(١) ورد في غير ذلك بحادثة موت عامر بن الطفيل فقد روي أنّ وفداً من بني عامر جاء المدينة ، بعلن إسلامه ، بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وكان فيه عامر بن الطفيل ، وقد جاء بريد الغدر برسول الله (ص) بعد أن أفشى ذلك لبني قومه ، وقد اتفق مع اربد بن قيس على مساعدته في تنفيذ ذلك الغدر . فلمّا كانا عند الرسول (ص) راح عامر الخبيث يفتعل المراوغة حتى يُقدِم أربد على تنفيذ ما اتفق عليه ، إلاّ أنه لم يجرؤ . وقد خرجا بعد ذلك ، يشتم احدهما الآخر ، فتوفي عامر بمرض الطاعون في بيت امرأة من بني سلول ، بينما خرج أربد بعد مدة لبيع جمل له ، فنزلت عليهما صاعقة وأحرقتهما .

أما نحن فنستبعد قدوم عامر بن الطفيل في هذا الوقت ، وبياته النية على الغدر برسول الله (ص) لأسباب ثلاثة :

١ ـ إن عامر بن الطفيل هو الذي قتل على بئر معونة ، سبعين رجلاً من خيرة قراء المسلمين ، جاؤوا بأمر من رسول الله (ص) ليهدوا بني عامر إلى الإسلام ، فليس من المعقول أن يترك الرسول (ص) عامراً هذا ، من السنة الرابعة للهجرة حتى السنه التاسعة ، ولا يقتصّ منه ، على جريمته النكراء تلك ، لأنه (ص) عوّدنا أن يتعقّب كل من اذى المسلمين ، ومنعهم عن متابعة دعوتهم ، فكيف اذا كان قاتلاً كافراً على تلك الصورة من القتل العمد ، وبلا ذنب ارتكبه أولئك المسلمون القرّاء .

٢ ـ إن رسول الله (ص) قد أهدر عند فتح مكة دم أي مشرك قام بعمل إجرامي كبير ، سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي ، فهل بعد أكثر إجراماً من ذاك القتل

وكان وقع المصيبة بشهداء الصحابة كبيراً على المسلمين ، كمثل وقعها على رسول الله ﴿ﷺ﴾ .. فقد آذتهم تلك المصيبة حقاً ، وجعلتهم يعيشون في دوامة من القلق والقهر والحزن ... إذ باتوا محاطين بالأعداء من كل ناحية ، ومهدَّدين بالأخطار من كل جانب ، ما إن يدفعوا أحدها حتى تداهمهم أخطار كثيرة ..

ويزيد في قلقهم ذاك ، ما راح المنافقون يفتعلونه في المدينة من مشكلات ، وما أجمعوا عليه من استعداد ، حتى صاروا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويستعدون للانقضاص عليهم لتشتيت شملهم ، والقضاء عليهم ، بصورة نهائية ..

... ويتفكّر رسول الله ﴿ﷺ﴾ بما يعدُّه المنافقون واليهود في المدينة من مخططات ، وبما يحيكون من مؤامرات ، فيرى أن أمرهم لم يعد مطاقاً ، وأنه إن أفسح لهم في المجال ، فسوف يلجأون إلى استنصار الأعداء من الخارج ، ثم تهب حربٌ أهلية في المدينة تلتهم كل شيء ، وتقضي على الجميع .. لذلك قرَّر معالجة الشأن الداخلي ، ليكون بعدها قادراً على معالجة الشؤون الخارجية ...

= الذي قام به عامر بن الطفيل اللعين على بئر معونة ؟! .. ولم يبين أحدٌ من المؤرخين أن اسمه كان بين النفر الذي أهدر دمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم .

٣ ـ إن عامر بن الطفيل ، وإن كان قد تجرّأ على القيام بما قام به ، بعد أربعة أشهر من معركة أحد ، عندما بدا لضعاف العقول والنفوس ، أن المسلمين صاروا في حالة ضعف تمكّن من النيل منهم ، فإنه لا يمكن التصور إطلاقاً أن يجرؤ عامر بن الطفيل أن يقدم إلى المدينة في السنة التاسعة هجرية ، والنبي (ص) والمسلمون جميعاً يعرفون خبرهُ . والأغرب من ذلك أن يكون قد أتى وهو ينوي الغدر برسول الله (ص) في وقت كانت دولة الإسلام في أوج مجدها وأقصى حالات عزّها ، وهي التي خافها الروم ، بما لهم من دولة عظمى في ذلك العصر . لهذه الأسباب ، وغيرها نستبعد بقاء عامر بن الطفيل على قيد الحياة الى السنة التاسعة للهجرة ، ومجيئه مع وفد بني عامر ، في مقصد غدر برئيس دولة الإسلام ، رسول الله ، محمد بن عبد الله (ص) .

غـزوة بني النّضـير

وضع رسول الله «ﷺ» خطة تحرُّكه لمعالجة الوضع الداخلي ، فاستدعى إليه نفرا من الصحابة ، وخرج بهم إلى بني النضير ، أقوى جماعة من اليهود ، يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر ، اللّذين ذهبا ضحية جهل عمرو بن أمية الضمري لجواره لهما ، ما دام أنَّ بين بني النضير وبني عامر ، عقوداً واحلافاً قائمة ، وما دام أن ذلك يدخل في إنفاذ الاتفاق الذي تمَّ العهد عليه معهم ، وفيه يتعاونان في اداء الديات . .

وتلقى بنو النضير رسول الله «ﷺ» وصحبه متأهلين ، يُبدون كل الاستعداد لتلبيةمطلبه في الدية . . وبعد أن أكرموا وفادته متظاهرين بكل ضروب الوفاء والتقدير ، استأذنوه كي يجمعوا المال ويأتوه به ، ثم قاموا يخلُّونه وصحبه إلى جانب جدار من دارة أحدهم . . ودخل بنو يهود تلك الدار وهم يتشاورون في أمرهم ، فغلب عليهم طبع الخيانة والغدر وتآمروا على أن يعتلي أحدهم سطح الدارة التي يجلس قربها رسول الله «ﷺ» ثم يدفع بصخرةٍ كبيرة عليه . . .

وأدرك رسول الله «ﷺ» أن وراء تريُّثهم سرّاً يخبئونه ، فنهض من مكانه ، وراح يتفقد تلك الناحية بنظره ، فتراءى له خبثُ

القوم ، وأتاه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر ، فأشار إلى أصحابه بالبقاء ، لا يبرحون أماكنهم حتى يذهب في أمرٍ يريده .. وكان بنو النضير قد أنهوا اتفاقهم على تنفيذ المكيدة ، فخرج بعضهم إلى محمد وصحبه ، يريدون الاطمئنان على بقائه في مكانه فلم يجدوه .. وفي هذا الحين كان الصحابة قد استبطأوا رجوع النبيِّ ﷺ إليهم ، فقاموا في طلبه ، وقد خلَّوا بني النضير في عماية من الأمر ، وراحوا يبحثون عنه في كل ناحية ، فلا يجدونه ، حتى رأوا رجلا مقبلاً من المدينة سألوه عنه ، فقال لهم : نعم رأيته يدخل المدينة ...

وأسرع الصحابة إلى رسول الله ﷺ وهم في حيرة من أمرهم ، ولكن حيرتهم تبدَّدت عندما أخبرهم رسول الله ﷺ بما عزم عليه بنو النضير من خطة لاغتياله ، والغدر به .. وحنق الصحابة على تلك الفئة الباغية ، فهبُّوا يريدون قتالهَا ، ولكنَّ رسول الله ﷺ أمرهم بالهدوء ثم دعا إليه محمد بن سلمة ، وقال له : « اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم : أن اخرجوا من بلادي . لقد نقضتم العهد الذي جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بي . لقد أجّلتكم عشرا ، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه » .

وتشاورَ بنو النضير فيما يفعلون ، وبقوا على ذلك بضعة أيام ، رأوا أثناءها أنه لا قبل لهم بقتال محمد وأصحابه ، فراحوا يستعدُّون للخروج لولا أن جاءهم خبر من عبد الله بن أبيّ يحرضهم فيه على البقاء ويقول : « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا في

حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم أو يموتون عن آخرهم قبل أن يصل أحدٌ إليكم ، وتمدّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان » . . .

وأثار خبر ابن أبيّ الجدال بين القوم ، بين مؤيد للبقاء ، وبين داع للخروج ، حتى وقف كبيرهم حييّ بن أخطب وقال : « كلاّ لن نخرج . . . وما علينا إلا أن نُرَمَّ حصوننا وندخل إليها ما شئنا وندرّب أزقتنا وننقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، ولن يحاصرنا محمد سنة كاملة » .

ثم بعث الى رسول الله ﴿ﷺ﴾ من يقول له : « إنّا لن نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك » .

وكان ذلك إيذاناً للمسلمين بالهجوم ، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « حاربت يهود » . . . وأذن المؤذن ، بالاستعداد للقتال ، فما جاء وقتُ العصر إلاّ والنبي ﴿ﷺ﴾ يصليّ بالمسلمين بفضاء بني النضير ، بعدما سار إليهم ، وقد دفع رايته إلى علي بن أبي طالب (ع) واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم . . .

واعتلى بنو النضير فوق حصونهم يرشقون المسلمين بالنبال ، ويقذفونهم بالحجارة ، والمسلمون لا ينفكون يمطرونهم بالنبال والحراب ، ويدعونهم للخروج إلى القتال . . .

وطالَ الأمرُ عدة أيام ، وبنو النضير ينتظرون قدوم الامدادات التي وعدهم بها ابن أبيّ ، ولكنَّ أحداً لم يتقدّم لنجدتهم ، لا من بني يهود ولا من العرب ، فأيقنوا أن الخذلان قد حلّ بهم ، ولكنهم

آثروا الانتظار أياماً أخرى ، علَّ تلك الامدادات تصلهم . . .

وأنزل الله سبحانه بعبد الله بن أبيّ وحلفائه اليهود قرآناً :
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ، يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ . وَإِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ ﴾ .

وفي هذه الأثناء كان المسلمون يضيِّقون الحصار على بني النضير شيئاً فشيئاً . ويتقدمون نحو حصونهم وهم يقطعون نخيلهم ، حتى يوهنوا قوى العدوِّ ، ويدبوا الرعب في قلبه ، وبإزالة النخيل الذي يعترض تقدمهم يصبح العدو مكشوفاً لهم ، لأن النخيل يسدل ستاراً على حصونهم ، ويكوِّن حجاباً يمنع المسلمين من رؤيتهم بوضوح ، فلما رأى بنو النضير ذلك ، وعرفوا أنه لن تكون لهم نجدة من أحد ، وكان اليأس قد ملأ قلوبهم رعباً ، سألوا رسول الله (ﷺ) أن يؤمِّنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ، فقبل بذلك على أن يخلوا السلاح ولا يأخذوا منه شيئاً ، فامتثلوا لأمره صاغرين ، وارتحلوا عن المدينة منخذلين،فنزل قسمٌ منهم في خيبر وعلى رأسهم حُييّ بن أخطب، بينما سار الآخرون إلى أذرعات بالشام، تاركين وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من الغلال والسلاح والأرض التي كانوا يملكون وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ

يُخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانعتُهُم حُصُونُهُم مِنَ الله ، فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخربون بُيُوتَهُمْ بِأَيدِيهِمْ وَأَيدِي المؤمِنين فَاعتَبِرُوا يا أُولِي الأَبْصَار . ولوْلا أن كَتَبَ الله عليهمُ الجَلاءَ لَعَذَّبهم فِي الدُّنيا ، وَلَهُمْ فِي الآخِرةِ عذابُ النار . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُوله وَمَنْ يُشاقِّ الله فإنَّ الله شديد العِقاب . ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قائمةً على أُصُولِهَا فَبإِذْن الله، وليخزي الْفَاسِقِينَ ﴾

ولم تُعتبر تلك الأرض أسلاب حرب ، ولذلك لم تقسّم بين المسلمين ، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء .

وهل يمكن أن يضعها رسول الله «ﷺ» إلاّ حيث يجب أن تكون ! . . . فهؤلاء المهاجرون بلا أرض ولا منازل ، وقد احتملهم إخوانهم الأنصار سنوات طويلة لا يفرّقون بينهم وبين أنفسهم في شيء ، وها قد أفاض الله بنعمائه على المسلمين جميعاً ، فلِمَ لا تكون تلك الأرض للمهاجرين ، فيصبحون بغنى عن الأنصار ، ويصبح الجميع متساوين في الثروة ؟! . . .

ووقف رسول الله «ﷺ» خطيباً في المسلمين ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وعاد فذكَّر بما قدمه الأنصار لإخوانهم المهاجرين ، وما صنعوا لأجلهم ، وكيف آثروهم على أنفسهم ، وقال عليه وعلى آلة الصلاة والسلام : « إن احببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » . .

ووقف سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، نائبين عن الأنصار ، فقالا لرسول الله :

اقسمه يا رسول الله بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا . .

ونادت الأنصارُ من خلفهما : رضينا وسلَّمنا يا رسول الله . .

فقال الرسول الكريم : اللّهم ارحم الأنصار وآبناءَ الأنصار » . . .

وهكذا كان . فقد قَسّمَ رسول الله «ﷺ» الارض على المهاجرين وحدهم إلاَّ رجلين من الأنصار بديا حاجة وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة فأعطاهما رسول الله «ﷺ» مثلما أعطى للمهاجرين من حصص . .

وفي هذا الفيء والفضل السماوي ، أنزل الله تعالى في سورة الحشر قوله : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُوْلَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وانقضى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، بعد أن شهد جلاء بني النضير عن المدينة ، حين خانوا المواثيق ، وتآمروا على اشدّ فِعلةٍ وأقبحها شراً ، فصفت بجلائهم أجواء الداخل ،

واستقامت الأمور ، مما أراح المسلمين كثيراً ، وجعل رسول الله «ﷺ» يتفكّر في تدبر أمر السياسة الخارجية ، كما تمَّ تدبيره للسياسة الداخلية .

وعاشَ المسلمون بعد ذلك فترة سكينة وهدوء بضعة شهور ، حتى إذا استدار العام على أحد ، كان قد حلَّ الموعد الذي ضربه أبو سفيان بن حرب يوم نادى بالمسلمين في تلك الواقعة : « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » .. فجمع الرسول «ﷺ» أصحابهُ ، وذكرهم بتهديد قريش ، فأجمع الصحابة على الخروج وأذّن المؤذن بالاستعداد للحرب ، وما هي إلاَّ أيام قليلة حتى كان جيشُّ المسلمين بأحسن التجهيز ، وأتم التأهب . فجعل الرسول «ﷺ» على المدينة عبد الله ابن عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وخرج بالمسلمين يُغذّون السير حتى بلغوا بدراً فنزلوا فيها ينتظرون قريشاً .

وكانت قريش من جانبها قد خرجت من مكة بقيادة أبي سفيان ، في اكثر من ألفَي رجل ، ولكن بعد مسيرة يومين من ذلك الخروج ، رأى أبو سفيان أنْ لا قبل لهم بمقابلة الجيش الاسلامي ، بعدما تناهت إليه أخباره واستعداداته ، وتشوقُه لمقاتلتهم ، فنادى في الناس بالرجوع ..

وانتظر المسلمون قدوم قريش ، فلم تصل ؛ وعلموا من المسافرين أنها أجمعت على العودة ، فلم يتركوا معسكرهم ، بل ظلوا قائمين فيه لثمانية أيام ، راحوا خلالها يتجرون ويربحون ، حتى لا يذهب الوقت سدىً ..

وممـا لا شك فيه أن رجـوع قريش ، وخوفهـا من مقابلـة المسلمين ، كان هزيمة تفوق هزيمـة بدر الأولى ، وقـد محـت هذه الهزيمة كل أثر لأحـد ، وبـات المسلمـون هم الأقـوياء وأصحـاب النصر ، مما جعلهم يستعيدون هيبتهم ، ويستردون مكانتهم .

وعرفت قبائل العرب بانهزام قريش ، فلاذت إلى السكينة لا تجرؤ على التظاهر بأي مظهر من مظاهر القوة، ولا تتطاول بأي حال من الحـالات على المسلمـين ، إلاَّ من زينـت لهـم نفوسهـم القـوة والقدرة ، واستبدَّ بهم الظن أنهم ما زالوا قادرين على حرب محمد ، امثال بني محارِب وبني ثعلبة من غطفان في نجد إذ راحوا يُعدُّون العدة لمقاتلة المسلمين . .

ووصلت أخبارٌ هذه الجماعات إلى رسول الله «ﷺ» فخـرج لهم في اربعمائة من رجاله حتى نزل « ذات الرقاع » . وإذ رأوه على تلك الحالـة في عدة حربـه ، وأيقنـوا أن الموت مداهمهـم ، لاذوا بالفرار متفرقين تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم فأخذهم المسلمون غنيمة سائغة ، وعادوا إلى المدينة ، مؤيَّدين بنصر الله تعالى وفضله .

ثم خرج الرسول «ﷺ» بعد ذلك إلى غزوةٍ في دومة الجندل على الحدود الواقعة بين الحجاز والشام ليؤدب القبائل التي كانت تغير على القوافل ، ولكنه لم يظفر بها ، لأنها ما لبثت حين سمعت بقدومه أن أخذها الفزع وولت هاربـة وتـركت اموالهـا ، فأخذهـا المسلمون غنائم لهم بأيسر حال . .

وهكذا استقامت الأمور لرسول الله «ﷺ» ، إذ استطاع أن

يقضي على المقاومة الخارجية ، فهدأت ثورات القبائل ، واختفت مقاومتها ، ولم يَعُدْ في المدينة عدو يتخفّى وراء المكايد والأحابيل ، بل أدرك الكلُّ بأنّ سلطان الإسلام قد قام حقّاً ، ولم يعد من سبيل للوقوف في وجهه .

وبذلك أُتيح لرسول الله «ﷺ» أن يعيد هيبة الدولة الإسلامية إلى نفوس المنافقين في الداخل ، والأعداء في الخارج ، وأن يعود إلى متابعة التنظيم الذي أراده ثابتاً على العصور . .

لقد انصبَّ اهتمام رسول الله «ﷺ» في تلك الفترة من الهدوء ، حيث لا حروب ولا معارك ، على تقوية البناء المجتمعي حتى يأتي متوافقاً مع البناء الإيماني ، وهما اللذان يريدهما الإسلام صحيحين ، سليمين ، من أجل البشرية جمعاء . .

ولم يكن صلىّ الله عليه وآله وسلّم ، ورغم مواجهته لخضمّ الشؤون العامة ، ليفعل أيَّ شأنٍ عرف به من الشؤون الخاصة بالأفراد ، بل هو كما عرفه أصحابهُ صاحب قلب كبير ، وصدر رحب ، يتسع لهموم سائر الناس ومشاكلهم . .

فكانوا يأتونه فرادى وجماعات ، يُفضون إليه بما يعانون من مشكلات حياتية وعائلية ، فيجدون عنده النصح الرشيد ، ويستمدّون منه العلاج المفيد . .

وفيما كان الرسولُ «ﷺ» جالساً يوماً في بيته ، إذ طرق عليه الباب زيدُ بن حارثة ، ودخلَ والقلقُ باد عليه ، والهمُّ ظاهرٌ في عينيه ، فبادره الرسول «ﷺ» بالسؤال عماّ به من شحوب الوجه

والمعاناة ، فأخبره زيدُ بأن مشكلته مع زوجه زينب بنت جحش هي نفسها ، ولكنها استفحلت هذه المرّة إلى حدّ لم يعد يقدر معه على الاحتمال ، ومن أجل ذلك قرّر أن يطلّقها . . ولكنَّ الرسولَ الكريم أبى عليه ذلك من جديد ، ونهاه عنه بقوله : ﴿ أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ واتَّقِ الله ﴾ يا زيد . .

ويسكت زيدٌ ولا يجيب . . فهذا أمرُ رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعليه الإطاعة . .

ويذهب زيدٌ مغموماً ، حزيناً ، فيجلس وحيداً ، يسترجع ذكريات الماضي لسنواتٍ خلت . . فتتراءى له الصورُ وهي تتسارع ماثلة أمام عينيه ، عندما جاءَ رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ بعد هجرته إلى المدينة ، يخطب منه ابنة عمته زينب بنت جحش ، فيبتسم له رسول الله ﴿ﷺ﴾ ويَعِده خيراً . . .

ويعلم زيدٌ بعد ذلك أنَّ زينب رفضت الزواج منه في بادىء الأمر ، متذرعة بأصلها القرشي ، وبأنها ابنة عمة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ـ أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ـ وبأن زيداً كان فيما مضى مولىً لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فلا تكافؤ ولا تجانس في زواجهما ، فتقول للنبي ﴿ﷺ﴾ : يا رسول الله ، لا أرضاه لنفسي وأنا من قريش .

ولكنَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول لها : إني قد رضيتُ به . .

فتنزل زينبُ على أمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتقول له : إني قد رضيتُه امتثالاً لأمرك . . .

وينزلُ قولُ الله تعالى مؤيِّداً لحكم رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيما يقضي

به بين المسلمين : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً ﴾ . .

« ويتزوج زيدٌ من زينب ، ويقدِّم رسول الله «ﷺ» لهما هدية عرسهما : عشرة دنانير وستين درهماً ، ودرعاً وخمارا ، وملحفةً وإزاراً ، وخمسين مدّاً من الحبوب ، وعشرة أمداد من التمر . . ولم يكتفِ «ﷺ» بذلك ، بل أولم لأجلهما الولائم ، وأطعم المساكين خبزاً ولحماً . .

وتتراءى لزيد تلك الأيام الهنيئةُ التي عاشها في ظلال البيت الزوجي ، وقد حظي بزينب ، فيطفح وجهُهُ بالبشر ، ولكنّه لا يلبث في وحدته تلك أن يعاودهُ الأسى ، وهو يرى شريط حياته بعد ذلك ، حافلاً بالنكد والتعاسة ، إذ لم تمرّ فترةٌ طويلةٌ على زواجهما ، حتى راحت زينب تعيرهُ بالفارق الاجتماعي بينهما ، وتبيّن له بصراحة أنها لم تكن لترضى به زوجاً لولا أمرُ رسول الله «ﷺ» . . ويظلّ على هذا الدأب حتى لتكاد حياته تتحوّل إلى جحيم لا يطاق . . .

وينتظر زيد بضعة أيام بعد تلك الخلوة إلى نفسه ، ثم يذهب إلى رسول الله «ﷺ» مصراً على الطلاق ، لأنه أدعى لكليهما أن يتخذ كلُّ واحد سبيلاً يرتاح اليه . . .

ويتفكّر رسول الله «ﷺ» في أمر الزواج من أساسه فلا يجد في ما فَعَلَهُ إلاَّ خيراً . . أو لم تكن غايته منه تَمْتينَ قواعد المجتمع الإسلامي وتقوية أواصر الصلات بين أفراده ، حتى يقضيَ على

العادات والتقاليد السيئة التي كانت تقوم على الاعتزاز بالحسَب ، والتفاخر بالنسب ؟ أو ليس الإسلام مبدأ الإنسانية الذي لا يحفل بمثل هذه العادات والتقاليد بل يلفظها ليرسيَ بدلاً عنها قاعدة التفاخر والتكريم بالتقوى وحدها ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

أو ليس محمد هو رسول الله الذي يسنُّ للناسِ الأساسَ السويَّ ، النابعَ من القاعدة السماوية حين لا يجعل لعربي فضلاً على أعجمي إلا بالتقوى ؟!..

نعم لقد أراد الرسول العظيم أن يتخذ من زواج هذين الشخصين واقعا حياتيا يتمثل به ويحذو حذوَه في كلِّ الأزمان .. ولكنْ بالطريقة السليمة التي تنْبُذُ التمايز الطبقي ، وقد أيَّدهُ الله تعالى من علیائه بتصرفه الحكيم الذي جاء طبقا لما قدَّر وقضى ...

ولكنه الآن يرى زيداً تعيساً فيأسَى له ... ويأسى أيضاً لابنة عمته زينب التي لم تشعر بالسعادة التي أرادها لها ... فما العمل إذن وهو يحبُّ أن يعوِّض على هذين الشخصين ما فَرط من هنائهما العائلي ؟ لينتَظِرْ أمر السماء ... وأخذ صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله ينتظر ... وينتظر ... ولم يُفصح عن شيء ، ولا أبانَ أمراً يعتمل في نفسه ، مع أن أمراً هاماً كان يعتمل في نفسه ولم يصرِّح به لأحد من أقرب المقربين إليه ، لأنه ما كان ليسبق أمر ربه في كل أمر ، وفي كل حال .. وإنه وإن آذاه حالُ الزوجين ، يقلقه أن يحاول استباقَ بيان أيِّ حكم لله قبل ان يحين وقتُه ويأتي ظرفهُ الذي

قضاه الله عزَّ وجل . . .

فليصبر وليس أقدر منه «ﷺ» على الصبر ، ولا أرحب من صدره في سائر العالمين صدْر . .

أما الزَّوج الذي يعاني الآلام النفسية في حياته الزوجية ، فهو مولاه ، وهو المسلم المؤمن المطيع لله ولرسوله ، والراضي القانع التي تفعل كلمةُ رسول الله «ﷺ» في نفسه أكثر مما يفعل السيف ، ولذا فلا يضيره أن يصطبر امتثالا لأمر النبيّ «ﷺ» المفترض الطاعة عليه وعلى كل موحِّد مؤمنٍ بالله وبرسوله . . . فهو يمسك زوجه ويتغلّب أمرُ النبيِّ «ﷺ» على عواطفه ويرى السعادة كل السعادة في رضى الله تعالى ورضى نبيِّه . . .

وفي هذه الفترة من الانتظار الذي كان صعبا على الزوجين بمعنى ، وغير صعب بمعنى آخر ، وثقيلا على نفس الرسول «ﷺ» وغير ثقيل إذ هي فترة سيُلقي الله تعالى فيها على رسوله قولا ثقيلا ، وحكماً جليلاً كان سبحانه قد قدَّره في جملة أحكامه الشريفة لبني البشر . .

وفي هذه الفترة نزل قولُه تعالى لنبيِّه «ﷺ» : ﴿ وإذْ تقولُ للَّذي أنْعَمَ اللهُ علَيْهِ وأنْعمْتَ علَيْه أمْسكْ علَيْك زوْجك واتّق الله ، وتُخْفي في نفْسِك مَا اللهُ مُبْديه وتخْشى الناس ، والله أحقُّ أنْ تَخْشَاهُ . . ﴾ .

لقد نزل القول الكريم يُؤنسُ نفس النبي العظيم ، فلا يخشى بعده شيئاً مما يتقوَّله الناسُ إن هو رخَّص لزيد بطلاق زوجه . . . بل

الله سبحانه وتعالى أحق أن يخشاه . . وهو يأمره بأن يُفسح المجال لهذا الطلاق الذي سيكون تمهيدا لبيان الحكم السماوي الذي عرفه النبي «ﷺ» وكتمه في نفسه خشية مما يتقوّله المتقولون . . .

نعم وقع قول الله تعالى موقع الفصل الذي ليس بعده تعقيب وليس بعده حكم : وانفصل الزوجان وعادتْ زينب إلى رتابة العيش في بيت أخيها عبد الله بن جحش . . . ومع الأيام راحت تشعر بالقلق والضيق ، لأنها تعلم أن الأسياد يتقاعسون عن خطبة يدها رغم جمالها الفائق لأنها كانت زوجة لمولى وربيب أخذه النبي «ﷺ» بالتبني وهم يأنفون الزواج من مطلقة المولى . . ولذا لم يتقدّم احدٌ للزواج منها رغم شهرتها بين لداتها بالحسن والشرف والرقة . . . إنها تحسّ حقا بالمرارة ، ولكنها ما درتْ ـ ومن أين لها أن تدرى ـ أنَّ منْع الأسياد عنها كان لحكمة وتقدير من الله سبحانه وتعالى لأنه قدّر في سابق علمه إعدادها لأن تكون نموذجا لحكم عظيم من أحكام الاسلام ، وأن تكون زوجة لأعظم رجل في الإنسانية ! . . .

وجاء اليومُ الموعود لتظهر الحكمةُ المقدَّرة . . . فقد كان رسولُ الله «ﷺ» في بيته ، فجاءته غشية ثم سرّي عنه فاستيقظ مرتاح النفس ، وقال : « من يذهب إلى زينب ويبشرها أن الله تعالى قد زوّجنيها من السماء ؟ . .

ثم يتلو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرا ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ، مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا

فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وكان أَمْرُ اللهِ قَدراً مَقْدُوراً ﴾ . .

فسبحان الله قرّر بهذا التنزيل قواعد التشريع لتسفيه كثير من التقاليد التي كان يعاني منها المجتمع الجاهلي إذ ظهر أمر الله تعالى ، وهو يأمر النبيَّ ﴿ﷺ﴾ بالزواج من زينب ، حتى يكون في هذا الزواج القضاء على جملة من التقاليد الموروثة التي كانت تسبب مشاكل اجتماعية وخلقية ، فجاءَ حكم الله يمحو من أذهان المسلمين ما يلي :

آ : فكرة التبنيِّ التي كانوا يعطونها غير معناها الذي أراده الله تعالى . فالابنُ بالتبنِّي ليس ابنا بالحقيقة ، ولكنه ربيبٌ لا أكثر ولا أقل . فهو ليس من محارم العائلة التي تتبنّاه ، ولا ترثه ولا يرثها ، ولا يربطها به أكثر من الإحسان اليه في الصغر قُربة لوجه الله تعالى ، وسوى معرفة هذا الجميل من قبَله في الكبر .

ب ـ التقليد السائد بين الجاهليين من أنَّ الربيب بالتبنيِّ لا يُمكن ان تتزوجه ابنةُ سيد شريف في القوم ، وإذا حصل وشذَّت سيدة شريفة على هذا المبدأ ، فإنها تكون مرمى لسخرية الناس وانتقاداتهم اللاذعة . أما إذا طلَّقها أو مات عنها ، فإنهم كانوا يأنفون خطبتها ويعدُّون ذلك حطَّة بقدرهم وتحقيرا لشأنهم . فكيف إذا خطبها من كان سيده ووليّه . .

ج ـ العرف العام بأن أكبر العار يلحق بالسيد في قومه إذا زوج ابنته لمولى فقير لا يملكِ من الدنيا شروى نقير . . . وأنه إذا رضيت

السيدة في أسرتها ان تنزل إلى مستوى قبول الزواج بربيب مسكين ثم فارقته بسبب طبيعي ، فهل يُعقل أن تغود فتصعد إلى سُدَّة السيادة ويخطبها أجلاّء قومها ؟ أجل لقد جاء هذا الحكم ليلغيَ فوارق كثيرة ، وليقيم أحكاماً كثيرة ، وليؤثل عقيدة متينة يكون النبي «ﷺ» هو المثل المحتذى فيها لسائر العالمين ، لأنه رسول الله لسائر الخلق أجمعين .

فهو إذاً زواج من زيد = المولى = أمرت به السماء قضاءً على فكرة التبني ، وعلى التحرّج من التزوج بمطلقة المتبنى قاعدة التكافؤ الاجتماعي في الزواج وفي غيره مما تناوله موضوع هذه الحادثة الفذّة التي طبّقها نبيُّنا العظيم بنفسه ، وعلى مولاه = ابنه بالتبني = وعلى سيدة شريفة من كرائم أسرته الشريفة . ومثل هذه الامور التي هي على غايةَ كبيرة من الأهمية ، يقتضي ان يكون لها شخص قادر على تطبيقها وتأكيدها ، وليس أكفأ ولا اقدر من رسول الله «ﷺ» على القيام بهذا التطبيق . . فهو قبل الإسلام كان تبنّى زيد بن حارثة ، وكان من عادة العرب أ نَّ من يتبنّى غلاماً فإنه يصبح كابنه المولود من صلبه ، فلا يعود له الحق أن يتزوج امرأته من بعده . وقد شاءالله تعالى إبطال هذه العادة ، فنزل قوله سبحانه :

﴿ وما جعل أدْعياءكُمْ أبناءكم ذلكُمْ قوْلكم بِأفواهِكُمْ والله يقُولُ الحقّ وهُو يَهْدي السّبيل أدْعُوهُمْ لآبائهمْ هُو أقْسطُ عنْد الله ﴾ .

وجاءَ من يخبر زينب بتزويج رسول الله «ﷺ» بها من السماء . فسجدت شاكرة لله ، وجعلت عليها لله نذرا أن تصُوم شهرين عرفاناً بهذا الفضل وهذه المنة .

ونقلها رسولُ الله «ﷺ» في صفر من السنة الخامسة للهجرة . ودعا إلى وليمة عنده احتفاء بهذه المناسبة الكريمة ، فجاء الصحابة ملبين ، وبأفراح رسول الله مُستبْشرين . . . وجلسوا إلى المائدة وطال جلوسهم لأنهم أخذت منهم جلسة الأنس مأخذها . . . ولكنّ اللهَ العليَّ القدير رفض أن يكُون الاجتماع في بيت النبي «ﷺ» كسائر الاجتماعات في مختلف البيوت ، لأنه بيت له شرف النبوّة وشرف رسالة السماء .

ولذا نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الّذين امنّوا لا تدْخلُوا بُيوت النبيّ إلاّ أنْ يُؤذن لكُمْ إلى طعَام غيرْ ناظرين إناّه ، ولَكِنْ إذا دُعيتمْ فادْخُلُوا ، فإذا طَعِمْتُمْ فأنتشرُوا ولا مُستأنسينَ لحديث إنّ ذلكمْ كان يُؤذي النبيّ فيسْتحي منْكُمْ واللهُ لا يسْتحي منَ الحْقّ وإذا سألتمُوهُنّ متاعا فأسألُوهُنَّ مِنْ وراء حجاب ﴾ . .

أجل نزل الحكم الذي ينظم سلوك الآخرين تجاه بيت النبوّة ومنزل الوحي ومهبط الملائكة الذي له قدسيته وشرفُه فليس لأحد أن يدخل بغير إذن وليس له أن يجيل طرفه ها هنا وها هنا في أركان البيت ، كما أنه ليس للنّبي «ﷺ» أن يقضي وقتا طويلا في أمور لا

تقتضي منه إطالة ، فالشؤون العامة كثيرة وهي بحاجة إليه ، ولكنه يستحي من جُلسائهِ لما حباه الله تعالى من حسن الخُلق وأدب المعاشرة ، بيد أن الله سبحانه لا يستحي من الحق ، فنزل أمره بان ينفضوا حتى يفسحوا لرسول الله «ﷺ» بالتفكّر والاهتمام بالشؤون الكبيرة !...

إنها حوادثُ لو أخذناها بالمنظار البشري لوجدناها عادية تحفل بها حياة الناس كلَّ يوم !..

ولكنّها في ميزان السماء على خلاف ذلك فهذه عناية الله سبحانه وتعالى ، ترافق النبي في كل بادرة من بوادر حياتهم ، وفي كل شأن من شؤونهم . فَزيدٌ يُسميه الله تعالى باسمه في تنزيله العزيز ... والصحابة يأمرهم بأن لا يسترسلوا في الاستئناس في حضرة رسول الله «ﷺ» ... ونساءُ النبي «ﷺ» يجب أن يكون لهنَّ شأنٌ خاصٌ ، يتميزن به عن سائر شؤون خلق الله حتى يكُنَّ جديراتٍ بالرسول وبعظيم مكانته عند خالقه... وفي ذلك كله عناية خاصة بمحمد من ربه ، وفضلٌ يُسبغُه عليه وحده إظهارا لمحبّته العظيمة له.. وإكمالا لعطاياه السنية . ثم تعيشُ زينب ، بعد مرارة الأيام ، في كنف رسول الله «ﷺ» هانئة ، سعيدة ، ويزيدُ في هنائها وسعادتها شعورُها بأنَّ الله سبحانه قد زوجها به من السماء ، وقد تُردِّد على مسامعه «ﷺ» أحياناً : « يا رسول الله . اني والله ما أنا كأحدٍ من نسائك ، ليستِ المرأة من نسائك الا زوَّجها أبوها أو أخوها أما أنا فقد زُوِّجْتُك من السماء » .

وكانتْ أيضاً تردّد هذا القول على مسامع زوجات النبيِّ

ﷺ : « زوجكنَّ أهلكنَّ وزوّجني الله من فوق سبع سماوات » .

ولئن كان يبدو في أحاديث زينب بعضٌ المفاخرةعلى نساء النبيِّ ﷺ ، إلاّ أنها كانت تحْترم منزلته وتقدّر شخصيّته وهي تقرن حقيقةَ الزوجية بحقيقةِ النبوة . . .



غـزوة بني المُصْطلق

وحلَّ شهـر شعبان من السنة الخامسة للهجرة . .

وبَلغَ رسولَ الله «ﷺ» أن بني المصطلـق ، وهـم فرعٌ من خزاعة ، يأتمرون عليه ، وأن زعيمَهم الحارث بن أبي ضرار قد جمع بعض الجموع لحربه ، وهو يتأهّب لإعلان القتال ، ويوشـك أن يسير للمبادأة به . . فنادى مؤذن الرسـول «ﷺ» بالاستعداد للخروج . . . فسرعان ما احتشد جيش الهدى حول راية الهدى .

سرعان ما سارَ الجيشُ الإسلامي بقيادة النبيِّ «ﷺ» ، ومعه زوجه عائشة (رضي الله عنها) التي وقعت القرعة عليها لمرافقته في هذه الغزوة ، اذ كان صلىّ الله عليه وآله وسلم يحب أن ترافقه إحدى زوجاته في الغـزوات لتقـوم على شؤونـه الخاصـة . . . وكان بين الصفوف عددٌ كبير من المنافقين ، الذين لم يخرجوا يوماً معه لقتال ، ولكنَّهم بعدما آنسوا منه القوة ، أغراهُم الطمعُ بالغنائم ، فخرجوا هذه المرة . . .

ونـزلَ المسلمـون على ماء قريبٍ من بني المصطلـق يقـال له « المريسيع » بناحية قُـدَيد . . . ولم يلبثـوا بعـد راحـة قصيرة أن عاجلوا القوم بالاحاطة بهم ومحاصرتهـم دون قتـالٍ ، إذ شاءَ النبيُّ «ﷺ» ان يوثّق لهم عهداً بالأمان ، ويرغّبهم في الاسلام ، فأمر عمر

ابن الخطاب (رضي الله عنه) أن ينادي في أولئك القوم ، أن قولوا : « لا إله إلاّ الله ، تَمنعوا أنفسكم وأموالكم » . . . ولكنَّ هذه الجماعة من المشركين استخفّت بالنداء ، وحسبته تقاعساً عن القتال ، فامتشقت السهام تنبلُ بها المسلمين ولكنها لم يقدّر لها أن تصيب أحدهم بأذى . . .

عندها أمرَ الرسول العظيمُ أن يشدّوا عليهم ، فحملوا عليهم حملةَ رجلٍ واحد ، وتفرّقت الجماعات التي جاءت تناصر بني المصطلق ، وولّت الأدبار هاربة ، ووقع هؤلاء القوم بشرّ كيدهم ، اذ لم تمض ساعةٌ من وقت ، حتى قتل منهم عشرة رجال ، وألقى الآخرون السلاح مستسلمين تحت وطأة ذلك الضغط القويّ الذي داهمهم . . . فأخذهم المسلمون أسارى وهم حوالي أهل مائتي بيت من الرجال والنساء والذراري ، وغنموا أموالهم ، وقد بلغت ألفي بعير وخمسة الاف شاة . . . وكانت بين الأسرى ابنة زعيمهم الحارث ابن ابي ضرار ، واسمها جويرية التي وقعت في نصيب أحد الأنصار وقت القسمة . .

لقد ظفر المسلمون بهؤلاء الأعداء ، وأوقعوا بهم الهزيمة كاملة ، فأخلدوا الى الهدوء على ذلك الماء ينشدون الراحة . . . ولكنْ من أين تأتي الراحة ، والمنافقون قد اندسّوا بين صفوفهم ، وهم لا يطيب لهم أن يُسرّ المسلمون ويهنأوا ، ويأبوا الاَّ أن يعكروا صفو السرور ، ويُذهبوا نشوة النصر ؟! . . . وها هُم يجدون الفرصة سانحة لتحقيق غرضهم الخبيث ، فيستغلّون حادثة فردية بسيطة ، ليجعلوا منها أمرا عظيما يكاد يُطيح بوحدة المسلمين ، ويقضي على

تآلفهم وتماسكهم . . .

ذلك أنه حَصلَ ، بعد انتهاء الموقعة ، تنافرٌ بين أجير لعمر بن الخطاب ، يقال له جهجاه من بني غفار ، وبين سنان الجهني حليف الأنصار ، وهما يتزاحمان على الماء ، حتى وَصل بهما الحال الى التضارب والتصايح . . .

فصرخ سنانٌ : يا معشر الأنصار ! . . .

وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! .

ولم يأبهِ المسلمون لهذه الدعوة الجاهلية ، ورأوْا فيها ما يدعو الى التفكهة أكثر مما يثير الاهتمام ، إلاَّ أن رجلاً من المهاجرين ، من ذوي البساطة والسذاجة ، يُقالُ له جعالٌ ، أبت عليه نفسُه إلاّ أن يندسّ بين الرجلين . . ورآه عبد الله بن أبيّ ، فاغتنمها فرصة سانحة وتقدم منه يستثيره ويقول له : أما إنك لهتّاك ! . .

فيقول جعالٌ : وما يمنعني أن أفعل ذلك ؟ . . . ثم أكثر في القول على ابن أبيّ الذي كان يستحثه بخبث ودهاء ، حتى بدا أنه لم يعد يحتمل جعالاً فثار في وجهه غاضباً مؤنباً شاتماً . . . ورأى بعضُ الرجال أنَّ الأمر قد تجاوز الحدود ، فأقبلوا يريدون أن يأخذوا ابن أبيّ جانبا ، فوجدها الخبيث فرصةً جديدة ليثير الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، وكان له ما أراد فتجمّع فريق من هؤلاء ، وفريقٌ من أولئك وعلا الصراخ ، واشتدَّ الصياحُ ، حتى ملأ أجواء المعسكر ، وبلغ ذلك سمْعَ رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ فهبَّ مقبلاً على الجمع يصرخ فيهم : « ما بالُ دعوى الجاهلية » ؟! . . .

فسكن القوم لمجيء رسول الله ﴿ﷺ﴾ وراحوا يخبرونه بحقيقة الأمر ، فما كان منه إلاَّ أن قال « دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة » .

وهدأت ثائرة القوم ، وتعانق الإخوة ، وعادت الأمور الى مجاريها الطبيعية . . .

ولكن هل هذا كل ما كان يريده ابن أبيّ ؟

ألم تكن نفسه الشريرة تحدثه بإثارة الفتنة التي تذهب بوحدة صفوف المسلمين وأُلفتهم ؟

وهل يخبو لهيب حقده قبل أن يجد وسيلة الانتقام لحكمه الذاوي ؟

إنه ما زال يعتدُّ ويفاخر بأنه السيد في قومه ، لا ترد له كلمة ، وها هو اليوم يبدو أمام الناس مهدور الكرامة ، وقد تطاول عليه ذلك الساذج من المهاجرين ، المدعو جعال ، وجعله رغم أنه سكت أضحوكةً بين القوم ؟! . . .

إذن فلن يهدأ ولن يستكين ، وإن استطاع محمد ﴿ﷺ﴾ أن يسوّي الأمور في كل مرة . . .

وراح ذلك اللعينُ يجمع أصحابه ويقول لهم : « والله ما رأيت كاليوم مذلّة ! فقد نافرونا وكاثرونا في بلدنا وأنكروا منّتنا (وهو يقصد المهاجرين) ؛ والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش هذه الأَ كما قال القائل : « سمِّن كلبك يأكلك » ؛ لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ » !!!

ولم يقف عند هذا التأليب وإثارة الفرقة ، بل راحَ يلوم قومه ويعنّفهم ويقول لهم :

« هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم ، وأنزلتموهم منازلكم ، وواسيتموهم في أموالكم حتى استغنوا . . . أما والله لو أمسكتم عن جعالٍ وأمثاله فضْل طعامكم لتحوَّلوا الى غير بلادكم ، ولحقوا بعشائرهم ومواليهم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم معهم من حسنى ، حتى جعلتم انفسكم أغراضاً للمنايا ، فقتلتم دونهم ، فأيتمتُمْ أولادكم وقَللْتم وكثروا . . فلا تنفقوا على من حول رسول الله حتى ينفضُّوا جميعاً عنه ويدوروا في أقطار الأرض يفتشون عن أرزاقهم بعد أن تدركهم الحاجة . .

وكان فيمن حضر مجلسه ، فتى في مقتبل العمر ، هو زيد بن أرقم ، فلم تطاوعه نفسه أن يسكت على فتنة الرجل ، فقال لابن أبيّ : « أنت والله الذليل القليل ، المبغض في قومك ، ومحمدٌ صلىَّ الله عليه وآله وسلم في عزٍّ من الرحمنِ ومودة من المسلمين . . . والله لا أحبك بعد كلامك هذا » .

بهذه النفس الصافية ، جابه ذلك الفتى الأبيّ كبير المنافقين ، فلم يجرؤ كبير المنافقين على توجيه لوم له أو تأنيب ، بل قال له ، متحايلاً ، كاذباً : « اسكت يا غلام فإنما كنت أقول هذا من شدة غيظي ، وإنما أنا لا أقصده » . . .

ولكنَّ زيداً كان يعرف قصد الرجل على حقيقته ، فذهب الى رسول الله (ص) يخبره بأمره ، ويحدّثه بما سمع منه . . . .

وكان عند رسول الله «ﷺ» نفرٌ من المهاجرين والأنصار ، وقد أخذهم ما رأوا من تغيّر لون وجه رسول الله «ﷺ» فسكتوا إذ لا كلامَ لهم بوجوده . . .

وتفكّر الرسول «ﷺ» قليلاً ، وقال في نفسه : « لعلَّ الغلام لم يفقه كلام ابن ابيّ » . . . فأراد أن يتأكّد مما يسمع ، فقال لزيد : « يا غلام ! لعلّك غضبت عليه » . . .

قال زيدٌ : « لا والله لقد سمعت منه » .

قال رسول الله «ﷺ» : « لعله أخطأ سمعُك » !

قال الغلام : « لا يا نبيَّ الله » . . . .

قال الرسول «ﷺ» : « فلعلّه شُبِّه عليك » . . .

قال زيدٌ : « لا والله ، لقد رويت لك ما سمعته بأذنيّ منه يا رسول الله » . .

وقامَ ذلك النفرُ من عند رسول الله «ﷺ» ، يلقون إخوانهم بوجوه مكفهرّة ، عابسة ، فيسألونهم عن الخبر ، فيعلمون ما قاله عبد الله بن أبيّ ، ثم يشيع ذلك في المعسكر كله ، حتى يصبح الشغل الشاغل لهم ، فكلٌّ منهم يتفكر في طريقة تريحُ المسلمين من ابن أبيّ ، ثم يأتي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ويُشير على رسول الله أن يأمر عبّاد بن بشر فيقتل الرجل ، ولكنّ رسول الله «ﷺ» يأنفُ ذلك الرأي ويقول له : « فكيف يا عمر ! اذا تحدث الناسُ أنّ محمداً يقتل أصحابه » ؟! . .

ويسكت الرسول «ﷺ» قليلاً ، ثم يقول لعمر : « أذّن بالرحيل » . .

ثم سمع الناسُ نداء الارتحال ، وهم في ساعة لم يكن رسول الله «ﷺ» يرتحل فيها أبداً ، فأيقنوا أن رسول الله «ﷺ» ، غضبان محزون . . فأتته جماعةٌ من الأنصار ، ومعهم عبد الله بن أبيّ ، فقال له الرسول العظيم :

« ما هذا الذي بلغني عنك يا عبد الله » ؟!

قال ابن أبيّ : « والذي أنزل عليك الكتاب بالحق ما قلت شيئا من ذلك قطُّ ، وإن زيداً لكاذب » . . .

فنعوذ بالله من هذا الرجل الشرير الذي يُقسم بالله كذباً ، ويدّعي في قسمه معرفة الحق !! فما تلك القباحة التي تعشش في نفسه ؟! . .

وخُدعت الجماعة من الأنصار بحلْف ابن أبيّ ، فقالوا لرسول الله :

« إنه شيخنا وكبيرنا ، ولا نصدق عليه كلام غلام من غلماننا ، عسى أن يكون هذا الغلام قد فهم خطأ » ! . . .

وسكتَ رسولُ الله «ﷺ» ولم يجب . . . فظنت تلك الجماعة أنه أعذر ابن أبيٍّ ، مما كان له أسوأ الأثر على زيد بن الأرقم ، إذ فشت الملامة من الأنصار عليه ، وهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه . . وكان الاستعداد للمسير قد انتهى ، فجاءَ أسيدُ بن حضير

الى رسول الله «ﷺ» فحيَّاه بتحية النبوة .

ثم قال له : « يا نبيَّ الله ، أراك وقد رحت في ساعة مبكرة ، ما كنت تروح في مثلها » ؟!

فقال له رسول الله «ﷺ» : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم » ؟

قال أسيد : « وأي صاحب يا رسول الله » ؟

قال : « عبد الله بن أُبيّ » . . .

وتجهّم وجه رسول الله «ﷺ» ، ثم التفت الى أسيد يقول له : « لقد زعم أنه إن رجع الى المدينة ليخرجنّ الاعزُّ منها الأذلّ » ! . .

فقال أسيدٌ : « فأنت رسول الله ! والله نخرجه منها إن شئت . . هو ـ والله ـ الذليلُ وأنت العزيزُ .

وأراد أسيدٌ أن يواسي رسول الله «ﷺ» ، فقال له : « هلاّ ترفَّقت به يا رسول الله ، وأنت أهل الرفق والرحمة . . . فوالله لقد جاءنا الله تعالى بك ، وانَّ قومه لينظِمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكا » .

وما كانت تلك المواساة ، أو خلافها من الأعذار ، يبديها الصحابةُ ، لتشفع لابن أبيّ ، فالرسول «ﷺ» يعرف مقدار نفاقه وكذبه ، ولكنّه يأبى أن يقتل الناس ، ولو كانوا مثل هذا الرجل ، يتظاهرون بالصحبة والمحبة . . . فسار بالناس يومهم ذاك حتى

أمسى ، فلم يأمر بالوقوف . . وتابعوا ليلتهم تلك حتى أصبح الصباح ، فظل متابعاً الى انقضاء صدر النهار ، وكان التعب والأرهاق قد أخذ منهم كلَّ مأخذ ، والشمس قد آذتهم بحرارتها اللاهبة ، آنئذ أمر بالنزول . . . ولم يكن من اولئك الناس الاّ أن مسّتْ أجسادهم الأرض حتى وقعوا نياماً . . . فظهرت حكمةُ رسول الله «ﷺ» من ذلك المسير المضني ، إذ أرادَ أن يُشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من ابن أبيّ ، فما وجدَ أفضلَ سبيل لذلك ، إلاّ جعلهم ينحنون على أنفسهم ، ويشغلون بأمر ما يصيبهم من تعب . وهكذا كان ، فما استفاق الناسُ من النوم إلاّ وكان كثيرٌ من اللغط والتشويش قد ذهب . . .

وأدرك بعضُ الصحابة الأخيار غاية رسول الله «ﷺ» مما يفعله ، ورأوا أن يعرضوا عليه أمراً لعلّه يوافقهم فيه الرأي ، فجاؤوه يطلبون أن يأذن لهم بقتل عبد الله بن أبيّ . . . ولكنّه نهاهم عن ذلك وقال لهم :

« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

وراحَ الأنصارُ الى ابن أبـيّ يروون له حرص رسول الله «ﷺ» على سلامته والترفق به ، وهم يأملون أن يرتدع عن غيّه ، فيذهب الى الرسول «ﷺ» نادماً ، معتذراً ، ويثوب الى رشده ، فيستغفر له الله سبحانه . ولكنه أنكر عليهم ذلك المطلب ، وراح يلوي رأسه مستكبراً وهو يقول :

« أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت ، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي

فقد أعطيت ، فما بقي إلاّ أن أسجد لمحمد » . . .

وكان الله سبحانه وتعالى يحصي على هذا الرجل حركاته ، فنزل قوله مبيّنا فسقه ونفاقه :

« واذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ، سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » .

أو بعد ذلك يا ابن أبيّ من ادعاء بالعزة ؟ . .

أو بعد تلك الآيات البينات تخفي نفاقك ؟! . .

لقد كذّبك الله تعالى من عليائه ، فعش في هذا التكذيب الرّباني مخذولاً . .

وأنت يا زيد بن الأرقم ، أيها الصادق الصدوق ، هل ما زلت تتباعد عن القوم ، وتتحاشى الاحتكاك بهم ؟! . .

لا ! يا غلام الأنصار ، وحقك ما قلت إلاّ الصدق ، وهذا رسول الله ﷺ الكريم يبعث أن يأتوك ، فهلمّ إليه يبارك جرأتك ، ونفحة إخلاصك . .

ويُقبل زيدٌ على رسول الله ﴿ﷺ﴾ وما زال الخَفرُ يعلو وجهه ، فيسأله وهو مطأطىء الرأس :

ـ أو تأمرني بشيء يا رسول الله ؟

ويبتسم له الرسولُ الكريم ، ويدنيه إلى جانبه ، فيؤذن بأُذُنه ، وهو يملأ نفسه بالعطف والحنان ، ويقول له :

« يا غلام ! صدق قولك ، ووعت أذناك ما وعى قلبك ، وقد أنزل الله فيما قلت قرآناً » .

وجذل زيدٌ ، فحمد الله على أن أبانَ صدقه ، وشكر لرسول الله ﴿ﷺ﴾ تحببهُ وحنانه له ، ثم بَعُدَ إلى وسط القوم ، يتلقّونه بالترحاب ، ويُسرُّون عنه ذلك الهمّ الذي حمله في طيات قلبه طوال الطريق . .

وجاءَ الى عبد الله بن أبيّ من يخبره قائلاً : « لقد نزل فيك آيٌ شدادٌ ، وتلاها رسول الله ﴿ﷺ﴾ على مسامع المسلمين » .

فقال مأخوذاً : وما هي تلك الآيات . .

فلما أسمعوه إيّاها شعر وكأن الأرض زلزلت به زلزالاً عظيماً ، وأوشك أن ينهار ويسقط عن راحلته ، ولكنَّ عنفه وقساوته جعلاه يتماسك ويتابع المسير . .

في هذه الأثناء ، وقد ظهر الحق من الباطل ، ظنَّ الناس أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قاتل ابن أبيّ لا محالة . . فجاءه ابنُه ، وكان اسمه عبد الله ، كاسم أبيه ، يقول له :

« يا رسول الله ! لقد بلغني أنك تريد قتل أبي . فإن كنت فاعلا ، فمرني به ، فأنا أحمل لك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجلٌ أبرَّ بوالديه مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ أن يمشي في الناس ، فأقتله . فأكون قد قتلت رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار » . .

وعاد رسولُ الله ﷺ يردد على مسامعه ، ما قاله لنفر من الصحابة قبله ، بأنه لا يرغب في قتله ، وإنما يترفق به ما بقي مع المسلمين . .

وتذكر عبدالله بن عبد الله بن أبي للرسول كرمَهُ ورأفته ، ثم انطلق إلى أبيه يَسدُّ عليه طريق الدخول الى المدينة ، فيصرخ فيه أبوه :

« مالك ! ويلك » !

قال الإبنُ : « والله لا تدخلها إلاَّ بإذن رسول الله ﷺ » .

وظَلَّ ذلك الابن الوفيُّ لرسالته ، المخلص لنبيّه ، معترضا طريق أبيه ، حتى جاءه خبرٌ رسول الله ﷺ : أنْ خلّ عنه يدخل . .

عندها نظَر عبدالله إلى أبيه وقال له :

« أما إذ جاء أمرٌ رسول الله ﷺ ، فنعم » . .

وهكذا رجع رسولُ الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ، وهو

على عجلة من أمره ، حتى لا يدعَ مجالاً للمنافقين لينفذوا منه إلى وحدة الصف الإسلامي ، فتقعُ المصيبة الدهماءُ التي قد تفوق بآثارها كل الحروب والغزوات . . ومن أجل ذلك كان يُسرعُ في الطريق ، حتى يصل الناس المدينة ، ويتفرقون ، فتخفّ حدّة اللغط ، وتخبو جذوةُ التلاسن . . ولم يقف في طريق العودة ، إلاّ بعدما رأى الناس وقد أنهكهم تعب المسير ، فلم يعودوا يقوون على التقدم . . ولكنه ، وما ان استفاقوا من نومهم الذي نالوا فيه قسط راحة ، حتى أمرهم بالمسير الفوري ، وهو لا يحفلُ بأمرٍ ، إلاّ بذلك الذي يشغلُ بالَهُ ، وهو تآلف المسلمين وتماسكهم ، حتى أن تلك الغاية ، قد شغلته عن الاهتمام بأمر زوجه عائشة ، فلم يُولها العناية الكافية في ذلك الرجوع ، ما دامت في هودجها بين القوم ، ويسير بها بعيرها ، مثل الآخرين . .

كان وصول المسلمين إلى المدينة في الصباح . فذهب كل في شأنه ، ودخل رسولُ الله «ﷺ» بيته ، على أن تلحق به زوجُهُ عائشة بعد أن تنزل من الهودج . . ولكنَّ البعير الذي يحمل هودجها ظلَّ واقفا ، ولم تدخل عائشة البيت ، فخرج رسولُ الله يتفقدها ، فلم يجدها . .

ودعا إليه بعض الصحابة يسألهم عنها ، فقالوا : بأنهم لا يعرفون من أمرها شيئاً . .

وشدَّ هؤلاء النفر من الصحابة عزمهم يريدون الرجوع إلى الطريق بحثاً عن زوج رسول الله «ﷺ» فإذا بها تطلُّ ويراها الناسُ راكبة على بعير صفوان بن المعطل ، وهو يقود من أمامها . .

وكان الخبرُ قد انتشر في المدينة كمثل انتشار النار بالهشيم ، فأقبل عبدالله بن أبيّ بن سلول ، وقد رآها أقوى مناسبة ليثأر من محمد خاصة ، ومن المسلمين عامة ، بعد الذي عاناه من إهاناتهم ، ونبذهم له في تلك الغزوة ، فسأل متماكرا وهو بين القوم : من هذه ؟

قالوا : إنها عائشة زوج رسول الله ﷺ .

فقال ، بكل قحة ووقاحة : « امرأة نبيّكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاءَ يقودها » . .

ودخلت عائشة بيتها فجاءَ رسولُ الله ﷺ يسألها عن سبب تأخرها ، فقالت له :

« لما غشي القوم النعاسُ ، نمتُ ، ولكنني استفقت بعد وجيز من الوقت ، فذهبت بعيدا عنهم لقضاء حاجة لي ، فسقط لي عقد ، فرحت أبحث عنه والظلام دامسٌ ، فما وجدته إلاَّ وكنت أبطأت عن مسير القوم . . وخفتُ إنْ ركضتُ لاحقة أن أضلَّ الركب ، وراودني الفكرُ بأنك سوف تفتقدني فلا تجدني ، فترسلَ إليَّ من يطلبني في مكان النزول ، فلا يجدني ، ويعودُ إليك الخبرُ ، فتتأخر بالرجوع في المسلمين ؛ ولما كنت أعلم أنك معجّلٌ في العودة ، فقد آثرت البقاءَ في مكان الركب ؛ ورحتُ انتظرُ مذعورة ، مقهورة ، حتى سمعت صوت حركة ، فصرخت من مكاني : ها أنذا هنا ، عائشة ، زوج رسول الله . .

ورأيت رجلاً يتقدم نحوي ، فسألته منْ يكون ؟ فقال لي : صفوان بن المعطل يا سيدتي ، وقد تخلّفت عن الركب لحاجة بي . .

ثم قدّم لي بعيره ، وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . .

ولم يلبث الرجل ن انطلق يقود البعير ، حتى وصلتُ الآن في وسط النهار » . .

وسكت الرسول «ﷺ» ، وهو لا يرى في الأمر ما يضير . .

وجاءَ المساءُ ، وخرج الى صلاة المغرب ، فإذا ببعض الصحابة يخبرونه بأن المنافقين ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ ، يشيعون كلام السوء عن السيدة عائشة ، ويوغلون في الافك والارجاف حولها ، فغُمّ رسول الله «ﷺ» لذلك كثيراً ، وتألَّمَ له أشدَّ الألم ، ولكنه احتسب الله وعادَ الى بيته ، مهموماً ، حزيناً . .

وطلع اليوم الثاني ، وأهل النفاق كلهم في المدينة ، يكثرون من الافك ، حتى لم يعد رسول الله «ﷺ» قادراً على تحمّل ذلك الأذى الشنيع ، فأراد أن يخفف من غلواء نفسه ، فما رأى إلاَّ أن يودع عائشة بيت أبيها ، ويعودَ لينتظر أمرَ السماء بشأنها . . .

وطالت المدة ، وعائشة ما تزا عند أهلها . . تراهم بالكآبة مكبلين ، وبالهم بمحزونين ، فتسألهم عن السبب ، فلا يجيبوها . . وتستطيل غياب رسول الله «ﷺ» عنها ، فتقول لأبيها : أين زوجي ، ألم يسأل عني ؟ ولكنها ايضا لا تسمع إجابة من هذا الأب الحنون ، البار ، فتداخلها الريبة ، ويأخذها الشك : إنَّ في الأمر سوءا . .

وتأخذ أمّها على انفراد ، تسألها ، وتلحُّ عليها في السؤال : ماذا في الأمر يا أمي ؟ أرى إعراضاً عني ، وهمساً يدور حولي .

فهلاًّ أخبرتني بجلية الأمر ؟

وتصمتُ الأم ، والدموع تنهمر من مآقيها ، فيمتلىء قلب عائشة فَرَقاً ووجدا ، وتنكبُّ على أمها تسترحمها وترجوها الاَّ تخفي عنها ما تكتمه ، وما يكتمه الناس جميعا عنها . .

وترى الأم أنْ لا مناص من إعلامها بحقيقة ما يدور حولها ، وما تلوكها به الألسنة في شرفها ، فيقعُ عليها الخبر كوقع الصاعقة ، وتذهل للمفاجأة غير المنتظرة ، فلا تنبس شفتاها بكلمة واحدة ، بل تركض إلى غرفتها باكية ، ناحبة ، شاكية . .

ويطول الأمرُ بها على هذه الحال ، ويأتى أبوها في المساء ، فيدخل غرفتها ويسألها ، فتعيد على مسامعه نفس ما قالته لرسول الله . .

وترى عائشة أن أباها لا يحاول أن يساعدها في ردّ التهمة الباطلة عنها ، وفي نفي الإفك بحقها ، فتثور في وجهه قائلة : أحلف بالله العظيم إني لصادقة . .

وتنزل دمعة الأسى والحزن على خدي الوالد المتألم . . فتقول عائشة :

ـ إني أشكو أمري الى الله ، وانتظر حكمه العادل بى . .

وتمضي فترة أخرى . والافكون في غيهم ما زالوا ممعنين ، وعائشة المكلومة تذوي يوما بعد يوم ، حتى داهمها المرضُ ، وخاف عليها أبواها من الاعتلال . . .

عند هذا الحدّ ، ولما وصل الأمر إلى ما وصل إليه ، جاء الفرج بوحي من السماء ، ونزلت براءة عائشة ، براءة خالصة ، ناصعة ، مثلما نزل الاثم بعصبة الافك ، يلحق بهم الخزي والعار ، ويتوعدهم بعذاب عظيم ، في قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاؤوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خيرٌ لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ . .

﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ . .

ولكن من هو الذي تولى كبره من عصبة الافك تلك ، وله منهم العذاب العظيم ؟

أو ليس هو عبدالله بن أبيّ بن سلول ، كبير المنافقين ، وشيخ الأفاكين ؟

لقد استعمل كل أسلحة الغدر والخيانة حتى ينال من رسول الله ﴿ﷺ﴾ فما قدر .

فأراد أن يؤذيه في عرضه ، ولكنَّ الله أظهر إفكه وبهتانه . .

فماذا بعد لابن أبيّ أن يفعل ؟

لا ، لم يعد لديه أي سلاح يقوى فيه على محمد . . وجل ما بقي له ذلك الحقد الدفين في قلبه ، ولكنه حقدٌ لم يعد قادرا على الاحتباس في قلب ذلك الرجل المنافق ، المخادع ، الكاذب ،

فانفجر يمزّق القلب الذي حبسه ، ويقطع أوصال صاحبه ليذيقهُ الموت الزؤام ويقذف به إلى العذاب العظيم الذي أعدّه له الله تعالى ، جزاء على أفعاله المنكرة . .

لقد صدق الله العظيم وهو يقول لرسوله : ﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شراً، بل هو خير لكم ﴾ . . وهذا الخير كله من فضل الله ، الذي أماتَ عبدالله بن أبيّ ليرتاح المسلمون من نفاقه وكذبه . .

وهذا الخيرُ من نعمة الله ، وهو ينزل في سورة النور آيات بينات ، لتكون شرعا دائماً في الاسلام الذي يريده الله ويريده رسولُه شرعا سويّا للناس كافة . .

فحادث الافك ، كما هو معروف اسمه ، لا يعدو كونه أمرا عاديا غير جدير بأنْ يثير شبهة إذ انه لم يزد ، في وضعه الطبيعي ، عن آن سيدة فاتها الركبُ ، على حين غفلة منها ومنهم ، فادركها تابع للركب ، فاحتملها حتى ردّها إلى مأمنها . .

ولم يكن ينبغي لأحد أن يكون عنده أدنى شك في أمر تلك السيدة لأنها زوج رسول الله ، وفي أمر ذلك الرجل ، لأنه من الصحابة الأبرار . . وهاتان الميزتان تكفيان بذاتهما لابعاد أي تصور غير عقلاني ، وغير مستساغ لا ذوقا ولا إحساسا ، وحتى ولا فكرا . . لأنه من الطبيعي ، أن يصادف التخلف عن جماعة أيا منهم ، وهذا ما تحفل به حياتنا اليومية باستمرار ، فكيف والأمر يتعلق ببيئة صحراوية لها ظروفها وطبيعتها ؟! . .

وإذا كان في الحادث ما يلفت إلى معالجة الشأن الفردي ، وهو تقديم يد العون والمساعدة لأي محتاج لها ، سواء كان امرأة او رجلاً في الحياة ، فإن القرآن الكريم لم يقف عند هذا الحد ، ولم يكتف بنفي التهمة ، وإبعاد سوء الظن عن النفوس ـ وعن السيدة عائشة بالذات في ذلك الظرف الذى وجدت فيه ـ بل عالج موقفاً إنسانياً من جميع جوانبه ، وكان العلاج بالحكمة البالغة التي تصون للأعراض الطاهرة حرمتها ، وتقطع على الألسنة الكاذبة أراجيفها ، وتحفظ للمجتمع الاسلامي سمعته وكرامته . .

وكان ذلك العلاج الدائم في كتاب الله الكريم . . وهو وحده أحق بتقديم علاجات أهل الأرض جميعهم . . فقد بدأت آيات سورة النور بتحديد العقوبة الزاجرة لحد الزّنا ، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقة ولا رحمة . . وأن يجري ذلك على مرأىً من الناس ومسمعهم ، حتى تكون فيه الموعظة الكافية ، والعبرة الوافية . . فحدّ الزنا ليس من الأمور السهلة ، بل هو جريمة تدنّس الناس ، وتترك أسوأ الأثر في إفساد المجتمع ، وإهدار الكرامة ، وتضييع النسل . .

ومثل هذه الجريمة لا يأتيها إلاّ من خبثت نفوسهم ، وماتت ضمائرهم ، وتلوّنت عقيدتهم . . أما المؤمنون الأطهار ، فهم بحكم إيمانهم وتقواهم ، أبعد ما يكونون عن هذه الفاحشة الكبرى ، لقوله تعالى :

﴿ **الزانية والزاني ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .**

وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك ، وحرّم ذلك على المؤمنين ﴾ .

ثم أعقبت الأيات المباركات ذلك ، بتحصين المجتمع الاسلامي من شر أولئك الفساق الذين يلغون في اعراض الناس بغير علم ، ويهدرون كرامات البيوت الشريفة بغير إثم ؛ فألزمتهم باقامة الدليل القاطع ، والبرهان الذي لا يقبل الشك على صدق ما يتقولون به على الناس ، وذلك بأن ياتوا بأربعة شهداء . . فإن لم ياتوا بهؤلاء الشهود الاربعة ، فإنّ لهم العقاب الرادع ، والهوان اللاذع ، حتى يتوبوا عن الخوض في اعراض الناس . وهذا قوله تعالى :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، واولئك هم الفاسقون . إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ . .

ولما كانت الأعراض مما ينبغي أن تُصان ، والحديث حولها مما قد يسرّ ضعاف النفوس ، ويستهوي الفسّاق والمستهترين . . ونظرا لما في الخوض فيها من خطورة على المجتمع ، قد تعرّض سمعته للهدر ، وتودي بكرامات الناس للضياع !. . فقد ختم الله سبحانه وتعالى ـ الخبير الحكيم ـ هذا الموضوع ، بهذه القاعدة الاجتماعية الغامة التي تهدم التهمة من أساسها ، والتي تصلح ميزانا للحكم على كل فرد ، وعلى كل جماعة ، في كل زمان ومكان ، بقوله تعالى :

﴿ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، اولئك مبرّؤون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

هذه حادثة الإفك كما صوّرها القرآن الكريم . وهي في ظروفها وملابساتها ، كانت سبباً لكي يشرع الله سبحانه ما شرّع من الحدود لحماية المجتمع الإسلامي من عقوبة الزنا ومن عقوبة القذف في أعراض المؤمنات ، وشدّد ما شدّد في إثبات هذه الجريمة المنكرة ، حتى لا يؤخذ البريء فيها بفرية مفترٍ او إرجاف مُرجِف ، وحتى لا تكون أعراضُ الناس منالاً لكل حاقد ، وهدفاً لكل رامٍ ، وعرضة لكل أفّاك أثيم . . .

وارتاحَ رسول الله «ﷺ» مما أتعبه وأضناه ، فقد أزاحَ الله تعالى كل ما اكتنف حادثة الإفك من غموض وظهرت الحقيقة جليةً ناصعة ، وردَّ الله كيد المنافقين وأخزاهم ، فكان في ذلك رضاء لنفس رسول الله «ﷺ» فشعر بالارتياح ، وحقَّ له أن يخلد إلى فترة من الهدوء والسكينة . . .

ولكنْ مَنْ كان كمحمد ، أي ذلك الإنسانُ السامي أبداً في فكره إلى حقائق الوجود ، الراني دوماً ببصيرته إلى عظمة الله اللامتناهية ، والذي يكفيه أنه الرسول الأعظم ، الذي يحمل دعوة الله العظمى ، هل يطيب له قرار من عيش ، إن لم تبلغ هذه الرسالةُ المدى الذي يريدُه الله تعالى أن تبلُغَه ؟

لا !

فلا يمكنُ للرسول الأعظم إلاّ ان يبقى دائم التفكير بهذا العالم المنحرف ، حتى يصلَ به إلى الايمان الحق الكفيل بأن يخُلِّصَهُ من الاثقال التي ترهق كاهله ، وأن يحررهُ من القيود التي تعيق تقدمه ، حتى يطلقه في معارج النضوج الفكري والسمو النفساني . .

وإذْ كان رسول الله «ﷺ» منشغلاً في مثل هذا التطلع السامي استأذنت عليه امرأة ودخلت تقول له بصوتٍ تملأه نبرات الشكوى والاستعطاف :

« يا رسول الله ! أنا « جويرية بنت الحارث ، سيد بني المصطلق ، وقد أصابني من البلاء ما قد علمت ، فوقعت من نصيب ثابت بن قيس ، فكاتبني على تسع أواقٍ من الذهب فجئت استعينكَ لتدفعها عني وتردَّ إليَّ حريتي » . .

فأطرق رسولُ الله «ﷺ» قليلاً ، ثم طلب من المرأة ان تعود إلى دار الصحابي الذي وقعت في نصيبه حتى ينظرَ في أمرها . . .

وخرجت المرأة ، وفكَّرَ رسول الله «ﷺ» بما يجب عليه عمله . . .

فبنو المصطلق أسارى عند المسلمين ، وما كانوا ليرحموا أحداً من المسلمين لو كُتِبَ لهم الظفر في القتال . . ولكن . . هذا نظام العبودية يسودُ الأرض كلّها ، وقد قبلته البشرية نظاماً قائماً تتوارثه الأجيال ، ولكنه نظامٌ فاسدٌ ، ليس من شأنه إلا أن يؤخر الانسان في ممارسة إنسانيته الحقة. إنه واقع ثابت، والخروج عليه دفعةً واحدة ليس بالسهل اليسير . ولكن لمَ لا يكون هنالكَ عملٌ ، ولو على

نطاقٍ ضيقٍ محصور ، يتبين منه أن الخيرَ كل الخير هو في تحرير الإنسان وليس في عبوديته ؟! . . .

وبعد التفكير الحصيف في هذا الموضوع ، بعثَ رسولُ الله «ﷺ» من يطلب إليه « ثابت بن قيس » فجاءه ملبياً على جناح السرعة ، فقال له :

« أدفع لك كتابتك لجويرية وأتزوجها ، فما تقول يا ثابت » ؟

قال ثابت : سمعاً وطاعةً يا رسول الله . وإني اعتقها منذ الآن إكراماً لك وبلا أية فدّية . .

ثم انطلق ثابت بن قيس الى منزله ، ونادى على المرأة قائلاً :

« أنت حرة يا ابنة الحارث » . . .

وبُهتت المرأة ولم تصدِّق . . . فسألت الرجل :

وهل دفَعَ لك رسولُ الله ماكاتبتني عليه ؟

قال الرجل : بل وهبني أفضل مما هو من المالِ ومن قناطير الذهب والفضة ؟

فسألته جويرية بدهشة :

ـ لا أفقه معنى ما تقول أيها الرجل !

قال الرجل : لقد أكرمني رسول الله «ﷺ» بأن طلبك زوجاً مني

وصعقت المرأة للخبر ، ولم تدرِ ما تقول ، ولكنّها عادت

تستجمع قواها لتسأل :

ـ أحقاً ما تقول يا أخا العرب ! وهل صحيح بأن رسول الله يريد الزواج مني ؟! . . .

قال الصحابي : إي والله . .

وعادت الدهشة تعقل لسان المرأة ، وإن لم تعطّل إدراكها ، فراحت تحدِّث نفسها :

« هل حقاً ما أسمع ! لقد كنت أتوقع أيَّ أمر في حياتي إلاَّ أن أكون زوجة لنبيّ الإسلام ، فهذا ما لم يكن في حسباني أبدا وهو ما يفوق كل تصوّراتي وأحلامي » . .

وتراءى لجويرية أنها في شبه حلم ، فراحت تتلمس وجهها بيديها ، وتفرك عينَيها ، حتى تتأكد من أنها في عالم الواقع لا في عالم الأحلام ، فأدرك الصحابيُّ ما يستبدُّ بها من مشاعر فقال لها :

ـ إنها الحقيقة يا أختاه ، فأنت منذ الآن السيدة المصونة الطاهرة التي رفعها رسول الله «ﷺ» إلى هذه المرتبة العالية .

وتجد جويرية في نبرات الرجل ما يُبعد عنها أي شك أو خيال ، فتحسُّ في أعماقها خلجات راحةٍ واطمئنان ، وتشعر في قلبها وهجَ الايمان ، فترفع ناظريها نحو السماء ، وتقول والعبرات تتلاحق من مآقيها : « أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

ويطير الصحابي فرحاً بإسلام جويرية ، فيقول لها :

ـ هنيئاً لك إسلامك يا أختاه ، وهيّا بنا إلى رسول الله «ﷺ»

فهو بانتظارنا . .

. . ويشهد أهل المدينة زواج رسول الله «ﷺ» من جويرية بنت الحارث ، فيقول المسلمون :

وكيف نسترقُّ بعدَ أصهار رسول الله «ﷺ» ؟

ويقبلون على الأسرى من بني المصطلق معتقين لهم ومحررين إياهم من رق العبودية .

ويدرك بنو المصطلق عظيم ما فعله المسلمون ، وهم يمنحونهم الحرية بلا قيدٍ أو منة ، فيقبل جمع كبيرٌ منهم على الإسلام مهتدين ، وتكون جويرية هي صاحبة البرِّ بهم ، كما قالت عنها السيدة عائشة (رضي الله عنها) : « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية . . لقد اعتق بها مئة بيت من بيوت قومها » .

وهو صحيح أن جويرية كانت مباركة على بني قومها . . ولكن بفضل تقدير رسول الله «ﷺ» وتدبيره . . فهو ببصيرته النافذة ورؤيته الصادقة قد وازن بين ذل العبودية وكرامة الإنسان ، فرأى أن الخير كله في السعي لتحقيق هذه الكرامة ، وقد قارن بين الحقائق فما وجَدَ حقيقة أصدق ولا أسمى من الإسلام ، فهو وحده كفيل بأن يهدي إلى سائر الحقائق الأخرى ، ومن منطلقات الإسلام كان عليه أن يتخذ زواجه من جويرية بنت الحارث سبيلاً لتحرير بني قومها ، خاصة وهو لا يريد أن يُلزم المسلمين إلزاماً بهذا التحرير ، بل يدعه ينطلق من قناعتهم ، تماماً كما جاءت الأحداث تثبت صدق يقينه فيما قدَّر وفعل . .

ولم يكن هذا الموقف الرائع في التصوّر لتحقيق مقصد من مقاصد الإنسانية النبيلة هو الأول من نوعه في حياة محمد ﴿ﷺ﴾ ، فمِنْ قبلُ كان قد تزوّج من زينب بنت خزيمة ، بعد وفاة زوجها عنها ، عبيدة بن المطلب الذي استشهد يوم بدر . . وكان زواج النبيّ ﴿ﷺ﴾ من هذه المرأة التي لم تكن ذات جمال وقد تخطت سن الشباب ـ من أجل غاية واحدة هي التشجيع على الصنيع الجميل ، ذلك أن المرأة كانت قد اشتهرت بطيب المعشر ، والإحسان للفقراء والحدب على الضعفاء حتى لقبت بأم المساكين ، فمن أَوْلى منها أن تحمل لقب « أم المؤمنين » وهي على هذه الصفات الحميدة ، والخصال النبيلة ! . . . ولفتاتُ محمد ﴿ﷺ﴾ في العمل الإنساني أكثر من أن تُعدَّ أو تحصى . . وما كان زواجه من أم سلمة إلاَّ من هذا القبيل . . فهذه المرأة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة ، وقد مات عنها زوجها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، بعد أن أبلى بلاء حسناً في معركة أحد ، وجرح فيها ، غير أنه انتصَرَ على جراحه وعاد يقود إحدى الكتائب لغزوة بني أسد ، فيكتب الله سبحانه له النصرَ ، وظفر بهم ، ولكنَّه لم يلبث طويلاً بعد رجوعه إلى المدينة ، حتى التهب عليه جرحُهُ القديم وقضى عليه ، مخلّفاً وراءه امرأة ذات عيالٍ كثيرين ، ليس عندهم من يعولهم . فقد كانت أم سلمة مهاجرة مع زوجها ، فانقطعت عن ذويها ، ولم يكن لهم مالٌ يحميهم من غائلة الجوع ، وكانت أحوال المسلمين في تلك الأيام أميل إلى الحاجة والفقر ، لتوزيع موارد العيش بين المهاجرين والأنصار ، فما رأى النبيّ ﴿ﷺ﴾ سبيلاً يرد بها عن هؤلاء الأطفال غائلة الجوع

والحرمان ، ويبعد عنهم مرارة الحياة ، خيراً من الزواج من أمهم ، حتى تكون قادرة على توفير الرعاية الصالحة لهم . نعم إن عطف النبيّ «ﷺ» ومحبته للأقربين والأبعدين ، قد دفعته إلى الزواج من أم سلمة لأنه ليس أحق من رسول الله «ﷺ» أن يكون صاحب العطف والشفقة ، وصاحب الرحمة والحنان ، وهو صلى الله عليه وآله وسلّم قد اشتهر بذلك منذ حداثته ..

هذه بعض آثار محمد «ﷺ» الإنسانية ، السامية ..

فتارة ينشدُ تدعيم أسس السلوك السوي ، والخلق السليم كما اشتهرت بهما زينب بنت خزيمة ، وتارة يهدف الى تشييد صروح الحدب والرحمة ، كما فعل مع أبناء أم سلمة ، وها هو مع بني المصطلق يروم تحرير الإنسان فلا يُسجل عليه تكريس الرق بل يقاومه ، فيكون ممنوعاً إلى الأبد ، ولو كان الأعداء يسترقون من المسلمين ، فكان أن رأى «ﷺ» وجوباً عليه الزواج من جويرية ، حتى يضع أول الأسس لإلغاء الرق في العالم كله ..




خريطة تقريبية
للمدينة المنورة الأثرية
الجرف
الغابة
زغابة
بئر رومة
وادي قناة
الخندق
العريض
منازل بني حارثة
مسجد الإجابة
منازل بني عبد الأشهل
مسجد بني ظفر
منازل بني ظفر
وادي مهزور
وادي بطحان
بئر غرس
قربان
العوالي
منازل بني قريظة
مسجد الجمعة
بساتين
مسجد قباء
دار سعد بن خيثمة
دار كلثوم بن الهدم
الحرة
حصن كعب بن الأشرف
السدود
جبل عسير
ذو الحليفة
قصور العقيق
وادي العقيق
حرة الوبرة
بئر عروة
باب العنبرية
الجبل
الوادي
الغابة
بساتين
نخيل
خندق
منازل
دور
عين ماء
بئر
قبر
مسجد
١ ثنية الوداع
٣ سقيفة بني ساعدة
٤ سليع
٧ دار الضيافة
١٠ سور المدينة
١١ مسجد السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامة

غـــزوة الأحـــزاب

وفي ظلال هذه النفحات الإنسانية التي كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يشيعها في أجواء المدينة ، كان المسلمون ينعمون بظل أجوائه ﴿ﷺ﴾ وكلها تحفل بالإيمان والخير والعطاء ، فتتأصّل في نفوسهم الدعوة الإسلامية ، وتزيدهم إنسانية رحبة الآفاق . . وفي هذا الوقت الذي كان رسولُ الإسلام يعمل من أجل خير الإنسانية عامة ، وأبناء الجزيرة العربية في المقدمة ، كان أعداؤه خارجها يغضبهم ذلك بسبب الجهالة العمياء التي اتخذوها طريقاً لهم في الحياة ، وبسبب الشرك الذي كان دينهم الذي عمر القلوب . وهذا كله دفعهم إلى تعميق الحقد عليه ، والى اختلاق كافة أسباب التآمر للنيل منه . . ثم يزيد في حقدهم وتآمرهم ذلك البناءُ في المدينة الذي بات ينذر بتهديم كياناتهم لما فيه من قيمٍ تدفع الناس للاطمئنان إليه ، والانجذاب نحوه ، بصورة إرادية أو عفوية . . فيثورون محنقين ، ويقومون في بقاعهم يعدّون كل ما لديهم من إمكانيات للقضاء عليه إلى الأبد ! .

ولكن ، لم يكن ذلك ليخفى على رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ولا غاب عن باله ما تلحّ فيه العرب من استعدادات لقتاله ، إذ كان يبث العيون في شتى النواحي من الجزيرة ، تتقصّى له الأخبار ، وترصد التحركات ، لتطلعه على كل ما يدور فيها من مكائد ومؤامرات تحاك

ضده وضدَّ دعوته .. وإلى جانب العرب ، في حقدهم على الإسلام وعلى رسوله ، كان اليهود أشدَّ حقداً ، وأعتى عداوة ، وكان بنو النضير منهم أكثر المتحمسين لفكرة القضاء على محمد .. فمنذ أن أخرجوا من المدينة مكرهين ، وهم يخططون لتلك الفكرة ، فوجدوا أن السبيل الوحيد لتحقيقها هي جمْع العرب في غزوة واحدة للمدينة ، ويكون فيها تحقيق حلمهم الأكبر .. ومن أجل ذلك خرج منْهم نفرٌ فيهم حُيي بن أخطب ، وسلاّم بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، ومعهم من بني وائل هواذة بن قيس وأبو عمّار ، وجعلوا خطتهم الاتصال بقبائل العرب وحثّها على مقاتلة العدو المشترك ...

وكانت وجهة هؤلاء الداعين للحرب مكة أولاً حيث قريش التي هي صاحبة السيادة بين القبائل ، وما تفعله قريش يمكن أن يشدَّ القبائل الأخرى ، ويجعلها تفعل مثلها .. فلما وصل أولئك الدعاة إلى مكة ، استقبلتهم قريش مرحّبة ، محتفية بقدومهم ، فأقامت لهم الولائم ، وعقدت الندوات ، ثم لم تسأل عن دافع مجيئهم ، وإن رأت أنَّ فيه ما ينبىء عن أمر هام ..

وفي إحدى الندوات ، وأثناء التسامر والحديث ، سألت قريش حيياً عن قومه ، بني النضير ، وما حلَّ بهم بعد إجلائهم عن المدينة ، فقال حُيي : لقد تركناهم بين خيبر والمدينة يتردّدون حتى تأتوهم فيسيروا معكم إلى محمد وأصحابه .. وأدركت قريش ما في نوايا القوم ، فعادت تسأل :

ـ وما هي أخبار بني قريظة ؟

فأجاب حييّ : أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد ، حتى تأتوهم فيميلوا معكم . . .

فلم يعد الأمرُ خافياً إذن فلِمَ لا يطرح على بساط المناقشة والبحث ! . فقد بات معروفاً ما جاء لأجله هؤلاء النفرُ ، ولكنَّ قريشاً كانت قد بحثت أمرها مع محمد مراراً عديدة ، وإنه الأمر الذي لا ينفَكُّ شغلها الشاغل ، وهمها الأولُ ، ولكن ما كان يحيرُ قريشاً ، ويجعلها في حيرة دائمة وما لم تستطع في مجالسها الوصول إلى نتيجة حاسمة أو رأي نهائي بشأنه هو معرفتها : إن كان دينُ محمد الذي يزعمه هو أحق من دينها ! . ولذا فإنها ترى الفرصة سانحة الآن لان تطرح هذا الأمر على بني يهود ، حتى تقف على رأيهم فيه ، فهم أهل توحيد وأصحاب دين سماوي ، شأنهم في ذلك شأن ما يدعو إليه محمد بن عبد الله . . وإذا كانوا على خلاف معه ، فمعنى ذلك أنّ ما يدّعيه هو كذب بكذب ، إذن فليقفوا من اليهود على حقيقة الأمر . . . فسألت قريش ذلك النفر بقولها :

« يا معشر يهود ! إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، فاصدقونا القول : هل ديننا خيرٌ أم دينه » ؟! .

وجاء جواب اليهود بما يخالف الحقيقة كلها :

« بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه » . .

وهذا ما أجابهم به كعب بن الأشرف من قبل . .

وارتاحت قريش ! . . فقد اهتدت إلى ما يحيرها . . إذن فهي على حق في عداوتها لمحمد ! .

ولكن هل كانت قريش فعلاً على حق أم أن مراوغة بني يهود لها ، وكذبهم عليها ، هما اللذان جعلاها تعتقد ذلك ؟! . .

لا ! . . .

لم تكن قريش على حق أبداً بل كانت على الباطل ، ومثلها كان بنو يهود على الباطل والضلال . . فالضلال قد ركب عقول ذلك النفر ونفوسهم ، حتى أوقعهم في الخطأ الفاحش الذي لا يغتفر ! . . لقد أنكروا أحقية دين الله تعالى ، وجعلوا الكفر خيراً منه ! . . .

فهل بعدُ أفظع من ذلك جريمة ترتكب ؟!

وماذا كان دافع بني يهود حين أوغلوا في ارتكاب تلك الجريمة إلاَّ مُصادرة قريش وكسب عواطفها وجعلها تسير في ركابهم ؟! . . إذن فهي مطامع الدنيا ، ولكن ليس أكثر انحطاطاً ولا أشدَّ خِسّة من هذه المطامع عندما تتخذ الكفر بدل الإيمان وسيلة لها في الحياة ! . . .

أولا يدرك أولئك النفر من بني يهود أنَّ إقرارهم بدين قريش . دين الوثنية والشرك على أنه خير من الدين الذي يدعو إليه محمد هو إقرار في الوقت نفسه بأن ذلك الدين خير من اليهودية ؟! . . ولكن قاتلهم الله ، كان الحقد قد أعمى بصائرهم ، فكان منهم ما كان تعدّياً على الله ، سبحانه وافتراء على دينه الحق . .

ولم يكن ذلك الموقف التاريخي الشائن من نفر يهودي ليذهب دون أن تحفل به السماء ، فقد جاء العقاب عليه سريعا عندما نزل

التكذيب لهم بقولِ هو فوق كل الأقوال ، ذاك قول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم : ﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ . .

نعم ذلك هو الحق من الله عزَّ وجل ، إذ تقع لعنة أبدية، وسبةٌ سرمدية لبني يهود إذ جعلوا الكفر خيراً من دين الإيمان بالله الواحد الأحد . . .

لقد شاء يهود جزيرة العرب يومئذٍ مراوغة خسيسة ، فإذا هي لطخة سوداء على فعلتهم الشنعاء لا يمحوها الزمان ما دام كتاب الله ـ سبحانه ـ قائما على مدى الأزمان . . وأما عقابها ؛ فوق اللعنة الدائمة التي لا يعرف مداها إلاَّ الله تعالى لأنّه حكم على من تصيبه هذه اللعنة ألاّ يكون له نصيرٌ في الدنيا ولا في الآخرة . . وليس العقاب لهم فقط لأن التعدّي حصل على دين محمد ، بل لأنه كان تعدياً على التوراة نفسها ـ كتاب بني يهود ـ الذي يوصيهم بالنفور من الأصنام وأصحابها ، والبعد عن الشرك وأعوانه ، فإذا هُم والشرك وأصحابه حليفان قائمان . . .

. . . اطمأنت قريش إلى ما كان يحيّرها ، بل انزلقت ـ بالحقيقة ـ في المخادعة ، فوافقت ذلك النفر على خطته لقتال محمد ، ثم ضربوا موعدا لذلك . . .

وخرج دعاة الحرب من مكة يحملون موافقة قريش سِمة إقناع

لقبائل العرب الأخرى ، فراحوا يتنقلون من مضارب إلى أخرى ، وينزلون عند غطفان من قيس غيلان ، وعند بني مرة ، وبني فزارة ، وأشجع ، وسُلَيْم ، وبني سعد ، وأسد ، وكل قبيل او عشيرة لها عند المسلمين ثأر ، أو في نفوسها عداوة لمحمد ، وهم يحمدون لهم وثنيتهم ، ويشجبون الدعوة الإسلامية ويحقّرونها ، حتى أمكنهم تحقيق الغرض الذي خرجوا من أجله ، فعادوا إلى ديارهم يتحدّثون بما فعلوا ، متفاخرين ، متباهين ، داعين بني أقوامهم للتهيؤ والاستعداد .

وانقضت شهورٌ قليلة ، وحان الموعدُ المتفق عليه ، فخرجت القبائل والعشائر ، جماعات وأحزاباً ، يحملون رايات العرب وتأييد اليهود والكل يتوجهون إلى المدينة لغزوها ، والقضاء على الإسلام وأهله . .

وخرجت قريش بقيادة ابي سفيان بن حرب في أربعة الاف راجل ، وثلاثمئة فارس ، وخمسمئة وألف ممتط بعيره ، وخرجت بنو فَزارة من غطفان وعلى رأسها عُيَيْنة بن حصن بن حذيفة في رجال كثيرين ، وفي عدّتهم ألف بعير وسلاح وفير ؛ وخرجت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة في أربعمئة محارب ، وقبلها خرجت بنو مرّة وعلى رأسها الحارث بن عوف ؛ وسارت سُليم وأصحاب بئر معونة في سبعمئة رجل ، ثم انضم إلى تلك القبائل والبطون بنو سعد ، وبنو أسد ، في أكثر رجالهم . .

والتقت تلك الجموعُ الغفيرة ، وقد بلغ عددها عشرة آلاف محارب أو نحوها ، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة

للهجرة . . وعقدت الزعامة لأبي سفيان بن حرب وساروا جميعا تحت إمرته قاصدين المدينة .

كانت أخبارُ خروج القبائل قد بلغت المدينة منذ البداية ، إذ سارع رجال النبيِّ (ﷺ) الموزعون في مختلف الأنحاء يطلعونه على ما يجري ، ويصفون له أعداد الغزوة وعُددها ، فرأى صلىَّ الله عليه وآله وسلّم أنَّ الأمرَ شديد الخطورة ، ويستوجب اتخاذ التدابير العاجلة للحؤول بين الأحزاب ، وتحقيق غايتها العدوانية ، فدعا إليه على الفور كبار الصحابة يشاورهم في الأمر . . .

وبدت الآراء أثناء ذلك التشاور متوافقة في التركيز على موقع المدينة وجغرافية الأرض المحيطة بها ، فوجدوا أن أكثر نواحيها تشكل عوامل طبيعية تمنع الأعداء من الدخول إليها بطريقة سهلة ، فإلى جانب الجبال ـ وهي حواجز بطبيعتها ـ تقوم « حرة واقم » من الناحية الشرقية للمدينة ، و« حرة الوبرة » من ناحيتها الغربية ، و« آطام بني قريظة » في جنوبها الشرقي ، فإن حصّنت تلك الحرّات والأطام أكثر مما هي عليه ، يصبح من الصعب على العدو اختراقها ، أو يكون دونه وذلك عقبات شديدة . .

وأشارَ البعض بأن تجُعل مؤخرة الجيش الإسلامي عند آطام بني قريظة بحيث يسهل عليه تلقي المدَدَ الذي قد يحتاجه من تلك الناحية ، ولكنَّ البعضَ رأوا بأن تلك الجماعة من اليهود لا يُمكن أن يؤمن غدرها ، إذ ربما ترى في كثرة الأحزاب ما يشجعها على الانضمام إليهم ، لأنَّ لديها من الاستعداد ما يكفي للإنقلاب على المسلمين في

أي وقت يظهر فيه ضعفهم ومع أنه بدا الإجماع على صحة رأي هذا البعض ، إلاّ أنهم وجدوا من الخير لهم عدم إعلان العداوة لبني قريظة ، فَعهْدُ الرسول ﷺ لهم ما زال قائماً ، وهو يفرض عليهم موادعتهم ما داموا يحترمون هذا العهد ، حتى إذا تبين أنهم هُمُ الذين أقدموا على نقضه ، فإن الأمر حينئذ سيختلف ، وسيجدون السبيل الذي يتدبّرون به ما يحول دون خطرهم . .

وبقيت أمام المؤتمرين الناحيةُ الشمالية من المدينة ، فهي وحدها مكشوفة ويمكن أن تشكّل نقطة الضعف في مقاومة المسلمين ، بل ولعلّها الثغرة الوحيدة التي يُمكن للعدو النفاذ من خلالها إلى قلب المدينة ، مما يفرض تواجد الجيش الإسلامي كله في تلك الناحية متصدّياً للغازين . . ولكن ذلك التواجد خطر بذاته ، إذ مهما بلغ عدد الجيش الإسلامي فإنه يبقى أقلّ كثيراً من عدد الأعداء ، ومهما كانت نفوس جنوده حافلة بقوة الايمان ، وأياً كان استعدادهم للتضحية ، فإنه لن يستطيع الصمود طويلاً إن لم يكن هنالك من سبيل لتخفيف وطأة الخطر عنه ! . وأخذ هذا الأمر حيّزاً كبيراً من وقت المجتمعين دون أن يهتدوا إلى حلّه ، فأخذهم الهم والقلق ، وسادت بينهم لحظة من الصمت ، قطعها صوت سلمان الفارسي ، الذي كان بين المجتمعين في مجلس رسول الله ﷺ ذاك ، فقال :

ـ أتأذن يا رسول الله بأنْ أُشير . . !

قال الرسول ﷺ : تفضل ، وهات ما عندك يا أخا الإسلام .

قال سلمان : « يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا خفنا العدو خندقنا علينا » . .

وتهلّل وجه رسول الله «ﷺ» بالبشر ، فانعكس بشرُهُ ارتياحاً على نفوس الصحابة ، إذ وجدوا في فكرة حفر خندق في ناحية المدينة الشمالية ، ما يبعد كثيراً خطر تلك الناحية عن الجيش الإسلامي ، مما يجعل فرص تصدّيه للعدو أوفر ، وإمكانية تحرّكه أقوى . . نعم لقد زال الضيق الذي ملأ نفوس المجتمعين ، فانبروا يضعون الخطة الكفيلة بالدفاع والصمود ، والوسائل التي يمكن اعتمادها للتنفيذ . .

وخرجوا راضين ، وعلى عون الله متوكلين ، فأمَرَ رسولُ الله «ﷺ» بأن يؤذّن في الرجال للاجتماع ، وما هو إلاَّ وقت قصير حتى كان جميع المسلمين قد حضروا ، فأخبرهم رسول الله «ﷺ» بأمْر الغزو ، وما يتطلب من تحصين المنازل والآطام ، وسدّ المنافذ والثغور وتقوية دعائمها ، ثم بعث إلى المقيمين في المنازل الواقعة في جهة المدينة الشمالية أن يحملوا كل ما عندهم ، وأن يلجأوا إلى الحصون الداخلية . . فلمّا انتهى من تحديد المهمات وتوزيعها ، عاد وأخبرَ الناس بما اعتزمه والصحابةُ من حفر الخندق ، داعياً الرجال إلى شدّ العزائم ، وحمل المعدات والأدوات ، كي يخرج بهم إلى مكان حفر ذلك الخندق .

وراح رسولُ الله «ﷺ» يطوف في ناحية المدينة الشمالية ، يقوم بالكشف على جوانبها ، ويتفقّد أرضها ، ويحسب ويوازن ، حتى عيّن النقاط والأماكن التي يتوجب أن يجري الحفر عندها ، وقد أرادَ للخندق ان يكون وراء جبل « سلع » . . . فلما انتهى من

ذلك ، جمع حوله الرجال ، ووزعهم جماعات ، على أن تضم كل جماعة عشرة رجال ، يقومون بحفر أربعين ذراعاً ، وبذلك ، وما أن تفرغ كل جماعة منْ حفر أذرعها تلك ، يكون الحفر قد اتصل ببعضه ، واستوى الخندق قائماً . . .

واندفع رجال الاسلام الى العمل تشدهم العزيمة ، ويحدوهم الأمل ؛ يستعينون بما عندهم من الأدوات والوسائل ، وما استعاروه من بني قريظة من معاول ومكاتل . .

واذا كانت النفوس تمتلىء حماساً ، والسواعد والأيدي قوة ، كان العمل يبدو صعباً وشاقاً ، لأنَّ الأرض صلبة ، قاسية ، والطقس حار شديد القيظ . . ولكنْ ، وأيّاً كانت المتاعب والمصاعب فانهم لم يأبهوا ، ولن يتخاذلوا . . . فمن أنهكه الضربُ بالمعول ، عليه أن يتركه لغيره ويتولى نقل الحجارة والتراب ، ومن اتعبه قلعٌ الصخور فإنَّ أمامهُ تكسيرها ، ورصّ جوانب الخندق فيها ، وإنَّ من لا يجد وعاءً له ، عليه بنقل التراب في ثوبه . . .

هكذا أخذ أولئك الرجالُ على أنفسهم أن يعملوا ، وهكذا اندفعوا الى ذلك العمل وهم مسرورون ، فرحون ، كلٌّ يريد ان يبذل ، ويعطي ، حتى لا تفوته المشاركة مع إخوان صابرين ، مُتجلدين . . إن نظروا الى بعضهم البعض زادسرورهم ، وهم يرون العرقَ يتصبّب من الجباه فيختلط بالغبار ، والأثواب وقد تشققت والصدور وقد علاها التراب فيجدون فيما يرون تعبيراً عن أشرف خدمة يؤدونها ، وتجسيداً لأسمى واجب يقومون به . .

ثم لا يبخلُ الرسولُ الأعظم على نفسه بالجهد ، شأنه شأن كل الرجال ، بل كان يضرب ساعةً بالمعول ، ويجرف التراب ساعةً بالمسحاة ، ثم ينقل على كتفه الصخور ، ويحمل في ثوبه التراب . . . إنه يعمل ، ويكدُّ في العمل ، وهو يتنقل بين جماعة وأخرى ، يحثّهم على الدأب والمواصلة ، ويشحذ فيهم العزيمة والصبر ، لأنه يريدهم أن يستهينوا بالتعب ، وأن يطرحوا الوهن ، حتى ينجزوا المهمة ، كيلا يداهمهم العدوّ ، وهم لم يفرغوا منها بعد . . . وانه لفي دعوته الى الصبر والتحمّل ، لا يرى خيراً من بيان أمر الله سبحانه ، يدعو فيه المؤمنين لقتال الأحزاب والمشركين كافة كما جاؤوا يقاتلونهم ، وإن جزاءهم سيكون النصرُ من عنده ، لأنه سبحانه وتعالى مع المتّقين . .

وتهنأ نفوسُ المؤمنين بوعد الله تعالى الصادق ، فتزيدُ تلك الطمأنينة أصحابها اندفاعاً ومثابرة على العمل . . . وتعترض جماعةً منهم صخرةٌ عظيمةٌ بيضاءُ ، قد ضربت عمقاً في الأرض بعد قشع التراب عنها ، فلا تقبل أن تُزاح من مكانها ، ولا تقدر عليها الأدوات التي كانت تحاول اقتلاعها ، بل كانت تفُلُّ الحديد في الأيدي ، وتجهد العاملين حتى يشقّ عليهم أمرها ويستعصي ، فينظرون الى بعضهم حائرين ، مشدوهين . . .

وكان في تلك الجماعة : عمرو بن عوف ، وسلمان الفارسي ، وحذيفة بن اليمان ، والنعمان بن مقرن ، وستة غيرهم من الأنصار . . وقفوا لا يدرون ماذا يفعلون ، وقد أخذ بهم الوجد ، من أن يسبقهم إخوانهم في العمل ، فيظهر تقصيرهم عنهم . .

ولكن أهمّ من ذلك في نظرهم كان عجزهم عن اقتلاع تلك الصخرة ، لأن تركها في مكانها غير ممكن ، اذ قد يجد فيها العدو معبراً الى صفوفهم فتذهب كل الجهود بدَداً . . .

ووقفوا يتشاورون بأمر الصخرة ، ولكن ليس بيدهم حيلة ، فقد حاولوا ، وجهدوا ، ولكنَّ الصخرة ظلت عصيّة ، إذن ماذا يفعلون ؟

قال أحدهم : لن نترك الصخرة ولو تألّبت الجموعُ كلها عليها . . .

والتفت واحدٌ آخر الى سلمان الفارسي وقال له : يا سلمان ! إرق الى رسول الله «ﷺ» فأخبره بأمر الصخرة . وسارع سلمان الى الرسول «ﷺ» قائلاً :

ـ يا رسول الله وصلنا في الحفر الى صخرة كبيرة ، عميقة فاستعصت علينا ، وقد حاولنا اقتلاعها فلم نقدر عليها حتى كُسر الحديدُ في أيدينا ، فمرنا فيها بأمرك ، فوالله لا نحب أن نتجاوز الخط الذي رسمته لنا . وتوجّه الرسول «ﷺ» الى حيث تلك الصخرة ووقف عليها ، وجلس القرفصاء يتفحّصها ، ثم قام فأخذ معولاً كبيراً رفعه فوق رأسه وأهوى به على تلك الصخرة بكل قوته وعزمه ، وهو يقول : باسم الله ، وبعون الله . . فانقدح الشرر من الصخرة ، ولمعت برقة شديدة فتراءى للحاضرين أنها أنوار تسطع في جوف ليل مظلم ، وإذا برسول الله «ﷺ» يكبر تكبيرة الفتح ، فيسمعه كل من في تلك الناحية فيكبرون وراءه . وينهال النبي

«ﷺ» على الصخرة بضربة أخرى ، أشدَّ وأقوى ، فينطلق منها اللمعان مجدداً ، ويعود الرسولُ «ﷺ» ومن ورائه المسلمون يهلّلون ويكبرون . وتكون من عزمِهِ ضربةٌ ثالثة لا تخلو من اللمعان نفسه ، فيكون التكبير من جديد ، الله أكبر ، الله أكبر ... إنها اصوات المؤمنين تتعالى فتشق عنان الفضاء ... الله أكبر ... وهو العظيم القادر على أن يغرق البحر ، وأن ينسف الجبال ، ويشقق الأكوان ، وبه استعانَ رسولُ الله «ﷺ» في مغالبة تلك الصخرة ، فإذا هي تنفلق في وسطها ، وتتشقق في جوانبها ، فينهالُ الصحابة عليها بالمعاول يقتلعون جذورها التي عمقت ، ويرفعون أجزاءها التي تكسرت ، وهم لا ينفكون يكبّرون ، وبصدق رسول الله «ﷺ» يؤمنون . ويجلسُ أصحابُ الصخرة يمسحون العرق الذي بلّل أجسادهم ، وهم يحيطون بالرسول «ﷺ» بعيون راضية ، وقلوب مؤمنة ، فيسأله سلمان الفارسي بعد أن يستأذنه قائلاً :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله .. ما هذا الذي رأينا وأنت تضرب الصخرة » .

فقال له الرسول الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى :

« أما الأولى فإن الله عزَّ وجلَّ فتح عليٌّ بها اليمن ، وأما الثانية فإنَّ الله تعالى فتح عليَّ بها بلاد الشام والمغرب وبدت لي قصور قيصر التي يفتحها الله للمسلمين باذنه ، وأما الثالثة فإنَّ الله سبحانه فتح عليَّ بها المشرق ؛ وظهرت لي قصور كسرى التي تجتاحها سنابك خيولكم ، بمشيئة الله تعالى .

وفـرح المسلمـون وهـم يسمعـون بشـارة رسـول الله «ﷺ» بالفتوحات ، فتكون تلك البشارة دليلاً على أنَّ الله سبحانه سيؤيدهم بالنصر في جهادهم ، فيقولون : الحمد لله على وعده الصادق . . وتتطايرُ فرحة البشرى ، من جماعة الى جماعة ، فتكنزها القلوب وتحضنها النفوس ، فإذا النداء من كل جانب : « هـذا ما وعدنا الله ورسولُه ، وصدق الله ورسوله » .

ولكنَّ الذينْ في قلوبهم مرض ، اولئك الـذين اندسوا بين المؤمنين ، فكان يغلبهم الحياءُ في التخلف عن ذلك العمل المجيد ، ولم يصدّقوا وعْدَ الرسول «ﷺ» للمؤمنين ، فراحوا يجتمعون الى بعضهـم ، وهـم يسرّون في الآذان : « ألا تعجبـون من هذه الأحاديث ؟! . . إنه يخبر الناس بأنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، ويعد بأنها سوف تفتح لهم ، وها هم يحفرون هذا الخندق حتى يحتموا به خائفين من تجاوزه ؛ أليس في ذلك ما يدعو الى السخرية » ؟!

ولكنَّ هذا التخذيل كان لا يطيب إلاَّ لنفوس المنافقين دون أن يتعداها لنفوس المؤمنين ، فيستمر هؤلاء بالعمل على نفس الطريقة التي بدأوا بها غير حافلين بأي أمر إلاَّ الانتهاء من حفر الخندق . . .

ويتواصَلُ العمل في الليل والنهار ، ويبقى رسـول الله «ﷺ» قائماً على ذلك العمل ، مشرفاً على سيره ، مشاركاً فيه . . . ولكن يأخذه التعبُ ، فيجلس يرقب تلك الجهود المبذولة عن رضًى ، فترتاحُ نفسه ، ويشعر بالطمأنينة . فيتكىء بجانبه الأيسر على حجر كبير ، ويأتيه النعاس ، فيغفو .

ويرى المؤمنون رسولَ الله «ﷺ» يفترش الأرض ، ويتوسّد الحجارة في إغفاءته ، فيشقّ عليهم الأمر ، ويحزنون ، فيتواصلون من واحد لآخر :«إلزموا الهدوء، ولا تأتوا بضجيج ، ولا يحاولنَّ أحدُ الاقترابَ من رسول الله حتى يأخذ قسطاً من الراحة » . . . ثم يقولون في أنفسهم : « لا حول ولا قوة الا بالله » . .

ولكنَّها دقائق معدودات يرون بعدها رسولَ الله «ﷺ» قد صحا من غفوته ، فلا يلبث أن يهبَّ من مكانه ، ويتقدم معاتباً وهو يقول لهم : « ألا أيقظتموني » !.. ثم يسارع الى معول ، فيلتقطه ، وينزل الى عمق الخندق يضرب فيه وهو يردد : « اللَّهم إن العيشَ عيشُ الآخرة ، فاغْفر للأنْصار والُمهاجِرَة » . .

وينسابُ دعاءُ النبيِّ «ﷺ» على الشفاه ، فيغنِّيه المؤمنون لحناً طيبا مشجعاً ، وتتناقله الحناجر نغماً رخيّاً ، تزيل به كل الأتعاب ، وتطوي كل الشدائد ، فيندفع المؤمنون يهزجون فرحين :

نحنُ الَّذين بايعْنا محمداً على الاسلام ما بقينا أبداً

ويعاودون الانشاد قائلين :

والله لولا أنت ما اهتدَينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينةً علينا وثبتِ الأقدام إن لاقيْنا
إنَّ الأُلى قد بغَوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبَينا

هكذا عاشَ المؤمنون تلك الفترات في حفر الخندق ، يؤمنون بالواجب حقاً مقدساً ، وبالعمل شرفاً سنيّاً ، ويصدقون الرسولَ نبيّاً كريماً ، فلا يحفلون بما يصيبهم من تعب ، ولا يملّون مما يواجههم من

نصب . ولكن اذا كانت هذه حالهم ، فإنَّ حالة تلك الفئة من المنافقين ، الذين جاؤوا يشاركون في العمل خوفاً من المصير على حياتهم ، لم تكن لديهم القوة على احتمال ذلك التعب المضني ، ولا الصبر على ذلك العناء الشديد ، فما وجدوا أنفسهم الاّ متراخين ، كسولين ، عاجزين عن المتابعة ، ويأخذهم الحياء من الافصاح عما بهم ، فلا يجدون الاّ الهروب سبيلاً للخلاص من النكبة التي أوقعوا حالهم بها ، فيذهبون متسللين الى بيوتهم ، الواحد تلو الآخر ، حتى بلا ذريعة يحتجون بها ، أو إذن يمكن ان يحصلوا عليه من رسول الله ﴿ﷺ﴾ ....

واذا كان فرارهم ذاك قد تمَّ خلسةً عن الأعين ، فإنهم سها عن بالهم أن عين الله سبحانه ساهرة ، وهي ترقب كل حركة يقوم بها الانسان على وجه هذه الأرض ، وأنهم سيجازون على فعالهم تلك ، فقد نزل بهم قول الله تعالى :« لا تجعلوا دعاءَ الرَّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . قد يعلم الله الذين يتسلَّلون منكم لواذاً ، فلْيَحذِر الذين يخُالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذابٌ أليم » .

نعم إنَّ الله سبحانه وتعالى يرقب من عليائه ، كل حركة من حركاتنا ، وكل سكنة من سكناتنا ، لأنه أقرب للانسان من حبل الوريد ، واذا كانت فِعالُ المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون هروباً تستحق العذاب الأليم ، فإن فِعال المؤمنين الصابرين ، المجالدين ، الذين لم يستهينوا بالعمل ، ولم يتخلّفوا عن الواجب ، هي لها أيضاً جزاؤها الكريم من عند الله سبحانه ، ولكنه الجزاءُ الأوفى المجسَّد بالرحمة والغفران .. فلئن احتاج بعضهم الى قضاء شأن خاص ،

وكل امرىء قد تكون له بعض الشؤون التي تفرض عليه القيام بها ، فإنَّ هؤلاء لا يمكن أن يذهبوا لتلك الشؤون إلاّ أن يستأذنوا رسولَ الله «ﷺ» بذلك .. ويأمرُ الله تعالى رسولَـهُ الكريم بأن يأذن للمؤمنين لـقضاء حاجاتهم ، وأن يستغفر لهم ، لأنهـم ما تركوا عملهـم إلا لضرورة دعت اليه ، وذلك بقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولـه ، واذا كانـوا معـه على أمـر جامعٍ لم يذهبـوا حتـى يستأذنوه ، إنَّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذنْ لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله إنَّ الله غفور رحيم » .

وبنفحات الألوهية هذه التي أقامت الموازين والفـوارق بـين المؤمنين والمنافقين ، تتابع العمل في حفر الخندق حتى انتهوا منه بعد ستة أيام متواصلة ، بذلوا أثناءها ، في اللّيل والنهار ، جهوداً مضنية حقاً ، وما كان لغير المؤمنين أن يؤتوها في مثل تلك المدة الوجيزة ...

وما إن انتهى العمل من حفْر الخندق ، حتى وقف رسولُ الله «ﷺ» يرقبـه بعـينٍ راضية ، ونفس مطمئنـة ، فحَمـد الله وأثنـى عليه ، لما منَحهُ ومنح المؤمنين من قوة العزيمة ، وطـول الصبر حتى مكّن لهم إقامة هذا الخط للدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم ...

وعادَ أولئك العاملون الى بيوتهم ليرتاحوا ، بل لكي ينفضوا عنهم الأوساخ والغبار ، ثم يستعدون للمواجهة والقتال ... وكان عملُ الرسـول «ﷺ» في تلك الفتـرة أن تفقّـد التحصينـات التـي أقيمت ، واطّلع على تدابير الدفاع التي اتخذت ووقف على وسائـل

الصمود التي اعتُمدت .. فلما اطمأنَّ الى تنفيذ ما كان قد أمَر به ، والى أنَّ جميع الأمور التي أرادها قد دُبّرت ، دعا إلى المناداة بالخروج ، ثم ركب في ثلاثة آلاف مقاتل ، يتقدمهم الى الناحية الشمالية من المدينة حيث أقيم الخندق . وهنالك نصبت للرسول ﴿ﷺ﴾ خيمته الحمراء ، وأقيم معسكر الجيش الاسلامي ، متخذين من هضبة « جبل سلع » حاجزاً يحمي ظهورهم من العدو ، ومن الخندق عاملاً يفصله عنهم ..

هذا ما كان من أمر المسلمين ، وما قاموا به من استعدادات للدفاع عن أنفسهم .

أما المشركون ، فبعد التقاء جموع أحزابهم في بدر ، ولمّا لم يجدوا المسلمين في انتظارهم كما كانوا يأملون ، فإنّهم توزعوا كتائب عديدة ، قادَ معظمها أبو سفيان بن حرب ، وتقدّم بها يريد دخول المدينة ، فإذا هي كالحصن المنيع لا تمكّن الأعداء من الاقتحام او الغزو ..

وإنها لمفاجأة تجبَهُ الأحزابَ ، وتوقف زحفَ الغازين ..

فما كان في ظنهم أبداً أن تلاقيهم المدينة بتلك الآطام والتحصينات المنيعة لتمنع عليهم دخولها !...

وما كانوا ليحسبوا أن الجبال التي تحيط بها هي العوامل التي تفوّت عليهم ولوجها ...

بل ولم يكن يخطر على بالهم قطُّ بأن المسلمين يمكن أن يحفروا

هذا الخندق الذي يبعدهم عن الوصول إليها . .

وكأنما تلك الأحزابُ قد ذهلت عن كل الحواجز والموانع ، ولم يَعُدْ في خلدها إلاَّ هذا الخندق ، تحدّق به ، فإذا هو حديث عهد بالحفر ، عميق المدى ، واسع العرض ، لا يجرؤون على النزول إليه ، لأنه يبتلعهم في أعماقه . . ينظرون إليه غير مصدّقين . . ولكن هل يمكن أن يكذبوا أعينهم وهي تريهم بأنه حقيقة قائمة لا مناص من إنكارها ؟! . . .

ويشعرون بالغضب والحنق فيتساءلون :

« من أين لمحمد وأصحابه هذا الصنيع في الحرب ؟ . إنها لمكيدة لم تعرف بها العرب قطُّ ، ووسيلة في الدفاع لم تستخدم عندَهُم من قبل » ! . .

ولئن كَثُر التساؤل وطال التحديق ، فإنَّ ذلك لن يجدي تلك الأحزاب نفعاً . . فهذا الخندق يبدو أمامهم ، ولن يمكنهم اجتيازهُ ، تماماً كما أنهم لن يستطيعوا اختراق الآطام ، فماذا يفعلون ؟

لقد جاؤوا يغزون المدينة ، وفي ظنهم أنها لن تصمد أمامهم أكثر من يوم أو بضع يوم . . وها هُمْ يرون أنَّ دخولها عسيرٌ جداً ، إن لم يكن ضرباً من المحال ، فلِمَ إذن لا يرجعون ؟! . . .

ولكن هل رجوعهم أمرٌ هيّن عليهم ؟! .

لا ! . . لئن رجعوا على هذا النحو ، بلا قتال ، فإنها الهزيمة النكراء . . .

إذن فلمَ لا يضربون حصاراً على المدينة ، ويطوقونها من عدة جهات ، علَّ الأيام القليلة القادمة تتيح لهم سبل اقتحامها والقضاء على محمد وأصحابه ؟! .. وعلى هذا الأمل ، أعطيت الأوامر بالنزول ، وإقامة معسكراتهم حول المدينة ..

فنزل جنود الأحزاب يحاصرون المدينة ، وينتظرون الوقت الذي يأمرهم فيه قادتهم بالهجوم .. ولكنْ ، ها هي الأيام تمرُّ ولا شيء من تلك الأوامر ..

وها هي الليالي تمضي والآمالُ التي منت بها الأحزاب نفوسها تنقضي معها ، فالأمور لم تتبدّل منذ قدومهم ، فهم ما زالوا على حصارهم بلا جدوى ، والمسلمون ما زالوا في الداخل يتمتعون بالحماية والمنعة .. وعادوا إلى الانتظار ...

وعادت الأحلامُ تخبو من جديد .. لقد جاؤوا يؤملون غزو المدينة سريعاً ، ثم يعودون محمّلين بالأسلاب والغنائم ، ظافرين بالنصر النهائي على محمد وأصحابه .. ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يتحقق ، بل على العكس بدت العلائمُ تظهر بأنَّ الظروف قد خانتهم ، وباتت الأوضاع تتحوَّل ضدَّهم ، إذ كلما طال بهم الانتظار ،كان ذلك مدعاة إلى ضعفهم ، وانحلال قواهم .. وها هي الأيام تكشف عن صدق هذا الحدس ، فقد بدأ التململ في صفوف المقاتلين يظهر ، والملل في نفوسهم يقوى ، فراحوا يجأرون قادتهم بالذهاب ، ويتطاولون عليهم بالخذلان !.

وإذا كان قادة الأحزاب لا ينفكون يواصلون الاجتماعات ،

ويعقدون الندوات للتشاور والائتمار ، دون أن يتوصلوا إلى حل يجمعون عليه ، فإن ما راح الجنود يجابهونهم به ، يدعوهم إلى اتخاذ قرارٍ نهائي ، يحسم الأمر فيما بينهم . . .

وعادت الآراءُ أثناء اجتماعهم تظهر متشتّته ، متضاربة . . .

فمن قائل : أترون يا قوم بأننا لم نحمل معنا من المتاع والزاد ما يكفي ، فمن أين نطعم إن طال بنا المقام على هذه الحال ؟! . . .

إلى قائل : أم لعلكم لا تحفلون بأيام الشقاء هذه ، وما يحمل لنا طقسها الرديء من بردٍ قارس ينخر عظامنا ، ومن عواصف هوجاء تكاد تقتلع خيامنا . . لا ، لن نقدر على مقاومة حرب الطبيعة ، وقد تألّبت علينا قواها العاتية ، فذهابنا خير من بقائنا وسط هذه الأعاصير ! . .

ومنهم من أبدى بأنهم أصبحوا على وشك الضياع والتيه ، لا يدرون أخيراً جاؤوا من أجله أم شراً سوف ينقلب ضدهم . . وما عليهم إن عادوا لديارهم وأهليهم ينعمون بالدفء والأمان ! . . .

. . لقد كانت الآراء متفرقة ، والخلاف واضحاً بين قادة الأحزاب ، حتى بدا للبعض بأن الأمر بات ينذر بأسوأ العواقب . . وكان ممن أجفَلَهُ تضارب الآراء ، وأوقع في نفسه الوجد ، حُيي بن أخطب ، إذ خاف أن يجمع الرأي على الذهاب عن المدينة ، فتذهب تلك الجهود التي بذلها لشدّ العرب إلى غزوها سدى ، وتضيع الآمال التي عوّل عليها في القضاء على محمد ، لأنه لن يكون من السهل أبدا معاودة جمع قبائل العرب من جديد على حربه . . وبذلك فإنها

ستكـــون الهزيمة التي تلحق به وببني قومه من اليهود إلى الأبد . . ولكـــن هل يدع حييّ بن اخطب هؤلاء العرب المغفلين أن يخذلوه حقا ؟! . . . لئن كان محمدقد عصي عليهم بما أقام من استعدادات ، فإنه لن يعدم الوسيلة لتبديد كل ما قام به ، والوصول اليه ، والانتقام منه . . .

لا ! . . إنه لن يترك هؤلاء الأحزاب يذهبون ، ما دام عنده عقل يفكر ويدبر ؟! . . .

ولكن ماذا يمكن لابن أخطب أن يفعل ؟! . . .

إنه يهودي . . . وهو لن يعدم الوسيلة التي يحتال فيها على الأحزاب حتى تصمد لقتال محمد وأصحابه . .

. . . ويقف حُيي بن أخطب وسط الاجتماع قائلاً :

ـ ما أحسبني إلاّ دخيلاً عليكم يا قوم ، فاعذروني إن غدوت قافلاً إلى الديار في أبناء قومي . . وبُهت المجتمعون فسألوه عما دهاه حتى يقول ذلك ، فأجاب بخبث ودهاء :

وما تظنونني فاعلاً ، وهذا جمعكم قد وهنت منه النفوس وهانت عليه الكرامة ، حتى آثَرَ الذل والمسكنة ! . . ونظر المجتمعون إلى بعضهم مدهوشين ، فقالوا له :

ما هذا التجنّي علينا يا ابن أخطب ، وما دهاك حتى تنعتنا بهذه الأوصاف الشنيعة ؟! . .

فقال اليهودي :

ـ يا سادة العرب ! لقد ظننتُـمُ العودة إلى دياركم نجاة لكم ، ولكنها والله الهزيمة التي هي أشدُّ من هزيمة القتال ، فمن رغب في مثل هذا العار يلحقه فليذهب ، وإلاَّ دعونا نقوم على أمر جامع لا يكون فيه إلاَّ نصرُنا وعزنا جميعاً . .

قالوا وقد أخذهم الحماسُ : هيا وقل لنا ما تفكّر به ! . . .

قال اليهودي : لقـد نسيتـم أنَّ بني قريظـة مِنّا نحـن معشر اليهود ، وأن إقامتهم بجوار محمد ما كانت إلاَّ على مضض ، فلِمَ لا نتسلل إلى بيوتهم ، ونقنعهم بفتح أبواب آطامهم أمامنا ، وبـذلك نقطـع المددَ عن المسلمـين ، وندخـل إلى المدينـة نقاتلهـم في عقر دارهم ؟! . . .

وطافَ الفرحُ على وجوه زعماء الأحزاب ، فقالوا له :

وكيف السبيل إلى ذلك ؟

قال اليهودي : أنا أذهب إلى زعيم بني قريظة وأحرّضـه على الانضمام لجموعنا . .

قالوا بصوت واحد : هيا وائتِهِ مسرعاً . .

وانتهى ذلك الاجتماع على وفاق بعدما أمكن لابن أخطب أن يقنع قادة الأحزاب بجدوى خطته . . فانتظر حتى أقبل الليلُ ، وغطت الظلمة القاتمة الأرجاء ، فتسلل في نفـر من أصحابـه حتى وقفوا على حصن بني قريظة ، وطلبوا أن يتحدثوا إلى زعيمهم كعب ابن أسد . . ولكن كعباً ما أن علِمَ بما جاءَ له حُيي، حتى ارتعدت

فرائصه من الخوف .، ونصحَهُ بالعودة من حيث أتى قبل أن ينكشف الأمر، وتدور الدائرةعليه وعلى بني قومه . . إلاَّ أن حييّا ما زال به ، يداهن ويراوغ ، حتى أقنعه بأن يسمح له ومن معه بالدخول ، وما أن تقابلوا ، وصاروا وجهاً لوجه ، حتى بادره حييّ قائلاً :

« ويحك يا كعب ، أترفض مواجهتي وقد جئتك بعز الدهر وببحر طام ! جئتك بقريش وغطفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدوني وعاقدوني الاَّ يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه » . . .

وتردَّدَ كعب بن أسد في الجواب . . . فقد أخذه التفكير فيما يعرضه عليه حيي ، ولكنه يرى بأنه صاحب عهد الموادعة مع محمد ، وأن قومه بني قريظة آمنون في ظل هذا العهد ، فهل ينقضه ويعرض بني قومه للهلاك ؟!! . . لا ! إنه لا يقدر على ذلك ، فقال لحييّ : « بل جئتني والله بذل الدهر وبسحاب قد نزل ماؤه » . .

فقال ابن أخطب يحرّضه : « لعلك نسيت يا كعب ما فعله محمد بنا نحن معشر اليهود! فقد أخرج بني قينقاع أذلَّةً ، وأجلى بني النضير مقهورين ، ولن يأتي يوم إلاَّ ويكون مصيركم يا بني قريظة مثل مصير كل بني يهود في المدينة » . .

قال كعب : « لقد عاهدنا محمد على حسن الجوار ، ووادعنا على السلم ، وما رأينا منه إلاَّ وفاء وصدقاً لعهوده ، فما يصيبنا إن حنثنا بالعهد وانتصر محمد » ؟!

قال حييّ : إنه للوهم بعينه . . وكيف يكون له النصر وتلك الجموعُ حول المدينة قد جاءت تطلب الثأر عنده ؟ لعلك يا كعب

تستهين بقوة قريش وغطفان . وتستخف بغايات تلك القبائل التي أتت مؤازرة تطلب السلب والنهب » !

وطال النقاشُ بين الرجلين ، واحتدم الجدل بينهما ، وما زال كلٌ منهما يتمسك برأيه . . فكعب بن أسد يريدُ البقاء على الحياد ، وحييٌ بن أخطب يريده أن ينضمّ إلى الأحزاب . . وما زال به حييٌ ، يؤلّبه على النبي «ﷺ» ، ويغويه بالآمال العريضة ، حتى أقنعه بالانضمام إلى الأحزاب ، فأقبل عليه يعانقه ، وهو يعده بالنصر الأكيد . . ولكنَّ كعباً استدرك أمراً لم يثبت عليه أثناء النقاش ، فعاد يقول لحييّ : « وعلى فرض أن محمداً قد انتصرَ فما يحلُّ بنا » ؟

قال حُيي : « أعاهدك يا كعب ، لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً ، لأدخلنَّ معك في حصنك ، فيصيبني ما يصيبك » . .

قال كعب : إذن فأمهلونا أياماً عشرةً نتمكن أثناءها من إعداد عدتنا ، ونصبح قادرين على القتال » .

قال حُيي : لك ذلك يا كعب . .

وعادَ حُيي بن أخطب في تلك الليلة يخبر قادة الأحزاب ـ الذين كانوا ما يزالون في انتظاره ـ بما جرى معه وكيف أمكنه أن يقنع زعيم بني قريظة بالانضمام إليهم ، فراحوا يهنئونه علي نجاحه ، وهم يتوهمون بأنَّ انحياز بنّي قريظة لهم سوف يساعدهم على تبديل الأحوال ، وتحقيق ما جاؤوا إليه . . .

ولكن أنّى لابن أخطب ، مهما كان صاحب حيلة ودهاء ،

وأنّى للأحزاب مهما كانت جموعها غفيرة وقواها شديدة ، فإنها لن تحقق نصرْاً على المؤمنين ، وهم على عهدهم لله قائمون ، أو أن تهزم جنده وهم لدينه ناصرون ! . . . فما كادَ يطلعُ الصباحُ حتى كان خبرُ نقض بني قريظة لعهدهم قد بلغ رسولَ الله «ﷺ» فاهتزَّ له ، وخاف من سوء عاقبته الوخيمة . . فرأى ألاّ يشيع ذلك الخبرُ بين المسلمين حتى لا يكون له أثره السلبي على صمودهم ، ولكنه أرادَ أن يقف على جلية الأمر ، فدعا إليه سعد بن معاذ ، سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعض الصحابة الآخرين أمثال عبد الله بن رواحة ، وخوّات بن جبير وغيرهم ، يطلعهم على ما تناهى إليه من نقض بني قريظة لعهده معهم ، ويبعثهم يستجلون الحقيقة ، وهو «ﷺ» يوصيهم بأن يكتموا الخبر إن وجدوه صحيحاً وإلاّ فليجهروا به ويذيعوه على الناس . .

وذهب هؤلاء الصحابة إلى دار كعب بن أسد ، فأبى أن يقابلهم . . فقالوا : هذا أول البلاء . . . ولكنّهم لم يحفلوا برفضه بل أصرّوا على رؤيته ، مما أجبره على الاجتماع بهم ، وقد جاءَ في نفر من بني قومه ، تعلو على وجوههم الضغينة ، والشرُّ يبدو من عيونهم ، يسألونهم بحدّةٍ وغضبٍ عما يريدون ، فقالوا لهم :

« جئنا نؤكد عهد موادعة رسول الله لكم » . .

فردوا عليهم بصلافة ووقاحة : « ومن رسول الله الذي تزعمون » ؟! . . .

ونظر الصحابة بعضهم البعض ، والغضب يعتمل في

نفوسهم ، ولكنهم أظهروا اللّين والصبرَ ، فقالوا :

« محمد رسول الاسلام ! الذي عاهدكم على الموادعة وحسن الجوار » .

فردّ نفرٌ بني قريظة : « لا عهد لمحمد عندنا » .

فقد كان واضحاً للصحابة منذ البداية بأن بني قريظة قد نقضوا العهد بالتأكيد ، إلاّ أنهم أظهروا التغافل عن مكرهم وغدرهم لعلّهم يجدون سبيلاً لإقناعهم بالعودة عما فعلوه ، فراحوا يذكّرونهم بما يلقون من حسن معاملة المسلمين لهم ، وبالحفاظ عليهم ، ويظهرون رغبتهم في البقاء على ذلك الوفاق والوئام . . ولكنهم لم يسمعوا من القوم إلاّ ما ينذر بالغدر والخيانة إذ قالوا لهم : « الخير لكم في أن تذهبوا ، فما أنتم إلاّ أعداء لا نرجو إلاّ قتالهم » . .

وكان سعد بن معاذ حليفاً لبني قريظة ، وقد ساءه ما يبدي حلفاؤه من خيانة وعداوة، إلاّ أنه رغم ذلك آثر أن يكون ناصحاً لهم لعلّهم يرعوون عن غيهم ، فقال لهم :

« والله إني لأخشى عليكم مثل يوم بني النضير وأمرَّ منه » . .

وكأنما رأى زعيم بني قريظة في نصح سعد حجةً على المسلمين ، فقال له : « ردّوا بني النضير إلى ديارهم ، وسننظر في أمرنا معكم » !

قال سعد : « لقد نكثوا عهدهم ، وخانوا وعدهم . وما أراكم تسيرون على خطاهم إلاّ خطأ ، فأنتم حلفائي ويعزُّ عليَّ أن

تقعوا بمثل ما وقعوا فيه من خطأ » .

قال كعب : « نحن لا نريد نصح أحدٍ ، وقد اشترطنا عليكم حتى ننظر فيما يكون بيننا وبينكم ، فاذهبوا إلى محمد وأبلِغوه شرطنا » . .

وثارَ سعد بن معاذ ، يريد أن يهجم على الرجل ويقتله ، فقد أرادَ أن يكون ناصحاً للقوم حافظاً لهم . فما وجد عندهم إلاَّ الغرور والاستعلاء . . ولكنه رغم غضبه عادَ يتمسك بالصبر ثم ألحَّ ، عليهم بأن يعيدوا النظر في موقفهم لأن ذلك أجدى لهم ، إلاَّ أنهم لم يبدوا إلاَّ فحشاً في القول ، وزيادة في التهجّم والاستهزاء ، حتى أخرجوه عن حكمته وصبره ، فراح يكيل لهم الشتائم بمثل ما يشتمون ، غير أنَّ أصحابه أخذوه من كتفه ، وهم يقولون : « دع عنك شتائمهم يا سعد ، فالذي بيننا وبينهم أقوى من الشتيمة وأبعد من الخلاف في القول » .

وخرج أولئك الصحابة من عند بني النضير غاضبين ، حانقين ، حتى أتوْا رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأخبروه بحقيقة الأمر ، فأسف لذلك كثيرا ، ثم دعا إليه جماعة من المقاتلين ، وأمرهم بالذهاب ومراقبة بني قريظة فيما يفعلون . . ولم يبق خبر بني قريظة خافياً على المسلمين ، فذعروا منه ، وداخلهم الخوف من عواقبه لأنَّ بني قريظة أمسوا عدواً في الداخل ، قد يكون أشد خطراً عليهم من العدو القابع خارج المدينة . .

وفي هذه الاثناء التي داهم فيها ذلك الخوف المسلمين ، كانت ثلاث كتائب للاحزاب تحاول التقدم نحوهم ، وقد جاءت إحداها بقيادة ابن الأعور السلمي تنزل من فوق وادي جبل سلع ، والأخرى بقيادة عيينة بن حصن تقترب من تحتهم ، من الجانب السفلي ، بينما اقتربت كتيبة أبي سفيان بن حرب حتى وقفت قبالتهم على الناحية الثانية من الخندق . . وهذا ما جعل خوفهم يزداد ، والرعبَ في قلوبهم يقوى ، لأنهم رأوا الخطر يحدق بهم من كل جانب . . .

وكانت هذه الفترة من اشد الفترات صعوبة على المسلمين ، وأكثرها حرجا ، فلا شيء من حولهم يبعث على الأمل ، بل على العكس إذ كان كل ما يحيط بهم لا يبعث إلاّ على الرهبة والذعر ، ولا يثير إلاّ الهم والقلق . . .

إنه لبلاء عظيم يخترق بفظاعته حصون نفوسهم فيثير فيها الظنون القاتمة ، ويندفع بفداحته إلى قلوبهم فينزل بها المشاعر المظلمة ؛ ويتعاظم هذا البلاء عليهم حتى يبلغ المدى الذي تزيغ معه الأبصارُ ، وتبلغ به القلوبُ الحناجر ، فيصير معه المسلمون على تلك الحالة التي وصفهم بها الله تعالى بقوله العزيز : ﴿ **إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ . .

ورأى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ما أصاب المسلمين من هلع في

النفوس ، وقلق على المصير ، فراح يهوّن عليهم بأنّ الله سبحانه لن يتخلّ عنهم ، وبأنه قادر على إزالة الشدة ، ورفع الظلم ، وأنه فاتح لهم طريق الظفر بالعدو والنصر عليه ، وهو يقول بثقة النبي الصادق ، والرسول الأمين: والذي نفس محمد بيده ليفرجنّ الله عنكم ما ترون من الشدة ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا ، وأن يدفع الله إليّ مفاتيح الكعبة ، وليهلكنّ الله كسرى وقيصر ، ولتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله .

ويطمئن المؤمنون لوعد النبي ﷺ ، فيشعرون بالهموم تتبدّد ، وبالأحزان تتلاشى ، فيصبرون محتسبين ، داعين إلى الله سبحانه أن يعجل لهم في الخلاص من هذا المأزق الشديد . . أمّا المنافقون فيبقى الضعف مسيطراً على نفوسهم ، فلا يحفلون لوعد رسول الله بالنصر ، ولا يقنعون بأنّهُ الصادق الذي لا ينطق عن الهوى وهم يرون من أخطار العدو ما يوشك أن ينزل بهم البلاء ، وينشر المصيبة ، فلا يحتملون البقاء بين الصفوف ، بل يؤثرون الانسحاب والانصراف إلى منازلهم وهم يحتجون بالقول بأنها عورة ويخافون عليها من الدخول والاعتداء . . وإذا كان هنالك من حياء في تصرف هذه الفئة من المنافقين ، وهي تحتجّ بما تحتجُّ لترك المؤمنين في أصعب الظروف وأحلكها ، فإن فئة أخرى بلغت بها الوقاحة حدا أن لم تتورع في فرارها عن النيل من رسول الله ﷺ وهي تتهمّهُ في صدقه ، فيقول أصحابها بعضهم لبعض : « يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب في

حاجة له ويعود سالماً . . لنذهبّن إلى بيوتنا فندخلها آمنين » . وما زالت هذه الفئة من المنافقين تحرّض على الهروب ، والانسحاب ، حتى لم يبق أحدٌ منهم بين صفوف المؤمنين ؛ وفيهم نزلَ قولُ الله تعالى : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبيّ يقولون : إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فراراً . إلى قوله تعالى ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلُ لا يولون الأدبار وكان عهدُ الله مسؤولاً . إلى قوله تعالى قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً ﴾ .

فالمنافقون يفرون ، وكتائب الأحزاب تتقدّمُ ، من أعلى ومن أسفل ، وليس أمام المؤمنين إلاّ الصمود والقتال ، فتنهال سهامهم على تلك الكتائب مثل وابل من المطرَ ، فتجبرهم على التقهقر والتراجع ، إلاّ بعضٌ فرسان من كتيبة أبي سفيان بن حرب ، فإنهم راحوا يقتحمون الخندق وفي زعمهم أنهم يمهّدون للآخرين طريق اللحاق بهمْ ، فلا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وحْدهم قد أقدموا على ذلك الاقتحام ، بينما تقاعست جنود الأحزاب عن اللحاق بهم . .

وكان اولئك الفرسان الذين اندفعوا في وسط الخندق هم : عكرمة بن أبي جهل ، ونوفل بن عبد العزى ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة بن أبي وهب ، وعمرو بن ودّ العامري . . وكان عمرو بن ودّ أول من عبر الخندق ، ووصل إلى طرفه الآخر من ناحية المسلمين ، وهو ينادي بأعلى صوته : « هل من مبارز » ؟! . .

ويراه المسلمون مندفعاً على تلك الحالة من الهيجان والإقدام ، فلا يجرؤ أحد منهم على أن ينتدب نفسه للنزول إليه وملاقاته . ويزيد في تقاعسهم ذلك ما كان للرجل من شهرة في القتال ، وذيوع صيت في المبارزة ، حتى قيل عنه في الجزيرة : بأنه البطل الذي لا يقوم له رجل من العرب ، وقد سمي لشهرته تلك « فارس يليل » .. أما السبب في هذه التسمية فيعود إلى يوم كان في ركب من قريش ، عبر وأصحابه في ذلك الركب ، بوادي « يليل » - القريب من بدر - فتصدى لهم عدد كبير من فرسان بني بكر ، ويشتبكون معهم في قتال ، فإذا بعمرو بن ود يصرخ بأصحابه أن يخلّوه وحده ، ويذهبوا فارين بأنفسهم من الموت ..

فإن أصحابه كانوا يلوذون بالفرار ويختبئون بينما يبقى لوحده يقاتل المعترضين فيجرح من يجرح ، ويقتل من يقتل ، حتى ينزل بهم الهزيمة ويهربوا من وجهه .. وما ان هدأ القتال واطمأنَّ أصحاب عمرو إلى أن عدوهم قد ترك تلك الناحية حتى خرجوا من مخبئهم يريدون الوصول إلى مكان القتال لأخذ جثة صاحبهم فلا تبقى في الفلاة طعاماً للوحوش والغربان ، فيفاجأون به يطلع عليهم ظافراً ، يزهو بنفسه ، وبتفريقه شمل العدو ، فيستقبلونه بالهتاف : « أهلا بفارس يليل » ... ومنذ ذلك الحين وذلك اللقب يغلب عليه ، مدللاً على شجاعته وبطولته ..

تلك الشهرة هي التي أجفلت أبطال المسلمين ، فلم تطاوع أحداً منهم نفُسه ، بالبروز إليه ومقاتلته ..

ورأى عمرو بن ود تقاعس المسلمين عن ملاقاته ، فزاده ذلك اعتداداً بقوته ، وراح يتخايل في الساح على فرسه ، ويجول ويصول مدلاًّ بعزمه ، ومضاءِ حُسامِه ، وهو لا يفتأ يردد متباهياً : « هل من مبارز ، هل من مناجز » ؟!..

ويراه أصحابه على تلك الحال من الجرأة والشجاعة ، فيقول أحدهم ، وهو يصف خندق المسلمين بـ « المداد » :

عمــرو بن ود كان أول فارس طفــر المداد وكان فارس يليل

ويبقى عمرو بن ود يجول في الميدان وحده ، دون ان تنقطع مناداته للمسلمين ، او يتوقف افتخاره بنفسه ، بينما يظل أبطال المسلمين على صمتهم ، وقد سيطر عليهم الرعب منه .. وقد لا يكون هؤلاء الابطال ممن تعوزهم الشجاعة والمبارزة ، ولكنها الظروف القاسية التي تحيط بهم ، والاجواء الصعبة التي تثقل عليهم ، هي السبب في ذلك التقاعس ، واللواذ بالسكون .. ويطول نداءُ عمرو بن ود لهم ، ويطول تقاعسهم عن البروز له .. ولكن إلى متى ؟! ..

ألا يوجد بين صفوفهم رجل واحد عنده من الشجاعة ما يكفي للتصدّي لهذا المشرك الذي لا ينقطع مذ طفر الخندق ، عن التعالي عليهم بنفسه ، والتباهي ببأسه واشتداده ؟! ..

بلى واللهِ ..

إنه البطل المغوار ، عليٌّ بن أبي طالب الكرار بسيفه ذي الفقار ، الذي لا تطاوعه نفسه ، أن يرى كافراً يتعالى على المسلمين

ويتركه وشأنه ، فيتقدم من رسول الله «ﷺ» قائلا : « أنا له يا نبي الله » .. ولكنَّ النبي «ﷺ» ، يردع عليا عن مراده ويقول له : « إنه عمرو يا علي ! فاجلس » ..

وتزداد صرا ـات عمرو حدة ، وتتحو ـ إلى صرا ـات مؤنبة ، جارحة للمسلمين ، تستهدف إيمانهم بالذات ، وهو ينادي فيهم : « يا من تزعمون أننا إذا قتلناكم تدخلون الجنة ، وأنكم إذا قتلتمونا دخلنا النار ، هلمّوا إليّ فأنا بانتظاركم .. وهذه طريق جنتكم مفتوحة أمامكم فانزلوا لمبارزتي وأنا أقودكم إلى تلك الطريق ! ...

وغضب رسول الله «ﷺ» لاستهزاء هذا الكافر بهم ، فنادى في المقاتلين :

« من يبرز إلى عمرو وأنا كافل له على الله الجنة » .

ويظل الجميع قابعين في الصمت ، يسيطر عليهم جو الرهبة والخوف ، فيعود علي ويتقدم من رسول الله «ﷺ» قائلا : أنا له يا رسول الله ! .

ويعاود الرسول «ﷺ» قوله لعليّ : إجلس يا علي ، إنه عمرو ! ..

وينصاعُ علي (ع) لأمر النبيّ «ﷺ» ، فيعود إلى مكانه ، وهو ينظر ناحية الرجل مغضبا به ويشتدُّ غضبه وهو يسمع فخاره يتعالى إنشاداً :

ولقد بُححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جُبن المشجّع موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز .

ويندفع عليٌّ عليه السلام نحو النبي «ﷺ» يطلب مبارزة الرجل من جديد ، فيقول له صلى الله عليه وآله وسلم : ولكنه عمرو يا عليّ !..

فيقول عليّ للرسول «ﷺ» : وإن يكن عمرا يا رسول الله ؟!..

وينظر النبي «ﷺ» إلى عليٍّ بعين ملؤها المحبة والعطف ، وتتجاذبه حياله شتى الأفكار .. إنه علي : الإنسان الذي يحبه من أعماقه ؛ فقد كان اول من آمن به بعد زوجه خديجة (رضي الله عنها) وظلّ بجانبه منذ ذلك الحين ، يعينه على نوائب الأيام وصعابها بقدر ما يستطيع ، وهو الذي فداه بنفسه عندما نام في فراشه يوم هجرته ، وهو زوج ابنته التي منها نسله ، فكيف يسلّمه إلى عمرو ابن ود صاحب القوة والبأس ، قاتل الرجال ومشتت الفرسان !...

ولكن أوليس الإسلام بحاجة إلى عليّ الآن ؟

إذن فنداء الواجب أهم من أي نداء آخر !..

وما على الرسول «ﷺ» إلاّ أن يأذن لعليّ بالمبارزة ..

ويأخذ النبيُّ «ﷺ» درعه ذات الفضول ويعطيها لعلي فيلبسه ، ثم يسلّمه سيفه ذاالفقار ، ويمدُّ يده إلى رأسه فينزع عمامة السحاب عنه ويشدّها على رأس عليّ في تسعة أكوار ، فوق وجهه المقنّع بالحديد ، ثم يشدّه إلى صدره ، ويقول له : « تقدم على بركة الله »..

ويندفع عليّ راكضا نحو عمرو ، فيرمقه النبي «ﷺ» بنظراته ، ثم يرفع يديه وناظريه نحو السماء داعيا له الله تعالى : « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » . .

ألاَ إنّه قد برز الايمان كله إلى الكُفر كلّه. اللهم سدِّد عليّا وأيده وانصره على خصمه. إنك ارحم الراحمين. إن رسول الله «ﷺ» يقف في هذه اللحظات متوجهاً بكليته إلى خالقه ، يناجيه بضمير المؤمن الصادق الذي يمتلىء بالخشوع ، وبفكر العابد الذي يحفل بآفاق الإنسانية ، وبنفس المخلص التي تستوعب مشاعر البشرية . . . إنَّ الموقف حرج ، والوضع دقيق للغاية ، فإنْ ناجز علي بطلَ الكافرين وقهره ، فالانتصار لا يكون لعلي بل إنه انتصار الايمان على الكفر ، ودحر الحق للباطل . وإنه الانتصار الذي تتبدّل به الأوضاع كلها ، فتعود للمسلمين الثقة بنفوسهم ، ويهزمون ذلك الضعف الذي ينطوي في أفئدتهم ، فتكون البداية لتحقيق النصر الأخير بعون الله . .

فالنبي «ﷺ» في اتصاله الاشراقي بربه ، وعلي عليه السلام مندفع نحو عمرو في شجاعته وحماسه ، لا يأبه لشهرة هذا الرجل التي تملأ أفاق الجزيرة ، ولا يحفل بغطرسته وتباهيه بقوته . . إنه ينطلق إليه كالأسد الهصور يثب وثبا ، حتى يصير قبالته ، فيبادره مهددا متوعدا وهو يقول له :

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نـيَّـةٍ وبـصـيـرةٍ والـصـدقُ مـنـجـي كـل فـائـز

إني لأرجو أن أُقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز .

ويعجب عمرو لهذا الرجل ، وقد أتاه مبارزاً ، راجزاً ، فيسأل بكبرياء وعجرفة :

« من أنت يا ذا الرجل » ؟

فيسمع عمرو صوتاً يهز مشاعره ويدوّي في أعماقه : أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . .

. . كفاك تباهياً يا عمرو بنفسك ، وأن لك أن تعرف من هم الأسياد ! . .

ما بالك وفي لحظةٍ قد خبت جذوة التفاخر في حنجرتك ، فلم تعُد تُرجُزُ شاعراً ! . .

هل أطاحَ بصلفك سليل بني هاشم لمجرد ذكر اسمه لك ؟! .

إذن فهيّا وقلْ لمبارزك ، وقد عرفت من يكون ، ما يروي غليل حقدك وحقد قومك على محمد . .

وتمرُّ لحظات وعمرو لا يقولُ شيئاً . . وتطوف في ذاكرته خلال تلك اللحظات تخيلات وتصورات ، ويفتش خلالها عما يردُّ عنه إجفال نفسه من عليّ عليه السلام فيقول مبدياً الإشفاق عليه :

« ليبرز لي غيرك يا ابن أخي . . ففي أعمامك من هو أسنّ منك وإني أكره أن أهرق دمك وأنت في سن الشباب » . .

وكان عليّ يومذاك يبلغ الثامنة والعشرين من عمره، فقال له :

« ولكني والله ما أكره أن أهرق دمك » .

وثارَ غضبُ عمرو لهذا التهديد ، فأرادَ أن يهجم على عليٍّ (ع) بفرسه ، إلاّ أنه أحجم عن ذلك وهو راجلٌ قبالته ، فقفز عن ظهر الفرس ، واندفع نحوه يستلُّ السيف بيده ، حتى إذا قاربه أهوى عليه بضربة شديدة ، فتلقاها عليّ بدرقته ، فإذا هي قد قُدَّت وثبت السيف فيها .

ولم يكن علي (رض) ليقف متلقيّاً الضربات وحسب يدفع بها عن نفسه ، بل إنه ما كادَ يستقبل ضربة عمرو حتى عاجلَهُ بضربة مقابلة هوت على أحد فخذيه فقطعته ، وجعلته مطروحا على الأرض ، مقلوبا على قفاه ؛ فإذا بعمرو يمتشق رمحه ويطعن به عليا فيبتعد عن طعانه ، فيرميه به رميا فيذهب عنه طائشا في الهواء ، عندها يتقدم منه عليّ يريد القضاء عليه ، ولكن عمرا يصمد مقاوما ، فيدور بينهما برازٌ شديد ، ويثور النقع من حولهما حتى يُغطّي كل ما حولهما فلا يعود أحدٌ يراهما . .

وما زال علي (ع) يدور حول الرجل ، تارة عن يمينه ، وتارة عن شماله ، وعمرو يقاومه بكل بسالة وقوة ، حتى أمكنه أن ينال منه بضربة نجلاء ـ كان قد وعده بها ـ فلقت هامهُ ، وطرحته على الثّرى يمتزج لحمه بدمه بالتراب ، ثم عاجله فربض على صدره كالأسد الهصور وارتفع صوتُه يشق عنان الفضاء مكبّرا بنداء الحق : الله أكبر . .

فسمع رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ والمسلمونَ تكبيرة علي (ع) ، فقال الرسول ﴿ﷺ﴾ بصوت ملؤه الفرح والايمان : « والذي نفسي بيده قتله عليّ » . .

ويندفعُ جمعٌ من المؤمنين إلى مكان القتال ، ليقفوا على مشهد للبطولة ما رأوه من قبل .

فهذا عمرو بن ودٍ ، البطل الصنديد الذي تخافه الأبطال، مجندل على الثرى ، وهذا عليّ بن ابي طالب بطل الإسلام وبطل دعوة الحق يقف فَوْق رأسه ، وذو الفقار ما زال مشرّعاً في يده ، وهو ينشد الشعر مفاخراً بنصر الله سبحانه ، مشيراً إلى عدو الله عمرو بن ود الذي ألقاه صريعاً وهو يقول :

نَصرَ الحجارة من سفاهةِ رأيه * ونصرتُ ربّ محمدٍ بصوابي
فضربته وتركته متجندلاً * كالجذع بين دكادك ورواب
وعففت عن أثوابه ولو انني * كنت المقطر بزّني أثوابي
لا تحسبنّ الله خاذل دينه * ونبيّه يا معشر الأحزاب .

وكان أصحاب عمرو الذين عبروا معه الخندق ينتظرون نهاية المبارزة بين الرجلين ، وفي ظنهم أنه سيأتي دورهم للقتال بعد أن يكون عمرو قد فرغ من قتل علي ، فإذا بهم يرون صاحبهم يهوي مجندلاً بدمائه ، فيلوون أعنّة خيولهم ويجتازون الخندق ويلوذون بالفرار ، فيسقط نوفل بن عبد العزى عن فرسه ، ويكون الجمع الذي تقدّم من المؤمنين قد لحق بهم ، وقد أخذوا الحجارة يقذفون بها نوفلَ وهو في جوف الخندق ، فيصرخ من تحت : « ألا قتلة أحسن من هذه » ؟ عندها ينزل إليه الزبير بن العوام ويقتله بسيفه .

انتهت تلك المبارزة وعادَ عليّ (ع) ليستقبله المؤمنون بهتافات النصر والابتهاج ، ويتقدم من رسول الله (ﷺ) فيأخذه بين ساعديه ، ثم يقول له : « أبشر يا علي ، فلو وزن اليوم عملكَ بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم » ..

وتقدَّم الصحابة من علي يهنئونه ، وفي طليعتهم أبو بكر وعمر ابن الخطاب (رضوان الله عليهم جميعا) اللذان قبّلاه في رأسه ، وشكر الجميع له همته العالية التي أذهبت عنهم كيد مشرك عات ، أجفل القلوب ، وأوهن النفوس . .

وفيما كان المؤمنون يلتفون حول عليّ (عليه السلام) مسرورين مغتبطين بضربته البكر التي أطارت ألباب الكفار والمشركين هلعاً ، جاءهم رسولٌ من المشركين يطلب أخذ القتيلين : عمرو بن ود ، ونوفل بن عبد العزى ، على أن يدفع عشرة آلاف درهم مقابل كل منهما . فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « ليأخذوهما ، فهما لهم ، ونحن لا نأكل ثمن الموتى » . .

وروي أنه لما نُعيَ عمرو بن ود إلى اخته ، واسمها عمرة وكنيتها أم كلثوم ، قالت : من ذا الذي اجترأ عليه ؟

قالوا : علي بن أبي طالب . .

قالت : إذن لم يعد قتله نكداً عليَّ وحرقةً في قلبي ، لأرقأتُ دمعتي إن هرقتها عليه[1] ، قتل الابطال ، وبارز الأقران ، وكانت منيته على يد كُفءٍ كريم من قومه ، ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر : ثم أنشأت تقول :

لوكان قاتلُ عمرو غيرَ قاتله ... لكنت أبكي عليه طيلة الأبد
لكنَّ قاتل عمرو لا يُعاب به ... من كان يُدعى أبوه بيضةَ البلد

وكان أثناء اقتحام جمع الصحابة لمكان المبارزة وقتل نوفل بالحجارة ، أن رمى المشركون أولئك الصحابة بالنبال فاصاب سهم

---

(١) يعني أنها الت على نفسها أن تحبس دمعتها عليه كلما هاجت بها ذكرى قتله ، لان قاتله كفء كريم .

لحيان بن قيس بن العرقة كاحل الصحابي سعد بن معاذ فقطعه وهو يصرخ من بعيد : خذها وأنا ابن العرقة . .

ويسقط سعد على الأرض وهو يردّ على ذلك اللعين بقوله : «عرف اللهُ وجهك في النار ». . فحمله إخوته وأخذوه إلى خيمة نُصبت للجرحى . . فلما هدأ الاحتفاء بفوز علي (رض) ذلك الفوز العظيم ، أمر رسولُ الله «ﷺ» ن يعود كلّ إلى مكانه ، ليظلّ على أهبة الاستعداد ، حذر غدر العدو بهم ، ثم ذهب يعودُ سعداً مطمئنا على حاله ، فأقبل عليه يواسيه ، ويخفف من آلامه بكلامه اللطيف المعهود ، وبحنانه الودود المألوف وهو يرجو له رحمة الله ورضوانه . . ثم لا يلبث الرسول الكريم طويلاً عند سعد ، بل يعود سريعا إلى خيمته ليظلّ مشرفاً على سير الأمور ، واقفا على تحرك المشركين . .

وإذا كانت عيادة الرسول «ﷺ» لسعد قد خففت كثيراً من الامة ، فإنّ فكر سعد كان مع المؤمنين ، يرجو الله سبحانه أن يكتب لهم النصر ، وأن يبقيه على قيد الحياة حتى يجاهد قريشا وحلفاءها وقد رفع يديه إلى السماء داعيا : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فابقني ، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وقاتلوه ، وإن كنت يا رب وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة » . .

فما أروع هذا الموقف من الصحابي الجليل . .

إنه سعد بن معاذ ، سيد الأوس ، ولكنه لا يطلب من ربه زعامة ولا سيادة ، ولا يحفل بأي شأن من شؤون الدنيا ، بل قلبه ووجدانه وكافة مداركه مع هذا الرسول الصادق الذي ما زالت

العرب ، وفي طليعتها قريش ، تعمل جاهدة للقضاء عليه وعلى دينه ، ومع هؤلاء المؤمنين الصابرين الذي نذروا أنفسهم فداء لهذا الدين ولرسوله . .

إنه لا ينتابه شعور بالقلق على مصيره من جراء هذا الجرح الذي أصابه ، بل رجاؤه كله هو أن يبقى على قيد الحياة حتى يجاهد القوم المشركين الذين آذوا الرسول «ﷺ» ، وأن يقتصَّ من الماكرين الذين نقضوا العهد ، وخانوا الوفاء . . .

ويسمو سعد بروحانيته، ويخلص في إيمانه، فيرجو ربّه أن يجعل جرحه سبيلاً للشهادة إن لم تعد من حروب بين الكافرين والمؤمنين .

فهل أخلص من سعد في حرصه على نصرة الإسلام وعلو شأنه وسلطانه بين الناس . . .

هنيئاً لك يا أخا الايمان فيما ترجو وتحب ، وعسى أن يحقق الله أمانيك السامية . . .

ولنترك سعداً في خيمته قائماً على صلواته ودعواته ، ونعود إلى الجموع المحتشدة من ها هنا ومن هناك . . . فقد رأت الأحزاب ما حلَّ بأشدّ أبطالهم واكثرهم قوة عندما أرادوا أن يتحدّوا المؤمنين ، فهل كانت لهم عبرة في ذلك ؟

لا ! . . لم يتعظ المشركون ، بل زادَ لجاجهم في طلب الثأر ، واشتدّت النقمة في قلوبهم وهم في ذلك يعتمدون على كثرة عددهم ويعوّلون على قيام بني قريظة بما يوهن قوة المسلمين التي بدت شديدة متماسكة ، وبالفعل كانت جماعة اليهود تلك قد أوشكت على إكمال استعداداتها ، وقارب وقت إعلانها الحرب من داخل المدينة ، فراح بعض أفرادها يعملون على إثارة حفيظة المسلمين با افة نسائهم

وأطفالهم ، والتحرّش بشيوخهم الطاعنين في السن ، وبما يجعل هذه الفئات الضعيفة تستصرخُ الذبَّ عنها ، فيأتي جمعٌ من المقاتلين لحمايتها وبذلك تتوزع قوى المسلمين وتضعف مقاومتهم . . .

تلك هي الخطة التي اعتمدها بنو قريظة للبدء في العدوان ، ولكنّهم ما دروا أن في المسلمين نساءً بلغت الشجاعة في قلوبهن ما يفوق شجاعة الرجال ، وعلت الهمة في نفوسهن بما يجعلهن قادرات على القتال . . .

فمن هذه النساء كانت صفية بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وأخت حمزة ، سيّد الشهداء . . فقد قامت في حصن حسان بن ثابت ترعى النساء والذراري ، وتخدم الشيوخ والعجزة من غير أن تتوانى عن المراقبة ورصد تحركات بني قريظة ، فبينما هي مرةً وراء النافذة تحاذر غدر بني قريظة ،إذا بها ترى رجلاً منهم يطوف حول الحصن ، في محاولة تعدّ على النسوة ، فتنادي على حسان بن ثابت أن ينزل إليه ويقتله حتى يخلصوا من شره وهي تقول له : « عجل يا حسان وانزل إليه ، فليس بيننا رجال ذوو قوة غيرك ، فرسول الله ﴿ﷺ﴾ والمؤمنون في نحور عدوّهم ولا يستطيعون أن يصرفوا عنا إن حاق بنا غدر ، وإني والله ما آمن أن يدل هذا اليهودي على عورتنا لِمَن وراءنا من قومه . . فهيا إليه وعاجله بضربة تذهب به إلى الجحيم » . . ولم يكن حسان بن ثابت محارباً ، بل هو شاعرٌ يكره كل ما هو قتال أو حرب ، وليس في طبعه حمل سلاح أو إهراق دم ، ولذا فقد آثر البقاء في الحصن ، ولم يخرج للمشاركة في المعارك . .

ولكن ، يحاول حسان أن يستمد من قول السيدة صفية قوة تعينه على النزول وقتل الرجل ، ولكنّه يفشل في ذلك فيعتذر إليها قائلاً : « يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، فوالله لقد عرفوا ما أنا بصاحب هذا » . . فانفلتت بنت عبد المطلب من وراء النافذة ، تشد على وسطها ، ثم تأخذ بيديها عموداً ضخماً ، وتسرع في النزول من الحصن ، ترقب اليهودي في طوافه ، حتى إذا قاربته ، اندفعت إليه بعمودها تهوي به على رأسه فتعلفه وتذره يتخبّط بدمائه مقتولاً .

ثم تسارع السيدة صفية في العودة إلى الحصن ، وتأتي حسان ابن ثابت قائلة له :

« انزل إليه يا حسان واسلبه ، فوالله لم يمنعني من ذلك إلاّ أنه رجل » .

فيقول حسان ، بلهجة هادئة :

« مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب » .

فتركته السيدة صفية وشأنه ، وهي لا تلومه في شيء ، لأنها تعرف طباعه وخصاله . .

ففي الوقت الذي كان فيه بنو قريظة ، يحاولون إثارة المسلمين ، كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد وضع الخطة التي تقضي على كل عمل يمكن أن يقدموا عليه ، فألّف كتيبتين الأولى بقيادة سلمة بن أسلم وتضمّ مئتين من المؤمنين ، والثانية بقيادة زيد بن حارثة وعددها ثلاثمئة ، ثم آمرهم بالذهاب والتوزّع حول المنازل حماية للنساء

والذراري من بني قريظة ، الذين بات خطرهم لا يقل عن خطر قريش وغطفان . .

ورأى بنو قريظة أن الأمر أصبح أصعب وأدق بالنسبة إليهم ، فبعثوا إلى الأحزاب أن يقوموا بعمل يتيح لهم فرصة التحرك ، ثم يباشرون بالهجوم جميعهم . . فعمدت الأحزاب إلى تأليف كتائب عديدة ، توزعت حول المدينة من جميع الجهات والجوانب ، واستعدت خلف الحصون والخندق ، في تظاهرة تنذر بالشر المستطير ، ورأى المسلمون ما يقوم به الأعداء ، فإذا بالأمر يختلط عليهم ! ولم يعودوا يدرون أين يركزون جهودهم ، ولا أين يجب أن تكون مقاومتهم ، ولا من اية ناحية سوف يكون دخول الأعداء الى المدينة . . لقد عادَ الظرف شديداً على المسلمين حقاً ، وعادَ الخوف يسيطر عليهم من جديد ، حتى أوشك أن يتحول إلى يأسٍ وقنوط . . ويرى رسول الله «ﷺ» ما يعصف بنفوس المسلمين ، فيلجأ إلى ربه مستجيراً ، داعياً ، منيباً ، وهو يقول : « اللّهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللّهم ادفع عنا شرّهم ، وانصرنا عليهم ، لا يغلبهم غيرك » .

إنه دعاء رسول الله «ﷺ» ودعاء نبي الإسلام محمد بن عبد الله . . وهو الدعاء الذي يحمل في طياته الإيمان الخالص بعهد الله سبحانه بنصْر المؤمنين بقدرته وغلبته ، ولا غالب غيره . « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » . . وهو الدعاء الذي يؤمن الاتصال بين الأرض والسماء ، فلا أحد فيهما ، ولا أحد بينهما ، يعرف مكنون هذا الدعاء إلاَّ من يصدر عنه . .

وقد جاءَ المسلمون إلى رسول الله «ﷺ» يشكون سوء الحال ، ونفاد الصبر ، فإذا بالرسول الأعظم يدعوهم إلى شيء واحد ، ولكنه الشيء الذي يحفل بكل الأمور والأشياء ، فيقول لهم : « ادعوا الله قائلين : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » . .

وتنتصب وجوه المؤمنين نحو السماء ، فتلهج الألسن بالدعاء ، وتعمر القلوب بالايمان . . فتختل الموازين في العوالم ، وأهلوها ينصتون إلى هؤلاء المؤمنين من أهل الأرض ، فيتساءلون مستغربين : أإلى هذا الحد بلغ الباطل من القوة والشدّة ، حتى استطار شرّه مستعرا على الحق ؟! . . . ما هذا الذي يخالف كل منطق ومعقول ؟! . . . ولكنَّ سكان العوالم لا يلبثون أن يعودوا مستدركين : ولكنْ أياً كانت الأمور فالنتائج بديهية ومعروفة : قد يكون للباطل جولات وصولات ، ولكنَّ جولة الحق واحدة ، وفيها دائماً النصرُ الأخير . .

ولكن إذا كان للايمان فعله ، وللدعاء فعله ، فإنَّ للعمل أيضاً أثره وأهميته . . ففي هذه الأثناء التي كان يبدو فيها الضعف في صفوف المسلمين قد أخذ مداه ، يكون الرسول الأعظم قد تدبّر الخطة التي ينفذ منها إلى وحدة الأحزاب ، ليفكك أوصالها ، ويوهن تماسكها ، فيبعث إلى قادة غطفان ومن معها من قبائل نجد ، يطلب مصالحتهم على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة . . ويجتمع مبعوثُ النبي «ﷺ» بالحارث بن عوف ، وعيينة بن حصن ، وهما الأرفع مكانة في تلك القبائل ويعرض عليهما مطلب المصالحة ، فيتشاور هذا الرجلان في الأمر ، ويتساءلان : ما الفائدة التي تجني أقوامهما إن قاتلوا محمدا

وأصحابه وهزموهم ، فعادت قريش إلى مكة صاحبة السيادة في العرب ، وعادَ اليهود إلى ديارهم في المدينة ينعمون بخيراتها . . أما هُم فإنهم لن يصيبوا شيئاً من هذا ولا من ذاكَ . . فلِمَ إذن لا يوافقون على طلب محمد ، وفيه ربحٌ لهم لم يكونوا يتوقعونه؟! . .

وهكذا اقتنع زعماء غطفان وقبائل نجد بالتصالح مع محمد «ﷺ» ، ولكنهم أرادوا أن يكون بينهم وبينه ميثاقٌ ، فكتبوه وبعثوه إليه ليوقّعه ، وما أن وصَلَ الكتاب حتى بعث الرسول «ﷺ» بطلب سعد بن عبادة وبطلب سعد بن معاذ رغم جرحه ، يستشيرهما في أمر الكتاب ، لأنهما صاحبا الحق ، قبل غيرهما في الموافقة أو الرفض ، ما دامت لهما زعامة الناس في المدينة ، والأمر يتعلق بثمارها وخيراتها . .

وجاء سيدا الأوس والخزرج ، فعرض عليهما رسول الله «ﷺ» أمر الكتاب . فقالا له :

« أمراً تحبه يا رسول الله فتصنعه أم شيء أمرك به الله » ؟

قال النبي «ﷺ» : «بل شيء أصنعه لكم ، وإني ما أصنع ذلك إلاَّ لانني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما . . . » .

وتفكّر الصحابيان بما قاله رسول الله «ﷺ» ، وتوقفا عند كلمة « أمر ما » . . .

فما هذا الأمر الذي يريده رسول الله «ﷺ» ؟! . .

إنه أمر الرسول حقاً ، وإن لم يبده لهما فهذا من شأنه وهو قادر

على معرفة ما يريد وما يقرر ، ولكنَّ الأمر الذي يشاورهما فيه ، يتعلق بالدين ، ويتعلق بكرامة المؤمنين ، وعليهما اتخاذ الموقف الذي يمليه عليهما الحق والواجب . .

وبعد تفكير وتأنٍ ، قال سعد بن معاذ : « يا رسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبده ولا نحفل بأمور دينه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلاّ قرى أو بيعا ، فحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا إليه ، وأعزنا به وبك نعطيهم أموالنا ! والله ما لنا بهذا من حاجة . والله ما نعطيهم إلاّ حدّ هذا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » . .

والتفت رسول الله (ﷺ) إلى سعد بن عبادة يسأله رأيه فقال :

« والله ما قال أخي سعد إلاّ حقا يا رسول الله » . .

هذا هو الحق الساطع ، ينفحُ من قلوب والسنة المؤمنين الصادقين .

الأمر يتأرجح بين حدين :

إما عيش مع الذل والهوان او موتٌ مع العزة والكرامة . .

والسعدان ، وهما مسلمان ، لا يبغيان طبعا إلاّ العزة والكرامة . .

نعم لأنهما مسلمان يستهينان بالموت ، إذ ليس في طبع المسلم محل للذل ، ولا في نفسه مكان للهوان . .

وسرّ رسول الله (ﷺ) من السعدين ، وما أبدياه من حرص على

نصرة الدين وعزة المؤمنين ، فأعطاهما الكتاب قائلاً : أنتما وذاك ..

فتناوله سعد بن معاذ ، ومحا ما فيه من كتابة .. ثم قاما يريدان الانصراف ، إلاّ أن سعداً توقف وقد بدا أنَّ أمراً يشغل باله ، فسأله رسول الله ﴿ﷺ﴾ عما به ، فقال سعد :

هل تأذن يا رسول الله في سؤال يحيرني ؟

وأذن له الرسول الكريم ، فقال سعد بن معاذ :

« وما ذاك الأمر يا رسول الله الذي عزمتَ عليه في نفسك » ..

وانشرحت أسارير الرسول ﴿ﷺ﴾ وقال لسعد : « باركَ الله فيك وبالمؤمنين يا سعد » .. ثم أبان له ولصاحبه ، بأنه أراد أن يطمئن على أن في المسلمين من يقدر على اتخاذ القرار الصواب ، مؤثرا الدين على كل المصالح والأهواء ، حتى يكون أمثال هؤلاء المسلمين من بعده ذخرا لأمة محمد في مسيرتها بطريق الحق ... » .

واطمأنَّ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ على أن المؤمنين ، ورغم كل الظروف الحرجة التي تواجههم ، ورغم كل العذاب والقهر الذي يحيط بهم ، ما زالوا صابرين ، معاهدين الله ، صادقين فيما عاهدوا عليه ... واذا كان الله سبحانه ، يكلأ المؤمنين بعين الرعاية ، والعطف ، ويصفهم دائما بالصادقين الأوفياء ، فلا شك أن عنايته ستبدى جلية لهؤلاء الصادقين الصابرين .. وها هي حقا تتدخل العناية الربانية لتحوّل مجرى الأحداث إلى نحو لم يكن لأحد من الناس ان يدركه ، وتجعله يتطور في صالح المسلمين بما لم يكن لأحد

أن يتوقعه . . ففي غفلة من الأحزاب ، وفي سبات من إدراكها ، يدلف إلى داخل المدينة أحد رجال غطفان ، نعيم بن مسعود الأشجعي ، ويقصد رسول الله ﴿ﷺ﴾ مبدياً ما عنده ، بقوله : « يا رسول الله ، إن الله سبحانه قد شرح صدري للإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدا رسول الله . ولم يعلم أحد من قومي بإسلامي . وإني والله رأيت شدة القوم على أبناء ديني فما طاوعتني نفسي أن أبقى ساكنا ، فعزمت أن أرى رسول الله علّني أكون ذا نفع في هذا الظرف . فمُرني يا رسول الله بما شئت » . .

وفرح رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ بقدوم هذا المؤمن إليه ، وأيقن أنّ الله سبحانه قد بعثه له ، فقال :

« يا نعيم إنما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت فخذّلت عنا ، كان أحبَّ إلينا من بقائك معنا ، فاخرج فإنّ الحرب خدعة » .

ويخرج نعيم بن مسعود ، فرحا بما أوكل إليه النبيّ ﴿ﷺ﴾ من مهمة قد يكون فيها ما يخفف عن إخوانه المسلمين شدة الكرب ، أو ما يوهن حدّة الحصار عليهم . .

ويذهب نعيم من توّه إلى بني قريظة ، مستغلا فرصة وجوده داخل المدينة ، فيستقبله اليهود بالترحاب ، لأنه كان ينادمهم في الجاهلية ، ويسألونه عما جاء به إليهم ، فيقول لهم :

« يا بني قريظة ! قد عرفتم ودّي لكم » ! . .

أجابوه : « قل ، فلست عندنا بمتهم » . .

قال نعيم : « إن قريشاً وغطفان ـ بني قومي ـ ليسوا كأنتم . . البلد بلدكم ، وفيه أبناؤكم ونساؤكم وأموالكم ، وإن اولئك الجموع قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ، فلا طاقة لكم به » .

وسكت نعيم قليلاً ، وهو ينظر إلى وجوه القوم ، ليرى أثر قوله عليهم ، فلما استبطأوه بالحديث ، راحوا يُلحون عليه بالمتابعة ، فعاد يقول لهم : « أرى الاَّ تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم » .

وتطلّع بنو قريظة إلى بعضهم البعض ، وملء نظراتهم التلاوم على عدم التنّبه لهذا الأمر ، واتخاذ الحيطة من قريش ، فقالوا : « إنَّ ما قاله نعيم لصواب ، فما بال قريش إن رحلت دخلنا مع محمد وحدنا » . .

وقام نعيم يريد الخروج ، فتمسّكوا به للبقاء عندهم ، إلاَّ أنه قنعهم بضرورة الذهاب عنهم حتى لا يكشف أمره ، وأنه يريد اللحاق ببني قومه من غطفان حتى لا يفتقدوا غيابه ، فتركهم وقصد أحد المنافذ خارجاً من المدينة ، حتى أتى قريشاً ودخل إلى خيمة أبي سفيان في جمع من بني قومه ، فجلس يستمع لأحاديثهم حول هذا الغزو وما يرافقه من أحداث ما لأحد منهم أن يتوقعها ، وهم يلومون في ذلك بني النضير الذين وقعوهم في هذا المأزق الذي لا يجدون سبيلا للخلاص منه . . وهنا وجد نعيمٌ السبيل لينفذ منه إلى مأربه في تخذيل القوم ، فقال لهم : « يا معشر قريش ! قد عرفتم ودي معكم

وفراقي محمدا . وقد بلغني أمرٌ أرى عليَّ أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا عليَّ » . .

قالوا : « نفعل » . .

قال : « أتعلمون يا قوم أن معشر يهود قد ندموا على خذلانهم محمداً » ؟! . .

وكأنما لم يصدقوا ما يقول الرجل ، فطلبوا إليه أن يعجل في الكلام ، فقال :

« بلى يا معشر قريش فصدّقوا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً ، نسلّمهم إليك تضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي حتى نستأصلهم ؟!» . .

قالت قريش : « ويح بني يهود ، أهل الغدر والنفاق ، لقد فعلوها وما كنا عالمين » ! . .

قال نعيم : « أنا نديم لكم يا معشر قريش ، وقد وعدتموني أن تكتموا عليَّ » . .

قالوا : « اطمئن لن نفشي سرك لأحد ، ولكن ماذا يرى قومك ، بنو غطفان في هذا الأمر » ؟

قال : « سأذهب وأبلغهم بالأمر حتى ينظروا في أمر بني قريظة » .

وقام نعيم ليذهب إلى بني غطفان ، فيوحي إليهم بمثل ما أوحى

لقريش من غدر بني قريظة وعودتهم إلى جانب محمد . . وما زال بهم حتى جعلهم يثورون ويذهبون إلى قريش يتشاورون معها فيما يفعلون . .

وفي مساء تلك الليلة ، وكانت ليلة سبت ، بعثت قريش وغطفان بعض رجالهما مع عكرمة بن أبي جهل ، إلى بني قريظة ليسألوهم الإقدام على قتال محمد ومن معه ، وبذلك يتبيّنون صدق نواياهم أو كذبهم . .

ودخل عكرمة ومن معه حصن بني قريظة ، واجتمعوا معهم في دار كعب بن أسد ، قائلين :

« يا معشر الحلفاء ، إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخفُّ والحافر (الابل والخيل) . وقد واعدتمونا أن تقاتلوا محمداً وأصحابه في بضعة أيام ، وقد انقضت المدة ، فأرسلنا قومنا كي تُعدّوا أنفسكم صبيحة الغداة فنناجز محمداً ونقضي عليه » . .

فقال بنو قريظة : « إن غداً السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً . وقد علمتم ما نال من تعدّى منّا في السبت . ولكن إن أردتم أن نقاتل معكم ، فإنا غير فاعلين حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتدَّ عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك عليه » .

وأدركَ رسلُ قريش أن غدر بني قريظة قد اتضح ، فقالوا لهم :

« لا نعطيكم رهناً أبداً ، فاخرجوا معنا إن شئتم وإلاَّ فلا عهد بيننا وبينكم » .

ورفض بنو قريظة ، فخرج عنهم الرسلُ ، فقالوا لبعضهم : « صدقنا والله نعيم بن مسعود » .

ولما أتى عكرمة ورفاقه القوم قالوا لهم : « إنَّ بني قريظة قد خانوا عهدهم وانضموا إلى محمد نادمين » . .

فقالت قريش وغطفان : « صدقنا - والله - نعيم بن مسعود » .

وهكذا استطاع نعيمٌ ، هذا المسلم الذكي ، البارع في اسلوبه ، الجريء في إقدامه أن يقوم بمهمةٍ من أدقّ المهمات وأصعبها ، وأن يلعب أكبر دور في إيقاع الخلاف بين المشركين ، وتفريق وحدتهم ، في سبيل نصرة دينه وإعانة إخوانه في هذا الدين . .

لقد أمكن لنعيم أن يخذّل المشركين حقاً ، ولكن لو لم تكن القدرة الالهيّة لتريد مثل هذا التخذيل لما حصل ، ولكان انكشف أمره . . ولكن إرادة الله الغالبة ، وهو سبحانه يرقب مجرى الأحداث وقد شاء أن يذهب كيد المعتدين ، وأن يخفف البلاء عن المؤمنين ، فأرسل نعيما ، الرجل الغطفاني الذي لم يرهُ رسولُ الله من قبل ، حتى يقوم بتلك المهمة الدقيقة التي أرادها ، وينفّذ الخطة الحكيمة التي رسمها ، لتكون السبيل إلى انعدام الثقة بين الأحزاب ، فتضطرب نفوسهم ، وتتشنّج أعصابهم ، فلا يعودون قادرين على

إنزال الضرر بالمسلمين ..

وبلغ رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ ما قام به نعيمٌ ، وما آل إليه مصير الأحزاب من تفكك وتخاذل ، فشكر الله سبحانه على فضله ، ودعا إليه تعالى مستعجلاً النصر قائلاً : « اللّهم منزل الكتاب ، سريع الحَساب ، اهزم الأحزاب ؛ اللّهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم » ..

والدعاء في الأصل عبادة غايته استدرار الرحمة والعطف من الخالق ، وتحقيق الأماني الخيّرة الصادقة .. وأية عبادة أطهر وأنقى وأخلص من عبادة رسول الله ﴿ﷺ﴾ !.. إنه يدرك بأنَّ الله سبحانه ناصرُ دينه ، مبدد قوى عدوه ، وإنه ليعمد إلى الدعاء تأكيدا لعبادته ، وخضوعا لإرادته وحكمته ..

واذا كان دعاءُ الرسول الأعظم على مثل ذلك الطهر والإخلاص فإنَّ ما من أحد في العالم أحق بالاستجابة من هذا الرسول الأمين الصادق ..

وهذه إرادة الله السّنية تحلُّ ، فتأتي على الأحزاب ريح صرصر عاتية ، في ليلة ظلامها داجٍ ، ومطرها وابل ، تعصف بهم عصفاً شديداً ، وتزلزل بهم الأرض زلزالاً كبيراً ، وهي تكفأ قدورهم ، وتطرح أوانيهم ، وتطفىء نيرانهم ، حتى وكأنها تقوّض أركان وجودهم ..

ويدبُّ الهيجان في صفوف الأحزاب ، فيزيدهم رعباً في القلوب ، ووهناً في النفوس .. فيحاولون أن يدرأوا عنهم أخطار

الطبيعة ، فلا يجدون سبيلاً لذلك .. إنها قوى عاتية تهبّ عليهم ، فتذرهم على طريق البلاء يتخبطون ، وفي خضم النكبة يقعون ..

لا !.. لا أدهى ولا أشدَّ ممّا هم فيه إلاَّ الموت الزؤام .. وها هم يجدون في هذه الرياح والأمطار والعواصف ، شفرات سيوف للموت تتسلّط على أعناقهم تكاد تخطف منهم الارواح ، وتنتشل من اعماقهم النفوس ..

وأمام هذه النكبة العاتية ، لم يعد لهم أملٌ في النجاة إلاَّ الهروب إلى حيث لا مطر ولا عواصف ولا ظلام ..

ويصرخ أبو سفيان في بني قومه : « يا معشر قريش !.. لينظر امرؤ من جليسه ؛ إنكم والله أصبحتم بدار مقام ، لقد أخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح والمطر ما ترون ، فارتحلوا ، فإني مرتحل » ..

وولّت قريش الأدبار لا تلوي على شيء ، ونظرت غطفان وبقية الأحزاب ما فعلت قريش ، فقاموا وراءها يسرعون بالفرار ، تاركين وراءهم كل متاع ، لا يعبأون إلاَّ بما يمكّنهم من اللحاق بديارهم ومضاربهم ..

وكان المؤمنون في تلك الليلة ثابتين في مواقعهم ، يتناهى إلى مسامعهم اللغط والضجيج ، ولكنَّهم لا يعرفون سببه ولا غايته ، وإن تراءى لهم أنَّ الأعداء قد عمدوا إلى شن هجوم عليهم بعد طول انتظار ، فبقوا على أهبة الاستعداد ، لمواجهة الأحزاب في أعنف قتال وأمرّ لقاء ، ولكن ها هو الليل ينقضي والصباح يطلع ، وما من هجوم

أو اقتحام ، بل الأمر على خلاف ذلك كله .. فها هي الرياح قد هدأت وهذه انوار الشمس قد سطعت ، وبات الجو صافياً رائقا .. إنه صباح مشرق في كل شيء .. لا قرقعة سلاح ، ولا ضجيج كتائب في الخارج ، بل هدوء يعمُّ الأرجاء ، وسكون يخيم في الأجواء .. ويعتلي البعض منهم فوق الحصون ، ينظرون إلى ما حولهم ، فإذا معسكرات الأحزاب قد تزحزحت ، وأمتعتهم قد تناثرت وخيامهم قد تبددت ، ولا يظهر أحد من جموعهم التي كانت تملأ الفضاء والضواحي ..

فقد أيقن المؤمنون في هذه الساعة أن الرياح قد زلزلت الأحزاب فشتتت جموعهم ، وبددت قواهم ، حتى جعلتهم ينهزمون بلا قتال ولا مواجهة ، فتنادوا يلتفون حول رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، يستبشرون ببركاته فرحا ، وبنصر الله خيراً وهم يتعانقون مبتهجين مسرورين ، فيملأ الرسول ﴿ﷺ﴾ ناظريه منهم وهم على تلك الحالة فيقول لهم : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » .. ويدعوهم للدعاء لله شكرا وامتنانا فيهتف الرسول الأعظم ، ويهتف وراءه المؤمنون : « لا إله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا شيء بعده » .

لقد تحقق النصرُ بقدرة الله تعالى ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ، بقوله سبحانه : ﴿ **وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾ .

نعم لقد جاءت الأحزاب غازية ، تدّعي النصر والظفر ، فإذا بها تصطدم بصمود المؤمنين ، وتلبث في قرقعة سلاحها ، ومظاهرها

الخادعة ، مدة لا ترقى إلى شيء ، وفي ليلة وضحاها ، لا يبقى لها حول ولا طول ، فتذهب مدبرة ، خاسرة ، لا تبتغي إلاَّ النجاة والخلاص . .

لقد جاءت تلك الأحزاب وهي تريدها معركة دامية شديدة ، فإذا هي معركة أقسى مما تصوّرت ، ولكن ليس في الميدان ، ولا في القتال المادي ، بل في النفوس ، وفي امتحانٍ للأعصاب والعزائم ، واختبار للقلوب والأفئدة . . لم يحصل كر ولا فرٌّ في تلك المعركة ، ولا تطايرت أعناق ولا ضُربت هامات ، بل كل ما حصل أن النفوس والقلوب هي التي كانت تترصد بعضها بعضاً ؛ فأما التي امتلأت بالعداوة والأحقاد والكفر ، فقد كانت هي الخاسرة ، وأما التي توهجت بنور الإيمان والصبر والاحتساب فقد كانت هي الرابحة . .

لقد كانت تلك المعركة صداما بين قوى الضلال والباطل ، وبين قوى الهداية والحق ، فكان لا بد أن تنتهي إلى تلك النتيجة الحاسمة ، لأنَّ من هم جنود الله هم أولى بالنصر وأحق بالعزّة . . وما كانت إرادة الله العزيز القوي إلاَّ لتردع الظالمين وتردهم على أعقابهم خاسرين ، ومتى حلّت إرادة الله فلا رادَّ لها . .

سلمان الفارسيُ وتحرّيهِ عن الحقيقة

إنَّ في حياة الأفراد ، كما في حياة الجماعات ، فترات من الحرج والضيق ، قد يعقبها الفرج ، فيدرك الناس كم هي عظيمة مشاعر الارتياح ، وكم هي قيمة أحاسيس الابتهاج . .

وها هُمُ المسلمون ، بعد ذلك الحصار الشديد ، والكرب الكبير ، ينعمون في فترة راحة وهناءة ، فيؤلفون الحلقات يتذاكرون فيها الأحداث التي عصفت بهم ، ويسترجعون الأمور التي ضيقت عليهم حتى جاءهم الفرج والنصرُ من الله سبحانه وتعالى .

إنهم إخوة يجمعهم الإيمان الصادق ، فلا يمكن أن تفرقهم عصبية أو جنس ، أولون . .

ويجتمع في حلقةٍ واحدة عددٌ من المهاجرين والأنصار ، ويكون بينهم سلمان الفارسي يحدّثهم بأسلوبه الجذاب ، ويؤنسهم بكلامه اللطيف ، فيقول له أحدهم :

« أرأيت يا أخي سلمان محبة المؤمنين لك ، لقد أراد المهاجرون أن تكون منهم ، وأراد الأنصار أن تكون منهم ، فإذا الله سبحانه يبوئك مركزا لا اعلى ولا أسمى ، فتكون من أهل بيت رسول الله . . هنيئا لك يا أخي سلمان على هذه المكانة الرفيعة » .

فيردُّ سلمان قائلاً : إنني أحمد الله وأثني عليه لما أنعم عليَّ من فضل .. ولكنني أيها الأخوة أحزن دائماً على أيام عبرت ، ولم أستطع خلالها أن أحضر مشاهد الاسلام لا في مكة ولا في المدينة .. ففاتتني مشاركة الإخوة في العذاب ، وبعدت عني نصرتهم في بدر وفي أحد ..

ونظر إليه بعض الصحابة سائلين : ولكن أين كنت يا أخا الاسلام في تلك المشاهد ؟! ..

ويجيب سلمان متحسراً : لقد كنت هنا في المدينة .. ولكن رغم قربي من رسول الله ، كنت لا أزال بعيداً عنه .

ويستغربون ما يقوله سلمان ، فيسألونه : ولكن كيف ، فهلاً اخبرتنا ! ..

ويردُّ سلمان قائلاً : إنها قصة طويلة ، تعود إلى ماضي حياتي كله ..

وألحَّ عليه الإخوة في إخبارهم عن قصته ، فنزل على رغبتهم وراح يحدثهم عما جرى معه قائلاً :

كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ، وبالتحديد من قرية يقال لها « جيْ » ، وكان أبي شيخ تلك القرية وحاكمها . وقد أحبني هذا الأب حبّا فاق كلَّ حبه للآخرين ، ولم تزل به عاطفته حيالي تشتدُّ يوما بعد يوم ، حتى رأى أن أبقى حبيس البيت ، مثلما يحبس الجواري ، خوفاً عليّ وحرصا على سلامتي ، ولم أجد في حياتي غير النار الموقدة في بيت أبي ، لا تنطفىء لأنها مقدسة ،

فرحت أتسلى بخدمة تلك النار ، وأنا أوقدها باستمرار حتى لا تخبو أبدا ، وكنت أتصوّر أنني كلما ازددت في وقودها ! كلما كان ذلك تعبيرا عن صدق العقيدة التي آمن بها آبائي وأجدادي .

وكانت لأبي ضيعة كبيرة على قرب من قريتنا « جي » ، كان يتردد عليها باستمرار . . فجاءني في أحد الأيام وقال لي : « يا بني أنت تعلم أنني أقيم بنياناً هنا ، وأنَّ هذا البنيان يشغلني عن الذهاب إلى ضيعتي ، فاذهب إليها اليوم بدلاً مني . . » وأمرني بما عليَّ القيام به من شؤون هناك . .

وطرتُ فرحاً وأنا أخرج من المنزل ، إلاّ أنَّ أبي استوقفني وقال لي :

« أي بني إياك والتأخر عني ، فإنك عندي أهم من ضيعتي وأموالي ، ومن أمور الدنيا كلها ، فلا تشغلني عن كل شيء من أمري » . .

وكم كانت سعادتي كبيرة وأنا أرى الدنيا بعين الحرية ، والإفلات من الحبس ، ولكنني وأنا ذاهب الى ضيعة أبي ، سمعت وأنا أمرُّ أمام مبنى كبير ، أصواتاً وتراتيل أعجبتني ، فقلت لمن معي : « ما هذا البناء ، وما أسمع » ؟

قالوا : إنه كنيسة ، البيت الديني لعبادة النصارى، وهم في الداخل يصلّون . .

ووقفت أصغي ، فجذبتني تلك الأصوات بنغماتها ، فقررت الدخول لارى ما يجري في الداخل وعندما صرت بين النصارى ،

وقفت أرقب وأسمع ، فرغبت في معرفة أمرهم . . وبـذلك بقيت طوال اليوم هناك ، حتى غربت الشمس ، وكنت قد نسيت ضيعة أبي وما بعثني لأجله . . ولقد شعرت بأن دين النصارى خير من دين قومي ، فسألتهم عن أهل هذا الدين ، فقيل لي : « في بلاد الشام » . .

واتفقت معهم على أن يُخبروني عندما يجيء أناسٌ من الشام كي أذهب معهم . . فوعدوني بذلك . .

وكان قد حلَّ المساء واستأخر أبي عودتي ، فأرسل من يبحث عني حتى وجدوني ، فأخذوني إليه لأجده مغضبا مغتاظاً ، فيسألني : أي بني ، أين كنت طوال هذا اليوم ولِمْ لَمْ تذهب لما عهدت به إليك ؟

قلت له : لقد شغلت ببقائي في كنيسة للنصارى بعدما أعجبني ما سمعت منهم ، فوالله ما فارقتهم حتى هذا الحين .

قال لي : أي بني ، ولكن ما هو الذي أعجبك وليس في ذلك الدين ما هو خير من دينك ودين آبائك ، ألا إن ديننا المجوسية لخير منه ! . . .

فقلت محتدّاً : لا يا أبي ، بل أجده خيراً من ديننا . . .

وغضب مني أبي ، وخاف عليَّ مما أبديت ، فإذا به ينادي الخدم ويأمرهم بوضع القيود في رجليَّ حتى أبقى محبوساً لا أخرج الى الكنيسة بعدها أبداً .

ومضت أيام طويلة وأنا على تلك الحال ، ولكنني كنت خلالها

قد توصلت الى ما يؤمِّن فك قيودي ، فأبقيت الأمر مخفياً حتى لا يطّلع عليه أبي ويفسد عليَّ أموري ... فلما جاءني الخبرُ بأنَّ ركب الشام الذي قدم بلادنا يريد العودة اليها ، نزعت القيود ، وخرجت هارباً معهم الى الشام ، وهناك سألت عن أفضل رجال دينهم علماً ومعرفة ، فأخذوني الى أسقف في كنيسة ، فلما دخلت عليه قلت : « إني قد رغبت في دين النصرانية ، وأحببت أن أكون معك لتعلّمني هذا الدين ، وستجدني قائما على خدمتك ، مصلّياً ، أميناً ، وفيّاً ... فرحَّب بي وجعلني في خدمته ... وأقمت مع ذلك الأسقف ردحا من الزمن ، اكتشفت أثناءه خصال سوء كثيرة فيه ، إذ كان يأمر أتباعه بالصدقة ، ويرغب الناس فيها لإنفاقها على المساكين والفقراء ، إلاَّ أنه كان يفعل عكس ما يقول ، فكان يكتنز المال لنفسه حتى جمع منه قدرا كبيرا ... وقد حاولت مراراً عديدة أن أسأله عما يخالف به فعلُه قوله فكان يؤنبني ويهددني بالطرد حتى أصبحت أكره معاشرته وأتمنى أن أذهب عنه ، إلاَّ أنه لم يلبث بعد ذلك إلاَّ قليلا حتى مات واجتمع الناس ليدفنوه ، فأخبرتهم بسوء تصرفات الرجل وطمعه ، ولكنّهم لم يصدقوني لما كان يبدي من حلو الوعظ ، وحسن الكلام ، حتى قدتهم الى مخبأ المال وقلت لهم :

ها هنا تجدون الكنز الذي حدثتكم عنه ...

ونظر إليّ أولئك الناس شاكرين وهم يخرجون سبع قِلال من الذهب والفضة ، فأيقنوا عندها باحتيال الأسقف وخداعه ، فتنادوا على ألاّ يدفنوه ، وقاموا الى جثمانه يصلبونه ويرجمونه بالحجارة ...

... ثم جاء رجل غيره يقوم على خدمة الكنيسة ، فما رأيت

من قبلُ أحداً يصلي أفضل منه ، ولا أشدّ زهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة . . . لقد وقف حياته على هدى الناس ، ومواساة الضعفاء ، فأحببته حباً جمّاً ، وتعلقت به حتى بت لا أرغب في فراقه . . . ولكنَّ ذلك الرجل الطيب لم يعمر طويلاً ، إذْ دنا أجله ، وصار طريح الفراش ، فلما عرفت أنه مفارق الدنيا سألته أن يهديني الى شخص مثله ، ألوذ به بعد وفاته ، فقال لي : « أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه . لقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا الخير إلاَّ رجلاً في الموصل ، اسمه فلان ، فالحق به » .

وذهبت الى الموصل ورحت أبحث عن الرجل حتى اهتديت اليه ، فأخبرته بأمري ، فوافق على إقامتي معه . . . ولقد وجدت فيه الخصال التي وصفها لي أسقف الشام ، فهو رجل دين وخير ، أقمتُ عنده حتى قارب أجله ، فتقدمت منه وقلت : « أيها الشيخ الجليل ، لقد أوصاني صاحبك باللحاق بك ، فإلى من توصيني باللحاق من بعدك ، وأنت ترى امر الله ؟

قال الرجل : « يا بني والله ما أعلم أناساً على ما نحن عليه إلاَّ رجلاً في « نصيبين » واسمه فلان فاذهب اليه عن لساني » .

وجئت صاحب « نصيبين » وأخبرته بأمري ، فألحقني به وقد كان خير رجل ، ثم أوصاني من بعده برجل في « عمورية » من أرض الروم . . . فذهبت اليه أيضاً وأقمت مع رجل إيمان وهدى ، وكانت إقامتي هذه الأخيرة طويلة ، فعملت وأصبت بعض المال حتى صارت لي بقرات وأغنام ، فلما نزل أمر الله بالرجل ، سألته : الى

من توصي بي ، وبمَ تأمرني ؟

قال الرجل : « والله ما أعلم اليوم أحداً من الناس على ما كنا عليه حتى آمرك أن تأتيه ، فقد ذهب من عرفتُ من أهل البرّ والصلاح ، ولكنني أقول لك بأنه قد قرب زمان نبيّ يُبعث بدين الله في أرض العرب ، ثم يهاجر الى بلاد بين حرَّتين بينهما نخيل كثير ، وانَّ في هذا النبيِّ علامات تدل عليه . . . إنه لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، وانَّ بين كتفيه خاتمَ النبوّة . . . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » .

وبقيت في عمورية ، بعد وفاة الرجل ، أدأب على كسب العيش ، حتى مرَّ تجارٌ عرفت أنهم من بلاد العرب ؛ فعرضت عليهم أن يصحبوني معهم لقاء ما أملك من البقر والغنم ، فوافقنيْ أولئك التجار وكانوا من بنيْ كلب ، وذهبت معهم مرتحلاً ، حتى اذا أتوا «وادى القرى» عدوا على حريتي ظلما وعدوانا ، واعتبروني رفيقا ، فباعوني عبدا فأخذني الرجل اليهودي الذي اشتراني لأعمل في نخيل له ، فلما رأيت النخيل قلت في نفسي : عسى أن يكون بيعي لهذا الرجل خيرا لي ، فربما يكون هذا هو البلد الذي وصفه لي صاحب عمورية . . .

وفي أحد الأيام ، قدم على اليهودي الذي اشتراني ابن عم له ، فابتاعني منه ، وقد علمت أنه من بني قريظة ويُقيم في بلدٍ يقال له « المدينة » . فذهبت معه ، حتى اذا وصلنا ، فوالله ما أنْ رأيتها حتى عرفتها بوصف صاحبي لها ،فأقمت أرسف في قيود العبودية

والرق ، ولكني كنت أنتظر بعثة النبيِّ الموعود . . .

ولقد سمعت عن النبيِّ ﴿ﷺ﴾ لأول مرة يوم أن جاءَ المدينة مهاجراً ، إذ لم يذكر أحدٌ من قبلُ أمامي أنه بعث في مكة قبل ذلك بسنوات عديدة . . . ولقد كنت ذلك اليوم في رأس نخلة أعمل فيها ، وصاحبي من بني قريظة جالس تحتي ، فاذا بأحد أبناء عمه يأتيه ويقول له : « يا ابن عم ! قاتل الله بني قيلة (وهو اللقب الذي كان يطلقه اليهود على الأوس والخزرج) والله إنهم لمجتمعون الآن في « قِباء » على رجل قدم من مكة يزعمون أنه نبيّ » . . .

وطنت كلمات الرجل في أذني فأخذتني الرعدة وكدت أسقط على صاحبي ، الاَّ أنني تماسكت ونزلت أسأل الرجل :

ماذا قلتَ يا سيّد ؟ هل لك أنْ تعيد على مسامعي ما حدثت به عن نبيٍّ جاء « المدينة » وهو في « قُباء » ؟

وكأنما اثار تدخلي حفيظة صاحبي ، فقام يلكمني بيده على وجهي وينتهرني وهو يقول لي :

« ما لك ولهذا أيها العبد ، عُدْ الى عملك واتركنا » .

وحاولت ان أبدي أسفي ، فقلت له : « لقد أردت الاستثبات مما قاله فقط ، فعذراً لي أيها السيد » .

وجاء المساءُ فلم يهنأ لي مقام ، فاستأذنت صاحبي في الخروج لبعض شؤوني ، ثم ذهبت الى « قباء » وأنا أحمل معي بعض التمر . وهنالك سألت عن مقام النبيِّ ﴿ﷺ﴾ فأرشدوني اليه فقصدته فورا .

ولمّا دخلت عليه قلت : « لقد بلغني أنك رجل صالح ومعك اصحاب لك ، غرباء ذوُو حاجة ، فأردت ان أقدم لكم بعض ما عندي صدقة ، لأني قلت بأنكم أحق بها من غيركم » . .

ولن أنسى كيف نظر اليَّ رسول الله «ﷺ» وأنا أقدّم له التمر صدقةً ، فأبعده عنه ، ولكنه طلب إلى أصحابه أن يأكلوا منه إن شاؤوا . . ولم يمسسه بيده أبداً فلما رأيت ذلك ، قلت في نفسي : « هذه واحدة مما أخبرني بها صاحبي في عمورية » .

ومضى يوم . . . فجئت رسولَ الله «ﷺ» بعدما تحوَّل إلى « المدينة » وحملت معي هذه المرة أيضاً تمراً . فلما أتيته قلت : « إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية مني أقدمها اكراما لمقامك » . فأخذ الرسول «ﷺ» بعض التمر وأكله ثم أمر أصحابه أن يأكلوا . . . فقلت في نفسي : « وهذه الثانية » فرمقني بنظره الشريف وكأنه كان يريد أن يُزيل ما في نفسي من احتمالات ، وقال «ﷺ» : إننا لا نأكل الصدقة . . الصدقة حرام علينا .

ورحتُ أتحيّن الفرص حتى كان رسول الله «ﷺ» يوماً في تشييع جنازة لأحد أصحابه « ببقيع الغرقد » فأتيته وهو جالس في أصحابه وعليه شملتان ، فما رأيت إلاّ أن اقف خلف ظهره متعمّداً حتى ألمح خاتم النبوة إنْ قدرت . . ويشاءُ الله سبحانه أن يريني بأم العين ما أبحث عنه فألقى الرسول «ﷺ» رداءه عن ظهره ، ثم توكأ على جانبه فبدا خاتم النبوة في موضعه من جسده الشريف ، عندها انكببت عليه أريد تقبيله وأنا أبكي من الفرح ، فقال لي : « تحوّل » .

وتحوّلت بين يديه فسألني من أكون ، وما أريد ، فأخبرته بقصتي وبالمشاق التي تحملتها وأنا أتنقّل من بلد الى بلد بحثا عن نبيّ آخر الزمان ، حتى جعلتني الظروف رقيقا لرجل يهودي بعد أن كنت سيدا ، ابن سيد في بلدي . . . فاعجب رسول الله ﷺ من عطشي الداخلي للتحرّي عن الحقيقة وتحمّل الصعاب من اجل الاهتداء اليها ، والتفت الى من كان معه ، يبدي تقديره لي ولكل انسان في فكره أصالة في الرغبة بالحق تعتمد على الكفاءة الذاتية ، فهي بذلك أفضل بكثير ممّن يقلّد ويعتنق المبادىء دون جهد فكري . . .

وأبدى كل من كان في تلك الحلقة إعجابه ايضا بتعبي في تحرّي الحقيقة ، وجهادي في سبيل إدراكها ، ولاحظوا انني لما وصلت الى هدفي طفح قلبي بالبشر وارتميت على رسول الله ﷺ باكيا . . .

وإنه لمن الحق أن يعجب كلّ من يسمع قصة سلمان الفارسي رضوان الله عليه وان يكبر فيه تلك الروح السامية التي رفضت المجوسية غير قانعة بها كعقيدة تملأ العقل والوجدان ، فلما ادرك النصرانية بهرته لأنها دين سماويّ ، ولكنّ أحد الرجال الأخيار في النصرانية ينصح له أن يلحق بالنبي الذي قرب زمانه ، فعمل سلمان بنصح ذلك الرجل حتى انتهى به الحال إلى أن يصير عبدا . . وليكون ـ من ثم ـ من سادة الأحرار في الدنيا والآخرة . .

ولكن ظلّ التساؤل في نفوس الصحابة : « كيف اعتق سلمان من الرق » ؟ فهذا ما لم يخبرهم به ، فلما ساله احدهم عن ذلك ،

عاد سلمان يتابع بأنه آمن برسول الله ﴿ﷺ﴾ منذ موقفه معه في « بقيع الغرقد »ولكنه لم يستطع الخلاص من الرق ، حتى جاءَ الرسول ﴿ﷺ﴾ يوماً وهو يشكو سوء حاله ، فقال له الرسول الكريم : « كاتب يا سلمان . . » . .

وذهب سلمان الى صاحبه القرظي ، فكاتبه على ثلاثمئة نخلة يزرعها له ، وعلى أربعين أوقية من المعدن .

ثم عاد يُعلم الرسول ﴿ﷺ﴾ بذلك ، فإذا بالنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم يطلب من الصحابة أن يساعدوه ، قائلاً لهم : « أعينوا أخاكم » .

. . . وجاءته المساعدة من الإخوة ، فلم تمر إلا أيام معدودة حتى كانوا قد أنهوا زراعة النخيل ، ثم ساعد الرسولُ الأعظم ﴿ﷺ﴾ في دفع المال ، وبذلك وفى سلمان ما كاتب عليه : فأُعتق . . ومن يومها صار لا يفارق رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتى شهد معه الخندق وهو حرٌّ بفضل الله تعالى وفضل رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، حامدٌ ، شاكرٌ على ما بلغ من نعمةٍ وبركة . . .

تلك كانت قصة سلمان الفارسي ، كما رواها لأصحابه وهم يستريحون من عناء السهر والانتظار ، ومن عنت الأحزاب والكافرين . . . وهي قصة تحفل بأسمى العظات وأبلغها ، إذ يبدو من أحداثها أن سلمان هو ذلك الانسان الذي تخلى عن أهله وماله ، وما عبأ براحة نفسه بحثاً عن الحقيقة التي وجدها في الاسلام ، فآمن بها حقيقة مطلقة ، خالدة ، وعمل لها مجاهداً ومخلصاً ، فاستحق

عن جدارة أعلى وسام شرّفه به رسول الله «ﷺ» بقوله : « سلمان منّا أهل البيت » . . .

فهنيئاً لسلمان على جهوده التي بذلها في سبيل الوصول الى دعوة السماء ، وهنيئاً له على ما بلغ من درجة رفيعة في المكانة والمقام بين صحابة رسول الله «ﷺ» وأكابر المسلمين ، وعسى أن يكون هذا الانسان ـ وهو أحد الروّاد الأوائل من الاسلام ـ قدوة للأجيال ، ولا سيما منهم الشباب ، ولكل من يريد ان يتحرّى الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، ليستحق أن يدرج اسمه في سجل الخالدين من أبطال الاسلام والرجال الإلهيين من أولياء الله . . .

وبقليلٍ من المقارنة بين موقف سلمان الفارسي ـ وقد كان على المجوسية ـ وبين بني يهود في الجزيرة العربية ـ وكانوا أهل كتاب ودين سماوي ، يتبيّن الفارق العظيم بين إنسان رفيع الشأن وإنسان منحطّ الخُلق ، عندما تكون الحقيقة هي وحدها الغاية . . . فيا معشر الناس ، كونوا كمثل سلمان الفارسي رضي الله عنه . . . تحرّى عن الحقيقة ، وطاف الأمصار من أجلها ، فلما بلغها آمن بها وعاش لأجلها ، ولا تكونوا كالذين انتظروها وفق ما في كتب دينهم ووعدوا بها وحثّوا على اعتناقها ، فلما جاءتهم أنكروها وكفروا بها ، ثم أوغلوا في العداوة وراحوا يحاربونها ويريدون طمس معالمها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . . .

ومن الجماعات التي أنكرت حقيقة الاسلام ، وجهدت في حربه لإطفاء كلمة الله ، كان بنو قريظة ، بعد بني النضير وبني قينقاع . . .

غــزوة بني قــريظـة

انجلت الشدّة ، وتفرّقت الأحزاب من حول المدينة ، فدخل المؤمنون الى بيوتهم يلقون الأهل والأحبة ، ويحتفون بالنصر الذي حققته إرادة الله سبحانه . . ولكنّها لم تمض بضع ساعات فقط حتى تحلّ صلاة الظهر ، فيصلّيها الرسول «ﷺ» من يومه ذاك ثم يأمر بلالا أن يصعد سطح المسجد وينادي في الناس : « مَن كان سامعاً طائعا فلا يصلّينّ العصر إلاّ في بني قريظة »

وهبَّ المؤمنون يتخلَّون عن كل شيء ، فلا راحة ولا هناءة وتلك الفئة اليهودية الغادرة الباغية في حصونها في منازلها تنصب شباك المكر والخداع للايقاع في المسلمين والاسلام . .

أو ليست هي التي نقضت عهدها مع رسول الله ظُلماً وتعدّيا ؟؟

أو ليس انحيازها الى الأحزاب جعلهم يثبتون على الحصار ، بعد أن كانوا في يأس من أمرهم ويفكرون في الرجوع من حيث أتوا ؟! . .

ولم يكن من وراء ذلك الثبات إلاّ الشدة والعذاب على المسلمين حتى شعروا أنه قد حلَّ بهم زلزال عظيم ؟! . . .

فلم يطالب المسلمون أن يقف معهم بنو قريظة في القتال ، ولا خانوا عهدهم ، بل كانوا أوفياء على ذلك العهد ، كما يعترف به زعيم بني قريظة ، كعب بن أسد ذاته عندماجاءه حيي بن أخطب يحضُّه على شهر العداء للمسلمين والانضمام الى الأحزاب ، فيقول له : « ويحَك يا حييُّ ! دعني فلست بفاعل ما تدعوني اليه ؛ فإني لم أر من محمد الاَّ وفاءً وصدقاً » . .

واذا كان زعيم بني قريظة قد عاد وآثرَ الانحياز الى الأحزاب ، فإنَّ رجالاً من بني قومه استنكروا عليه ذلك ، وحاولوا ان يحذّروه من دهاء ابن أخطب وهم يقولون له ولمن اتبعوه : « لا تسمعوا لحييّ فإذا لم تكونوا تريدون نصرة محمد ، فدعوه وأعداءه » . . .

ولكنَّ صوت الحقد والرعونة اليهودية كان قد غلب على الأكثرية الساحقة من بني قريظة ، فوافقوا كعباً وصاحبه حييّا على نقض عهد رسول الله «ﷺ» لهم ، فراحوا يستعدون لمقاتلة المسلمين ، ولكنَّ الله سبحانه لم يحقق لهم أمانيهم الخبيثة ، فدحر الأحزاب ودحرهم ، وأوقع بهم جميعاً شر هزيمة ، عمّت النفوس والقلوب . . .

ذلك الموقف الذي اتخذه بنو قريظة والذي لم يكن يهدف إلاَّ إلى طعن المسلمين من الظهر ، ما كان يمر بدون حساب . . إذ كيف يأمن المسلمون بعدها جانب هؤلاء الخونة الغادرين ، ويقبلون ببقائهم الى جوارهم ، دون أن يخشَوا غدراً قد يكون أكبر ، وخيانة قد تكون أعتى وأشدّ ؟! . .

لا ! . .

لا يمكن للمسلمين أن يتركوا بني قريظة مقيمين بينهم معتصمين في حصونهم ، حتى لا يكون هنالك خطر قريب منهم !..

... فمثل هذه الأفكار لم تغب عن أذهان المسلمين منذ أن أعلن بنو قريظة الحرب عليهم ، وأنكروا نبوّة الرسول «ﷺ» وناصبوه العداء واذا كانوا يومئذٍ في ظروف لا يستطيعون معها عمل شيء حيال هذه الجماعة ، فانَّ الساعة قد حانت لتأديبهم وردِّ كيدهم ودفعِ شرِّهم ...

ولذلك ، ما إن سمع المؤمنون بالنداء لمحاصرة بني قريظة ، حتى هبَّ كل من وقف في وجه الأحزاب ، ملبياً ومشمِّرا للقتال .

وما كان أمرُ رسول الله «ﷺ» بالخروج الى بني قريظة إلاَّ بعد تقدير وحكمة بالغين .. فقد تفكَّر «ﷺ» ملياً فرأى أنه لا يمكن معاملة هذه الجماعة بمثل ما عامَل به من قبلُ بني النضير ، عندما اكتفى باخراجهم من ديارهم فقط ، وتركهم يذهبون لشأنهم ، إذْ لم يقبل بنو قريظة برأفة الرسول الكريم بهم ، وتركهم سالمين ، فراحوا يؤلّبون القبائل ، ويحزّبون الأحزاب عليه ثم يجُمعون على غزو المسلمين في عقر دارهم ، ولذا فانه ان ترك بني قريظة أحراراً طلقاء ، فمن يضمن للمسلمين ألاَّ يفعلوا كما فعل بنو قومهم من قبلهم ، فيجمعون الأعداد الغفيرة لقتالهم ، وتعودُ تلك الحالة التي أوشكت ن تعصف بالاسلام وأهله لولا رحمة الله وفضله ...

ومن منطلق هذا التقدير النبويّ كانت الأوامر بضرب الحصار

على بني قريظة ، ظهيرة انكشاف الأحزاب عن المدينة ، لأنّ في مباغتتهم مايحول دون إعطائهم الفرصة لاستزادة قواهم واستصراخ غيرهم ، فاليهود أهل مكر وخداع وخيانة . . وتراصّت الصفوف أمام المسجد ، فأمّر رسولُ الله «ﷺ» عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) على الجند ، ودفع إليه الراية ، ثم أمره بأن يسير لمحاصرة بني قريظة . .

واستوى المهاجرون والأنصارُ في جيشٍ قوامه ثلاثة آلاف راجلٍ وثلاثون فارسا ، وما أوشك العصرُ أن يحلَّ حتى كان الحصارُ حول آطام بني قريظة قد اكتمل . .

وأسقط في أيدي بني قريظة ، إذ لم يتوقعوا أن يسارع المسلمون إليهم في نفس ذلك اليوم ، بل كانوا يظنون أنهم يحتاجون إلى راحة لا تقل عن أيام أو أشهر . حتى يمكنهم أن يتلقطوا خلالها أنفاسهم ويستعيدوا قواهم . . أما وقد رأوهم قد أتوا ، وأقاموا من حولهم الحصار ، فإنَّ الأمر قد اختلف ، وهو أمرٌ يُعد نذير شؤم . .

ولعلَّ تلك المفاجأة قد جعلت كثيرين منهم يفقدون صوابهم ، فاندفعوا إلى النوافذ ، وطاقات الآطام يكيلون للمسلمين السباب ، ويُنزلون عليهم أشدَّ الشتائم ، وكانوا يتعمدون في سبابهم وشتمهم أن ينالوا من رسول الله «ﷺ» وأصحابه ، ولكن المسلمين لم يردُّوا عليهم إلاَّ بالقول : « السيف بيننا وبينكم يا معشر يهود » ! . .

وجاءَ رسولُ الله «ﷺ» ، يحيط به نفرٌ من الصحابة الأجلاّء ، فراحَ يتفقَّدُ جنده ، ويطوف بين محاربيه ، وهو يحيي فيهم روح

العزيمة والمجاهدة ، ويحثهم على الثبات والصبر ، فلا يجد بين الصفوف إلاَّ ذوي بأس وشدّة ، وأصحاب إيمان صادق خالص .. إنه الايمان بالله العزيز القدير الذي هزم الأحزاب ، وهو الايمان عينه الذي يكفل لهم النصر ، ليس فقط على هذه الجماعة من بني يهود ، وهم لا يحسبون لها أيَّ حساب في القتال ، بل على جيش الشرك والكفر بإذن الله ..

وكانت الخطة التي اعتمدها النبي «ﷺ» تقوم على عدم شنّ الهجوم على حصون بني قريظة وإجلائهم عنها ، بل الاكتفاء بضرب الحصار حولهم ، ومنع أي مدد أو نصرة يمكن أن تأتيهم من الخارج ..

ومرّت بضعة أيام ولم يكن هنالك من هجوم ، مما جَعَلَ بني قريظة يطمئنون بعض الشيء ، ويتوهمون بأن المسلمين لا يريدون قتالهم بل يرغبون في التفاوض معهم ، وهذا ما يمكّنهم من إيجاد الوسيلة لتقوية موقفهم .. على أنَّ تلك الآمال بدأت تذهب أدراج الرياح ، إذ اكتفى المسلمون بالبقاء في حصارهم ، من غير أن يبدر منهم ما يدلُّ على أنّهم راغبون في محاورة أو مفاوضة .. فراحوا يتساءلون : وماذا يريد المسلمون ؟! ..

وبعد التفكير والتشاور رأى بنو قريظة أن يبدأوا هُم بمدّ سبل التفاهم مع المسلمين ، فبعثوا الى رسول الله «ﷺ» يعرضون عليه السماح لهم بالخروج مع نسائهم وأبنائهم ، وما حملت الابل من أموال ، كما فعلَ مع بني النضير ، فكان جوابه لرسلهم بأنه لا خروج إلاّ بالنزول على حكمه ..

وعادوا يسألونه : الخروج بالنساء والأبناء بلا مال ولا سلاح ، فلم يكن ردّه إلا كالسابق : لا . . إلاّ أن ينزلوا على حكمه . . .

وأوقع في أيدي بني قريظة ، فاشتدّ عذابهم ، وزادت آلامهم . . فأشار عليهم زعيمهم كعب بن أسد أن يدخلوا فى الإسلام إن أرادوا نجاة من هذا المأزق ، وخلاصاً من هذه الشدة ، مذكِّراً إياهم بما حفل به كتابهم وبما عندهم من العلم بنبوة محمد ﷺ ، إلاّ أن بني قومه رفضوا رأيه ، ولم يقبلوا الدخول في الإسلام ، مفضلين الموت على ذلك . . وهنا انبرى من عارضوا كعبا يوم جاءه حيى بن أخطب وقالوا : « أرأيت يا ابن أسد . . لقد نهيناك ، ولكنك لم تستمع لنا ، وآثرت رأي ابن أخطب ودهاءه على رأينا ، فما كانت النتيجة إلاّ وبالا علينا ، بل وشرّاً مستطيرا » ! . .

وحيالَ رفضهم الدخول في الإسلام وإصرارهم على الموت ، أشار عليهم كعب بن أسد بأن يقتلوا الأبناء والنساء . . فقالوا له ساخرين من تفاهة رأيه : وما نفع الحياة بعدهم ، إن ظفرنا ؟! .

ولم يعد أمام كعب بن أسد إلاّ أن يدعوهم للقتال ، فلما عرض عليهم ذلك رفضوه وأبوه . .

وكان حُيي بن أخطب بينهم ، إذ دخل عند كعب بن أسد وفاء لما عاهده عليه بأن يناصره ويكون معه إن ذهبت الأحزاب أو كان النصر لمحمد ، فأشار حُيي عليهم باعتماد خدعة ، وهي أن ينتظروا ليلة السبت ، فيخرجون في غفلة من المسلمين لظنّ هؤلاء بأن اليهود لا يأتون عملاً في هذا اليوم ، ويولّون الأدبار ، ناجين من القتل ،

فقال بعضهم : « لا نحلّ يوم السبت » . . وقال آخرون : « وما أدراك يا ابن أخطب أن لا تكون المصيبة أشدّ إن فعلنا ، فهل أنت ضامن لنا عدم يقظة المسلمين وقعودهم عن الترقب كما تظن . . إنه لرأي أخرق حقا » ثم التفتوا إلى بعضهم البعض يقولون : « انبذوه ولا تستمعوا إليه » . .

ودبَّ الشقاق والخلاف بين دهاقنة بني قريظة ، واشتدَّ النزاع بين أحبارهم . . وطال النقاش ، واحتدم الجدل ، ولم يجدوا فيما استعرضوه إلاّ ما يورث الندم ، حتى اهتدوا إلى رأي أجمعوا عليه ، وهو أن يعرضوا على محمد بأن يبعث إليهم أبا لبابة ، رفاعة بن المنذر الأنصاري الأوسي ، فهو نصير لهم ، وله عندهم أهل وعيال ، فيتشاورون معه في أمرهم .

ووافق رسول الله «ﷺ» على ذلك وبعث إليهم أبا لبابة . . فلما جاءهم وجدهم على حالٍ من الخوف والذعر لا توصف . . فقد هبَّ إليه الأولاد يتمسكون بأهداب ثوبه صارخين ، وأحاطت به النسوة تجهش مولولات ناحبات ، أما الرجال فقد بدوا شاكين متألّمين .

ورأى أبو لبابة ما حلَّ بهؤلاء القوم ، فأخذته العاطفة وغلَبْتهُ الشفقة عليهم ، فراح يهدّئ من غلوائهم ، ويواسي مصابهم . . ولكن هل تنفع المواساة والخطب من حولهم داهم ؟! فقالوا له حائرين : « ماذا ترى في حالنا يا أبا لبابة ! إنَّ محمداً قد أبى إلاَّ أن ننزل على حكمه فماذا نفعل » ؟

وبدون أن يدري الرجل ماذا يقول ، ومن غير أن يعـي ماذا يفعل ، قال لهم : « فانزلوا » . . قالها وهو يشير بيده إلى عنقه بما يعني الذبح . . فعلا الصراخ والنحيب ، وكثر البكاء والعويل وقد أيقنوا ما هو حكم محمد «ﷺ» فيهم ! . . وكأنّ شدة الصراخ والضجيج قد أعادت لأبي لبابة رشده ، وأذهبت عنه العاطفة التي غلّفت فكره ، فعاد إلى صوابه وأدرك الخطأ الفادح الذي ارتكبه ، وهو يفشي سراً للمسلمين ما كان ينبغي لأعدائهم أن يعرفوه ، ورجع إليه وعيه فعرف أنه خالف عهد الله ورسوله . . فخرج من عند بني قريظة لا يحفل بأمرهم ، وولى هارباً على وجهه ، هائماً في أرجاء المدينة حتى قادته قدماه إلى المسجد ، فارتبط إلى عمود قريب من منبر رسول الله «ﷺ» وآلى على نفسه مقسماً ألاّ يذوق طعاما أو شرابا حتى يموت أو يتوب الله عليه مما صنع . . فإن لم يُغفر له وبقي على قيد الحياة فإنه سوف لا يطأ ناحية لبني قريظة ، ولا يُرى في بلد خان فيه الله ورسوله . .

ذلك ما كان من ابي لبابة وهو يعاهد الله مقراً بخطئه . .

أما المسلمون فقد انتظروه حتى يعود إليهم ، ولكنهم استبطؤوه كثيرا ، فراحوا يتقصّون خبره حتى وجدوه مربوطا في المسجد ، وهو في أشدّ حالة من اللوم والأسى على نفسه ، فعادوا يخبرون رسول الله «ﷺ» بأمره ، فقال : « أما إنه لو جاء لاستغفرت له ، فأما إذْ فعل ما فعل فما أنا بالذي يطلقه حتى يتوب الله عليه » .

واستمرّ أبو لبابة في رباطه مقيماً على قسمه ، ولا أحد يتقدّم منه

إلاَّ امرأته التي كانت تأتيه وقت الصلاة فتفكّ وثاقه حتى يصلي ، ثم تعود وتربطه من جديد ، حتى انقضت ست ليالٍ ، وقد جاءت امرأته وفكت رباطه كالعادة ، فوقع مغشياً عليه ، خائر القوى ، واهي الفؤاد ، فأسرعت امرأته إليه تُسعفه ، فلما أفاق قعد يبكي ويأسف على نفسه ، وامرأته ترقبه متأسية عليه ، وهي ترى أن أنفاسه لا تكاد تطلع من صدره إلاَّ بالجهد الجهيد . .

لقد كان لوم أبي لبابة لنفسه شديداً ، وندمه على ما فعل كبيراً ، فتاب توبةً نصوحاً مخلصة ، ودعا الله سبحانه بأن يغفر له مقرّاً بذنب اقترفه لغلبة عاطفته عليه وتأثّره لملاقاة القوم له . . وهنا تظهر أيضاً ، كما في كل مرة ، رعاية الله سبحانه لأحوال المسلمين ، فرادى وجماعات ، فغفرَ الله سبحانه لهذا الرجل ، وأنزل مغفرته قرآناً على رسول الله ﴿ﷺ﴾ بقوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » .

وحدَّث رسول الله ﴿ﷺ﴾ زوجه أم سلمة بتوبة الله سبحانه على أبي لبابة ، فقالت مستأذنة :

« ألاَ أُبشّره يا رسول الله » ؟

فقال الرسول الكريم : « بلى ، إن شئت » .

فقامت أم سلمة تقف على باب حجرتها ، المحاذية لباب المسجد ، وتنادي أبا لبابة قائلة :

« يا أبا لبابة ! أبشر فقد تاب الله عليك » .

وكان في المسجد جماعة ، فهرعوا يريدون أن يفكّوا وثاقه ، ولكنه أبى قائلا : « لا ! لا يفكنَّ أحد وثاقي إلاَّ رسول الله ﷺ ، فهو الذي يطلقني » . .

ثم لما أتاه رسولُ الله ﷺ ، وحلَّه من رباطه ، خرَّ أبو لبابة على ركبتيه أمامَه قائلاً :

« والله إني لَنادمٌ يا رسول الله على ما فعلت ، وقد آليت على نفسي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب وأن أتخلى عن مالي » .

فقال له الرسول الأعظم ﷺ : « يجزيك الثلث أن تتصدّق به » . .

. . . وانقضت عشرون ليلة ، والحصار كان ما زال قائماً ، وكلّما كانت تمر ليلة ، كانت أحوال بني قريظة تزداد سوءاً ، إذ كان الخوفُ وحده يقيمهم ويقعدهم ، والعذابُ يقضّ مضاجعهم ، فماذا ينتظرون من دنياهم وشبحُ الموت يخيم فوق رؤوسهم ، وما يجديهم البقاءُ على تلك الحال وقد أفلت زمامُ الأمور من أيديهم ؟! . .

إذن فلينزلوا على حكم محمد ! . . .

وبعثوا إلى رسول الله ﷺ : لقد نزلنا على حكمك ، وها إنا سنخرج رافعي الأيدي مستسلمين . .

وبدأ بنو قريظة بالظهور جماعات جماعات ، وراح المسلمون

يتلقّونهم فيوثقون رجالهم بالحبال ، ويضعونهم في ناحية ، ويقودون النساءَ والذرازي إلى ناحية أخرى ، تلبية لأوامر رسول الله ﴿ﷺ﴾ . .

فلمّا لم يعد أحدٌ من بني قريظة إلاّ خرج ، وبعد أن هدأ اللغط وسكن الضجيج ، جاءَ رجالٌ من الأوس ـ وكان بنو قريظة حلفاءهم ـ يعرضون على رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يعاملهم بمثل ما عاملَ بني قينقاع ـ حلفاء الخزرج ـ وأن يقبل شفاعتهم بهم ، كما قبل شفاعة عبد الله بن أبيّ عندما طلب الرأفة ببني قينقاع . .

فقال لهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « يا معشر الأوس ! أترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم » .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال لهمْ : « فاختاروا من تشاؤون حكماً » . .

وتشاوَرَ رجال بني قريظة وهم في الحبال مربوطين ، فما رأوا رجلاً أفضل من سيّد الأوس ، سعد بن معاذ ، حكماً بينهم وبين محمد ﴿ﷺ﴾ .

وكان سعد بن معاذ ما زال في خيمة الجرحى ، وهي الخيمة التي كانت تشرف عليها امرأة تدعى « رفيدة » نذرت نفسها لخدمة إخوانها في الدين ، فراحت تخدم في ساح الوغى وتقوم على شؤون الجرحى . . وقد كان سعدُ بن معاذ ما يزال في خيمتها منذ جرح ، إذ طلب يومها الرسول الكريم أن يجعلوه عند « رفيدة » فيعوده من قريب . .

فلما طلب بنو قريظة أن يكون سعد بن معاذ حكماً عليهم ، أمَرَ رسولُ الله ﷺ بإحضاره ، فذهب نفرٌ من بني قومه ـ الأوس ـ وحملوه على دابة ـ وراحوا في الطريق يلحّون عليه ويرجونه بأن يرأف بحلفائهم بني قريظة ، وأن لا يجعل حكمه قاسيا عليهم ، وكانوا يقولون له : « يا أبا عمرو !. أحسن في مواليك ، فإنّ رسول الله ﷺ قد ولاّنا أمرهم لنحسن فيهم ، فأنت قد رأيت ما فعله ابن أبيّ من أجل حلفائه » . وكانوا يلحّون عليه في ذلك وهو ساكت لا يجيب . وما زالوا به على تلك الحال لا ينفكّون عن ترداد شفاعتهم تلك ، حتى أخرجوه عن صمته ، فقال :

« لقد آنَ لسعد ألاّ تأخذه في الله لومةُ لائم » .

وانتهوا بسعد إلى مجلس رسول الله ﷺ ، فأدناه بقربه وراح يطمئن على حاله ثم قال له :

« احكم فيهم يا سعد » .

قال سعدٌ : « الله ورسوله أحقّ بالحكم » .

قال له الرسول ﷺ : « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » .

إذ ذاك قال سعدٌ للمسلمين : « عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه أنَّ الحكم فيهم بما حكمت » ؟

قالوا : « نعم » . .

قال سعدٌ ، وهو يغض الطرف ويشير ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له : « وعلى من هنا » . .

فقال الرسولُ الأعظم : « نعم » . .

عندها قال سعدٌ لبني قريظة : « وأنتم يا بني قريظة ، أترضون بحكمي » ؟

قالوا : « نعم ، وقد ولّيناك حاكماً بأمرنا قبل أن تجيء . . » .

قال : عهدُ الله وميثاقه بأنَّ الحكم فيكم ما أحكم به » ؟

قالوا جميعاً : « نعم » . .

فقال سعدٌ : « فإني أحكم أن تُقتَل الرجالُ ، وتقسَّم الأموال ، وتُسبى الذراري والنساء » . . .

فقال رسول الله (ﷺ) : « لقد حكمت فيهم بحكمِ الله من فوق سبع سموات » . . .

وهلع بنو قريظة للحكم . . .

فما بال هذا الرجل قد تنكّر لهم ! . . ألم يكن حليفهم ؟ أو ليسَ هو الذي اختاروه عن غيره من الرجال والحكام كي يرأف بهم ؟! . . لا شكَّ بأن هذا الرجل قد فقد عقله حتى يجعل مصيرهم أسوأ مصير عرفوه . .

وأراد بنو قريظة الاحتجاج ، مبدين التصايحَ ومظهرين الغضب ، ولكن دون جدوى ، فقد كان حكم سعد بن معاذ ، هو حكم الله عليهم ، لأنَّ أي حكم آخر لا يمكن أن يوازي غدْر هذه الجماعة وخيانتها ، ولا يمكن ان تؤمن عواقبه بما قد يحمل من أخطارهم على المسلمين . .

صدر الحكم ، فاقتيد الرجال من بني قريظة إلى دار أسامة بن زيد في المدينة ، والنساء والذراري إلى دار كيسة بن الحارث ، ثم حُمل المتاع والسلاح ووضع في مكان معين . .

وأمَرَ رسولُ الله «ﷺ» بأن تحفر لمن ينفذ فيهم الحكم حفرٌ كبيرة ، فكانوا كلما قتلوا جماعةً من رجالهم دفنوهم في حفرة ثم غطّوها بالحجارة والتراب بإحكام حتى لا تنتشر الروائح الكريهة والأوبئة . .

وكان حييُّ بن أخطب بين رجال بني قريظة ، إذ جاؤوا به مع كعب بن أسد لتنفيذ الحكم ، فنظر إليه رسول الله «ﷺ» قائلاً : « ألم يمكّني الله منك يا عدو الله » ؟! . .

قال حُيي : « بلىَ . . أبى الله إلاَّ تمكينك مني ! . . والله ما لُمت نفسي في عداوتك قطُّ ، ولكنه من يخذله اللهُ يخذل » . .

ثم نظر إلى الجموع المحتشدة وقال :

« أيها الناسُ ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتابٌ وقدر ، وملحمة كتبت على بني اسرائيل » فإذا بأصوات ترتفع وتنادي بالإسراع في قتله وهي تقول :

« ما كان اللهُ سبحانه ليظلم أحداً ، وما كان رسولُ الله «ﷺ» ليأمر بظلم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . . .

وجيء بحيي فضربت عنقه ، وسلمَ الناسُ من شرّه . .

وفي ذلك الوقت أسلَمَ ثلاثة رجال من بني قريظة ، فأمّنهم

رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وصاروا إخوة في الدين . .

وكان من بني قريظة عمرو بن سعد ، قد وقف ضد الرأي في نقض العهد من المسلمين ، وقد شهدَ بذلك عددٌ من الرجال ، فأمَرَ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ بألاّ يقتل ، بل يطلق سراحُهُ ، على ألاّ يبقى في المدينة ، فذهب مولّياً الأدبار ، لا يعلم إلاّ الله سبحانه وجهة سيره ، فلما ارتحَلَ قال الرسول الأعظم : « ذاك رجل نجّاه الله بوفائه » . .

وكان رفاعة بن السموأل ، قد بعَثَ وهو في الأسر إلى أم المنذر الأنصارية أن تجيره ، وكانت تلك المرأة تعلم بعض الفضائل التي تميّز بها هذا الرجل عن بني قومه ، فلما جاءَها رسولُهُ ذهبت الى رسول الله ﴿ﷺ﴾ تستوهبه ، فوهبَهُ لها الرسولُ الكريم . . وكان لذلك أثرٌ كبيرٌ في نفسه ، إذ لم يلبث إلاّ أن تفكّر وأدركَ ، فأعلن إسلامَهُ صادقا . .

وهكذا نُفِّذ حكمُ الاعدام في رجال بني قريظة ، فما جاءَ ليلُ ذلك اليوم إلاّ وكانوا جميعهم ، وهم يزيدون على ستماية رجل ، قد ذاقوا الموت مستحقين . .

ثم إنّ رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ قسَّمَ أموال بني قريظة ، والنساءَ والأبناء ، على المسلمين ، وأمر ببعض السبايا أن تحُمل إلى نجد وبلاد الشام ، تباعُ لتأمين السلاح والخيول . . وإذا كان رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ يكره العبودية ، وقد عمل على نبذها من قبل ، إلاّ أن الله سبحانه يأمره بأن يعامل الفئة الباغية بمثل ما تعامل به المسلمين ،

وذلك لقوله تعالى : « فإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » . .

فمن قبل غدرَ أعداءُ اللهِ بالمسلمين في مواقع عديدة ، فقتلوا أربعين بلا ذنب ، وقبلهم باعوا اثنين لقريش في مكة ، بعد قتل رفاقهم ! . . . فإن لم يظهر المسلمون لسكان الجزيرة - وهم على ما هم عليه من عقلية جاهلية ، وطباعٍ وعادات قاسية - أنّ بأمكانهم استعمال الأساليب التي يستعملها اعداؤهم ، لكان ذلك مدعاة للاستخفاف بشأنهم ، وعدم الركون إلى قدرتهم ، ومن أجل ذلك اختار رسولُ الله «ﷺ» عدداً ضئيلاً من السبايا وأرسلهُ للبيع في البلاد البعيدة ، ولو أرادَ خلاف ذلك لكان بعث بالسبايا كافة للبيع ، ولما كان قد أعطى الأوامرَ الشديدة بألاّ يفرق بين الأم وابنها في القسمة وهو يقول للمسلمين : « لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغوا » . . ولما كان أيضاً قد جعلَ من ريحانة بنت عمرو ، وقد كانت من نصيبه في القسمة ، سيّدةً مصونة ، تقيم في بيته ، حتى يتوفاه اللهُ سبحانه ، وهي ما تزال عنده . .

وكانت الأخبارُ لما حلَّ بالأحزاب قد بلغت الجزيرة كلها ، فأيقنَ الناسُ أن هناك قدرة خفية سماوية ترعى المسلمين ، وتكلؤهم بعين الرعاية والحفظ ، وإلاّ لما كانت تسلّط على اعدائهم قوى الطبيعة لتعصف بهم وتبدّد ما يتمتعون به من قوة ، في كل مرّة يشتد الخطب على المسلمين . .

وكانت تلك الأخبارُ قد تناهت إلى مسامع بني يهود ، فقالوا : « لا نحفل بما يجري » . . فلما أن عرفوا ما حلَّ ببني قريظة جزعَ

لخيانتهم ، قال أحد زعماء بني النضير ، وهو سلامُ بن مشكم : « هذا كله عمل حيي بن أخطب .. ما كان أحرى بالرجل أن يترك بني قومه وشأنهم ولكنه ابى إلاَّ أن يناجز محمدا وأصحابه فكانت تلك المصيبة الدهماء » ..

... الآن قد فرغت المدينةُ من أعداء الله ، فحق للمسلمين أن يهنأوا بالظفر وأن يلاقوا الراحة ..

لقد عمت الفرحةُ والسعادة جميع بيوت المؤمنين ، فطابت النفوس راضية ، واستوثقت بحكم الله قانعة ..

واذا كان اللهُ سبحانه قد أفاء على المسلمين بتلك الراحة ، فمن أحقُّ بها ، بعد رسول الله ﷺ ، غيرُ المؤمنين الصابرين المجاهدين ؟!..

وهل كان سعد بن معاذ ، إلاَّ أحد أبرز هؤلاء المؤمنين ؟!..

فها هو يتفكّر بقدرة الله ، وبنعمائه السنّية ، فيقرّ عيناً ، ويهنأ بالا ...

لقد دعا سعدٌ (رضي الله عنه) ربَّه ، ساعة جرح ، وعرف أن جُرحه بليغ ، وأنه قد يلاقي ربّه بين لحظة وأخرى ، فإنه لم يكن له من همٍّ آنئذ إلا أن يمنحه الله سبحانه فرصة من العمر ليناجز قريشاً إن أرادت حرباً على المسلمين ، أو أن يشهد قصاص بني قريظة جزاءَ على نقضهم العهد وإنزال الشدة بالمسلمين ، ومن بعدها فليمت قرير العين بعد أن يكون قد اطمأنّ على الإسلام سيّداً ...

. . . ويتفكّر سعدٌ بدعائه للهِ سبحانه ، فيرى أنَّ الله سبحانه قد استجابَ له ، فجعله هو ذاته حكماً على بني قريظة ، فيقرَّ عيناً . . ويذهب به الخيال إلى البعيد ، وكأنه يريده أن يستشفَّ المستقبل ، فيقول في نفسه : « إن رسول الله ﷺ قائم في المسلمين ، فلا خوف عليهم ، وإنَّ الإسلام دينُ الله الحق ، فلا خوف عليه ، فالله تعالى ناصرٌ دينه لا محالة » . . وتسري الطمأنينة في وجدان هذا الصحابي الجليل فيقول : « لم يبْقَ لي مطمع إلاَّ في الشهادة » . .

ولقد كتبتْ له الشهادة منذ أن جُرِحَ قرب الخندق . . فما أن توجَّهَ بدعائه الخالص المخلص ، ساعتئذ ، ورجا ما يرجوه من ربّه ، حتى كانت الملائكة قد حملت ذلك الدعاءَ كلماتِ حقٍ على أبسطة من نور ، فتنشرها في الوجود كله أصداء نفس تحبُّ الله ويحبها اللهُ سبحانه ، فتستبشر الملائكة فرحة وهي تقول : « بارك الله لسعدِ ابن الأرض فقد بات يستحق بأن يكون عبداً لله سبحانه » . .

ولقد كانت الاستجابة السنية عظيمة لدعاء سعد . .

وكيف لا تكون وسعدٌ قائم في وسط الشدّة والكرب ، لا يعبأ بدمائه تنزف ، ولا يهتمُّ أن لا أحد يستطيع وقف هذا النزف ، بل تصبو نفسه إلى أملٍ واحد ، وهو أن ينصرَ الله سبحانه الإسلام . .

فللّه درُّ هذا الصحابي ما أعظم إخلاصهُ في إيمانه ، وما أقربه إلى ربه . . فأمّا أن يكون الله تعالى قريباً من عبده ، فهذا أمر بديهي ، شاءته العزة الإلهية منذ أن خلقت الإنسان ، بقوله تعالى في

محكم كتابه العزيز : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما نوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ .. فلا وجود أبدا لمسافة تفصل الخالق عن مخلوقه ، لأنه سبحانه أقرب إليه من خفقان قلبه .. وهذا هو السر الذي قد يخفى على كثير من الناس ، ولا يدركونه ، فيذهبون مندفعين في طلب الدنيا ، متنكرين لخلقهم ، وما هم عليه من صنع دقيق وإتقان عظيم ، ومتناسين لتلك العطايا الكبيرة التي منَّ الله تعالى عليهم من جراء هذا الخلق : ﴿ **واتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ ..

نعم ! أن يكون اللهُ تعالى قريبا من عبده ، فهذا الحق المطلق ، وأما أن يكون العبد قريبا من ربّه ، فهنا حكمةُ الانسان وهدايته .. وليسَ أوجب على هذا الانسان ، وحتى يبلغ هذا القرب إلاَّ أن يكون مستجيبا لخالقه كما هو مطلوب منه ، وهذه الاستجابة هي التي تؤمن له القرب من ربه ، لقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ ..

ويبرز سعدُ بن معاذ على مدار الزمان إنساناً استجاب لربه .. فآمن بالإسلام ، وصدق رسوله «ﷺ» وجاء هو لرفع كلمة الحق ، وبذَلَ كل ما منَحهُ الله تعالى من نفسٍ ومن نفوذٍ ومال ، في سبيل الله .. فهل أحسن استجابة ، وأخلص عبودية ، وأشدَّ وإيماناً من ذلك ؟! ..

وكيف إذن لا يستجيب اللهُ سبحانه لدعائه ؟! ..

بلى واللهِ إن سعدا من الشهداء الأبرار .. قرّت عينُه بالحكم الذي هداه الله إليه ، فنامَ قريرَ العين ، يغفو في طيب الشهادة ، وتحين ساعةُ حمل جثمانِهِ ، فيعجب الناسُ من حملِه الخفيف ، فيقولون لبعضهم بعضا :

« واللهِ إنه كان لبادناً ، وما حملنا من جنازة أخفَّ منه » .

... الميت يثقل حملُه ، ويزيد هذا الثقل إن كان بدينا ، كما كان سعد بن معاذ (رحمه الله) .. ولكنّ جثمان سعد وهو منقولٌ إلى قبره ، لا ثقل له !... فيعجب الناسُ ، ولكنّ رسول الله ﷺ وهو العالم بالأمر لا يأخذه أي عجب ، بل يقول للناس ، ليذهب عنهم ما يخالطهم من تساؤلات : « إنّ له حملة غيركم . والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد ، واهتز له العرش » ..

.. نعم ، نزلت الملائكة تحفُّ بجثمان سعد بن معاذ ، وتحملُه إلى الخلود ، وهي مستبشرة بهذه الروح الكبيرة تشع إيمانا خالصاً وتتوهج نوراً قدسياً ..

فهنيئا لك أيها المسلمُ الصادق ، يا سعد بن معاذ ، على هذه المكانة الرفيعة التي منحك إياها ربك ، وألهم الله تعالى أهل الاسلام كي يسيروا على خطاك وينهجوا نهجك حتى يحظوا بالمكانة التى حظيت ..

ولم تُحزن المسلمين شهادةُ سعد بن معاذ ، بل على العكس كانت لهم سمة عزة وكرامة ، لأنها الشهادة التى تثبتُ رعاية الله لجنده ، وتحقق للمستشهدين الكرامة عند ربهم ..

إنهم جميعاً رجالٌ عاهدوا الله . . فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلاً ، فحقّ لهم فيما قضوا ، وفيما ينتظرون أن ينعموا بالفخار والسؤدد . .

وهكذا وبالقضاء على بني قريظة ، خلت المدينة من الأعداء وارتاحت من المنافقين ، بعد ان فقدوا المؤلِّبَ والنصير ، ولاذوا بأنفسهم يحتمون من الخطر على حياتهم ، فلم تعد لهم أصوات تُسمْع ، أو شأن يبرز . . لقد كانت لهم شوكة ولكنها انكسرت إلى الأبد ، فلا تقوم لهم بعدها قائمة على الإطلاق .

وبالمقابل راحت أمور المسلمين تستوي شيئاً فشيئاً ، وتسير في طريق أقلّ تعثراً وأكثر أمناً . وأخذت الدعوة الإسلامية تتسم بطابع القوة والغنى والاعتزاز ، بدلاً من طابع الضعف والفقر والاستكانة الذي رافقها في مراحل عديدة من حياتها السابقة . .

فسلاح المشركين والخائنين الذين استولوا عليه ، وما أضافوا إليه من عتاد وعدّة اشتروها وفَّرَ لهم القوة الكافية ، والأموال والمتاع التي أصابوها أمّنت لهم أسباب العيش الوافرة . . وإنه لو لم تكن غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة ، وما آلت إليه من الناحيتين المادية والمعنوية ، لما كان للدعوة ذلك الطابع الجديد ومما لا شك فيه بأنَّ الفضل كله في تينك الغزوتين كان لله تعالى ولرسوله العظيم . . ففي غزوة الأحزاب قال عزَّ وجلَّ :

﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

وفي هزيمة بني قريظة ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ .



غــزوة بني لحيــان

كانت السنة الخامسة للهجرة قد قاربت على نهايتها لمّا ظفر المسلمون ببني قريظة وخلصت المدينة من الأعداء ، فانصرف الرسول الأعظم إلى تقوية دعائم المجتمع الإسلامي ، شأنه في كل مرة تنأى فيها ظروف الحرب والقتال وتتاح له الفرصة لذلك البناء المجتمعي .

وإذا كان سلطان الإسلام قد بدا قويا في ذلك الحين ، إلا أن اعداءه كانوا ما يزالون كثيرين في شتى أنحاء الجزيرة ، ولذلك فإن الاهتمام الداخلي لم يصرف رسول الله ﷺ على أن يبقى دائما على الحذر واليقظة خوفا من غدر مفاجىء ، او مداهمة على حين غرة ؛ فكانت عيونه منبثة في كل مكان ترقب وترصد تحرك العرب واليهود ، حتى إذا حاولوا القيام بعمل ضده ، سارع إليهم يأخذهم على حين غرّة ، فيشتت قواهم حتى لا يبقى لهم مجال للاتفاق عليه ، أو السير إليه في أي حالٍ من الأحوال .

وإذا كان الثأر ما يزال يومذاك من عادات العرب المستحكمة في نفوسهم ، فإن الإسلام ولا شك ينبذ تلك العادة الجاهلية ويعمل للقضاء عليها ، إلاّ أنه يأمر في الوقت نفسه بإنزال أشدّ القصاص بأهل الغدر والخيانة إذا قاموا بعمل يستدعي مثل هذا القصاص ،

وذلك حرصاً منه على اجتثاث جذور الشر ، واستئصال العقبات التي تقف حائلاً دون انتشار الإسلام في المدى الذي يجب أن يصل إليه ، أو تسدَّ الطرق والمنافذ أمام هداه للناس .. فقد كان رسولُ الله ﷺ يحرص دوماً على تطبيق هذه القاعدة كلما برز مكان للغدر وأهله ..

ولم ينس رسولُ الله ﷺ أن بني لحيان قد جاؤوه منذ سنتين مخادعين ، يطلبون أن يبعث معهم نفراً من قرّاء المسلمين يعلّمونهم الدين ويفقهونهم به ، حتى إذا أوفد معهم في تلك المهمة ستة من الصحابة الأخيار ، انقضّوا عليهم في ماء الرجيع ، فقتلوا من قتلوا ، واقتادوا من اقتادوا إلى قريش للبيع والإذلال ..

فتلك الخيانة الكبيرة لم تكن لتمرّ بدون قصاص ، فما إن استهلّ شهر ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة ، حتى جهّز رسولُ الله ﷺ كتيبة من فرسان المسلمين ، وخرج على رأسها في مئتين من الرجال الأشدّاء ، يريد تأديب بني لحيان ، الذين ينزلون في وادي « فزّان » من نواحي مكة بالحجاز . ولقد آثر أن يخفي مقصده حتى لا يعلم به العدو فيتخذ له الحيطة اللازمة ، فخرج من المدينة مُيمِّماً نحو الشمال ، ومظهرا أنه يريد الشام ، حتى إذا بعد به المسيرُ ، وصار في منأى عن شبهة ذلك العدو وظنونه ، عاد وانفتل راجعاً الى طريق مكة ، منحدراً إلى ناحية الجنوب ، ومراده الوصول إلى « فزان » في أسرع وقت ، إلاّ أن قوما كانوا قد ر وه في انحداره ذاك فأسرعوا إلى بني لحيان يخبرونهم بأمره ، فأدرك هؤلاء أن محمدا قد جاء يريدهم ، فهربوا يعتصمون برؤوس الجبال ومعهم

متاعهم ، وبذلك فات رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يصيبهم إذ وجد ديارهم خاوية خالية من الناس والعجماوات . . فأقام في تلك الناحية سحابة يومين ، بعث خلالهما باثنين من فرسان الإسلام إلى ناحية مكة ، فسارا حتى بلغا مكانا قريبا من مكة يسمى « كراع الغميم » فلبثا قليلا فيه ثم عادا إلى « فزان » ، وبوصولهما أمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ الناس بالرجوع إلى المدينة ، وقد دخلها بعد غياب أربع عشرة ليلة ، في يوم قائظ بلغ من قيظه أن كان الرسول ﴿ﷺ﴾ يقول : « آئبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال » .



غـزوة ذي قـرد

لم تكد تمرّ بضع ليال على أوبة رسول الله (ﷺ) الى المدينة من غزوة بني لحيان ، حتى أغار عيينة بن حصن في رجال من غطفان على نوق رباح للمسلمين كانت ترعى بين أشجار الغابة في اطراف المدينة . .

ولقد كان دافع عيينة الى ذلك الغزو والخذلان الذي عاد به من غزوة الأحزاب ، إذ كانت غطفان قد عوّلت على صلح مع المسلمين تنال فيه من ثمرات المدينة وخيراتها ما يشبع أطماعها ، فلما أن ابى المسلمون أن ينيلوها شيئا من أموالهم ، عزمت على أن تأخذ عن طريق السلب والنهب ما لم تستطعه عن طريق الصلح .

وكانت النوق الحوامل في رعاية رجل من بني غفار وامرأته ، فقتله رجالُ غطفان وساقوا الابل واختطفوا المرأة ، إلاّ أن سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي كان قد رآهم بعدما خرج في الصباح الباكر يريد الغابة متوشحا قوسه ونباله ، فصرخ بأعلى صوته وهو مشرف على ناحية من « سَلْع » : « واصباحاه » ! حتى اسمع ما بين ناحيتي المدينة . .

وسمع المسلمون تلك الاستغاثة ، فهبّ جمع منهم وهو ينادي : « يا خيل الله اركبي » . . وكان أولُ الواصلين إلى رسول

الله ﷺ الذين سارعوا يستبقون إلى تلبية النداء ، المقداد بن الأسود فأمره رسولُ الله ﷺ أن يخرج ومن جاء من فرسان المسلمين في طلب القوم حتى يعرد ويلحق بهم في من يلحق .

أما سلمة فكان قد اندفع بعد ندائه ، يلحق بالغزاة حتى أدركهم على ماء « ذي قرد » وهم يستقون ، فجعل يرشقهم بالنبال وهو يقول :

« أنا ، أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَّع »[1]

وفي هذه الأثناء كانت طلائع فرسان المسلمين قد اقتربت ، فسارع عُيينة واصحابه في الفرار من وجوههم نجاة بأنفسهم ، لكن الفرسان كانوا قد أدركوا مؤخرتهم فقتلوا ثلاثة منهم ، واستنقذوا بعض الابل ، بينما افلت الباقون بعيداً عن مناخه .

وكان رسولُ الله ﷺ قد وصل في حسمه من الفرسان إلى « ذي قرد » ، فأبدى فريق حماسة واندفاعاً ، وهو يريد اللحاق بالغزاة الفارين ، إلاَّ أن الرسول ﷺ ردَّهم عن ذلك بعد أن كان رجال غطفان قد بلغوا منازلهم .

وعرف الرسول الكريم ما أبداه سلمة بن الأكوع من ضروب الشجاعة والإقدام ، فأثنى عليه وقال :

« خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخيرُ رجّالتنا اليوم سلمة » . .

وقد أكرمه الرسولُ الكريم على صنيعه الحسن ذاك أن كان يعطيه سهم الراجل والفارس معا . .

---

(١) الرضع : اللئام .

وأقام الرسول «ﷺ» في تلك الناحية يوماً وليلة ، ثم قفل راجعاً بالمسلمين إلى المدينة ، فما أن دخلوها ، حتى كانت المرأة التي اختطفت قد لحقت بهم ، إذ استطاعت أن تتغفَّل القوم أثناء انشغالهم بالقتال وتفلت من إسارهم ، فسارعت إلى ناقة من نوق المسلمين تركبها وتغذّ فيها المسير فارّة بنفسها » .

وجاءت تلك المرأة تقص على النبي «ﷺ» خبرها ، وتعلمه بأنها نذرت لله تعالى أن تنحر الناقة التي حملتها إن نجّاها الله سبحانه عليها .. فتبسَّم رسولُ الله «ﷺ» وهو يسمع ما تقول المرأة ، ثم قال لها : «بئس ما جزيتها أنْ حملك اللهُ عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها ، إنه لا نذرَ في معصية الله ، ولا لأحد فيما لا يملك .. ارجعي إلى أهلك على بركة الله » ..



مقتل أحد زعماء بني النضير
ابي رافع سلام بن أبي الحقيق

وكأنَّ غزوة عيينة بن حصن لأطراف المدينة ، قد أوهمت البعض بأن المسلمين ما زالوا أضعف مما يظنُّهُ الناس ومما تنشر الأخبار عن قوتهم ، وإلاَّ لما كانوا تركوا بني غطفان يفلتون من أيديهم . .

ولاقت تلك الظنون أكثر ما لاقت هوى في نفوس اليهود ، وخاصة منهم بني النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة ، وأحكموا سيطرتهم عليها حتى صاروا أسيادها . . ولذلك رأى ابو رافع سلام بن أبي الحقيق ، أحد زعماء بني النضير ، أن يخرج ليؤلّب بعض القبائل على محمد ، فلعّله يستطيع كما فعل من قبل هو وحُيي بن أخطب أن يجمع الجموع من جديد لغزو المدينة واستئصال محمد وأصحابه . . وكان أبو رافع صاحب تجارة واسعة ومال كثير ، حتى كان يلقَّب بتاجر الحجاز . .

حمل هذا الرجلُ مالاً وفيراً معه ، وراح يتنقّل بين بني غطفان ومن جاورهم من قبائل العرب ، وهو يغرْيهم بالمال كي يستعدوا لقتال محمد من جديد . .

وعرف المسلمون بأمره ، فجاء نفرٌ من الخزرج بينهم عبد الله ابن عتيك ، وعبد اللهِ بن أنيس ، ومسعود بن سنان الأسلمي رسولَ

الله ﷺ يستأذنونه في قتل ابن أبي الحقيق حتى يكونوا على قدم المساواة مع إخوانهم من الأوس الذين كان لهم فضل في قتل كعب بن الأشرف ، وحتى لا يظلّ ذاك اليهودي داعي إثارة للأعداء . . وإذن رسولُ الله ﷺ للنفر الخمسة الذين جاؤوه بالذهاب إلى خيبر في المهمة التي أرادوها ، وقد أوصاهم ﷺ الاَّ يقتلوا وليدا او امرأة ، ولا ضعيفاً أو كهلاً ، ممن لا قدرة لهم على حمل السلاح . .

وخرج هؤلاء النفر إلى خيبر ، فلمّا بلغوها رأوا أن يكتموا أمرهم متخفين حتى إذا هدأت الطرقات من المارة وسكنت الحركة ، قصدوا منزل اليهودي مقدّمين أمامهم عبد الله بن أبي عتيك لأنه كان يحسن اللغة العبرية ، فدق الباب قائلا :

« قد جئت أبا رافع بهدية » . .

وأسرعت امرأة أبي رافع تفتح الباب ، فإذا بها ترى رجلا يستلُّ السيف في وجهها ويهددها بالقتل إن صاحت أو علا صوتها ومِمَّا زاد خوف المرأة ، وعقل لسانها عن النطق أنها رأت وراءه أربعة رجال يحملون سيوفهم ، ويأمرونها بأن تدُلَّهم على مكان زوجها ، فقادتهم إليه مكرهة ، وأرشدتهم إلى حجرته . .

ودخل الرجالُ على أبي رافع ليجدوه في بهو فسيح ، وقد انشغل في عدّ الأموال بين يديه ، فتقدموا منه مسرعين ، لا يدعون له فرصة لسؤال أو لقول كلمة واحدة ، بل يهوون عليه كل بضربة سيف تزهق روحه ، ولم يكتفِ عبد الله بن أنيس بضربته ، بل وقف فوقه وغرز ظُبةَ السيف في بطنه حتى بلغ الفراش الذي كان يتمدّد عليه

.. فلما أيقنوا هلاكه تركوه ، وخرجوا على عجالة يلاحقهم صراخ زوج المقتول ..

وكان عبد الله بن عتيك رجلاً ضعيف النظر ، فزلّت قدمه وهو ينزل على السلّم مسرعاً فأصيبت إحدى رجليه إصابة منعته عن التقدّم مع رفاقه ، فعادوا إليه يحتملونه حتى أتوا منهلاً من عيون خيبر فدخلوه مختبئين .. وسعت في أثرهم جماعة كبيرة من خيبر ، تحمل المشاعل وتبحث في الجوانب والطرقات إلاّ أنها لم تعثر عليهم ، فظلوا متخفين عن العيون لمدة يومين ، خرجوا بعدها يحملون عبد الله ويقفلون راجعين الى المدينة ، ليأتوا رسولَ الله (ﷺ) ، ويخبروه بالقضاء على أبي رافع العدو الحاقد ، إلاّ أنهم اختلفوا في الإجهاز عليه ، وكان كلٌّ يدعيه لنفسه ، فطلب منهم الرسول العظيم ان يعطوه أسيافهم، وبعد أن تأمّلها وفحصها اعادها اليهم وهو يشير إلى سيف عبد الله بن أنيس ، السيف الذي أجهز على عدو الله ، وقد عرفه الرسول (ﷺ) من الآثار التي كانت ما تزال عليه من جوف القتيل ..

وهكذا كانت السنة السادسة للهجرة مليئة بالسرايا والمناوشات الدائمة ، لا يهدأ فيها المسلمون أبداً ، يأمرهم الرسول الأعظم بالخروج ، قاصدين مُختلف الأنحاء في شبه الجزيرة ، حتى أمكنهم الوصول إلى أطرافها ، كي يغزوا الأعداء أينما وجدوا ، ويداهموهم قبل أن يستعدوا ، معتمدين في ذلك عنصر المفاجأة حتى تبقى المبادرة بين أيديهم ، فلا يفرض عليهم قتال ، بل هم الذين يفرضونه أينما أرادوا ، ووقت ما شاؤوا ...

ولكن العنصر الأهم ، والأعلى شأناً في قتال المسلمين ، كانت الفضيلة التي اعتمدها الرسول الحكيم ﴿ﷺ﴾ والتي كان يوصي بها قادة حربه وسراياه . فقد كان صلّى الله عليه وآله يأمر جيشه بالتأني قبل أن يتقدّم للقتال ، وكان يدعو المؤمنين لأ يتمنوا قتالا ، لأنّ فيهِ امتحاناً للقلوب وهدماً للأجسام ، فكان يقول عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموه فاصبروا » . .

وكان صلى الله عليه وآله ، إذا وجد أنه لا مفرَّ من مقاتلة الأعداء رفع كفيه نحو السماء وقال في دعائه : «اللّهم إنا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللَّهم اهزمهم وانصرنا عليهم ، لأنهم معتدون علينا وعلى الحق الذي أُنزل من عندك » . .

وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم حريصاً على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة له . ونحن نراه ﴿ﷺ﴾ بعد زمنٍ من هذه الأيام ، يقول لمعاذ بن جبل ، وقد أرسله إلى اليمن قائداً : « لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ثم أروهم ذلك وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا سبيل ؟ فلئنْ يهدِ الله على يديك رجلاً واحدا خير مما طلعت عليه الشمس » . .

ومثل هذا التوجيه كان من رسول الله في وقت كان الله سبحانه قد أعزَّ الإسلام ، وجعله دينا ثابتا ، موطَّد الأركان والدعائم ، لا دينا يقاتل أتباعه كي يردوا عنهم هجمة الأعداء ، ويستميتوا في سبيل حرية معتقدهم . .

فسنة الرسول «ﷺ» في الحرب كانت دائماً مجسدةً في وصاياه التي تحمل الرحمة والرأفة ، والشرف والرفعة ، وكلُّ ما يرتجى منه خيرُ الانسان ، ولو كانت وسيلته الحرب ، فلا يأمر جماعة بالخروج إلاَّ ويوصيهم قائلاً : « انطلقوا باسم الله وعلى بركة الله . لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا أو تخونوا ، وضمّوا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله تعالى يحب المحسنين » . .

هذه هي تعاليم الحرب الاسلاميّة ، تظهر في وصايا رسول الله «ﷺ» لجنوده . . ومنها يظهر جليّاً أن الحروب لا يجوز أن تكون إفناءً وإتلافا ، ولا إفساداً أو تحلّلاً من القيود الإنسانية ، بل هنالك أهداف يجب أن تكون مشروعة ، وقد فرضت الحرب كوسيلة أخيرة لتحقيق هذه الأهداف . أو أن تكون هنالك حقوق مسلوبة ، والواجب الديني والدنيوي يفرض استرجاعها . . فلا يجوز أن تكون الحرب من أجل الحرب ، أو من أجل المطامع والاستغلال والظلم ، ومتى لت الحرب من المطامع والنزعات الشريرة فلا يمكن أن يباح فيها كل شيء ، كما يفعل مجرمو الحرب في أيامنا ، حيث يتحللون من جميع القيم ، ويتخلّون عن كل الفضائل ، ضاربين عرض الحائط بقيم الانسان ، وعاملين على إهلاك الحرث والنسل وبالتالي مستبيحين كل شيء من اجل اغراضهم الدنيئة . .

وقد يأخذ الناسَ العجبُ من الكلام عن الفضيلة في الحروب ، فهل يعقل أن تتحكم هذه الفضيلة في العقول والنفوس ، إذا ما دوّت المدافع ، وانهالت القنابل ، وازهقت الأرواح ، واستبيحت الحرمات ؟! . . قد يكون ذلك وفي معتقدات أهل هذه

الأيام جنوحاً نحو الخيال والوهم .. إلاَّ أن هذا هو الخطأ بعينه ، إذ ينبغي أن يعرف الناسُ أن إبعادَ الفضيلة عن الحروب شر كله ، لأنه لولا ذلك لما كانت الاتفاقات الدولية قد عقدت ، ولما كانت المؤتمرات والمحافل قد أقيمت بهدف وضع القواعد والنظم التي تنتهي في غاياتها إلى حدٍ أدنى من الفضيلة في الحروب ..

على أنَّ كلَّ ذلك ، ومهما كانت دوافعه أو غاياته ، فإنه يبقى مقصرّاً عن النظام الأمثل الذي وضعه رسولُ الإسلام في الحروب ، والذي بانَ جليّا واضحا في وصاياه وأوامره إلى قادته وجيوشه .. فالرسولُ ﴿ﷺ﴾ قد قام حقا بالحروب ، ولكنها كانت حروب النّبوة المقيدة بقانون السماء ، وقد قام بها ليعلّمها للناس من أجل خير الناس ، لا لقتل الناس وإفنائهم ، ومتى كانت الحرب لخير الناس ، ووفق المفاهيم التي أرساها رسول الإسلام ، فإنها تكون حينئذ رحمة من الله على الناس ..



مُعَاهَدة الحُدَيبيَة

لقد حقق الأسلوب الحربي الذي اعتمده المسلمون في حروبهم ، باعتماده عنصر مباغتة العدو ومفاجأته على حين غفلة منه ، أغراضه بنجاح ، إذ ما كادت السنة السادسة للهجرة تقارب على نهايتها حتى كانت هيبة المسلمين قد تمكّنت من النفوس ، وأصبحت قبائل العرب تقرّ لهم بالقوة ، وتخاف شدَّة بأسهم ، مما أخذ يهيء لحياة استقرار تقوم على علاقة حسن الجوار ، وعلى نبذ الثارات ودفن الحزازات تمكيناً للعيش في أمن وسلام . .

وإذا كان الاسلام قد ثبتت سلطانه في المدينة ، إلاّ أن قبائل العرب وفي طليعتها قريش ، وجماعات أخرى من سكان الجزيرة كبني يهود في خيبر ، ما زالت لا تعترف بالاسلام ديناً من أديان شبه جزيرة العرب ، ولأتباعه من الحقوق مثل أتباع الأديان والمعتقدات الأخرى ، ولا سيما حقهم في زيارة المسجد الحرام ، والحجّ اليه في الأشهر الحرم . .

وإذا كانت السنوات الست التي انقضت منذ هجرة محمد بن عبد اللّه ﷺ من مكة قد تلاحقت مليئة بالحروب والمعارك ، فإنّ ذلك لا يمكن أن يدوم الى ما لانهاية ، بل يجب ان يحلّ اليوم الذي يدرك فيه أهالي جزيرة العرب ان محمد بن عبد اللّه ﷺ

ما جاء داعية حروب وقتال ، ولا منادياً بالتفرقة وزرع بذور الفتنة بين الناس ، بل على العكس من ذلك تماماً ، جاء هاديا ليخلّص الناس من أدران الوثنية ، وينتشلها من موبقات الجاهلية . . واذا كانت قريش واليهود قد رفضوا الانصياع لنداء العقل . و صروا دائما على محاربة الاسلام ، فقد آن لهم أن يدركوا خطل عنادهم وبعدهم عن الحق ، وقد اثبتت لهم السنوات الأخيرة التي انقضت ن الاسلام كلما تقدمت به الأيام ، علا شأنه ، وازداد انتشاره ، فلِم إذن البقاء على معاداته دون تفكير في سلام معه ؟! . .

ولكن لا . . فلا يمكن لأعداء الاسلام ان يفكروا في مهادنته وإقامة علاقات سلام مع أتباعه ما داموا يفكرون أنهم قادرون على محاربته والنيل منه . . . إلاّ أن نبيّ الاسلام وقد وصل الى المرحلة التي وصل ، يريد هذا السلم ، وما كان تفكيره منذ جلاء الأحزاب عن المدينة إلاّ منصبّا على هذه الناحية . . ولكنه كان يرى أن اليهود في خيبر ما زالوا أبعد الناس عن تقبّل هذه الفكرة لظنّهم ن ما يتمتعون به من قوة كفيلٌ بأن يحقق لهم القضاء على محمد ودينه يوماً ما . . إذن فلمْ يبقَ إلاّ الطرف الآخر في العداوة ، أي قريش ذاتها ، فمعها يمكن إقامة معاهدة سلام الى حين من الزمن ، حتى تنجلي الحقيقة وتستوي الأمور ! . .

ولكن كيف السبيل الى إقناع قريش بإقامة صلح مع المسلمين ؟!.

وما عسى ان يصنع رسول الله ﷺ حتى يحقق هذا الغرض ؟!

لقد تفكر الرسول الأعظم طويلاً بذلك ، فرأى ان يقصد بيت الله الحرام كي يؤدي فريضة الحجّ ، غير راغب في حرب ، ولا طامع في قتال ، وما على قريش إلاَّ أن تقبل بحجّه أو ترفضه ، وإن كانت الدلائل كلها تشير الى القبول دون الرفض ، ما دامت تلك الوحدة التي كانت تتمتع بها قد عراها الضعف ، والقوة التي كانت تتعالى بها قد شابها الوهن ، فباتت تخشى المسلمين ، وترهب جانبهم ، بل ويستبدُّ بها القلق وتأخذها الهواجس كلما تناهت اليها اخبارهم ، أو علمت بمآثرهم . .

فقد عزم رسولُ اللّه ﴿ﷺ﴾ أن يتخذ من الحج الى بيت الله الحرام خطة سلام تمكّنه من الاجتماع بقريش والتفاوض معها على مختلف الشؤون التي تهم الطرفين . . وإنه لفي تدبّر الطرق الكفيلة بتنفيذ هذه الخطة، اذ برؤيا نبويّة شريفة تجيئه وهو نائم بأنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه آمنين ، محلّقين رؤوسهم ومقصّرين ، لا يخافون عدوا يصدّهم ، ولا مانعاً يمنعهم . .

وبشّر رسول الله ﴿ﷺ﴾ المسلمين بذلك ، ففرحوا لها كثيرا ، واتسمت امامهم الآمال واسعة ، وأقبلت عليهم الأماني عريضة ، فأمّا الأنصار فقد كان الشوق يغالبهم لزيارة المسجد الحرام منذ ست سنوات ، عندما حرموا من تلك الزيارة ، ومنعوا من دخول مكة والوصول إلى الكعبة الشريفة للطواف حولها ، واللواذ بجوارها آمنين مطمئنين . . .

وأمّا المهاجرون فلم تفارقهم صورة البيت العتيق منذ ارتحلوا

عنه مكرهين ، فهم على حبّهم للعودة الى أحضانه ، يحنون أيضاً الى مكة ، موطن الطفولة والشباب ، وموئل الأهل والأحباب .. ففيها قد خلّفوا شطرا من حياتهم لا يمكن ان يصدأ بنسيان ، أو أن يمحوه بعاد ..

وهكذا وما أن سرت بشرى الرسول ﷺ في النفوس ، حتى كانت العواطف تسيل فياضة ، وتحنُّ القلوب ملتاعة .. وإنّ لفي روحانية الاسلام ، وما يبعثه في الجوارح من صفاء ونقاوة ، ما يزيد في تأثّر تلك النفوس ويجعلها اكثر رهافة وشفافية .. فراح المسلمون يستعدّون للسفر الى الحجّ ، وأعماقهم عابقة بالارتياح والسعادة ..

على أن رسول الله ﷺ رأى الاّ يذهب بالمسلمين وحدهم في ذلك السفر المشهود ، بل اراد أن يكون معهم من قبائل العرب التى لم تدخل في الاسلام ، وكان من يرغب في مرافقتهم حتى تستيقن قريش بأنّ محمداً ﷺ لم يأت مكة ليغزوها ، وإنما جاء الى الحجّ ، ومعه من الناس من ليسوا على دينه .. فإن وقفت في وجهه ، وحالت دون وصوله البيت الحرام فإنّ ذلك سيكون حجة ضدها ، ومنعُها حينئذ يجعل الناس يؤمنون بأن الدعوة الاسلامية ليست دعوة عداوة واعتداء ، وإنما هي دعوة محبة ووئام ، ولا يمكن إلاّ ان تكون كذلك إن أرادَ الناس أن يقفوا على حقيقتها و يعرفوا جوهرها .. ومن أجل ذلك بعث الرسول الحكيم والسياسي العظيم الى قبائل العرب المجاورة للمدينة بأن يشتركوا معه في الذهاب الى الحجّ في ذلك العام .

وتهيّأت الأحواء للمسير ، وتعالى الآذان بالحج ، فخرج الناس وراء رسول الله ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة قاصدين بيت الله الحرام في مكة ، وقد عقد لواء المسير لعلي بن أبي طالب عليه السلام فتقدم المسيرة وقد أخذ معه سبعين بدنة من الهدى (١) ساقها النبى ﷺ .. ثم خلّف على المدينة ابن أم مكتوم، وحمل معه من نسائه ام سلمة (رضي الله عنها) ؛ وكان عدد من خرج من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق بهم من العرب غير المسلمين ألفا وأربعمائة رجل ، لا يحملون من السلاح إلاّ السيوف في أغمادها ـ وهى سلاح المسافر عادة في بلاد الصحراء ـ ، وكيف يحملون سلاحا ومقصدهم الحجّ وليس القتال او الحرب !..

ثم تقدّم رسول الله ﷺ الناس على ناقته القصواء ، حتى إذا قطع بهم مسافة تقارب الأميال السبعة كانوا قد بلغوا محلة تسمى « ذو الحليفة » ، وهنالك أحرم الناس ولبوا بالعمرة : « لبّيك اللّهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ..

وبعد التلبية والاعتمار ، سار بهم الرسول ﷺ نحو مكة ، مقدّما أمامه عباد بن بشر في عشرين فارسا ، يرتادون لهم الطريق ، فكانوا للحاجين طليعة حذر وانتباه ، وراية سلام وامان ..

---

(١) [illegible]

ولما كان الرسول ﴿ﷺ﴾ يريد أن يعرف نوايا قريش من خروجهم ، فقد بعث رجلا من بني كعب ، اسمه بشر بن سفيان ، يتقصّى أخبارها ، ويقف على ردّة الفعل لديها ؛ وظلّ محمد ﴿ﷺ﴾ يتابع السير حتى بلغ « عسفان » على بعد مرحلتين من مكة ، وهنالك التقاه بشر بن سفيان ، عائداً من مهمته لينبئه من أخبار قريش وما عزمت عليه لما بلغها خبره بالخروج ، إذ أخذتها المخاوف ، وهي ترى أنه جاء غازياً مكة ، كما غزت الأحزاب المدينة من قبل ، وإن كان بمجيئه تحت ستار الحج الى بيت الله الحرام ، ولذلك قررت أن تحول بينه وبين دخول بلدها ، مهما كلفها الأمر من تضحيات ؛ وقد ائتمر سادتها بذلك ودعوا للتأهب للقتال ، والاستعداد للحرب ، ثم جهزوا جيشا كبيراً بلغ عدد فرسانه مئتين ، عدا الرجّالة والمحاربين من بني قومها ، ومن استنصرت بهم من أقوام آخرين جاؤوا يذودون معها عن حياض مكة ويقاتلون المسلمين ، وقد خرج الجيشُ الذي أعدته بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ؛ وقد انهى بشرٌ اخباره للنبي ﴿ﷺ﴾ بقوله : « وقد لبسوا جنود النمر ، ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم » . .

فلمّا سمع رسول الله ﴿ﷺ﴾ ما فعلت قريش ، قال : « يا ويح قريش قد أهلكتهم الحرب ! ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم اصابوني كان ذلك الذي ارادوا ، وإن

أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام داخرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ! فواللّـه لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره اللّه او تنفرد هذه السالفة » . . قال ذلك وهو يشير الى صفحة عنقه الشريف قاصداً به أنه سيـظل يجاهد في سبيل دين اللّه حتى ينتصر هذا الدين أو يموت دونه . .

وقدَّر الرسـولُ ﴿ﷺ﴾ أن جيش قريش قد خرج محارباً ، يصدُّ المسلمين ويبعدهم عن مكة ، وهو يرابط الآن على مسافة لا تبعد اكثر من أميال ثمانية عن مكانهم ، فإن تابع مسيره في اتجاهه فإن القتال سوف يقع لا محالة لأن المسلمين لا تنقصهـم الحمية ، ولا يعوزهم السلاح ، وفي أغمادهم سيوف قد تعوّدت الضراب والقتال طوال ست سنوات ، فضلاً عن تمـرّس كثـيرين من أصحابهـا بأيام العرب وحروبها المتواصلة ، وإنهم لن يقفـوا مكتـوفي الأيدي أمـام جيش قريش ، وهو يحول بينهم وبين تلك الغاية الشريفةالتي جاؤوا لها ؛ وهذا كله ما لا يريده محمد ﴿ﷺ﴾ لأن خطتـه هي السلـم وليس الحرب ! . . فماذا عساه أن يصنع إذن ؟

إنـه لا يريد الحرب حقّـاً ، بامكانه أن يُـظهر للملأ بأن قريشاً تريد الظلم والعدوان وها هي قد بثـت بجيشهـا لتحـول بـين هذه الجماعات التي جاءت مسالمة ، لا تريد الاَّ حقاً مشروعاً لا يمكن لأحد أن يمنعها عنه ، فإن استبدّت برأيها ومنعت هذه الجماعات من زيارة المسجد الحرام فكأنهـا بذلك تصرفهـم عن عقيدتهـم التـي هي دين اسماعيل وملة أبيهم ابراهيم عليهما السلام » وإنَّ في ذلك ما يجعل العرب كلها ضد قريش ، إذ ماذا يضمن للقبائل الاَّ تتحكم قريش

بصائرهم ، فتمنعهم عن حجهم متى تريد ، أو تسمح لهم بهذا الحجّ متى تشاء ؟! . . وما افتضاح أمر قريش هذا أمام الرأي العام كله ، إلاَّ انتصار للدعوة الاسلامية ، وعامل هام على نشرها بين الناس . . ولذلك آثر رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ أن لا يحيد عن خطة السلم التي اعتمدها ، فإن حيل بينه وبين مقصده ، ومنع هو ومن معه من الحجّ ، ونذر الله تغالى هذا المنع ، فإنه يريده منعاً سلمياً لا عن طريق الحرب والقتال وإن قدّر له دخول مكة والوصول الى المسجد الحرام ، فإنه يريده أيضاً دخولاً سلميّاً ، لا دخول عنوة واذلال .

وبذلك كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ في تفكيره أبعد نظراً واكثر حنكة ، وادق سياسة من أي انسان آخر . . .

إذن لن يغيّر الرسول الأعظم ﴿ﷺ﴾ الخطة التي اعتمد ، فأعلن في الناس ما فعلت قريش ، وما بعثت من جيش يرابط في طريقهم ، ثم نادى في الجموع : من يخرج بنا على غير طريق جيش قريش التي هو عليها ؟

وخرج من بين الناس حمزة بن عمرو الأسلمي قائلا : « أنا يا رسول الله » .

وانطلق حمزة أمام حجاج بيت الله الحرام ، يسلك بهم طريقاً وعرة ، ضاقت ممراتها ، وكثرت نتوءاتها ، مما جعل السير فيها صعبا للغاية ، لا يأمن السائر على نفسه من الانزلاق بين لحظة وأخرى أو الانحدار نحو أعماق الوادى الذى يمرون فوقه ؛ وما زالوا يجهدون في

قطع تلك المسالك حتى وصلوا الى سهل عند منقطع الوادي فسلكوا ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة . وما أن بلغوا الحديبية حتى بركت القصواء ناقة النبي ﷺ على حين فجأة ، فظنها الناس قد جهدت ، فجعلوا يصيحون بها لتنهض ، إلاَّ أنها ظلت في مكانها باركة ، مما أدهش الناس فقالوا : « لقد خلأت القصواء أي حرنت لا تريد القيام » ! . ولكنّ رسول اللّه ﷺ قال لهم مستدركاً : « ما خلأت وما هو لها بخُلُق » ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ! والذي نفس محمد بيده ما تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم ، وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم اياها » .

ثم دعا الناس الى النزول وإقامة معسكرهم في الحديبية . . . وأثناء إقامة المعسكر وجدوا أن لا ماءَ حيث ينزلون ، فجاؤوا رسولَ الله ﷺ يشتكون مما قد يصيبهم من العطشْ والجفاف ، فأشار عليهم أن يبحثوا عن الأبار الموجودة هناك ، وهي كثيرة ، وأن ينقبوا عن الماء في أعماقها ، فلعلّ اللّه سبحانه يهديهم الى ماء وفير . . وبالفعل صدق تصور الرسول العظيم ، إذ وجدوا في قعر بعض تلك الآبار من الماء ما يكفيهم للاقامة ما طاب لهم أن يقيموا ، فزالت العقبة التي كانوا قد خالوها سبباً للضعف وقلة الثبات . .

أما جيش قريش فلما أن بلغه تحوّل المسلمين عن وجهة سيرهم ، واتخاذهم مسلكاً يؤدي بهم الى الحديبية ، حتى أخذه الخوف والفزع ، من تجاوزهم له واقتحامهم حدود مكة ، فأصدر قادته الأوامر سريعاً بالاندفاع للتصدّي لهم ، والوقوف في تلك

الناحية التي يمكن أن يشنوا منها الهجوم ما دامت خالية من الجيش الذي يمنع ذلك الهجوم .

وهكذا صار كل فريق فى ناحيته فالمسلمون في الحديبية ، وجيش قريش على مدخل مكة ، وصار كل فريق تراوده شتى الأفكار لما يمكن أن يقوم به أصحاب المعسكر الآخر . . فأما أصحاب الحديبية فقد كانت أوامر الرسول لهم صريحة واضحة . . لاقتال ولا حرب ، ولا مظاهر للعنف أو القوة ، وأنهم جاؤوا حاجين ولن يغيروا إلاَّ بعد أن تهاجمهم قريش أو تغدر بهم ، وعندها لا يبقى إلاَّ امتشاق السيوف وإنزال الضربة القاضية بالمعتدين .

وأما قريش فكانت ما تزال تصرُّ على موقفها ، وهي محاربة المسلمين وردّهم عن بلدها ولو أدى ذلك الى فنائها عن بكرة ابيها . . ولكنها وبعد مضي مدة وجيزة ، وقد رأت أن محمداً ومن معه ما زالوا في الحديبية ، لا يتقدمون نحو مكة ، راحت تراجع حساباتها وهي في حيرة من أمرها ، لا تعرف ماذا تصنع ، فعادَ رؤساؤها الى دار الندوة يتشاورون في الأمر ، ولكنهم لم يستقروا على رأي ، فقد اعتبروا أن السماح للمسلمين بدخول مكة والحج الى المسجد الحرام مذلة تصمهم بالعار مدى الحياة ، وإن قاتلوا المسلمين فإنهم لا يضمنون النصر . وكلا الأمرين اشدُّ من الآخر ، ولذلك سيطر عليهم الحنق حتى كاد يقتلهم ، واستبدَّ بهم التردد حتى كاد يودي بهم . .

وكانت كلما مرت الأيام شعر المسلمون من جانبهم بالضيق والتململ ، وهم يرون أن قريشاً لن تمكنّهم من زيارة المسجد الحرام

راضية ، بل إنها تصرُّ على منعهم بعناد ، وهم لن يظلوا في مكانهم ساكنين ينتظرون بلا جدوى ، فلِمَ اذن لا يقاتلونها كي يردّوها عن غيها ، فتستوي الطريق آمنةً أمامهم لزيارة بيت الله الحرام ؟!.. وجاء نفرٌ كبير منهم يعرض على رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكرة القتال تلك ، فرفض بشدّة مؤكداً انه لن يحيد عن خطة السلم التي رسمها منذ أن أعدَّ للعمرة عدتها ، وأنه يؤثر الانتظار لمعرفة ما ستفعله قريش !..

ولما طال الانتظار من الجانبين ، كانت قريش قد استبدَّ بها القلق ، فرأت أن ترسل الى محمد من يقف على مدى قوته ويتعرف على حقيقة نواياه ، فبعثت بُديْل بن ورقاء في رجال من خزاعة ـ وخزاعة من قبائل العرب الموالية لمحمد ، مسلمها وكافرها ـ ، يسألونه عما جاء به وماذا يريد ؟!.. فأقنعهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعد مفاوضة قصيرة أنه ما جاء لحرب وإنما زائراً للبيت العتيق ، معظماً لحرماته ، وهو يقول لهم : « إنا لم نأتِ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، فإن شاءت قريش ماددناهم مدة ويخلّوا بيننا وبين الناس ، وإن أبوا فوالذي نفس محمد بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي » .

لقد اتضح موقف محمد وبان صدقه جلياً ، فعاد ذلك الوفد الى قريش قائلا : « يا معشر قريش ! إنكم والله تعجلون على محمد ، إنه لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا للبيت » . ولكنّ قريشا اتهمت رجال خزاعة بالمراوغة ، ممالأة ونصرة له ، فقالت لهم :

« وإن كان قد جاء لا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة بداً ولا تتحدث عنا العرب بذلك » .

فأوفدت قريش من جديد مكرز بن حفص ، أخا بني عامر ، فلما سمع هذا الرجل من رسول الله ﷺ الا ما سمعه وفد خزاعة ، فعاد يحدث قريشاً بالحقيقة ولكنها لم تؤمن به . . .

لا . . لن تقنع قريش بأن محمدا جاء مسالما . . وكيف تقبل بمثل هذه الفكرة وفي أعماقها لا يوجد إلا الحقد والضغينة عليه إذن فهي لا ترضى إلاّ بقتاله واستئصاله هو وأصحابه من الحياة ! . . . ولكن كل من ذهب اليه رجع يؤكد لها موقفه السلمي . . .

وعاد القلق يستبد بقريش والتردد يمسك بأعناقها حتى يكاد يخنقها . . إنها لا تدري ماذا تصنع ، ولكنها هل تقف مكتوفة الأيدي ولا تقدم على ما يحقق لها مأربا ؟! . . طبعا لا ، ولن يعوز أشرارها أمر تدبر ما يحقق مآربها . . ولذا رأت بعد أن ائتمرت وتشاورت ، أن ترسل لمفاوضة محمد ، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش وغرضها من ذلك إثارة حفيظة هذا الرجل عليه إن فشل معه في المفاوضة ، فيعود حانقاً ليقود بني قومه لقتال محمد وأصحابه ، فيريحونها منه ومن الهم الذي جاءها به . . .

هذا ما عوّلت عليه قريش ، وهي أن تدفع الأحابيش في وجه محمد ﷺ مغضبين ، مقاتلين ، ولكنّ رسول الله ﷺ كان يدرك خلفية تفكير قريش في كل من توفده اليه ، فلما علم بأمر الحليس انتظر حتى أطلّ الرجل من بعيد ، فأمر بأن يطلق الهدى أمامه ليكون دليلاً ماديّا محسوسا على حسن نيته وصدق ما يبدي . .

ورأى الحليسُ الهدْي مقبلة في عرض الوادي وقد أخذت سبيلها للرعي لشدة ما أصابها من جوع بسبب حبسها ، وتطلع الى معسكر الحديبية فما وقع بصرُه الاَّ على أناس معتمرين ، تحف من حولهم مظاهر العبادة ، وتنتشر في أجوائهم نفحاتُ الأمان ، فثارت نفسه لتلك المشاهد المؤثرة التي لا يراها صاحب نفس صافية إلاَّ ويشعر بأنها قد نفذت الى أعماقه ، لتزيل منها كل كوامن الحقد والضغينة . .

ووقف الحليس يرقب ويتأمل ، ثم لم يلبث أن يعود منقلبا الى مكة من غير أن يلقى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ويأتي قريشا طالباً إليها أن تخلي بين محمد ومقصده لأنه جاء طالب عبادة حقّاً . . . ولكنَّ الحليس أغاظ قريشا بما أبداه ، فقال له أشرافها : « اجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك » .

واحسّ الحليس بالمهانةفهذه قريش تصفه بالغباء لأنه لا يعرف شيئا من مكيدة محمد ، وها هي توجّه اليه التوبيخ على جهالته ، فيشعر بالضيق وينفر في وجوههم مغضبا وهو يهدّدهم قائلا :

« والذي نفس الحليس بيده لتُحلنّ بين محمد وما جاء له أو لانفرنّ بالأحابيش عن مكة نفرة رجل واحد » .

ووقعت قريش في سوء فعالها ، وخافت من مغبة الأمر . . .

فهذا الحليس يهددها بالنفور عن مكة في الأحابيش ، ولئن فعل فانها ستخسر قوما محاربين ، أشداء في القتال ، فتضعف قوتها ، وتخور عزائمها ، وبذلك تصبح لقمة سائغة لمحمد ،

يستطيع أن يقضي عليها قضاء تاماً . . . إذن فلتستدرك الأمر ! . . .

وقام سادة قريش إلى الحليس يسترضونه ، وهم يرجونه بأن يمهلهم بعض الوقت حتى يفكروا فيما يرون من أمر . . . وأجمعت قريش بعد التشاور على أن تبعث الى محمد رجلا حكيما حازما ، تكون لديه القدرة على إقناعه بالعودة منْ حيث أتى دون أن يدخل مكة ، فما رأت رجلا أفضل لذلك من عروة بن مسعود ، سيد بني ثقيف ، فلما حدّثوه في الأمر ، قال عروة : « ما ارى إلاّ الرجل يعرض عليكم خطة رشد فاقبلوها » . . . وما كان رأيه ذلك إلاّ مما رأى من تغرير قريش لمن أوفدتهم وعادوا اليها بالرأي الصواب . . . ولكنّ قريشا قالت لعروة : « إن محمدا لا يقصد إلاّ إذلالنا وأنت خير من يقدر على معرفة نواياه » .

قال عروة : إذن فسأتيه .

قالوا : فأتِهْ . .

وجاء عروة الثقفي يلقى النبيّ ﴿ﷺ﴾ ويقول له : « يا محمد ! إني تركت قومك قد استنفروا لك ، وهم يقسمون بالله لا يخلّون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم ، وإنما أنت من قتالهم بين أمرين : إما أن تجتاح قومك ونحن لم نسمع برجل اجتاح قومه قبلك ، وإما أن يخذلك من ترى معك ، فإني لا ارى معك إلاّ أوباشا من الناس لا اعرف وجوههم ولا انسابهم » . . .

وكان أبو بكر الصديق (رضي) جالسا خلف رسول الله ﴿ﷺ﴾ فلم يحتمل تلك الاهانة بل ردّها على الرجل ، وقام يؤكد له

أن أيّاً من المسلمين لن يتخلى عن رسول الله «ﷺ» أو يموت دونه ، وكان مما قاله له : « ويحك يا عروة ، أنحن نخذل رسول الله «ﷺ» وننهزم عنه ؟! لا والله يا من تعبد الصنم ونحن نعبد الله » . . .

ونظر اليه عروة حانقا وهو يقول له : « أما والله لولا يد كانت لك عندي يا ابن ابي قحافة لكافأتك بها ولكن هذه بها » . . وكان عروة يشير بذلك إلى انه كان يحمل دية فأعانه فيها أبو بكر « رضي » وكان ينوى ان يردها إليه ولكنّ اهانته له كانت مقابلها . . .

وراح عروة بن مسعود يحاور رسول الله «ﷺ» في محاولة لاقناعه بالعودة عن مكة ، والرسول «ﷺ» يردُّ عليه بكل أناة وصبر ، داحضا ما يبدي من حجج ، بالمنطق السليم والقول المتزن ، مما جعل النقاش يطول بينهما . . . وكان في الجمع الذي يحيط برسول الله «ﷺ» المغيرة بن شعبة ابن أخي عروة ـ وقد وقف فوق رأس النبي «ﷺ» وسيفه بين يديه ، فخفي أمره على عمه من المغفر الذي وضعه على وجهه . . وكان المغيرة يرقب كل حركة بدقة وانتباه ، فرأى أن عروة يحاول أثناء الحديث أن يمسك لحية رسول الله «ﷺ» بيده جريا على عادة العرب في الملاطفة ، والرغبة في التحية والتواصل ، فاذا به يمنعه عن ذلك ويضرب يده بكعب السيف ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل اليك . . . . فأجفل عروة وأبدى مضايقة ونفوراً من الرجل المقنع ، فقال له : « ويحك ما أفظك وما أغلظك » . . .

ثم التفت الى النبي «ﷺ» يسأله : من هذا الرجل ؟

فابتسم رسول الله «ﷺ» وقال له : إنه ابن أخيك : المغيرة ابن شعبة . . .

فدهش عروة وقال : ويحَك يا ثقفي !. . إن حبَّ محمد عند أصحابه فوق حبهم لأهليهم . . .

ولم يجرؤ عروة بعد ذلك أن يمد يده نحو وجه النبي «ﷺ» خوفاً من أن تقطع ، ولكنَّه لدهائه ، ظلَّ مجادلاً يجادل رسول الله «ﷺ» ويفاوضه ، مستعملاً شتى الأساليب ، وأفانين الحيل كي يوقع النبي «ﷺ» فيما يحتجُّ به عليه ، ولكنه لم يسمع منه إلاَّ جواباً واحداً : السلم . . ولم يجد عنده إلاَّ شيئاً واحدا . . الحجّ الى بيت الله الحرام . . .

وأفرغ عروة بن مسعود كلّ ما في جعبته دون أن يحصل على ما يريد ، فقام عائداً الى قريش ، والذهول يأخذه مما رأى ، فما كادَ يصل اليهم حتى بادرهم قائلاً : « يا معشر قريش ! إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمد في أصحابه . لا يتوضأ إلاَّ ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلاَّ أخذوه وإنهم ليقبِّلون التراب الذي تدوسه قدماه ، وإنهم لن يسلموه لشيء أبدا ، فروا رأيكم » :

وأسقط في يد قريش ولم تعد تجد لها ذريعة تحتجُّ بها . . . خزاعة ، وعامر ، والأحابيش ، وثقيف . . . جميعاً بعثت الى

محمد ، وجميعا عادوا مصدّقين لمحمد ومثبتين صفاء سريرته في مجيئه ، فماذا تصنع ؟!..

.. وطالت المشاورات في قريش ، وطال بها تشتت الرأي وتوزع الكلمة .. فلا أمراً تجمع عليه ، ولا خطة تهتدي اليها ، لقد غلبها محمد حتى أفلت من يدها كل حجة ، فباتت حائرة مترددة ، لا تعرف ماذا تفعل ...

ورأى النبي «ﷺ» أن قريشاً لم تعد تبعث أحداً لمفاوضته ، فأراد أن تكون المبادرة منه ، فأرسل اليها خراشَ بن أمية الخزاعي ليقف على ما وصلت اليه ، ولكنها ما إن رأت رسول محمد «ﷺ» حتى ذهب كل تباين في رأيها وامحّى كل تقلّب في فكرها ، فكان اجماعها على ردّه ... فقاموا اليه يعقرون جمله ، ويريدون قتله لولا أن تدخّل الأحابيش ومنعوهم من ذلك ، فخلّوا سبيله ...

واحتمل الرسول الأعظم ذلك الخطأ الكبير الذي اقترفته قريش ، رغم أن مهانة الرُّسل لا تُحتمل ولا تُغتفر ، وغفر لها تلك الحماقة التي ارتكبتها ... ولكنَّ هذا لم يزدها إلاَّ إمعاناً في الغرور والكراهية ، فراحت تبعث في جوف الليل سفهاءها يرمون عسكر المسلمين بالحجارة ، ويسمعونهم شتى أنواع الشتائم وأقذر السباب ، والمسلمون ساكنون لا يردون عليهم بشيء ، حتى كانت إحدى الليالي وجاء خمسون رجلاً من قريش كعادتهم للتحرّش بالمسلمين ، فقاموا إليهم يمسكون بهم ويقودونهم الى رسول الله «ﷺ» كي ينظر في أمرهم ، فما كان منه «ﷺ» إلاَّ أن عفا عنهُم وطلب إطلاق سراحهم ...

تلك الفعال الشنيعة من قريش ، وما قابلها من سماحة محمد صلىّ عليه واله وسلم وخلقه العظيم ، كانت لها أصداؤها المدوية على الرأي العام في مكة ، حتى باتت غالبية هذا الرأي في جانبه ، ولو أراد دخولها في ذلك الحين لوجد أنه لا يقف في وجهه كثيرون ، بل على العكس يلقونه مرحبين ، ويستقبلونه معتزّين .. ولكن مقاصد رسول الله ﴿ﷺ﴾ كانت بعيدة ، فترك لقريش أن تثوب الى رشدها ، وأن ترعوي عن غيّها ، وتفكر فيما آل إليه أمرها ، من استنكار الناس لأفعالها ، والاستهجان من مواقفها ، وأدركت قريش ذاك ، فغلب عليها السكون ، وارتضت بالمفاوضة والركون إلى السلام ..

وأرادَ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ ان يمتحن قريشا مرة أخرى ، ففكّر في أن يبعث رجلا إن أتاها ركنت إليه واطمأنت لمفاوضته ، وقد يكون عمر بن الخطاب (رض) هو ذلك الرجل ، فلما عرض عليه الرسول الكريم هذا الأمر يستشيره فيه ، أبدى عمر عذره في عدم الذهاب بقوله : « يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها » .

ودعا رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ إليه زوج ابنته ، عثمان بن عفان ، وأوفده إلى قريش مفاوضاً ..

فذهب عثمان (رض) إلى مكة ، فلماّ بلغها لقيه أبان بن سعيد ، فطلب إليه أن يجيره ، فأجاره أبان الوقت الذى يفرغ فيه من أداء رسالته .. وقصد عثمان (رض) أبا سفيان بن حرب ،

واجتمع اليه في عدد من أشراف قريش ، يخبرهم بأن رسول الله «ﷺ» لا ينفك يريد زيارة المسجد الحرام .. ولكنَّ القوم ثاروا في وجهه وأبوا ذلك قائلين : « يا عثمان ! إن شئت أن تطوف أنت بالبيت فطف » .. فأجابهم عثمان (رضي) :

« ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله «ﷺ» : إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظّم حرماته ، ولنؤدي فرض العبادة عنده . وقد جئنا بالهدي معنا فإذا نحرناها رجعنا بسلام » ..

ورفضت قريش مُصرّة على عنادها .. ورفض عثمان (رضي) أن يفارق مكة قبل أن يصل إلى ما يمكّن من تقارب وجهات النظر ، وبذلك طالت المفاوضات بينه وبينها ثلاثة أيام ، الأمر الذي أقلق المسلمين عليه ، ثم سرت الإشاعة بأ نَّ قريشاً قد غدرت بعثمان ابن عفان وقتلته ، وكانت تلك الإشاعة كافية لأن تهيج غضب المسلمين ، وأن يطلبوا من رسول الله «ﷺ» أن يعزم على القتال . . . إلاّ أن الرسول الأعظم كان لا يزال يصرُّ على تنفيذ خطة السِّلم ، وقد أعطى لقريش كل الفرص كي تأنس منه هذا الموقف ، وهو لا يريد أن يفقد الأمل مع أن الفرصة آتية لا شك فيها ، ولكن عليه أن يحسب لجميع الاحتمالات حسابها فهو وإن كان يستبعد مقتل قريش لعثمان ، إلاّ أن ذلك لا يمنعه من اتخاذ التدابير التي يمليها الموقف . لذلك عزم على القتال إن تأكد له غدْر قريش بصاحبه ، فقال لمن حوله : « لئن فعلت قريش فلا نبرح حتى نناجز القوم » ..

ولكي يهدىء رسولُ الله «ﷺ» من ثائرة غضب المسلمين ، ويمنَعَ ذلك الهياج الذي سيطر عليهم ، دعاهم اليه ، ثم وقف تحت

شجرة وطلب إليهم ان يبايعوه . . ولبى المسلمون طلب رسول الله «ﷺ» فأقبلوا يبايعونه جميعاً ، ألاّ يفروا حتى الموت . . وقد أبدوا من عميق الايمان أخلصه ، ومن قوة العزيمة أصدقها ، ودّعيت تلك البيعة ببيعة الرضوان ، وفيها نزل قولُ الله تعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، فأنـزل السكينة عليهم وآثابهم فتحا قريبا ﴾ . .

لقد كانت نفوس المسلمين قد عزمت على القتال ، ولكنّ رسول الله «ﷺ» كان يؤمّل السلم الذي أراده ، فألهمه الله سبحانه وتعالى أن يطلب منهم البيعة ، وهم على تلك الحالة ، فإذا هي سكينة تنزل عليهم من السماء ، وتفعل هذه السكينة فعلها حتى يعود عثمان بن عفان (رضي) سالما ، لم تتطاول عليه قريش بسفاهة ، أو تنل منه بأذى ، بل عاد موفور الكرامة ، مرفوع الجبين وقد أدّى تلك المهمة الصعبة التي انتدبه لها رسول الله «ﷺ» .

. . وتناهى سريعاً خبر البيعة إلى قريش ، فخافت على نفسها ، ورأت أنّ الأمر لم يعد يحتمل التسويف والمماطلة ، لأنّ المسلمين قد ملواالانتظار وهي ما تزال تعاند في مواقفها . ولذلك ائتمرت واقرّت بأن تفاوض على صلح يقيم التوافق بين مطالبها ومطالب محمد ، ويكون سبيلها للتخلص من المأزق الذي أوقعت نفسها فيه . . ولكنّ قريشا ، ورغم الضيق الذي كانت تشعر به ، فقد أرادت أن تحفظ ماء وجهها ، فوضعت المطالب التى تريدها ، ثم بعثت سهيل بن عمرو ، أخا بني عامر ، ليفاوض في تلك المطالب ، وهي توصيه قائلة : « ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلاّ

أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً » .

وجاء سهيل بن عمرو إلى الحديبية يطرح مطالب قريش على بساط المفاوضات . . وعرف النبي «ﷺ» بتلك المطالب فوافق على البحث بها ، لأنه رأى أن مجرد إقامة عهد بينه وبين قريش إنما يحقق المقصد الذي أراده ، فلا يضيره أن يزور هو والمسلمون البيت الحرام هذا العام أو أن يزوره العام المقبل ، إن شاء الله تعالى ، فذلك أمر مفروغ منه ، ولكنَّ الأهمَّ أن يجعل قريشاً توقع على العهد ، لأن في هذا التوقيع اعترافا منها بالإسلام دينا من أديان جزيرة العرب ، وبحقوق أبناء هذا الدين في زيارة البيت العتيق ، بل وهم أولى من غيرهم بزيارته بعد أن جعله الله سبحانه قبلة للمسلمين فاعطاه قدسية أعلى من قدسية قريش له ، لانها وهي تقدّسه فإنها لا تقدسه للعبادة وحسب ، بل لغاية دنيوية أيضا ، وهي الحفاظ على مكانتها بين العرب ، تلك المكانة التي نالتها بفضل هذا البيت ووجوده في بلدها مكة . . كما أن إقامة صلح ما بين محمد «ﷺ» وقريش من شأنه ان يعزل اليهود في خيبر ، الذين لا يزالون يطمعون في محاربته والقضاء عليه ، وتلك العزلة ستحول بينهم وبين التزلّف لقريش وإغوائها على الوقوف بجانبهم في الحرب ضد محمد «ﷺ» . . وأهم من ذلك كله ، أن الرسول الكريم سيفرض في شروط صلحه ما يمنع قريشا من الوقوف في وجه انتشار الدعوة الإسلامية ، فتنطلق تلك الدعوة آمنة من الغدر ونصب المكائد لها . .

من أجل هذه المقاصد البعيدة ، رضي رسولُ الله «ﷺ» أن

يفاوض في مطالب قريش كما عرضها سهيل بن عمرو ، فقال لأصحابه من حوله مستبشراً الخير : « قد سهُل أمركم .. القوم ماتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح ، فابعثوا الهدي وأظهروا التّلبية ، ولعلّ ذلك يلين قلوبهم » .

.. واهتزّت أرجاء الحديبية بأصوات التلبية ، فحملت الرياح الأصداء تنشرها في أجواء مكة ، وتنفذ الى داخل بيوتها ، فترتعد أوصال ساكنيها ، وترتجف قلوبهم لوعةً وأسى ...

ودخل رسول الله ﴿ﷺ﴾ في المفاوضات مع سهيل بن عمرو .. فكان سير تلك المفاوضات شاقاً للغاية ، إذ كان ابن عمرو يُبدي كثيراً من التشدّد ، ويجهد في فرض المطالب التي يرجو تحقيقها .. وقد أعلن أكثر من مرة رغبته في التوقف والانقطاع عن المفاوضة ، إلاّ أن الرسول الأعظم ، وبما عهد فيه من حكمة وحنكة ، وبما عرف عنه من دقة في السياسة ، وقدرة على المحاورة ، كان يحول بين ابن عمرو ورغبته تلك ، مبدياً من التساهل ، ما أدهش الصحابة ، ومن التسامح ما عقل ألسنتهم ، وإن كانوا في قرارة أنفسهم مغضبين على ابن عمرو لصلافته وتشدّده ، إذ وكأنه يمثّل أصحاب القوة واتخاذ القرار ، وليس المسلمين ، بينما الواقع كان على خلاف ذلك ..

ومهما يكن من أمر ، فقد تتابعت المفاوضات ، وجرت مناقشة كافة المسائل المطروحة ، حتى التأم الأمر على الصلح ، ولم يبق إلاّ كتابة المعاهدة .. فدعا الرسول ﴿ﷺ﴾ عليّ بن أبي طالب عليه

السلام ليكون كاتب الوثيقة فجلس أمام رسول الله «ﷺ» وعلى جانبه سهيل بن عمرو ، وقد أحاط بهم جمع غفير من المسلمين ومن المشركين . .

وبدأ الرسول «ﷺ» قائلاً لعليّ : « اكتب : بسم الله الرَّحمن الرّحيم » . .

فقال سهيل بن عمرو : « امسك ! لا اعرف من هو الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم » .

فقال الرسول «ﷺ» « اكتب : باسمك اللهم » .

وتابع قائلاً : واكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسولُ الله سهيل بن عمرو » . . فعاد ابن عمرو يعترض ويقول : « أمسك ! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكنْ اكتب اسمَك واسم أبيك » . . فوافق الرسولُ «ﷺ» على ذلك وأشار إلى علي قائلا : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » . .

. . وكان الصحابة يرقبون ما يجري ، والدم يغلي في عروقهم من اعتراضات ابن عمرو ، ولكنَّ ثقتهم المطلقة برسول الله «ﷺ» ، وقناعتهم التامة بصدقه ، وبعد تفكيره ، قد عقلت السنتهم ، فمنعتهم من الجهر بما يجيش في صدورهم ، فظلوا صامتين . .

وتابع النبي «ﷺ» يملي على عليّ عليه السلام نصَّ المعاهدة حتى

اكتملت ، فجاء أبرز بنودها :

١ ـ إقامة هدنة بين المسلمين وقريش لا يجوز أثناءها أن يجري قتال أو تدور حرب .

٢ ـ من أسلَمَ من قريش واتى محمدا بغير إذن وليّه ردّه عليه ، ومن ارتدَّ من المسلمين وجاءَ قريشاً فلا يردّونه عليه .

٣ ـ من أحبَّ من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن رغب في محالفة قريش فَلَهُ ذَلك .

٤ ـ رجوع محمد وأصحابه عن مكة عامهم ذاك ، على أن يعودوا إليها في العام التالي ، فيدخلوها ويقيموا فيها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلاَّ السيوف في أغمادها ، ولا سلاح آخر .

٥ ـ مدة المعاهدة عشر سنين من تاريخ توقيعها .

وجرى التوقيع ، وأشهد الشهود : رجال من المسلمين ومن المشركين . .

ومن جرائها حالف خزاعة محمداً ، بينما حالف بنو بكر قريشاً .

وتلك المعاهدة برغم توقيع الرسول ﷺ على وثيقتها ، وقبوله بشروطها ، لم ترض كثيرين من المسلمين ، حتى أنَّ بعضهم ضاق بأمرها صبراً ، فثارت ثائرتهم ، وعلا معسكرهم الهياج ، وهم ينددون بقريش وصلافتها ، فأتى عمر بن الخطاب النبيَّ صلىَّ الله عليه وآله بعد نقاش جرى بينه وبين أبي بكر الصديق (رضي الله

عنهما) يبادره بقوله : ألستَ برسول الله ! .

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : بلى !

قال عمر : أو لسنا مسلمين وهم مشركون ؟

قال ﴿ﷺ﴾ : بلى .

قال عمر : فعلام نعطي الدنيَّةَ في ديننا ؟

قال رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ : « أنا عبدُ الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني » .

وكأنما أراد الله سبحانه أن يمتحن صبر المؤمنين وقوة وفائهم للعهد الذي أخذه على نفسه النبي الكريم ﴿ﷺ﴾ ، فبعث إليهم في تلك الساعة التي اضطربت فيها النفوس أحد المسلمين ، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو ذاته ، رئيس وفد المفاوضة ، وقد جاءَ هاربا من مكة يرسف في قيوده ، مؤملاً أن يلحق بإخوانه المسلمين ويذهب معهم قبل مغادرتهم الحديبية ، بعدما بلغه نزولهم هناك ، فعمل ما في طاقته حتى يفلت من السجن ، وقد وافته الفرصة لذلك ، فهرب يلوذ بالجبال ، ويتجنّب الطرقات ، حتى قدر على إدراك الحديبية ، ولكن في ساعة كان العهدُ فيها قد جرى توقيعه ، وأصبح ملزما للطرفين . .

ورآه المسلمون يندفع نحوهم على تلك الحال المزرية ، فتلقَّوه مهللين ، مكبرين ، وكأنه جاء تنفيساً عن الكرب الذي يملأ نفوسهم . .

وكان سهيل بن عمرو يرقب احتضان المسلمين لابنه ، فجنّ جنونه لمرآه ، وأطاح الغضب برشده ، فتقدّم إليه يضرب به على وجهه بأقسى شدّة ، ويمسك بتلابيبه ، وهو يحاول أن يجرّه ويبعده عن المسلمين ، مما زادَ في غضبهم ، وجعلهم يحيطون بذلك الأب القاسي ، ليمنعوه عن أخيهم في الدين ، فإذا بسهيل بن عمرو يصرخ بأعلى صوته : « يا محمد ! هذا أول من قاضيتك عليه ، ردّه » . . وهنا تدخل رسولُ الله في الأمر ، فطلب إلى ابن عمرو أن يترك أبا جندل وشأنه بعيداً عن العهد وشروطه ، ولكنّ ابن عمرو أبى عليه ذلك ، وعادَ إلى ضرب ابنه من جديد ؛ وحاول رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يثنيه عن رأيه فقال له : « هبه لي او آجره من العذاب » ، فما نفع ذلك شيئاً مع ابن عمرو ، بل قال : لقد تمّت القضية بيني وبينك قبل ان يأتيك هذا .

فراح أبو جندل المسكين يصرخ :

« يا معشر المسلمين أأُردُّ إلى المشركين يفتنونني عن ديني » ! . .

ولكنَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ رمق أبا جندل وقال له مواسيا : « يا أبا جندل ! اصبر واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنّا لا نغدر بهم » . .

ولم يكن أمام أبي جندل إلاّ الرضوخ لحكم الله ، فخفض صوته ولاذ بالصمت ، وأسلس الزمامَ لأبيه يُعيده إلى مكة كما جاء يرسف في القيود . .

لقد حزن النبي «ﷺ» على أبي جندل كما حزن عليه سائر المسلمين ، وتمنّى أن يخلّصه من كربته ، ولكنَّ قسوة الأب قد غلبت وهو يحتجّ بالعهد ، مما اضطره للسكوت وفاءً لهذا العهد ، الذي ما وقعه إلاّ لما رأى فيه من خيرٍ ومصلحة الأمة التي يجب احترامها والحفاظ عليها إذا ما تعارضت ومصلحة الفرد . . لقد كان رسول الله «ﷺ» مطمئناً إلى ما فعله ، ولكن ما أغاظه هو ما بدر من المسلمين من هياج وعدم رضى على العهد ، دون أن يتفكروا في النتائج التي سيحققها في مستقبل أيامهم ، فذهب إلى خيمته وما تزال آثار الغيظ بادية عليه ، فسألته زوجه ام سلمة (رضي) عما به قائلة : « ما شأنك يا رسول الله » ؟! . .

فأخبرها «ﷺ» بما عليه الناس من غضب وهلع ، فقالت :

« يا رسولَ الله . أنت القدوة لأبناء أمتك ، وما رأيت مؤمنين اكثر إخلاصاً لرسالتهم ، ولا أشدَّ حبّاً لله ولرسوله من هؤلاء المسلمين الذين تخلوا عن الدنيا ومباهجها واتبعوا دعوتك . فعلى بركة الله يا رسول الله تحلق وتتحلل ، فستجدهم بعون الله راضين ، يقبلون على ما تقبل عليه ، ويفعلون مثل ما تفعل » .

وزادت طمأنينة رسول الله «ﷺ» بحديث أم سلمة (رضي) ، فخرج وحلق إيذاناً بالعمرة ، وقد امتلأت نفسه بالسكينة والرضا . . وما إن رأى المسلمون صنيع رسول الله «ﷺ» حتى تواثبوا ينحرون ويحلقون ، وإن تخلّف البعض عن ذلك مقصراً . . ولاحظ رسولُ الله «ﷺ» ذلك ، فقال : « يرحم الله المحلقين » .

فسألوه : والمقصّرين يا رسول الله ؟

فأعاد : « يرحم الله المحلّقين » . .

وخافت الجماعة التي قصرت ، فجاءت تسأله مسترحمة : والمقصرين يا رسول الله ؟

فقال «ﷺ» : والمقصّرين .·.

ولما أرادوا أن يعرفوا منه لم خصّ بالرحمة المحلّقين أولاً ، أجابهم : « لأنهم لم يشكوا » . . .·.

. . . لقد استجاب المسلمون ، فنحروا الهدي ، وحلقوا الرؤوس ، وأحلوا من الاحرام ، ولكنّهم كانوا في قرارة نفوسهم لا يزالون على مضض من امر الصلح الذي أنفذه رسول الله «ﷺ» . . . فقد وجدوه مجحفاً بحقهم ، وقد أوقع فيهم الحيف والغبن ، فتساءلوا : ولم ذلك ؟! . . أمنْ أجل إقامة صلح مع قريش وهي الأضعف والأذلّ ، أم من أجل سلامتهم وهم لن يتوانوا عن قتال ، ولم يقصروا عن حرب ؟! . . .

ولشدة ما كان يعتمل في نفوسهم ، جاؤوا رسول الله «ﷺ» يستجلون الحقيقة ، فقالوا له : « يا رسول الله ، لقد وعدتنا بزيارة المسجد الحرام ، وها نحن عائدون ولم ندخله » . . .

فكان جوابه : « أكنت حدثتكم أنكم تدخلونه هذا العام ؟ »

قالوا : لا . . .

قال : فإنكم ستدخلونه ، وتطوفون به إن شاء الله . . .

قالوا : وكيف نردُّ الى الكفار من جاءنا مسلماً ، ولا يردون علينا من جاءهم مرتدّاً ؟

قال : من ذهب منّا اليهم فلا ردّه الله ، ومن جاءنا منهم فرددنا ، فإن الله سيجعل له فرجا ومخرجا .

وأدخل حديث الرسول «ﷺ» بعض الطمأنينة الى نفوسهم ، فهدأوا وسكنوا ، وراحوا يتهيّأون للرحيل . . .

وكانت إقامة المسلمين في الحديبية قرابة عشرين يوما ، أذّن بعدها مؤذن الرسول «ﷺ» بالعودة الى المدينة . وقد شاءَ الله سبحانه حتى لا يبقى في نفوس المسلمين أثر للقلق مما أنفذ رسولُه من عهد أن يجعل الأمن في قلوبهم ، والسكينة في نفوسهم ، فأنزل على رسوله الكريم وهم في طريق العودة « سورة الفتح » . . . نزل بها جبريل الأمين على قلب الرسول «ﷺ» فتلاها على مسامع المسلمين آيات بينات مباركات من أولها الى آخرها وهي قوله تعالى :

﴿إنا فتحْنا لكَ فتْحا مُبينا ليغْفرَ الله لَك ما تقدَّم مِنْ ذنبكَ وما تأخّر ويُتِمّ نعمتهُ عليك ويهديك صراطاً مُستقيماً ، وينصركَ الله نصراً عزيزا﴾ الى آخر السورة الكريمة . . . . .

وما إن فرغ رسولُ الله «ﷺ» من التلاوة حتى أيقن المسلمون أن معاهدة الحديبية كانت فتحا مبينا حقاً للمسلمين ، وأدركوا أن الجموح الذي أخذ بأنفسهم لفترة من الوقت ، إنما كان هفوة ارتكبوها ، فاستغفروا الله وأثنوا عليه . . .

وهكذا حقق الرسول «ﷺ» الأغراض التي قصدها من معاهدة الحديبية ، وقد تجلت بما يلي :

١ ـ تغيير الرأي العام من عداوته للدعوة الاسلامية الى قبولها واقعا لا مفرًّ منه ، وذلك ليس عند قريش وحسب ، بل عند العرب عامة ، وهذا القبول يشكل الاعتراف بالاسلام دينا ، وبمحمد ابن عبد الله رسولاً لهذا الدين .

٢ ـ أكَّدت قوة إيمان المسلمين وشدة اقدامهم على المخاطر . إذ لا ينبغي التجاهل بأن قريشا كانت أقوى قبائل العرب وألدّ أعداء الاسلام ، وأنَّ ذهاب المسلمين الى مكة ، معقل قريش بالذات ، يبيّن ذلك الإقدام ، والاستهانة بالموت في سبيل الله تعالى .

٣ ـ فصلت اليهود عن قريش وأبعدتها عن كل تحالف في المستقبل .

٤ ـ جعلت المسلمين المستضعفين داخل مكة يشكلون جيبا داخل معسكر العدو ، إذ خففت قريش من ظلامتها لهم ، وتركت لهم بعض الحرية التي سلبتهم إياها من قبل بصورة كاملة . . .

٥ ـ بيّنت للمسلمين أن المناورات السياسية هي من وسائل الدعوة الاسلامية ، وأن الطريقة في السياسة هي من جنس الفكرة : صدق ووفاء عهد . . لكن الوسيلة يمكن أن يتخلّلها دهاء ، بإخفاء الغايات الحقيقية عن العدو ، والسبل التي يمكن اعتمادها للوصول الى تلك الغايات .

ولكنَّ أبرز النتائج التي حققهـا صلـح الحـديبية ، وأبعدهـا أثراً ، يبقى ذلك الفتح المبين على الاسلام والمسلمين . . . فالإسلام منذ أن ظهر دينا للقضاء على الشرك ، قامت ضدّه العرب بأجمعها ، لا تتورع عن استخدام أي عمل أو القيام بأي شيء يمكّن من منْع هذا الـدين أن يُبصر النـور ، ومـن اعتنقـه عرف بأنـه سيلاقـي الظلـم والاضطهاد حتـى من أقـرب النـاس اليه ، ومـع ذلك راح اتباعـه يتكاثرون شيئاً فشيئاً حتى شكّلوا القوة التي تقف في وجه أعدائه . . وقريش كانت العدوة الأولى ، وهي يومئذ صاحبة الكيان السياسي الأقوى في شبه الجزيرة ، تتأثر القبائل الأخرى بمواقفها ، وربما تحذو حذوها في كثير من الأحايين . . . وهذا أمر واقع في حياة الـدول والشعوب ، نراه اليوم ، كما كان قائما في الماضي . .

ولذا فإن عقد صلح مع قريش ، سيكون من جرائه نزع تلك العداوة من نفوس قبائل العرب ضد الدعوة الاسلامية مما يؤمن لهـا سبيل الانتشار بعيداً عن العوائق والسدود في وجههـا . . وهـذا ما حققته بالفعل معاهدة الحديبية ، إذ كان الصلح حقاً ، فتحا مبينـاً للمسلمـين ، أتاحـه الله سبحانـه لهـم بفضـل حكمة الرسـول ﷺ وبعد نظره ودقة حنكته السياسية .

غَـــزوة خيـْـبر

عادَ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ من الحديبية ، مطمئناً إلى ما هداه الله تعالى إليه ، وما منَّ عليه به من فتح مبين . وإذا كان ذلك الفتح قد أرضى نفسه وملأ وجدانه ، فإن خطته التي اعتزم تنفيذها لم تكن قد اكتملت بعدُ . . فقد كان بلغه قبل خروجه قاصداً الحجَّ ، أن اليهود وقريشاً يأتمرون به ، ويُعِدُّونَ العدّة لغزو المدينة من جديد . ولذلك كان من مقاصده في ذلك الخروج إقامة سلام مع قريش حتى يأمن غدرها من ناحية الجنوب ، فلا يبقى أمامه إلا معالجة أمر يهود خيبر المقيمين في ناحية الشمال من المدينة . . فلما كان له ما أراد . وأقام عهد الحديبية ، عادَ إلى المدينة يتفكّر في شأن هؤلاء اليهود ، والطريق الذي يسلكه معهم . . وقد دار في خلد الرسول ﴿ﷺ﴾ إقامة صلحٍ معهم على غرار الحديبية ، إلاّ أنه رأى ذلك غير مفيد ، لما في نفوسهم من ضغينة عليه ، ولما لهم من تارات قديمة تدفعهم إلى البقاء على عداوتهم كلما تذكروا الخسائر التي حلّت بهم ، والهزائم التي لحقتهم من جراء تلك العداوة التي جعلتهم ينقضون العهود . . كما أن الرسول ﴿ﷺ﴾ رأى أنه لا يمكن ترك أولئك اليهود على حالهم ، لأنه لا يُؤمن لهم جانب ، فهم في حصون منيعة ، وعندهم من الثروات والأموال ، ما يجعلهم قادرين على الوقوف في وجه

الدعوة الإسلامية ، والحؤول دون انتشارها . كما أنه ليس ما يمنع هؤلاء اليهود بعد ان نفضوا يدهم من قريش الآن ، من أن يتوجّهوا إلى الملوك خارج جزيرة العرب ، يوغرون صدورهم بالحقد على الإسلام ونبيّه ، ويقنعونهم بإعلان الحروب ضده ، وتجييش الجيوش لقتاله ، إذ يبيّنون لهم أنه يقيم سلطاناً قد يهدّد كيانهم وعروشهم بالزوال . . إذن فإن صالح الدعوة يستوجب القضاء على شوكة يهود خيبر قضاءً تاماً ، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك ببلاد العرب قائمة أبداً .

وهكذا لم يمكث رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ بالمدينة ، بعد عودته من الحديبية ، إلاّ بضع عشرة ليلة ، حتى أَمَرَ الناس بالتجهيز لغزو خيبر ، على ألاّ يغزو معه إلاّ من شهد الحديبية . أما غيرهم ممَّنْ يريدون الخروج غزاةً متطوعين فلهم ذلك ، ولكن لا يكون لهم من الغنيمة شيء . .

وفي وقت قصير اكتمل الاستعداد ، فاستخلف الرسول ﴿ﷺ﴾ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، ثم انطلق في شهر المحرّم من السنة السابعة للهجرة في ألف وستماية مقاتل فيهم مئتا فارس ، فراحوا يُغذون المسير مسرعين حتى يفاجئوا العدو ، على حين غرة ، قبل أن يعلم بخروجهم فما انقضتْ ثلاثة أيام حتى كانوا قد قطعوا الطريق ما بين المدينة وخيبر ، ونزلوا « بالرجيع » ليحولوا بين أهل خيبر وغطفان إذ كان هؤلاء مظاهرين لهم على رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فلا يقدرون على مدّهم بما يعوزهم في الحرب . .

أما اليهود فكانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد «ﷺ» ، بعدما أقام عهد هدنة مع قريش ، وقد تشاوروا في الأمر فرأى بعضهم أن يوحّدوا قواهم مع يهود وادي القرى وتيماء ، فيشكلوا كتلة واحدة للتصدّي لجيش المسلمين عندما يغزوهم ، بينما رأى البعض الآخر انّ إقامة حلف مع محمد هو أجدى وأحسن ، إذ يأمنون به خطره ويحولون دون خروجه إليهم . ولكن غلب عليهم الحقد الدفين في نفوسهم ، وأخذتهم الغطرسة ، فآثروا الحرب على سلم محمد «ﷺ» ، فباتوا مطمئنين إلى منعة حصونهم ، وشدّة قوتهم ، ينتظرون خروج المسلمين إليهم ، حتى يذيقوهم من العذاب أمرّهُ ، ومن الهوان أشدّه . . وبهذا الاطمئنان عمَّى الله تعالى عليهم البصر والبصيرة وسدَّ منافذ التفكير ، فلم يشعروا بنزول الجيش الإسلامي قرب حصونهم ، حتى اذا كان الصباح ، وقد خرجوا إلى أعمالهم في زراعة الأرض والنخيل ، إذا بهم يفاجأون بذلك الجيش أمامهم ، فيولون الأدبار وهم يتصايحون وينادون :

« محمد والخميس . . محمد والخميس . . لقد جاء محمد بجيشه . .

ورآهم المسلمون ينكصون على أدبارهم هكذا ، فأراد رسول الله «ﷺ» أن يزيد في فزعهم ، وفي تخويفهم ، فراح يصرخ فيهم قائلاً : « الله أكبر خربت خيبر ! . . الله أكبر إنا إذاً نزلنا بساح قوم فسَاء صباح المنذرين . .»وكان رسول الله «ﷺ» عندما وطيء أرض خيبر ، قد نزل عن راحلته ، ثم رفع يديه نحو السماء يبتهل إلى الله سبحانه ، ويسأله النصر على الأعداء مبتهلاً بهذا الدعاء :

« اللّهم ربَّ السموات وما أَظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطين وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرياح وما أَذْرَيْنَ . نسألُك خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها » .

ووقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين للقتال ، ولكن لم يتبيّن لهم الأمر جليّاً ، ولا قرّروا بأيٍّ من تلك الحصون يبدأون ، ولا في أيٍّ منها تجمعت مقاتلة اليهود وقواها ، ذلك أنَّ حصون خيبر ومساكنها كانت موزعة في مناطق ثلاث ، وفي كل منطقة أقيمت الحصون المنيعة ، على سفوح الجبال أو على رؤوس الهضاب . . ففي منطقة « النطاة » قامت ثلاثة حصون كانت : حصن الناعم ، وحصن الصعب بن معاذ ، وحصن الزبير ويقال له حصن قلّة . وفي المنطقة الثانية التي كانت تدعى : « الشق » برز حصنا « أبيّ » و« البريء » . أما في المنطقة الثالثة وهي « الكتيبة » فقد قامت حصون : الوطيح ، والسّلالم ، والقموص ويقال له حصن نزار . ولقد ساعد على إقامة تلك الحصون انتشار قرى وحصون خيبر في واحة كبيرة خصبة ، ذات ماءٍ وفير ، وزروع ونخيل كثيرة ، مما جعل أهلها يتفرقون في حصون منيعة وبيوت متينة ، أقاموها خصيصاً لتشكل معاقل لهم تمنع عنهم العادين ، وتردّ الغازين . . وقد أمكن ليهود خيبر بفضل ما منحتهم طبيعة تلك البلاد من منعة وخبرات أن يتدربوا على فنون الحرب ، ويتمرّسوا على ضروب القتال حتى برزوا أقوى بني يهود في جزيرة العرب ، وأعلاهم شأناً وأوفرهم مالاً وسلاحاً .

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يترقبون بحذر ويقظة ، كان اليهود قد أسرعوا يُلجئُون النساءَ والأولادَ ، ويجمعون الأموال في حصون « الكتيبة » ، بينما يستعدُّ مقاتِلوهم في حصون « النطاة » وقد عقدوا لواء القيادة لأحد زعمائهم : سلام بن مشكم . .

ولئن كان المسلمون قد أمضَوْا بعض الوقت ، لا يعرفون الحصن الذي تجمَّع العدو فيه لِلقتال ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد مهَّدَ لهم هذا الامر ، إذ رأوا اليهود يعتلون حصن « الناعم » في منطقة « النطاة » ، كأنهم كانوا يدلُّون على أنفسهم ومكان حشودهم ، فاندفع المسلمون إلى ذلك الحصن يريدون اقتحامه ، إلاَّ أن اليهود كانوا قد أعدّوا العدة فراحوا يرمونهم بالسهام والنبال ، ويرمونهم بالحجارة ، فقتل محمود بن سلمة برحى ألقيت عليه ، وتقهقر المسلمون إلى الوراء يحتمون خلف دروعهم ، وهم يردّون على العدو بمثلِ السلاح الذي كان يرميهم به .

ومضت بضع ساعات على تلك المناوشات المبادلة . رأى أثناءها اليهود عدم الجدوى منها ، إذ أنها في الواقع لا تصيب المسلمين بخسارة ، بل تضيّع السلاح اليهودي وتذهب به بدداً ، وهم أضنُّ من أن يفقدوا شيئاً منه لحاجتهم الماسّة إليه في مثل هذا الظرف العصيب .

إذن ماذا يصنعون ؟

هل يبقون على تلك الحال داخل الحصن ؟ ولكن إلى متى وهم

لا يمـنّـون النفس بمدد يأتيهم من البعيد ، أو بعون يقدمه لهم أحد من القبائل ؟

وثمـة أمر هام يعوّلـون عليه أيضـاً وهـو اعتدادهـم بالقـوة واعتزازهم بالخبرة في القتال ، مما يجعل كرامتهم تأبى عليهم الاكتفاء بموقف الدفاع ، والظهور بمظهر الجبن والتخاذل . . هذا ما تفكرّ به زعماء اليهود فائتمروا بالخروج إلى المسلمين ليجعلوها معركة طاحنة تقتل منهم من تقتل وتُـجلي الناجين عن أرضهم ! .

وهكذا انطلق اليهود خارج الحصـن ، فتلـقّـاهـم المسلمـون بمقاومة عنيفة ، ودار بين الفريقين قتال شديـدٌ مريـرٌ ، إذ كان كلٌّ من الفريقين يريد أن يُنزل بعدوه الضربة القاضية ، ولكنه لم يقدر على ذلك، فاليهود بألوفهم العديدة وبغرورهم بأنفسهم كانوا يتوهمون بأنهم سيسحقون المسلمين . وهؤلاء بقوة إيمانهم ، وببسالة أبطالهم كانوا يرجون تحقيق النصر . . ولكـنَّ أيّاً من الفريقـين لم ينَـلْ من الآخر إلاَّ عندما قتل قائد اليهود سلام بن مشكم ، فإذا بهم يرتعدون لمقتله ، ويهلعون لفقده ، فيرتـدّون سريعاً إلى الوراء ، ويدخلون الحصن وهم يُحكمون إغلاقه خوفاً من لحاق المسلمين بهم . وينقضي أول يوم للقتـال على ذلك النحـو ، فلا المسلمـون قدروا على فتـح الحصن ، ولا اليهود قدروا على التغلب عليهم . . ومـرَّت بضعة أيام أخرى ، كان اليهود يخرجون أثناءها من حصن « الناعم » صفوفـاً مدججة بالسلاح ، ويهجمون على المسلمين ، والأوهـام كانـت لا تزال تأخذ بعقولهـم وهـم يرددون : « محمـد يغزونـا ! هيهـات ! هيهات ! . . فيلقاهم المسلمون بالمقاومة التي ألفوهـا ، وبالشـدّة

التي تمرّسوا بها ، فلا يلبثون أن يرتدوا الى حصنهم خاسئين كما خرجوا منه خائفين . . ودامت تلك الحال سبعة أيام متواصلة ، فرأى المسلمون بعدها أنهم قد أُجهدوا فعلاً ، وقلَّ معهم الزاد، مما قد يؤثر على صمودهم واستمرارهم في القتال . . وكان رسولُ الله (ﷺ) يعطي كلَّ يوم لواءه لأحد الصحابة كي يقود المسلمين إلى فتح الحصن،فيرجع ومن معه منهوكي القوى، تعبين،دون أن يقدروا على فتحه . . فقد أعطى اللواء في اليوم الأول إلى أبي بكر الصديق (رضي) فقاتل ومن معه قتالاً شديداً ، ولكنه عادَ بدون جدوى ، فأعطاه من بعده في اليوم الثاني الى عمر بن الخطاب (رضي) فقاتل وأصحابه قتالاً أشدَّ من قتال الأولين ، ولكنه عجز عن فتح حصن « الناعم » . . فبدا للمسلمين أن هذا الحصن -- المنيع -- قد بات مستعصيا عليهم إلاَّ أن الرسولَ الأعظم (ﷺ) بدَّد تلك الفكرة من رؤوسهم عندما قال لهم :

« أما والله لأدفعنَّ غدا بلوائي إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبُّه الله ورسولُه ، ولن يرجعَ حتى يفتح الله عليه » . فارتاح المسلمون قاطبةً لهذه البشارة بالفتح ، ثم اشرأبَّت أعناق النوم - من أبطال المسلمين - تتطلَّع إلى من يُعطى الرايةَ في غد ليفتح الله على يديه ، وليكون الفائز بحب الله ورسوله له ! . .

فما ان صلّى رسولُ الله (ﷺ) صلاة الغداة من اليوم الثاني حتى دعا إليه عليّ بن أبي طالب (ع)، فجاءه وهوأرمدُالعين، وجلَسَ بين يديه ، فأمسك الرسول (ﷺ) برأسه ، وراح يمسح على عينيه ويُرقيه بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، وهو ينفخ فيهما ،

ويُمسّدهما بشيءٍ من ريقه الشريف ، حتى شعر علي (ع) بأنه قد برىء من الرمد ، وأن رأسه قد صفا ، ونظره قد قوي ، فوقف أمام رسول الله (ﷺ) متأهباً ، مستعداً ، وهو في أحسن حال . تناوله الرسول (ﷺ) اللواء ، وأمَره أن يقود المقاتلين لفتح ذلك الحصن الذي ظنَّ اليهودُ أنه استعصى على المسلمين . . ولقد شاءَ عليٌّ أن يتقدّم وهو على بيّنةٍ من أمره ، فسأل رسول الله (ﷺ) : « علامَ أقاتلهم يا رسول الله ؟ » .

فقال له الرسول (ﷺ) : « على أن يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله ، وأن محمداً رسولُ الله بحقها ، فإن فعلوا حقنوا منّا دماءهم وأموالهم ، وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ » .

واندفع عليٌّ (ع) إلى حصن الناعم في مقدمة الجيش ، فما أن رآهم اليهود حتى خرجوا إليهم ، يسبقهم فارس مقدام ، عليه مغفرٌ يمانيٌّ قد ثقبه مثل البيضة على رأسه ، وهو يمتشق من السلاح سيفاً ودرعاً ورمحاً وخناجر على جانبيه ، فكان كأنه في إقدامه يهب الموت لعدوّه قبل أن يلقاه .

وقبل أن يقترب ذلك الفارس صرخ علي (ع) باليهود ، داعياً إياهم إلى الإسلام ، فذهبت صرخاتُهُ أصداء في جوف الفضاء ، لا تقع في مسامع العدو موقع قبول ولا رضى . . وكان الفارس اليهودي قد اقترب من صفوف المسلمين وأخذ يرتجز :

قد علمت خيبر أني مرحبْ ... شاكي السلاحِ بطلٌ مجرَّبْ
أطعنُ أحياناً وأحياناً أضربْ ... إذا الليوث أقبلت تلهَّبْ

كأن حماي كالحـمَـى لا يُـقْـرَبْ

فانطلق علي (ع) للقائه بقوة المؤمـن الصـادق ، وبعنفـوان البطل الأبيّ ، وهو يردُّ عليه راجزاً :

أنا الذي سَّمتني أمي حيدرهْ أكيلكم بالسيف كيل السَّندره

ليثٌ بغاباتٍ شديدٌ قسورهْ

ثم الْتقى البطلان ، وثار النقع تحت حوافر فرسَيهما ، وارتفع الغبار فوق رأسيهما في مبارزة عنيفة مريرة ، كان يشهدها المقاتلون من الفريقين فتهلع لها قلوبهم ، وترتعد لمرآها فرائصُـهم ، فاستطاع مرحبُ اليهودي أن يقارب علّـياً (ع) وأن يوجه إليه ضربة أرادها كالصاعقة ، رلكـنَّ علـيّاً أمكنه تلافيها وهو يحيد عنها فذهبت في الهواء طائشة خائبة ، ثم لم ترتـدَّ يـدُ صاحبها منها ، حتى كانـت الضربة النجـلاءُ من مُبـارزه عليٍّ (ع) قد هوت فوق رأسـه تقـدُّ المغفر الذي عليه ، وتفلقه شقّين حتى تصل الى الأضراس في حلقه ، فأهوى مرحبُ ، بطـلُ اليهود الأكبر ، عن ظهر فرسه ، مجندلاً على الثرى ، يفور منه الدم الغزير لـيرويَ التراب من تحته . .

ورأى المحاربون اليهود ما حـلَّ ببطلهم مرحب ، فاندفعوا ، نحو المسلمين في هجمة شرسة عاتية ، وقـد استبـدَّ بهـم الحقـد ، وهاجت في نفوسهم الضغينة ، فأرادوا ان يستأصلوا أعداءهـم من على وجـه الأرض استئصـالاً . . ولـكن من أين لهـم ذلك الوهـم الخادع ، وكل واحد من المسلمين بطـلٌ مقدامٌ بحيث كانوا ينقضُّـون عليهـم كالليوث الـكاسرة ، فيفرقـون صفوفهـم ، ويشتتـون

جموعهم .. ولكنَّ واحداً منهم كان يدور حول علي (ع) ويلحقه ويترصَّده من مكان إلى آخر ، وهو يريد أن يختلسه بضربة تعجَل عليه ، ثم ما زال كذلك حتى أمكنه الدنوَّ منه ، فأهوى عليه بسيفه ، فتلقَّى عليٌّ ضربته بدرعه ، غير أنها وصلت إلى مقبضه فقطعته وأطاحت به من يده ، فما كان من علي (ع) إلاَّ أن عاجله بسيفه البتّار ، وأهوى عليه بإحدى ضرباته البكر النجلاء ، لتفلق هامه وتَذَرَهُ على البطحاء شطرَين ..

ولم يكن اليهود قد شهدوا في سالف أيامهم مثل تلك الضربات التي تفلق هام الرجال ، فراعهم الهلع ، وأخافهم الفزع ، فتقهقروا إلى الوراء مرتدين إلى الحصن ، فارِّين لهول ما رأوا ، ثم حاولوا إغلاق بابه وإحكام إقفاله من الداخل ، ولكنَّ علياً (ع) كان أسرَعَ من أن يمكنّهم من إيصاده جيداً ، إذ اندفع نحو الباب يشدُّ به إلى الوراء حتى اقتلعه بيديه ثم حمله يتترس به ، ويهجم على الأعداء يدحوهم به دحواً حتى أبعَدَهُم عن المدخل ، فرجع وجعل الباب جسراً على الخندق الذي كان أمام الحصن كي يعبر عليه المسلمون ، ويلاحقون الأعداء من ناحية إلى ناحية ، ومن زاوية إلى زاوية ، حتى قتلوا منهم عشرات الرجال وفرَّ الباقون من أمامهم ، فطاردوهم حتى أجلوهم عن الحصن تماماً ولم يبقَ منهم فيه أحدٌ .. وعندها هدأ القتالُ وانتهت تلك المعركة بفتح حصن « الناعم » على يدَي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه ، فدعاه الرسولُ ﴿ﷺ﴾ إليه ، يضمُّهُ إلى صدره ، فرِحاً بقوة بأسه وشجاعته ، شاكراً الله تعالى على ما أنعَمَ عليه وعلى المسلمين من نصر

عزيز . .

وكان شاعر رسول الله ﴿ﷺ﴾ حسان بن ثابت ، يرقب ذلك الحنان يفيضه رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ على حبيبه وأخيه علي (ع) فينفذ أثره إلى مشاعره ، ويلتقي في ذهنه مع صور جولات علي (ع) وصولاته ، فاستأذن النبيَّ ﴿ﷺ﴾ وتلا عليه في ذلك شعراً معبّراً ، صارخاً ، كان من جُملته :

وكان عليٌّ أرمدَ العين يبتغي	دواءً فلما لم يحسّ مداويا
شفاه رسول الله منه بتفلة	فبورك مرقيّاً وبورك راقيا
وقال سأعطي الراية اليوم صارماً	كميّاً محبّاً للرسول موالبا
يحبُّ إلهي والاله يحبه	به يفتح الله الحصونَ الاوابيا
فأصفى لها دون البرية كلّها	عليّاً ، وسمّاه الوزير المؤاخيا

واطمأنَّ الرسول ﴿ﷺ﴾ واطمأنَّ معه المسلمون إلى ذلك الفتح العظيم ، وحقَّ لهم أن ينالوا قسطاً من الراحة بعد جهاد دام عدة أيام ، فأخلدوا إلى السكون في ديار خيبر ، وقد وقف الحراسُ مترقبين لكل حركة ، حذرين من أي غدر قد يفاجئهم به العدو . .

ولكن ما شهدوه من بطولة علي بن أبي طالب (ع) وشجاعته في ذلك اليوم كان عجباً حقّاً ، فقضوا سهرتهم يتحدثون بتلك القدرة الفائقة ، وكانوا يتساءلون : كيف أمكن لعلي (ع) أن يقدر على قلع ذلك الباب الضخم ورفعه بين يديه ، والهجوم به على الاعداء يدحوهم به دحواً . . فقام نفرٌ من ثمانية رجال ، بينهم أبو رافع ، مولى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وذهبوا إلى الباب يريدون أن يرفعوه ، فما

قدروا على أن يقلبوه قلباً ، وحاولوا ذلك مرات عديدة ، فأعجزهم ثقلُ الباب ، حتى أن أحدهم قال:كنا عشرين نحاول رَفْعهُ كما رفعهُ عليٌّ فلم يستطع أن ينفذ الضوءُ من تحته ! . . وكانوا كلّهم أمناء صادقين ، فعادوا إلى الرجال يتحدثون بما حاولوا ولم ينجحوا ، وراحوا يثنون على قوة علي (ع) ويحمدون الله سبحانه على ما مَنحَ أحد أبطالهم من القوة حتى أمكنه فتح الحصن . .

ثم باتَ المسلمون تلك الليلة هانئين ، مرتاحين . . وما أن طلع الصباح وأدَّوا فريضة الصلاة ، حتى راحوا يتهيأون للقتال ، فما كاد عمار بن ياسر يفرغ من استعداده حتى شعر بدافع يلحُّ عليه برؤية علي (ع) والتحدث إليه ، فقصد خيمته ودخل عليه فوجده قد وضع أمامَهُ بعض الخبز اليابس ووعاءً فيه ماءٌ لتناول طعام الفطور . ودعاه علي (ع) لمشاركته في الأكل ، فشكره مبدياً الشبع ، ثم جلس بجانبه يريد البدء في الحديث ، فإذا به يرى ما يدهشه ويعقل لسانه عن الكلام . فقد كان عليٌّ (ع) يأخذ الرغيف اليابس بين يديه ، ويجهد بكسر قطعة منه ليضعها في فمه فلا يقدر فيكسره على رُكبته . ويراقب عمار ذلك المشهد في تكراره فلا يرى عليّاً (ع) إلاَّ وقد صعب عليه كسر رغيف الخبز اليابس . . وتعجب (علي) من تحديق عمار به ، فسأله :

ـ يا عمار ! لماذا تحدّق فيَّ وأنت دَهِش ؟! . .

فقال عمار : والله لقد أخذني العجب مما رأيته بالأمس وما أراه اليوم ؟! . .

قال عليٌّ : وماذا رأيت بالأمس وماذا ترى اليوم ؟

قال عمار : لقد شهدت معك البارحة فتح الحصن ، فرأيت جبلاً عظيماً لا يقف في وجهه شيء مهما عظم ، وأرى اليوم إنساناً عادّياً ، يأخذ رغيف الخبز اليابس كي يكسره فلا يكاد يستطيع ذلك ! .. لا ، ليس من السهل عليَّ أن اصدِّق بأن داحي باب خيبر يعجزه رغيف يابس ! ..

فابتسم عليٌّ (ع) وقال : يا عمار ! بالأمس كنت أقاتل لله تعالى فكانت قدرة الله تعضدني والآن أبذل جهداً لنفسي فهذه قدرتي .

ها هنا تكمن العظمة في نفوس العظماء ..

ليس من الصعب على الرجل - أي رجل - أن يكسر رغيف خبز يابس ... ولكنَّ أدبَ المائدة ، وتقديرَ قيمة لقمة العيش التي جعل الله تعالى فيها حياة الإنسان هي بعض شمائل الرجال العظماء . ولم تكن شيمة علي بن أبي طالب (ع) إلاَّ التأدب أثناء تناول الطعام ، وإعطاء لقمة العيش قدرها الحقَّ ، فلا يعقل أن يكون قاسي القلب وهو يحاول كسر الرغيف ، بل يأخذه على هون ويكسره بلين ، حتى ليبدو لناظره بأنه واجدٌ صعوبة في ذلك .. ولكن ليس هذا المهمَّ ، وإن كان ينمُّ عن أرفع الاخلاق وأسماها ، بل إنَّ ما يستوقف الإنسان ، ويجعله متأملاً ، متفكراً ، ذلك الإيمان العمبق في قلب علي (ع) وهو يؤكد أنَّ الله سبحانه يهب لرجاله المخلصين من القوة ما يجعل أعمالهم بمثابة المعجزات ، عندما تكون الغاية

خالصةً لله ، ويكون الجهد مرصوداً لنصرة دين الله تعالى . . أما في الشؤون الخاصة ، وفي الأمور المتعلقة بحياة الإنسان الشخصية ، فيشمخ عليٌّ (عليه السلام) في بساطته ، وفي تقشفه ، ولا سيما في تواضعه ، فلا يفاخر بأنه أتى عملاً عظيماً أبداً ، وإنما يجعل الفضل كله فيما أتاه لله تعالى وحده .

نعم هذا هو الايمان الصادق ، الذي يستحق صاحبه تلك المكرمة السنية . فيكون محبّاً لله ولرسوله ، وحبيباً لله ولرسوله . .

نعم ذاك هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه . بطلُ خيبر الأول الذي استطاع ان يدحر اليهود مع رفاق أوفياء في حصن « الناعم » ويضطرونهم إلى ترك الحصن والفرار منه ، يلتحقون بحصن « الصعب » ويحتمون في داخله . . ولكنْ هل تكون لهم حمايةٌ في ذلك والمسلمون جادّون في أثرهم ؟! . . لا ، ما كان اليهود قادرين على تأمين سلامتهم حين لاذوا بذلك الحصن هاربين ، فقد كان المسلمون أقدر على اقتحامه ، وأسرع في فتحه من حصن الناعم ، اذ لم يكادوا يضربون الحصار عليه لمدة وجيزة ، حتى أظفرهم الله تعالى بالغلبة على عدوِّهم ، فأخذوا منه الأسارى ، وغنموا الأموال والخيرات . . ولقد كان زاد المسلمين قد نفذ أو أوشك على النفاذ ، وكاد الجوعُ يعضُّهم بنابه ، وأرهقهم الجفاف بشدته ، ولذلك ما أن فتحوا حصن « الصعب بن معاذ » ووجدوا ما وجدوا فيه من تمر وعسل وسمن وزيت وقمح ، وشتى أنواع المؤن ومختلف أصناف المتاع ، حتى أقبلوا يسدون الجوع مشبعين ويُذهبون العطش

مرتوين .. وفوق المتاع والمؤن الوفيرة ، عثر المسلمون في ذلك الحصن على دهليز قادهم إلى كهفٍ مليء بآلات الحروب وأدواتها من السيوف والدروع والحراب والنبال ، وفي جانب منه وضع منجنيق كبيرٌ ، ندر وجوده في بلاد العرب ، فسُرّ المسلمون بالعثور علبه سروراً عظيماً ..

لقد كانت ذخائر الحصن كثيرة ، وأصبحت غنائم للمسلمين ، وكادت تغريهم بحملها وتشغلهم عن متابعة القتال ـ تماماً كما حدث يوم أحد ـ في حين أن حصون الأعداء كانت ما تزال عديدة ولم يفتحوها بعد .. من اجل هذا ، ولكي لا يكون هنالك توانٍ من المسلمين في أداء الواجب ، بعث رسول الله (ﷺ) ، من ينادي في الناس بأمر منه أن : « كُلوا واعلُفوا ولا تَحْمِلوا » .. فكان ذلك تطبيقاً لقاعدته ـ (ﷺ) عندما أعلن : « لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتَّين » .. اذ لا مجال للانصراف إلى الغنائم ، والانشغال بها ، ما دام إخضاعُ اليهود ، والاستيلاء على بلادهم لم يتمَّ بعد ..

.. وفرَّ اليهود بعد سقوط حصن الصعب بن معاذ إلى حصن الزبير الذي يقوم على رأس قمة عالية ، تجعل مهمة اقتحامه أمراً صعباً ، والوصول إلى داخله أمراً شاقاً .. وبالفعل واجهت المسلمين عقبات كأداء في حصارهم لذلك الحصن . إذ كان عدوّهم يعلو فوقهم ، مسدداً إليهم السهام والنبال التي كانت تنزل عليهم كوابل من المطر ، فتمنعهم من التقدم ، وتجبرهم على البقاء في

أماكنهم ، حتى دام الحصار ثلاثة أيام وهم على تلك الحال ثم بعث الله سبحانه أحد أسرى اليهود يخبرُ رسول الله ﴿ﷺ﴾ بوجود جدول وراء الحصن يزوِّدُ أهلَهُ بالماء ، فأمر النبي ﴿ﷺ﴾ على الفور بالحؤول دون وصول اليهود المحصورين في الحصن إلى ذلك الماء . فوجد اليهود أنه لا يمكنهُم البقاء بعد ذلك داخل الحصن معتصمين فيه ، خوف أن يموتوا عطشاً ، فخرجوا لمواجهة المسلمين ، ودار قتال عنيفٌ بين الفريقين ، قتل فيه لليهود عشرة رجال مقابل رجل واحد من المسلمين ، ثم دارت الدائرة في النهاية على اليهود وغُلبوا على أمرهم ، ففروا إلى الحصون الأخرى ، ودخل المسلمون حصن الزبير ، وبسقوطه في أيديهم صارت منطقة « النطاة » وحصونها جميعا تحت سيطرتهم . .

وكان قرار اليهود في هذه المرة إلى حصن « أبي » في منطقة « الشق » ، فاندفع المسلمون يصعدون جبل « شمران » الذي يقع على رأسه ذلك الحصن ، فحاصرونه من جميع الجهات ، ثم لا يلبثون أن يشنّوا عليه هجوماً عنيفاً ، بقيادة أبي دجانة الأنصاري ، لا ينتهي إلاَّ بفتحه وهروب المقاتلين اليهود من فوق الجُدُر التي كانت توصلهمْ إلى حصن آخر هو « حصن البريء » حيث يستجمعون قواهم ، ويستعدون للقتال من جديد ، محتمين بمناعة الحصن ، معتمدين على متانة بنيانه .

وزحف رسول الله ﴿ﷺ﴾ بجيشه وراء عدوه الهارب ، فتلقّاهم اليهود بالنِّبال والحجارة التي كانت تسقط عليهم مثل وابل المطر ، حتى أن نبلاً أصاب ثوبَ الرسول ﴿ﷺ﴾ وعلق به . وإذْ رأى

«ﷺ» أنّه لا قبل للجيش على التقدّم وإلاّ تعرض لخطر شديد أمر بالمنجنيف فنصب . وعندما رأى اليهود أن قذفهم بتلك الآلة الهدامة لا محالة واقعٌ ، انتابَهُمُ الهلعُ ، فولّوا هاربين ، وللحصن وراءهم مخلّين . . عندها دخله المسلمون دون حرب ، وراحوا يشكرون الله تعالى على ما أيَّدهم به من نصر عزيز . . وباستيلاء المسلمين على حصن « البريء » تكون منطقة « الشق » قد سقطت في أيديهم ، كما سقطت منطقة « النطاة » من قبل ، ولم يبق أمامهم من بلاد خيبر إلاّ المنطقة الثالثة والأخيرة وهي منطقة « الكتيبة » التي لاذ اليهود في أشدّ حصونها منعة ، وهو حصن « القموص » الذي كان لبني الحقيق وتحت إشرافهم وهم يعتبرون أبرز زعماء اليهود وأعلاهم قدراً ، فجمعوا النساءَ والذراري فيه ، وخبّأوا الكنوز والثروات . . وتحوّل المسلمون إلى ذلك الحصن وأخذوا يضيّقون الخناق على أصحابه في حصارٍ شديد دام بضعة ليال ، أمكنهم بعدها فتحه على يدي علي بن أبي طالب (ع) أيضاً ، فاندفعوا إلى داخله يقتلون من اليهود بضعة عشر رجلاً ، ويسبون النساءَ والذراري ويأسرون عدداً من الرجال والمقاتلين كان بينهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، الذي أبى أن يفارق الحصن مفضلاً الأسر على تركه . .

وكان رسولُ الله «ﷺ» يعرف أن كنانة هو الذي حمل كنز بني النضير يوم أجلاهم عن المدينة ، فلما جيء به أمامه «ﷺ» سأله عن الكنز فأنكر معرفته بمكانه . ولكنَّ النبيَّ «ﷺ» حذره من إنكاره ذاك وقال له :

« أرأيت إن وجدناه عندكَ أأقتلك » ؟

قال كنانة : نعم ! . .

وراح المسلمون يبحثون عن الكنز دون أن يعثروا عليه ، حتى قادهم شخص إلى خربةٍ كان يرى كنانة بن الربيع يتردد إليها كثيراً ، ويقيم الساعات الطوال فيها ، فحفروا في تلك الخربة حتى وجدوا الكنز ، عندئذٍ أمرَ رسولُ الله (ﷺ) أحد الصحابة ، محمد بن سلمة ، أن يضرب عنق هذا اليهودي الخبيث عقاباً له على كذبه وعداوته . .

وكان بلال - مؤذن رسول الله (ﷺ) - قد اقتاد من الأسرى والسبايا امرأتين ، إحداهما صفية بنت حُيَّي بن أخطبَ - زوجُ كنانة ابن الربيع ذاته وقد اقترن بها بعد فراقها عن سلام بن مشكم وهي ما تزال في سن السابعة عشرة من عمرها - والأخرى ابنة عمّ لها . وقد خطر لبلال أن يمرَّ بهاتين المرأتين على قتلى اليهود حتى تريا مصارع قومهما ، وما حلَّ بهؤلاء القوم لشدة كيدهم للاسلام وتآمرهم على نبيِّه الكريم ، فإذا بقريبةصفية ، وما أن رأت ذلك المشهد القاسي حتى أخذت بالعويل والصراخ ، ثم ارتمت على الأرض تحثو التراب على رأسها ، وتشدّ بشعرها ، وتمزق ثوْبها وبلغت بها الفجيعة أن كادت تقتل نفسها ، فأخذها بلال من يدها ، وقادها أمام رسول الله (ﷺ) وهي على تلك الحال ، فما أن نظر إليها الرسولُ (ﷺ) حتى كره ما تفعل ، فصرخ بمن حوله أن يبعدوها عنه وقال لهم : « أُغربوا عني بهذه الشيطانة » .

والتفت رسولُ الله (ﷺ) إلى صفية ، فاذا هي شابَّة في ريعان الصبا ، يتهلل وجهها بالجمال والوقار ، وتنطق قسماته بالألم

والحزن ، إلاَّ أنها تأبى أن تظهر ذلاً أو مهانة ، بل كانت تتماسك وتتجالد بأنفةٍ وكبرياء ، مما جعله يرحم مشاعرها ، ويغضب لما فعله بلال بها وبرفيقتها فأنّبه بقوله : « أنُزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمرّ بامرأتين على قتلاهما ؟ » !

فأجاب بلالٌ آسفاً : « ما ظننت أنك تكره ذلك يا رسول الله . وأحببت أن تريا مصارع قومهما » .. ثم راح يبدي ندمه ، ويقسم ألاَّ يعود إلى ذلك أبداً ، فصَرَفه رسول الله «ﷺ» الرحيم بالناس من وجهه . لقدْ كانت صفية ابنة سيّدٍ في قومه ، وسليلة نسبٍ نبوي ، فهي تعود في نسبها إلى « هارون بن عمران » أخي موسى عليهما السلام ، وأمها بَرَّة بنت سموأل أخت رفاعة بن سموأل من بني قريظة ، فأراد الرسول «ﷺ» أن ينزلها منزلة كريمة ، وأن يعاملها معاملة حسنة ، بما يخفف عنها الأسى ، ويقلّل من شأن المصاب عليها ، فأمر أن تُنحى جانباً عن السبايا ، وأن يوضع عليها رداؤه ، فكان ذلك إعلاناً منه بأنه اصطفاها لنفسه .

أجل ، فُتِحَ حصن « القموص » ولم يبقَ أمام المسلمين إلاَّ حصنان هما : « الوطيح » و« السلالم » . فأمر الرسول «ﷺ» جرياً على ما كان يفعل كل مرة ، أن يُضرب الحصار عليهما ، وأن يزيدوا في تشديد ذلك الحصار بما يفرض على القوم الاستسلام العاجل ..

ورأى يهود خيبر أن ملاذهما الباقي أصبح يمثّله هذان الحصنان ، فهما آخر معاقلهم ، والمطاف النهائي لمقاومتهم وقتالهم ،

فإن خسروهما خسروا كل شيء ، وحلّ بهم الخراب والشتات . .
ولذلك صمّموا على متابعة المقاومة والموت دونهما ، وقرّروا أن يبذلوا كل ما تبقّى لهم من قوة منعاً لسقوطهما في أيدي عدوّهم ، إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يُجْدِهم نفعاً ، وذهبت جميع محاولاتهم وجهودهم أدراج الرياح ، إذ لم تعد عندهم قوة كافية لصد الهجوم ، وسلاحهم قارب على النفاذ ، وأبطالهم الذين يعوّل عليهم قتلوا ، وزعماؤهم وقادتهم تهاوَوا واحداً إثر واحد . . لقد أمكنهم الثبات أياماً ثلاثة ، إلاّ أنهم فقدوا بعدها كل جلد وصبر ، فرأوا أن الكارثة قد حلّت ولم يعد منها مفرّ ، وأن بقاءهم على المقاومة يعني الهلاك التام وقَطْعَ دابرهم نهائياً . . حيال هذا الواقع = ولمّا لم يعد بيدهم حيلة = رضخوا إلى الاستسلام وطلبوا الصلح حقناً لدمائهم ، فخرج نفرٌ يحمل رايةً بيضاء ، فقادوهم الى رسول الله «ﷺ» حتى ينظر في أمرهم . .

لقد جاء هؤلاء النفر من يهود خيبر يطلبون من النبيِّ «ﷺ» الصلح على أن يحقن دماء المقاتلين منهم ، وان يترك لهم الذرية ، وعلى أن يخرجوا من خيبر ، ويخلّوا وراءهم كل ما لهم من أراضٍ وزروع ، وما عندهم من أموال وأسلحة وخيول . .

وقبل رسولُ الله «ﷺ» بهذا الصلح لأنَّ مقصده الأول والأخير من غزو خيبر إنما كان لقطع دابر الفتن ، والقضاء على مصادر المؤامرات التي كان يحيكها اليهود ضدّه ، وضدَّ الدعوة . وها قد أظفره الله تعالى بهذه الفئة الباغية ، التي أنكرت تعاليم كتبها ، وحاكت جميع المكائد للمسلمين وتفننّت في مقاومة الإسلام خلافاً

لتلك التعاليم ، فلِمَ لا يقبل رسول الله «ﷺ» بهذا الصلح وهو الرسولُ الذي بُعث رحمة للعالمين وهو رؤوف ، بسائر العالمين . . وخصوصاً بعد أن دفع الله تعالى عنه وعن المسلمين كيد هذه الفئة الباغية الضالَّة .

إن رسولَ الله «ﷺ» لم يرغب يوماً في قتال ، ولا في معارك أو حروب ، بل كان عمله المتواصل أن يصدِّق أهل الجزيرة بدعوته ، وأن يؤمنوا بأحقية هذه الدعوة ، ويخلّوا سبيلها كي تنتشر بلا عوائق ، ولكنَّ العرب واليهود أبَوا ذلك ، وقاموا يحاربون الدعوة في سبيل القضاء عليها واستئصال الداعين إليها ،ولذلك لم يكن مفرٌّ من إعداد القوة التي تردُّ هجمة الأعداء ، وتلزمهم بالرضوخ لسلطان الدَّعوة ، فمن أراد ذلك بالسلم سالموه ، ومن ابتغى القتال كان السيفُ الحدَّ الفاصل بينهم وبينه . . ولذلك لما جاء يهود خيبر مستسلمين يطلبون صلحاً لم يبخل عليهم نبيُّ الاسلام «ﷺ» بهذا الصلح ، ولكنه اشترط له فقال : « وبرئت منكم ذمة الله ورسوله إن كتمتوني شيئاً » . . فوافقوه وصالحهم . .

وبفتح حصون « الكتيبة » واستسلام اليهود انتهى ما كان لهم من سلطان سياسي ، ومن قوة مادية ، في المدينة من قبل ، وفي بلاد خيبر الآن . . إذن فليرحلوا عن أرض الجزيرة كلِّها ، لأنه لا يمكن لهم البقاء فيها إلى جانب الإسلام . . إلاَّ أن اليهود ، بعدما عزموا على الخروج من تلك البلاد ، عادوا إلى النبيِّ «ﷺ» يستعطفونه بالسماح لهم في البقاء ببلادهم ، ويبدون رغبتهم عن الهجرة إلى غيرها ، على أن يعملوا في الأرض ويأخذوا نصف ثمارها مقابل

عملهم ، فوافقهم الرسول «ﷺ» على ذلك ولكنه حذّرهم ونبّههم الى أنه إذا شاءَ أن يخرجهم خرجوا ، فقبلوا راضين . . ولقد كان أيضاً في جملة مقاصد رسول الله «ﷺ» من تلك المصالحة مع اليهود توفير اليد العاملة ، وتأمين الخبرة اللازمة ، لاستغلال أراضي خيبر حتى تبقى معطاءة ، والمسلمين مجنّدين في غالب الأوقات للدفاع عن الدعوة والعمل على نشرها ، مما كان يستنزف جهودهم ويصرفهم عن السعي وراء المعاش إلاَّ في فترات قليلة من السنة ، ولولا فضل الله تعالى عليهم ، بما يهبهم من نصر ، ويفيء عليهم من غنائم لكانت المجاعة قد حلَّت بهم . .

وأما اشتراط الرسول الأعظم على اليهود إخراجَهم متى شاء ، فكان من اجل ردعهم عن التآمر ، وإبعادهم عن المكائد ، لأنه وإن كان قد أمِنَ بأسهم بسقوط خيبر ، وآمَنَ بأن لن تكون لهم قوة مانعة بعدها ، إلاَّ أنهم يبقون أهل دهاءٍ ومكرٍ وخبث ، ولا يتورعون على سلوك شتى الطرق الملتوية ، واستخدام مختلف الوسائل المنحطَّة والأساليب الدنيئة للوصول إلى أغراضهم والنيل من كرامة الآخرين ، فحتى لا يكون لهم سبيل إلى ذلك ، ولكيلا تسوِّل لهم أنفسهم معاودة التآمر ما زالوا قد طلبوا عدم الخروج ، لذا كان شرطُ رسول الله «ﷺ» ذاك سيفاً مسلطاً فوق رؤوسهم ، يهددهم دائماً بطردهم النهائي من جزيرة العرب حين يشاء . .

وكان بين الغنائم التي أحرزها المسلمون في حصون خيبر ، صحائفُ مقدسةٌ من التوراة ، فلَّما رأى اليهود معاملة النبيِّ «ﷺ» الحسنة لهم ، زادتهم طمعاً به ، فطلبوا أن يعيد لهم تلك الصحائف

التي من بينها صحف تحتوي على وصية موسى - عليه السلام - لبني اسرائيل من بعده ، وكان بنو النضير قد حملوها معهم عند إجلائهم عن المدينة . . فأمر الرسول الكريم بردّ تلك الصحائف إليهم مما يدل : « على ما كانت لهذه الصحائف في نفس رسول الله ﴿ﷺ﴾ من المكانة العالية ، الأمر الذي جعل اليهود يشيرون إلى النبيّ ﴿ﷺ﴾ بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ميلادية إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة ، بل يتذكّرون ما فعله بختنصر من قبل حين قتل اليهود وأسر الرجال والنساء والأطفال ، وهدم الهيكل وأحرق ودمّر . . وهم الآن يرَون البون الشاسع بين اولئك الفاتحين وبين رسول الإسلام » عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام لما رأوا من رحمته ولطفه وخُلقه السمح الرفيع . .

ولـمّا فرغ رسول الله ﴿ﷺ﴾ من إعطاء الصلح ليهود خيبر ، بعث إلى أهل « فدك » - وهي قرية يهودية تقوم بالقرب من خيبر - أن يدخلوا في الإسلام أو يسلّموا أموالهم فوقع الذعر في قلوبهم عندما جاءتهم رسلُ النبيِّ ﴿ﷺ﴾ ، لأنهم كانوا يعلمون ما حلّ بأهل خيبر ، وما وصلت بهم الحال لمقاومتهم وعنادهم ، فارتضوا بالتنازل عن نصف أموالهم من غير قتال . وبذلك كانت « فدك » خالصة لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ، لأنه لم يوجف عليها بخيل أو ركاب ، أي لم

يهاجمها ولا أعمل فيها حرباً ولم تؤخذ بقتال ، بخلاف خيبر التي أصبحت فيئاً بين المسلمين لما جاهدوا في سبيل الله حتى أمكنهم فتحها بالقوة . ولذلك فقد قسَّمَ رسولُ الله «ﷺ» غنائمها بين المسلمين ، بعد أن خمَّسها ، فأعطى الراجل سهماً ، والفارس ثلاثة أسهم : له سهم ولفرسه سهمان ، كي يحثّ المسلمين على اقتناء الخيول والاعتناء بها لتكون أداة مفيدة مساعِدَةً لهم في حروبهم مع المشركين والأعداء . ثم أعطى من خُمسِهِ ما أراه الله تعالى لذوي القربى من الأهل ، رجالاً ونساءً ، كما أعطى للسائل واليتيم وابن السبيل . وكذلك أعطى شيئاً من تلك الغنائم لبعض النسوة والموالي ممن شهدوا خيبر ، دون أن يسهم لهم ، واستبقى فدك لنفسه كما قُلنا لأنها مما أفاء الله تعالى عليه . .

لقد كانت مغانم خيبر كثيرة زادت على كل المغانم التي كسبها المسلمون حتى ذلك الوقت ، وقد قدّر عبد الله بن رواحة الذي أقامه رسولُ الله «ﷺ» وكيلاً على بلاد خيبر ، يقسم الغلال كلّ عام ، أنّ ما في خيبر من تَمْرٍ فقط بلغ حوالي أربعين ألف وَسَقْ والوسق (حمل بعير) ، هذا من التمور عدا المتاع الكثير ومختلف أنواع الغلال والمؤن والأموال . . وبذلك جرى تقسيم تلك المغانم ، على المسلمين ممن شهدوا الحديبية وخيبر معاً ، تطبيقاً لأمر رسول الله «ﷺ» إذ دعا للخروج إلى غزوها من كانوا معه في الحديبية ، كما ذكرنا سابقاً ، إلاّ من شاءَ أن يخرج غازياً متطوعاً فلا يكون له سهم في الغنائم ، ولكنه = وهو نبيُّ الرحمة = قد أعطى منها كلّ من وجده بحاجة ، أو كانت أحوالُه تفرض عطاءه . . ومن هؤلاء الذين برّهم

النبيّ «ﷺ» المهاجرون إلى الحبشة ، فقد كان قبل خروجه إلى خيبر قد أرسل كتاباً الى النجاشي ، يطلب فيه أن يبعث المهاجرين من المسلمين ، فوصَلَ هؤلاء بصحبة جعفر بن أبي طالب المدينة ، والتقى مع أبي موسى الأشعري وقومه ، فلما علموا بخروج الرسول «ﷺ» الى خيبر لحقوا به إلى هناك ، ولكنهم وصلوا عندما كان النصرُ قد تمَّ للمسلمين ، فقام النبيُّ «ﷺ» يستقبلهم بالسرور والبهجة ، ويفرح أشد الفرح لعودة جعفر ، فيقول له : « ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ ، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ؟ » ، فقسمَ النبيُّ «ﷺ» لهم من الغنائم ما أراه الله سبحانه وتعالى . .

وفي التدليل على مغانم خيبر الوفيرة ، قصةُ رجل من المسلمين جاءَ يوماً الى رسول الله «ﷺ» يطلب أن يزوجه إحدى النساء ، دون أن يكون لديه صداق معجَّل لها ، فلمّا سأل المرأة عن القبول بذلك وافقت ، فقال للرجل :

« أترضى أن ازوجك فلانة ؟ » (ولم يذكر مَهراً) .

قال الرجل : نعم يا رسول الله .

فسأل المرأة : « أو ترضين أن أزوجك فلاناً ؟ » .

قالت : « نعم يا رسول الله » . .

وعاشا زوجين سعيدين حتى إذا أتاه الأجل أوصى الرجل قائلاً : « لقد زوجني رسول الله «ﷺ» من أمرأتي من غير أن أعطيها شيئاً ، وإني أشهد أنني أعطيتها من صداقها سهمي بخيبر » .

وبعد وفاة ذلك الرجل ، أرادت أرملته أن تبيع سهمه في خيبر فبلغ ثمنه يومذاك مئة ألف درهم .

هكذا كان فتح خيبر الذي أفاض الخيرات على المسلمين ، كما دلّت قصة الأرملة التي باعت سهماً واحداً من فيء تلك البلاد بمئة ألف درهم ! . . فلم يكن ذلك الفيءُ إلا نعمة كريمة من الله سبحانه منَّ بها على جنوده المخلصين ، لتبقى نفوسهم متوثبة دوماً لنصرة دينه العزيز ، ولا تشغل بأمور الدنيا ولو كانت من الأمور ضرورية للكسب والمعاش ، لأن الوقت كان حرجاً ، والظرف على الدعوة كان صعباً ، فإن لم تجد من يذود عنها ، ويحمل لواءها ، فلا يمكن أن يكتب لها النجاح ، ولذا فإنَّ شأنها كان بلا ريب أهم من الكسب والمعاش ، حتى إذا بلغت مداها ، وأراد لها الله تعالى أن تستقرَّ ، عادت القاعدة العامة ، وهي الالتفات الى الكسب والرزق الحلال ، بما تفرضه سنّة الحياة .

وكان رسولُ الله «ﷺ» لا يزال مقيماً في خيبر يرتب شؤونها ، ويبعث برُسلهِ إلى اليهود من حولها ، عندما أتته هدية زينب بنت الحارث ، امرأة سلاَّم بن مشكم ، وكانت تلك الهدية شاةً مشويةً أرادت أن تخصَّ بها رسول الله «ﷺ» فجلس ومن حوله أصحابهُ ليأكلوا . . ولكن ، ما أن تناول رسولُ الله «ﷺ» قطعة من ذراع تلك الشاة ، ولاك منها مضغة حتى لفظها ، لأنه لم يُسغ طعمها ، وأحسَّ فيها رائحةً غير مقبولة ، بخلاف ما فعل أحد الصحابة ، بشر بن البراء ابن معرور ، الذي كان قد ازدرد ما تناوله من الشاة وأكله . . فأنِفَ رسولُ الله «ﷺ» لحم تلك الشاة ، وأمر الصحابة

ألاّ يتناولوا شيئاً منها وقال لهم : « إن هذا العظم يخبرني بأنه مسموم » . . ثم دعا إليه صاحبة الهدية ، يسألها عمّا وضعت في الشاة حتى صار لها طعم غريب ونكهة غير مألوفة ، فلم تُنكر زينب بنت الحارث أنها وضعَت فيها السمَّ ، بل اعترفت بجريمتها وقالت : « لقد سألتُ عن أي عضوٍ من الشاة أحب إليك ، فقيل لي : الذراع ، فأكثرت فيه السم ، ثم جعلته في سائر الشاة » .

وسألها رسول الله «ﷺ» : « وما حملكِ على ذلك يا امرأة ؟ » .

قالت : بلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك ، فقلتْ : إنْ كان ملكاً استرحنا منه ، وإن كان نبّياً فَسَيُخْبر » . . وسواء كانت تلك المرأة صادقة فيما قالت ، أو أنها احتجت به حتى تخفف من عقاب جريمتها ، فإنَّ الجريمة قد وقعت ومات بشر بن البراء بسبب السم .. فأراد رسول الله «ﷺ» أن يقتلها به ، ولكنه عادَ وتجاوز عنها أنفةً من قتل النساء ، وتقديراً بأن لديها دوافع كثيرة للغدر به ، فهي امرأة موتورة ، قد قُتِلَ أبوها وزوجها ، وأُخْضِعَ بنو قومها ، وفي ذلك ما يكفي لملء قلبها بالحقد ، والتفكير بتدبير تلك الحيلة الخبيثة . .

فماذا يربد اليهود بعد هذا التسامح الكريم من محمد بن عبد الله «ﷺ» ؟

لقد حرص على أن يقيم معهم العلاقات الطيبة ، لأنهم أهل كتاب وقد وجدوا في كتبهم ما يدلُّ على نبوته ، ولكنهم بدل أن يؤمنوا

به ، او يصدّقوه على الأقل ، شهروا له العداوة ، وأعلنوا الحرب على دعوته .. ثم لمّا خسروا المعارك أقام معهم المواثيق والعهود،وقد كان أمّنهم ويؤمنهم في ديارهم وأموالهم، ولكن بدل أن يحفظوا عهوده لهم ، كانوا دائماً يُنقضونها ويتآمرون على قتله ، ويعملون على استئصال دعوته .. بل لقد أوغلَ اليهود في عداوتهم إلى أن صاروا يشكلون خطراً مستفحلاً على الإسلام ، وصارَ لا بدَّ من كسر شوكتهم وازالة نفوذهم السياسي والاقتصادي والماديّ ، فلمّا غزاهم الرسول (ﷺ) وهزمَهم شرَّ هزيمة عادَ يصالحهم على البقاء في ديارهم ، ولم يَحرمهم من تراث تاريخيٍّ هامٍّ لهم .. رغم هذا كله ، وممّا يدلُّ على نبل أخلاق بني الإسلام معهم ، أن تلك المرأة الخبيثة التي عملت على قتله مسموماً ، نظر إليها بعين التسامح ، وعفا عنها .. فهل يطلب اليهود أكثر من ذلك ؟

نعم طلبوا ! فرغم الضعف الذي هم فيه ، والهزيمة التي لحقت بهم ، جاؤوا بعد الصلح يشكون لرسول الله (ﷺ) أن بعضاً من المسلمين يقع في حرمهم ، فما كان منه (ﷺ) إلاّ أن جمع المسلمين وخطبهم ، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال : « يا معشر المسلمين. إن بني يهود شكوا إليَّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمّناهم على دمائهم وأموالهم التي بين أيديهم ، وعاملناهم على أراضيهم ، وإنه لا يحل أموال المعاهدين إلاّ بحقها » .. فكان المسلمون بعدها لا يأخذون من بقولهم وثمراتهم شيئاً إلاّ بثمن .. حتى بعد فتح خيبر ورجوع المسلمين إلى المدينة ، كان اليهود يبدون دوماً الاعتراض ، ولا يجدون إلاّ براً بهم ورحمة . فعندما كان يذهب

عبد الله بن رواحة لتقسيم الغلال بينهم وبين المسلمين ، كانوا يقولون له : « لقد جُرْت علينا » ، فلا يكون من عبد الله إلاَّ أن يخيِّرهم : « إن شئتم فلكم ، وإن شئتم فلنا » .. فلا يكون جوابهم إلاَّ القول : « بهذا قامت السموات والأرض » ..

هكذا كانت معاملات الفاتح الرحيم محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ لبني اليهود ، ولا نظن أن فاتحاً غيره في التاريخ كانت له مع الشعوب التي أخْضَعها والبلدان التي احتلها نفس المعاملة ، ولقد كان حريّاً باليهود بعد تلك المعاملة أن يرجعوا إلى تعاليم التوراة ، فيصدِّقوا محمداً ويتخذوا الإسلام ديناً ، ولكنهم ظلُّوا مكابرين ، معاندين « حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق » ..

.. وأخيراً انتهى رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ من تثبيت الأمور في « خيبر » ، واطمأنَّ إلى رضوخ أهل « فدك » ، فأذَّن مؤذنُهُ بالانصراف ، ثم عزم أن تكون عودته للمدينة عن طريق « وادي القرى » ، الوادي الذي تتوزع فيه قرى صغيرة عديدة ، تسكنها جماعات من اليهود ، تقوم حياتها على الزراعة في تلك الأراضي الواقعة ما بين خيبر وتيماء ... ونزل الرسول ﴿ﷺ﴾ بالجيش الإسلامي قريباً من « وادي القرى » وبعث إلى أهلها يدعوهم إلى الإسلام ، فأبوْا وتجهزوا للقتال ، فما كان منه ﴿ﷺ﴾ إلاَّ أن أمر بمحاصرتهم وتضييق الخناق عليهم ، حتى دام ذلك الحصار أربعة أيام ، شنَّ بعده المسلمون هجوماً شديداً عليهم ، فلم يستطيعوا دفعه ، بل أذعنوا إلى الاستسلام بعد أن قُتل منهم أحد عشر رجلاً . وطلب أهل « وادي القرى » الصلح من النبيِّ ﴿ﷺ﴾ كما

فعل مع اهل خيبر ، فأعطاهم الصلح بنفس الروحية من الرحمة والشفقة على الناس . . وعندما رأى أهل « تيماء » أنه لم يبقَ غيرهم من اليهود ، وأنه لا قِبَل لهم على مواجهة المسلمين وقتالهم ، بعثوا إلى النبي (ﷺ) يطلبون الصلح دون أي قتال ، فوافقهم عليه مقابل جزية يدفعونها كل عام .

وبذلك سقطت بلاد اليهود ، وانتهى كل ما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب ، وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، كما أمِنوا بعد صلح الحديبية ناحية الجنوب .

وهدأت المعارك ، ولم يعد من قتال في هذه النواحي ، بينما كان سُعر المعركة ما زال يحتدم هناك في نفوس قريش ، إذ لم تكن أخبار فتح خيبر ، وسقوط معاقل اليهود قد وصلتها بعدُ ، ولم يكن قد أتاها من يبدّد ذلك الانقسام الذي شهدته بين رجالها وأبنائها منذ أن تناهت إليها أخبار غزو خيبر ، وقد وقفوا في جانبين : جانب يرى في قوة اليهود ، وكثرة عددهم وعدتهم ، وفي محالفة غطفان لهم ، عوامل تؤمن لهم الغلبة ، فيقول : « تظهر يهود وحلفاؤها » ، وجانب يأخذ عبرةً من ماضي المسلمين وما عندهم من إيمانٍ قويٍّ بالدين الذي اعتنقوه ، فيرى في هذا الإيمان ، وما يمنحه لهم من عزم ، وفي قتالهم وما يجهدون بتنظيم أسلوبه ودقة تخطيطه ، وعلى الأخص في وحدتهم وتماسكهم واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم . . يرى في ذلك كله أكبر الأثر الكفيل بتحقيق نصرهم ، فيقول : « يظهر محمد وأصحابه » . .

ثم يشتد الحماس عند كل فريق ، فيتمسك برأيه ، مصراً على تقديره ، حتى يقع بينهم الرهان الكثير ، فتقبع قريش كلها في ترقب وانشغال بال وهي تنتظر أن تصلها الأخبار حتى أنها لتبعث كل يوم جمعاً من رجالها يقفون على مفارق الطرق ليسألوا كل قادم أو عابر عما آلتّ إليه الحرب بين محمد «ﷺ» ويهود خيبر ، ولكنّ أحداً لم يعطها الجواب الذي تريد حتى عيل صبرها ، إلاّ أنها لم تملّ الانتظار ولم تقلع عن الترقب . . وظلت قريش على تلك الحالة حتى قدم عليها الحجاج بن عِلاط السُلمي . .

وكان الحجاج قد دخل حديثاً في الإسلام ، فلم يعرف بأمره أهلُ مكة . وقد شهد خيبر مع إخوانه المسلمين ، فلما أتمّ الله سبحانه لهم فتحها ، أتى النبيَّ «ﷺ» يستأذنه في الذهاب إلى مكة ، قائلاً :

« يا رسول الله . إنّ لي بمكة مالاً أودعته أم شيبة بنت أبي طلحة ، وديوناً متفرقة عند تجار أهل مكة ، وقد جئت استأذنك بالذهاب لمكة واسترداد مالي » . .

وأعطاه النبيُّ «ﷺ» الإذن بالذهاب ، إلاّ أن الحجاج لم يتحرك من مكانه ، بل عادَ يستأذن النبيَّ «ﷺ» بأن يقول شيئاً . وأجابه النبيُّ «ﷺ» الى ما طلب ، فقال : « ولكن لا بد لي يا رسولَ الله من أن أقول » . وأدرك النبيُّ «ﷺ» ما يرمي إليه الحجاج ، فهو يريد أن يوارب في الحديث ، ويحابي في الحقيقة حتى يأمن قريشاً على نفسه ، وحتى يكون له سبيل إلى جمع ماله ، فإذن له النبيُّ «ﷺ» بذلك قائلاً : « قل . . » .

وقدم الحجاج إلى مكة ، حتى إذا كان في محلة تدعى « ثنية البيضاء » على إحدى مداخلها ، وجد رجالاً من قريش ما أن رأوه قادماً نحوهم ، حتى هبُّوا واقفين ، وقد سمعهم يقولون : « هوذا الحجاج بن عِلاط عنده ـ والله ـ الخبر » . .

وكان الحجاج يتوقع من قريش أن تستطلع منه الأخبار ، بل وأن تلحَّ عليه في السؤال ، ولذلك بادروه قائلين : « أخبرنا يا حجاج عما وراءك . فقد بلغنا أن محمداً ـ القاطع لرحمه ـ قد زحف على خيبر ، بلد اليهود وريف الحجاز » . .

فردَّ الحجاج قائلاً : « يا معشر قريش . . قد عرفت ذلك ، وعندي من الخبر ما يسرُّكم » .

ومثل ومض البرق ، انكبَّ عليه أولئك الرجال ، يمسكون بزمام ناقته ، ويحيطون به من كل جانب ، وهم يلحّون عليه في السؤال : « إيهِ يا حجاج ! أتخبرنا بما عندك ؟ » .

قال الحجاج بدهاء : « هُزِمَ هزيمة لم تسمعوا بمثلها قطُّ ، وقتل أصحابُه شرَّ مقتل ، وهو الآن أسيرٌ بين يديَ عدوه ، يقولون : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيثأرون منه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم » .

لم يذكر الحجاج اسم النبيِّ «ﷺ» ، ولكنَّ رجال قريش أيقنوا أنه يقصد محمداً ، فأطار الخبرُ صوابهم ، وراحوا يركضون نحو منازل مكة وهم يصيحون ، ويصرخون : « يا معشر قريش ! يا معشر قريش ! لقد جاءكم الخبر . وهذا محمد إنما تنتظرون أن

يُقـدَم به عليكم فيُـقتل بين أظهركم » .

وإنْ هي إلاَّ تلك الصيحـات، حتـى خرجت مكة بأسرهـا إلى الساحات يملأونهـا ، وإلى الأزقـة يعجُّـون بهـا ، وهـم يزغـردون بالفرح ، ويهزجون بالنشوة . . إنـه منتهـى الأمـل الـذي يصبـون إليه . . هزيمة محمد هي وحدها ذلك الأمل ، فلِمَ لا يفرحون ، ولِم لا ينتشون ؟! . . .

عـمَّ الابتهاج أنحاء مكة فرقصوا وغنوا . . وتناسى أصحاب الرهان ما تراهنوا عليه : فأمَّا من كان يقول بأن محمداً سينتصر فلم يعد يهمه الآن وقد بلغته هزيمته ـ أن يخسر لأنه على استعداد لأن يدفع أضعافاً مضاعفة من رهانه طالما أن محمداً قد هُـزم . . وأمّـا من كان يقول بأن الغلبة ستكون لليهود فلا يعبأ برهان يأخذه طالما أن الخبرَ عنده أهم من أي مالٍ ! . . .

هكذا سيطرت عليهم الأوهام ، فطابوا بها نفساً ، وأقبلوا على الحجاج ، وهو من زفَّ لهم البشرى ، يريدون أن يولموا له الولائم ، ويقيموا المآدب على شرفه . . ولم يمانع الحجاج بن علاط بذلك بل رجاهم التريث في الأمـر ، ولـكي يزيد في إيهامهـم ، راح يتـذرع برفض الدعوات قائلاً :

« يا قوم ! إن أردتم تكريمي فأعينوني على جمع مالي بمكة من غرمائي ، فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فـلّ محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هنالك » . .

وانطلت على قريش حيلة الحجاج ، فراحوا يعينونه على جمع

ماله بكل خاطر طيب ، ثم إنه لم يلبث أن قصد أم شيبة ، يطرق بابها ، فنتحت له بقلب مفعم بالسرور ، ودعته إلى تناول الطعام ، ولكنه رفض قائلاً : « يا أم شيبة . هلاّ أعطيتني مالي المودع عندك علّني ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع مالا يفوّت عليّ ربحاً كبيراً ؟ » .

وقامت أم شيبه من فورها ، تدفع إليه بماله ، وهي تودّعه بأماني النجاح في طريقه ، فانصرف عنها ، ليطوف على من بقي من تجار مكة يستوفي منهم ديونه ، حتى إذا كان عند أحدهم جاءه العباس بن عبد المطلب ، باحثاً عنه في كل مكان حتى التقاه ، وما كاد الحجاج يراه حتى عرف ما يريد منه ، فتقدم نحوه مسرعاً ، وأشار إليه بالانفراد جانباً . وفي غفلة من القوم ، بادره العباس سائلاً : « يا حجاج ! ما هذا الذي جئت به ؟ » .

قال الحجاج : « وهل تحفظ ما أضع عندك ؟ » .

قال العباس : لستُ متهماً . .

قال الحجاج : « إذن فاستأخرني حتى أفرغ . . » .

وبقي الحجاج ملحاحاً في طلب ماله ، محتجاً بالعجلة والذهاب للمتاجرة به ، فلمّا كان له ما رغب وفرغ من جمع ذلك المال ، ذهب يلتقي العباس قائلاً :

« احفظ عليّ حديثي ثلاثاً يا أبا الفضل ـ فإني أخشى الطلب ـ ثم قل ما شئت » .

قال له العباس : « أَفعل » .

قال الحجاج : « فإني ـ والله ـ تركت ابن اخيك عريساً على بنت ملكهم ، ولقد افتتح خيبر وأحرز ما فيها وصارت له ولأصحابه » .

قال العباس بلهفة ودهشة : « ما تقول يا حجاج ؟! » . .

قال له : « إي والله ، فاكْتُمْ عني . ولقد أسلمت وما جئت إلاَّ لآخذ مالاً لي خفت من أن أُغْلَب عليه . فإذا مضت ثلاثٌ فأظْهِر أمرك فهو ـ والله ـ على ما تحب » .

خرج الحجاج من مكة مطمئناً الى ماله الذي جمع . . وانتظر العباس بفارغ من الصبر ، حتى إذا انقضى اليوم الثالث من خروج الحجاج ، لبس أجمل حلة لديه ، وتطيّب بالعطر ، ثم حمل عصاه وخرج حتى أتى الكعبة طائفاً . . ورأته قريش على تلك الحال ، فظنت أنه يريد أن يموِّه وقع المصيبة على نفسه ، ويُذهب عنه الحزنَ لهزيمة ابن اخيه محمد ﴿ﷺ﴾ فجاؤوا يقولون له : « هذا ـ والله ـ التجلّد لِحَرِّ المصيبة » . فما كان من العباس إلاَّ أن قهقه في وجوههم وقال : « كلا ، والله الذي حلفتم به ، لقد افتتح محمد خيبرَ ، وتُرك عريساً على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم ! » .

قالوا متعجبين: « هراء ! . . ومن أتاك بهذا الخبر الكاذب ؟! » .

فقال لهم العباس : « الذي جاءكم بخبركم . . فلقد دخل

عليكم مُسْلماً فأخذ ماله وانطلق ، هازئاً بكم ، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معهم » ! . .

قالوا مغضبين : « يا لعباد الله !! . . لقد سخر بنا عدو الله وقدر على ان يستغفلنا ؟ . . أمَا والله لو علِمْنا ، لكان لنا وله شأن » . .

وهمدت قريش مكظومة ، حتى أن كثيرين لم يريدوا أن يصدِّقوا ما قاله العباس ، واعتبروه إيهاماً لهم . . ولكنَّهم لم يلبثوا بعده إلاَّ قليلاً حتى جاءهم الخبر اليقين . فقد توافد القادمون إلى مكة من جميع الجهات ، وكان كلُّهم يؤكد خبر العباس بن عبد المطلب ، حتى لم يبق مجال للشك عند قريش بنصر محمد ﴿ﷺ﴾ على بلاد خيبر ، فقعدت ملومة ، محزونة . .

لا ، لم تكن قريش لتتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة ، وهي على ما هي عليه من التحصين والمنعة ، ولم تكن لتعتقد بأن محمداً ﴿ﷺ﴾ قد بلغ وأصحابه هذا الحد من القوة . . فَنصْرُهُ قد أذهلها حقاً ، وجعلها تبدّل أفراحها بالحزن ، وابتهاجها بالكآبة . .

ولئن كان خبر انتصار المسلمين ذاك قد أدهش قريشاً وأذهلها ، فإنه بالحقيقة انتصار يدعو الى التأمل والتفكير . . فاليهود كانوا من القوة الظاهرة بحيث يُظن أنهم لا يُقهرون . . كان عندهم عشرة آلاف مقاتل مدرّبين على فنون القتال وضروبه ، ماهرين في الرمي ، أشدّاء في الاقتحام حتى عُرفوا كأشدّ الطوائف اليهودية بأساً في الحروب . . وكانت لهم حصون كبيرة ، منيعة ، ملئت بآلات

الحرب على اختلافها ، وبالمؤن الوفيرة على تنوعها . . ولم تكن لتنقصهم أسباب الحمية التي تدفع للاستهانة بالموت حماية للحرم ، أو ذوداً عن الوطن أو دفعاً للعدوان . . ولذلك لم يكن متوقعاً لهم أن يهزموا وهم على تلك الأحوال ، بخلاف المسلمين الذين لم يزد عددهم ، عندما جاؤوا يغزون بلاد خيبر وما جاورها ، على ألف وستمائة مقاتل ، لا يحملون معهم من آلات الحرب إلاَّ السيوف والرماح والقِسِيّ والنبال ، وقد ولجوا أرض المعركة ولا حصون تحميهم ، ولا معاقل تمنع عنهم ، إلاَّ ما حملوا في جوارحهم من بأس وعزيمةٍ كانا أقوى من الحصون وأمنع من المعاقل .

وعلى رغم هذا الاختلاف بينهم وبين اليهود ، ومع وجود ذلك البون الشاسع في تكافؤ القوى وتهيؤ الأسباب فقد استطاعوا أن يحققوا ذلك الانتصار الباهر . وعلى مَن ؟ على ذلك الشعب الذي استبدت به روح الغرور وطغى عليه عنفوان الغطرسة ، حتى ظَنَّ بنو يهود أنهم هم الأقوى و« أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله ، فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا »، بعدما قذف في قلوبهم الرعبَ وزلزل بهم ، فكانوا فِرقاً أشتاتاً .

هذا النصرُ الربّاني هو ما أذهل قريشاً ، وأدهشها بعد أن تحققت خبره . ومثلها بُهرتْ بهذا النصر قبائلُ العرب وجموعُهم ، فقالوا متعجِّبين : « خيبر تسقط ؟! » . .

وكان يأخذهم العجب أكثر ، فيزيدون : « وتذعن اليهود في شتى ديارهم ، وفي سائر أماكن تواجدهم : في « فدك » و« تيماء »

مستسلمين بلا قتال ، وتنهارُ « وادي القرى » ببضعة أيام . . . إنه حقاً لَـلْـعَجَبُ العجاب ؟! » . .

نعم لقد أخذ هذا النصرُ من رب العالمين بألباب النـاس ، وجعلهـم يُقِرُّون بأنـه بات للمسلمـين قوة يخشى بأسهـا ، وشـدة يُرهـبُ سلطانهـا . إنهـم لا يقيمـون للكثـرة وزنـاً ، ولا تردهـم الحصون أو تعوقهم القدرات ، بل إن أيديهم تضرب بسرعة مذهلة حتى أنه لا يقف بوجههم حائل ، ولا يَعوق تقدمَهم مانع . .

ولئن سيطرَ الذهولُ والانبهارُ على قريش فأطارا صوابها ، إلاَّ أنها عادت تستفيق من الذهول لتدرك الحقيقة المرة وهي أن حلفاءها اليهود وشركاءها في عداوة الإسلام قد قضي عليهم حقاً ، وزال كـلُّ ما لهم من نفوذ سياسي واقتصادي وعسكري في أقاليم الحجاز ، أو أنَّ هذا النفوذ قد تقلَّص إلى الحد الذي ينبىء بمحو آثارهم ، وآثـار أفكارهم الدينية . . فماذا يمكن لقريش أن تفعل حيال هذا الواقـع المرير ؟

هل تقدرُ بعـدُ على إشهار العداوة للمسلمين ، وفرض القتال عليهم كما كانت تفعل من قبل ؟ لا ، لن تقدر قريش بعد اليوم على القيام بما كانت تقدم عليه من صلافة وغطرسة ، بل إنها تجد نفسها حيال قوة المسلمين ملوية العنق ، واطئة الجبين ، وتحس كأنَّ أيديها قد غلت إلى أعناقها . . وتحاول أن تفتش عن سبيل للخـلاص فلا تقـع عليه وفي مواجهتهـا هذا السيل الجـارف الـذي لا تستـطيع له صداً ، وتضيع أمام هذا القضاء النازل الذي لا تملك له رداً . . لقد

فاتتها الحيلة بالمقاومة ، وبعدت عنها الطريق إلى الفرار ، فلا ترى إلاَّ الاستسلام للأمر الواقع ، والمكوث في ديارها منتظرة ما قد يداهمها به القدر من أحداث . . . تلك كانت الآثار التي خلّفتها غزوة خيبر على المكابرين والمشركين . .

أما بالنسبة للمسلمين فقد كان الأمر مختلفاً تماماً ، إذ جاءت النتائج عظيمةً مشجِّعة للغاية .

فإلى جانب النصر وما ينطوي عليه من تعزيز الثقة بالنفس ، كان ذلك الفيءُ الكبير من المغانم التي أذهبت عنهم الفقر والحاجة إلى حد بعيد ، ولكن الأهم من ذلك كله هو أن شعورهم بالاطمئنان إلى ولوج الدعوة شتى الدروب التي باتت تمهّد لانتشارها داخل جزيرة العرب وخارجها ، قد أخذ طريقه إلى النفوس والقلوب .

لم تستغرق غزوة خيبر وما جاورها من بلاد اليهود إلا نحواً من شهر ونصف الشهر ، فقد ذهب إليها النبيُّ (ﷺ) في أوائل المحرم من السنة السابعة للهجرة ورجع منها ظافراً في النصف الثاني من صفر .

وكان النبيُّ (ﷺ) قد اختار أثناء تلك الغزوة ، من سبايا خيبر صفية بنت حُيٍّ بن أخطب لِما وجد فيها من غلائم الاحترام والاعتزاز بالكرامة ، فأكرمها إلى أبعد حدود الإكرام ، ورفعها إلى أعلى مراتب الانسانية فأعتقها ، وترك لها بعد عتقها أن تختار ما بين الإسلام فيتزوجها أو اليهودية فتبقى في بني قومها . . ولقد اختارت صفية ما هو أقرب إلى نفسها ، وما رأته أوثق الى الحق ، فقالت للنبيِّ

«ﷺ» بلهجة واثقة : « يا رسول الله ! لقد آمنت بالإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك ، وما بي في اليهودية إرب ، وما لي فيها والدٌ ولا أخٌ ، وقد خيَّرتني الكفر والإسلام فإنه ورسوله أحب إليَّ من العتق وأن أرجع إلى قومي .. وإني أشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله » ..

ودخلت صفية في الإسلام طائعة ، مختارة ، فعقد عليها النبيُّ «ﷺ» قرانَهُ ولكنه لم يُعرّس بها على الفور لانشغاله في ترتيب الشؤون العامة ، بل أنزلها في رحله عزيزة الجانب ، موفورة الكرامة ، يسعى جاهداً أن يؤمِّن لها الراحة ، وأن يُدخل الطمأنينة إلى نفسها ، حتى يذهب عنها الحزن والأسى لما حلَّ بها من نكبات ومصائب . فلمّا كان في طريق العودة إلى المدينة ، ونزل العسكر في مكان يقال له « تبار » ، على بعد ستة أميال من خيبر ، مالَ «ﷺ» يريد أن يعرّس بها . فرآها لا تزال في جوِّ ذكرى المواقع والحروب والقتلى ، فتركها حتى بلغ المكان المسمى « الصهباء » فنزل يأخذ قسطاً من الراحة ، فأقبلت صفية عليه «ﷺ» تبدي استعدادها وتهيؤها للعرس ، مما جعله «ﷺ» يطلب من أم سليم بنت ملحان ـ والدة أنس بن مالك ـ أن تقوم على تهيئتها ، وقال لها ولمن كان معها من نساء : « عليكنَّ بصاحبتكنَّ فأمشطنها » ..

ونشطت أم سليم للمهمة مسرورة ، ولكن لم يكن معهم فسطاط ولا سرادق ، فأخذت عباءتين وشدّتها وسترت بينهما إلى شجرة ، فمشطت صفية وعطّرتها ، حتى اذا فرغت ظهرت صفية عروساً مجلوّة ، فقالت أم سليم : إنها لم تَرَ بين النساء أضوأ

منها ، ولم تحُسَّ برائحة أطيب من ذلك اليوم » .

وأُدخلت عروس محمد «ﷺ» ، عليه في خيمته ، فقام يستقبلها بوجه يطفح بشراً ، ويجلسها بجانبه يحدثها حديث الاطمئنان ، ويُقبل عليها بالعطف والحنان ، فتستجيب هي بنفس راضية وبقلب ملؤه السعادة ، وبقيت صفية في عالم الأحلام حتى أعادتها كلمات رسول الله «ﷺ» إلى الواقع إذْ سألها : « ما هذا ؟ » ، مشيراً إلى آثار كدمة قرب عينيها كانت ما تزال باقية ، فتنهّدت طويلاً وقالت : « يا رسول الله . إني رأيت في المنام ، ليلة عرسي بكنانة بن الربيع وكأنَّ قمراً أقبل من يثرب حتى وقع في حجري . وفي الصباح أفقت وما زال ذلك الحلم في مخيلتي لا يفارقني ، ترتسم صورته أمام ناظريَّ فأحسُّهُ وكأنه حقيقة راهنة أشهدها في اليقظة ، مما أشعرني بالسعادة ، ورجوت أن يشاركني زوجي هذه السعادة فأقبلت أقصُّ عليه رؤياي في المنام ، فإذا به يُجَنّ جنونه بعدما سمع مني ما قلت ، وينهالُ عليَّ بالضرب وباللّكمات واللّطمات على وجهي مما جعل آثار إحدى لطماته باقية حيث ترى ، وكان لا ينفك أثناء ضربه يصرخ بي ويقول : « ما هذا إلاَّ أنك تمنين ملك الحجاز محمداً » وما زال بي كذلك حتى أفلت من بين يديه وأنا أبكي من اللّوعة والحرقة » . .

وراح النبي «ﷺ» يطيّب خاطرها ، ويخفف عنها وقع ألم الذكرى وهو يتمنى لها بأن يعوّضها الله سبحانه مَن هو خير من كنانة . . فأقبلت هي عليه سعيدة ، تريد أن تدفن كل ماضي حياتها في ظلّه الظّليل ثم سأل رسولُ الله «ﷺ» بتؤدة : « ما حملَك يا صفية

على الامتناع في المنزل الأول ؟ » . .

فقالت بحزم : « ما حبسني يا رسول الله الا خشيتي عليك قرب اليهود » . .

إذن فقد كانت المرأة حكيمة ، وفية ، مخلصة لإيمانها ولرسول دينها الجديد ، فخافت عليه من غدر اليهود ، ومضت تلك الليلة المباركة ، واستيقظ الرسول ﴿ﷺ﴾ في الصباح الباكر ، فإذا به يسمع حركةً حول خيمته ، فيسأل عن صاحب الحركة فإذا به أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، فيخرج الرسول ﴿ﷺ﴾ لملاقاته ويستفسر منه عما أبكَرَ به في تلك الساعة ، فيسكت أبو أيوب قليلاً ثم يقول للرسول ﴿ﷺ﴾ : « الحقيقة أنني لم أنمْ ليلتي يا رسول الله ، وإنما بقيت ساهراً ، أطوف حول الخيمة ، وقبضة يدي على سيفي ، أحاذر كل حركة ، وأرقب كل سكنة » . .

ولكن ما الذي يؤرق أبا أيوب ويجعله ساهراً متيقظاً ، محاذراً ؟ فعندما سأله الرسول ﴿ﷺ﴾ عن السبب في ذلك فقال : « يا رسول الله ! لقد خفت عليك من هذه المرأة ، فقد قتل أبوها وزوجها ، وأظفرنا الله سبحانه ببني قومها ، وإنها لا تزال حديثة عهد بالإسلام ، فخفت عليك منها يا رسول الله » . .

لقد أفرحَ هذا الوفاءُ قلبَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ وزادَه اطمئناناً ، فدعا لأبي أيوب بما يستحق على الوفاء والمحبة قائلاً : « اللَّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » .

وأزِفَ موعدُ المسير ، فأذَّن في العسكر للعودة إلى المدينة محفوفاً

بنصر الله ونعمائه . .

وكان رسولُ الله «ﷺ» قد رأى ألاَّ تقيم صفية مع إحدى زوجاته فلما وصَلَ المدينة انزلها في بيت أحد الصحابة « حارثة بن النعمان » حتى يبتني لها حجرة قرب المسجد أسوة بنسائه الأخريات . .

فلم يكن زواج النبيِّ «ﷺ» من أم المؤمنين صفية حدثاً عابراً ، بل كانت له مقاصده البعيدة التي يرمي إليها النبيُّ «ﷺ» إن من الناحية الإنسانية أو الاجتماعية أو السياسية ، وإن كانت تصب كلها في نطاق الدعوة وصالحها ، شأنه في الزواج من سائر أمهات المؤمنين قبلها . إلاَّ أن هذا الزواج من صفية بنت حيي بن أخطب قد ارتدى طابعاً خاصاً بالنسبة لنساء المدينة جمعاء ، لكثرة ما سمعن عن جمالها وحسن أخلاقها وأدبها . ولذلك أردن بعد نزولها في منزل « حارثة » أن يقفن بأنفسهن على جمال زوج الرسول «ﷺ» الجديدة ، وأن يريَن عن كثب إن كانت حقيقتها تطابق الأصداء التي ذاعت عنها ، فرحنَ يتوافدن على منزل « حارثة » ويجلسن إلى أم المؤمنين صفية ، وكلهن إعجابٌ بما وهبَ الله سبحانه وتعالى لها من حسن الخُلُق ، وجمال الخَلْقَ .

وكانت الغيرة قد أخذت من نفس أم المؤمنين عائشة كل مأخذ ، حين كانت تسمع ما تتحدث به النساء عن محاسن صفية وجمال خصالها ، فصممت على أن تذهب لرؤيتها ، وخرجت من منزلها متنقبة على حذر ، إلاَّ أنها لم تعلم بأن رسولَ الله «ﷺ» كان

قد رآها أثناء خروجها ، وأدرك ما ترمي إليه ، فلما عادت دخل عليها يسألها : « كيف رأيت يا شقيراء ؟ » . .

قالت ، والغيرة ما تزال تملأ قلبها : « رأيت يهوديَّة » ! .

ولكنَّ النبيَّ «ﷺ» نهاها عن ذلك قائلاً لها : « لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحَسُنَ إسلامها » . . وفي الوقت الذي كان رسولُ الله «ﷺ» يُعدُّ لعقيلة بني النضير ـ أم المؤمنين صفية ـ بيتها الزوجي ، كان يُعدُّ في نفس نفس الوقت لبيت زوجي نبويٍّ آخر ، يُدخِلَ فيه زوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب التي كانت قد عادت مع مهاجري الحبشة في صحبة عمرو بن أمية الضمري الذي كان مبعوث النبيِّ «ﷺ» إلى النجاشي كي يعقد له قرانه على أم حبيبة ويعود بها وبمن بقي في تلك البلاد من المهاجرين الأولين . . وكانت أم حبيبة قبل هجرتها إلى الحبشة قد تزوجت من عبيد الله بن جحش ، وأقامت مع زوجها في مكة حتى بعث الله محمداً «ﷺ» نبيّاً فآمنا به ودخلا في الإسلام ، رغم معارضة أبيها أبي سفيان بن حرب ، أحد زعماء مكة ، وقائد المشركين فيما بعد . . وقد جاءها هذا الأب الكافر ، مرات عديدة يقول لها : « ابنتي رملة ، اتركي دينَ محمد بن عبد الله وتخلَّصي من هذا الصابيء عبيد الله ، وأنا أكفل لك عزة العيش وأجعل أسياد قريش يطلبون يدك » ! . .

ولكنَّ رملة لم تستجب لتوسلات أبيها ، ولا لإغراءاته ، ممّا عرضها وزوجَها لظلامة قريش واضطهادها ، حتى اذا حاقَ بهما العذاب ، مثل سائر المسلمين ، هاجرا مع من هاجر إلى بلاد

الحبشة . .

وأقامت « رملة بنت أبي سفيان بن حرب » مع زوجها عبيد الله بن جحش في ديار الهجرة ردحاً من الزمن ، ثم لم يلبث عبيد الله أن ارتدّ عن دينه الجديد الذي من أجله هاجر ، واعتنق النصرانية ، دين أهل الحبشة في ذلك الوقت . وسعى عبيد الله أن يَرُدَّ زوجه رملة عن الإسلام ، إلاّ أنها أَبتْ عليه ذلك وخذلته شرّ خذلة ، فتفارقا كلٌّ في حال سبيله ، لتعيش رملة مع طفلتها حبيبة ، وحيدة في تلك الديار ، تذوق مُرَّ العزلة والفقر ، وتلاقي من الصعاب ما يجعل أيامها تمتلىء بالهموم ، ولياليها تثقل بالتعاسة . .

وفي خضم هذا الظرف العصيب الذي كانت تعيشه تلك المرأة الصابرة ، جاء يوماً من يطرق بابها ، فإذا هي جارية قد بعثها النجاشي إليها بأمر هام . ودخلت تلك الجارية حجرة « رملة » تقول لها : « يا سيدتي ، إن الملك يقول بأن نبيّ العرب قد بعث إليه يخطبُك منه ، فاختاري من تشائين ليكون وكيلاً عنك في هذا الزواج إن أردتِه » . .

وأحسّتْ أم حبيبة بدوارٍ في رأسها وأوشكت أن تهوي على الأرض مُغمىً عليها . . هل حقاً ما تقول هذه الجارية ؟! . . . سبحانك يا رب ! . . . يا من أنت وحدك قادر على أن تغير بين لحظة ولحظة الأحوال والأقدار . . أنت الإله ، وعينُك ساهرة على خلقك ، فرحماك يا صاحب الرحمة والنعمة . . .

وهل بعدُ من رحمة أوسع وأعظم من أن تنتقل أم حبيبة من مآسي

الوحدة ، ومهانة الاغتراب وذل الفقر إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات ، فتصير زوجاً للرسول الأعظم محمد بن عبد الله «ﷺ» ؟ إنها حقاً لمفاجأة مذهلة لأم حبيبة ، ولكنّها بعد أن استيقنت من البشرى وأفاقت من الذهول ، أقبلت على الجارية تخلع سوارَيْ الفضة من يدها وتقدمهما هدية لها على بشراها ، ثم لم تلبث أن أرسلت في طلب « خالد بن سعيد بن العاص بن أمية » أحد المهاجرين من بني قومها ، لتوكّله بأمر تزويجها .. وجاء خالد بن سعيد يقول للنجاشي بأنه وكيل أم حبيبة ، فبعث ملك الحبشة في طلب جعفر بن أبي طالب ليكون شاهداً على عقد التزويج .. وتمّ العقد وأصدقَ النجاشي أم حبيبة أربعمئة دينار عن النبيِّ «ﷺ» ، ثم دعا إليه جميع المسلمين في الحبشة وأولم لهم وليمة الزواج قائلاً :

« أجلسوا وأولموا ، فإن سنَّة الأنبياء اذا تزوجوا أن يؤكل طعامٌ على التزويج » ..

وفي صبيحة اليوم التالي جاءت جارية ملك الحبشة تحمل إلى أم المؤمنين « أم حبيبة » هدايا نساء الملك من عود نَدٍّ وعنبرٍ وطيب ، وقد رغبت أم المؤمنين أن تهدي تلك الجارية خمسين ديناراً من صداقها ، إلاَّ أن الجارية رفضت أن تقبلها وقالت لها : « إن الملك قد أجزل لي العطاء ، وأمرني أن لا آخذ منك شيئاً ، كما أمَرَ نساءه أن يبعثن إليك مما عندهن من طيب ، فحملتُه إليك » .

ولقد احتفظت أم المؤمنين « أم حبيبة » بتلك الهدايا لكي تحملها معها إلى بيتها بجوار النبيِّ «ﷺ» الذي أرادَ ان يعوِّض على

ابنة زعيم قريش - أبي سفيان بن حرب - عما لاقته من مرارة الهجرة وقساوة الوحدة والاغتراب ، فما رأى إلاّ رفعها إلى أعلى المراتب بين النساء وإدخالها البيت النبويّ زوجةً عزيزةً موفورة الكرامة ، عليّة المكانة أين منها مكانة أبيها بل ومكانة سائر أشراف العالم وزعمائهم . .

وعاشت « أم حبيبة » كما عاشت « صفية » مثل سائر أمهات المؤمنين ، في كنف رسول الله ﴿ﷺ﴾ يغدق عليهن من الحنان والرأفة ، ومن المحبة والألفة ، ما يجعلهن راضيات ، هانئات . . ولم تكن أجواء الطمأنينة مقصورة على آل رسول الله ﴿ﷺ﴾ وحدهم ، بل كانت تعمُّ المسلمين جميعاً ، ما دام الرسول الأعظم يرعى شؤونهم كافةً بنفس الرعاية لأهل بيته ، ولا سيما تلك الرعاية الدائمة على التثقيف بأمور دينهم وأحكامه ، وترسيخ المفاهيم الإسلامية في مجتمعهم المناهض لمجتمع الجاهلية وعاداتها . .

وعاشَ المسلمون في تلك الأجواء الرحبة ، ملتفّين حول النبيِّ ﴿ﷺ﴾ متحابين ، متآلفين حتى لَيندر أن توجد وحدةٌ مثل وحدتهم ، أو لُحمة مثل لُحمتهم عند أيٍ من الأمم والشعوب الأخرى . . فكلُّهم على طريق واحد ومصير واحد ، وجميعهم يعملون من أجل هدف أعلى مشترك وهو إعلاء كلمة دين الله عزّ وجلّ . بلا تنافر ولا تنابذ فيما بينهم ، بل تنافس أبداً على الإخلاص للدعوة ، وتسابق على محبة الله ورسوله . . وإنّ في جدال عمر بن الخطاب وأسماء بنت عميس (رضي الله عنهما) لأروع المثل على ذلك التسابق . . فقد جاءت أسماء مع زوجها جعفر بن أبي طالب (رض) ،

الإنسان الحبيب إلى قلب رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، مع من جاؤوا من مهاجري الحبشة في صحبة عمرو بن أمية الضمري على سفينتين أمَّنهما عليهما نجاشي الحبشة ، ليقيموا مع الأهل والأخوان في المدينة ، بعيداً عن الاغتراب والوحدة ، ينعمون في ظلال الوحدة الإسلامية ، ويحيون بأنفاس اللحمة المحمدية ، رغم تفرقهم في الجاهلية إلى بطون مختلفة من قريش وغير قريش ، ورغم تباعدهم ، قبل دخول الإسلام ، في الحسب والنسب .. إنهم الآن جميعاً مسلمون ، وليس في مدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلاَّ أجواء إسلامبة ، قوامها المحبة والتعاون ، والألفة ، والاجتماع ..

وفي هذه الأجواء الطيبة ، التقت أسماء بعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) وهي في زيارة لابنته حفصة زوج رسول الله ﴿ﷺ﴾ .. فقد دخل عمر (رض) عليهما هانىء البال ، رخي العيش ، يُسلّم والسرور بادٍ عليه ، وكأنه رغب في سروره هذا ، أن يلاطف أسماء زوج جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنهما) فقال : « الحبشية هذه ، البحرية هذه ؟ » أي يقصد أنها جاءت من الحبشة منقولةً مع المهاجرين على سفينة في البحر ..

وردت عليه أسماءُ ، ملاطفة أيضاً ، وهي تقول : « نعم ! .. » .

فتابع عمر (رض) قائلاً : « سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله ﴿ﷺ﴾ » !

عندها نفرت أسماءُ وقالت : « كلا والله ! كنتم مع رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم ، يُطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم . وكنا في دار البيداء والبغضاء بالحبشة وذلك في الله تعالى ورسوله . وأيمُ الله لا أطعم طعاماً ولا أذوق شراباً حتى آتيَ رسولَ الله وأسأله . لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه » .

وقامت أسماءُ من فورها ، تأتي رسول الله (ﷺ) وتخبره بما دار بينها وبين عمر بن الخطاب ، وتسأله أيٌ من المهاجرين أولى بالفضلْ ، فقال لها الرسول الأعظم : « ليس بأحقَّ منكم ، فله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

كان ذلك هو التنافس بين المؤمنين . . تنافس على كسب الفضل والأجر ، وعلى محبة الله ورسوله . وفي هذا التنافس موطن الشرف ومؤمل الفخار ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . .

هاجروا مع النبيِّ (ﷺ) أوفياء ، أمناء ، فنالوا نعمة الموعظة وشرف الجهاد . .

وهاجروا وحدهم لواذاً واحتساباً ، فذاقوا ألم العزلة ووحشة الغربة . . ولكنهم عندما عادوا إلى موطن الدعوة ، يحملهم نفسُ الإيمان الذي ارتحل بهم إلى البعيد ، عادوا ينضوون ، مثل سائر المهاجرين الآخرين ، تحت لواء القائد الأعلى ، والرسول الأعظم ، ليشاركوا في حمل عبء الرسالة ، ويَحْيَوا بلاءَ الجهاد ونُصرة الدين .

فأصحاب الهجرة ، وأصحاب الهجرتين ، كانوا مسلمين صادقين ، ولكنَّ الأجر كان على قدر المشقة والبلاء . . فمن كان له

هجرتان فحقه بالأجر والثواب أكثر ممن له هجرة واحدة ، وتلك هي حكمة رسول الله «ﷺ» تنبع من صدق إيمانه وسموّ فكره ، فكفى بهم جميعاً جنوداً لدين الله ، أحباءَ لرسوله ، وكفى بالمتنافسين في سبيل إعلاء كلمة الله والإخلاص لرسوله اعتباراً وافتخاراً .. نالوا جيمعاً الفضل والأجر ، فهنيئاً لهم على ما نالوا ، ونعماً لهم على ما استحقوا ..

في هذه الأجواء التي تعبق بالإخلاص والتفاني ، وفي هذه الرحاب التي تزدان بالمحبة والوئام ، عاش المسلمون في ظلال الإسلام ، وفي رعاية الرسول «ﷺ» حياة نقية ، طاهرة ، تبقى على الزمان مثالاً خالداً لكل أمة أرادت أن تعيش الحياة الحقة ، ولكل شعبٍ رامَ المجدَ والسؤدد .. وكيف لا يعتلي الإسلام بأبنائه إلى ذرى المجد ، وكيف لا يشُقُّ لهم طريق الحياة الأفضل ، وهو يرعى الفردَ في أدقّ شؤون حياته مثل رعايته لشؤون الجماعة كلها وها هي تلك الرعاية تبرز فيما انبثق عن عهد الحديبية من حوادث فردية ، وما كان لها من آثار على حياة الجماعة عامة .. فقد تضمن ذلك العهد أحكاماً كان النبيُّ «ﷺ» حريصاً على الالتزام بها بصورة كاملة ، إلاَّ أنَّ ما خرج على تلك الاحكام ، ولم يكن فيه للفرد الإسلامي أو للجماعة الإسلامية مصلحة ، لم يكن ليقيِّد الرسولَ «ﷺ» في شيء ، وإن خالف مصالحَ قريش ومآربها .. فإذا كان عهد الحديبية قد قضى بردِّ كل مسلم من قريش يخرج من غير إذن وليه ، فإنَّ ذلك العهد لم يتطرق في أحكامه إلى النساء ، ولم يأتِ على ذكرهنّ ، ولذلك لم يقبل رسولُ الله «ﷺ» أن تُردَّ المهاجراتِ إليه من قريش ، إن جئنه

مؤمنات ، مهتديات . . فقد هاجرت بعد الحديبية إليه نسوة كثيرات من قريش ، ترفضن البقاء على الشرك مع أزواج مشركين ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إحدى تلك المهاجرات . ونظراً لمكانة أهلها بين القوم ـ إذ كان أبوها من أشراف مكة وسادة قريش ، وأخوها عثمان بن عفان من الأم ـ خرج أخواها عمارة والوليد ، ابنا عقبة بن أبي معيط ، يطلبان إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يردَّها إلى قومها بحكم عهد الحديبية ، ولكنَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ رفض ذلك ، مبيّناً لهما أن العهد لا ينطبق حكمه على النساء ، وأن النساء اذا استجرن وجبت إجارتهن ، والأهم من ذلك ، أن المرأة إذا أسلمت لم تعد حِلاً لزوجها المشرك ووجب التفريق بينهما . . ولذلك ردّهما الرسول ﴿ﷺ﴾ ولم يسلِّمهما أم كلثوم ، بعد هجرتها إليه مؤمنة . .

على أنَّ رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ كان يقبل المرأة المهاجرة ، ويمتنع عن ردّها بعد امتحانها للوقوف على صحة إيمانها ، وقوام ذلك الامتحان أن تُستحلف المرأة بأنها لم تهاجر ، ولم تفارق زوجها ناشزاً ، وإنما هاجرت لله ورسوله ، محبِّذة الإسلام على كل شيء . . ففي هذه الحالة يصبح من الواجب عدم إرجاعها إلى زوجها الكافر لانها لم تعد حِلاًّ له ، ولم يعد هو حلاًّ لها . . وفي ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ

الْكَوَافِرِ واسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ، وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا . ذَلِكُمْ حُكْمُ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . .

هذه هي أحكام الله سبحانه وتعالى ، تسوِّي العلاقات العادلة حتى في حالة الاختلاف في العقيدة وفي نمط الحياة وأسلوب التعايش بين الأمم والشعوب . . فالمؤمن والمؤمنة حقوقُها مصونة ، وكذلك الكافر حقوقُه مصونة ، في ظلٍّ هذا الحكم الإلهي ، عندما يتوجب الافتراق بين الرجل والمرأة . . وتلك أحكام الله ثابتة في شرع الإسلام ، وليس من عقيدة أو مبدأ إلاَّه ، إن رُمنا عدالةً في الخلق . .

على أنه = بالمقابل = كان رسولُ الله (ﷺ) حازماً في تطبيق ما نصت عليه معاهدة الحديبية ، حريصاً على الإيفاء بجميع شروطها ، وذلك انسجاماً مع خُلقه العظيم ، وتكريساً منه لإقامة العلاقات السليمة واحترام المواثيق والمعاهدات ، وتنفيذ أحكامها دون أي إخلال بمنطوقها عملاً بأوامر الله سبحانه وتعالى ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ .

فقد أتاه يوماً وهو (ﷺ) في المدينة ، رجلٌ يدعى أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية ـ حليف بني زهرة ـ وكان قد أسلم وحبس بمكة ، إلاَّ أنه استطاع الإفلات ، فخرج منطلقاً إلى المدينة ، بدون إذن مولاه . وعرف المشركون بأمره فبعث أزهر بن عوف والأخنس بن شرَيق،رجلاً من بني عامر ومولى له إلى رسول الله (ﷺ) ومعهما

كتاب كي يردَّ أبا بصير إلى قومه . فلما وصلَهُ كتاب ذينك المشركَيْنْ ، دعا إليه أبا بصير وقال له : « يا أبا بصير . إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ، ولا يصح في ديننا الغدر ، وإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » . .

قال أبو بصير : « يا رسول الله ! أتردُّني إلى المشركين يفتونني في ديني ؟ » .

فعادَ الرسول «ﷺ» يؤكد عليه بقوله : « يا أبا بصير ! انطلق فإنَّ الله سبحانه سيجعل لك ولمن معكَ من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » . .

وامتثل أبو بصير لأمر رسول الله «ﷺ» وخرج مع الرجلين يجرُّ رجليه جراً وفي نفسه لوعة وأسى عما ستفعل به قريش بعد إرجاعه لها . .

إنه يتصور ما سيلاقي من ألم وشقاء ، ويتخيّلُ العذاب الذي سينزل به كي يُفتن عن دينه ، فيزيد ذلكَ في آلامه ، ويجعله تائهاً عن صاحبَيه اللَّذين يقودانه إلى ذلك العذاب . .وفيما هو غارق في همومه تلك إذا بفكرة تلمع في خاطره ، فيتحول فجأة تجهّمُ وجهه إلى ارتخاء ، وعبوسه الى تبسُّم ، ويقبل على الرجلَين ، محدثاً ، ممازحاً ، يتذكر ما عنده من طرافات فيحكيها ، وما حصل معه من حوادث فيرويها،حتى آنسَ صاحبَيه وجعلهما يُسرّان بصحبته . .

وظل أبو بصير على ثرثرته وتحدثه ، حتى بلغوا « ذا

الحليفة » ، وهنالك أمكنه أن يغافل الرجلين ، ويعاجل بامتشاق سيف العامريّ بيده ، ثم يهوي عليه بضربة قاتلة ، تقضي عليه من فوره . .

ويلتفت أبو بصير إلى المولى يريد الإجهاز عليه أيضاً ، إلاّ أنه لم يجده بجانبه ، فقد رأى ذلك المولى ما حلَّ بالعامري ، فانطلق مسرعاً يطلب النجاة بنفسه ، وكان قد بَعُدَ كثيراً في طريقه إلى المدينة عندما وقع نظر أبي بصير عليه ، فاشتَدّ في أثره ليلحق به . .

لقد اندفع ذلك المولى يريد المدينة ، فلمّا بلغها توجه إلى المسجد يريد الوصول إلى النبيِّ «ﷺ» كي يحتمي به ويشتكي إليه ، وما إن رآه النبيُّ «ﷺ» مقبلاً على تلك الحالة حتى قال للصحابة من حوله : « إنّ هذا الرجل قد رأى فزعاً » . . فما أن تقدم منه حتى سأله : « ويلك مالك ؟ » . .

قال المولى : « لقد قتل صاحبكم صاحبي » . .

وطلب النبيُّ «ﷺ» من الرجل أن يهدّىء من روعه وأن يخبره بما حدث ، فراح يروي ما حصل في الطريق ، وكيف قتل أبو بصير صاحبه العامري ، وهو لا يكفُّ عن اللهث والتأوّه . . في هذه الأثناء كان أبو بصير قد طلع ،متوشحاً السيف ، فأسرع يتقدم من النبيِّ «ﷺ» ويمثل بين يديه وهو يقول :

« يا رسول الله ، قد وفيت ذمتك ، وأدّى الله عنك . أسلمتني للقوم وقد امتنعت بديني أن أُفتن أو يُعبث بي » . . فلم يكن من النبيِّ «ﷺ» إلاّ أن قال : « ويلُ أمه ، مُسعِر حربٍ لو كان

معه رجال » . .

فخاف أبو بصير مما قاله رسولُ الله «ﷺ» وشعر بأنه لن يتأخر عن تسليمه إلى قومه ، فالتزم بالصمت ثم خرج من حضرته منطلقاً إلى البراري والطرقات حتى نزل العيص على ساحل البحر ، في طريق قريش إلى الشام . .

وكان المولى الذي جاءَ مع العامريّ قد خرج أيضاً عائداً إلى مكة يخبر المشركين بما أصابَ صاحبه على يد أبي بصير ، وكيف خرج هذا إلى البراري والقفار لا يلوي على شيء ، ولكنه يتمتع بالحرية بعيداً عن الظلم والجور . . وإذا كانت أخبار هذا المولى قد أغضبت قريشاً واحنقتها ، إلاَّ أنها وقعت في مسامع المستضعفين من المسلمين ، المغلوب على أمرهم ، مثل النسائم تهبُّ على تائهٍ في وسط الهاجرة ، لتشُدَّ من عزمهم ، وتجعلهم يتحفّزون لاغتنام الفرص والإفلات من قيود المشركين ، هاربين من جورهم إلى البعيد . . وكان أبو جندل ابن سهيل بن عمرو أول من استطاع الهرب بعد تلك الحادثة ، فلم يأت المدينة خوفاً من أن يردّه الرسول «ﷺ» إلى قريش ، بل راح يبحث عن أبي بصير حتى اهتدى إليه ، فأقام معه . . ومثل أبي جندل خرج كثيرٌ من مستضعفي المسلمين ، الواحد تلو الآخر ، حتى بلغ عددهم حوالي سبعين رجلاً ، التفوا كلُّهم حول أبي بصير وأقاموا معه على مناوأة قريش والتصدّي لها ، لا يتركون لها عيراً تمرُّ إلاَّ اعترضوها ، يقتلون من استطاعوا من رجالها ، ويأخذون ما وصلت إلبه أيديهم من أموالها .

وأفزَعَ أمرُ هؤلاء الرجال قريشاً ، وهم يغزون قوافلها ، ويهاجمون تجارتها ، حتى باتوا يشكلون مصدر خطرٍ لبس فقط على الأرواح ، والأرباح التي يجنون من تلك التجارة ، بل وعلى حياتهم كلِّها ، لأنهم إن استمروا في ذلك ، فإنهم سوف يحرمون قوافلهم من الخروج ، ويوقعونهم في الحاجة والفقر . .

ورأت قريش أنها عاجزة عن القضاء على هؤلاء الرجال ، فبعثت إلى النبيِّ «ﷺ» تسأله بأرحامها إلاَّ آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً ، وتطلب إليه الرِّفق بها والعطف عليها حتى لا تقع في التهلكة . .

ولكم كان ارتياح رسول الله «ﷺ» شديداً وهو يتبلَّغ رسالة قريش تلك . فهي لا تنطوي فقط على الضعف وقلة الحيلة ، بل تحمل أيضاً تنازلاً صريحاً عن الشرط الذي أصرَّت عليه في معاهدة الحديبية وهو أن يردَّ إليها كل من آتاه من المسلمين في مكة بغير إذن وليه . . نعَمَ سقط ذلك الشرط ، وأصبح الرسول «ﷺ» في حلٍّ منه ، يستقبل من يأتيه من المسلمين مهاجراً من عنت قريش وظلمها ، كما يستقبل المهاجرات المؤمنات ، بلا قيد ولا شرط . .

اطمأنَّ رسولُ الله «ﷺ» إلى سقوط الشرط الجائر ، فبعث إلى أبي بصير يطلب إليه القدوم ومن معه إلى المدينة ، وأن لا يعترض بعد اليوم أحداً من رجال قريش ، أو يتعرَّض لعيرها . . ولكنَّ أمر الرسول «ﷺ» كان قد بلغ أبا بصير وهو مشرفٌ على فراق الدنيا لمرض أصابه ، فتلقَّاه برضىً واطمئنان ثم أغمض عينيه مرتاح الضمير

لأنه قدر على أن ينجو من عذاب قريش ، وأن يتخلَّص من فتنتها له عن دينه ، ثم ينتصب لها هو وأصحابه قوةً تهدد كيانها ، وتزرع الأخطار في دروبها ، حتى جعلها تذلُّ ، وتنزل عن تلك الغطرسة التي تتعالى بها وتتفاخر . .

ودُفِنَ أبو بصير في المكان الذي كان فيه ، ثم ارتحل أصحابه إلى المدينة ، نزولاً على أمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وعادَ طريق الشام آمناً أمام قوافل قريش . .

هكذا كانت الأوضاع تسير بعد معاهدة الحديبية ، من حسن إلى أحسن ، ومن انتصار إلى انتصار . . كل ذلك والإسلام آخذ في الانتشار في الجزيرة ، لا تخلو منه بقعة من بقاعها ، ولا يغيب عنه حدثٌ من أحداثها . . فقد استوى سلطانه مترامي الأطراف ، بعد القضاء على نفوذ اليهود ، حتى عمَّ أقاليم الحجاز كلها ، إذ لم تعد قريش تشكل تلك القوة التي تستطيع الوقوف في وجه الدعوة ، ولم يعد لليهود ذلك الشأن الذي يعرقل مسيرتها . . واذا كان رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ قد خطَّطَ وأعدّ ونفّذ ، لكل ما يثبت دعائم دولة الإسلام ، ويقوي هيبتها في النفوس ، فإنه كان في الوقت نفسه يتحسَّس الموقف الدولي ، ويتفهَّمُ أوضاعه وما يدور فيه من أحداث وعلى ضوء هذا الفهم وما يصله من نتائج كان يُخطِّطُ لإقامة العلاقات خارج حدود دولته ، لكي يجعل الترابط قائماً ما بين الاتصال الداخلي والاتصال الخارجي . على أن ذلك الاتصال الخارجي لم يكن منعدماً في الأصل ، بل اختلف مداه وزمانه باختلاف الظروف ومسيرة الدعوة . فعندما أقيمت الدولة في المدينة لم يكن هنالك سوى قريش

في مكة ، واليهود في خيبر وجوارها .. أمّا قريش فقد انتزع منها النبيُّ «ﷺ» الصلح انتزاعاً وحصل الاتصال الخارجي الذي فرضته الدعوة ، وأما اليهود فلمّا لم يكن ممكناً إجراء صلح معهم ، فقد أُخضعوا لسيطرة الدولة ، وبذلك لم يعد لهم من كيان مستقل يفرض ذلك الاتصال ..

وها إن الأوضاع بعد الحديبية وخيبر قد تبدلّت واختلفت ، وأصبح الاتصال الخارجي بما قد يحصل ما بين الدولة وبين الأقاليم التي تقع على أطراف الجزيرة ، والتي تشكّل إما دولاً قوية أو إمارات تابعة لتلك الدول ، أو كيانات مستقلة ..

ولكن كيف يجب ان يحصل هذا الاتصال الخارجي إلى ما وراء حدود الجزيرة ؟

هل يتوفّر ذلك بإقامة العلاقات الدبلوماسية ما بين دولة الاسلام وتلك الدول والإمارات ؟ وهل تلك الدول والإمارات تعترف لدولة الإسلام بكيانها المستقل حتى تقبل بإقامة علاقات معها ؟ لا ، فإن الاتجاه الفكري يَدُلُّ على انعدام كافة الروابط السياسية ما بين الجزيرة وسائر الكيانات الواقعة على أطرافها ، لأن هذه الكيانات لم تعبأ يوماً بما يجري في داخل الجزبرة ، ولم تهتم قطُّ لظهور الدعوة الاسلامية وسيرها ...

ولكن اذا كان هذا شأن تلك الكيانات ، فإن تفكير رسولِ الله «ﷺ» كان دائماً منصبّاً على إيصال هذه الدعوة إلى الأمصار البعيدة لأن الدين عند الله الإسلام ، وهو دين البشر جميعاً ، ولأنَّ محمداً هو

رسول الله للناس كافة ، وهذا هو حكم الله تعالى في عليائه ، وتأييده فيما نزل به قوله سبحانه وتعالى في سورة الانبياء : ﴿ وما أرْسلْناكَ إلاّ كافَّةً لِلنَّاس بشيراً ونَذيراً ﴾ وقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ هُو الَّذِي أرْسل رَسُولَهُ بالْهدى ودين الْحقّ لِيُظْهرهُ على الدِّين كُلِّهِ ولَوْكَرِه الْمُشْرِكُوْن ﴾ .

إذن فالإسلام ليس ديناً خاصاً بالعرب ولا ديناً خاصاً بالعجم ولا هو دينٌ للشرق أو للغرب ، بل هو دين جميع الأمم والشعوب ، دين الناس كافة ، وأينما وجد هؤلاء الناس وفي أي بقعةٍ من بقاع هذه الأرض . . وما دام الإسلام ديناً للناس كافة ، فيجب ألاّ يبقى محصوراً في نطاق ضيّقٍ لا يتعدى حدود جزيرة العرب بل يجب أن ينطلق إلى البعيد البعيد متخطياً حدود الأقاليم ، ومتجاوزاً الأبعادَ والفوارق . . فهذا هو الاهتمامُ الذي كان يشدّ رسول الله (ﷺ) إلى إيصال الدعوة الاسلامية للناس جميعاً . ولقد ازداد هذا الاهتمام بعد أن تمكّن من تثبيت دعائم دولته واطمأنَّ الى تركيز سياستها الداخلية ، وإلى اعداد كافة أسباب القوة لسياسته الخارجية . .

في هذا الظرف ومن خلال ترقبه مسير الأحداث التي تجري في الداخل والخارج ، وبعد تفكير عميق ودقيق ، قرَّر الرسولُ الأعظم (ﷺ) أن يوجه الدعوات إلى كل الملوك والأمراء والحكام في اطراف الجزيرة العربية وما وراءها للدخول في الإسلام . .

ويتوقف العالم بأسره عند هذا القرار . .

إذ كيف يمكن لمحمد (ﷺ) وما تزال دولته في بدء نشوئها ،

وفي أول عهدها بالقوة والنفوذ ، أن يخطر بباله دعوة هرقل ملك الروم لأن يعيِّر ديانته النصرانية ، ودعوة كسرى ملك الفرس لأن يتخلّى عن ديانته المجوسية ، مع ما يحمل هذا التخلي وذلك التغيير من تنازل عن السلطان ، وفقدان للعرش وذهاب للعظمة ؟! . . .

إنه قرار خطير ولا شك ذاك الذي عزم عليه محمد ﴿ﷺ﴾ من مخاطبة أباطرة وملوك عظام في ذلك الحين ، بأدق الأمور وأهم القضايا ، ألا وهي العقيدة الدينية ! . .

وتنبع خطورة ذلكُ القرار من كون دولتيَ الروم والفرس أقوى دول العصر يومذاك . فقد كان لهما من المكانة ما يبعث على الرهبة في النفوس والهيبة في القلوب ، حتى لا يخطر على بال أي حاكم إلاَّ التقرب إليهما وطلب ودِّهما ورضاهما . . فأمبراطورية الروم بالإضافة إلى رقعة امتدادها الشاسعة كانت تخُضع لسلطانها بلاد الشام ومصر بأسرهما ، وأمبراطورية الفرس بالإضافة أيضاً إلى ترامي أطرافها كانت تُسيطر على اليمن والعراق . ولقد كان لهما وحدهما السلطة في تقرير مصير السياسة الدولية ، بحيث تمليان على غيرهما من الدول ما تريانه ، دون أن يكون لأي من هذه الدول الحق في الاعتراض أو القدرة على التأثير في مجرى الأحداث . . وما قام خارجها من ممملكات أو إمارات فقد بقيت بعيدة عن القيام بأي دور على مسرح السياسة ، كما هو الحال مثلاً بالنسبة الى اليمامة وعُمان والبحرين ، التي كانت إمارات مستقلة ، واهنة ، ضعيفة أمام دولتي الروم و الفرس ، أوكما هو الحال بالنسبة الى تهامة والحجاز ، أو الى نجد والطائف ، فقد تفرقت عن بعضها تحت النفوذ القبلي ،

وكانت لا تعرف الوحدة السياسية ، ولا كيان الدولة القوية ، فالعلاقات بين هذه الدول والقبائل وبين الدولتين الكبيرتين كانت مقتصرة على العلاقات التجارية وخاضعة لمخططاتهما وموافقتهما .

ومن هنا ومن انعدام قوى الدول في ذلك العصر = باستثناء دولتي الروم والفرس وبفرضهما السياسة التي تريدان ، وتحكمهما بمصائر الأمم جميعاً = كانت الخطورة التي تفرض على محمد «ﷺ» اتخاذ قراره بدعوة هرقل الروم وكسرى الفرس للدخول في الإسلام إلى جانب دعوته للآخرين .

ولكن متى علمنا بأن محمداً «ﷺ» كان يعمل في سبيل الله بفهم سياسي مستنير ، مستوحىً من الإسلام ، فإنَّ أيَّ شأن للأباطرة والملوك يهون في عينيه .. فلقد كان محتماً على خاتم النبيين «ﷺ» أن يتوجه بدين الله الى أولئك الحكام حتى يؤدي الأمانة الكبرى التي عهد الله تعالى إليه بأدائها ، وأن يدعوهم إلى اعتناق هذا الدين ليؤمن مَن آمن عن بيّنة ، ومن كفر وعاند فأمره إلى الله سبحانه .. فالغاية تنحصر في إيصال الإسلام إلى الناس ، ولا فرق إن كانت هنالك علاقات سياسية بين بلاده والبلاد الأخرى ، أو إن وجدت روابط تجارية أو غير تجارية. فهذه كلها بعيدة عن الغاية التي فيها الخير كل الخير لأولئك الحكام وشعوبهم ، ولذلك كان قرار النبيِّ «ﷺ» يحتمّ دعوة الملوك والحكام للدخول في الإسلام . . .

وإنَّ أكثر ما يبرز عظمة رسول الله «ﷺ» أنه اتخذ قراره بدعوة جميع الملوك والحكام ، بصورة واضحة وصريحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا ممالأة ولا محاباة لأحد منهم قطُّ .. وفي الوقت نفسه لم

يناصب أحداً منهم العداء في دعوته ، بل توجَّهَ الى الجسبع ، أقوى الملوك وأضعف الحكام ، بدعوة الحق المبين ، وبلهجة الحاكم النبيل العادل ، وبعزم النبيِّ الأمين الصادق . وذلك رغم معرفته بقلة حيلة الملوك الصغار ، وبالعداوة الشديدة بين ملكي الروم والفرس ، وأثر تلك العداوة على مشاعر أهل الجزيرة ، بل على سير الدعوة نفسها . .

فقد كان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم منذ مبعثه يعيش الأحداث يوماً بيوم ، ويرافق التطورات ساعة بساعة . .

ولقد تبيّن له ، أنه على رغم انعدام الروابط السياسية ، ما بين الجزيرة والدول من حولها ، فإن ظهور الإسلام قد أوجد نوعاً من العلائق الروحية والمشاعر الدينية جعلت المسلمين يميلون إلى الروم لأنهم أهل كتاب ، بينما جعلت هوى المشركين إلى الفرس لأنهم مثلهم على الوثنية . وذلك الشعور الديني المتضارب أدى بالجميع إلى متابعة حروب الروم والفرس باهتمام بالغ . وكان كل فريق يتمنى غلبة الدولة التي يؤيدها . فالمسلمون يؤمِّلون انتصار الروم ، والمشركون يتمنون انتصار الفرس . . وقد حدث قبل هجرة النبيِّ «ﷺ» إلى المدينة ، أن وجَّهَ كسرى جيوشه إلى أرض الروم تحت إمرة قائد من قادته يدعى « شهْرَ بَراز » فالتقى بهم في أذرعات وبصرى من بلاد الشام وهزمهم بعد أن قتل منهم مقتلةً عظيمة وخرَّب مدائنهم ، وتتابعت بعد ذلك انتصارات الفرس فاحتلوا بلاد مصر ، ثم زحفوا يتقدمون في آسيا الصغرى حتى هددوا « بيزنطية » نفسها ،

العاصمة الرومانية .

وكان أهل الجزيرة على اطلاع دائم على أخبار تلك الحروب ، يتقصّونها بفارغ الصبر حتى يكونوا على علم بسيرها ونتائجها نظراً لتأثيرها على مشاعرهم الدينية ، وكان المشركون يفرحون بانتصارات الفرس ، كما كانت تشقّ على المسلمين هزيمة أهل الكتاب أمام الوثنية ، ويكرهون أن لا يكون النصر للروم النصارى .

وكان الكفار في مكة ، وهم يبدون فرحهم بانتصار الفرس ، يَعْزُون هزيمة عدوِّهم إلى دينه النصراني ، معتبرين اعتناقهم لهذا الدين أحد الأسباب الرئيسية في الضعف ، وهذا ما جعل المسلمين يحنقون على هذا التفكير الأخرق ويغضبون منه ، بل ويعتبرون أن ما يبديه الكفار من شماتةٍ بالروم هو إهانة لهم .

وهكذا اتّخذ رسول الاسلام قراره بدعوة الملوك والحكام خارج الجزيرة للدخول في الإسلام ، وعزم على بعث سفراء له يحملون تلك الدعوة ، ثم خرج يوماً على أصحابه وقال لهم :«إن الله تعالى قد بعثني رحمة للناس كافة فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريُّون على عيسى بن مريم » عليه السلام .

قال الصحابة : « وكيف اختلف الحواريُّون يا رسول الله ؟ » .

قال لهم : « دعاهم إلى الذي دعوتُكم إليه ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكَرِه وجهَهُ وتثاقل » .

ولما تساءل الصحابة عن مقصد رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، أخبرهم بأنه مرسل إلى الملوك والأمراء : هرقل الروم ، وكسرى الفرس ، ونجاشي الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، والحارث الغساني ملك الحيرة ، والحارث الحميري ملك اليمن ، رُسلاً تحمل إليهم كتبه التي يدعوهم فيها للإسلام . . وكانت فرحة الصحابة عظيمة جداً وهم يسمعون ما عزم عليه الرسولُ الأعظم ، فأجابوه لما أراد ، وقدّم كلٌ واحدٍ نفسه للذهاب في المهمة إن شاء الرسول ﴿ﷺ﴾ أن يوفده بها ، ، راحوا يدعون إلى الله سبحانه أن ينصُرَ دينه ويُعلي كلمة الإسلام .

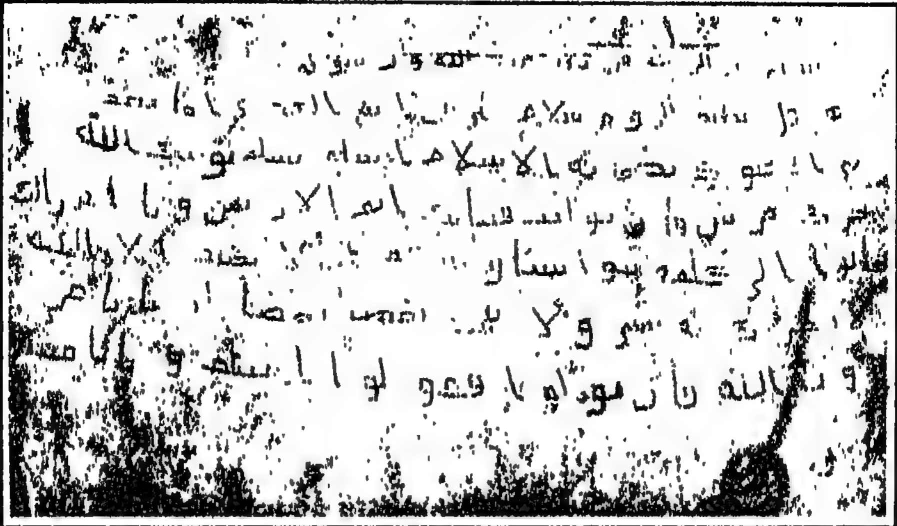
واستعدَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » ليمهر به كتبه ، ثم اختار سفراء له لدى أولئك الملوك والحكام ، يحملون إليهم رسالة الدعوة للدخول في الإسلام ، وهم : دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ، وعبد الله ابن حذافة السهمي إلى كسرى ، وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر ، وعمر بن العاص السهمي إلى ملكي عمان ، وسليط بن عمرو إلى ملكي اليمامة ، والعلاء بن الحضرميّ إلى ملك البحرين ، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث الغساني ملك تخوم الشام ، والمهاجر بن أمية المخزومي إلى الحارث الحميري ملك اليمن .

. . وحمل كلٌّ من هؤلاء الصحابة كتاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ يبلِّغه إلى صاحبه ، فكانوا أول رُسُل يحملون الإسلام خارج جزيرة العرب .

ولقد تضمنت تلك الكتب النصوص التالية :

كتبُ رسول الله (ص)

إلى الملوك والأمراء



كتاب الرسول (ص) إلى هرقل

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتَّبع الهدى . أمّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلِمْ تسلَمْ يؤتك الله أجرك مرَّتين . فإنْ تولَّيْتَ فعليك إثم الأريسيّين[1] .

يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نعبدَ إلاَّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولَّوا فقولوا اشْهَدوا بأنّا مسلمون » .

(١) الاريسيّين تعني الخدم والحشم ، والمقصود أن هرقل مسؤول عن إثم رعيته إن صدهم عن الدين الذي يدعوه إليه محمد (ص) .

وحمل دحية هذا الكتاب وسافر ليُلقي به إلى هرقل وهو في مدينة حمص ، ذاهباً إلى بيت المقدس ليوفي نذر الحج الذي قطعه على نفسه إن انتصر على الفرس . وتُلي خطاب الرسول «ﷺ» على هرقل وتُرجم له ، فلم يأخذه منه ما يأخذ الملوك عادة من خوف على ملكهم ، بل تأثَّرَ به تأثرَ عالِمٍ ينتظر خبراً هاماً له صلةٌ بعلمه ، ذلك أن هرقل كان رجلاً عنده سعة اطِّلاع ومعرفة بالملاحم وعلم الفلك وأخبار الأنبياء ، فلما بلغه كتاب محمد «ﷺ» لم يغضب ولم تثر ثائرته ، بل بعث من يبحث عن قومٍ لهم صلة بأخبار نبي الإسلام ، فذهب الموفدون من عنده يفتشون في كل بلاد الشام حتى وجدوا قافلة من قوافل مكة جاءت في تجارة ، وكان على رأس تلك القافلة زعيم المشركين يومئذٍ أبو سفيان بن حرب ، فدعاهم جنود هرقل إلى مجلس الملك بأمرٍ منه . فلما دخلوا عليه ، سألهم بلسان الترجمان :

ـ « أيكم أقرب نسباً بذاك الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ » .

قال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً إليه أيها الملك .

قال هرقل ، يأمر جنوده : أدنوا مني هذا الرجل ، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره .

ثم أمر ترجمانه قائلاً :

ـ قل لهم : إني أسأل هذا (وهو يشير إلى أبي سفيان) فإن كَذَبني فليكذبوه . .

وعند سماع أبي سفيان لما قاله الترجمان ، تضاربت في نفسه المشاعر ، فهو يريد أن يبخس محمداً حقه ، لأنه عدوه اللدود ،

ولكنه يخاف من غضب هرقل إن عرف أنه كاذب . . على أنّ أبا سفيان عادَ وجعل أصالة البداوة ، وصفاء الصحراء ينتصران عليه فقال يقنع نفسه: «ولكن الحياءَ يغلبني، ولولا هذا الحياء من أن يأثُروا عليَّ كذباً لكنت كذبت ، ولكني أفضل الصدق وأجيب به » .

وسأل هرقل أبا سفيان قائلاً :

ـ كيف نسب من يدعي النبوة فيكم ؟

قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب . .

قال هرقُل : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل : فهل قال قوله أحدٌ منكم قطُّ قبله ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم . .

قال هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟

قال ابو سفيان : بل يزيدون .

قال هرقل : فهل يرتد أحد منهم سخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قال ابو سفيان : لا .

قال هرقل : فهل هو يغدر ؟

قال أبو سفيان : لا ، ولكن نحن معه الآن في هدنة لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟

قال أبو سفيان : نعم .

قال هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟.

قال أبو سفبان : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينالُ منَّا ، وننال منه .

قال هرقل : وماذا يأمركم ؟

قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً . واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف والصلة .

فلما فرغ هرقل من استجواب أبا سفيان، تفكَّر ملياً ثم أجمل لترجمانه يأمره : « قل لهذا الرجل :

سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب فيكم .. وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول الذي يقوله ..

فذكرت أن : لا . . فقلتُ : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يتأسى بقولٍ قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن : لا . . قلت : فلو كان من آبائه من ملك ، فهذا رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول ، فذكرت أن : لا . . فقد أعرف أنه لم يكن ليذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أأشراف الناس اتَّبعوه ام ضعفاؤهم ، فذكرت أن الضعفاء منهم آتباعه ، وهم هؤلاء أتباع الرسل . وهل إنهم يزيدون أو ينقصون ، فعرفت منك أنهم يزيدون . . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد من أتباع هذا الدين الجديد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن : لا . . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ، فنفيت عنه الغدر . . وكذلك الرسلُ والأنبياء لا تغدر ولا يمكن أن تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ، فأجبت بانه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فهو ينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بدلاً عنها بإقامة الصلاة والتحصّن بالصدق والعفاف . .

هذا ما قلت لي أيها الرجل ولم يكذبك أحَدٌ من بني

قومك . . إذن فلتعلم يا هذا : إن كان ما تقول حقاً ، فسيملك رجلكم موضع قدمي هاتين (يقصد موضع العرش الذي يجلس عليه) . . وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولكني لم أكن أظن أنه في العرب ، فوالله لو أني أخلُصُ إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه » .

وخرج أبو سفيان وصحبه يزفرون بالتأوه ، أما هرقل فقد أمر بإخلاء مجلسه ، ليقعد وحده متفكّراً بما جاءه من دعوةٍ ، وبما سمعه من أخبار صاحب الدعوة ، فأيقن أنه حقاً النبيُّ المنتظر ، وخاتم النبيين على الأرض ، ومثل تلك القناعة قد هيّأته لقبول الحق إذ جاءَهُ بشيرُهُ إليه ، وقد شاءَ أن يتحرَّى عن صدق هذا البشير ، فجاءت الصورة واضحة جلية في أخبار من رأوا ذلك النبيَّ وعايشوه ، وبما يؤكد صدقَ نبوته . .

نعم أرادَ هرقل أن يقف على الحقيقة فتحرّاها بدقة ، حتى كان مثالاً لمن أرادَ أن يقف على الحق ، والحق وحده ، دون تعصب لفكرة ، أو شطط في المعرفة ، فلما اكتملت عنده القناعة السويّة ولم يعد لديه من شكٍ بأن ما يُعرض عليه هو الحق ، قام إلى الملأ من قومه يستشيرهم في أمره ، فأمر بالوزراء والمستشارين ورجال الكهنوت أن يحضروا في مجلسه ، حتى إذا اكتمل توافدهم ، أغلقت عليهم أبواب دسكرته في حمص ، فخاطبهم قائلاً : « يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملككم ؟ لئن أردتم ذلك فاتبعوا هذا النبيَّ الذي جاءتنا دعوته » . .

وأجفل أهلُ الجمع وخافوا . . لم يناقشوا ملكهم ، ولم يحاوروه ، بل جلّ ما فعلوه وهو يعرض عليهم ما عرض ، أن سكتوا وظلّوا مطأطئي الرؤوس ، واهني النفوس ، لقد قلقوا على مصيرهم ونفوذهم وعلى الامتيازات التي يتمتعون بها ، دون أن يأبهوا لدعوة حق أو لداعي إيمان ، فأنكروا في قلوبهم ما يقوله الملك ، ولكنَّ أحداً لم يجرؤ على البوح له بمكنون نفسه . . ورآهم هرقل على تلك الحال ، وأنهم يحيصون حيصة حمر الوحش ، فأمر بارفضاض الاجتماع . .

وقاموا يسرعون في الخروج ، فاصطدموا بالأبواب ما تزال مغلّقة في وجوههم . . وأدرك هرقل ما عندهم من نفرة ، وأيقَنَ ما في خلدهم من مطامع ، وكان يعرفهم أهل دهاء وخبث ، وذوي قدرة على صنع المكائد والدسائس ، فخاف على نفسه وعلى ملكه منهم ، فأمر سريعاً بردِّهم عليه ، وأجلسهم يقول لهم : « ما أظن قادة الرأي في ملكي يبلغ بهم الشطط إلى هذا الحد من اختبار أراد مليكم أن يمتحن به صلابة مراقبتهم ، وقوة ثباتهم على دينهم . وقد رأيت من ردة الفعل ما يزيدني اطمئناناً ، ويزيدني ثقة بكم » . .

ومثل لمح البصر تبدلت المشاعر ، وتغيرّ الموقف ، فقاموا إليه يسجدون له خاشعين راضين ، وبالمجد له داعين . . وهكذا غلبت الشقوة على هرقل ، واستحب العمى على الهدى . . لقد برق له نور الحق وأضاءَ وجوده ، ولكنه كان للحظات ، ما لبث أن خيمت عليه ظلمات المطامع ، وغطّته سحب الاغراءات ، وغلبته شهوة الملك والسلطان . . لقدوقفت الدنيا وماديانها في وجه هرقل فصدّته عن

الآخـرة وروحانياتهـا ، منتصرة عليه بحفنـة من الدهاقنـة وذوي المطامع ، فانصاع إليهـم هاوياً في الضلالـة والتياه . . ولـم يكتف هرقل بالمراوغة والمداهنة ، بل ظـلّ الخوف يسيطر عليه ، فحتى يُبعد عنه شبح الاغتيال او الانقلاب عليه ، ولكي يطمئن أولئك الذين يخافهم ، انبرى يقدم لهم البرهان على صدق ما يقوله لهم ، وكان ذلك البرهان أمرَهُ بقتل كل مسلم يعثرون عليه في بلاد الشام .

هـذا ما كان من موقف هرقـل وتباعـده عن دعـوة محمـد ﴿ﷺ﴾ . .

ولكن ماذا جرى لـرُسُـل النبيّ ﴿ﷺ﴾ الآخرين وهم يحملون كتبه إلى غير هرقل من الملوك والحكام ؟

كتاب رسول الله الى كسرى عاهل الفرس

دخل شجاع بن وهب على كسرى في إيوانه ، وقد اجتمع من حوله القادة والوزراء والعظماء ، فلما سألوه عما يريد قال بأنه يحمل كتاباً من نبي الإسلام إلى عظيم الفرس كسرى ابرويز بن هرمز فأمَرَ كسرى أحد وزرائه بأن يأخذ الكتاب ويرى ما فيه ، غير مهتم لما يقوله الرسول القادم عليه عن نبي . . ولكـنّ سفير النبيّ ﴿ﷺ﴾ رفض أن يسلم الكتاب وهو يقول :

ـ لقد أمرني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بأن أسلّمه إلى كسرى يداً بيد .

ودهش عاهـل الفـرس ، ودهش من حولـه ، لجـرأة هذا الرجل ، فطلب كسرى أن يدنـوه إليه ، فلما وقف أمامـه . تقـدم وناوله الكتاب ، ففتحه ، وكان عنده كاتب من أهل الحيرة ، فدفعه

إليه كي يقرأه .

وتناول ذلك الكاتب خطاب النبيّ «ﷺ» وراح يقرأه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم الفرس . سلام على من اتَّبع الهدى ، وشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبدُه ورسوله . وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيّاً ، ويحق القول على الكافرين . فإن تُسلِمْ تَسْلَم وإلاَّ فإن عليك إثم المجوس » .

واستبدَّ الغضب بكسرى وهو يسمع ما كتب إليه محمد «ﷺ» فإذا به يأخذ خطابه ويمزّقه ، ثم أمرَ على الفور بمن كتب إلى بازان ـ عامله على اليمن ـ يأمره بأن يبعث إلى ذاك الرجل في الحجاز من يأتيه به .

وترك شجاعُ بن وهب مجلس كسرى وخرج عائداً الى المدينة يخبر رسول الله «ﷺ» بما فعله كسرى بكتابه فقال : « فرَّق الله ملكه » وكان رسول كسرى قد بلغ اليمن وسلّم ملكها أمر سيده فاستدعى من فوره رجلَين : أحدهما قهرمانه ويدعى « بابويه » وكان كاتباً حاسباً ، والثاني رجلٌ عضلٍ وقوة واسمه « خرخرة » ثم بعث بهما إلى النبيّ «ﷺ» يحملان كتاباً فيه دعوته للذهاب معهما إلى كسرى .

وخرج الرجلان يُغذان المسير حتى بلغا الطائف ، فالتقيا رجلاً من قريش ، فسألاه عن مقام الرجل الذي يدّعي النبوّة ،

فأخبرهما أنه بالمدينة ، ولكنه سألهما عما يريدان منه ، فأخبراه بأن كسرى عظيم الفرس غاضبٌ منه ، وأنهما جاءا يحملانه إليه ، وطار ذلك الخبر في أنحاء الطائف ، فاستبشر أهلوه بالخير وراحوا يقولون لبعضهم بعضاً : « إن محمداً قد ناصب كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل » . .

وَصلَ موفدا بازان المدينة ودخلا على رسول الله «ﷺ» يقدمان له كتاب سيدهما . فلما قرأه وعرف ما فيه ابتسم لهما ، ثم عاد وسأل : ما حاجتكما إليَّ أيها الرسولان ؟

قال بابويه : « إنَّ شاهنشاه ملك الملوك كسرى ، قد كتب إلى مليكنا بازان يأمره بأن يبعث من يأتيه بك ، وها نحن مكلَّفان بالمهمة ، فانطلق معنا ، فإن فعلت كتب إلى كسرى يمنعك ويكفّه عنك ، وإنْ أبيت فهو من قد علمت ، مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك » . .

ولم يزد قولُ ذلك الرجل رسول الله «ﷺ» إلاَّ تبسّماً ، حتى ظنَّ وصاحبه إنه وافقهما على الذهاب خوفاً ورهبة . إلاَّ أنهما لم يلبثا أن رأيا جمعاً من الناس يحيطون بهما ، ويأخذونهما بعيداً عن مجلس مَن جاءا إليه ، فخافا على نفسيهما ، وأرادا المقاومة ، إلاَّ أن الجميع أبدوا اللّين والرفق ، مما جعلهما يطمئنان ، ثم زال عنهما كلُّ همٍّ وقلق ، عندما أُدخلا إلى منزلٍ وقُدِّم إليهما الطعام بحفاوة وإكرام . .

وبات الرجلان في مكانهما حتى اليوم التالي ، فاقتيدا إلى رسول

الله «ﷺ» بناء لأمره . فلما مثلا بين يديه ، قال لهما : « أتدريان أيُّها الرجلان بأن كسرى قد قتله ابنه شيرَوَيْه واعتلى العرش مكانه ؟ » . .

ولم يصدق الرجلان . . إلاّ أنهما نزلا على أمر الرسول وهو يقول لهما : « اذهبا إلى سيدكما بازان واخبراه عني بأن الله تعالى قد أوحى إليّ بمقتل المليك ، وأبلغاه أن ديني سيبلغ مدى ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخف والحافر ، وقولا له إن رسول الله يقول لك : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك » . . ثم أمَرَ النبيُّ «ﷺ» بهدية ، فسلَّمها لهما كي يوصلاها إلى سيدهما ويبلّغاه ما رأيا وما سمعا . .

وانطلق الرجلان حائرَين . . إنَّ ما قاله محمد «ﷺ» ليُدهش حقاً ويدعو إلى العجب ، ولكن ما عليهما إلاّ إبلاغ سيدهما ما كُلِّفا بحمله إليه . . ولم يكن عجب أهل المدينة بأقل مما أصاب الرجلَين من عجب ودهشة ، ولكن هل في الأمر ما يدهش والرسول الأعظم هو الذي قال إن كسرى قد قتل على يد ابنه ؟ لا ! إنهم يصدقون قولَ رسول الله «ﷺ» وها هم ينتظرون الوافدين من البعيد لتتأكد لهم صحة الخبر عن بيّنةٍ محسوسة ، ومرأى من العين .

وكانت دهشة بازان كبيرة أيضاً عندما عاد موفداه يخبرانه بما قاله لهما النبيُّ «ﷺ» ، ويرويان له كل ما وقع تحت أبصارهما وما التقطته آذانهما ، فأمعن ملك اليمن مفكراً وهو يسمع ثم قال : « ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبياً ، فلئن كان ما ذكره عن كسرى

حقّاً فإنه لنبيٌّ مُرْسَل . وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا » . ولم يمضِ إلاّ وقت قصير ، كان بازان خلاله في حيرة من أمره ، حتى قدم عليه من يحمل كتاباً من شيرويه ، وقد جاء فيه : « أما بعد ، فإني قتلت كسرى ، ولم أقتله إلاّ غضباً لفارس لما كان استحلّ من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم . فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهيّجهُ حتى يأتيك أمري فيه » .

ولقد كان لكتاب شيرويه أبلغ الأثر على بازان . فقد جاءَ يصدق رسالة ذلك النبيِّ في بلاد الحجاز إليه ، فوقف متفكّراً : كيف أمكنه أن يعلم بالخبر ؟ أنِ المسافة طويلة بين فارس والحجاز ، ولا يمكن أن يصل إليها المسافر بمثل هذه السرعة لينقل الأخبار . ثم كيف اتفق لذاك الرجل وحده أن يعلم من دون سائر الناس ، إذْ أبدى كل من سمع ذلك منه أعظم دهشة لسماعهم ما يقول ، كما أخبره رسولاه . . ثم ألم يقل له « بابويه » : « ما كلمت رجلاً قطُّ أهيب عندي منه ؟ » . . إذن فليسْ علم ذلك الرجل إلاّ نبوءات الأنبياء . . فهو إذن نبيٌّ حقّاً . .

تلك الأفكار كانت تجاذبت بازان عندما وصله كتاب شيرويه . فلما انتهى إلى ما انتهى إليه من تفكير وآمن بأن محمداً نبيٌّ حقّاً ، أسلم مطمئنّاً ، وأسلم الكثير لله ممن كان معه من فارس باليمن ، إذ عاشوا نفس الأحداث التي عاشها ملكهم بازان لفترة من الوقت والتي جاءت كلها تدفعهم إلى الإيمان بالنبيِّ محمد ﴿ﷺ﴾ قبل أن يروه .

وبدخول هذه الفئة في الإسلام ، هيأ الله أرض اليمن لتكون نقطة ارتكاز قوية لدعوة النبي (ﷺ) في جنوب شبه الجزيرة ، كما دلت على ذلك الأحوال بعد عامين اثنين .

كتاب رسول الله (ﷺ)
إلى النجاشي ، ملك الحبشة

أما الكتاب إلى نجاشي الحبشة اصحمة فقد كان نصه :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة . فإني أحمد الله تعالى إليك ، الله الذي لا إلّه إلاَّ هو الملك القدوس السلام ، المؤمن ، المهيمن . وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله تعالى من روحه ونفْخِه ، كما خلق أدم بيده ونفخه . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله . وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغتُ ونصحتُ ، فاقبلوا نُصحي والسلام على من اتَّبع الهدى » .

وبعد تلاوة الخطاب ووقوف النجاشي على ما جاء فبه ، استأذنه حاملُهُ عمرو بن أمية الضمري يشرح مضمونه وتوكيده ، فلما أذن له قال عمرو :

« أيها الملك ، إنَّ علـيَّ قولاً فأرجو أن تسمعني . أنت كأنك في الرقة علينا ، ونحن كأنا في الثقـة بك . لم نظـنَّ بك خـيراً إلاَّ نِلْناه ، ولم نَـخَـفْـكَ على شيء إلا أَمِنَّاه . وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الأنجيلُ بينَنا وبينَك شاهدٌ لا يُرد ، وقاضٍ لا يجـور . وفي ذلك الموقع الحزُّ وإصابةُ المِفْصَل ، وإلاَّ فأنـت في هذا النبـيِّ الأمي كاليهود في عيسى بن مريم ، وقد فـرَّق النبيُّ صلىَّ الله عليه وآله وسلم رُسله في الناس فَرَجاكَ لما لم يَـرْجُهم وأَمِنَك على ما خَافَهـم عليه ، بخير سالفٍ وأجرٍ ينتظر » .

فلّما انتهى من خطابه ، أجابه النجاشي قائلاً :

« أشهدأنه النبيُّ الأمـيُّ الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس أشفى من الخبر » . ثم حمَّل عمرو بن أمية كتاباً إلى رسول الله (ﷺ) هذا نصـه : « بسـم الله الرحمـن الـرحيم . إلى محمـد رسـول الله (ﷺ) ، من النجاشي اصحمة .

« سلام عليك يا نبي الله ورحمة من الله وبركاته . الله الذي لا إله إلاَّ هو .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت في عيسى عليه السـلام . فورب السماء والأرض إنَّ عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، إنه كما ذكرت . وقد عرفنا ما بعثتَ به إلينا ، وقد عرفنا ابن

عمك جعفر بن ابي طالب وأصحابك . فأشهد أنك رسولٌ صادقٌ مصدَّق ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين » .

تلك كانت إجابة النجاشي ملك الحبشة ، وفيها الدلالة الواضحة على إيمان الرجل بصدق النبيِّ «ﷺ» وتصديقه ، فأسلم ، ودعا من معه إلى الإسلام ولكنه لم يُكرههم على الإيمان بما آمَن به ، لأنه كان ملكاً عادلاً . وقد استجاب لنداء الحق من غير تباطؤ أو تردد ، فكان من ذوي الإيمان الصادق والسيرة الحسنة .

كتاب رسول الله «ﷺ»
إلى المقوقس عظيم القبط في مصر

حمل حاطب بن أبي بلتعة هذا الكتاب وقد جاء نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتَّبع الهدى . أما بعد ، فإنـيّ أدعوك بدعوة الإسلام . أسْلِم تَسْلَم ، أسْلِم يُؤتِكَ الله أجرك مرَّتين ، فإن تولَّيت فإن عليك إثم جهل القبط . يا أهل الكتاب : تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينكم ألاَّ نعبدَ إلاّ الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتَّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولَّوا فقُولوا : اشْهَدُوا بأنَّا مسلمون » .

قدم حاطب على المقوقس ، فأكرمه وأنزله منزلة جليلة ، ثم

جمع إليه بطارقته يستشيرهم في أمر الكتاب ، فأشاروا عليه بأن يسأل الرسول الذي جاءه بالكتاب عن أخبار النبيِّ الذي بعثه به ، فدعا المقوقس إليه حاطباً ، وقد دار بينهما الحديث التالي :

المقوقس : هلمَّ أيها الرسول وأخبرني عن صاحبكَ ، أليس هو نبيّاً ؟

حاطب : بلى ، هو نبيٌّ ورسولٌ لله سبحانه وتعالى .

المقوقس : فما له حيث كان هكذا ، فقد بلغنا أن قومه آذوه وأخرجوه من بلده إلى غيرها ، فلِمَ لم يدعُ على هؤلاء القوم ؟

حاطب : أولست تشهد أن عيسى بن مريم هو رسولُ الله ؟

المقوقس : بلى

حاطب : فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألاَّ يكونَ قد دعا عليهم .

المقوقس : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم . . هاتِ بعض ما عندك . .

حاطب : أودُّ يا عظيم القبط أن أتحدث في أمر الكتاب الذي حملته إليك فأقول : إنه كان في هذه البلاد من قبل رجل يزعم أنه الرَّب الأعلى ، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى ، فانتقم الله تعالى به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

المقوقس : إنَّ لنا ديناً لن ندعه إلاَّ لما هو خيرٌ منه .

حاطب : ندعوك الى الإسلام الكافي به الله سبحانه عما

سواه ، إن هذا النبيّ قد دعا الناس فكان أشدهم قريشاً وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى . ولعمري ما بشارة موسى بعيسى بن مريم إلاّ كبشارته بمحمد بن عبد الله عليهم جميعهم السلام . وما دعاؤنا إياك إلى القرآن الا كدعاء أهل التوراة إلى الانجيل ، وكل نبيّ أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممّن أدركه هذا النبيّ .

المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبيّ مع بطاركتي وأعواني فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب إليه . ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آيات النبوة بإخراج الجن والإخبار بالنجوى . . وقد عرفنا ذلك كله قبل قدومكم إلينا ، فنحن قد تفحصنا الأخبار في بلاد العرب ، ووقفنا على مجرى الأحداث فيها . . وسأنظر . .

كان المقوقس أثناء الحديث يحمل كتاب رسول الله «ﷺ» بين يديه ، فلما فرغ من كلامه جعله في وعاء من عاج وختم عليه ثم أمر بحفظه في مكان أمين ، ودعا إليه كاتباً يحسن العربية ، فملأه كتاباً إلى رسول الله «ﷺ» جاء فيه :

« إلى محمد بن عبد الله من المقوقس .

سلام ، وبعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتَين لهما مكان من القبط عظيم ، وبكسوةٍ ومطيةٍ لتركبها . . والسلام » .

وبعد ان ختم الكتاب دفعه إلى حاطب ، ثم أمر بالجاريتين والهدايا فأعدَّ الركب ، وسار به حاطب عائداً إلى المدينة .

كانت تلك الجاريتان اللتان أهداهما المقوقس للنبيِّ ﴿ﷺ﴾ « مارية بنت شمعون » لأب قبطي وأم مسيحية رومية وأختها « سيرين » وقد ولدتا في قرية من صعيد مصر تدعى « حفن » قريبة من بلدة « أنصنا » الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين . وقد انتقلتا في مطلع شبابهما الباكر إلى قصر « المقوقس » ـ عظيم القبط ، وعاشتا فيه ، حتى جاء حاطب موفداً من النبيِّ ﴿ﷺ﴾ يحمل رسالته إلى المقوقس ، فبعث بهما المقوقس إلى النبيِّ ﴿ﷺ﴾ .

تركت الأختان بلادهما وفي قلبيهما حزن ، وفي عيونهما دمعة ، تذكران الأيام التي عاشتاها في البلاد ، وتتفكران في الحياة التي تنتظرهما في بلاد جديدة لا تعرفان عنها شيئاً . . ورأى حاطب ما يعتمل في نفس الأختين ، فأقبل عليهما طوال الطريق يحدثهما حديث الأنس ، ويهوِّن عليهما ألم البعد ، وكان يمنيهما بحياة كريمة في ظل رسول الله ﴿ﷺ﴾ اللطيف الشفوق ، العطوف . . وظلَّ كذلك حتى بلغ الركب المدينة ، وقدم على رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقرأ كتاب المقوقس وعلم أنه اقتنع بالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبيّاً ، ولكنه كصاحبه هرقل الروم تردَّدَ في الدخول في هذا الدين إمّا ظنّاً منه ووهماً بأن النبيَّ المنتظر سيخرج في الشام ، وإما خوفاً على ملكه وسلطانه . .

وأعتق الرسول ﴿ﷺ﴾ الأختين ، فتزوج من « مارية » ثم

تزوج « حسان بن ثابت » من أختها « سيرين » . وقد ولدت مارية للنبي ﴿ﷺ﴾ ابنه ابراهيم عليه السلام وولدت « سيرين » لحسان ابنه عبد الرحمن .

كتاب رسول الله ﴿ﷺ﴾
إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

كان الحارث بن شمر الغساني حاكماً على دمشق من قبل الروم عندما جاءه كتاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ مع شجاع بن وهب الأسدي ، وقد كتب له فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله . فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » . .

وقد بلغ شجاع دمشق في وقت كان فيه الحارث يستعد لتهيئة الضيافة لقيصر الذي كان سيأتي من حمص إلى إيلياء حيث كشف الله عنه جنود فارس شكراً لله تعالى . وقد انتظر شجاع يومين حتى أمكنه أن يوصل خطاب الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى الحارث ، فلما قرأه رمى به وهو يقول : « من ينتزع مني ملكي ؟ » ، ثم أمر بتجهيز الجيش يريد ان يبعث به إلى المدينة لقتال النبيّ ﴿ﷺ﴾ ولكنه عادَ وكتب إلى قيصر يخبره بالأمر فجاءه الردُّ بالتريث . . إلاّ أنه لم يلبث بعدها إلاّ قليلاً حتى مات ولم يجب على كتاب رسولِ الله ﴿ﷺ﴾

وكان شجاع قد عادَ وأخبرَ النبي «ﷺ» بأمره ، فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « بادَ مُلْكه » . .

كتاب رسول الله «ﷺ»

إلى هوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة

حمل سليط بن عمرو العامري كتاب الرسول «ﷺ» إلى حاكم اليمامة وقد جاء نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي . سلام على من اتَّبع الهدى . واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسْلِم تسْلَم وأجْعَلُ لك ما تحت يدَيك » .

كان هوذة حاكم اليمامة على دين النصرانية ، فلم يرغب في الردّ على دعوة رسول الله «ﷺ» له إلى الإسلام ولكنه بعث إليه جواباً على كتابه قال فيه : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعك » .

وكأنَّ هذا الرجل قد أراد الشركة في النبوّة ، أو استخلاف رسول الله «ﷺ» له من بعده . فلما جاء ردُّهُ الرسول «ﷺ» قال : « لو سألني بلحةً من الأرض ما فعلت » .

كتاب رسول الله «ﷺ»

إلى المنذر بن ساوى التميمي حاكم البحرين .

بعث النبي «ﷺ» بكتابه إلى المنذر بن ساوى مع العلاء بن

الحضرمي . وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا آله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإني أذكرك الله عزّ وجلّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتّبع أمرهم فقد اطاعني . ومن نصح لهم فقد نصح لي . وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم . وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته ، فعلبه الجزية » .

وقد عرض المنذر الإسلام على أهل البحرين ، وكانوا هوداً أو مجوساً . وقد دخل في هذا الدين من أحبَّ ومنهم من بقي على دينه . أما مليكهم المنذر فقد دخلَ في الإسلام وحسن إسلامه ، وقد جاء من البحرين حتى التقى رسول الله ﷺ واجتمع إليه .

كتاب رسول الله ﷺ
إلى ملكي عُمان جَيْفر وعبد إبني الجلندي

وقد حمل الكتاب إلى هذين الملكين عمرو بن العاص . وقد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي . أما بعد

فإني أدعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما . فإني رسول الله إلى الناس كافةً لأنذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما . وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائلٌ عنكما وخيلي تحلُّ بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما » .

فلمّا وصل الكتاب إلى هذين الأخوين الملكين دخلا في الإسلام واسلم معهما خلق كثير ، ووضعت الجزية على من لم يسلم .

تلك هي الكتب والرسائل التي بعث بها رسول الله (ﷺ) إلى الملوك والأمراء والحكام على تخوم بلاده . ولقد حملت تلك الكتب والرسائل دعوة الرسول الأعظم لهم ولشعوبهم بالتخلّي عن دياناتهم ومعتقداتهم والدخول في الإسلام ، وهو واثق من قوة رسالته ونصر الله سبحانه وتعالى . ولولا تلك الثقة وذلك الإيمان العظيم لما أقدم النبيُّ (ﷺ) على بعث سفرائه بقلب ثابت وعزم صادق .

وكان من آثار تلك الكتب ان دخَلَ بعضهم في الإسلام ، وأن العرب قد أقبلوا على هذا الدين معتنقين له ، وقد تتابعت وفودهم على المدينة تعلن إسلامها . أما غير العرب ، خارج حدود الجزيرة ، فقد كان منتظراً أن يأتيها الإسلام ، لـمّا بدأ الرسول (ﷺ) يعد العدة ويهيء القوة لجهادها . والحق إن في كتب محمد (ﷺ) ورسائله إلى أصحاب النفوذ والحول والطول ، وإلى ذوي القوة والجبروت لآيات تتصدَّرُ على التاريخ إقدام الأبطال ، وعزم الرجال ، وثقة الأكفاء . وإنها لتبدو في نظر كل باحث عن الحقائق الكونية ، والمعجزات الإنسانية والنصر الإلهي ، قوى تندفع من عزم محمد

ﷺ لوثوقه وثوق اليقين بأن الاسلام سوف ينتشر ويسود حتى يعمّ نوره الوهاج فجاجاً بعيدة في العالم .

وإن في وجود الفارق الكبير بين القوى المادية التي يملكها النبيُّ ﷺ وتلك التي يملكها أعداؤه من الأباطرة والملوك لأقوى برهان ، وأصدق رد على أولئك النفر من المسلمين الذين يشكّون في نجاح دعوة الاسلام في أواخر القرن العشرين ، بحجة أن الإسلام يفتقر إلى قوة دنيوية كبيرة . .

والحقيقة الناصعة التي يجب أن يدركها اولئك النفر وغيرهم أن المسلمين في بقاع الأرض لا تنقصهم القوى المادية ، إن لم يكونوا يملكون أعظم قوة في تأثيرها على مصير العالم الحاضر ، على أن القوة الأكثر فعالية والأشدّ أثراً من أيْ قوى مادية ، هي تلك القوة الإيمانية التي يتميز بها الإسلام ، وهي نفسها القوة الهائلة التي لا سبيل إلى قهرها إن استطعنا إدراكها والعمل بوحيها . . وإنها للقوة نفسها أيضاً التي استطاع المسلمون الأوائل أن ينتصروا بها حيث أقدموا على قتال أو سيّروا جيوشاً أو أرادوا فتح أمصار . .

فما أجدر المسلمين اليوم بتدبر هذه الحقيقة . . إن العالم بأسره ليحتاج إلى الإسلام أكثر من أي وقت مضى ، وهو يتعطش إلى هذا الدِّين عطش الظمآن إلى الماء الزلال . . فالمادية التي تطغى على عالم اليوم لا تختلف من حيث المضمون والجوهر عن تلك المادية التي كانت تطغى على العالم أيام ظهور الإسلام . والزمن تغطّيه دائماً موجات من المادية والروحانية ، ومن الإلحاد والإيمان ، يتلو بعضها

بعضاً . ولعلَّ هذه اليقظة التي أخذت تدبُّ في عالم اليوم إنما تشير إلى أن موجة الايمان قد أخذت في الظهور ، وأن موجة الإلحاد المادي ، الذي أغرق العالم حيناً من الدهر ، قد بدأت تنحسر ، وأن أمر هذا الإلحاد منتهٍ إلى زوال بإذن الله : « وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ » .



عـــمرة القضاء

وكـرّت الأيام ، بعد معاهدة الحديبية وغزوة خيبر ، يمْناً وبركة على الدعوة الإسلامية ، إذ حفلت الشهـور المعـدودة التـي أقامهـا بعدهما الرسول «ﷺ» في المدينة بالأعمال المثمـرة . فبعـد أن أمِـنَ صلواتُ الله عليه مقاتلة قريش وغدر اليهود ، انصرف للبناء الداخلي في مجتمعه ، فأخذ يعزّز قواعد التعامل السويّ بين الناس ، ويسنّ الأحكام العامة وفق وحي السماء ، أو كما يهديه إليها عقله النيّر ، ثم يستقبل الوافدين إليه إيماناً بالإسلام واقتناعاً بنبوّته ، وذلك كله من غير أن يهدأ تفكيره في الطرق والوسائل التي من شأنها إيصال الدعوة إلى الأمصار البعيدة ، فيبعث سفراءه وموفديه إلى الأباطـرة والملـوك والأمراء يدعوهم فيها إلى دين التوحيد ، دين الإسلام العظيم .

على أن تلك الشهور لم تكن لتخلو من بعض المناوشات التي كانت بعض قبائل الأعراب تتجرأ على القيام بهـا طمعـاً في الغنيمـة والسلب ، فيسيِّر رسول الله «ﷺ» السرايا لتأديبها وإبعادها عن طـرق القوافل والناس وعن شتى أنحاء الجزيرة التي أصبحت تحت نفوذه ، وذلك لكي يكون في تأديب تلك القبائـل عبـرة لغيرهـا فتستقـر الأوضاع ، ويسود الأمان والاطمئنان في سائر الربوع والمناطق . . وإذا كانـت تلك السرايا قد أدت إلى استشهـاد بعض المؤمنـين

المجاهدين ، فإنّ ذلك أمر طبيعي ، لأنه ما من قتالٍ ينشب أو حرب تقع ، أو احتكاك مسلح يحدث ، إلاَّ ويكون من النتائج إصابة أو موت أشخاص كثيرين من فرقاء النزاع . .

وفيما عدا تلك المناوشات ، ظلت الدعوة الإسلامية طوال السنة السابعة للهجرة ، تسير من حسن إلى أحسن ، ومن تقدم إلى تقدم ، وتوسع إلى توسع ، مكرِّسة هيبة الدين في النفوس ، وموطِّدة دعائم الإيمان في القلوب . وبانقضاء تلك الشهور كان الحول قد دار على عهد الحديبية ، وحان الموعد لخروج المسلمين حاجِّين إلى بيت الله الحرام ، كما قضى ذلك العهد . فما إن أهلَّ شهر ذي القعدة من تلك السنة حتى أعلن رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ الاستعداد إلى عمرة القضاء ، على أن لا يتخلف عنها أحدٌ ممَّن شهد الحديبية . .

ولقد جعل ذلك الإعلان الفرحة تعمر القلوب وتنعش النفوس ، فها هي الفرصة قد واتت لرؤية ذلك البيت المقدس الذي غُرست محبته في قلوب المؤمنين فلا تفارق صورته الأذهان أبداً . وها هي الأماني التي ساروا في العام الفائت لتحقيقها تعود من جديد لتحفزهم على السير وتشدهم إلى الذهاب معتمرين . .

واندفع جميع المؤمنين ، من أصحاب الحديبية ، يتهيأون للخروج الميمون ولم يتخلف منهم أحد قطُّ إلاَّ من كان الله سبحانه قد توفاه أو أناله الشهادة في خيبر أو في سرية من السرايا أو أي عمل كان يقوم به مؤدياً فريضة واجب الجهاد المقدس . . وقام مع هؤلاء المؤمنين جمعٌ من المسلمين ممن لم يشهد الحديبية يُبدي رغبته في زيارة

المسجد الحرام ، فصار العدد كبيراً حتى بلغ حوالي الألفين من الرجال عدا النساء والفتيان والأولاد .

ولم تدم فترة التهيؤ تلك طويلاً ، كان رسول الله ﷺ في آخرها قد استخلف على المدينة أبا ذر الغفاري (رض) ، فما هي إلاّ أيام معدودات حتى أقبل يوم المسير ، فأحرم الرسول ﷺ على باب المسجد ، ثم خرج في تلك الجموع على هدى الله وبركاته . .

وسار ذلك الركب الإسلامي يتدفق على الطرقات بأعداده الغفيرة ، ويملأ الأجواء بتلبياته ونداءاته . . خرجوا معتمرين ينشرون في الدروب البرَّ والسلام ، ويمضون عازمين ، متقلدين السيوف والدروع والرماح ، لا تنكّراً لعهد الحديبية وهوَ يقضي بالا يحملوا معهم إلاَّ السيوف في أغمادها ، ولكن حذر غدر قريش ولؤمها ، لأن تجارب الماضي تشهد بأنَّ هؤلاء القوم لا يتورعون عن ارتكاب الذميمة ، وافتعال الشر إذا وجدوا الظروف مؤاتية ، والأوضاع مساعدة . . ويسوقون معهم من الهدي ستين بدنة ، ويقودون من الخيول مئة ، لا ليرُجفوا بها على اولئك القوم ، وإنما تماشياً مع واجب الحيطة واليقظة ، وإعلاناً عن هيبة الدعوة وعلوّ شأوها . .

أجل ، كانت وجهة الركب زيارة بيت الله الحرام فلا قتال ، ولا حرب ، بل البيت الحرام وحده مقصدهم . . ولكن ما إن بعدوا عن المدينة قرابة سبعة أميال ، وبلغوا جوار إحدى القرى ، حتى دعا الرسول ﷺ إليه كلاًّ من قائد السلاح بشير بن سعد ، وقائد

الخيالة محمدبن سلمة ، وطلب إليهما التقدّم طليعة للمسلمين على الاّ يتخطيا بمن معهما حرم مكة وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مرّ الظهران الى وادٍ قريب منها . ومضت خيول المسلمين تلك ، تغذُّ السيرَ حتى بلغت الأماكن التي عيّنها لهم رسولُ الله «ﷺ» فإذا بهم يلتقون نفراً من قريش ، ما ان رأوهم حتى أرجفهم الخوف ، وأربكهم الفزع ، فطمأنهم المسلمون قائلين : « لا تخافوا ، ولا تجزعوا : هذا رسول الله صلىّ الله عليه وآله وسلم يصبّح هذا المنزل غداً إن شاءَ الله » . .

ولكنّ ذلك الاطمئنان لم يهدّىء من هلع قلوب نفر قريش ، فخلُّوا المكان وسارعوا إلى مكة يخبرون قومهم بأن المسلمين قادمون بالخيول والسلاح ، فإذا الخوف يعمُّ أرجاء مكة كلها ، فيقول بعضهم لبعض : « والله ما أحدثنا حدثاً ! وإنا لعلى كتابتنا ومعاهدتنا ، ففيم يغزونا محمد وأصحابه ؟ » ! .

وكان الركب قد وصلَ إلى حيث نزل الفرسان وحاملو السلاح ، فأمر رسول الله «ﷺ» بإناخة الرحال لأخذ قسط من الراحة ، أما قريش فكان قد استبدَّ بها القلق ، فعاجلت توفِدُ مكرز ابن حفص في عددمن الرجال كي يلتقوا محمداً ، ويسترحموه ، مذكّرين بالعهد القائم ، وبحفاظهم عليه لا يبتغونه نقضاً ، ولا يرجون قتالاً . . وجاء ذلك الوفد يعرض على النبيّ «ﷺ» استرحام بني قومه ، قائلين : « يا محمد ! ما عُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح على قومك وقد شرطت لهم الاّ تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف في القرب ! » . . فتبسَّمَ رسولُ الله

«ﷺ» وقال بلهجة الصادق الواثق : « لا أدخل عليهم بالسلاح » . .

ونزلت كلمات رسول الله «ﷺ» على قلوب وفد قريش برداً وسلاماً . . إنه يقول لهم : لم يأت غازياً ، ولا يريد قتالهم ، وهم قد عرفوه صادقاً ، لا يقول إلاّ صدقاً ، ولا يفعل إلاّ حقاً ، فما دام يطمئنهم ، فليطمئنُّوا ! . . نعم لقد هدأ الخوف في نفوس وفد قريش ، فالتقط رئيس الوفد « مكرز » أنفاسه ، فقال للرسول «ﷺ» : « وهذا الذي تعرف به من البر والوفاء » . . ولم يعتِّم أن قام يدعو أصحابه بالعودة ، ليقول لبني قومه : « يا معشر قريش ! إن محمداً على الشرط الذي شرط لكم . . فلا تخافوا ، ولا تجزعوا ، فما محمدٌ بالذي ينقض عهوده ، ولا بالذي يخون أمانته ، إنه جاء معتمراً وحسب ، وهذا من حقه ، فعليكم أن تفوا أنتم بعهدكم وتفسحوا له في الطريق ، بلا مضايقات ، ولا خبث ولا مكيدة »! . .

أمنت قريش بعد عودة مكرز بن حفص أنّ ما جاء إليه محمد لا يتعدّى زيارة الكعبة ، فجلا أشرافها وسادتها عن مكة نزولاً على صلح الحديبية ، وصعدوا الّى التلال المجاورة حيث ضربت الخيام وقبعوا ينتظرون . . واذا كان صلح الحديبية قد شرط على قريش بأن تجلو عن مكة عند دخول محمد «ﷺ» وأصحابه إلى الكعبة ، فإنّه كان في نفوسهم من الضغينة والحقد ما هو أقوى من شروط المعاهدات ، وبنود المواثيق ، فمشاعرُ الكراهية تلك هي التي أبت عليهم البقاء في مكة ، فقد كانوا يقولون لبعضهم بعضاً : « لا ننظر

إليه ولا إلى أصحابه » .. وليت معشر قريش جربوا ، فبقوا في مكة ، لوجدوا أن نبيّ الإسلام لا يمنع عليهم ذلك البقاء ، بل كان يفضله لأنّ فيه ما قد يؤلف القلوب ، ويبعد التنافر ..

ومثل اولئك السادة والأشراف في حقدهم وكراهيتهم كان غيرهم من قريش في حبهم بالشماتة ورغبتهم في الاستهزاء من المسلمين ، إذ كان قد أشيع في مكة بأن المسلمين قد أصابتهم الحمّى فأنهكتهم ، فجاؤوا هزالاً ، ضعافاً ، ولذا آثرت هذه الجماعات الأخرى البقاء في مكة لرؤية حالة أولئك الضعاف العجاف وما فعل بهم المرض أو أنزله الانهاك والتعب .. ولكن سرعان ما تغيّر رأيهم عندما رأوهم على خلاف ما تناهى إليهم .. فقد دخلوا مكة بوجوه تطفح بالحيوية ، وأجساد تمتلىء بالصحة والعافية ، وسواعد مفتولة ونفوس قوية عامرة بالإيمان .

ونظر أهل مكة إلى هؤلاء الأصحاء ، الأقوياء ، فإذا بالمنظر يغريهم ويُسْلِمُهم إلى التأمل والعجب .. وكيف لا يعجبون لمنظر أناس يحفون بالنبيّ «ﷺ» فوق ناقته القصواء ، ويحوطونه بأجسادهم وقلوبهم ، وهم يتوشحون بالسيوف ، ويتنقلون بالتوثب ، لا يغريهم شيء من عرض الدنيا إلاّ محبة هذا النبيّ الكريم وبلوغ بيت الله الحرام ؟! ...

ويسير الموكب متهادياً في أرجاء مكة ، وأصوات أصحابه تعجُّ بالتلبية لله العلي القدير ، الذي منَّ عليهم بهذه العمرة : « لبَّيك اللّهم لبَّيك » .. ويكون عبد الله بن رواحة آخذاً بزمام ناقة النبيّ

«ﷺ» ، فتأخذه نشوة الفرح ، ويملأه الحماس ، فيندفع راجزاً في سيره أمام الناقة :

خلّوا بني الكفار عن سبيله   خلّوا فكلٌّ الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله   بأن خير القتل في سبيله
يا ربّ إني مؤمن بقيله   إني رأيت الحق في قبوله
اليوم نضربكم على تأويله   كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

ويرى الرسول في إنشاد عبد الله ما ينمُّ عن صيحة حرب ، فيأمره قائلاً : « مهلاً يا ابن رواحة ! وقل لا إلَه إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده » .

فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته ، وردّدها المسلمون من بعده بقوة وحماسة ، فتجاوبت بأصدائها جنبات مكة كلها ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب أولئك الحانقين الذين أبوا ألاَّ أن يفارقوا بيوتهم لئلا ينظروا ويسمعوا ، فيأبى الله سبحانه إلاَّ أن يسمعهم ما شاء ، وأن يريهم ما أراد رغماً عنهم ، وخلافاً لإرادتهم .

لقد كان المشهد فذاً في التاريخ ، لم تقع عيون أهل مكة على مثله قط ، وكان النداء المنبعث من القلوب ، والمدوّي في الآفاق « لبّيك اللّهم لبّيك » يخترق آذانهم بما لم يسمعوا مثله أبداً . . ويبقى ذلك المشهد حافلاً بروعته وبهائه حتى يبلغ رسول الله «ﷺ» المسجد ، فينزل عن ناقته ، ويلتف بردائه ، ثم ينتقل بخطوات ثابتة وئيدة حتى يلامس الركن عند الحجر الأسود ، فيقول :

« اللّهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » ! ثم لمّا وصل الى الركن اليماني راح يمشي والجموع معه تمشي بسبعة أشواط ، في طوافٍ كانت تحفل به نفوس أصحابه بإيمان عامر ، وقوة بادية ، وكانت تنظر إليه قريش من فوق التلال ، ويرقبه أهل مكة في صفوفهم المكتظة ، فيأخذهم منه جميعاً البهر من كل مكان ، فيقولون لبعضهم بعضاً : « أهؤلاء الذين تزعمون أن الحمّى أضعفتهم ؟ . . إنهم لينفرون كما تنفر الظباء » ! . وبذلك أدركت قريش أنها تشهد وترى ما يمحو من افئدتها كل وهم بوهن محمد وأصحابه . .

ولما أتمَّ النبي «ﷺ» والمسلمون الطواف حول الكعبة المباركة ، انتقل بهم إلى السعي ما بين الصفا والمروة في سبعة أشواط ، حتى إذا أتمّوها ، وقف «ﷺ» يدعو إلى نحر الهدي قائلا : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » . . ونُحِرَ الهديُ عند المروة ، وشارك في النحر مع النبي «ﷺ» كل من شهد الحديبية مسلماً . وما كادوا ينتهون حتى حلق النبيُّ «ﷺ» رأسه ، وحلق أصحابه ، متممين بذلك فرائض العمرة . عندها بعث «ﷺ» إلى « بطن يأحج» قرابة مايتين من المسلمين لكي يقوموا على حراسة الخيل والسلاح ، بدلاً من إخوانٍ لهم ، يجب ألاَّ يفوتهم القيام بمناسك العمرة أسوةً بإخوانهم من المسلمين . .

وأقبل بعد ذلك رسول الله «ﷺ» إلى الكعبة ، وفي قلبه شوق للفيء في ظلالها ، وفي نفسه توق للإخلاد إلى السكينة في رحابها . . أوليست الكعبة بيت الله الآمن ، وزيارته مباحة لكل قبائل العرب

وأبنائهـا ؟ فلِـمَ تعنُّت قريش إذن في حرمـان محمـد وأصحابـه من دخوله ؟ ولِمَ هذا الظلم والعدوان على المسلمين ؟! . . ولـكن إذا أمكن لقريش ذلك فيما مضى فإنّ الله سبحانه أبى إلاّ أن يخذلها ، وأن يدع رسولَه الكريم يعود إلى بيته الحرام معزَّزاً مكـرَّماً . . وها هو ذا الرسول الـكريم يدخـل الكعبـة على مرأى من قريش ، فيدور في أرجائها ، ويتلـمَّـس مواضع الطهر والعبادة التي كان يقضي فيها كل يوم شطراً من أوقاته ، ثم يجلس مستنداً إلى ركن من أركانها وهو يتلو قرآناً كريماً تتردّد اصداؤه في جنبات البيت الحرام آيات حقٍّ أنزلت من السماء ، لتعيد ذكر الله كما أرادَ ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وكما يريد خاتم النبيين محمد «ﷺ» ليبقى هذا الـذكر خالـداً ما دامـت الأرض أرضاً ، والسماءُ سماءً . .

وظلَّ رسول الله «ﷺ» في محرابه ذاك قائماً على ذكر الله العلي القدير ، غير آبهٍ بتلك الأصنام والأوثان المنصوبـة في جوف الكعبـة تعلن عن أباطيل الكفر والشرك ، حتى يحين موعد صلاة الظهر ، فيدعو بلالاً ليصعد فوق ظهر الكعبة ويؤذن للصلاة ! .

وترددت في أرجاء مكة تلك الكلمات الخالدات : الله أكبر ، الله أكبر . . وتلك الدعوات الصالحات : حَيَّ على الصلاة ، حَيَّ على الفلاح . . فتـرتجف أوصـال قريش ، وترتعـد فرائصهـا لهـذا الآذان ، يرتفع عالياً فوق ظهر الكعبة ، التي تستمـدُّ منها المكانة بين العرب ، والسيادة بين القبائل ، فتحس بالقهر والذلّ ، وتأبى حتى على جوارحها أن تسمع وأن ترى ، فيضـع بعضُهـم أصابعهـم في آذانهم يسدونها ، ويغطي آخرون وجوههم بأيديهم يحجبونها ، كما

فعل سهيل بن عمرو وجماعة معه . .

ثم لا تقف قريش في غلوائها ضد نداء الحق عند هذا الحد ، بل يدفع الضيق والغيظ بعض أبنائها للتعبير عن مشاعرهم الحاقدة بما يخالف كل مألوف في التصرف قولاً وفعلاً ، فيقول عكرمة بن أبي جهل ، ذاكراً في هذا الموقف عداوة أبيه للإسلام : « لقد أكرم الله أبا الحكم (يعني أباه) فلم يسمع هذا العبد (بلالاً) يقول ما يقول » ! . . ومثله يذكر صفوان بن أمية أباه في حقده ضد الدعوة فيقول : « الحمد الله الذيُ أذهب أبي قبل أن يرى ويسمع هذا الذي نراه ونسمعه » . .

ويتمثّل بهما خالد بن أسيد ، فيقول : « الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم إبن أم بلال ينهق فوق الكعبة » . .

آذى المشهد القرشيين ووقر آذانهم ، فلم يطيقوا صبراً على احتماله ، فاجتمع نفرٌ منهم بعدما تشاوروا ، وأتوْا رسولَ الله «ﷺ» حانقين ، قائلين : « يا محمد ! إنَّ هذا لم يكن في شرط الحديبية » . . فردَّهم الرسولُ الأعظم خاسرين ، وهو يعلن لهم أن صُلح الحديبية يخوِّله زيارة المسجد الحرام مع ما تحمل هذه الزيارة من حق للمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية : عمرةً ، وصلاة ، وآذاناً ، ونحراً ، وأنَّ منعهم من الآذان فوق ظهر الكعبة هو النقض نفسه لمعاهدة الحديبية ، فلتكفَّ إذن قريش عن دعواتها الباطلة ، وعن افتراءاتها الجوفاء ، لأنها لن تجد أي جدوى من ذلك . .

واحتملت قريش آلامها على مضض ، واعتصرت حقدها على كيد حتى تنقضي الأيام الثلاثة لإقامة المسلمين في مكة طبقاً لما نصّت عليه معاهدة الحديبية ، فلاذت بالسكون ، ولم تحاول التحرّش بالمسلمين مرة أخرى .

وانطلق المسلمون أثناء مكوثهم في مكة ، يروحون ويجيئون آمنين ، لا يجرؤ احدٌ من المشركين على التصدّي لهم بشيء . . على أنه لم تكن هنالك من حاجة لمثل ذلك التصدي ، فهؤلاء المؤمنون لا يأتون من الأعمال إلاَّ بما يدل على البر والتقوى ، ولا يتحدثون إلاّ بما يعبِّر عن القيم والمثل ، وهم في ذلك كله مثال الإخلاص لدين الله ، ونبراس المحبة لرسول الله . .

وما كانت خصال المسلمين الحميدة ، وأخلاقهم الفاضلة ، إلاَّ لتؤثر في المشركين ، فتبهرهم وتدهشهم ، فإذا بهم يعجبون بهم حقاً ، بل وتمتلىء نفوسهم إعجاباً فيتساءلون :

ماذا فعل الإسلام بهؤلاء الناس ؟! . .

لم يكن المسلمون يوم هجرتهم من مكة إلاَّ بضع أشتات ، يحوطهم الضعف ، وينزل عليهم الأذى والعذاب ، يفرون من ظلم قريش لهم ، ويهربون من استبدادها بهم ، فإذا بهم اليوم يعودون ، وقد بدّلوا الضعف بالقوة ، والشتات بالوحدة ، والظلم والاستبداد بالمحبة والتسامح . . إنهم يبدون متآلفة قلوبهم ، موحدة أهدافهم ، لا اختلاف بين العصبيات ، ولا أحقاد بين القبائل حتى أشدّها عداوة في ماضي أيامها ، لا يغرّهم تفاخر ولا يوزعهم

تدابرٌ ، بل تلفّهم إلفةٌ واجتماعٌ ، وهم على نهج واحد ، ومسيرة واحدة . .

نعم هذا ما فعله الإسلام بهؤلاء الناس . وهذا ما سعى إليه محمد بن عبد الله «ﷺ» ، وجهد من أجله ، إذْ أمكنه حقّاً بفعل إيمانه وقوة عقيدته ، أن يجمع الناس في هذه الوحدة المتماسكة وأن يجعل قوامها هذا التعاطف والتساند ، وأساسها هذا التحرر من الوثنية ، والعبودية لله الواحد الأحد .

ذلك ما ظهر لأهل مكة جلياً واضحاً ، فقالوا : إنه والله لَدينٌ حق ، وإنه لنبيٌّ كريم . . أما سادة قريش فقد أخافتهم مشاعر الناس ، وأوجفتهم أحاديثهم فقالوا : لئن بقي محمد وأصحابه في ديارنا ليفتنوننا عن ديننا فلا يبقى أحد في مكة لا يتبعه ، فالخير في رحيله عنّا قبل أن يطغى علينا المدُّ وتفرقنا أمواجه الدافقة ! . . ولذا ، ما كادت الأيام الثلاثة تنقضي حتى أتى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، موكَلينْ من القوم ، يقولان للنبيّ «ﷺ» : « يا محمد ! لقد انقضى أجلُك فاخرج عنا » .

فقال لهما رسول الله «ﷺ» : « وما عليكم لو تركتموني ، فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه » . . إذن فالرسول «ﷺ» يعرض تمديد إقامته في مكة ! . . ولكن إلى ماذا يرمي من وراء ذلك ، وما هي مقاصده ؟! . .

لقد كانت لإقامة المسلمين وعلى رأسهم رسول الله «ﷺ» في مكة خلال تلك الأيام آثارها البالغة على الناس ، مما جعلهم يتأثرون

بالمناقب التي أبدَوها وبالخصال التي أظهروها . . وكانت أشدّ الناس تأثراً « برة بنت الحارث بن حَزْنٍ الهلالية » (أبوها أحد أشراف مكة ، وأمها هند بنت عوف) فهي سيدة اشتهرت بالفضل والنسب الرفيع ـ وهي خالة خالد بن الوليد .

كانت « برة » إحدى أخواتٍ أربع ، إحداهنّ أم الفضل لبابةُ ، زوج العباس بن عبد المطلب ، أول امرأة آمنت بالرسول « ﷺ » بعد أم المؤمنين خديجة الطاهرة عليها السلام . ويذكر التاريخ لأم الفضل حادثةً شهيرة تدل على عمق إيمانها وكرم خلقها . . فقد دخل عدو الله أبو لهب ، بيت أخيه العباس أثناء غيابه فاحتمل مولاه (أبا رافع) وضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه لأنه أسلم . فقامت أم الفضل إلى عمود في البيت فضربت به أبا لهب فشجته شجّة عنيفة ، وقالت : « استضعفته إنْ غاب عنه سيّدُهُ » فقام أبو لهب ذليلاً وولّى ، وقد اعتلّ ابو لهب بتأثير تلك الضربة ، فكانت من الأسباب التي عجّلت في موته عجّل الله بروحه إلى النار .

في بيت هذه الأخت المؤمنة ، الشجاعة ، عاشت « برّة » إثر فراقها عن زوجها « مسعود بن عمر » بعدما استحكم الخلاف بينهما على الإسلام ، إذ كانت تريد أن تؤمن ويؤمن معها زوجها ، ولكنه ركب الضلالة والبغيْ وأبى عليها وعلى نفسه الهدى حتى انتهى بهما الأمر إلى النزاع والافتراق ، فذهبت تعيش عند أختها أم الفضل حتى كانت عمرة القضاء ، ورأت من أحوال المسلمين ما أعجبها ، ومن شأن النبيّ « ﷺ » ما جعل قلبها يقفز بين جنبيها تقديراً وحباً . وأفضت « برّة » بمكنون قلبها إلى شقيقتها أم الفضل ، ورجتها

ملحة أن تتدخل لدى زوجها العباس ليحدثه بأمر « برة » وأمنيتها في الزواج منه لتحظى بالمكانة الرفيعة ، والشرف العظيم : زوجة لسيد الخلق وأمّاً للمؤمنين . .

ولم يتردّد العباسُ في عرض ما تودّه « برة » على ابن اخيه محمد «ﷺ» وما تطمح إليه ، فلاقى ذلك قبولاً عند النبيّ «ﷺ» ، فطلب إليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو زوج أخت « برة » من أمها ، أسماء بنت عميس الخثعمية ، وبعثه فخطبها له ، ثم تولى العباس من بعد ذلك أمر تزويجها ، وهو الذي دفع صداقها أربعمئة درهم ، ورأى النبيُّ «ﷺ» ألاَّ يعرس في مكة إلاَّ بعد انقضاء الأيام الثلاثة المتفق عليها لمكوثه وأصحابه ، علّه يقنع قريشاً بتمديد الإقامة بعد تلك الأيام بغرضِ تأليف القلوب ، وزيادة عُرى التواصل ، وفي سبيل انتزاع كوامن الحقد من نفوس هؤلاء القوم ولذلك طلب من مبعوثيْ قريشٍ أن يُعرس بين أظهرهم ، ويدعوهم إلى وليمة العرس . .

ولكنَّ ذينك المبعوثين رفضا ذلك بعناد وإصرار . . إذ أدركا بأن مكة ستفتح ولا شك أبوابها طائعة لمحمد اذا امتد مقامه فيها ، لأن اجتماعه بالناس في جو الوليمة الهادىء ، والتحدث إليهم في نشوة الأنس سيجعل الوشائج تعود بينه وبينهم ، إذ أنه قادر على أن يملكهم بقوة نفسه وسحر بيانه ، وأن يزيل ما بينه وبينهم من حواجز جهدت قريش في إقامتها طوال سنوات سبع حتى تبعد الناس عنه ، وتمنعهم من الوصول إليه . ولذلك قالا : « لا حاجة لنا في طعامك فاخرجْ عنا ، ننشدك الله والعهدَ الذي بيننا وبينك ، إلاَّ خرجت عن أرضنا

فهذه الثلاث قد مضت » .

وأثارت هذه الغلظة سعد بن عبادة سيد الأنصار . فقال : ما بال هذين الرجلين يعرض عليهما رسولُ الله «ﷺ» المودة والقربى وهما لا يبديان إلاَّ المكابرة والمباعدة ؟ ثم قام غاضباً إلى سهيل بن عمرو يصرخ في وجهه : « كذبت لا أمَّ لك ، لسنا بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها إلاَّ طائعاً راضيا » . فابتسم رسول الله «ﷺ» وقال لسعد :

« يا سعد . . لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا » . .

وقد كان قول النبيّ «ﷺ» هذا حسما للموقف ، وإعلاناً منه بالرحيل عن مكة ، موفياً بذلك ذمته لما عاهد به قريشاً ، ومثله من يفي بالذمم والعهود .

وأذّن مؤذن رسول الله «ﷺ» بالخروج من مكة ، بعدما خلّف وراءه مولاه « أبا رافع » ليلحق به في صحبة زوجه « برة بنت الحارث » التي أبى علبه القوم أن يعرس بها بين ظهرانيهم . .

وما كادَ موكب رسول الله «ﷺ» يتحرك في المسير ، حتى رأى الناس وسمعوا فتاةً تركض وهي تصرخ : « يا عم ! . . يا عم ! . . » . .

فقد كانت تلك الفتاة عمارة بنت سيد الشهداء ، حمزة بن عبد المطلب ، التي وقفت ترقب خروج الموكب النبويّ وفي عينها دمعة ، وفي فؤادها لوعة ، تذكر أباها وتتمنّى لو كان في هذا الركب ! . فهي لا تستطيع أن تحبس نفسها عن اللحاق بسيده حين تراه يذهب

إلى البعيد وبجانبه علي (ع) يرافقه » . . وحانت من علي (ع) التفاتة، فرأى عمارة بنت عمه حمزة فأخذها من يدها ثم دفعَها إلى زوجه فاطمة الزهراء (عليها السلام) وقال : « دونك ابنة عمك لحمايتها ، فإنا والله لا نترك ابنة عمٍّ لنا يتيمة بين ظهراني المشركين » . . وسُرَّ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ لذلك ، وبدت السعادة عليه ، فأمر بأن يؤتى بأم الفتاة ، سلمى بنت عميس ، كي تخرج مع المسلمين ، بدل أن تبقى وحيدة في مكة ، محرومة من الزوج والابْنة ، وأن تظل بلا أنيس ، مهيضة الجناح كسيرة الخاطر ، وقد كانت زوجاً لأشهر فتيان قريش وأشجعهم . .

نعم ، تخلّف مولى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، أبو رافع بعضاً من الوقت في مكة حتى هيّأت « برة » نفسها ، ثم عادَ وأدرك الركب في محلة « سرق » ، وهنالك أعرس النبيُّ ﴿ﷺ﴾ بزوجه ، وأبدل اسمها من « برة » إلى « ميمونة » لأنه رأى في زواجه منها مناسبة ميمونة عليه وعلى المسلمين ، إذ أمكنهم الله تعالى بهذه المناسبة من دخول مكة وزيارة المسجد الحرام بعد حرمان سبع سنين بسبب تعنت قريش وصلافتها . . ومنذ ذلك الحين أغفل الناس اسم « برة » لينادوا أم المؤمنين بالاسم الجديد الذي أعطاها إيّاه رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ وهو : « ميمونة » . . وقد فرحت أم المؤمنين باسمها الجديد ، ورأت فيه حقّاً يمناً وبركة . .

لم يكن مجيء عمارة بنت حمزة (رضي) حادثاً عابراً بالنسبة إلى بعض الصحابة الأبرار . فقد رأى نفرٌ منهم في مجيئها ما يواسي الألم

في نفوسهم على فراق أبيها ، وما يدخل السعادة إلى قلوبهم بقربها منهم . ولذلك جاءَ كل من جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة ، يطلبها من علي (ع) حتى تقيم معه موفورة الكرامة ، عزيزة الجانب ، كما هي عند علي (ع) إلاَّ أنه امتنع عن التنازل عن فراقها راضياً ، مما جعل هؤلاء الصحابة يأتون رسول الله ﴿ﷺ﴾ ويحتكمون إليه بأمر عمارة ، وكلٌّ يدعي أنه أحقُّ بها من الآخَرين . .

فأما علي (ع) فقد كان يريد الاحتفاظ بها عنده لأنها ابنة عمه حمزة ، وهو الذي أخرجها من عند المشركين فله ولاؤها وولايتها . . وكانت حجة زيد أن عمارة هي ابنة أخيه ، لأن الرسول آخى بين حمزة وزيد وقت المؤاخاة بين المسلمين ، فهو أحق بأن يكون وصّياً على ابنة أخيه وأولى الناس بها . . وأما جعفر بن أبي طالب فإن عمارة ابنة عمه ، وإن مقامها مع زوجه أسماء بنت عميس هو آنس لها لأنّها أخت أمها سلمى بنت عميس ، وهذه الخالة أحنى عليها وأقرب إلى القيام على رعايتها .

قد عَرَض أولئك الصحابة حججهم ، وأبانوا محبتهم ، فكان حكم رسول الله ﴿ﷺ﴾ بينهم أن قال : « أما أنت يا زيد فمولى الله تعالى ومولى رسوله . . وأما أنت يا علي فتشبه خَلقي وخُلقي . . وأنت يا جعفر أولى بها لأنَّ خالتها زوجتك ولا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها » . . لقد قضى رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعمارة بنت حمزة لجعفر (رض) مؤثراً واجب الحكم الشرعي على العواطف والأحاسيس لأنه لو أرادَ أن يكون للمشاعر المكان الأول لكان هو ﴿ﷺ﴾ أولى الناس بها وباحتضانها ، إذ كانت عمارة ابنة أخيه حمزة في

الرضاعة ، كما أفصح له «ﷺ» وأبان للصحابة : « وهي ابنة أخي من الرضاعة » ، وإنه لا يمكن أن ينسى عمّه حمزة وهو يقف إلى جانبه في الشدة ، ويجاهد معه في سبيل الله ، حتى ذوى في « أحُد » فحزن عليه حزناً شديداً ، وبكاه وتأثّر جداً لمّا لم يكن له بواكي في المدينة . . إن ذكرى هذا العمّ المجاهد باقية في نفسه ، عزيزة عليه ، فلّما جاءت ابنته إلى المدينة أرادَ أن يعوضها عما عانته من فقدان الأب ، ومرارة اليتم ، فأحاطها بالرعاية والحنان وإن كانت في بيت جعفر (رض) الذي أسبغ عليها من المحبة والألفة ما جعلها تطمئن إلى الحياة ، ثم لم يشأ ألاّ أن يُكمل سعادتها ، فاختار لها عريساً يليق بها ، ورجلاً يحفظ كرامتها ويحبها ، فزوجها من سلمة ابن أبي سلمة مؤمّناً لها مصيرها ومستقبلها . .

وإنَّ هذا الحدب المحمديّ على ذوي القربى ، لا يعادله إلاّ التفاته الدائم واهتمامه بشؤون كلّ فرد من أفراد المسلمين . . وإذا كان هذا الاهتمام في الشؤون الفردية هو نهجٌ دائم لرسول الله «ﷺ» فإنه لم يمنعه أبداً من أن يكون محور فكره الشأن الأكبر ، شأن الأمة بأسرها في رعاية كافة شؤونها وإقبالها على الدعوة تحفزها تلك التربية الإسلامية التي يعمّق الرسول «ﷺ» جذورها في النفوس : تعاليم هداية ، ومصابيح نور ، تشعّ على الناس حيثما كان المسلمون وأينما وجدوا . .

وتلك التعاليم ، واشعاعات ذلك النور ، هي ما بهرت أهل مكة في عمرة القضاء . . وإذا كانت هذه العمرة قد سمِّيت عمرة القصاص ، لأنها كانت نوعاً من القصاص بسبب صدّ المشركين

للمؤمنين عن العمرة ، وزيارة المسجد الحرام ، إلاَّ أنها تبقى في جوهرها تحلّق في نورها القدسي وهو يعكس على أهل مكة سيرة الإسلام ، إذ يرون أثناءها إناساً لا يسيرون إلاَّ سيرة هذا الدِّين ، فيؤدون إلى الله تعالى كل يومٍ صلواته ، ولا يأتون معصية ، ولا يغريهم الطعام ولا الشراب ، ولا تفتنهم في الحياة فتنة ! إنهم لاَ يَعْصُوْنَ الله مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ .. هذا هو الاسلامّ وهؤلاء هم المسلمون ، وعلى تلك السيرة ، لا يمكنهم إلاَّ أن يؤثِّروا في أهل مكة ، فكانَ أن هوت إلى الاسلام نفوسهم ، وأدركت عقولهم بأنه الدِّينُ الحق ، وبأن نبيَّه صادق مصدَّق .. صحيح أن كثيرين من قادة قريش قد جانبت نفوسهم دعوة الحق التي يبشر بها المسلمون ، وأجفلوا عن أسباب الايمان والمودة والرحم التي عرضها عليهم محمد «ﷺ» إلاَّ أن آخرين منهم قد سرت تلك الدعوة إلى نفوسهم ، وزادهم تطلُّعاً إليها ما يرون من علاء الإسلام وسموّه ، ومن هبوط مكانة قريش وأفول نجمها ... وكان من بين هؤلاء الذين هفت نفوسهم إلى الإسلام ، ثلاثة رجال معروفين في قريش : خالد بن الوليد بطل المشركين في أحد ، وعمرو بن العاص مبعوث قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ، لاغرائه بتسليم المسلمين المهاجرين ، وعثمان بن طلحة الموكل إليه مفُاتيح الكعبة المكرمة ، بيت العرب المقدس ، ومكان حجهم وأمنهم ..

هؤلاء الرجال التقوا في صفر من سنة ثمانٍ للهجرة ، دون أن يكون بين بعضهم البعض موعداً محدداً ، واجتمعوا في محلة تدعى « الهدة » ليسيروا معاً إلى المدينة ، ويدخلوا في الإسلام .

أما خالد بن الوليد ، فيروي قصة إسلامه بأن يقول : « لما أراد الله عز وجل بي ما أراد من الخير ، قذف في قلبي الاسلام ، وحضر لي رشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد «ﷺ» فليس لي موطن أشهده إلاّ أنصرف وأنا أرى في نفسي أني في غير شيء ، وأن محمداً سيظهر فلما خرج الرسول «ﷺ» إلى الحديبية خرجت في خيل لأصدّه ، حتى إذا وصلنا عسفان ، أقمت بإزائه ، فصلّى بأصحابه الظهر أمامنا ، فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا ، وكانت فيه خير . وكأنه ارتقب منّا الإغارة عليهم من حديد ، فإذا به يصلّي العصر بأصحابه صلاة الخوف ، فوقع ذلك منّا موقعاً ، فقلنا : إن الرجل ممنوع . فاعتزلنا ، وعدل عن سير خطنا وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أأذهب إلى النجاشي أم إلى هرقل ، أم أترك ديني إلى يهودية أو نصرانية ، أفأقيم في عجم ؟ أفأقيم في داري ؟! . .

وبينا أنا في ذلك حائر لا أدري ما أفعل ، دخل رسول الله «ﷺ» في عمرة القضاء ، فتغيبت ، ولم أشهد حضوره . وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع أصحاب محمد «ﷺ» مكة في تلك العمرة ، فطلبني فلم يجدني . فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك ومثل الإسلام ما جهله أحد ، قد سألني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنك وقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به فقال : ما مثله يجهل الإسلام ! ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ، ولقدّمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما

قد فاتك من مواطن صالحة » . . فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت منها إلى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان بن أمية ، فقلت : يا أبا وهب ! أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم فلو قدمنا عليه واتَّبعناه فإن شرفه شرف لنا ؟ فقال : لو لم يكن يبقى غيري ما اتَّبعتهُ أبداً . فقلت : هذا رجل موتور قتل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقال مثل ما قال صفوان بن أمية . فذهبت إلى منزلي وأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن أبي طلحة فقلت : إن هذا لي صديق ، فلو ذكرت له ما أرجوه ، ولكنني تذكرت مقتل أهله يوم أحد : أبيه طلحة ، وعمه عثمان ، وأخوته الأربعة : مسافع والجلاس والحارث وكلاب . . فكرهت أن أحدّثه ، بأمري ، ولكنني عدت وقلت في نفسي : « وما عليَّ وأنا راحل من ساعتي » . فحدثته بما آلت إليه الأمور قائلاً : « ألا ترى يا عثمان : إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب فيه دلو من ماء لخرج ؟ ثم أخبرته بما كان موقف صفوان وعكرمة ، فإذا به يواعدني على الخروج ، ونتفق على محل نلتقي فيه ، من يسبق الآخر ينتظره .

وفي الفجر التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى « الهدة » فوجدنا عمرو بن العاص هناك . فقال : مرحباً بالقوم ، أين مسيركم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام واتِّباع محمد . قال عمرو : وذلك الذي أقدمني . فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة ، فأنخنا بظهر الحرة

ركابنا . فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فلقيت أخي ، فقال : أسرع ، فإنَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد أخبر بكم فسُرَّ لقدومكم وهو ينتظركم . فأسرعنا المشي ، فاطلعت عليه فما زال الرسول ﴿ﷺ﴾ يبتسم حتى وصلت إليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسول الله . فقال الرسول ﴿ﷺ﴾ : « الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألاَّ يسلمك إلا إلى خير » . قلت : « يا رسول الله . ادع الله لي يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك . فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « الإسلام يجبُّ ما قبله » . وتقدم عثمان وعمر فأسلما » . .

وكما حدَّث خالد بن الوليد عن دخوله الإسلام ، كذلك عمرو بن العاص . فإنه يروي قصة إسلامه ، فيقول : « لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق ، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني ، فقلت : تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً منكراً ، وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟

قالوا : وماذا رأيت ؟

قال : أن نلحق بالنجاشي في الحبشة فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد . وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلاَّ خير .

قالوا : إن هذا هو الرأي .

قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له .

وكان أحبَّ ما يهُدى للنجاشي من أرضنا الأدم . فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري لو دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه . فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع . فقال : مرحباً بصديقي أأهديت إلي من بلادك شيئاً ؟

قلت : نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدما كثيرا . ثم قربته إليه فأعجبه ، وفرّق منه شيئاً بين بطارقته . فلما رأيت طيب نفسه قلت : أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول عدوّ لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه لأقتله .

وما كاد النجاشي يسمع ذلك حتى غضب ورفع يده فضرب بها أنفي ضربةً ظننت أنه كسره ، فلو انشقت الأرض لي لدخلت فيها فرقاً منه ، ثم جعلت أتلقى الدم بثيابي وأنا أقول له : أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك .

قال النجاشي : يا عمرو ! أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى عليهما السلام لنقتله ؟

قلت في نفسي : « عرف هذا الحق للعرب والعجم ، وتخالف أنت ؟ » .

ثم قلت للنجاشي : أيها الملك ، أكذاك هو ؟

قال النجاشي : ويحك يا عمرو أطعني واتّبعه ، فوالله انه لعلى الحق ، وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلت : أفتبايعني له على الإسلام ؟

قال : نعم

فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثم دعا بطست ، فغسل عني الدم ، وكساني ثياباً بدل ثيابي التي امتلأت بالدم فألقيتها .

وخرجت على أصحابي وأنا في حلتي الجديدة ، فلما رآني أصحابي سروا وقالوا لي : هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟

قلت لهم : كرهت أن أكلمه في أول مرة ، وقلت أعود إليه - وأنا أكتم إسلامي عنهم . .

فقالوا : الرأي ما رأيت . .

ولكني لم ألبث أن فارقتهم ، وذهبت الى موضع السفن ، فركبت واحدة مع جماعةٍ حتى نزلت البر ، فابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة فمررت على الظهران ومضيت حتى إذا كنت بالهدة ، فإذا بي ألتقي خالد بن الوليد ، وعثمان بن أبي طلحة ، فتقدمت وسلمت عليهما وسألتهما : أين يريدان ؟ فقال خالد : دخل الناس في الإسلام ، فلم يبق أحد ، وإني والله أرى أنه قد استقام الميسم

وإن الرجل لنبيٌّ ، أذهب إليه فأسلم .

فقلت : والله ما جئت إلاَّ لأسلم .

ثم قمنا فقدمنا المدينة ، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عنبة يصيح : « يا رباح ، يا رباح » . فتفاءلنا بقوله ، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : « قد اعطت مكة القادة بعد هذين » فظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد . وولى سريعاً ، فظننت أنه ذهب يبشّر رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ بقدومنا ، وقد تبين لنا أنه كان كما ظننت . فأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودي بالعصر فانطلقنا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ والمسلمون حوله ، قد سروا بإسلامنا ، فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع . ثم تقدمت ، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه ، فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ، فقال : إن الإسلام يجب ما قبله ، والهجرة تجبّ ما قبلها » .

ذلك ما كان من أمر إسلام خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص . .

ولم يكن هؤلاء وحدهم من الذين أقبلوا على الدخول في الإسلام بعد عمرة القضاء ، بل إن كثيرين من العرب ، فرادى وجماعات ، جاؤوا إلى المدينة يسلمون على يدي رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فينزلهم في ربوع الإيمان ، ويغسل قلوبهم بماء الطهارة ، وينقي نفوسهم بنورانية الحق ، فيستوي الإسلام عندهم عقيدة ومنهجا ، ثم يرتحلون إلى المضارب والديار مؤمنين ، مخلصين ، عابدين ،

فيراهم الناس على غير حالهم السابقة ، ويجدون مسالكهم وتصرفاتهم غير الماضية ، حتى إذا عرفوا بأن الاسلام هو صاحب الفضل في هذا التغيير والتبدّل ، تأثّروا به كثيراً وأقبلوا عليه قانعين ، راضين . .



غـــزوة مـؤتـه

انقضت بضعة شهور على عودة النبيّ (ص) من عمرة القضاء إلى المدينة ، كانت اهتماماته أثناءها منصبَّة على كيفية السبل التي يمكن سلوكها لنشر الدعوة خارج بلاد العرب ، وعلى المنافذ التي يعبر فيها الإسلام إلى الأمصار البعيدة . ولم يكن هذا التطلّعُ منه (ص) إلاّ بعد أن هيّأ الأسباب الداخلية لاتصاله الخارجي ، وبعث السفراء والموفدين إلى الملوك والحكام على أطراف شبه الجزيرة ، بمن فيهم ملك الروم هرقل التي عادت بلاد الشام تخضع له ، وهي البلاد التي رأى الرسول الأعظم (ص) وما جاورها أنَّها أفضل المنافذ لعبور الدعوة إلى الخارج ، خاصة بعدما أمن جانب اليمن بإذعان عامل الفرس له ودخوله في الإسلام . ولذلك ، وبهذه التوجهات ، بعث (ص) خمسة عشر رجلاً من المسلمين إلى « ذات الطّلح » على حدود الشام ، يدعون بدعوة الإسلام ، إلاَّ أنَّ جزاءهم على دعوتهم هذه كان القتل الذي لم ينجُ منه إلاَّ رئيسهم ، إذ حالفه الحظّ ، وأمكن له الفرار من أيدي أولئك الناس .

ولقد تأثَّر رسولُ الله (ص) لهذا الحادث أشدَّ التأثر ، إلاَّ أن الواجب المقدس الذي يحمله على عاتقه هو فوق التأثرات والمشاعر ، ولذا فإن ذلك الحادث لم يُروّعه ، ولم يثْنه عن التطلع إلى بلاد

الشام ، وجعلها أول بلاد يقتحمها الإسلام بهجة الإيمان ، فعاد وبعث الحارث بن عمير الازدي رسولاً إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني ، أمير بُصْرى من جانب هرقل بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام . ولكن ما إن نزل موفد رسول الله ﷺ « مؤتة » حتى اعترض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، وهو من أمراء قيصر على الشام ، فسأله : « أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد . . . » .

قال له : نعم . . فجنّ جنون ذلك الاعرابي من غسان وهو يسمع بأن الرجل من رُسُل محمد ﷺ ، فأمر على الفور به ، فأوثقوه ثم ضرب عُنُقه . .

وبلغ خبرُ هذا القتل العمد رسولَ الله ﷺ فاغتاظ له ، واشتدّ الامر عليه كثيراً ، لانه ينطوي في ذاته على خرق فاضح للمناقب والقيم التي تمنع قتل الرسل والموفدين ، ولأنه يحمل التحدّي الصارخ لمكانة الاسلام ، الذي كان في أول مراحل عهده الذي ثبّت فيه هيبته في النفوس ، وفي بداية الطريق التي أمكنه أن يشقّها معتدلةً بين الناس ، وأن يرسّخ بها الأفكار لدى القاصي والداني بأن الاسلام ليس عقيدة كسائر العقائد ، ولا مبدأ مثل شتى المبادىء ، بل هو دين الله ، وبأنّه مؤيد حقا بنصر الله . . وتلك الافكار هي التي كان لها فِعْلُها في الناس ، وتأثيرها في النفوس ، فأقدم الكثيرون يدخلون في الإسلام ، منهم من آمن به عن بيّنة واقتناع ، ومنهم من دخله استسلاماً للأمر الواقع ، وإن كانت هذه الفئة قد عادت وتذوقت حلاوة هذا الدين ، بعدما صارت في رحابه السمحة ، تطمئن إلى هدايته ، وتسمو في ذرى نورانيته . .

مثل هذه الاعتبارات ، التي كان الرسول ﷺ والمؤمنون جميعاً ، يحرصون على التمسك بها بقوة ، هي التي جعلت النبي ﷺ يجد في جريمة شرحبيل بن عمرو ، جريمة تمتلىء بالخيانة والغدر ، وتحبل بالكراهية واللؤم ، وبعناصرها هذه تقتضي القصاص والعقاب ، بحيث لا يجوز السكوت عنها ، خاصة وأنها وقعت في أعقاب ذلك الفعل العدواني الآخر في « ذات الطَّلح » ، وفي بلاد الشام ، التي هي محطّ الأنظار لعبور الدعوة ودفعها إلى البعيد ، وهي أيضاً البلاد التي أبى حكامها الروم ، وعمالهم عليها ، إلاً أن يقفلوها في وجه الإسلام ، وراحوا ، على خلاف ما كان يُظَنُّ منهم كأهل كتاب يجهزّون الجيوش للزحف على المسلمين ومقاتلتهم . . وإذا كان رجال بلاط هرقل وبطانته ، قد خافوا على نفوذهم من قبول دعوة محمد ﷺ وراحوا يحثونه على عداوة الإسلام ، فإن عمَّاله ، أمثال شرحبيل بن عمرو وغيره ، كانوا مثل أولئك الطامعين يخافون على سلطتهم ومكانتهم ، فرفضوا هداية الدين الذي يتوجه نحوهم ، وأبوا إلاً أن يقفوا جميعاً في جانب واحد يرتكبون الجرائم بقتل المسلمين ، ممن تقع عليه أيديهم ، ويتعمدّون الكفر برفض الإيمان الخالص . .

تلك الأسباب كانت قد تضافرت كلها ، وجعلت النبي ﷺ يقدم على إجراء خطوة عسكرية في بلاد الشام ، وذلك عندما أعد في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ثلاثة آلاف من خيرة أبطال المسلمين ، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة للسير ومقاتلة الروم ومن معهم من الأعراب في عقر دارهم .

ولقد كان رسولُ الله «ﷺ» يعرف أن تلك الحملة من جيشه سوف تلاقي الأهوال والصعاب ، وسوف تجد من الشدَّة ما لم يعهدوا من قبل ، ولذلك قال لهم «ﷺ» : « إن أصيب زيدٌ فجعفر ابن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن أصيب عبد الله فليرتضِ المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً » . .

وكان ممن حضر الجمع والتجييش وسمع التأمير يهوديٌّ اسمُهُ النعمان ، فتقدم من الرسول «ﷺ» يسأله : « يا محمد ! إن كنتَ سميّتَ من سميتَ أصيبوا جميعاً ماذا يفعلون ؟ لأن أنبياء بني اسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن إصيب فلان ففلان يقوم مقامه . . فلو سمّوا مئة أصيبوا جميعاً » . .

أجل ، ذاك عهد الله سبحانه مع أنبيائه ورسله ، ومحمدٌ «ﷺ» هو خاتم النبيين ويدرك ما يفعل عن حق وإيمان قلَّ نظيرهما في وجود بني الإنسان . . ولا شيء في حكمة الله ومشيئته يمنع هداية نبيه الكريم إلى رؤية الأحداث بعين البصيرة ، وارتقاب النتائج بإلهام الوحي ، ولا شيء أيضاً يحولُ بين فكر محمد «ﷺ» الثاقب وتشوّف المستقبل المنظور ، من خلال ما آتاه الله تعالى من ملكات وقدرات جعلته في النبيين والمرسلين حامل أعظم رسالة سماوية إلى الأرض ، كما جعلته في بني البشر سيّد القادة والمخططين والمدبِّرين والفاعلين . .

ولم يكن ليغيب عن رسول الله «ﷺ» قطُّ ما لدولة الروم من

قوة العتاد والسلاح ، ومن كثرة الجيوش والمحاربين ، وما حققته جيوشها من انتصارات على الفرس عبر بعبدة في الزمان ، ولكنه مع هذا الإدراك كان يرى بأن الدعوة تستوجب التضحية والفداء ، كما تستوجب الإقدام والمثابرة ، وما إرساله لحملة زيد بن حارثة إلا ضمن هذا الإطار من التصوّر الهادف والعمل الفاعل أيّاً كانت التضحيات ، لأنّ المسؤولية الجسيمة ـ التي يحملها الرسول «ﷺ» فوق كل المسؤوليات ـ تتطلب دائما حمَلةً يؤمنون بها ، ورجالاً يضطلعون بأعبائها ، لا ترهبهم المعوقات ، ولا تُقْعِدهم العقبات .. أفبعْدَ هذا يسألُ الرسول الأعظم إن كان يستبق استشهاد قادة جنده أو إن كان يسمي من يخلف الذي يُصاب ؟! .

ولم يقف ذلك اليهودي عند حدّ سؤاله للنبيّ «ﷺ» بما سأل ، ولكنه عاد إلى زيد بن حارثة (رض) يقول له : اعهد (أوصِ) يا زيد ، فإنك لن ترجع الى محمد إن كان نبياً » .. فيقول له زيد (رض) : « أشهد أنه رسولٌ صادق بارّ » ..

ما أحلاه نغماً إيمانياً يتدفق من قلب زيد ومن نفسه ، فيدحَضُ كلَّ شك لليهودي او لغير اليهودي بأن محمدا «ﷺ» هو نبي الله ، وهو خاتم النبيين لأنه لا نبيّ بعده ، فلا يحفل بما يوصي به ، بل تكون له الشهادة الخالدة الدالّة على أن محمداً «ﷺ» رسولُ الله ..

.. استعدَّ الجيش للمسير ، فعقد الرسول «ﷺ» لواءً أبيض ودفعه إلى زيد ، الذي لم يسبق له أن تولى قيادة من قبل ، ثم أوصاه بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي ، وأن يدعوا مَنْ هنالك إلى

الإسلام ، فإن أجابوا قبلوا منهم ، وإلاّ فليستعينوا عليهم بالله وليقاتلوهم . .

وانطلق هذا الجيش في أول غزوة له خارج حدود شبه الجزيرة ، وفيه أعلام من أهل مكة والمدينة ، أمثال خالد بن الوليد الذي كان حديث عهد في الإسلام ، فإنه آثر أن يعوّض عما فاته من جهاد في سبيل هذا الدين ، فكان مع المنتدبين في تلك المسيرة الهامّة . .

وتقدّم رسولُ الله «ﷺ» على رأس الجيش حتى بلغ ظاهر المدينة ، وهنالك وقف يُلقي وصيته على هذا الجيش ، ويقول لجنوده : « اوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً . أُغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله . لا تغدروا . ولا تغلّوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا مكفوفاً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجرةً ، ولا تهدموا بناءً » . .

تلك كانت وصية رسول الله «ﷺ» إلى جنود الإسلام ، وهي وصية يجدر بأهل الأرض ، ولا سيما في هذا العصر بالذات أن يتفكّروا بها وأن يتخذوها عظة لهم فيما يقومون به من حروب . . فالحرب ، إن لم تكن تهدف في الأصل لإعلاء كلمة الله وإرساء دينه الذي ارتضاه ، فهي ظلم وعدوان . . ومتى قامت الحرب فلها أصول وقواعد لا يجوز تخطّيها ، وفي طليعة هذه الأصول والقواعد ، عدم الاعتداء على المستضعفين من طفل وامرأة وكهل ومنعزل عن

الناس ، ومنها عدم إهلاك الحرث والنسل ، وإنزال الدمار والخراب في العمران ، فأين منّا هذه القواعد التي أرساها رسولُ الإسلام في كلمات موجزات ، وأين منها حروبُ الناس في الماضي البعيد ، وفي العصر الحديث ، حتى حروب هذا القرن .. التي لم تحمل لبني البشر إلاّ الموت يحصد الملايين ، والدمار والخراب يعمّ العالمين ، والتي تزرع الظلم والقسوة ، وتنشر البغي والفساد حتى لا تذر ناحية من نواحي الخير إلاّ وتقضي عليه ؟! ..

كلمات قليلة أوحى بها رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ ولكنها تناولت الإنسان في حياته وممتلكاته وحقوقه .. ألاَ فلتكن دستوراً للناس وقانوناً للحياة لكي يدرك أهل الفكر والضمير ، وأصحاب الحكم والتقرير ، فظاعة الجرائم التي ترتكب بحق الإنسانية وباسمها تحت ستار الشعار الباهت : « الأمن والسلم الدوليّين » ...

... وبعد أن أودَعَ الرسولُ الأعظم وصيته تلك لجنوده ، عادَ يدعو لهم ، ويدعو معه المؤمنون : « صحبكم الله ، ودفع عنكم وردّكم إلينا سالمين » .

وكانت المسيرة بأمرٍ من الله ورسوله ، انطلق فيها الجيش الإسلامي حتى بلغ « معان » من أرض الشام ، فنزل في تلك الناحية ، واجتمع قادته يضعون خطة الحرب ، فرأوا أن يكون لقتالهم طابع المفاجأة ، بحيث يأخذون العدوّ على حين غرة ، أسوةً بما كان النبيّ ﴿ﷺ﴾ يفعله في غزواته وجرياً على عادته في مهاجمة أعدائه ..

وإذ كان أمراءُ الجيش منهمكين في وضع تلك الخطة ، بلغتهم أخبار حشود كبيرة تزحف لمقاتلتهم . . وذلك أن نبأ مسيرتهم كانت قد سبقتهم ، فقام شرحبيل بن عمرو الغساني يجمع من حوله الرجال والمقاتلين حتى بلغ ما عنده المئة ألف مقاتل ، ولم يكتفِ بهذا العدد الضخم بل كتب إلى هرقل كي يمدّه بالجيوش من العرب والإغريق ، فلم يكن من هرقل إلاّ أن أخذه الحماس ، فانطلق هو الآخر في مئة الف رجل آخرين حتى نزل « مآب » من أرض « البلقاء » . .

بلغت أخبار تلك الحشود المسلمين وهم في « معان » ، فراعهم الأمر ، وراحوا يتفكرون بما يفعلون : هل يرجعون إلى المدينة ما دام ليس لهم قدرة على مقاتلة هذه الأعداد الغفيرة من الجيوش ، أم يقدمون على خوض المعارك غير عابئين بالكثرة والحشود ؟! . . ورأى البعض أن يكتبوا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ يُعلمونه بواقع الأمر ، فإمّا أن يمدّهم بالرجال وإمّا أن يأمرهم بأمره فيمضوا فيه . . وكادَ هذا الرأي يسودُ لولا أن قام عبد الله بن رواحة قائلاً : « أيها المؤمنون ! والله إنّ التي تكرهونها هي الشهادة التي خرجتم تطلبونها ، فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة » . .

ومثل ومض البرق ، سرت حماسة الإيمان ، واندفعت نخوة الشجاعة إلى الجيش كله ، وكانوا قد أمضوا ليلتين في « معان » ، قاموا بعدهما يمضون على هدى الله تعالى حتى بلغوا تخوم « البلقاء » ، فوجدوا جموع هرقل من الروم والعرب قد تقدمت لتتلقاهم وصارت على مقربة من محلة يقال لها « مشارف » ، ولمّا لم

يجدوا في تلك الجهات ما يدفع عنهم ؛ عادَ المؤمنون ينحـازون إلى مكان أكثر تحصيناً بالنسبة لموقعهم فاتخذوا « مؤتة » منزلاً لهم (ومؤتة قرية على حدود الشـام من ناحية الحجـاز ، على مرحلتـين من بيت المقدس شرقي البحر الميت) .

التقت جيوش الأعداء الضالة من روم وعربٍ في « مآب » ، ثم زحفت إلى « مؤتة » التي تمركز فيها المسلمون ، وهنـاك في هذه القرية ، جرت معارك ضارية ليس فيها تكافؤ في العددوالعتاد ، ثلاثة آلاف يواجهون مئتي ألف ، وأين ! في أراضي بلادهم التي يخبرونها جيداً ، والتي أجروا فيها معـارك كثـيرة مع أعدائهـم الفـرس . . ودارت رحى الحرب حامية الوطيس في أعنف قتال وأشـدّه ، فحمل زيد بن حارثة راية النبيّ «ﷺ» واندفع بها في صدر العـدو ، يرى تكاثـر الأعـداء من حولـه فلا يرهبهـم ، والموت المحتـم أمامـه فلا يهابه . . إنه يتقدم ، ويقاتل هؤلاء الأقوام وهـو يعـرف أنـه ملاقٍ حتفـه ، ولـكنْ ما همَّـه موتٌ في هذه الحياة وهـو سيلاقـي الحياة الأبدية . .

وكان زيدٌ يضرب وفي رأسه شريط حياته يدور . . لقـد كان عبداً فرفعه محمد «ﷺ» إلى مرتبة السادة ، ولقد صحبه معه على مدار السنين العديدة الماضية ، ينفحه بروح الإيمان ، وصدق العزيمة ، حتى جاءَ اليوم الذي أمَّره فيه على الناس وجعله قائداً لجيشه . . وها هو الآن وفي هذا المقام الرفيع يُقبل على الموت في سبيل ربِّه وفي سبيل إعلاء كلمة الحق . . فهل أرفع شرفاً له من أن ينال هذه المكانة في سبيل الله ورسوله ، وهل أعلى وسامـاً من وسـام الجهـاد الأكبـر ،

والحظوة بأنبل مصير في تاريخ بني البشر ؟! . .

ثم تتكاثر على زيد رماح العدو ، وتتألب عليه سيوف الباطل ، تنجّر دمه ، وتمزق أوصاله ، فيذوي على أرض « مؤتة » شهيداً ، وعيناه ترنوان إلى هنالك في البعيد . . إلى المدينة حيث رسول الله «ﷺ» الذي بعثه إلى الشهادة وهو في المقام الأسمى ، فلا تنطلق روحه إلى العزيز في أعاليه إلاّ وهي تترنّم بأناشيد الوفاء ، وتراتيل الإيمان . .

ويتقدم جعفرٍ بن أبي طالب ، الشاب الجميل الوسيم الذي كان في الثالثة والثلاثين من عمره ، تقدم لساحة الوغى ، بقلب شجاعٍ وإقدام بطوليّ لم يكن لغيره في هذه المعركة أن يقدم عليه . فقد ورِثَ الجرأة من بيت دعائمه المجد ، ولبناته الفضائل ، وظله الودُّ والرحمة ، فهو ابن أبي طالب « عبد مناف » بن عبد المطلب ابن هاشم ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، أول هاشمية وَلَدت لهاشمي ، ولقد عايش جعفر النبيَّ «ﷺ» تحت سقف واحد ، ورأى بأم عينيه مكانته عند والده ، وما كان يغدقه عليه من الحنان والعطف ، وما يمنحه من الرعاية والمحبة ، فتأثر بذلك أيمّا تأثر ، فكان مبدأ الأخوة هو السائد المسيطر على العلاقة القائمة بينهما ، فلا عجب إن تمتع جعفرٌ بقوة كانت قبساًمن نور النبوَّة، كما يدلُّ عليها قول النبيِّ «ﷺ» لجعفر : « أشْبَهَ خَلْقُكَ خَلقي ، وأشبهَ خُلُقك خُلقي ، فأنت مني ومن شجرتي » . . ولا عجب إن انبرى في حمّى المعركة يقاتل قتال الأبطال الأشداء ، ويَذودُ عن حمى الدين ذود الفارس النبيل . . إنه يضرب بالأعداء ضربات تطيح بالأعناق ،

وتقطع الأوصال ، حتى يفري الصفوف فرياً، منزلاً الخوف والرعب في القلوب ، ويراه اعداؤه على تلك الحالة فلا يجدون مناصاً من التكاثر عليه والإحاطة به من كل جانب ، وعندها يقتحم جعفر الصفوف ، وينزل عن فرسه ثم يقاتل وهو راجل ، ولواء رسولُ الله «ﷺ» في يمينه فقطعها العدو ، فأخذ اللواءَ بشماله فقُطعت هي أيضاً ، فاحتضنه بعضدَيه ، وما زال كذلك حتى قتل ، وقد وجد في جسده الشريف نحو « تسعين طعنة » .

فأية شجاعة أعلى من شجاعتك يا ابن أبي طالب ، وأيُّ وفاء ذاك الذي يدفَعك ألاَّ تتخلى عن لواء رسول الله «ﷺ» حتى بلغ بك الأمر أن تحتضنه في عضدَين قطعت يمناهما واليسرى ؟! . ها هنا في « مؤتة » فليشهد التاريخ على البسالة النادرة ، وعلى الأمثولات الرائعات . . وها هنا في « مؤتة » ، كما في أية أرض أخرى قتل فيها المؤمنون في سبيل الله ، لا يعدون أمواتاً ، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون كما وصفهم الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَحسبنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سبيلِ الله أمواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِين بِمَا آتاهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، ويَسْتَبْشِرُونَ بالَّذينَ لَمْ يلحقُوا بهمْ مِنْ خَلفهم ألاَّ خَوْفٌ عليهمْ ولاَ هُمْ يحزنونَ . يستبشرُونَ بنعمةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ وأَنَّ الله لاَ يُضيعُ أَجْرَ المُؤْمنينَ** ﴾ . .

نعم ، هوى جعفر سلام الله عليه في أرض المعزكة ، فاندفعت روحه ترفرف نحو ذرى المجد ، لتعبر في أجواء المدينة ، تحمل وصية الشهيد وهو يقول : « ألاَّ بلِّغي ابن عمي ، رسول الله وخاتم أنبيائه

بأنني وفيت في مؤتة ، وما وهنتُ وما قَلَيْتُ ، وما كان عندي إلاَّ خوف واحدٌ ، أن تسقُط رايةُ الإسلام من يديَّ ، فحميتها حتى قُطعت ، ونثرتْ دمائي على الأرض كي تسقيَ في الدروب غرساتٍ يرفرف على أغصانها الإيمان ، وتفرخ في الحقول حبات ينبت على أوراقها الحق » . . .

ألا يا واصلاً مدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، قل لهم ، هناك في أرض الشام جعفر لم يمت بل هو شهيدٌ يفرح بما آتاه الله من فضله ، وبما منحه من أجر . ألا فليهنأ له ذوو القربى والمحبُّون لمكانته الرفيعة في جنة الله ورضوانه .

. . ثم تقدم ، من بعد مقتل جعفر ، عبد الله بن رواحة ، فيأخذ الراية وهو على فرسه ، فجعلت نفسه تحدِّثه بالموت ، وتجعله يتردد بعض التردد ، ولكنه سريعاً ما أنشأ يقول :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلِنَّهْ لتنزلنَّ أو لتكرهنَّهْ
قد طالما قد كنتِ مطمئنهْ مالي أراكِ تكرهينَ الجنَّهْ

ثم يقول مذكراً نفسه برفيقَيه :

يا نفس إلاَّ تُقتلي تموتي هذا حِمام الموتِ قد صَليتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ إن تفعلي فعلَهما هُديتِ

ثم لم يَطُلْ تردّدُ عبد الله بن رواحة ، إذ ما لبث أن أخذ سيفه من جانبه ، وأقبل على القتال ، مقداماً غير هيّاب ، مطمئناً غير جزع ، وما زال يقاتل بطلاً عظيماً حتى استشهد ، ولحق بزيد

وجعفر إلى الخلود . . فهؤلاء هم قادة الجيش الإسلامي في « مؤتة » يستشهدون ثلاثتهم في سبيل الله ، وفي موقعة واحدة ، مقدمين أبلغ العظات وأسمى الشهادات . . لقد كانوا يعرفون منذ ولاّهم الرسول ﴿ﷺ﴾ إمارة المسلمين بأنهم ملاقو الموت ومع ذلك ارتضوا أوامر الرسول مطمئنين مضحين ، لأنهم آمنوا بأنّ ما يسيرون إليه هو الحق ، وفي سبيل الحق لا يأبه المؤمن لشدة ولا موت ، بل يرتجي أمراً واحداً ألا وهو إعلاء كلمة الحق المبين .

وأخذ ثابت بن أرقم الراية ، بعد مقتل عبد الله ، فقال :«يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم » ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، وكان رجلَ حربٍ مجرَّب ، وقائداً ماهراً ، ما ان اخذ الراية حتى عمد إلى جمع صفوف المسلمين ، بعد إن بدأت تدبُ بينهم التفرقة ، ويداهمهم التشتت ، وما زال يداور الأعداء ، بعد جمع الصفوف ، في مناوشات بسيطة حتى انتهى النهار ، وتحاجز الجيشان لطلوع الصباح . وأثناء الليل ، تدبَّر خالد الخطة التي يستطيع معها أن يؤمن سلامة جيشه ، فوزع عدداً من الرجال غير قليل في المؤخرة ، وأمرهم إذا طلع الصباح أن يحدثوا جلبة وضجيجاً يوهمون بهما الاعداء أن المدَدَ قد جاءهم من عند النبيِّ ﴿ﷺ﴾ . وبالفعل كانت خطة محكمة تلك التي تدبرها خالد بن الوليد ، إذ ما إن سمع الروم الضوضاء في مؤخرة جيش المسلمين حتى ظنوا بأنَّ أعداداً غفيرة قد انضمت إليه في الليل وهذا ما جعلهم يخافون ، وعن المهاجمة يتقاعسون ، لأنَّ ما لاقوه من شدّة المسلمين وسط المعارك ، وما

أنزلوه بهم من تقتيل ـ رغم عددهم القليل ـ كان حَرِيّاً أن يخيفهم ، وأن يثبط عزائمهم ، بعد أن صاروا جيشاً لجباً ، بتلك الإمدادات الكثيرة التي وصلتهم .. وانتظر الروم أن يبادئهم المسلمون القتال ، وأن يشنوا عليهم الغارات ، ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحصل ، بل على العكس فوجئوا بهؤلاء الأعداء الأشدّاء ينسَحبون من مواقعهم، مؤثرين الرجوع إلى بلادهم .. وعندها زال الخوف من نفوسهم وحلَّ محلَّهُ الابتهاج ، فنزلوا الى ساح المعركة يغنون ، وعلى أنغام الفرح يرقصون !..

وبلَغَ خبر رجوع الجيش الإسلامي على تلك الحالة مسامع المسلمين في المدينة ، فوقع في نفوسهم مهولاً مروعاً ، وخرجوا من المدينة ، كباراً وصغاراً يريدون ملاقاة ذلك الجيش المنهزم بالتأسّي لما لاقاه .. وبالملامة أيضاً .. ولقد بلغ من تراكض الصبيان ما جعل الرسول «ﷺ» يشفق عليهم من طول ما جرَوا ، فقال : « خذوا الصبيان فاحملوهم ، واعطوني ابن جعفر » . وأخذ «ﷺ» عبد الله ابن جعفر فحمله بين يديه على دابته ، وما زال يتقدم الناس حتى بلغوا « الجرف » ، وهناك كان استقبال مرير للمقاتلين ، إذ أقبل الناسُ عليهم يحثون التراب في وجوههم ، وهم يقولون : « يا فُرَّار ، فَررتم في سبيل الله ؟! » .. فيقول الرسول «ﷺ» : « ليسوا بالفُرَّار ، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى » ..

تلك هي عادة الجموع لا ترحم في أحيان كثيرة ، بل تندفع وراء المشاعر مُعماةً عن الحقيقة .. فقد ظنت جموع المسلمين أن جيشهم قد هزم ، ولكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك ، بدليل ما

أكّـده رسولُ الله «ﷺ» وهو ينفي عن ذلك الجيش تهمة الفِرار ، وما أثبتته الوقائع أثناء القتال في « مؤتة » . .

فلقد كانت أسباب الفرار أمام الجيش الإسلامي متوافرة وعديدة ، إذ كان مقدّراً له ، بعد مقتل قادته الثلاثة ، أن يترك المعركة ويهيم على وجهه مدحوراً ، بما يمكّن العدو من لحاقه وانزال أقصى الضربات به ، ولكنّ ذلك الجيش لم يفرّ ، بل صمد في وجه أعدائه وثبت لمدة سبعة أيام في أعنف قتال وأشد معارك ، لقد قابل العدو وهو في حالات من الضعف والخور ، وظل ثابتاً أمامه رغم تلك الحالات التي تدفع إلى الشتات . . يضاف إلى ذلك موافقة الجيش لخالد بن الوليد على خطته والبقاء في ساحة القتال ، فلو لم تكن في نفوس ذلك الجيش القوة الكافية ، وفي قلبه الشجاعة الزائدة لما كان قبل بالخطة ، ولكان آثر الانسحاب تحت جنح الظلام ، ولو فعل لكان عندها عُدّ منهزماً . أما وأنه ثبت في مكان المعركة ، وبثباته ذاك أجفل الأعداء وأرهبهم ، حتى منعهم عن مهاجمته ، فتلك هي البطولة حقّاً ، وذاك هو الصمود بعينه . . لا ، لم يكن مقدراً لثلاثة آلاف أن يهزموا مئتي ألف ، ولكنّ ثباتهم أمام هذه الجحافل يعتبر نصراً بذاته . .

وإذا كان هذا هو واقع الجيش الاسلامي عامة ، فإن ما قام به قادة هذا الجيش من بطولات ليعتبر فوق التصوُّر ، وأعلى من كل نصر للأعداء . لقد أقبلوا على الموت بحماس بالغ النظير ، وخاضوا أشد المعارك ضراوة ، بإيمان المسلم الصادق الذي يعرف أن دينه يأمره أن يقاتل في سبيل الله حتى يَقتل أو يُقتل ، وإنّ هذا القتال ،

وما فيه من جهاد في سبيل الله ، لهو التجارة الرابحة وحدها ، كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُون في سبيلِ الله ، فَيقتلونَ وَيُقتلونَ وعداً عليهِ حقّاً في التوراةِ والإنجيلِ وَالقرآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بعهدهِ مِنَ الله ، فاستبشرُوا ببيعكمُ الذي بايعتم بهِ وذلِكَ هو الفوزُ العظيمُ ﴾ . . نعم ذلك كان الفوز العظيم الذي ناله قادة الجيش الإسلامي ، وبفضل هذا الفوز قادوا المؤمنين في القتال الصعب المرير ، فهل يعد ذلك الجيش فرّاراً ؟ ! . . لا والله ، بل هو الكرّار إن شاء الله تعالى . . .

ولقد حزن النبيُّ «ﷺ» لمقتل الأمراء الثلاثة حزناً كبيراً ، وبلغ الألم من نفسه أن بكاهم بأسًى ، وبكى المستشهدين معهم في « مؤتة » . ولقد طاف «ﷺ» على بيوت الشهداء ، يواسي أهلهم وابناءهم ، حتى انتهى به المطاف في بيت ابن عمه جعفر بن أبي طالب (رض) ، فدخل على منزل جعفر ، وطلب إلى زوجه أسماء بنت عميس أن تأتيه بالأبناء ، فلما أتته بهم ، راح يقبلهم ويشمهم وعيناه تذرف بالدمع ، ثم وضع عبد الله بن جعفر في حجره وأخذ يمسح رأسه وهو يقول : « اللّهم إنَّ جعفراً قد قدم إليَّ أحسن الثواب ، فاخلُفه في ذريته بأحسن ما خلَفْتَ أحداً من عبادك في ذريته » . ثم التفت إلى أسماء وقال لها : « يا أسماء . . ألا أبشرك ؟ » .

قالت : بلى . . بأبي أنت وأمي يا رسول الله .

قال : ان الله سبحانه قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة .

وكان «ﷺ» يقصد أن الله تعالى قد أبدل جعفراً (رض) جناحين عوضاً عن يديه اللتين قطعتا وكان يحتضن بهما لواء الإسلام ولواء رسول الله .

رضي الله عن جعفر ذي الجناحين ، وصاحب الهجرتين ، أبي المساكين ، المدافع عن لواء المؤمنين ، فقد كان يحب المساكين ويجلس إليهم ، يخدمهم ويخدمونه ، ويحدثهم ويحدثونه ، فكان الرسول «ﷺ» يكنّيه « أبا المساكين » . وكان يقول عنه : « كان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب ينقلب بنا فيطعمنا ما في بيته » ومثله أولئك « يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » . وصدق الله العظيم الذي يورثهم المجد في الدنيا والآخرة ، فيكونون الوارثين عن حق للخلد : « اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » . .

تلك كانت معركة « مؤتة » ، بما حفلت من مخاطرة وجرأة ، ولكنها ، رغم المخاطرة والجرأة ، كانت ضروريه لإرهاب الروم فيرون فيها بأس المؤمنين وقتالهم وإن قلّ عددهم ، كما كانت لازمة حتى ترتسم أمام المسلمين طريق الجهاد في مقبل الأيام وهم ينشدون نشر دينهم في البلاد ، كما دلّت عليه الاحداث المتعاقبة .

غزوة ذات السلاسل وسرايا غيرها

نعم تلك كانت غزوة « مؤتة » على حقيقتها ، وقد عاش الجيش الإسلامي هذه الحقيقة ، ولكنَّ المسلمين في المدينة اعتبروا قول رسول الله «ﷺ» تغطية لهم ولم يقتنعوا بما يقدمه جندُ هذا الجيش من حجج وبراهين دفاعاً عن أنفسهم ، وبياناً للأوضاع التي سادت أجواء المعارك ، بل ظلوا يعتقدون أنهم عادوا منكسرين ، فارين ، حتى أن بعضاً من أولئك الجنود كان يخشى الظهور بين الناس ، لئلا يراهم الصبية ، فيؤذونهم في التصايح بوجوههم : « يا فُرَّار ، فررتم في سبيل الله » . .

ومرّت بضعة أسابيع ، والمدينة تعيش هذه الحالة من القلق والاضطراب في النفوس ، حتى قرّر رسول الله «ﷺ» أنه لا بد من عمل حاسم يعيد للمقاتلين احترامهم في الناس ، فما إن بلغه أن جمعاً من قضاعة يستعدون للإغارة على المسلمين ، حتى دعا إليه عمرو بن العاص ، وعقد له لواءً على ثلاثمائة رجل من الذين حاربوا في مؤتة ، ثم أمرهم بالانطلاق والانقضاض على تلك الجماعة المعادية .

وخرج عمرو بن العاص بسريته في جمادى الثانية ، فلّما بلغ ماءً بأرض « جذام » يقال له « السلسل » ، وعرف أن جموع العدو

كثيرة ، استدعى « رافع بن مكيث الجهني » وبعثه إلى المدينة كي بطلب المدد من رسول الله ﴿ﷺ﴾ . وجاءته الإمدادات ، مئتان من المقاتلين على رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ، وكانوا من سراة المهاجرين والانصار ، وفيهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ، وقد أمَرَ الرسولُ ﴿ﷺ﴾ أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص ، وأن يكونا جمعاً ولا يختلفا ، لأن عمرواً كان ما يزال حديث العهد في الإسلام ، بينما أبو عبيدة كان من المسلمين الأوائل ، الذين تعمّقت العقيدة في نفوسهم ، فلا يحفلون بالأمور العارضة . ولما وصَلَ أبو عبيدة أرادَ أن يتسلَّم القيادة ، فأبى عليه ذلك عمرو بن العاص وقال له : « إنما قدمت عليَّ مدداً وأنا على قيادة الجيش » . فرضي بذلك أبو عبيدة ، إذ كان رجلاً ليناً ، سهلاً ، وقال له : « لقد أمرنا رسول الله ألا نختلف ، وإنك إن عصيتني أطعتك » . . وبذلك بقي عمرو على إمارة الناس فصلىَّ بهم . وتقدموا إلى العدو يحملون عليه ، فما هو إلاَّ يوم ، حتى أجبروه على الفرار ، محققين الغرض الذي بعثهم الرسول الأعظم إليه ، والذي أرادَ منه أن يبعد عن المسلمين أجواء الهزيمة التي ظلوا يشعرون أنها أصابت جيشهم .

وقد عُرفت هذه السرية ، بسرية « ذات السلاسل » ـ نسبها بعض كتاب السيرة إلى « ماء السُّلْسَل » ، بينما نسب تسميتها آخرون إلى « السلاسل » التي ارتبط بها الكفار بعضهم إلى بعض مخافة الفرار والهروب من وجه المسلمين .

وكانت بعدها سرية أخرى في شهر رجب ، خرج فيها أبو

عبيدة بن الجراح إلى جماعة من جهينة . ولقد قلّ زاد المسلمين أثناءها أو كاد ينفذ ، مما جعلهم يأكلون عشباً يدعى « الخبط » او « ورق السلم » ، فاشتهرت هذه السرية « بسرية الخبط » .

ثم إنه كان في شعبان سرية أخرى بعث فيها رسول الله ﴿ﷺ﴾ أبا قتادة الانصاري في خمسة عشر رجلاً ليغيروا على جماعة من غطفان كانت قد ناصرت جيش الروم في وقعة « مؤتة » . ولقد عاد اصحاب هذه السرية جميعاً سالمين بعد خمس عشرة ليلة من خروجهم .

تلك كانت السرايا التي بعثها رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ إلى الأراضي القريبة والبعيدة ، لأغراض كثيرة ، وأهمها أن تبقى الناس تتحدّث بالإسلام ، وتتقصّى أخباره ، لا أن ينقطع اتصالها به في أي فترة من الفترات . . على أنه مهما يكن من أمر تلك السرايا ، أو مهما يكن تفكير المسلمين المقيمين في المدينة ، فإن موقعة « مؤتة » كانت فاتحة خير على الإسلام والمسلمين ، بحيث جعلت الناس يدخلون في دين الله جماعات جماعات . ذلك أن بسالة الجيش الإسلامي وثباته أمام جحافل الروم قد بهرت القبائل العربية المتاخمة للشام ، مما جعلها تتفكّر في أمر هذا الدين الجديد ، الذي يمنح أبناءه إيماناً قلّ نظيره في الوجود . ومما لا شك فيه أن بعض النفوس الصافية قد يؤثر فيها مجرد حدث تستلهم منه الايمان وتنطلق في دروب الحق . ولقد كان ممن حضر « مؤتة » قائد عربي على فرقة من جيش الروم يدعى « فرْوة بن عمرو الجذاميّ » . رأى هذا الرجل ما رأى من تضحيات المسلمين واستهانتهم بالموت ، فآمن بدينهم مهتدياً من تلقاء نفسه فلما انتهت « مؤتة » سارع يبعث بكتاب الى رسول الله ﴿ﷺ﴾ في المدينة يعلن

فيه إسلامه ، ويهديه بغلته البيضاء .

وعرفت الروم بأمر إسلام « فروة » فأصدر هرقل أمراً بالقبض عليه وزجّه في السجن ، ثم عُرِض عليه أن يعود إلى المسيحية مقابل أن يفرج عنه ، ويردّهُ الى مركز القيادة الذي كان فيه ، إلاَّ أنه أبى وأصرَّ على إسلامه ، فكان جزاؤه القتل ـ كما سنبينّ ذلك إن شاء الله ـ .

ويشاءَ الله العلي القدير أن يعزز دينه ويزيد في انتشاره ، فإذا بالأحوال المالية للدولة البيزنطية تضطرب اضطراباً كبيراً ، ويجيء عرب الشام الذين اشتركوا في وقعة « مؤتة » لقبض رواتبهم ، فلا يكون من أحد عمال هرقل ، المكلف بالدفع إلاَّ أن يصيح فيهم قائلاً : « انسحبوا ، فالامبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلاَّ بمشقة ، وليس لديه ما يوزعه على كلابه » .

ولقد أثَّر هذا الأمر في نفوس أولئك الأعراب أيّما الأثر إذ دعاهم عامل هرقل : كلاب الأمبراطور !! فثارت عندهم حمية العربي وإباؤه ، وحثَّهم الحرص على الكرامة والشرف ، فأقبلوا على الإسلام ، يرتجون رفعِ المهانة والذل ، وإذا بالإسلام يستقبل في رحابه أقواماً من سُلَيْم وعلى رأسهم العباس بن مرداس ، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود قبل فتح خيبر ، ومن عَبْس وذُبيان وفزارة ، وغيرهم من قبائل العرب أناساً كثيرين . .

وهكذا ظهرت موقعة « مؤتة » ، وخلال مدة وجيزة ، أنها كانت سبباً من أسباب استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى الشام ، وفي ازدياد الإسلام عزة وقوة ومنعة .

فَــتح مكَــة

إن الدخولَ الجماعي في الإسلام ، الذي شهدته قبائل العرب المتاخمة لبلاد الشام ، والذي أقبلت عليه بعد غزوة « مؤتة » لم يهزّ قريشاً وحلفاءها ، كما كان جديراً بهم أن يهتزّوا له ؛ بل ولم تتفكر قريش بما قد تصير إليه الأحوال في قاصي الجزيرة ودانيها ، فظلت على الوهم بأنّ المسلمين قد هزموا في موقعة « مؤتة » هزيمةً نكراء ، وأنهم باتوا في حالة يُرثى لها ، أقلّها الضعف والهوان .. وهذا ما أعادها إلى مراجعة حساباتها ، وردّها إلى طريق التفكير بحرب محمد ﴿ﷺ﴾ ونبذ مواقفها السابقة معه .. وهي المواقف التي أُجبرت فيها بعد « الحديبية » ، على التخليّ عن السيطرة التي كانت لها ، والتي أفقدتها الهيبة ، وخسارة مكانتها الأولى ، بعد « عمره القضاء » .. فما عليها إذن ، والحالة تلك ، إلاّ العمل لاستعادة تلك السيطرة كاملة ، واسترداد الهيبة والمكانة غيرَ منقوصتين ، وهذا لن يكون إلاّ بمقاومة محمد ﴿ﷺ﴾ مقاومة ضارية ، والشروع في قتال من دخلوا معه ، بحكم عهد الحديبية .

ولّما كانت خزاعة هي التي دخلت في عقد النبي ﴿ﷺ﴾ ، وبنو بكر هم الذين دخلوا في عقد قريش ، فقد رأى هؤلاء ، أن الفرصة باتت مواتية بضعف المسلمين ، لأنْ ينقضّوا على خزاعة ، ويصيبوا

منها بثاراتهم القديمة ، التي كانت ما تزال تَغِلُّ في النفوس منذ حروب الجاهلية وأيامها ، وإن كانت قد هدأت مع ظهور الإسلام ، وصرفهم هذا الظهور للإنشغال به ، عن القتال فيما بينهم .

ولم يُخْفِ بنو الدّيل من بني بكر بن عبادة نواياهم تلك عن بعض سادة قريش ، فوافقوهم على غزو خزاعة وتقتيلها ، بل وراحوا يحرضونهم ، ويمدونهم بالسلاح ، حتى يُقْدِموا على ما يُضمرون . .

وهكذا كان ، فخرج نوفل بن معاوية الديّلي في بعض من قومه قائداً ، وخرج معهم جماعة من قريش كان فيهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وحويطب بن عبد العزى ، وشيبة ابن عثمان ، وسهيل بن عمرو ، ومكرز بن حفص ، حتى أتوا خزاعة ، في الليل ، وهم على ماءٍ لهم بأسفل مكة يدعى « الوتير » . وفوجىء بنو خزاعة بالمهاجمين ينزلون بهم الطعن والتقتيل ، فقاموا يدافعون عن أنفسهم ، إلاّ أنهم وجدوا أن الفرار هو خير سبيل لهم للنجاة ؛ فأدركوا البيت الحرام يحتمون به . وكان الأعداء ما زالوا في أثرهم ، فما أن رأوهم دخلوا البيت الحرام حتى توقفوا ، وقال بنو بكر لقائدهم نوفل بن معاوية : « يا نوفل ! إنا قد صرنا في حرم البيت العتيق ، إلهك ، إلهك » .

فما كان من ذلك الكافر اللعين إلاَّ أن قال : « لا إله له اليوم . يا بني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه » .

ولمّا رأى بنو خزاعة أن أعداءَ الله لا يأبهون لحرمة بيته المقدس ،

وأنهم ما زالوا وراءهم يريدون تقتيلهم ، انقلبوا إلى بيت أحد زعمائهم ، بديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم يُقال له رافع ، بعد أن كان قد قتل منهم ما يزيد على عشرين رجلاً . .

وانتهت أخبار عدوة بني الدّيل وحلفاء قريش إلى الرسول (ﷺ) إذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، في الغداة إلى المدينة ، وأتى رسول الله (ﷺ) ، وهو جالسٌ بين الناس في المسجد ، يقصُّ عليه ما حدث ، ويستنصره على اولئك الذين نقضوا عهده وقتلوا حلفاءه .

وكان مما قاله شعراً :

يا رب إني ناشدٌ محمداً
حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]
قد كنتُمُ وُلْداً وكنا والدا
ثُمَّتَ أسلمنا فلم تَنْزع يدا
فانصُرْ هداك الله نصراً أعتدا[2]
وادعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدا[3]
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا[4]
إن سيمَ خَسْفاً[6] وجهُهُ تربَّدا[7]
في فيلقٍ كالبحر يجري مُزْبِدا
إن قُريشاً أخلفوك الموعِدا
ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
وجعلوا لي في كَداء[8] رُصَّدَا[9]

---

(١) الأتلدا : القديم العهد .
(٣) المدد : العون
(٢) الشيء العتيد : الشيء القوي الجسيم .
(٤) تجرّد : تهيّأ .

=

هم بيّتونا[10] بالوتير هُجَّداً[11]

وقتلونا ركَّعاً وسُجَّداً[12]

فرغ عمرو بن سالم من شكايته وطلبه للنصرة ، فقال له رسولُ الله «ﷺ» : « نُصرت يا عمرو بن سالم » . ولم يلبث أن جاءَ ، بعد عمرو ؛ زعيم خزاعي آخر هو بُدَيْل بن ورقاء ، في نفرٍ من خزاعة ، ليشكوا نفس الأمر إلى رسول الله «ﷺ» بما أصابهم من بني بكر ، ومظاهرة قريش عليهم ، فطمأنهم الرسول «ﷺ» وهدّأ من غضبهم وألمهم . .

فماذا على رسول الله «ﷺ» أن يفعل ، وهذه قريش ومن دخل في عهدها ، نقضوا معاهدة الحديبية ؟ لقد أعطى الرسولُ «ﷺ» لقريش في تلك المعاهدة الكثير مما طلبت وأصرَّت عليه ، لا لشيء إلاَّ ليجعلها ترتدُّ عن الضلال ، وتثوب إلى الرشد ، فيعمُّ السلام والأمان في ربوع شبه الجزيرة ،ولكنّها بدت الآن = فيما فعل بعض قادتها = لا تعبأ بسلام ، ولا تحفل بمواثيق أو عهود ، بل تعمل على إعادة العداوة المستفحلة ، وتفتعل الشرَّ راضية ، وإنها ولا شك ستزيد في غيها وضلالها إن لم يعاجل إليها بعمل يقهرها ، ويفرض عليها الاستسلام والخضوع . ولقد رأى رسول الله «ﷺ» أن لا شيء يجعل قريشاً مرغمة على إقامة السلام الذي يريد ، ونشر الدين الذي يحمل ، كما أنه لا شيء يعادل نقضَها للعهد ، إلاَّ الزحف عليها في

=(٥) سيم : طُلب منه وكلف . (٩) رصَدَ الشيء : راقبه .
(٦) الخسف : الذل . (١٠) بيّتونا : غدروا بنا ليلاً .
(٧) تربَّدَ : تغير إلى الغُبرة (١١) هُجَّدا : نائمين .
(٨) كداء : موضع بأعلى مكة (١٢) ركعاً وسجداً : كان فيهم مسلمون يصلون لله تعالى

عقر دارها ، وفتح مكة أمام المسلمين والعالم أجمعين ، إذا شاء الله ربُّ العالمين . . نعم هذا ما عَـزَم عليه الرسول الأعظم «ﷺ» بعدما تناهت إليه أخبار نقض العهد ، وبعد أن استنصره حلفاؤه .

وعَـرَفت قريشُ بأن بني خزاعة هرعوا إلى المدينة يخبرون محمداً بما حصل ، فإذا بتفكيرها ينقلب على غير ما كانت وجهته السابقة ، فقد اجتمع حكماؤها وأهل الرأي فيها يتشاورون فيما بينهم ، فأدركوا أن ذلك النفر الذي حـرّض بني بكر ، وساعدهم على قتل خزاعة ، قد أوقعها في الخطر . . فقد عادَ أصحاب الرأي هؤلاء يعون ما لمحمد «ﷺ» من قوة ، وما عنده من عزم ، وهو لن يسكت أبداً على ما قام به أهل الفتنة ولن يكون أمامَـهُ إلاَّ حربٌ شعواء يشنها عليهم ، قد لا تُـبقي ولا تذر . .

إنَّ هذا التقدير حصل في حسبان أولئـك العقـلاء من قريش وجعلهم يبعثون بزعيمهم أبي سفيان بن حرب إلى محمد «ﷺ» كي يثبت المعاهدة ويطيل في مدة الهدنة . .

وخرج أبو سفيان من مكة يحمل هموم قريش على عاتقه يريد المدينة ، حتى إذا كان في محلة تدعى « عسفان » رأى من بعيدٍ بُـدَيْل ابن ورقاء وأصحابه ، فخاف أن يكون هؤلاء القوم قد أتَـوْا محمـداً «ﷺ» قبله ، وأخبروه بما حدث ، مما يجعل مهمته أصعب ، فإذا به يستحثّ راحلته ويتقدم منهم سائلاً :

« من أين أقبلت يا بُـدَيل ؟ » .

وأدرك بُـدَيْل ما يريده أبو سفيان بن حرب ، فقال ، محاولاً أن

يعمي عنه الحقيقة :

« سرت في خزاعة في بطن هذا الوادي . . . » . .

قال أبو سفيان :

ـ أوما أتيتَ محمداً ؟

قال :

ـ لا . .

ثم لم يلبث بُـدَيل ورفاقه أن خلّـوه منصرفين عنه ، ولكنهم ما كادوا يمضون في طريقهم حتى قال أبو سفيان في نفسه : « لئن كان قد جاء المدينة فقـد علف بهـا النـوى » ، فعمـد إلى بعـر راحلتـه يفتحه ، فإذا به يجد حدسَـهُ قد صدقه ، فيقول : « أحلف بالله لقد جاء بُـدَيلٌ محمداً » . وشعر أبو سفيان بخوف شديد ، ولذا آثر ألاَّ يأتي محمداً ويلقاه مباشرة، بل يتوسل إليه لدى شخص عزيز عليه .

وعلى هذه النية تابع أبو سفيان طريقه حتـى دخـل المدينـة ، فذهبَ من فوره إلى عند ابنته أم حبيبة (رض) زوج رسول الله ـ يستريح عندها من وعثاء السفر ، ويطلب إليهـا أن تكلـم زوجهـا بأمره .

دخل أبو سفيان على ابنته ، فقامـت تتلقـاه بالترحـاب ، ثم تدعوه إلى الجلوس . فتقـدّم أبو سفيان يريـد أن يجلس على فراشٍ وجَـدَه ممدوداً ، فإذا به يرى ابنته تسرع وتطوي هذا الفراش عنه . فأجفل من هذا التصرف ، فقال لابنته بدهشة واستغراب :

« إيه بنية ، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عني ؟! » . .

قالت أم حبيبة المؤمنة الصادقة :

« بل هو فراش رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله » .

وفوجىء أبو سفيان بن حرب بما لم يكن يتوقعه في حياته ، فأم حبيبة هي ابنته ، وهي ذاتها التي توجّه اليه المهانة والذلّ ، فتمنعه من الجلوس على الفراش الخاص برسول الله ؟ . . فلم يتمالك نفسه أن يبدي ما داخَلَهُ من إحساس ، فقال لها : « أما والله ، لقد أصابكِ بعديَ شرٌّ يا بنية » . .

قالت :

- « بل هداني الله تعالى للإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر . واعجباً منك ، وأنت سيد قريش وكبيرها » ! .

قال : « أأترك ما يعبد آبائي واتبع دين محمد ؟ » .

فقالت : « بل هو دين الله الواحد الأحد . وهو الدين الذي يخلِّص من الشوائب والأدران ، ويحفظ المكانات والكرامات » . .

ولم يعد أبو سفيان قادراً على الاحتمال ، فخرج مغضباً ، يجرُّ أذياله ، مضعضع النفس ، كليم الفؤاد ، لا يدري ماذا يفعل ، ولكنه جاءَ في مهمة لا يستطيع ان يتخلىّ عنها ، فسعى إلى المسجد يريد محمداً ﴿ﷺ﴾ . ودخل عليه للفور يكلمه في توثيق المعاهدة وفي

زيادة مدتها ، إلاَّ أن رسول الله «ﷺ» لم يردَّ عليه بشيء . . والحَّ أبو سفيان في الكلام ، والنبي «ﷺ» لا يجيب ، حتى قنع أن لا جدوى من كلامه ، فقام خارجاً والصدمة تكاد تقتله ، لقد نالَ أول صدمة من أقرب الناس إليه ، وهي ابنته أم حبيبة ، وها هي ذي صدمة أخرى تقع على رأسه بأشدّ من تلك ، فما هذا العذاب الذي ينزل به ؟! . .

تلك كانت أحاسيس أبي سفيان ، وهو يسحب نفسه سحباً في طريقه إلى بيت أبي بكر الصديق (رض) علَّهُ يجد عنده ما يواسي به جراح نفسه ، ولكنه لم يجد إلاَّ الرفض ، إذْ أبى عليه الصديق أن يكلم الرسول «ﷺ» بأمره ، وجعله يتركه مروّعاً، ليذهب إلى دار عمر بن الخطاب (رض) ويعرض عليه أمره . . وكان الحالُ هنا أسوأ من قبل ، إذْ ما إن كلَّمَ عمراً حتى أغلظ له في الردّ ، وقال له :

« أأنا أشفع لكم إلى رسول الله «ﷺ» ! فوالله لو لم أجد إلا الذرّ[1] لجاهدتكم به » .

وضاقت الدنيا في وجه أبي سفيان بن حرب ، وهو يرى في إعراض الناس عنه ما يرى ، إذ أحسَّ بنفسه حقيراً ، ذليلاً ، لا كيان له ، ولا كرامة . إنَّ أحداً لا يعبأ به ، وإن خاطبوه فبأنفةٍ واستعلاء ، أو كراهية ومجافاة ! وإذا كان هذا شأن الناس في المدينة فماذا عليه بعد أن يفعل ؟ هل يخرج إلى قريش ولم يصل بعد إلى

---

(١) الذّر : صغار النمل .

حلٌّ ؟ لا ! إنها مسألة حياة أو موت ، فمصير مكة وقريش متوقف كله على مساعيه هنا . .

. . . ولم يرَ أبو سفيان إلاَّ الذهاب إلى بيت علي بن أبي طالب (ع) فلعله الرجل الأخير الذي يلقاه ويجد عنده ما لم يجده عند صاحبَيه أبي بكر وعمر . . ودخلَ أبوسفيان على علي (ع) ليجده مع زوجه فاطمة ـ بنت رسول الله «ﷺ» ، وبين يديها ابنها الحسن (ع) طفل صغير ما زال يدبّ ، فقال له : « يا عليّ ، إنك أمسّ القوم بي رحماً ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعنّ كما جئت خائباً . اشفع لنا عند محمد » . فقال له علي (ع) : « ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم على أمر فلا نستطيع أن نكلّمه فيه » . .

وأدرك أبو سفيان حراجة الموقف ، فالتفت إلى فاطمة ـ عليها السلام ـ قائلاً :

« يا بنت محمد ، هل لكِ أن تأمري بُنَيَّكِ هذا ـ يعني الحسن (ع) ـ فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ » .

قالت فاطمة الزهراء : « والله ما بلغ بُنيّ هذا أن يجير بين الناس ، وما يجير أحدٌ على رسول الله » .

قال : « يا أبا الحسن ! إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ ، فانصحني » .

قال أبو الحسن : « والله ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك

سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك » .

قال : « أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ » .

قال أبو الحسن : « لا والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك » .

وقام أبو سفيان ، فأتى المسجد ، قائلاً : « أيها الناس ! إني قد أجرت بين الناس » .

ولم يلبث أن خرج يركب بعيره وينطلق عائداً إلى مكة ، خالي الوفاض ، يجرُّ أذيال الخيبة ، إذ لم يستطع أن يحقق شيئاً ممَّا جاءَ إليه .

وقدم أبو سفيان على قومه ، فسألوه : « ما وراءك يا أبا سفيان ؟ » .

قال : « جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد عنده خيراً . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم . ثم جئت عليَّ بن أبي طالب فوجدته ألين القوم ، وقد أشارَ عليَّ بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا يُغني » ! .

قالوا : « وبما أمرك ؟ » .

قال : « أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت » .

قالوا : « فهل أجاز محمدٌ ذلك ؟ » .

قال : لا !

قالوا : « ما زاد الرجلُ أن لعب بك ، فما يُغني عنا ما قلت » .

قالَ : « والله ، ما وجدت غير ذلك » ! .

صحيح أنَّ أبا سفيان بن حرب قد ترك المدينة ، وفي نفسه الألمُ والذلُّ ، وعادَ إلى قريش ليخبرها بسوء الحظ الذي حالفه ، رغم كل ما بذله من جهد كي يشفع لها عند محمد ! . . ولكن ما دري أبو سفيان أن رسول الله «ﷺ» وإن لم يكلمه في شيء إلاَّ أنه لم يكن ليريد شراً بمكة وأهلها . . وكيف يدري ورسولُ الله يريد من وراء فتح مكة ، فتحاً للقلوب على الإيمان ، وهدىً للأنفس إلى الحق . إنه يريده فتحاً بدون قتال ، ولا مقاومة ، فلا تراق فيه قطرة دم واحدة إلاَّ أن يكون هنالك من أهل الشرك مَن وجب قتلهم بالحق ، ومن أجل هذه الغاية ، ولكي لا يشيع الأمرُ في الناس ، وتستعدّ قريش للمقاومة ، ويكون القتال أمراً مفروضاً لا مفرَّ منه ، نعم من أجل هذه الغاية ، لم يشأ أن يحادث أبا سفيان بن حرب في زيادة مدة المعاهدة ، لأنه يريد أن ينهيها ليقيم مكانها سلاماً مبنياً على العدل والحق والشريعة ، يدوم إلى أبد الدهر ، ما دام في مكة إنسان ، وما دام على وجه هذه الأرض أناس . .

ومن أجل هذه الغاية أيضاً ، وزع رسولُ الله «ﷺ» الحراس على مفارق الطرق ، ومداخل المدينة ، يرقبون كل قادم إليها ، أو مارٍّ بجوارها ، فلا يدعون غريباً يدخل ، ولا يتركون أحداً يمرُّ إلا ويردّوه . .

لقد أرادَ أن يكون أمره سراً ، حقناً للدماء ، وصوناً للأنفس ، حتى أن ما عزَمَ عليه من فتح مكة لم يَقُلْه ، لأحد من الصحابة ، بل كان يخطط «ﷺ» بتأنٍ ورويَّة ، حتى تأتي العواقب سليمة والنتائج محققة . .

وكان فيما خطط له رسول الله «ﷺ» ، أن تسير معه حشودٌ كبيرة من الناس إلى مكة ، فبعث إلى مَن حوله من القبائل وإلى الأعراب في البادية أن يأتوا ويحضروا رمضان في المدينة . وما إن بلغت دعوة الرسول «ﷺ» تلك القبائل حتى راحت تتوافد ، ومعها الرايات ، إلى أرض المدينة وتقيم فيها المضاربُ بعضها إلى جانب بعضٍ حتى غصت المدينة وضواحيها بالوفود . . ولما رأى رسول الله «ﷺ» أن الجموع التي لبَّت النداء كثيرة ، وأنها تكفي للمسيرة التي أرادها ، أعلم الناس بزحفه إلى فتح مكة ، وأمرهم بالتهيؤ والاستعداد للخروج .

وفيما أخذ الناسُ يتأهبّون للمسير ، وتأكّدَ لحاطب بن أبي بلتعة أن هذا المسير بات وشيك الوقوع ، عمد إلى امرأة من « مُزينة » ، يسلّمها كتاباً أوصاها بأن توصلهُ لقريش وفيه يعلمهم بما أزمع عليه رسول الله «ﷺ» ـ وأن تُبقي أمر هذا الكتاب سراً وتخفيه في مكان آمن حتى لا يطّلع عليه أحد . ولكي يأمن إيصال هذه المرأة لكتابه ، دفع إليها بعض المال وعادَ يكرر وصيته بأن تكتم سره ولا تعلنه لأحد . .

فأخذت تلك المرأة الكتاب ، وأخفته في ضفائر شعرها ، ثم

خرجت تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس ، ولكن ما إن غادرت المدينة ، حتى علم رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ ، بأمرها ، إذ جاءه الوحي بما فعله حاطب ، فدعا على الفور إليه عليَّ بن أبي طالب وقال له : « إنَّ أحد أصحابي كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا ، وقد كنت سألت الله عز وجل أن يعمي أخبارنا عنهم ، وقد حملت الكتاب امرأة سوداء ، سلكت طريقاً غير مألوف ، فهيَّا أدركْها ثم انتزعِ الكتاب منها ، وبعد ذلك خلِّ سبيلها » . . ثم استدعى الزبيرَ بن العوام وأمَرَه أن يخرج مع علي (رضي الله عنهما) .

وخرج الصحابيان يبحثان عن المرأة ، فأدركاها بـ « الخليقة » ، وتقدّم منها الزبير يسألها عن الكتاب ، فأنكرت وأقسمت أن أحداً لم يعطها كتاباً لقريش ، ولكنَّ الزبير لم يأبه لما قالت ، بل انكبَّ على رحالها يبحث فيه ، ويحاول أن يجد الكتاب الذي تخفيه . . ورأت تلك المرأة أن تتخلص من الرجلين ، فراحت تذرف الدمع باكية ، وهي تندب حظّها الذي أوقعها في ورطة لا تعلم عنها شيئاً ، وتبدي ضعفها وقلة حيلتها تجاه أناس يَسْتَعْدُوْنَ عليها . . وأفلحت تلك المرأة بالكذب والمراوغة ، وبالتظاهر بالمسكنة والفقر ، وبوقع هذه التهمة الشنعاء عليها حتى جعلت الزبير يتأثر لحالها ، ويرق قلبه لها ، بشكل كادَ معه أن ينسى المهمة التي جاءَ من أجلها فارتدَّ نحو علي (ع) يقول له : « ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً ، فارجع بنا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، نخبره ببراءة المرأة » . .

وما كاد علي (ع) يسمع ذلك حتى قال له :

« ويحك يا زبير ، أيخبرني رسول الله «ﷺ» ، بأنها تحمل كتاباً ، ويأمرني بأن آخذه منها ، وتقول أنت إنَّـهُ لا كتاب معها»؟!.

ولم يلبث علـيٌّ (ع) أن اخترط السيف ، وتقـدم من المرأة قائلاً ، وعيناه تقدح بالغضب : « أمـا والله لتخـرجـنَّ الكتـابَ أو لنكشفـنَّـكِ ، ثم لأضربَـنَّ عنقك بسيفي هذا » . . وحاولت المرأة أن تراوغ معه كما فعلت مع صاحبه ، إلا أنها رأت عنده من الإصرار والعناد ، ومن الجدية فيما يقول ، ما جعلها تثق بأن الرجل متأكد مما معهـا ، وأنها إن لم ترضـخ له ، فلسـوف تنـال عقابـاً قد يكون الموت . . وإزاء تخوفهـا على حياتهـا قالـت : « أعْرض بوجهـك عني » . .

وأشاح علـيٌّ (ع) بوجهه عن المرأة الماكرة ، فإذا بهـا تحـلُّ ضفائرها وتخرج منها الكتاب ثم تدفعه إليه ، فيأخذه علي (ع) ، دون أن يقول لها شيئاً ، ثم يأتي الزبير ، ويذهبان الى رسـول الله «ﷺ» ، يسلمانه الكتاب .

فتحَ رسولُ الله «ﷺ» الكتاب وقرىء له ما فيه ، فدعا حاطباً يسأله : « ما حملك يا حاطب على هذا ؟ » . .

واسقط في يد حاطب وأطرق مأخوذاً ، فلم يدرِ بما يجيب . . وبعد لأيٍ جاهد فيه نفسه ، قال لرسول الله «ﷺ» والغصـة تكاد تقتله : « يا رسولَ الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت وما بـدّلت ، ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصـلٍ ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهـل ، فصانعتهـم عليهـم ، وكان مَن

معك من المهاجرين (ممن له أهل أو مال بمكة) لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إن فاتني النسب في قريش أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولا ارتضاءً بالكفر بعد الإيمان » .

ذلك هو العذر الذي أبداه حاطب بن أبي بلتعة ، فهل كان حقاً معذوراً ؟

وهل يعذر من يخالف أمرَ رسول الله «ﷺ» ، رغم ما يحمله هذا الأمر من إخفاء خبر الفتح ابتغاء سلامة الناس ، وتحقيقاً للهدف الأعلى الذي هو نشر الدعوة وتثبيتها ؟

ولئن عذر أحد من عامة الناس ، قد يجهل حقيقة الدعوة وسموّ مراميها ، فهل يعذر صحابي جليلٌ رافق الدعوة في مختلف مراحلها ورافق الرسول «ﷺ» في شتى الحالات التي مرَّ بها ؟

نعم لقد كان حاطب ممَّن صاحبوا رسول الله «ﷺ» ، آمَنَ به وبالدين الذي يدعو إليه ، وجاهد في سبيل هذا الدين حق الجهاد ، وحضر المعارك كلها ، بما فيها معركة بدر ، وتحمَّل المسؤولية التي عهدت إليه يوم حمل كتاب النبي «ﷺ» إلى المقوقس عظيم القبط . ومن هنا تأتي الغرابة فيما قام به من تصرف ، والاستهجان لِمَا فعل . .

ولكن ! أليس في الإنسان ضعف ؟

أم ليست حالات ضعف بني البشر عديدة ومتنوعة ، حتى لا تقع تحت حصر ، وحتى ليمكن القول بأنه ما من مخلوق بشري إلاَّ

وعنده نقطة ضعف متأصلة تؤثر فيه دائماً وأحياناً تسيطر عليه حالة من الضعف تجعله يتصرف بأعمال لا يرضاها هو لنفسه ؟ أو ليسَ في الناس من يكون ضعفه تجاه المال ، أو النفوذ وحب السلطة والحكم ، حتى ليضعف أمام أي شيء في سبيل تحقيق هذه النزعة ، أو قد يكون الضعف حيال المرأة التي يشتهيها ، فتغلب عليه شهوته وتستبد به حيال أبسط الحركات التي قد تأتيها ، أو قد يأتي هذا الضعف من حب الإنسان لعياله وعاطفته تجاه الآباء والبنين ؟ . .

بلى ، هذه حالات من ضعف بني البشر ، وهي تختلف عند الواحد عن الآخر ، باختلاف تكوينه الشخصي ، والعوامل الذاتية أو المؤثرات الخارجية ، التي تفعل فعلها في الشخصية الإنسانية

فإذا كان هذا هو الإنسان في تكوينه ، فإنَّ حاطب بن أبي بلتعة يكون قد مرَّ بحالة من الضعف تجاه أهله في مكة وخوفه عليهم من قريش = إذا كان صادقاً فيما ادَّعاه = إذ ربما توهَّمَ بأن قريشاً إن أدركها خبرُ زحف المسلمين لفتح مكة ، سوف تعمد إلى قتل المسلمين المستضعفين في مكة ، فرغب في أن يكون هو الذي يبعث هذا الخبر إليها ، تفادياً لما قد يصيب أهله ، وهم ممن ليس عندهم أحد يحميهم أو مال يردّ عنهم ! . .

ومما لا شك فيه بأنه كانت لرسول الله ﴿ﷺ﴾ معرفة تامة بأحوال بني البشر ، وبالعوامل الذاتية والخارجية التي تؤثر في تكوين شخصيتهم ، أو في دفعهم إلى القيام بعمل من الأعمال ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ربّاه على عينه ، ليعدّه لأعظم رسالة سماوية

إلى الأرض ، إلاّ أنّ هذا الاعداد الالّهي هو نفسه الذي حمل في ذات الرسول «ﷺ» المعرفة بالنفس الإنسانية ، وبما تحفل به هذه النفس من مشاعر ، وبما يعترضها من مؤثرات . . ولقد رأى في اعتذار حاطب ما ينمّ عن حالة من الضعف اعترته خوفاً على الأهل والولد . وهذه الحالة ، لا بد وأن تكون عابرة ، لأن ماضي الرجل كله يشهد على صدق إيمانه ، وجهاده في سبيل الدين ، وحسن بلائه في الذود عن حرمات هذا الدين . .

ورأى الرسولُ الأعظم أن ما ارتكبه حاطب من خطأ ، وإن كان فادحاً ، إلاّ أن هذا الخطأ لا يعدل ذلك الماضي الحافل بالتضحية والعطاء ، وإنّ في عدالة بني البشر ما يأخذ بالأسباب التخفيفية ، وحتى بالأسباب التي تمنع أحياناً العقاب ، فإذا كانت هذه عدالة الناس ، فكيف يجب أن تكون عدالة النبوة ؟ . .

وأرادَ النبي «ﷺ» أن يظهر عفوه عن حاطب ، فقال لمن حوله : « أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به » . .

أما حاطب ، وكان الندمُ قد أخذ منه كل مأخذ ، فأبدى بتأثّر شديد أنه لن يرتكب بعد اليوم خطأ ، وأثنى على كرم رسول الله «ﷺ» ورحمته به ، وحَمَد الله سبحانه على غفران خطيئته . .

وفي هذه الحادثة أنزل الله تعالى في أول سورة « الممتحنة » من القرآن الكريم ، حكمه الذي يحذّر فيه المؤمنين من موالاة أعداء الله ومصانعتهم ، ومن إفشاء بعض السرّ لهم أيّاً كان الدافع للموالاة ، ومهما كان السبب للإفشاء ، لأن العدو عدو حيثما كان ، ومهما

اختلفت أوضاعه وأحواله ، وإن التقرب إليه ومودّته أو محاباته إنما هي خيانة ما بعدها خيانة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ، لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وانتهت حادثة حاطب بن أبي بلتعة بالعفو عنه ، فقد شفعت له أعماله وتضحياته في سبيل الدعوة . وعزم الرسول الأعظم ﴿ﷺ﴾ على المسير ، فاستخلف على المدينة أبا رُهَم ، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري . ثم خرج لعشر خلون من شهر رمضان سنة ٨ هـ . في نحو عشرة آلاف من المسلمين ، كان فيهم المهاجرون والأنصارُ وكل من جاء المدينة من قبائل العرب ، خرجوا مؤلفين لأكبر جيش عرفته المدينة حتى ذلك التاريخ . .

وسار جيش المسلمين تعجُّ به الطرقات ، لا يضرب خيامه في بطاح إلا واكتست أرضها حتى لا يكاد يبدو منها شيء للناظر . . وكانوا يسعون إلى مكة ، ولا يرغبون بسفك دمٍ ولا بقتلِ بريء ، ولا يعتزمون سلْبَ مالٍ أو اغتيال حق ، بل على العكس من ذلك

كله كانت غايتهم سامية وهي فتح أغلاق البلد الحرام ، ورفع الحواجز والسدود التي أقامتها قريش ، فبكون ذلك البلد ـ كما أراد له الله سبحانه وتعالى ـ مثابةً للناس وأمناً ، يسوده دينُ الحق الذي أُنزل على قلب رسول الله «ﷺ» محمد بن عبد الله ، سيّد المرسلين وخاتم النبيين ، ليُخرج الناس ، كل الناس ، من الظلمات إلى النور ، ولذلك كان الرسولُ «ﷺ» يدعو إلى الله في تلك المسيرة : « اللَّهم خذ العيونِ والأخبار عن قريش حتى نبغتها في ديارها » . .

وكانت تلك الأيام في شهر رمضان ، وهو شهر الصوم المبارك ، فخرج الرسول «ﷺ» والمسلمون صائمين ، ولكن ما إن بلغوا الكُدَيْدَـ ما بين عُسفان وأمج ـ حتى أفطر النبي «ﷺ» ، لأن في شرع الإسلام أنَّ من كان على سفر رُخِّصَ له أن يفطر ، بدليل قوله تعالى: **﴿فمن كان منكم مريضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾** . والله سبحانه وتعالى يحب أن تُؤتى رُخَصُهُ ، فما دام قد رخَّص للمسافر بالإفطار فعليه ذلك ، لأن الصيام في السفر وفي الصحراء خاصة يكون شاقاً ومضنياً ، لكثرة ما يلاقي المسافر الصائم من إجهاد قد لا يحتمله ، ولذلك كانت حكمة الله تعالى ـ وهو الرؤوف بعباده ، الرحيم بخلقه ـ الترخيص بالأفطار في السفر ، إبعاداً للنفس عن المشاق ، وتمكيناً للجسم من الاحتفاظ بقواه . . وعلى هذا فالأَوْلى بِمَنْ خرج للجهاد أن يفطر ، لأن هذا الجهادَ ، أو القتال في سبيل الحق ، يتطلب استجماع كافة القوى الجسدية والمعنوية ، وإنها ولا شك تتعرض للفتور ، وقد تخور ، من عدم تناول الطعام والشراب ، فَدَرْءاً لإضعاف المجاهد ، وتمكيناً له

من القيام بواجبه وجب عليه أن يُفطر ، وهكذا الأمر في كل حالة تتطلب من الإنسان بذل الجهد ، وتوفير القوة ، في سبيل نفعه الشخصي أو في سبيل النفع العام ، ولكن بشرط أن يتقيَّدَ الإنسان في حدود الله وأحكام شريعته ، لا أن يتخذ من أي عمل أو مسعىً شاقٍّ يقوم به ذريعة لكي يفطر ، غير عابىء برُخَص الله سبحانه التي لا يجوز تجاوزها في أي حال من الأحوال ، لأن للإفطار في السفر شروطاً ينبغي التقيد بها حرفيّاً .

نعم ، قد أفطَرَ رسولُ الله «ﷺ» في الكُدَيْدِ لأنه ضارَ على سفرٍ ، ولكنَّ بعض المؤمنين من غير العارفين تحرّجوا من الإفطار . فهم في شهر رمضان ، شهر الصوم والتوبة والمغفرة ، ويريدون أن يصوموا كي ينالوا الثواب على هذا الصيام . . وأدرك الرسولُ «ﷺ» ما يعتمل في الأنفس ، فطلب إليه إناء ، واعتلى على راحلته في وضح النهار ، فشرب أمام الناس . فلما رأوه ، أفطروا .

وعادَ الرسولُ «ﷺ» يتابع طريقه في المسلمين ، فلقيه في محلة تدعى « نيف العقاب » ـ فيما بين المدينة ومكة ـ بعض ذوي قرابته أبو سفيان ، الحارث بن عبد المطلب ـ ابن عم النبيِّ «ﷺ» ، وعبد الله ابن أبي أمية بن المغيرة ـ ابن عمة النبيِّ «ﷺ» عاتكة بنت عبد المطلب ـ وهو أيضاً أخو أم سلمة (زوج النبي «ﷺ») من أمها . .

وكان قد خرج مع النبيِّ «ﷺ» من أمهات المؤمنين السيدتان أم سلمة وأم حبيبة (رضي الله عنهما) ، فجاء عبد الله بن أبي أمية إلى أخته أم سلمة ، يطلب إليها أن تكلم النبيَّ «ﷺ» كي يأذن له ولصاحبه بالدخول عليه في قبته ، فأتته أم سلمة وقالت : « ابن

عمك وابن عمتك يلتمسان الدخول عليك يا رسول الله » ، فأجابها : « لا حاجة لي بهما . فأما ابن عمي فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال » . .

لماذا يرفض رسولُ الله «ﷺ» ذلك وهو المسامحُ الكريم ؟! . .

إن عودةً إلى الماضي ، وإلى أيام مكة بالذات ، تُبين ما لاقى المسلمون عامة ، والنبيّ «ﷺ» خاصة من عنتِ قريش وصلافتها ، وما لجُّوا فيه من عذاب ومقاومة ، وما غالوا فيه من سخرية وأذى ، حتى لم يبق أحدٌ من المسلمين إلاّ ونالَهُ ما ناله من تلك المآسي . . وكان أبو سفيان ، الحارث بن عبد المطلب شاعراً ، فاستغلّ خبرته الشاعرية وانبرى يهجو النبيّ «ﷺ» بأقذع القول وأمرّه ، حتى وصلت به القحة لأن ينالَ منه في عرضه وشرفه ، مما آلم النبيّ «ﷺ» وساءه . . وأما عبد الله بن أبي أمية فقد تعمّد السخرية منه على مرأى من الناس ، يوم جاءت قريش تطلب منه المعجزات لتصدقه وتؤمن بنبوته ، فطلب منه يومذاك عبد الله ما ينم عن الحقد والإذلال ، إذ قال : « والله ما آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء ، فتعرج فيه وأنا أنظر إليك ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله أرسلك » . .

هذه المواقف الخبيثة ، من الحارث وعبد الله ، ومن كل رجال قريش ، لم تكن لتسيء الى شخص رسول الله «ﷺ» وحسب ، بل هي التي عرّضت المسلمين للأذى ، ووقفت في مسيرة الدعوة تمنعها من الانطلاق ، وتقيم الحواجز فيما بينها وبين الناس ، ولذا لم يكن

الرسول «ﷺ» لينسى أصحابها ، أو ليسامحهم ، لمجرد أن أتوا يلتمسون الدخولَ عليه ، فكان رفضه لذينك الرجلين . .

وخرج الخبرُ لهما : « إنَّ رسولَ الله «ﷺ» يأبى أن يراكما » . . فما كان من الحارث بن عبد المطلب بعد أن سمع ذلك ، إلاَّ أن أمسك بيد ابن صغير له يدعى جعفر ، كان معه ، وهو يقول : « والله ليأذنَنَّ لي أو لآخذنَّ بُنَيَّ ثم لنذهبَنَّ في الأرض فنموت عطشاً وجوعاً » . .

وعادت السيدة أم سلمة تخبر رسولَ الله بأمر ابن عمه ، وما عزم عليه وبرفقته صغيره ، فإذا بقلبه الكبير يرق لهما ، ويرحم جعفر الصغير - أوليس هو النبيُّ الذي أرسلَهُ الله تعالى رحمةً للعالمين - فيأذن لهما بالدخول عليه . . ويتقدم منه الحارث وعبد الله ، يبديان العذر عما أسلفا ، والندَم على ما فعلا ، ثم أعلنا إسلامهما بين يديه «ﷺ» ، فكانت هذه أول بركة من بركات المسير لفتح مكة . .

وعاد رسولُ الله «ﷺ» يتابع المسيرة ، فلقيه في الطريق عمُّهُ العباس بن عبد المطلب خارجاً في عياله إلى المدينة إذ كان العباس قد بقي في مكة يقوم على السقاية ، ولكن عندما عادَ أبو سفيان بن حرب بعد ذهابه للمدينة طالباً توثيق معاهدة الصلح ، وأخبر قريشاً بما جرى معه ، قام بينهم الجدلُ والنقاشُ ، فمنهم من يرى إيجاد وسيلة لمفاوضة محمد ، ومنهم من يرى = وكانوا الأغلبية = بأن محمداً سوف يزحف عليهم بما لا قِبَلَ لهم به ، وكان العباسُ يدركَ قوة المسلمين ، فآثر ألاَّ يدخل معهم في الجدال ، بل أن يتركهم ويخرج

في عياله ، علّه يجد هو الطريقة التي تنجي قريشاً مما ينتظرها ، فلما لقيَ النبيَّ «ﷺ» في الطريق ، وكان في محلة تدعى « الجُحفة » أمَرَ بأهله ان يُصحبوا إلى المدينة ، وعادَ هو مع جيش المسلمين الساعي إلى مكة . .

وكان هذا اللقاء مصادفة مباركة ، لما قام به العباس من دور هام ، في حقن الدماء ، وتيسير الأمور ، وإذلال العقبات في طريق الفتح . . فقد مضى جيش المسلمين حتى بلغ « مُرَّ الظهران » ، وهنالك أمر الرسول «ﷺ» بالنزول ، وكان الوقت عشياً ، فطلب إلى الناس أن يشعل كل واحدٍ ناراً له ، وكانوا عشرة آلاف نفس ، أوقد كل واحد ناراً ، تلبية لأمر رسول الله «ﷺ» . . وإنه ليس يسيراً علينا أن نتخيَّلَ منظرَ عشرةِ آلافِ نار موقدة ! ، ولا ما تحدثه ألسنة اللهب المتصاعدة من أنوار تسطع في جوف الظلمة فتحيل فضاءَ الصحراء متلألئاً وهّاجاً ، وأطرافها منيرة وضّاءة . كما أنه ليس يسيراً علينا أن نُقدّر ما يبعث هذا المنظر من رعب في القلب ، وخوفٍ في النفس ، لمن يكون عدوّاً لأصحاب هذه النيران . . إذ كان ذلك كله فوق ما نتصوره ، لأننا لم نره فعلاً ولم نصادفه . .

ونظَرَ العباس فيما حولَهُ ، وامتدت أنظارُه تلاحق الأبعاد التي تمتدُّ إليها الانوار ، فأيقنَ أن قريشاً هالكة لا محالة ، إن هي أصرَّت على الغيّ والعناد . .

نعم أدرك أبو الفضل ، العباس بن عبد المطلب ، أنَّ الخطر قد بات حالاً ، وهو لن يداهم قريشاً وحدها ، بل وأهل مكة

جميعاً ، مُنزلاً فيهم أفدَحَ الخسائر في الأرزاق والأعناق ، وهذه نتيجة حتمية للظلم والضلال ، إذ مهما تطاول الظالمون ، ومهما ظنوا أنَّهم قادرون ، فلسوف يأتي يوم يَسحق فيه الظلمُ أهله ، ويقضي القهر على صانعيه . .

وأخذَ التفكير بالعباس فيما يجب عليه فعله كي يوفر على المسلمين مشقة القتال ، ويؤمِّن في الوقت نفسه أهلَ مكة بإنقاذهم من الهلاك المحتوم . ويُفصحُ العباس عما دار في خلده من وساوس ساعتئذٍ ، فيقول : « واصباحَ قريش ! والله لئن دخل رسولُ الله «ﷺ» مكة عنوةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر » . . وأسرع من فوره يعتلي بغلةً بيضاء لرسول الله «ﷺ» ويخرج عليها ، راغباً في الذهاب إلى « الأراك » علَّهُ يجدُ حطّاباً أو صاحب لبن ، أو أي إنسان ، فيبعثه إلى مكة ، كي يخبر أهلها بمكان رسول الله «ﷺ» ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة » .

ولم يكن خروج رسول الله «ﷺ» قد بلَغَ قريشاً إلى هذه اللحظات ، فقد عميت عنها الأخبارُ ، بفضل تدبّر رسول الله «ﷺ» وقدرته على التخطيط ، فلم يصل إلى مسامعها شيء عن مسيرة جيش المسلمين ، ولكنها كانت تعيش في الوساوس والقلق ، فخرج في تلك الليلة ثلاثة من رجالها هم : أبو سفيان بن حرب ، وحكيم ابن حزام ، وبديل بن ورقاء ، في محاولة لاستطلاع أخبار المدينة ، ومعرفة ما إذا كان محمد قد خرج عليهم بجموع المسلمين .

وقد تكون غاية بديل مفترقة عن غاية صاحبيه في ذلك

الخروج ، فهو يتمنى الزحف وينتظره ، بينما هما يخافانه ويرجوان ألاّ يكون ، إلاّ أنّ ثلاثتهم اتفقوا على شيء واحد وهو معرفة الأخبار ، فكانوا يتحدثون فيما بينهم ، عندما اقترب منهم العباس ، وأنصت لهم ، فعرف من يكونون ، فإذا به يسمع أبا سفيان يقول : « ما رأيت كالليلة نيراناً قطُّ ولا عسكراً ! » . فيجيب بُدَيْلٌ : « هذه ربما خزاعة قد حَمَشَتْها(١) الحرب » . فيقول أبو سفيان : « خزاعة أذل وأقلُّ من أنْ تكون هذه نيرانها وعسكرها » . .

وإذ ذاك تقدم منهم العباس منادياً على أبي سفيان بكنيته : « يا أبا حنظلة » . .

وعرفَهُ أبو سفيان ، فردَّ عليه متسائلاً : أبا الفضل ؟

قال : نعم .

قال : مالك ، فداك أبي وأمي ؟

قال : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ في الناس ، واصباحَ قريشٍ والله !

قال : فما الحيلة ؟

قال : والله لئن ظفر بك ليضربَنَّ عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيَ بك رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ فأستأمنه لك .

وأردف العباسُ أبا سفيان خلفه ثم طلب إلى صاحبَيه أن يعودا إلى مكة . وجاءَ به إلى معسكر المسلمين ، وكان كلما مرَّ على نارٍ من

---

(١) حمشتها : حزمتها وأحرقتها .

نيرانهم يقولون : من هذا ؟ ولـكن عندمـا يرون بغلـة رسـول الله «ﷺ» والعباسُ على ظهرها ، يستدركون قائلين : « عم رسول الله «ﷺ» على بغلته » .. وما زال العباسُ على الدابة ، وأبـو سفيان خلفه ، حتى مـرَّ أمام عمر بن الخطاب (رض) ، فقال عمـر : « من هذا ؟ » .. ثم تقـدَّم يعترض الطريق أمـامَـهُ ، فلماً عرفـه حيّاه ، وسأله عمّن يصحب معه ، فلما وجده أبـا سفيان صرخ في وجهه : « أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد » ثم خرج يريد أن يأتـيَ رسولَ الله «ﷺ» قبلهما ، فأسرع العباسُ على البغلة فسبقه ، ولكن ما إن أدخَـلَ أبا سفيان على قبة النبـيِّ «ﷺ» حتـى كان عمـر في أثـره ، فدخـل يقـول للنبـيِّ «ﷺ» : « يا رسولَ الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني أضرب عنقه » ..

وتدخل العباس ، فقال : « يا رسولَ الله ، إني أجرته » .

ثم جلس العباس إلى رسولِ الله «ﷺ» يأخذ برأسه ويقول : « والله لا يُناجيه الليلة دوني رجل » ..

ولـم يسكت عمر بن الخطاب (رض) بل أخذ يلـحُّ في قتل أبي سفيان حتى يريح المسلمين من شـرِّه ، والعباس بن عبد المطلب يأبى عليه ذلك ، وما زالا يتراجعـان في شأن الرجـل ، حتـى قال رسول الله «ﷺ» :

« اذهب به يا عباس إلى عندك ، فإذا أصبحنا فأتني به » .

وبات أبو سفيان تلك الليلة في خيمة العباس ، حتى إذا كان الصباح ، أتى به إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فقال له الرسول الأعظم : « ويحك يا أبا سفيان ! ألم يَـانِ(1) لك أن تعلم أنه لا إلّه إلاَّ الله » .

قال أبو سفيان : « بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد علمت أن لو كان مع الله إلّه غيره ، لقد أغنى عني شيئاً بعد » .

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأْنِ لك أن تعلم أني رسولُ الله ؟ » .

قال أبو سفيان : « أما هذه ، فإنَّ في النفس منها شيئاً » .

والتفت إليه العباسُ مغضباً ، وقال له : « ويحك يا أبا سفيان ! أسلمْ واشهدْ أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسولَ الله قبل أن تُضرب عنقك » .

وتفكَّرَ أبو سفيان بن حرب قليلاً ، وهو مطرق إلى الأرض ، ثم رفع رأسه ونظرَ إلى النبيِّ ﴿ﷺ﴾ يشهد شهادة الحق : « لا إلّه إلا الله محمد رسول الله » .

وسُرَّ العباس بإسلام أبي سفيان ، فقال للنبيِّ ﴿ﷺ﴾ : « يا رسولَ الله ، إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً » .

وهنا يبرز العباس رجلَ حكمة وبصيرة . فقد رأى بأنه لو

(١) يأن : يحِنْ .

أتيحت لأبي سفيان ، وهو زعيم قريش ، وسيّد مكة ، ميزة عن غيره ، فإنها قد تكون إحدى السبل لدخول المسلمين مكة بلا مقاومة أو قتال ، إذ عندما ترى قريش بأن رسولَ الله ﴿ﷺ﴾ كان حليماً مع أبي سفيان فلم يقتله ، وكان كريماً معه فمنحه مكانة معينة ، فإنها سوف تطمئن على مصيرها ، وتستقبل النبيَّ ﴿ﷺ﴾ والمسلمين لا كأعداء فاتحين ، بل هُداةً ، مسالمين ، آمنين . . . ولعلَّ نية العباس كانت تلتقي مع تصميم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقد جاء لفتح مكة بدون إهراق نقطة دم أو قتل أحد إلاَّ بالحق . وإنه للرسولُ الحكيمُ ، الذي لا تفوته لفتةٌ ، فأدرك ما يرمي إليه عمه العباس من طلبه « أن يجعل لأبي سفيان شيئاً » ، فقال ﴿ﷺ﴾ : «نعم ، من دخل منزل أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابَهُ عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . . فلمعت عينا العباس بالفرح ، وقام يستأذن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يصحب أبا سفيان إلى آخر المعسكر ، فقال له الرسول ﴿ﷺ﴾ : « يا عباس ، احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم[2] الجبل حتى تمرَّ به جنود الله فيراها » ، وكانت غاية النبيِّ ﴿ﷺ﴾ من هذا الحبس أن يرى زعيم قريش ما عند المسلمين من قوة ، فيسارع إلى بني قومه فيحدثهم بما رأى بالعين المجرّدة ، وبالبيّنة الدالة ، لكي يعلموا أنه لا جدوى لهم من المقاومة إن ابتَغَوْا مقاومة .

واتخذ رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ كل أُهبة لدخول مكة ، ثم أمَرَ بالمسير ، فأخذت القبائل تمرُّ براياتها أمام العباس وأبي سفيان الذي حبسه في مضيق الوادي كما أمره رسول الله ﴿ﷺ﴾ . فكانت كلما

(٢) خطم الجبل : المكان الذي يضيق به الطريق .

مـرّت قبيلة ، سأل أبو سفيان :

- من هذه ؟

فيقول العباس :

- هذه سليم . .

فيقول أبو سفيان :

- مالي ولسُلَيْم . . ثم يسأل : ومن هذه ؟

- هذه مزينة ! .

- مالي ولمزينة . .

- ومن هذه ؟

- هذه قبيلة بني غفار . . و . . . و . . .

وما زالت القبائل والكتائب تمـرُّ ، حتى مـرَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ في كتيبته الخضراء ، وقد لبس أصحابها الـدروع والحـديد فلا يرى منهم إلاَّ الحَـدَقُ ، فـبُـهر أبو سفيان ، وسأل :

« سبحان الله ! ومن هؤلاء يا عباس ؟ » . .

قال : « هذا رسول الله ﴿ﷺ﴾ في المهاجرين والأنصار » .

قال أبو سفيان : « ما لأحد بهؤلاء قِبَـلٌ ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد اصبح ملـكُ أبن أخيك الغداةَ عظيماً » .

قال له العباس بغضب : « يا أبا سفيان ! إنها النبـوَّة » .

قال : « فنعم إذن » . .

قال العباس : « النجاء إلى قومك » . . هيًّا يا أبا سفيان إليهم بسرعة منجية وإلاَّ فهم هالكون . . واندفع أبو سفيان إلى مكة يصرخ بأعلى صوته : « يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » . .

وهرعت زوجه هند بنت عتبة ، أم معاوية بن أبي سفيان ، تأخذه من لحيته وشاربيه وهي تصيح : « يا آل غالب ! اقتلوا هذا الشيخ الأحمق ، ولا تدعوهم بل قاتلوهم دفاعاً عن أنفسكم وبلدكم قبح هذا الرجل من طليعة قوم »(١) .

وصاح فيها أبو سفيان : « ويلك ، اسلمي وادخلي بيتك » ، ثم عادَ ينادي في الناس : « ويحكم لا تفرقكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » . .

قالوا : قاتلك الله وما تغني عنا دارك ؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وتشاور الناس فيما بينهم ، فأجمعوا على أن أبا سفيان صادق اللهجة هذه المرة ، وأنه لا يريد بهم إلاَّ خيراً ، فانصرفوا يتفرقون ، منهم من دخل داره ، ومنهم من ذهب إلى المسجد ليحتمي فيه . .

---

(١) طليعة القوم : حارسهم أو سيدهم .

وتناهت صرخة أبي سفيان إلى مسامع أهل مكة جميعاً ، فطلب أبو قحافة والد أبو بكر الصديق ، وكان لا يزال على الشرك ، وقد بلغ من الكِبر عتياً ، طلب من حفيدة له أن تأخذ بيده ـ لانه يومها كان مكفوف البصر ـ وأن تصعد به على جبل « أبي قبيس » . فلما صارَ الشيخ هناك ، جلس وبجانبه صغيرته واقفة ترقب البعيد البعيد ، فسألها : « ماذا ترين ؟ » .

قالت : « أرى سواداً » .

قال : « تلك الخيل » .

قالت : « لقد انتشر هذا السواد » .

فقال : « تلك الخيل قد دفعت إلى مكة ، فاسرعي بي إلى بيتي » .

وفي هذه الأثناء ، كان جيش المسلمين قد انتهى الى « ذي طوى » ، وأشرف على أبواب مكة ، مزوّداً بأوامر رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، التي تمنع القتال ، إلاّ إذا فرض عليهم هذا القتال فرضاً ولم يجدوا إلى ردّه من سبيل ، أو وجدوا في دخولهم أحداً من جماعة باغية قد سمّاهم النبي ﴿ﷺ﴾ كُلاً باسمه ، فهؤلاء يقتلونهم ولو وجدوهم متعلقين بأستار الكعبة .

وفرّق الرسول ﴿ﷺ﴾ الجيش على مداخل مكة بشكل يمكنه معه أن يطبق عليها من جميع النواحي ، فجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر وأمره الدخول من ناحية الشمال ، وجعل خالد بن الوليد على الميمنة وأمره أن يدخل من أسفل مكة ، وجعل سعد بن

عبادة على فرقة الانصار وأمره أن يدخل من جانبها الغربي ، ثم قدّم بين يديه أبا عبيدة بن الجراح ليدخل هو «ﷺ» من أعلى مكة ، في ناحية « أذاخر » . .

وتقدمت فرق الجيش الإسلامي كل فرقة بطريقها ، فلما بلغ الرسول «ﷺ» « الأبطح » أمر أبا عبيدة بالتوقف ، ثم طلب أن تضرب له قبته ، فنزل فيها مع أهله ، ولما قيل له : « يا رسول الله ، ألا تدخل دارك » ؟ قال : « وهل أبقى لنا عقيل من دارٍ ؟ » . .

ومضت فرق الجيش تدخل مكة بدون أدنى مقاومة ، وقد أخذت الحمية سعد بن عبادة وهو يمرُّ أمام أبي سفيان بن حرب ، فقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » . . وتردَّدَ قولُهُ هذا بين المسلمين مستهجنين ، فنقلوه إلى النبي «ﷺ» لأنَّ فيه ما يخالف أوامره الصريحة بعدم القتال ، فجاءه نفرٌ من الصحابة المقربين ، كان فيهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنهم) يقولون : « يا رسولَ الله ، ما نأمن أن يكون لسعدٍ في قريش صولة » ! . فأمَرَ الرسول الحكيمُ ابنَ عمه ، عليَّ بن أبي طالب (رض) أن يأتي سعداً فيأخذ منه الراية ويعطيها لولده قيس وأن يقول أمام الفرقة :«اليوم يوم المرحمة».
ولقد كانت غاية النبي «ﷺ» ألاَّ يكون في نفس سعدٍ شيءٌ لانتزاع الراية منه ، فإن أعطيت لابنه فتكون كأنها أخذت منه إليه ، ولأنه أراد «ﷺ» ألاَّ يحمل راية الأنصار إلاَّ أنصاري حتى يكون لهم مقام الفتح برجالهم وقادتهم .

وظلت فرق جيش المسلمين في تقدمها وسط الأمان والهدوء ، ما عدا فرقة خالد بن الوليد ، إذ اعترضتها جماعة من قريش على رأسها صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، وهؤلاء كانوا من أشدّ الناس عداوة للنبي ﴿ﷺ﴾ والإسلام ، وهم الذين اشتركوا في تحريض بني بكر ليغيروا على خزاعة ، بل كانوا معهم في الإغارة ، وإنهم لم يكونوا أبداً راغبين في السلام ، ولا في دخول محمد ﴿ﷺ﴾ مكة ، بل ظلوا مكابرين وأبَوا إلاّ أن يعدّوا للقتال عدته ، حتى إذا مرت فرقة خالد بن الوليد ، انبروا يمطرونها بالنبال ، إلاّ أن الحظ لم يسعفهم اذا اتخذ خالد التدابير التي تحمي فرقته ، ثم أمرها بالانقضاض على هؤلاء المعتدين وإنزال أشدّ العقاب بهم ، وإنْ هي إلاّ فترة وجيزة ، حتى قتل منهم ما يزيد على اثني عشر رجلاً ، فلما رأى صفوان وعكرمة وسهيل ، أن الدائرة قد دارت عليهم وعلى جماعتهم لاذوا بالفرار تاركين أصحابهم للقتل ، ولكنّ هؤلاء لم يلبثوا إلاّ قليلاً وتفرقوا مولين الأدبار ، وبتفريقهم وهروبهم هدأ الوضع تماماً ، ولم تبدر من غيرهم أدنى إشارة بالمقاومة ، إذ أسلست قريش كلها القياد وهدأت راضية بالنجاة والأمان . .

وكان رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ يرقب من أعلى مكة مجرى الأمور ، فلما بُصرَ بتلماع السيوف في أسفل مكة غضب مُنْكراً أيّ قتال ، فأرسل من يستطلع له الخبر ، حتى إذا علم باستعداء تلك الجماعة من قريش على فرقة خالد ، قال : « قضاء الله خير » .

نعم كانت الخيرة فيما اختارَه الله سبحانه وتعالى ، كما ذكر النبي

«ﷺ» . وقد اختارَ الله تعالى لمكة أن تكون بلداً آمناً فيدخلها يوم الفتح ويصون فيها المقدسات والحرمات ، مذهباً عنها كلّ غلٍ وحقد ، مزيلاً كل أسباب العداوة والبغضاء ، فلا انتقام ولا قتل إلاَّ لمن بغى وأفسَدَ فهؤلاء كتب عليهم القصاص ليكونوا عبرة لغيرهم ولمن بَعُدَ عن الحق ورام باطلاً . ومن أجل ذلك كان أمرُهُ أيضاً «ﷺ» بأن تقتل جماعة باغية ، قام أفرادها بأعمال إجرامية تستوجب إهدار دمهم ، وانزال القصاص بهم ، وإن طالت المدة بين ارتكابهم لتلك الجرائم وبين اليوم الذي أمكن فيه الله تعالى لرسولِهِ أن يطالهم وينالَ منهم .

ولعلَّ التذكير السريع بأعمال هؤلاء الأشخاص يبين مدى فداحة ما ارتكبوه ، فأحدهم عبد الله بن أبي سرح ، كان قد دخل في الإسلام ثم ارتدَّ مشركاً . وقد لجأ يوم الفتح إلى عثمان بن عفان (رض) وكان أخاه في الرضاعة ، فغيّبه حتى هدأ الناس ، ثم أتى به رسولَ الله «ﷺ» يستأمنه ، فأعرض عنه الرسولُ «ﷺ» ولم يجب بشيء . وما زال عثمان يلحُّ في طلب الأمان له حتى قال النبي «ﷺ» : « نعم » . وقد رغبَ عليه وعلى آله الصلاة والسلام أن يقوم إليه أحد الصحابة فيقتله ، فلما ذكر ذلك لمن حوله ، قال أنصاري : « هلاَّ أومأت إليَّ يا رسول الله » . قال : « إن النبي لا يقتل بالإشارة » .

ومنهم عبد الله بن خطل ، وكان اسمه « عبد العزى » فلمَّا أسلم سمّاه رسولُ الله «ﷺ» « عبد الله » . وبعثه النبي «ﷺ» مصدّقاً ، أي يجمع الصدقات ، وكان معه مولى له مسلمٌ ، فلما

نزلا منزلا طلب إلى مولاه أن يذبحَ ويصنع له طعاما ، أي يُعد له طعاماً ، ثم نام ، وعندما أفاق ولم يجده قد أعدَّ له ما طلب عدا عليه وقتله عمداً ثم ارتدَّ إلى قريش مشركاً ، وأقام بعد ذلك في مكة يهجو النبي «ﷺ» بشعره . وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء النبي «ﷺ» ، وكانت إحداهما تدعى فرتنا والأخرى قريبة . فلما كان يوم الفتح قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي . أما جاريتاه فقتلت منهما قريبة ، واستؤمن رسولُ الله «ﷺ» لفرتنا فأمّنها .

ومن تلك الجماعة عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، فقد كانا من أشدّ الناس عداوةً للنبي «ﷺ» وللمسلمين . فأما عكرمة ، فقد أسلمت زوجه أم حكيم ، وهي ابنة عمه الحارث بن هشام . فلما كان الفتح هرب عكرمة وصفوان نحو ساحل البحر يريدان الذهاب إلى اليمن ، إلاَّ أنهما أعيدا والسفينة على أهبة إقلاعها ، إذ لحقت بعكرمة زوجه المؤمنة بعدما استأمنت له النبي «ﷺ» ، كما لحق بصفوان ابن عمه عمير بن وهب الجمحي بعد أن أخذ له الأمانَ من النبي «ﷺ» ، وقد أُتيَ بهما رسولَ الله «ﷺ» فأسلم عكرمة ، وطلب صفوان من رسول الله «ﷺ» أن يمهله بالخيار شهرين ، فقال له : « أنت بالخيار أربعة أشهر » .

ومنهم أيضاً الحويرث بن نُقيذ ، وقد كان يعظّم القول في النبي «ﷺ» ويكثر من أذاه في مكة . قتله علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . وقتل من هذه الجماعة أيضاً مِقْيَس بن صبابة . فقد كان له أخ يسمى هشام ، ظن رجل من الأنصار ، في غزوة « ذي قرد » ، أنه من العدو فقتله خطأ ، فأعطاه النبي «ﷺ»

ديّتَهُ ، ورغم ذلك عاد مِقْيس وقتل الأنصاري بأخيه ثم رجع إلى قريش مرتداً إلى الكفر . فكان جزاؤه القتل على يد رجل من بني قومه يدعى « نميلة بن عبد الله الليثي » .

ومن هؤلاء الذين أمَرَ الرسول «ﷺ» بقتلهم كعب بن زهير ابن أبي سلمى، فقد كان مثل أبيه شاعراً ولكنه سخّر شعره لهجاء النبي «ﷺ» والنيل من أعراض المسلمين ، وكان له أخ مسلم يدعى بجيراً ، فكان يؤذيه لإسلامه . فلما كان يوم الفتح هرب كعب من مكة ، وما زال متخفياً حتى عاد الرسول «ﷺ» إلى المدينة فجاءه مسلماً ، تائباً ، وقد أنشده قصيدته المعروفة بمطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » .

وفي هذه القصيدة مَدَحَ رسولَ الله «ﷺ» ، ومن جملة ما قال فيه :

نُبّئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنّي بأقوال الوُشاة ولم
أُذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويل
إن الرسول لَنُورٌ يُستضاء به
مهنَّدٌ من سيوفِ الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا

وأحدهـم أيضـاً هبّـار بن الأســود ، كان = من شدة أذاه للمسلمين = أن اعترض مع الحويرث بن نقيذ راحلة زينـب بنـت رسول الله «ﷺ» يوم هجرتها إلى المدينـة ، فنخس الراحلـة حتـى أجفلت وأوقعت ابنة الرسول «ﷺ» أرضاً . مما آذاها كثيراً فأسقطت جنينها ، وما زالت منذ يومها مريضة حتى توفاها الله تعالى . وقـد جاءَ هبّار إلى رسول الله «ﷺ» نادماً ، تائباً ، فعفا عنه .

وكان الحارث بن هشام ـ أخو أبو جهل ـ وزهير بن أمية ، من أشد الناس في كفرهما وفي الاعتداء على المسلمين ، وقـد هربـا يوم الفتح واختبآ في بيت أم هانيء ، بنت أبي طالب ، فجاءت رسول الله «ﷺ» واستأمنتهما ثم أتت بهما بعدها إليه فأسلما تائبين .

وآخر رجال هذه الجماعة هو وحشي بن حرب ، قاتل حمزة بن عبد المطلب (رض) غدراً يوم أحد . وقد هرب يوم فتح مكة إلى الطائف ، حتى كان دخول النبي «ﷺ» إليها ، فجـاءه مسلماً ، فقال له النبي «ﷺ» : « لا تريَنّني وجهك » . فخرج من حضرة النبي «ﷺ» وهام على وجهه في البلاد حتّى توفـاه الله سبحانـه في حمص .

أما النساءُ اللواتي أمر النبي «ﷺ» بقتلهـن ، فكانـت مولاة لعمرو بن هاشم بن عبد المطلب تدعى سارة ، فقد كانت تغني أيضاً بهجاء رسول الله «ﷺ» ، وقد استؤمِن لها فأمَّـنها وعفا عنهـا عليه وعلى آله الصلاة والسلام . ومن هذه النسوة كانت هند بنت عتبة ، زوج أبيْ سفيان بن حرب . وقد اشتهرت بأنها أكثر النسـاء عداوة

للنبي «ﷺ» وللمسلمين ، وكان من فعالها المعروفة أن مثلت بسيد الشهداء حمزة ولاكت كبده . وقد حاولت يوم الفتح أن تهيج قريشاً وتدفعها للقتال ولكنها خسئت ولم تفلح ، فارتدت إلى داخل بيتها تقعد ملومة مكظومة . وقد استؤمنت من رسول الله «ﷺ» فأمّنها .

فثلاثة رجال وامرأة لاقوْا القتل فقط ممن أهدر رسول الله «ﷺ» يوم الفتح دمهم ، وفي هذا أكبر دليل على ما يحمل الإسلام من تعاليم سامية في التسامح والعفو عند المقدرة .

على أنه لم يكن لمقتل هؤلاء الأفراد ، ولا لمقاتلة تلك الجماعة من قريش في أسفل مكة ، أيُّ أثر على مسيرة الفتح المبارك ، فهذه جيوش المسلمين تدخل مكة وهي تحمل معها الأمن والسلم ، وتنشر في ربوعها الهدوء والطمأنينة . .

لقد جاؤوها مسلمين ، يفتحون أحضانهم لمن آذوهم وهجّروهم ، ولمن تحزّبوا عليهم وقاتلوهم ، لا يرغبون في ثأر ولا يريدون انتقاماً بل ليناً في المعاملة ورأفة وتسامحاً . . وهذه هي العلاقات التي أرادَها النبيُّ الكريم بين جيشه الفاتح وبين أهل مكة . ولقد تشدَّدَ في هذه العلاقة وأرادها ، لأنها تنبع من وجدانه الإنساني ، وتفيض من نبوّته السمحاء . وإنَّ في تصرفه ، ومسلكه ، ما يفرض على جيشه الاقتداء به . فها هو الرسول الأعظم يدخل مكة ، لا كما يدخل الفاتحون من ذوي الكبرياء والجبروت ، بل بخشوع وتواضع ، مكبّاً على راحلته ، حتى ليكاد رأسه الشريف يلمس قَتَبَ الراحلة ، وفي ذلك الخشوع والتواضع آيات

الشكر لله تعالى على ما أنعم عليه من هذا الفتح المبين ، وما أنزل به من هذا الفضل الكبير .

لقد رأى رسول الله (ﷺ) في دخول جيش المسلمين مكة بلا كبير قتال ، نعمةً عظيمة أفاضها الله سبحانه عليه ، فكانت هذه النعمة دافِعه للتواضع ، والقيام بحقها وشكرها ، لأنَّ الشكر لكل نعمة لا يكون إلاَّ بنعمةٍ من قبيلها أو توازيها . فشكر القوة يجب أن يكون بالرفق والعدل ، وشكر الرفعة يجب أن يكون بالتواضع والتسامح ، وهذا ما برز به محمد بن عبد الله (ﷺ) عظيماً إلى ابعد حدود العظمة ، فقد أوتي القوة والرفعة في فتح مكة ، فكان تواضعه ، وكان عفوه ، أسمى من القوة والرفعة ، فشرّفها جميعها وشُرِّفت به ، لانه لا أحد في العالمين غيره اجتمعت له التربية الربانية الى التربية الذاتية لتجعله أعظم إنسانٍ في الخلائق ، فلا يبدر منه إلاَّ ذاك الذي شهده أهل مكة وجعلهم يشهدون له بأنه النبيُّ الحليم ، والرسول الكريم .

لقد عاد محمد (ﷺ) إلى البلد الذي عذَّبه وآذاه وهجَّره ، عزيزاً منتصراً ، ولكنَّ هذا كله قد ذهب إلى ما لا رجعة ، وها هي الجبال والأغوار التي تلقّى فيها الوحيَ تستقبله بين أحضانها فخورةً ، والشعابُ التي آوى اليها وقت الظلم تبتسم مُعْتزَّةً ، وها هو البلد الحرام يفتح له الأبواب مشرعةً ، ومسجده في البيت العتيق يدعوه لتثبيت دعائم الإيمان وإهلاك أصنام الشرك وأوثان الكفر ، فنزل عليه وعلى آله الصلاة والسلام من أعلى مكة ، على ظهر ناقته القصواء ، وأمامه لواؤه الأبيض ورايته السوداء « العقاب » ليفتح

مكة ويدخلها والمسلمين آمنين ، مطمئنين ، فسارَ به الركب ، وهو يقرأ « سورة الفتح » ليكون ، كما أرسله الله تعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً للعالمين . .

نعم نزل الرسول العظيم لفتح مكة ، شكوراً بقراءة « سورة الفتح » وانتهى إلى الكعبة الشريفة ، تحف به الناسُ من جميع الجوانب ، فاستلم الحجر الأسود وكبَّر ، فكبَّر المسلمون وراءه حتى ارتجَّت أركان مكة لهذا التكبير ، ثم راح يطوف على راحلته ، وهو في كل طوافٍ يستلم الحجر الأسود ، ويعود بعده إلى طواف جديد ، حتى أكمل سبعة أشواط . ولقد كان للعرب حول مكة أصنام كثيرة ، بلغت ستين وثلاثمئة صنم ، راح النبي أثناء طوافه يطعنها بمحجن في يده ، وهو يقول :

« جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

نعم هذا هو الحق من رب العالمين ، وما يبدىءُ الباطلُ وما يُعيد ؟! . .

فتلك الأصنام والأوثان التي عبدها العربُ ، ومثلهم عبدتها أمم وشعوب في الأرض كثيرة ، ها هي تهوي بضربة محجنٍ من يد رسول لله تعالى ، ونَبِيٍّ عزيز ، بُعِث ليمحوها من حياة الناس ، فلا يكون بعدها جاهلية ولا كفر أو شرك ، بل دينٌ لله الواحد الأحد ، يُسلم فيه الإنسان لربه ، ويسيرُ به على صراط مستقيم حتى تكون له السعادة في الحياة الدنيا ، ويفوز بالنعيم في جنات خلدٍ عرضها السموات والأرض في الحياة الآخرة . .

وهذا الحق هو الذي جاء محمد بن عبد الله «ﷺ» يفتح به ولأجله مكة ، فكان له هذا الفتح مؤيداً بنصر عزيز من الله سبحانه ، فينزل بعد الطواف حول البيت الحرام عن راحلته ، ويقبل إلى الكعبة الشريفة يريد دخولها ، فيتقدّم منه علي بن أبي طالب (رض) وقد جاءه بالمفتاح يضعه بين يديه ، ولكنَّ النبي «ﷺ» يدعو إليه حاجب الكعبة ، عثمان بن طلحة ، ويطلب إليه ان يفتح هو الباب ، فيمتثل عثمان ويدخل رسول الله «ﷺ» ومعه أسامة بن زيد ومؤذنه بلال . .

وينظر رسول الله «ﷺ» إلى رحاب الكعبة الشريفة ، فيرى الأصنام والأوثان ، ما تزال في جوفها ، فيأمر من فوره بإخراجها وتحطيمها ويتقدم هو «ﷺ» من تمثال حمامة من عيدان فيكسرها بيديهِ ويلقيها الى الأرض ، ثم ينظر إلى صورة ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) وقدنقشت على الجدارتظهرهما يستقسمان بالأزلام، فيقف أمامها مليّاً ويقول : « قاتلهم الله ، جعلوا النبيّين يستقسمون بالأزلام ! والله ما استقسما بها أبداً . ما شأن ابراهيم واسماعيل والأزلام ! ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين». فأمر بالصورة ، وبصور الملائكة على شكل إناثٍ ذوات جمالٍ كلها أن تطمس وأن تمحى وكان هُبلُ كبير آلهة قريش ما زال في داخل الكعبة ، فجرى تحطيمه ، وما زال الرسول «ﷺ» يأمر بإخراج الأصنام وتحطيمها حتى طهّر البيت الحرام منها ، وأتمَّ بذلك وفي أول يوم لفتح مكة القضاء على الوثنية في البيت الحرام ، ثم أغلق باب الكعبة على نفسه ، واستقبل الجدار

قبالة هذا الباب ، حتى إذا كان عنه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلّى .

وما كاد رسولُ الله «ﷺ» يفرغ من صلاته هذه ، حتى عادَ يدور في رحاب البيت ، مكبّراً ثم يفتح باب الكعبة الشريفة ويقف مخاطباً الناس ، فقال : « لا إلّه إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة او دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاجّ . ألا وقتل الخطأ مثل العمد ، السوط والعّصا فيهما ، الدية مغلظة فيها أربعون خلفة[1] في بطونها أولادها .

« يا معشر قريش ! إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الناسُ إنَّا خَلقناكم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقبائِلَ لِتعارفُوا ، إنَّ أَكرمكمْ عند الله أَتْقَاكمْ إنَّ الله عليمٌ خَبير . صدق الله العظيم ﴾ . .

« يا معشر قريش !! ويا أهل مكة ! ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » .

قالوا : « خيراً . . أخ كريم وابن أخ كريم » .

قال النبي «ﷺ» : « أقول كما قال أخي يوسف : لاَ تَثريبَ عَليْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغفرُ الله لكمُ وهوَ أَرْحَمُ الراحمينَ . اذْهبُوا فأنتم الطُّلقاء » . .

هذه هي العظمة وروعة التسامح ، فقد أمكن الله تعالى النبيّ

(١) خلفة : ناقة حامل .

«ﷺ» من رقاب قريش عنوةً ، فلم يبادلهم الأذى والعذاب والعداوة ، وكلٌ ما أرادوه به من شرٍ بمثله ، بل أعتقهم منها جميعها ، وأحلَّهم من كل الأخطاء وحرَّرهم من جميع الجرائم ، التي ارتكبوها بحقه وبحق أصحابه واتباع دعوته ، ولذا سُمُّوا الطُّلَقَاء ، فكان حقاً أولَّ فاتح في التاريخ ضرب مثلاً أعلى في هذا العفو ، وما أجمل العفو عند المقدرة ! .

لقد خطب رسولُ الله «ﷺ» في أهل مكة ، وأعطاهم الأمان ، مضمّناً خطبته بعض الأحكام الشرعية مثل القتل الخطأ ، وماهية الديّة ، ومركّزاً فيها على العلاقة الطيبة ، وهي التعارف بين الشعوب والناس ، إذ في هذا التعارف نفع للإنسانية وخير للبرية ، ولكن مهما عمل الإنسان ، وأقام من علاقات ، فإنَّ أعلى مرتبة يصل اليها وينال المكرمة على أساسها هي التقوى .

وبعد هذه الخطبة دعا إليه عثمان بن طلحة ، فأعطاه مفتاح الكعبة وقال : « خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة » .

ويروي عثمان بن طلحة بنفسه ، تسليم الرسول «ﷺ» له مفتاح الكعبة ، وهو يسترجع ذكرى أيامٍ مضت كان له فيها من محمد «ﷺ» مواقف معينة ، فيقول : « كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يومي الاثنين والخميس ، فأقبل الرسول «ﷺ» يوماً قبل هجرته إلى المدينة ، يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فاعترضتُه مغلظاً في القول ، حتى نلت منه ، فحَلُمَ عني وقال : « يا عثمان ! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت » . ورددتُ متطاولاً

عليه في الأذى فقلت له : « لقد هلكتْ قريشٌ يومئذٍ وذلّتْ » . فقال لي : « بل عمرت وعزّت يومئذٍ » . ووقعت كلماته في أذنيّ موقعاً أحسست بصدقها ، ثم تتالت الأيام حتى كان يوم الفتح ، فدعاني نبيُّ الله ﴿ﷺ﴾ إليه وقال لي : « يا عثمان ! أئتني بالمفتاح » . . فامتثلت مسرعاً أناوله مفتاح الكعبة وأنا أتذكر ذلك اليوم الذي اعترضته فيه ، وقال لي ما قال ، فلم أجرؤ على النظر إليه . وبعد أن أخذ المفتاح ، وعادَ فدفعه إليَّ قال : « خذوها خالدة تالدة . يا عثمان ! إنَّ الله تعالى استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » . فقلت : نعم يا رسولَ الله . وانصرفت من أمامه ، فاستوقفني وقال : « ألم يكن الذي قلت لك يا عثمان ، سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت » . فقلت : بلى يا رسولَ الله . واشهد أنك رسولُ الله صلى الله تعالى عليك وسلّم » .

هذا ما رواه عثمان بن طلحة عن مأثرة من مآثر رسول الله ﴿ﷺ﴾ .

وفي هذه الرواية ما يدلُّ الناسَ على صدق رسول الله ﴿ﷺ﴾ الذي يأتيه الوحي من السماء ، وما يبيّن تسامي النبي ﴿ﷺ﴾ عن سلوك البشر ، فلا يحفل بموقف عدائي ، كموقف عثمان بن طلحة ، بل يرتفع إلى ذرى الإنسانية التي تزخر بالتسامح والمحبة والخير . . وليس أدلَّ على هذا التسامي لرسول الله ﴿ﷺ﴾ إلاَّ معاملته ، ليس فقط لعثمان ، بل ولأهل مكة جميعاً ، وما منحهم من عفو عام ، وعفو خاص حتى لبعض الذين أهدر دمهم وطلب قتلهم .

وبعد أن أعطى رسول الله «ﷺ» مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة ، دفع السقاية إلى عمه العباس بن عبد المطلب ، وكانت من قبلُ لأبيه ، وقد قام بها العباس خير قيام ، ثم كانت لابنه عبد الله من بعده . وتلك السقاية كانت تقوم على ملء أحواض من الجلد بالماء العذب فيشرب منها الحجيج ، أو يطرح فيها تمرٌ وزبيب في بعض الأحيان ، فيأكل الناس .

وكان وقت صلاة الظهر قد حان ، فصعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذناً للصلاة . وتجاوبت أرجاء مكة لنداء الإيمان حتى يبقى هذا النداء خالداً على الأزل بأن لا إله إلاّ الله ، وبأن محمداً رسول الله . وهو النداء الذي يهْدي المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها إلى دعوة الفلاح والخير ، ويذكرهم بأن الله سبحانه وتعالى هو وملائكته يصلّون على النبي ، فأولى بكم أيها المؤمنون أن تصلّوا عليه وتسلّموا تسليماً .

وصلّى النبي «ﷺ» بالمؤمنين ، ثم نادى مناديه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلاّ كسره » . وبعد هذه المناداة لإزالة كل معالم الشرك والكفر في مكة ، بعث النبي «ﷺ» سراياه لتحطيم الأصنام في كل ناحية وجدت بها حول مكة ، وقد كان العرب قد اتخذوا لهم أصناماً كثيرة ، وجعلوا لها بيوتاً ، يعظمونها فيها ، ويهدون إليها ، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة ، فذهبت تلك السرايا تكسّر الأصنام وتمحو كلّ أثر لها حتى يستقر الإسلام ديناً لله وحده في جزيرة العرب .

وأتى رسولُ الله «ﷺ» بعد ذلك الصفا يدعو الله سبحانه ، على ما أنعم عليه وأجزاه به من فتح مبين . وكان الأنصارُ يرون كل ما يجري ، فلمّا انصرف النبي «ﷺ» الى الدعاء على الصفا ، راحوا يقولون فيما بينهم : « أترون أنَّ رسولَ الله «ﷺ» إذ فتح الله أرضه وبلده يقيم فيها ؟ » . .

لم يكن تهامسُ الأنصار فيما بينهم إلاَّ حباً برسول الله «ﷺ» ورغبةً أكيدة في ألاَّ يتخلى عنهم ، حتى تظل لهم المكرمات بجواره ، والاعتزاز بالإحاطة به . وقد عرف رسولُ الله «ﷺ» بعد إتمامه الدعاء مخافتهم تلك ، فقال لهم : « معاذَ الله ! المحيا محْياكم والمهات مماتكم » . . فسلام الله عليك يا رسول الله ما أعظمك وما أوفاك . .

فأيُّ جانب من جوانب حياة محمد «ﷺ» ، لا يحفل بالعظمة . . أوليس الوفاء هو أحد عناصر العظمة في حياة الإنسان ؟ وهل أعظم من وفاء محمد بن عبد الله «ﷺ» عندما يؤثر البقاء في المدينة ، بين أولئك المؤمنين الذين ناصروه ، رغم ما يحمل هذا البقاء من تخلٍّ عن الموطن مكة حيث موطن الآباء والاجداد ، ومثوى الأهل والأحبة ، وحيث نشأ وترعرع وتلقّى الوحي من السماء ! هذا الوفاء وما فيه من التضحية بالمشاعر الشخصية ، هو الوفاء المحمدي ، فكان قراره «ﷺ» بأنه سيعيش بين الأنصار حتى ما دام فيه عرقٌ ينبض بالحياة ، حتى إذا توفاه الله سبحانه وتعالى ومات ، طلب أن يدفنوه في أرضهم ، لأن قوله صريحاً وواضحاً للأنصار : « المحيا محياكم والمهات مماتكم » .

وعادَ رسولُ الله «ﷺ» من الصفا ، فجلس في المسجد ، يأتيه الناسُ مبايعين على الإسلام ، وداخلين في دين الله أفواجاً . ولقد استقبل «ﷺ» أولاً الرجال في تلك المبايعة ، يسلمون على يديه مهتدين ، وكان أن تقدم أحد الرجال ، فلمّا صار بين يديه أخذته الرعدة ، فقال له النبي «ﷺ» « هون عليك ، فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » . وكان ممن بايعه في ذلك اليوم على الإسلام ، معاوية بن أبي سفيان و ابو قحافة ، عثمان بن عامر التيمي (والد أبي بكر) ، فقد ذهب الصديق وجاء بأبيه ، فأعلن أبو قحافة إسلامه يوم الفتح ، بعد ان انقضت عشرون سنة على إسلام ابنه الصديق .

ولما فرغَ النبي «ﷺ» من مبايعة الرجال ، بايع النساءَ ، وكانت بيعته لهن أنْ وضعَ إناء ماء بين يديه ، ولمَّا أخذ عليهن البيعة واعطينه إياها ، غمس يده في الماء ثم أخرجها ، فغمست النساء أيديهن بعده ، فإنْ دلت بيعة النساء على شيء فإنما تدلّ على أن النبيَّ «ﷺ» لم يكن يصافح النساء ، ولا يمسّ امرأة إلاَّ إذا كانت حِلاًّ له أو ذات محرم منه ، فإن ذلك محرَّم في شرع الاسلام .

وكان بين النسوة ، وقد اجتمع عدد كثير منهنَّ ، هند بنت عتبة (زوج أبي سفيان بن حرب ، وأم معاوية) جاءت متنقبة ، متنكرة ، خائفة من النبي «ﷺ» لفعالها الشنيعة السالفة ، فلمّا اجتمعن إليه قال لهنّ النبي «ﷺ» :

« تبايعنني على ألاّ تُشركن بالله شيئاً » .

فقالت هند : «.وإنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنُؤْتيكَـهُ » .

وتابع النبي «ﷺ» من غير أن يردَّ عليها فقال : « ولا تَسْرُقْنَ » .

فقالت هند : « إنَّ أبا سفيان رجل شحيح يا رسول الله » .

فعرفها النبي «ﷺ» وقال : « وإنك لهند ؟ » .

قالت : نعم ! فأعف عما سلَفَ ، عفا الله عنك » .

وعاد يخاطب جميع النساء فقال : « وَلاَ تَزْنيْنَ » .

فعادت هند تقول : « أَوَتَزْني الحُرَّة ؟ » .

ـ وتضاحك بعض من كان في المسجد وهم يرون أن الرسولَ «ﷺ» لم يبد اعتراضاً على المرأة ـ .

وتابَعَ النبي «ﷺ» قوله للنسوة : « ولا تقتُلْنَ اولادكن بوأدٍ ولا إسقاط » .

وقالت هند : « ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت أعلم » .

قال «ﷺ» : « ولا تأتِينْ ببُهتانٍ تفترينَهُ بين أيديكن وأرجلكن »

قالت هند : « وإن إتيان البهتان لقبيح » .

قال «ﷺ» : « ولا تَعْصينني في معروف » .

فقالت هند : « ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف » .

تلك كانت بيعة النساء ، وهي بيعة هامة لأن الإسلام ساوى فيها بين الرجال والنساء ، وما دامت البيعة من الأمور العامة المهمة ، فإنه يكون قد فرض وجوب مشاركة المرأة للرجل في هذه الأمور . ومن هنا تتبدى أهمية بيعة النساء ولا سيما أيضاً فيما حفلت به من إقرار النبي «ﷺ» لمجموعة من القواعد العائلية والمجتمعية والإنسانية التي تبرز المرأة عنصراً فاعلاً في المجتمع ، يتوقف إلى حد بعيد ، على سلوكها وتصرفها ، صلاح هذا المجتمع أو فساده .

فالمرأة من خلال البيعة هذه ، يجب أن تكون مؤمنة بالله ، فلا تشرك به شيئاً ، وأن تكون أمينة على المال والحقوق فلا تسرق ، وأن تكون شريفة في عرضها فلا تزني ، وتحفظ النسل السليم ، ولا تقدم على قتل المولود ، إن جنيناً وإن بعد الولادة ، حفاظا على قدسية الحياة ، وصوناً لأبناء المجتمع من الهلاك ، وأن تكون صادقة لا تقول إلاَّ الحق بعيدة عن كل زور أو بهتان أو ادِّعاء باطل ، ولا تعصي الرسول «ﷺ» ـ والحاكم عامة ـ في معروف . . وذلك كله بتنزيل الخالق العزيز في محكم كتابه الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا النبيُّ إذَا جاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يبايعنَكَ على أَنْ لاَ يُشركنَ بالله شيئاً ولا يسرقن ولاَ يزْنين ولاَ يقتُلْن أَولاَدهُنَّ ولاَ يأتينَ ببهتانٍ يَفْتَرينه بين أيديهنَّ وأرجُلِهنَّ ولاَ يعْصينك في معروف ، فبايعهنَّ واستغفرْ لهنَّ الله إنَّ الله غفُورٌ رحيم ﴾ .

وإنَّ في بيعة النساء على هذا النحو ما يحفل بأوامر الحياة كلها ،

مما يعطي للمرأة الدور الهام والكبير في المجتمع، ويبرزها ذلك العنصر الفاعل في بناء الإنسانية السامية .

وفي مبايعة الرجال والنساء على الإسلام ، كان اطمئنان قريش على مصيرها قد اكتمل ، فلم يعد عندها أدنى خوف من النبي «ﷺ» ولا قلق على حياتها ، إذ رأت من عفوه ورحمته فوق ما كانت تتصور ، ومن حسن صنيعه أبعد مما كانت تعتقد ، فأقبلت على الإسلام ، رجالاً ونساءً ، قانعة راضية .

ولما كان الغد من يوم الفتح ، عثرت خزاعة على رجل من هذيل ، وهو مشرك ، فقتلوه . فغضب النبي «ﷺ» وقام في الناس خطيباً فقال : « يا أيها الناس . إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد[1] فيها شجراً . ولم تُحْلَلْ لأحدٍ كان قبلي ولا تُحَلّ لأحد يكون بعدي ، ولم تُحْلَلْ لي إلاَّ هذه الساعة غضباً على أهلها ثم رجعت كحُرمتها بالأمس ، فليبلّغ الشاهدُ منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يُحللها لكم يا معشر خزاعة . إرفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع . لقد قتلتم قتيلاً لأَدِيَنَّه ، فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النظَرين : إن شاؤوا فدمُ قاتله ، وإن شاؤوا فَعقْلُه[2] » .

---

(١) يعضد : يقطع .

(٢) العقل هنا مقصور فيه عدم مطالبة أهل القتيل بدم القاتل ، ولكن تدفع الدية لهم .

وأقام النبي ﴿ﷺ﴾ في مكة يهدي الناس للإيمان ، ويفقههم في الدين ، مطبقاً الاحكام الشرعية بصورة تامة وكاملة لا هوادة فيها ، ولا مراعاة ولا تهاون . فعندما أقدمت امرأة من قريش على السرقة ، وهي مخزومية اسمها فاطمة ، وثبتت عليها التهمة ، كان لا بد من وجوب تطبيق الحكم الشرعي عليها بإنزال حد السرقة وهو القطع وجابراً شرعيا للسرقة .

وقد فرضت هذه العقوبة لأن مفهوم السرقة في الإسلام هو أخذ المال خُفيةً عن مالكه أو نائبه على شرط أن يكون نصاباً عليه ، وأن يخرج من حِرْزِ مثله ، وأن لا تكون في هذا المال شبهة سواء أخذ المال ليلاً أو نهاراً ، وسواءٌ دخل السارق إلى المكان بالخلع أو بغيره ، مقنّعاً أو ظاهراً ، مسلحاً أو أعزلاً . فكل أخذ للمال على وجه الخُفية يعتبر سرقة ، ويوجب إنزال العقوبة بالسارق أي حد السرقة ، لأن هذا الحد لله تعالى ولو كان فيه حق لآدمي ، ولذلك لا يسقط بإسقاط صاحب الحق .

والآية على عقوبة السرقة صريحةٌ لقوله تعالى : « السَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقطَعوا أيْدِيَهُما » . ولأن موجب القطع ثبتَ ، فوجب من غير مطالبة ، بدليل حادثة المخزومية ، إذ قرَّر رسول الله ﴿ﷺ﴾ وجوب إنزال عقوبة قطع يدها .

ولكنَّ قريشاً ، كانت ما تزال حديثة عهد بالإسلام ، أفزعها الأمرُ وصعُبَ عليها كثيرا أن تقطع يدُ سيدة من نسائها ، فجاء نفرٌ من أشرافها إلى أسامة بن زيد ، يتوسّطون لديه حتى يستشفع بها عند رسول الله ﴿ﷺ﴾ لعلمهم بحبِّ الرسول ﴿ﷺ﴾ له ،

وذهب أسامة يفاتح النبي «ﷺ» بالأمر فغضب الرسول «ﷺ» وقال له . « أتشفع في حدٍ من حدود الله ؟ » .

واستدرك أسامة خطأه . فقال : « استغفر الله يا رسول الله » ! . . .

فلما كان العشي قام رسول الله «ﷺ» في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « ما بالُ أقوام يشفعون في حدّ من حُدود الله . فإنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . فوالذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

هذا هو التطبيق الأمثل لمن أراد أن يقيم مجتمعا صحيحاً تسوده العدالة والمساواة . وما هلاك الشعوب من جراء ما يستشري فيها من فوضى . وما ينزل بها من جور وفساد وظلم إلاّ بالتباعد عن العدالة والمساواة اللتين يُقضى عليهما بتضييع حدود الله . أو بعدم الاهتداء إلى هذه الحدود وجعلها الأسس للبناء العام . .

ولو ألقينا نظرة على واقع دول هذا العصر . لرأينا أنها جميعها ، حتى أكثرها تقدماً ومدنية ـ كما تدّعي ـ قد تحكمت فيها نزعات الظلم والتفرقة والفوضى والتسبُّب إلى أبعد الحدود ، لأن كافة المخارج التي أوجدتها لمعالجة أمراض مجمعاتها كانت لا تتعدى نظريات وضعية تلاقي القبول والإيجاب بصور متفاوتة ولكن من غير الاجماع على جدواها بصورة مطلقة ، بخلاف حدود الله عزَّ وجل التي لو طبقت لجعلت الناس جميعاً سواسية أمام القانون وفي تطبيق

النظام بحيث ينالُ كل ذي حقٍ حقه بلا منازع . .

ولعلّ الأحداث التي يشهدها العالم المعاصر تدلُّ على فشل الأنظمة السائدة فيه . فلو أخذنا مثلاً جزئياً ، حادثةَ انقطاع التيار الكهربائي في مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الاميركية ، وهي من كبريات مدن العالم وتبلغ أعلى المستويات في التنظيم وفي مظاهر التمدّن والتقدّم . . فتلك الحادثة ، إن دلّت على شيء هام ، فإنما تدلُّ على اللاأخلاقية الحادة التي ظهرت في الحرائق التي أشعلت في الأسواق ، والسرقات التي حلّت بالمتاجر ، وقضت في بضع ساعات ، على أموال تقدر بملايين الدولارات الاميركية ، وكان ذلك بفعل المواطنين في المدينة أنفسهم ، حتى قيل إن الشرطة ـ وهي المطلوب منها المحافظة على الأمن والنظام ـ عادت وشاركت في تلك الأعمال التخريبية . .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لحادثة معينة ، وفي مدينة معينة ، فما بالنا بما يقع في أقطار الأرض كلها من سرقات ، يقدم عليها الأفراد ، وتقوم بها العصابات المنظمة ، التي اتخذت لنفسها منظمات للإرهاب والسطو ، تارة على المصارف ، وتارة على المتاحف والمعارض ، وطوراً على البيوت الآمنة ، أو على المحلات والمكاتب أو أي مكان آخر ، ترى فيه غنيمة تسرقها أو تسلبها لأصحابها . . . وقد بلغت هذه العصابات حداً من القوة ، عجزت السلطات العامة ، في أغلب بلدان العالم عن إيقافها عند حدودها ، رغم كل الجهود التي تبذلها ، والمخططات التي تضعها للتصدّي لها والقضاء عليها .

ولو أخذنا الأمر من جانب آخر ، وفكرّنا بما يدفعه العالم من

نفقات باهظة على صناعة الأقفال والخزائن الحديدية ، المختلفة الأشكال والأنواع ، والمتقدمة في تقنيتها ، وكل ذلك من أجل حفظ الأموال والوثائق والسندات من السرقة ، لقدّرنا كم هي الأموال التي تهدر لمواجهة السرقة . . وكذلك الأمر بالنسبة لكميات الأجور والرواتب التي تدفع سنوياً ، للحراس من قبل السلطات والشركات ، والأشخاص ، والأفراد ، لصيانة أموالهم وممتلكاتهم من الأعتداء عليها بالسرقة . . فقطعاً إنَّ ما ينفق على صناعة الأقفال واقتنائها ، وما يدفع أجوراً للحراس ، يبلغ مئات الملايين من الدولارات سنوياً . . وهذه كلها هدر للجهد والمال بسبب فشل الأساس المعتمد لمنع السرقة . .

أما في الإسلام فإننا نجد الأساس السليم فيما شرَّع من حدِّ السرقة ، وقد قضي على هذه الجريمة ، في كل مرة طبق هذا التشريع في دنيا الناس ، وما نشهده اليوم في المملكة العربية السعودية لخير دليل وأوضح مثال على منع الناس عن السرقة ، إن لم يكن بالشكل المطلق والباتّ ، فبأعلى نسبة في العالم بدون جدال . .

هذا هو حدُّ السرقة ومدى أثره في حفظ المجتمع الإنساني في جانب واحدٍ من جوانبه الهامة . .

حدود الله تعالى ؟

في مكة المكرّمة أتمَّ الله سبحانه وتعالى حدوده . وقد طبّقَ رسولُ الاسلام ، محمد بن عبد الله (ﷺ) هذه الحدود ، كما رأينا في تطبيق حد السرقة على المخزومية ، رغم أنَّ قريشاً كانت ما تزال في

بداية عهدها بالإسلام ، وما هذا التطبيق ، إلاَّ لأن حدود الله سبحانه ، هي السياج الحق للدولة الإسلامية . فبإتمام هذه الحدود وإقامتها ، تكون إرادة الله تعالى ، قد حَصَّنت الدولة الإسلامية ، بالحصن الفكري ، وبالنهج العملي. . وهذه عين الرعاية من الله تعالى لهذه الدولة . فالله سبحانه وتعالى قد جعل رعايته التامة للدولة التي تطبق أحكامه السماوية ، وأحكام الدين الذي ارتضاه للبشرية في آخر عهودها من النضج والوعي : « إنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ الله الإِسْلاَم » .

ولكي تبقى هذه الرعاية الالّهية رضًى من الله سبحانه ورحمة ، كان لا بد للإنسان من أن يحّوط نفسه بالسياج الفكري ، وأن يحمي ذاته بالنهج العملي ، فإن لم يفعل فإنما يكون قد تعدّى على حدود الله ، وخرج على السياج العام . ومن يتعدَّ على هذه الحدود فجزاؤه العقاب الشديد في الدنيا ، يفرض على شكل عقوبة مادية تنزل بالمعتدي حتى يعود إلى سواء السبيل وفي الآخرة حسابُه على ربه عزَّ وعلا . . ومن أجل ذلك فإن هذا العقاب الشديد كان ينطوي على غايتين : فهو ، في ذاته ، زاجر قوي عن الحرمات (وفيها التَّعدي) ، وهو في عقوبتهالمادية تحرير للإنسان من جرمه ، إذ أنَّ هذه العقوبة تجبر الفعل القبيح الذي ارتكبه الإنسان . فيتبين جلياً أن التهديد يكون لكل غافل وظالم لنفسه ، عند إقامة حدود الله ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّى حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ .

فحدود الله تعالى هي إذن لصالح الفرد ، مثلما هي لصالح

الجماعة . ولذا فهي تشكل الأهداف العليا التي تصون المجتمع الإنساني . وقد أنزلها الله تعالى تشريعاً سماوياً ، مكرّسة بكتابه العزيز ، **ليكون لها تشريع سماوي ثابت ، غايتُه هداية الإنسان** وخيره المطلق . ومن هنا فإنّ هذه الحدود ليست من صنع الإنسان ، ولا يمكن أن تكون من صنع الإنسان ، بل إنها من أوامر الله ونواهيه ، فكانت ثابتة ، لا تتغير ولا تتبدل ، ولا يمكن أن يطرأ عليها أي تعديل .

واذا كان لا بد لكل مجتمع إنساني من أهداف عليا يكون فيها دوامه واستقراره وتقدمه ، فإن أهداف المجتمع الإسلامي العليا لا يمكن تحقيقها إلاَّ بتطبيق حدود الله . ومن هنا كان علينا أن نوضِّح أحكام هذه الحدود والتاريخ التي وجبت فيه هذه الأحكام .

فما هي هذه الحدود ، وما مفهوم كل منها ؟

إن أصلَ الحدِّ هو ما يقام بين شيئين فيمنع اختلاطَهما . فحدود الدار أو الأرض ما يميزها عن غيره ، وكذا حدود كل شيء ، هو ما يحيط به ويميزه عن غيره ويتميَّز به .

وقد تطلق الحدود ويُراد بها المعاصي لقوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ حُدُود الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا** ﴾ . وتطلق أيضاً على شرائع الله ومحارمه ، لقوله تعالى : ﴿ **وَتِلْك حُدُودُ الله ، ومَنْ يتَعدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسهُ** ﴾ ، فحدودُ الله تعالى هي محارمُهُ . .

والحدود اصطلاحاً هي عقوبات مقدرة شرعاً في معصية لتمنع من الوقوع في معصية مثلها .

أما المعاصي التي تستوجب الحدود أو إنزال العقوبات فهي ثمانية :

الزنا وقد فرض حدّه للحفاظ على صحة نسل الإنسان .

والقذف وحدّه للمحافظة على الكرامة الإنسانية .

والسرقة وحدّها للحفاظ على الملكية الخاصة .

والقتل العمد وحدّه للمحافظة على حياة الانسان وحرمة نفسه .

والردّة وحدّها للحفاظ على الدين .

وقطع الطريق وحدّه للحفاظ على الأمن .

والبغي وحدّه للحفاظ على الدولة .

وشرب الخمر وحدّه للحفاظ على العقل .

وهذه الحدود التي تعني العقوبات التي تنزل بالفاعل ، لا تطبق إلاَّ في المعاصي الخاصة التي يكون لله تعالى حق فيها ، فلا تطبق على غيرها ، ولذا لا يصح فيها العفو لا من الحاكم ولا من الذي اعتدى عليه أو على ماله ، فهي حق لله سبحانه ، ولا يملك أحد من الناس إسقاط هذا الحق بحال من الأحوال .

ولقد ضربنا مثلاً على تطبيق عقوبة السرقة أو حد السرقة فيما سبق ، فلنحاول الاهتداء سريعاً إلى الحدود الأخرى ، ثم ينتهي التركيز على حدّ شرب الخمر ، لما في الخمر من أحكام استدلَّ بها البعض للقول خطأ بإمكانية تطبيق الأحكام الشرعية في الإسلام على دفعات ، وليس تطبيقا كاملا في كل مرة يسودُ نظام الإسلام .

فأما عقوبة الزنا أو حد الزنا ، فهي ثابتة في قوله تعالى : ﴿ الزَّانيةُ والزَّاني فاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مائَةَ جَلْدةٍ ، ولاَ تأخُذْكُم بهما رَأْفَةٌ في دِيْنِ الله إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بالله واليومِ الآخرِ ، ولْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ . .

وحد الزنا عام ، لأن لفظة « الزاني » و« الزانية » من الألفاظ المفردة التي يراد بها العموم أو الجمع ، ولذا فهذا الحدّ يشمل المحصن وغير المحصن من الرجال والنساء على السواء . ويثبت الزنا بأحد ثلاثة أمور : الإقرار ، والشهادة من أربعة رجال مسلمين أحرار عدول بدليل قوله تعالى : ﴿ واللاَّتِي يأْتِيْنَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاستشهدوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً منكم ﴾ ، والحبلُ عند المرأة . ولكلٍ من هذه الأمور الثلاثة أحكامه الخاصة في الفقه . .

وأما عقوبة القذف فهي من الناحية المادية ثمانون جلدة ، ومن الناحية المعنوية عدم قبول شهادة من يرمي بالقذف كذباً ، واعتباره فاسقاً .

والقذف هو الرمي بالزنا ، سواء كان رمياً للرجل أو للمرأة ، وقد وجب على من يرمي بالزنا أن يأتي بأربعة شهود من المسلمين احرار عدول ، كما في حالة الزنى ، فإن قذف ولم يأت بالشهود ، كان قذفه بهتاناً وأنزل به حدّ القذف أو العقوبة .

وقذفُ المؤمنات الغافلات المحصنات حرامٌ قطعاً . ولكنَّ من قذف زانية وأتى بشهداء فلا يُعد قاذفاً . وقد جاء تحريم القذف في الكتاب والسنة . ففي الكتاب هو في قوله تعالى : ﴿ والَّذين

يرمون المحْصنات ، ثُمَّ لَمْ يَأتُوا بأرْبَعَةِ شُهداءَ ، فَاجْلِدوهمْ ثمانين جَلدة ، ولا تقبلوا لَهمْ شهادةَ أبداً ، وأولئكَ هُم الفاسقون ﴾ .وفي نوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين يرمون المحْصنات الغافلات المؤمناتِ لُعنوا في الدُّنيا والآخرةِ ولَهُمْ عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

وروى عن النبي «ﷺ» أنه قال : « إجتنبُوا السَّبْعَ الموبقات » . قالوا : « ما هُنَّ يا رسولَ الله ؟ » . قال : « الشِّرك بالله ، والسِّحر ، وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق ، وأكلُ الرِّبا ، وأكلُ مال اليتيم ، والتولِّي يومَ الزَّحف ، وقذفُ المحْصنات الغافلات » .

وهنا يردُ اللِّعان بدلاً عن القذف ، وذلك بأن يرمي الرجلُ زوجته بالزنى ، لا غيرها من النساء . فيجب عليه في هذه الحال أن يحلف أربع مرات أنه صادق فيما يرمي به زوجته . وقد نزل قول الله تعالى في اللِّعان : ﴿ وَالَّذينَ يَرمونَ أزواجهُمْ ولَمْ يكنْ لهمْ شهداءُ إلاّ أنفسهم فشهادةُ أحدهم أربعُ شَهاداتٍ بالله إنهُ لمنَ الصَّادقين والخامسةُ أنَّ لعنةَ الله عليهِ إنْ كانَ مِنَ الكاذبينَ ﴾ . ويمكن للمرأة أن تدفع عنها التهمة بأن ﴿ تَشهدَ أربعَ شَهاداتٍ بالله إنهُ لمنَ الكاذبينَ والخامسةُ أنَّ غضبَ الله عَليهَا إنْ كانَ مِنَ الصَّادقينَ ﴾ .

ولقد نزلت آيات حد الزنى ، وحد القذف ، قبل غزوة بني المصطلقأو اثناءها وهي الغزوة التي عقبهاحديث الإفك وطبّق فيها الرسول «ﷺ» حد القذف على ثلاثة أشخاص ارتكبوا إثم القذف .

والملاحَظُ أن العقوبة نزلت بمن ثبت عليهم الكلام ، وقام الدليل على تصريحهم بالقذف ، بخلاف عبد الله بن أبـيّ بن أبي سلول ، الذي تولى كِبْرَ الأفك ولكنه كان داهية ، مخادعاً ، كان يوعز بالإثم بين الناس وهو متكتم لا يُظهره صراحة ، مثله مثل المنافقين في كل زمان ومكان ، قد يسلمون من العقاب على آثام يرتكبونها ولكـنَّ مصيرهم الى الله سبحانه وتعالى ، فهو أعلم بما تُخفي الأنفس وبما في الصدور .

وأما حد القتل فيجب التفريق فيه بين أنواع القتل وهي أربعة : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ ، وما أجري مجرى الخطأ . فعقوبة قتل العمد هي قتل القاتل جزاء على ما ارتكب من جريمة ، ما لم يَعْفُ أولياء المقتول ، فإن عفوا فَديةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أهله إلاَّ أن يَصَّدَّقوا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ .

وقد قال النبيُّ ﴿ﷺ﴾ : « العَمْد قَوَدٌ إلى أن يعفوَ وليُّ المقتول » .

وعقوبة القتل شبه العمد فدية مغلظة ، وهي مئةٌ من الإبل (أو ما يقابل ثمنها اليوم) ، ولا يقتل صاحبه لأن القتل شبه العمد هو ما يقصد به الإيذاء دون القتل ،فإن أفضى فعل الإيذاء إلى قتل، وقع على القاتل حد القتل شبه العمد ، ويقال له : « عمدُ الخطأ وخطأ العمد » لاجتماع العمد والخطأ فيه .

وقد قال النبي ﷺ : « قتل شبه العمد مغلظ مثل العمد » .

وعقوبة القتل خطأ تختلف باختلاف أحد نوعيه :

فالأول هو أن يأتي الشخص فعلا لا يريد به إصابة المقتول فيصيبه ويقتله ، كما لو كان يصطاد فأصاب إنسانا فقتله ، وعقوبته دفع الدية وهي مئة من الابل وعتق رقبة ، في الكفارة ، فإن لم يجده فصيام شهرين متتابعين .

والثاني أن يقتل أحدٌ شخصا يظنه كافرا حربيًا ، ويتبين أن هذا الرجل قد أسلم وكتم إسلامه . فعقوبة هذا النوع الكفارة فقط لا الدية . ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَما كانَ لِمُؤمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤمِناً ، إلاّ خَطأً ، ومَنْ قَتَلَ مُؤمناً خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنة ودِيَةٌ مسلمةٌ إلى أهلهِ إلاّ أَنْ يَصدَّقُوا ، فإنْ كانَ مِنْ قومٍ عَدوٍّ لكم وهو مُؤْمِنٌ ، فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ، وإنْ كانَ مِنْ قومٍ بينكمْ وبينهُمْ ميثاق فدِيَةٌ مسلَّمةٌ إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبة مُؤْمنةٍ ، فمن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شهرينِ متتابعينِ تَوْبةً مِنَ الله ، وكانَ الله عليماً حكيماً ﴾ .

وأما ما أجري مجرى الخطأ فهو أن يصدر من الشخص فعل بغير إرادته فيتسبب عنه قتل شخص ، كما لو لعب أحد بالسلاح فانفلتَ منه طلقٌ جبراً فقتل إنساناً ، أو كما لو افلتت مكابح السيارة فدهست شخصاً وقتلته . . فحكمهُ حكمُ النوع الأول من القتل الخطأ أي أن الدية فيه مئة من الابل ، وتجب فيه الكفارة وهي عتق رقبة ، فإن

لم يجد فصيام شهرين متتابعين . والقتل يثبت بالإقرار والبيّنة . .

فالقصاص شرُعَ وجوبُه في السنة الثانية للهجرة إذ نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أيها الَّذينَ آمنوا كُتِبَ عليكم القصاصُ في القتلى ، الحُرّ بالحُرِّ ، والعَبْدُ بالعبدِ ، والأنثى بالأنثى ، فمنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخيهِ شيءٌ فاتِّبَاعٌ بالمعروفِ وَأداءٌ إليه بإحسانٍ ذلكَ تخفيفٌ مِنَ رَبِّكُمْ ورحمةٌ ، فمن اعتدَى بعد ذلك فلهُ عذابٌ أليمٌ ، ولكم في القصاص حياةٌ يا أولِي الألباب لعلَّكمْ تتَّقُونَ ﴾ .

ومن مجمل أحكام القتل يستنتج بأن القتل محرَّمٌ بغير حكم شرعي ، وأما القصاص بحكم القصاص فإنّه يجوز ، وقد استباحت خزاعة أن تأخذ بثأرها من بعض بني بكر عند الفتح ، فقتلت ، فنهاها النبيّ نهياً قاطعاً ، ودفع دية القتيل . ولقد قال النبي (ﷺ) : « إن أعدى الناس من قتل بذحول الجاهلية » (أي بأحقاد وثارات الجاهلية) .

ثم تتابعت أحكام القرآن تبيِّن حدود الله سبحانه ، وجعلت حد المرتد القتل . والمرتد هو من رجع عن دين الاسلام . فمن ارتدَّ من الرجال أو النساء ، وكان عاقلاً بالغاً دعي إلى الاسلام ثلاث مرات ، وضُيِّق عليه ، فإن رجع نجا وإلاَّ قُتل . ولذلك أمر النبيّ (ﷺ) بقتل بعض المرتدين وذوي الجرائم يوم فتح مكة ، ولم يقتل منهم إلاَّ أربعة ، وتاب الأحد عشر الآخرون فنجَوْا . قال الله تعالى : ﴿ وَمنَ يَرْتدِدْ منكمْ عن دينهِ فيمتْ وهوَ كافرٌ

فأولئك حبطت أعمالهمْ في الدنيا والآخرةِ وأولئكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيهَا خالدون ﴾ .

وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : « من بدّل دينه فاقتلوه » . والتوبة تقبل من المرتدّ إذا لم تتكرر ردّتُه . والذي تكررت ردّتُه لا تقبل توبته لقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين آمنوا ثمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمنوا ثُمَّ كَفروا ، ثم ازدادوا كُفراً لَمْ يكن الله ليغفر لهمْ ولا ليهديهُمْ سبيلاً ﴾ .

ويجيء حدُّ أهل البغي فرض القتال عليهم حتى يرجعوا . وأهل البغي هم الذين خرجوا على الدولة الإسلامية ـ والخارجون على القانون في كل دولة دستورُها الإسلام ـ ولهم شوكة ومنعة ، أي هم الذين شقوا عصا الطاعة على تلك الدولة وشهروا في وجهها السلاح معلنين العصيان والحرب . فعلى الخليفة أو الحاكم أن يراسلهم فيسألهم ما ينقمون عليه ، فإن ذكروا مظلمة أزالها ، وان ادَّعَوا شُبهة كشفها ، وإن أُلبسَ عليهم فاعتقدوا أن ما فعله مخالف للحق ، أبان لهم دليله وأظهر لهم وجه الحق ، فالإسلام أمرَ أن يشهر السيف أو السلاح في وجه الحاكم إذا رأت الرعية منه كفراً بواحاً عندهم فيه من الله سبحانه برهان ، أو إذا لم يطبق أحكام الإسلام . فإن خرجوا بشيء من ذلك إجابة لطلب الشرع فعليه أن يبيّن لهم وجه ما يشتبهون فيه أو يعود عن خطأه ، فإن رجعوا عن البغي تركهم لأنه لا يجوز بقاؤهم على خروجهم ، وإن لم يرجعوا قاتلهم وجوباً ، ولكن لا قتال حرب وإنما قتال تأديب . ولذا يَحْرُم قتالُهم بما يؤدي إلى إفنائهم

أو إتلافهم إلاَّ لضرورة . وإن الأصل في حد البغاة قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ طَائِفتانِ مِنَ المؤْمنينَ اقتتلواْ فأَصْلِحُوا بينهُمَا ، فإِنْ بَغَتْ إِحداهُمَا عَلَى الأُخْرَى فقَاتِلُوا التي تَبْغِي حَتَّى تفيءَ إِلى أَمْرِ الله ، فإِنْ فاءَتْ فَأَصْلحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وأَقْسِطُواْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطينَ ﴾ .

وإذا كان في الرعية من يخرج على الطاعة فيكونوا بغاةً طمعا في الحكم . فإنَّ فيها أيضاً من يخرج طمعاً في السلب والنهب وترويع الناس وهم قطاعُ الطُّرق الذين يتفقون على القتل والسرقة وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة . فهؤلاء فعالُهم كلها إفسادٌ وسعيٌ وراء الشر ، والعقوبات التي تنزل بهم أو ما يسمى حد الحرابة : القتل أو القتل والصلب ، وتقطيع الايدي والأرجل من خلاف ، والنفي من الأرض . وتكون العقوبة بحسب الذنب المرتكب ، ويحصر هذا الذنب في ثلاثة : القتل ، وأخذ المال وإخافة السبيل فمن قَتَلَ وأخذَ المال قُتِلَ وصُلِبَ ، ومن قتل ولم يأخذ المال قُتِلَ ، ومن أخذ المال ولم يقتُلْ قُطِعَتْ يدُه ورجلُه من خلاف ، وإن أخاف السبيل ولم يأخذ مالاً يُنفى من الأرض . . فإن لم يفعلوا غير إخافة السبيل فلا حدَّ عليهم ، لأن الحدَّ عقوبة مقدَّرة بحسب النص ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يحاربونَ الله ورسولهُ ويسعونَ في الأرض فَسَاداً أَنْ يُقتلُواْ أو يُصلبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْديهِمْ وأَرْجلهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفوا مِنَ الأرضِ ﴾ . . وقيل إن جماعة من « العرنيين » قتلوا راعي رسول الله (ﷺ) واستاقوا النَّعَم فبعث في أثرهم إحدى السرايا ، فأعادتهم ، وأنزل بهم

حدُّ قُطَّاع الطُرق وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة .

ويبقى من حدود الله السماوية . حدُّ شُرب الخمر ، وهو ما اختلفت فيه الآراء بين اتجاهين : اتجاه أول يقول بوجوب تطبيق الأحكام الشرعية ، بما فيها الحدود تطبيقاً كاملاً إذا ما أريد إقامة المجتمع الاسلامي الصحيح ووفقاً لأحكام الكتاب والسنَّة ، واتجاه آخر يقول بإمكانية تطبيق الأحكام الشرعية بصورة تدريجية مستندين في ذلك إلى ما نزل في القرآن الكريم من آيات تتعلق بالخمر ، ومعتبرين هذه الآيات بمثابة تحريم تدريجي جاء على درجات ولم يكن دفعة واحدة ، ومثل هذا الاتجاه القائم على فهم معين لأحكام الخمر إن هو إلاّ تفسير خاطىء لما تضمنته الآيات القرآنية من معانٍ وخلافاً لما حصل في تاريخ الإسلام ، إنْ في عهد الرسول ﴿ﷺ﴾ ، وإنْ في عهد الفتوحات الكبرى . . ولا نخال أحداً يروم اتجاه التطبيق التدريجي إلاّ لغاية أبعد ما تكون عن الإسلام ، ألا وهي ترقيع أنظمة الحكم التي يطبقونها في بلدانهم ، وتعاملاً مع القوانين الوضعية التي تسود هذه الأنظمة الأرضية هذا إن اعتبرنا أن القانون هو السيد في نظام حكم ظاهره الإدعاء بالاسلام وباطنه أكثر ما يكون بُعداً عن الإسلام . ولذا ، ودرءاً للمفاهيم الخاطئة في تطبيق الأحكام الشرعية ، كان لا بد من توضيح معاني الآيات التي ذكرت الخمر والمُسكر على السواء ، حتى نهتدي الى حكم تحريم الخمر ، وهل كان بمنهج متوالٍ أم بمنهج واحد ثابت ، وبآيةٍ واحدة لا غير ! . . فقد وردت في القرآن الكريم ، وفي « سورة النحل » الآية المباركة : ﴿ وَمِنْ ثمرات النَّخيل والاعناب تتخذون منهُ سكَراً ورزقا

حسناً ، إنَّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يعقلونَ ﴾ . ففي هذه الآية ذكر الله تعالى رزقاً حسناً في مقابل رزقٍ سيِّىء . فوضع « السكر » ، وهو كل شراب مسكر يمكن أن يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب مقابل الرزق الحسن الذي يؤخذ من ثمرات النخيل نفسها كالخلِّ والشراب والرطب والتمر والزبيب وغيرها ، وفي هذا التقابل تلميح صريح إلى أن السكر سيِّىء . لأن ما يضاد الرزق الحسن يجب أن يكون رزقاً سيئاً . إذ أنَّ الرزق الحسن هو شيء آخر ومختلف تماماً عن الرزق السيِّىء .

فهنا جاءت مجرد لمسةٍ من بعيد ، للضمير المسلم الوليد ، ليس فيها أي تحريم للخمر وإنما هي إشارة فقط إلى أن الشراب المسكر من بعض الثمرات هو رزق سيِّىء.

وكان نزول الآية في مكة قبل الهجرة . .

ثم نزلت بعد ذلك في المدينة بعد تساؤل والحاح الصحابة عن الخمر والميسر = الآيةُ المباركة في « سورة البقرة » : ﴿ يَسألونكَ عَنِ الخمرِ والمَيْسِرِ ، قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ وإثمهُمَا أكبرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ . فإذا كان الناس يتساءلون جاء الجواب من رب العالمين أنَّ ما يسألون عنه هو الضرر بعينه . لأن معنى « الإثم » الضرر ، مقابل كلمة « منافع » . فيكون الضرر في الخمر والميسر أكبر بكثير من النفع . إذن فالله سبحانه وتعالى يذكر الضرر والنفع ، وليس في ذلك لا تدليل ولا تلميح ولا إشارة أو إيماء لتحريم أو تحليل . فهو بيانٌ من الله تعالى للجماعة الإسلامية بأن ما

يسألون عنه ، هي أشياء ضارة ومن رأى الشيء الضار فعليه الابتعاد عنه من أجل نفعه ونفع الجماعة على السواء ، فلا يهدر المسلم قواه في أشياء ضررها أكبر بكثير من نفعها .

ثم كان بعد ذلك تنبيهٌ من الله العزيز ، أنَّ على المؤمنين ، وهم من يريد بهم الخير ، ألاَّ يأتوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون ، وكان ذلك التنبيه بتعبير قرآني رائع ، واضح المعنى ، سهل الفهم ، ليس فيه لبس ولا تعقيد ، وهو قولهُ تعالى في « سورة النساء » : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ .. فإذا كانت الصلاة هي صلة المخلوق بالخالق ، وهي الصلة التي يبرهن فيها هذا المخلوق عن عبوديته لذلك الخالق العظيم ، فإنَّ على المؤمنَ أن يحترم قدسية هذه الصلاة ، التي تجعله في حضرة الله تعالى ، واقفاً بين يديه على أهبة الاستعداد ، وبكامل القوى والمدارك ، غير غافل عمَّا يقول أمام هذه الحضرة القدسيّة السنيَّة ، وعالماً بما يصدر عنه أمام ذي العزة والجلال .. وحريٌّ بنا أن ننطلق من واقع الحياة التي نعيشها ، فندرك كم يكون اهتمامنا إنْ في الهندام ، أو في اللياقة ، أو في الانتباه والحذَر عندما نتحدث إلى صاحب شأن من بني الإنسان ، أو لمن نريد منه قضاء حاجة . فإننا نتدارك كل نبرة تصدر عنا ، وكل عبارة نريد أن نتفوه بها .. فإذا كان هذا شأننا مع إنسان مثلنا لا يتعدى كونه صاحب نفوذ أو مقدرة معينة ، فكيف يجب أن يكون شأننا ونحن بين يدي الله عز وجل : خالقنا ، وصاحب السلطان المطلق ، القدير ، المتعالي ، صاحب الفضل والمنّ علينا في كل

شيء ، حتى في الكلام الذي نتوجه به إلى أهل الأرض ! . . إننا بالحقيقة نجلّ المفاضلة . والمقارنة بين مخلوق وخالقه ، ولكن لعلّ في التفكر وفي العودة إلى النفس الإنسانية وما تعيشه في واقعها ما يفرض القناعة والاهتداء الى الحكم السليم . . فالصلاة هي الصلة بالله تعالى ، وعلى الإنسان أن يكون كامل الوعي والإدراك في صلاته حتى يعلم ما يقول وهو في حضرة الله العزيز الحكيم . وإن هذا الوعي والإدراك ينبئان عن معنى العبادة الصحيحة ، فمن أرادَ أن يعيش لحظات السناء في هذه العبادة ، وأن يكون لديه الفكر الذي يبلغ به أن الصلاة هي عماد الدين ، وجب عليه أن يُعطي لهذه الصلاة حقها ، ولا يمكن أن يؤدي حقوقها إن جاءها متعتعاً بالسكر ، لا يعرف ما يقول . .

وإنَّ في الآية الكريمة ما يدلل على حب الله تعالى لعباده المؤمنين ، الذين يوجه لهم التنبيه بالانتهاء والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يضيع العقل ، وليس في هذا التنبيه تركيز على الخمر ، ولا حتى ذكر للخمر في الآية أبداً . بل بيان للمسلم بالاً يقرب صلاته وهو سكران أي تائه العقل شارد الذهن . .

وهنا نجد أيضاً أن لا تحريم للخمر بل نهي عن الاقتراب إلى الصلاة بغير وعي كامل . فكل ما يذهب هذا الوعي ، سواء كان شراباً مسكراً أم حدثاً محزناً أو مفرحاً مرَّ في حياة الأنسان ، وأثّر فيه ، فعليه أن يجلوهُ عن عقله وعن ضميره عند الصلاة ، حتى تكون هذه الصلاة الصلة الخالصة ما بين الإنسان وخالقه .

وهكذا نجد أن في « سورة النحل » بياناً للرزق الحسن من الرزق السيِّىء. . وفي « سورة البقرة » بيانٌ للضرر والنفع . . وفي « سورة النساء » محبة من الله ولطف بالتنبيه على إقامة الصلاة بعقل سليم وإدراك تام . . وليس في هذه الآيات مطلق تحريم للخمر ، بل لم يذكر الخمر في سورتي النحل والنساء بتاتاً . . بل يأتي التحريم للخمر في الآيتين ٩٠ و٩١ من « سورة المائدة » بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُواْ إنَّما الخمرُ والميْسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجْسٌ منْ عملِ الشَّيْطانِ فاجتنبوهُ لعلكُمْ تفلحونَ . إنَّما يريدُ الشيطانُ أنْ يوقعَ بينكُمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ، ويصدَّكُمْ عنْ ذكرِ الله وعنِ الصلاةِ فهلْ أنتمْ منتهونَ ﴾ . .

فسبحان الله كم هو لطيف بعباده ، يتوجه إلى المؤمنين بالمخاطبة المباشرة الدّالة على أن الخمر هي رجسٌ . . وأي رجس ؟! . . رجسٌ من الشيطان . . فأي مؤمن بعد هذه المخاطبة المعبِّرة يقبل بأن يدنِّسه هذا الرجس الشيطاني الخبيث . . ثم لا تقف محبة الله لعباده المؤمنين بتحذيرهم بالابتعاد عن هذا الرجس ، بل يأمرهم بالابتعاد عنه بصورة كاملة إذا ما أرادوا فلاحاً . ويتكامل العطف الرباني وهو يحذر من غواية الشيطان يتخذ له مسرباً لنشر العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالخمر والميسر ، وليس فقط غاية الشيطان زرع هاتين الآفتين الكفيلتين بالقضاء على الحياة السليمة بين الناس ، بل وصدّ المؤمنين عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، حتى يحلَّ بهم غضب الله . .

إن هذا البيان الرباني ، وما يحمل من أبعاد سواء في التعامل بين الناس ، أم في علاقتهم بخالقهم ، لا يكتفي بذلك بل يتكامل بالأمر الصارم : فهل أنتم منتهون ؟ . . وهذا هو التحريم . .

نزلت الآية بتحريم الخمر بعد غزوة بني النضير في السنة الرابعة للهجرة ، فبلّغها النبي «ﷺ» للناس ، فاندفع المسلمون إلى زقاق الخمر يكسرونها ، ويريقون ما فيها إلى غير رجعة . .

فقد جاء الأمر بالتحريم فامتثل المؤمنون وانصاعوا عن قناعة ورضًى ، لأن نفحة الإيمان لا توازيها مقادير من النشوة مهما كبرت . . إنها النفحة التي ترتقي بصاحبها في معارج الإشراق الروحاني حتى يحقق السعادة الحقيقية ، وكل سعادة ما خلا رضا الله باطلة ولا يمكن أن تكون سعادة . . عن وائل بن حجر أن طارقاً بن سويد الجعفي سأل النبي «ﷺ» عن الخمر ، بقوله : « إنما أضعها للدواء » . . فكان جواب رسول الله «ﷺ» الناهي الجازم : « إنه ليس بدواء ولكنه داء » . .

وهكذا يمكن القول بأن تحريم الخمر ، لم ينزل على دفعات ، وفي عدة مناسبات ، بل كان التحريم في الآيتين من « سورة المائدة » وما غيرهما لم تكن مقدمات ، وإنما تبيان لمسائل تتعلق بالخمر وبكل شيء مسكر ، وما يكون له من أثر على الإنسان إن من الناحية الصحية أو الذهنية أو الدينية . . وهذا تأكيد على عدم صحة الاعتقاد القائل خطأً بتطبيق الاحكام الشرعية على دفعات ، استناداً لتأويل خاطىء وفهم معين للآيات القرآنية التي تناولت أحكام الخمر والمسكرات . .

يبقى أن نذكر عقوبة شارب الخمر . . فمن البديهي = والخمر محرَّم = أنه يجب الحدّ على من شرب الخمر ، لما روي عن النبي «ﷺ» قال : « من شرب الخمر فاجلدوه » . وقد انعقد إجماع الصحابة على أن حد الشارب لا ينقص عن أربعين جلدة ولا يزيد على الثمانين . ولا يجب الحدُّ حتى يثبت شرعاً بأحد شيئين : الاقرار أو البيِّنة ، ويكفي أن يشهد أحد الشاهدين على شرب الخمر والآخر على القيء .

تلك هي الحدود التي حدّها الله لصيانة المجتمع الإنساني ، والتي لم تكن إلاَّ عقوبات تنزل بمن يخالف أوامر الله ونواهيه لانه يضرُّ نفسه ويضرُّ أبناء مجتمعه . . ورفعاً لهذا الضرر الفردي والجماعي كانت العقوبات في الإسلام زواجر وجوابر . أما الزواجر فلزجر الناس عن ارتكاب الجرائم ، وأما الجوابر فلكي تجبر عن المسلم عذاب الله تعالى يوم القيامة .

وكون العقوبات زواجر ثابتة بالنص القرآني لقوله تعالى : ﴿ ولَكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ يا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ . فتشريع القصاص في الحياة معناه أن إيقاع القصاص هو الذي يكون أبقى للحياة الصحيحة السليمة ، ولا يكون ذلك في إبقاء الحياة لمن وقع عليه القصاص ، لأن في القصاص قد يكون موته ، بل حياة مَنْ شاهدَ وقوع القصاص ، وهذا ما يعني كون العقوبات زواجر أي أنها تزجر الناس عن ارتكاب الجرائم وذلك بالامتناع عن ارتكابها خوفاً من نزول القصاص بهم .

وكون العقوبات جوابر ، أنها تدرأ الخطر عن المجتمع ، وتطهر الإنسان من أخطائه ، ولقد ثبت عن رسول الله «ﷺ» : أنه قال عن المخزومية بعد أن طبّقَ عليها حدّ السرقة : « إن يدها طهرتها وسبقتها إلى الجنة » . ذلك أن تلك المرأة قد أسلمت وحسن إسلامها بعد قطع يدها ، فكان تطبيق حد القطع عليها بداية لصلاح نفسها وسلوكها ، وكان هذا الصلاح طريقها إلى الجنة . .

ولم تكن إقامة رسول الله «ﷺ» في مكة إلاّ إقامة قصيرة لا تزيد على ثمانية عشر يوماً من الفتح ، ورغم هذه الإقامة الوجيزة شهدت مكة لأول مرة في تاريخها موازين العدل والحق تقوم بين الناس ، لا فرق بين قوي وضعيف ، ولا بين صاحب نسب أو غير صاحب نسب ، بل الكل سواسية في الاسلام ، ولا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلاّ بالتقوى . .

وأكثر ما أدهش أهل مكة معاملة النبيّ «ﷺ» لهم . فقد وقف محمد «ﷺ» من هؤلاء الناس الذين كانوا ألدَّ الأعداء لدعوة الإسلام ، وأشدَّ الناس إلباً عليه وعلى المسلمين ، موقفاً فريداً في تاريخ الفاتحين ، وقد جاء موقفه الفريد متلازماً مع إنسانيته ومع نبوته . فهو لم يكن ملكاً ولا قائد احتلال يبتغي إرضاخ الشعوب لإرادته ، وكسب الأمجاد والثروات ، وإنما كان رحمة من الله أرسلها لعباده . فهو عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام صاحب العفو والرحمة ، وأينما حلَّ حلّت الرحمة في أثره لتشمل الصديق والعدو ، والمؤمن والكافر ، يأخذ كل واحد منها بحصته كما تأخذ بقاع الأرض

من بركات الغيث المنهمر ، فيثمر خصبها أو يلطف جوها ، أو تلين قوتها . . .

ولم يكن إقبال الناس على الإسلام ، خائفين أو مكرهين ، بل إن تلك المعاملة المحمدية هي التي دفعتهم إلى هذا الدين ، وهم يرون في النبيِّ الذي يبلّغه ، وفي الرسول الذي ينشره إنساناً لا يستوي معه بشريٌ في الخُلُق ، نعم كان إقبالهم بفعل محمد «ﷺ» وحُسْنِ صنيعه فيهم ، وذلك قبل أن يستقر الإيمان في القلوب ، وتهوى إليه الأفئدة ، فتتخذ من هذا الايمان ، ومن هداية محمد «ﷺ» إليه ، الأساس الذي يثبت ويدوم ليصير عقيدة راسخة في النفوس وفي العقول . .

. . نعم نزل عفو النبيِّ «ﷺ» ، وتسامحه ، برداً وسلاماً على قلوب قاسية طالما اضطرمت عليه بالعداوة والبغضاء ، ولطالما أعماها الحقد ، حتى أبعدها عن التجاوب مع الإيمان ، ومع حامل الدعوة لدين الإسلام . . لقد عادَ أصحابُ تلك القلوب إلى أنفسهم فوجدوا أنَّ النبي «ﷺ» قد ظلَّ نيّفاً وعشرين عاماً ينشد هدايتهم ، ويستعمل شتى الوسائل والطرق لإيصال الخير والحق لهم ، ولكنهم ظلوا عنه متباعدين ، وعن هدايته عمياً وصمّاً لا يفقهون ، يقولون : « قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » . . ووجدوا أن محمد ابن عبد الله «ﷺ» كان كلما قدّم لهم المودة ، بادلوه بالكراهية ، وكلما أراد إقامة علاقة حسنى جابهوه بالإساءة . . فكذبوه ، وقاطعوه ، وقاتلوه ، وألَّبوا عليه القبائل والأحزاب ، وظلوا طوال

تلك السنين العشرين يتربصون به الدوائر ، ويتحينون شتى الفرص للإيقاع به . . فلما أظهره الله تعالى عليهم ، وأمكنه من رقابهم ، لم يأبَهْ أبداً لما سلف منهم ، ولم يقف مطلقاً عند ما فعلوه ، بل قضى على كل ما كان منهم بصفح جميل ، وعفو شامل ، لم يكونا ليصدرا إلاّ عن نفس عظيمة وعن نفس محمد «ﷺ» بالذات ، الذي لم يرد إلاّ خيراً لهم ولم يُقم إلاّ صلاحاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ، عزيزٌ عليهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عليكُمْ ، بالمؤمنينَ رَؤُوفٌ رَحيمٌ ﴾ . .

وهكذا وبرحمة الله ورأفة محمد «ﷺ» ، لم يكن فتح مكة ، فتحاً لبلد عدوٍّ ، بل كان في صميمه فتحاً من الله تعالى لإغلاق القلوب المُنْكِرة ، وطياً لعنان النفوس المستكبرة ، وإذا بالغالبية الساحقة من تلك النفوس قد غدت تفيض بالحب والاخلاص ، وتدين بالطاعة والولاء ، ثم راحت تنضوي تحت لواء رسول عزيز هو منها ولها ، طائعة مستسلمة تدخل في دين الله راضية مطمئنة ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنةُ وَلاَ السَّيِّئةُ ، ادْفَعْ بالتي هِيَ أَحسنُ ، فإذَا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كَأَنَّهُ وليٌّ حميمٌ ﴾ .

ولقد فتحت مكة أبوابها ، كما فتح أهلُها قلوبهم ، فإذا كلمة الله هي العليا ، ودينه صاحب السلطان الأوحد ، وإذا كل المقاليد ملقاة بين يدي رسول الله «ﷺ» ، فلا شرك بعد اليوم ، ولا صدّ عن بيت الله الحرام ، وكان ذلك هو النصر المؤيد من الله

تعالى ، والفتح المبين . . . ودانت مكة لدولة الإسلام ، ولم يبقَ في شبه الجزيرة إلاَّ بعض الجيوب الداخلية في حنين والطائف ، فلا بدَّ أن يكون التوجُّهُ إلى تلك النواحي . .



حادثة جذيمة

انقضى شهر رمضان ورسول الله «ﷺ» ما زال مقيماً في مكة ، يُفْطِرُ ويُقَصِّرُ في الصلاة ، فيصلِّي الأربع ركعات اثنتين لأنه يعتبر نفسه لا يزال على سفر ، ولم يكن ينوي الإقامة ، كما لم يعُد يعتبر نفسه مقيماً في مكة ، إذ لم يعد له دارٌ فيها . فلمّا كان شهر شوال من تلك السنة (الثامنة للهجرة) بعث الرسول «ﷺ» فيما حول مكة بعض السرايا لدعوة الناس إلى دين الله عزَّ وجلّ ، ولكن دونما قتالٍ ، إذ لا قتال في مكة وما حولها من القرى والبوادي .

وكانت في تلك السرايا واحدة لخالد بن الوليد ، أمرهُ «ﷺ» أن يذهب إلى ناحية أسفل تهامة ، فخرج في خمسين وثلاثمائة رجل من بعض قبائل العرب والمهاجرين والأنصار ، كان بينهم عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن عمر ، حتى نزلوا على ماء لبني جذيمة يقال له الغميصاء ، كانوا قد أقاموا عليه ، فتقدّم خالد يسألهم :

ـ من أنتم ؟

قالوا :

ـ مسلمين قد صلّينا وصدقنا بمحمدٍ وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذّنا فيها !

قال :

ـ فما بال السلاح عليكم ؟

قالوا :

ـ إنَّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح . .

قال :

ـ فضعوا السلاح !

وكان في بني جذيمة رجل اسمه جحدم ، عرف خالداً عندما تقدَّم إليهم ، وأدرك أنه يخبىء نية عداوة ، فقال لقومه :

ـ يا بني جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلاّ أسار ، وما بعد الأسار إلاّ ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحي أبداً .

وأنكر على الرجل قومُهُ ما يفعل ، فقالوا له :

ـ يا جحدم ! أتريد أن تسفك دمنا ؟ إنَّ الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووضعت الحرب ، وأمِنَ الناس . .

ولم يزل بنو جذيمة بجحدم حتى نزعوا سلاحه ، ثم ألقوا هم أيضاً بسلاحهم نزولاً عند رأي خالد ، فإذا به يأمر أصحابه أن يكتّفوهم وأن يفرقوهم بينهم ، فلمّا كان السَّحر نادى :

ـ من كان معه أسير فليُجهز عليه .

وأطاع بنو سُلَيْم من قبائل العرب أمر خالد ، فقتلوا أسراهم ، بينما أبى المهاجرون والأنصار ذلك ، ووقف عبد الرحمن ابن عوف في وجهه ، يقول له :

ـ يا خالد ! لقد عملت بأمر الجاهلية في الإسلام .

فقال خالد : إنما ثأرت بأبيك .

فقال له عبد الرحمن : بل كذبت ، فقد قتلتُ قاتلَ أبي ، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة .

ورفض المهاجرون والأنصار قتل أحد من بني جذيمة امتثالاً لأوامر النبيِّ ﷺ الذي سيَّرهم داعين وليس مقاتلين ، وإعمالاً للمبدأ الذي يمنع قتل الأسرى ، فكيف إذا أعلنوا أنهم دخلوا في الإسلام ، وأنهم لم يعودوا من الأعداء ، ولم يريدوا قتالاً ؟! . .

أما سبب هذه النزعة الجاهلية التي ظهرت عند خالد بن الوليد ، فتعود إلى الماضي يوم أن عادَ بعض تجار مكة من اليمن ، وكان بينهم عمه الفاكه بن المغيرة المخزومي ، وعوف بن عبد عوف من بني زهرة وبرفقته ابنه عبد الرحمن بن عوف ، عادَ أولئك التجار وهم يحملون مالَ رجل من بني جذيمة كان قد هلك باليمن ، ومرادهم أن يؤدّوه لأهله ، إلاَّ أنَّ خالد بن هشام ـ من بني جذيمة ـ لقيهم وقاتلهم بمن كان معه من قومه على ذلك المال ، فقُتل يومها الفاكه بن المغيرة وعوف بن عبد عوف . . ولقد أمكن لعبد الرحمن بن عوف أن يقتل ذاك الرجل المعتدي خالد بن هشام ، وسُوِّيت القضية

بعد أن هـمَّت قريش أن تغزو جذيمة فجاءها نفرٌ من هؤلاء القوم قائلين :

« ما كان مصاب أصحابكم عن مَلأٍ منَّا ، إنَّما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال » .

وقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب .

ويبدو أن نزعة الثأر من بني جذيمة ، لم تذهب من نفس خالد ابن الوليد ، رغم دخوله في الإسلام وبلائه بلاءً حسناً في موقعة مؤتة ، فلمَّا أن حانت له الفرصة ولقيَ هؤلاء القوم أمَرَ بأسرهم وقتلهم ، مخالفاً بذلك أوامرَ النبيِّ «ﷺ» ، إذ لم يبعثه مقاتلاً . ولذلك ما إن بلغ الرسولَ «ﷺ» ما فعله خالدٌ حتى رفع يديه إلى السماء ضارعاً قائلاً : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » . وسألَ «ﷺ» من أتاه بالخبر : « هل أنكرَ عليه أحد ؟ » . فقيل له : « قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة ، وأنكر عليه رجل آخر طويل ، فاشتدت مراجعتهما » . . فقال عمر بن الخطاب (رض) ، وكان في مجلس النبي «ﷺ» : « أما الأول فابني عبد الله يا رسول الله ، وأما الآخر فسالم مولى بني حذيفة » .

فقال رسول الله «ﷺ» : « مهلاً يا خالد ! دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان أُحُدٌ ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غَدْوة رجل من أصحابي ولا روحته » .

ورأى «ﷺ» أن خير وسيلة لتدارك مساوىء ذلك الحادث

المؤلم ، ومداواة قلوب أولئك الناس المظلومين من بني جذيمة أن يبعث من يؤمنهم ويؤدي إليهم الدّيات ، فدعا إليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقال له :

« يا علي ، أُخرجْ إلى هؤلاء القوم فانظرْ في أمرهم ، واجعلْ أمر الجاهلية تحت قدمَيك » .

وخرج عليٌّ (عليه السلام) حتى جاءهم ومعه المال الذي بعثه به رسول الله «ﷺ» ، فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال ، حتى لم يبقَ شيء من دم أو مال إلاّ وداه . وبقي معه بعض المال فقال لهم : « هل بقي لكم دم أو مال لم يودَ لكم ؟ » .

قالوا : لا .

قال : « فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما لا يعلم ، ومما قد لا تعلمون أنتم » .

ثم رجع علي (ع) إلى رسول الله «ﷺ» يخبره بما فعل ، فقال له الرسول «ﷺ» : « اصبت وأحسنتَ يا علي » .

ثم قام «ﷺ» فاستقبل القبلة ، متوجهاً إليها بكلّ قلبه ، باسطاً يديه إلى السماء ، حتى ليرُى بياض ما تحت إبْطيه ، وراح يدعو الله سبحانه : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

وردَّدَ هذا الدعاء ثلاث مرات حتى يرتاح قلبه مما لازمَهُ من أسًى ، وما ملأه من حزن ، إذ روّعه ما فعلَهُ خالدٌ فبدل أن يدعو

إلى دين الله كما بعثه ، ذهب يقتل أبرياء لا ذنب لهم فيما وقع من أحداث ، إلاَّ ما فرضته عليهم ، وعلى سائر أبناء شبه الجزيرة ، تلك الجاهلية العمياء من عادات بالية يتوارثها الأبناء عن الآباء، بلا وعي منهم ولا إدراك . .



غــزوة حنــين والطّــائف

لقد كانت الأيام التي قضاها النبي «ﷺ» والمؤمنون في مكة ، بعد الفتح المبين ، قليلة في عددها ، ولكنها كانت رحيبة ، كبيرة بأجواء الإيمان ، وبإقامة العلاقات الطيبة ، في شتى جوانبها .. فهذا البيت الحرام ، وقد طُهّر من الأصنام والرجس ، يرتفع فوق ظهره الأذانُ بإعلان الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ، ويؤمُ رحابَهُ المؤمنون يؤدون الفريضة وراء رسول الله «ﷺ» ثم يلتفون حوله مهتدين إلى نور الحق ، الذي أضاءَ شعلته هذا الرسول الكريم ليبقى السناءَ المشع إلى آخر الدهور ..

وكان حريّاً بالناس ، وهم يعيشون في ظلال هذه الاجواء ، ألاّ يبقوا على عداوتهم للإسلام ، وعلى بغضائهم للنبيّ «ﷺ» ، بل أن يتخلوا عن ذلك كله ، وأن يتحولّوا في أفكارهم ومشاعرهم نحو الدعوة ورسولها ، منكرين عبادة الأصنام ، واقفين على ما كانت تزين لهم من زلل وشطط ..

واذا كان من أشقّ الأمور على الإنسان وأصعبها ، التخلي بين ليلة وضحاها عن المفاهيم الراسخة في نفسه، فإن التخلّي عن العقيدة الدينية هو أشدّها ، لما فيه من صراع داخلي يقف فيه الإنسان

على مفترق الطرق في تقرير مصير حياته في الدنيا ، وما سيؤول إليه أمره في الآخرة . . واذا كان أهل مكة قد تخلوا عن عقيدتهم الدينية السابقة فإنّ ما رأوه من فعل محمد «ﷺ» في المعاملة ، وما سمعوه منه من قول ، كان له أكبر المؤثرات والدوافع التي جعلتهم يرتضون ذلك التخلّي ، وان يقبلوا على الإسلام راضين ، قانعين . .

ولم يقتصر تحطيم الأصنام وإزالة معالم الشرك على ما في داخل مكة ، بل إنّ الرسول «ﷺ» بعث عدداً من السرايا إلى حول مكة لمحو آثار أعظم أصنام العرب وأكثرها شأناً عندهم . فخرج خالد بن الوليد إلى أرض « نخلة » لاقتلاع « العزّى » وتكسيرها ، وكانت شجرة كبيرة عبدتها قريش وكنانة ، وبالقرب من بيتها وثنٌ تعبده غطفان ، كما خرج عمرو بن العاص إلى « رهاط » من أرض نخلة لهدم « سواع » صنم هذيل ، وكذلك سعد بن زيد الأسهلي الأنصاري ذهب إلى جبل « المشلل » على ساحل البحر لهدم « مناة » صنم كلب وخزاعة . .

وكان بعثُ تلك السرايا لأيام قلائل بقين من شهر رمضان ، وقد عادت كلها ظافرة متممة للمهام التي أوكلت إليها دون أن تلقى مقاومةً قطُّ ، مما جعل داخل مكة يلتقي مع البقاع المجاورة على الإيمان يسري في الناس ، إلاّ أولئك المؤلفة قلوبهم الذين دخلوا الاسلام إمّا رغبة أو رهبة ، فإنّهم كانوا غير مخلصين بكلّيتهم للدين الجديد ، ولكنهم مع ذلك ارتضوا الواقع الجديد ، رغم ما يحمل من تحوّل في العادات والتقاليد ، وتبدل في الأمور والشؤون . .

على أنه مهما بدا من إقبال الناس على الإسلام ، أو مهما ظلّ في بعض النفوس من كمائن دفينة ، فإنّ سلطان الاسلام قد حلّ ومعه السلام والأمان لقريش وغيرها من قبائل العرب ، إلاّ بعضاً من هذه القبائل التي ظلت تتوهم في نفسها قوة ، تقدر من خلالها على محاربة المسلمين وتحول دون وصول هذا الركب السائر في شبه جزيرة العرب إلى ديارها . .

وكان من تلك القبائل هوازن التي تقيم على مقربة من مكة في الجبال الواقعة إلى جنوبها الشرقي . فقد عرفت بفتح مكة ، ودخولها في الإسلام ، فخافت على نفسها من كارثة تحلّ بها ، إذ لا يمكن أن يتركها المسلمون وشأنها ، بل سوف يغيرون عليها ، ليرغموها على الدخول في دينهم ، وهذا ما لا ترضاه ولا تقبل به . . ولذلك رأت هوازن أن تستعدّ للحرب ، فجمع مالك بن عوف النَضَري هوازنَ وثقيفاً إليه ، ودعا قبائل نضر وجشم ، فانضمت كلها ولم يتخلّف عن هذا الانضمام من هوازن إلاّ كعب وكلاب . .

وكان مالك بن عوف هذا شاباً لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، قوي الحمية ، شديد المراس ، فرأى ألاّ يخرج بمن اجتمع حوله إلى المعركة إلاّ ومعهم النساء والأبناء والأموال ، ليكون في ذلك مدعاة لحماسة الرجال ، واستماتتهم في الذود عن الحرمات والأرزاق .

وكان في القوم دريد بن الصمّة ، زعيم جُشَم ، هذا الرجل الذي حنكته التجارب وضرّسته الحروب ، قبل أن يفقد بصره ، ويصير شيخاً هرماً ، ولم يعد قادراً على قيادة المعارك ، كما

كان يفعل أيام بأسه وقوته .. فسارَ مالك بالقوم مذكيا فيهم روح القتال ، حتى نزلوا بوادٍ لهم ، فسأل دريد بن الصمّة :

- بأي وادٍ أنتم ؟

قالوا : بأوطاس ..

قال : نِعم مجال الخيل ، لا حَزْنٌ(١) ضِرْسٌ ولا سَهْلٌ دَهْسٌ ، ولكن ماليَ أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وثغاء الشاء وبكاء الصغير ؟

قالوا : إن مالك بن عوف ساق مع الناس ابناءهم ونساءهم وأموالهم حتى يقاتل كل منهم عن أهله وماله .

قال : راعي ضأنٍ ورب الكعبة ، إئتوني به ! ..

وجاءه الرجلُ ، فقال له : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك وإنَّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام . مالي أسمع رغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبكاء الصغير وثغاء الشاء ؟! ..

قال مالك : سُقْتُ مع الناس أموالهم وابناءهم ونساءهم ..

قال دريد : ولِمَ ذاك ؟

قال مالك : أردت أن أجعل خلفَ كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

---

(١) الحزن : المرتفع من الأرض
(٢) الضرس : الذي فيه حجارة
(٣) الدهس : اللين ، الكثير التراب .

قال دريد : وهل يرُدُّ المنهزم شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك . .

ولم يجب مالك ، فعادَ دريدٌ يسأل : وما فعلت كعبٌ وكلابُ ؟

قالوا : لم يشهدها منهم أحدٌ . .

قال : غاب الحدُّ والجدّ ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولَوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلوا ، فمن شهدها منكم ؟

قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ! .

قال : ذانك الجذعان[1] من عامر لا ينفعان ولا يضران ! . .

ثم توجَّهَ بالكلام إلى مالك فقال له :

ـ يا مالك ! إنك لم تصنع بتقديم الجماعة إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعليا قومهم ، ثم الْقَ الصُبَّاءَ[2] على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك . .

قال مالك محتدّاً : والله لا أفعل ما تقول ، إنك كبرت وذهب عقلك وعلمك . .

---

(١) الجذعان : الضعيفان في الحرب .

(٢) الصبّاء : يقصد المسلمين الذين صبأوا أي تخلوا عن دين الجاهلية .

ثم التفت إلى الناس يقول لهم :

والله لتُطيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري .

فقالوا : اطعناك .

فقال دريد بن الصمّة : هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني . .

وانصاعَ الناسُ لرأي مالك بن عوف ، فراح يدبّر شيئاً من الخطة التي أشار عليه بها دريدُ بن الصمّة ، بأن فرّق المقاتلين في قمم حنين ، وقدَّم كميناً عند مضيق الوادي ، حتى إذا أقبل المسلمون عليهم ، شدّوا عليهم شدة رجل واحد ، يرشقونهم بالسهام والنبال ، وينزلون بهم بالطعان ، لكي تتضعضع صفوفهم ، ويتشتت شملهم ، فيهزموهم شر هزيمة . .

وبعد أن رتّبَ مالك أمورَ حربه ، بعث بجواسيس له يتقصّون أخبار المسلمين ، فجاءته الأخبار ناصحة له بالعودة ، ولكنّه لم يأبه للنصح بل رمى المخبرين بالجبن ، وحبسهم عنده مخافة أن يشيعوا الأمر في الجيش ، فتثبط الهمم وتخور العزائم .

أما المسلمون في مكة فقد بلغتهم استعدادات هوازن ومن معها للحرب ، فبعث الرسول ﴿ﷺ﴾ عبد الله بن أبي حَدْرٍ الأسلمي ، يدخل بينهم ويقف على أخبارهم ، ولم يغب عبد الله أكثر من يومين إذ عادَ يحدِّث الرسول ﴿ﷺ﴾ بما جهزه أولئك القوم من عدة وما عبّأوا من قوى ، فأمَرَ عليه وعلى آله الصلاة والسلام بالتهيؤ للخروج ونادى مناديه بإعلان التعبئة للقتال . .

وجاء من يذكر لرسول الله «ﷺ» أن عند صفوان بن أمية دروعاً واسلحة كثيرة ، فبعث يسأله أن يعيرها له ، فجاءه صفوان يقول : أغصباً يا محمد !

قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك .

قال صفوان : ليس بهذا بأس .

وذهب صفوان إلى بيته ، فأتى بمئة درع يعيرها للنبيّ «ﷺ» . .

وكان لدى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبي «ﷺ» رماحٌ كثيرة بلغت ثلاثة آلاف رمح ، ما إن طلبها النبي «ﷺ» منه ، حتى جمعها سريعاً إليه ، فنظر إليها النبي «ﷺ» وقال لابن عمه : « كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين » .

وأتمّ المسلمون استعدادهم للخروج بوقت قصير ، فعبّأ الرسول «ﷺ» الصفوف ، ووضع الألوية والرايات في أهلها ، فدفع بلواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب (ع) وبلواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر ، كما أعطى راية لعمر بن الخطاب (رض) وراية لسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم ممن حمل رايات القبائل العديدة .

ثم استعمل على مكة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص أميراً على الناس ، وترك معاذ بن جبل الأنصاري يعلمهم ويفقههم إذ كان عالماً بالقرآن ، متبحِّراً بالدين .

وخرج رسول الله «ﷺ» من مكة لست خلون من شهر شوال سنة ثمانٍ للهجرة ، في عشرة الاف ممن جاؤوا معه لفتح مكة ، وألفين ممن أسلموا بعد الفتح . .

خرج جيش المسلمين تحفُّ به مظاهر القوة ، وتبدو عليه سمات التفوق والاعتزاز ، فظنَّ البعض أن النصرَ حليفهم لا محالة لكثرة عددهم ، فقالوا : « لا نغلب اليوم عن قلّة » . .

ولم يكن هذا الاطمئنان لكثرة العدد هو وحدَه ما دلَّ عن ذهنية مهتزّة لدى الكثيرين ممن خرج إلى حنين ، بل إن تلك الجماعة من قريش وهي تخرج لأول مرة تحت إمرة رسول الله «ﷺ» قد نَبَتْ بها روح الايمان حتى أنها لتبدو أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام ، إذ ما إن أطلّت على « ذات أنواط » وهي الشجرة العظيمة التي كانوا يأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعتكفون عليها يوماً بأسره ، حتى عاودتهم نزعة الجاهلية ، فتنادوا من جنبات الطريق ، وأقبلوا على رسول الله «ﷺ» يقولون له : « اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » . .

ونهاهم النبي «ﷺ» عن هذا التفكير الأخرق ، فقال : « الله أكبر ! قلتم والذي نفس محمد بيده ، كما قال قوم موسى : « اجْعَلْ لَنَا إلهاً كما لهمْ آلهةٌ ، قالَ : إنَّكُمْ قَوْمٌ تجهلونَ » . . إنها السُنَنُ ، لَتَركَبُنَّ سُنَنَ مَن كان قبلكم » . .

فلم يُدهش رسولَ الله «ﷺ» ما أبدته تلك الجماعة من قريش ، ولكنَّهُ لم يشأ أن يقسوَ على أصحابها حرصاً على وحدة

الصف ، فتابع تقدمَّه بالجيش حتى وصل في المساء إلى حنين ، فاستراحوا ، وناموا قسطاً وافراً من الليل ، فلمَّا كان السحر ، وفي عتمة الفجر ، نهضوا من الرقاد ، ولم يلبثوا أن تحركوا بانحدار نحو وادي حنين ، وهمُّهم أن يفاجئوا العدوّ قبل طلوع الصباح .. ولكنهم على خلاف ما ظنوا كان العدوّ يتربص بهم ، فلم ينم ليله ، بل بقي ساهراً بانتظارهم ، حتى إذا قرُبوا منه ، انهالت عليهم السهام والنبال مثل وابلٍ من المطر ، ثم اندفعت الكتائب تنحطّ من شعاب الوادي وأحنائه ومضايقه ، وفي مقدمتهم رجل على جملٍ أحمر ، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل ، كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف وانصارهما منحدرين وراءه يطعنون مثل طعانه ..

وكانت فرصة مناسبة للعدو ، فلحق بهم بخيله ورجله ، يمعن في ظهورهم طعناً وضرباً نال منهما بنو نصر بن معاوية من بني رئاب الشيء الكثير ، عندما استحرّ القتل ، ولم يعد أحدٌ يعرف صاحبه أو ينضوي تحت لوائه ..

ولم يكن المسلمون يتوقعوا هذا الهجوم الشديد عليهم ، حتى إذا كانت المباغتة ، اعترتهم الدهشة ، وأذهلهم الخوف ، فيما كانت الحيرة تستبدُّ بهم وتقذف في نفوسهم البلبلة والاضطراب ، ففقدوا التنظيم ، ونسوا الواجب المقدس ، وارتدوا لى الوراء ، يمضون في الهروب وقد سيطرت عليهم أحاسيس ملؤها الوخز في الصدور والوسوسة في الأفئدة .

ورأى رسولُ الله «ﷺ» هلَعَ الناس وتدافعهم القهقرى بغير وعي ، كما رأى الإبل تحمل بعضها على بعض ، فراح ينادي : أيها الناس ! هلمّ إليّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ! . .

ولكنّ الناس في جزعهم كانوا لا يسمعون ، وفي خوفهم لا يدركون ، بل ظلوا يمعنون في الارتداد والهروب ، لا يُلوون على شيء ، حتى انكشفوا عن رسول الله «ﷺ» وكان في مؤخرة الجيش على بغلته البيضاء « دلدل » ، ومضوا عنه إلى البعيد ، ولم يبقَ معه إلاّ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، كان منهم وزيراه أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) ، وأقرباؤه علي بن أبي طالب (ع) وعمه العباس بن عبد المطلب ، وابنه الفضل بن العباس ، وابن عمته أبو سفيان بن الحارث ، وابنه ربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن ابن أم أيمن ، مولاة الرسول «ﷺ» وحاضنته ، وقد استشهد في تلك المعركة ذوداً عن النبي «ﷺ» . .

وفي هذا الموقف الصعب ، وفي النفر القليل الذي وقف يحمي رسولَ الله «ﷺ» ، ذوداً عنه بالأرواح والأنفس ، قال العباس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة
وقد فرَّ من قد فرَّ عنه فأقشعوا
وقولي اذا ما الفضل كرَّ بسيفه
على القوم أخرى يا بنيَّ لِيَرجعوا
وعاشِرُنا[1] لاقى الحِمام بنفسه
لما ناله في الله لا يتوجع

(١) عاشرهم كان أيمن أبن ام أيمن رحمه الله .

أجل ، كان فرار الجيش الإسلامي ، بكليته ، لا فرق بين الصحابة وبين مُسْلِمةِ أهل مكة أو غيرهم من الناس ، فالكل أغواه الشيطان فما رام إلاّ النجاة بنفسه ، مولّياً الأدبار لا يلوي على شيء ، ووقفت فئة قليلة من قريش ، تنظر إلى تقهقر المسلمين والغبطة تأخذها ، وترى تشتت صفوفهم والسرور يملأ نفوسها . .

كانوا من الجفاة الذين لم تتطّهر قلوبهم بالإسلام فتخلص لله الواحد ، وممّن خذلهم انتصار المسلمين بالأمس على قريش ، فلم تصْفُ نواياهم ، فإذا بهم يظهرون ما اختزنوا في الجوارح من غل وحقد ، ويفصحون عما يفرحهم من شماتة بوقوع الهزيمة ، فيقول أبو سفيان بن حرب : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » . . ويقول كَلَدَة بن حنبل : « ألا بَطَلَ السحرُ اليوم ! » . وكان قريباً منه أخوه صفوان بن أمية ، وكان ما زال على شركه ، لم تنتهِ المدة التي جعَلها له الرسولُ ﴿ﷺ﴾ ليختار ، فردَّ عليه قائلاً : « اسكت فضّ الله فاك ! فوالله لأن يَربُبّني[1] رجل من قريش أحبُّ إليّ من أن يَربُبّني رجل من هوازن » . . أما شيبان بن عثمان بن طلحة ، وهو من كان أبوه قد قتل يوم أحد ، فقال : « اليوم أدرك ثأريَ من محمد » . . وليس من غير المتصوّر ، أن يكون هذا الخبيث ، قد حاول النيل من النبي ﴿ﷺ﴾ ولكنّ شيئاً جرى على لسانه ، بعد أن غشّى فؤاده فلم يعد قادراً أن يطيقه ، مما أوقر في ذهنه أن النبيّ ﴿ﷺ﴾ ممنوع منه ، ومن غيره من بني البشر ، فلا يطاله مكروهٌ ، ولو تألّبت عليه قوى الشر كلها ، لأنّ الله سبحانه وتعالى حاميه وناصره . .

(١) يربّني : يملكني ويسوسني .

كانت هذه الأحاديث تدور على ألسنة أولئك الضالّين ، والنبيّ «ﷺ» ما زال في مكانه ، يشهد مرور القبائل به الواحدة تلْوَ الأخرى وهي مولية الأدبار لا تلوي على شيء ، فإذا به يقف في هذه اللحظة الفاصلة ، وفي أحرج الساعات ، أعظم موقف وأروعهُ ، إذ قرر البقاء في ميدان المعركة ، ومجابهة الأعداء ، ولولم يقتحم القتالَ معه إلاّ ذلك النفرُ القليل الذي يحيط به ، ولكنه رأى ألاّ يترك وسيلة إلاّ ويستعملها علّ الناسَ تعود إلى صوابها ، فطلب إلى عمه العباس ، وكان جهوري الصوت ، قويّه ، أن ينادي في الناس بما يعيد إليهم الوعي ، ويثيبهم إلى الرشد .. ووقف العباس ، يصرخ من قلب محنق وبأعلى صوته : « يا معشر الأنصار الذين آوَوا ونصروا ! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمداً حيٌّ فهلمُّوا » ..

وكرّر العباس النداء حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه ، وبلغت مسامِعَ الفارّين ، فإذا بالرعدة تدبُّ في أوصالهم ، وتحيي في نفوسهم الروح الشمّاء التي آلفتهم في شتى المعارك والحروب ، وإذا بتلك الوسوسة الشيطانية تندحِرُ أمام صحوة الإيمان ، فيذهب الله سبحانه وتعالى عنهم مشاعِرَ الخوف ، ويحلّ في نفوسهم السكينة ، بواسطة ملائكته الذين هم جنودُ الله تعالى يملأ بها النفوس المؤمنة ، التي تغفلُ في ساعة من الساعات عن أداء الواجب لتعيدها إلى صدقها وإخلاصها فتمضي ملبية نداء الحق مستبشرة برحمة الله ورضوانه ..

وحلّت قدرة الله في جنوده الأوفياء ، فإذا بنداء العباس وهو

يدوي في الآذان ، تهتزُّ لاصدائه أوتار القلوب ، فيرجع المؤمنون وهم يتصايحون من كل صوب : لبَّيك لبَّيك يا رسول الله ! . ويرتدّون إلى المعركة مستبسلين . .

وراح المؤمنون يخوضون غمار المعركة ببسالة نادرة ، ويصلون نارها بشجاعة فائقة . . وفي حمى القتال اندفع علي بن أبي طالب (ع) وراء رجل الجمل الاحمر من هوازن ، الذي كان يكبُّ على المسلمين بالقتل والطعن ، حتى إذا تخلف عنه قومه رفع رايته على رمحه فاتبعوه ، ثم تقدم يرتجز :

أنا أبو جرول لا براحْ

حتى نُبيحَ القوم أو نُباحْ

اندفع فارس الإسلام علي (ع) وراء فارس المشركين حتى لحق به ، فهوى على عرقوبي جمله بضربة شديدة جعلته يقع على عجزه ثم وثب على أبي جرول يعاجله بضربة سيف لا تخطىء ، فتشطره نصفين ويخرُّ متخبطاً بدمائه ، فينظر إليه علي (ع) ويقول :

قد علم القومُ لدَى الصباحْ

أنيّ في الهيجاء ذو نِطاحْ

وكان الصباح قد انبلج وطفى النور على عماية الفجر ، عندما صارت هوازن وثقيف ومن معهما وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي ، يلتحمون بقتال عنيف ، وعراك دموي شديد ، ولكن بعزم واندفاع من المسلمين ، وخوار وضعف من المشركين ، ذلك أن المسلمين كانوا قد استعادوا الثقة بأنفسهم واستردوا اللحمة التي

فقدوها ، فهان عليهم الموت في سبيل الله ، وأقدموا على اقتحام المعركة موقنين بأنَّ النصر لهم لا محالة . .

وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يرقب مجرى القتال ، بقلب ملؤه الإيمان ، وبعزم لا يُضاهى ، تطيب نفسه بعودة الوعي إلى نفوس المؤمنين ، والشجاعة إلى صدورهم ، فيعبِّرُ عن شدة هذا الصِّدام ، ويقول : « الآن حميَ الوطيس » ، ثم يطلب إلى عمه العباس ، الذي ظلَّ يلازمه كظله لا يفارقه أبداً ، أن يناوله حفنة من الحصى ، فيأخذها ويلقي بها نحو الأعداء ويقول : « شاهَتِ الوُجوه » . . ولا يلبث الرسول الشجاع طويلاً في مكانه ، بل ينزل إلى ساح الوغى ، محرّضاً المؤمنين على الثبات ، والبلاء الحسن ، بقوله :

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبد المطلبْ

ورأى المؤمنون نبيَّهم في قلب المعركة ، فتنادوا صارخين : الله أكبر . . يا للمهاجرين ! يا لَلانصار ! . . واشتدت السواعد ، وتضاعفت القوى ، وعظم البلاءُ الحسن ، فإذا بجوّ المعركة يتحوّل من هزيمة إلى نصر ، وإذا بهوازن وثقيف ومن معهما يجدون أن كل مقاومة لم تعد ذات جدوى ، وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم ، فما كان منهم إلاَّ أخذوا يفرونَ منهزمين ، لا يُلوون على شيء ، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين .

ولحق المسلمون بهؤلاء الأعداء يطاردونهم ، وزادهم إغراء بهذه المطاردة أن أعلن الرسول ﴿ﷺ﴾ : أنَّ من قتل مشركاً فله

سَلَبُهُ . . وكان ابن الدغنة ممن يلاحقون فلول المنهزمين ، فرأى جملاً عليه ركب ظنَّ به امرأة طمع في سَلَبها ، فأناخ الجمل ، ليجد شيخاً كبيراً ، تتفطّر ملامحه بالأسى والحزن . . فسأله هذا الشيخ :

ماذا تريد بي أيها الرجل ؟

قال ابن الدغنة : اقتلك . . قال : ومن أنت ؟ قال : ربيعة ابن رُفَيع السُّلَمي . ثم ضربه بسيفه = وكأنَّ سنيَّ عمر هذا الشيخ الفاني جعلت يده ترتجف = فلم يصبه . .

فقال له : بئس ما سلّحتك به أمك ! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب به الرجال . ثم اذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمّة ، فرُبَّ والله يوم قد منعتُ فيه نساءك . . ولكنَّ ذلك لم يُجدِ دريداً شيئاً ، إذ عاد ابن الدغنة فقتله لانه مشرك . .

وتابع المسلمون الأعداء حتى سهل أوطاس ، وهنالك كانت نهاية المعركة حيث أوقعوا بهم الضربة القاضية ، وهزموهم شرَّ هزيمة ، وسَبَوْا النساءَ والأولاد ، فاحتملوهم إلى النبي (ﷺ) .

أما مالك بن عوف ، فقد فرَّ وقومَه مع هوازن ، واخيراً افترق عنهم عند نخْلة ، ثم ولّى وجهه نحو الطائف يحتمي بها .

وكذلك كان نصرُ الله للمؤمنين نصراً مؤزراً . وكانت هزيمة المشركين تامة ساحقة ، وكان الفضل في هذا النصر لله سبحانه وتعالى ولنبيّه الكريم في ثباته ، ولتلك الفئة القليلة من ذوي القربى

والصحابة الذين أحاطوا بالنبي «ﷺ» يمنعونه ، ويذودون عنه ، فيقوَوْن به ، ويقوى بهم ، وكذلك الأخيار يشدُّ بعضهم أزْرَ بعض في الملمَّات والصعاب ، فتكون لهم وقفة عزّ تميزهم عن الناس .

وفي هذه المعركة نزل قول الله تعالى : ﴿ لَقد نصركم الله في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حُنينٍ ، إذْ أعجبتكُمْ كثرتكُمْ فلم تُغْنِ عنكُم شيئاً ، وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَت ثُمَّ وليتُم مدبرين ، ثُمَّ أنزلَ الله سكينتهُ على رسولهِ وعلى المؤمنين ، وأنزلَ جُنوداً لم ترَوْها ، وعذَّبَ الذين كفرُوا ، وذلك جزاءُ الكافرين ، ثم يتوبُ الله مِنْ بعدِ ذلك على مَنْ يشاءُ والله غفورٌ رحيم ﴾ .

ولم يكن هذا النصرُ سهلَ المنال ، بل دفع المسلمون ثمنَهُ غالياً من مهج الرجال وأرواحِ الأبطال الذين استشهدوا في الموقعة ، وقد كان عددهم كبيراً ، حتى قيل إن قبيلتين من المسلمين أفنيتا ، أو كادتا أن تُفْنيَا ، وقد صلَّى الرسولُ «ﷺ» عليهم ، داعياً لهم الله سبحانه أن يُدخلهم الجنة جزاءً على ما قدَّموا من تضحيات . .

أما النتائج المادية للموقعة فقد كانت الغنائم الكثيرة التي حصَلَ عليها المسلمون ، وقد أحصيت يومئذٍ فكانت اثنين وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشاء ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، هذا عدا عن الأسرى الذين بلغ عددهم حوالي ستة آلاف من الرجال والنساء ، نُقِلُوا مع الغنائم إلى وادي الجعرانة ، حيث آوَوْهم إلى أن يجعل رسول الله «ﷺ» أمرَه فيهم . .

وبعد هزيمة هوازن ، لم يبقَ إلاَّ الطائف وفيها ثقيف ، ومالك بن عوف الذي هرب إليها مُحتمياً ، فأمرَ الرسولُ «ﷺ» بالمسير إلى الطائف في نفس شهر شوال من سنة ثمان للهجرة . .

وكانت الطائف من أشهر مدن العرب في شبه الجزيرة ، بخصب أرضها ، ولطيف مناخها حتى أنها كانت لتشكِّل بكرومها وأعنابها واحةً في وسط الصحارى ، وهذا ما جَعَلَ أهلها ذوي ثروة طائلة ، فحصنوها وجعلوا لها أبواباً تغلق عليها كأكثر مدن العرب في ذلك العصر ، وقد أدَّى بهم هذا التحصين المنيع لاكتساب دراية بحرب الحصار وخبرة في الدفاع عن مدينتهم . . فلمّا بلغها المسلمون ، كانت الحصون قد أغلقت في وجههم ، فأمر الرسول «ﷺ» أن يقيموا معسكرهم على مقربة منها . وفيما هم منهمكون في ترتيب المعسكر ، كانت ثقيف قد اعتلت جدران الحصون وراحت ترشقهم بالنبال حتى قتلت جماعة منهم وجرحت أخرى ، عندها أمر الرسول «ﷺ» بالمعسكر فانتقل بعيداً عن مرمى النبل ، وفي هذا المكان ضربت قُبَّتان لزوجتيه أم سلمة وزينب ، اللتين كانتا معه منذ ترك المدينة . وبين هاتين القُبَّتَين كان النبي «ﷺ» يصلِّي . فأقيم بعدها في نفس المكان مسجدٌ في الطائف تيمّناً وتبرّكاً . .

كانت الحصون منيعة ، فلم يفلح معها الحصارُ ، خاصة وأن ثقيفاً كانت لخبرتها ودرايتها أذكى من أن تخرج للقتال ، فظلت في مواقعها ، تمنع المسلمين من الاقتراب نحو الحصون . وأقامَ النبيُّ «ﷺ» ينتظر مع الصحابة ، ما الله صانع بهم وبعدوِّهم ، حتى

مـرَّت فترة والحال كما هي لا تتبـدّل ، فجاءه أحد الأعراب يقـول له :

« يا رسولَ الله ، إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جحره ، لا سبيلٍ إلى إخراجه منه إلاَّ بطول المكث ، فإن تركته لم يلحقك منه ضـرٌ » . .

ولـم يـلْـقَ هذا العـرضُ بتـرك الحصـار تجاوبـاً لدى النبـيّ «ﷺ» ، فراحَ يتفـكّـر في وسيلة تمـكّـنه من إصابـة ثقيـف . وكان معه في الحصار الطفيل الدوسي ، الذي صحبه ولـم يفترق عنه منذ غزوة خيبر ، فأوفده النبـي «ﷺ» إلى بني قومه يستنصرهـم ، لعلمه أن بني دوس ، المقيمـين في اسفـل مكةً ، عندهـم علـم بالرمـاية بالمنجنيق وبمهاجمة الحصون في حماية الدبابات[1] . وذهـب الـطفيل فجاء بطائفة من قومه ومعهم أدواتهم ، وكان ذلك بعد أربعة أيام من حصار المسلمين للطائف .

ورمى المسلمون هذه المدينة بالمنجنيق ، فلم يكن لرماياتهـم أثـرٌ يذكر . فزحفوا إليها بالدبابات يريدون الوصـول إلى جدرانها ليخرقوها ، ولكـنَّ رجال الطائف لم يمكـنّـوهم من هذا الخرق ، إذ سارعوا يحمون الحديد بالنار حتى اذا انصهرت قطعه ألقوا سائلها على الدبابات فأحرقتها، مما اضطر المسلمين للتراجع من تحتها خيفة أن يحترقوا ، وأثناء تراجعهم رمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعـة أخـرى

---

(١) الدبابات يومئذ عبارة عن صناديق كبيرة من الخشب عليها جلد ، وفيها ثقوب صغيرة للرؤية ، يدخل تحتها الرجال ويدّبون بها حتى يقتحموا الحصون ، فكانت وسيلة لاتقاء النبال والسهام . .

منهم ، وكان عبد الله بن أبي بكر الصديق قد أصيب في هذا الحصار ، مع من أُصيبوا وجرحوا ، فلم يندمل جرحه بعد ذلك حتى توفي منه بالمدينة ، بعد انتقال رسول الله «ﷺ» إلى الرفيق الأعلى . .

فشلت محاولات المسلمين في دخول الطائف ، وحالت حصونها دون فتحها ، ولكنّ ذلك لم يفتّ في عضد النبيّ «ﷺ» فارتأى اعتماد وسيلة جديدة علّها تكون الأجدى في قيادة ثقيف إلى الاستسلام . وقد كانت خطته رغم أنه يكره قطع الشجرة - كما ظهر جليّاً في وصاياه إلى جيوشه من قبل - أن يأمر بتقطيع كروم ثقيف وإحراقها ، لأن الشجرة وإن كانت مصونة عند النبيّ «ﷺ» إلاّ أنها لا تعود كذلك إن اعتمدت وسيلة لمحاربة العدو ، وتحقيق النصر في المعركة . وبالفعل نفّذ الرسول «ﷺ» خطته فأمَرَ المسلمين بالكروم يقطعونها . ورأت ثقيف ما يحلّ بأحد أهم مواردها الاقتصادية ، وتبيّن لها أن محمداً «ﷺ» جادٌّ في هذا الأمر ، فبُعث إليه أن يأخذ هذا الرزق لنفسه إن شاء أو أن يدعه لله وللرّحم لما بينه وبينهم من قرابة . . عندها أمرَ الرسول «ﷺ» بالتوقف عن القطع ، وبعث من ينادي في ثقيف : « إن رسولَ الله «ﷺ» مُعتِقٌ من جاء إليه من الطائف » . . ففرَّ إليه قرابة عشرين من أهلها ، وكان هذا الفرار وطلب العدو أن يترك أرزاقهم بداية لكسر شوكة ثقيف وإذعانها لمشيئة رسول الله «ﷺ» فيما بعد . .

ثم انقضى شهر وما زال المسلمون على حصار الطائف ، وبانقضائه كان ذو القعدة قد أهلّ والأشهر الحرم قد آذنت ولا يجوز

فيها قتال . لذلك آثَرَ الرسول «ﷺ» أن يرفع الحصار وأن يرجع بجيشه إلى أن تنتهي تلك الأشهر الحرم ، فيكون بعدها الأمرُ لله سبحانه ، فإمّا أن يعود لقتال ثقيف وفتح الطائف ، وإما أن يكون أهلها قد اهتدوا وجاؤوه مسلمين . . وقد قال للنبيِّ «ﷺ» رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف : « يا رسولَ الله ، ادعُ عليهم » .

فقال «ﷺ» : « اللهم اهْدِ ثقيفاً وأْتِ بهم » .

ونزل المسلمون بالجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم . وإنهم لفي ذلك النزول إذ جاء وفدٌ من هوازن قد أسلموا ، يرتجون أن يردَّ عليهم الرسول «ﷺ» نساءهم وأبناءهم وأموالهم ، بعدما ذاقوا أشدَّ العذاب لفراقهم ، وأبشع الهوان والذلّ لأسراهم . . جاءَ هذا الوفد يبدي إسلامه وشكايته ، فقال رجل : « يا رسول الله ، إنما في الحظائر[1] عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كن يكفلنك . ولو أنّا مَلَحْنا[2] للحارث بن أبي شمر الغساني ، أو للنعمان بن المنذر[3] ، رجونا عطفه وعائدته[4] علينا وأنت خير المكفولين » . .

وسأل الرسول عن حواضنه ، فقيل له : إنَّ اختك من الرضاعة بين السبايا ، فطلب أن يأتوا بها ، فلماّ جاءت عرف حقاً أنها أخته ، الشيماء بنت الحارث بن عبد العُزّى ، التي طالما حملته

(١) الحظائر : الامكنة التي وضع فيها السبي .
(٢) مَلَحْنا : أرضعنا
(٣) الحارث بن أبي شمر الغساني هو ملك الشام من العرب ، والنعمان بن المنذر ملك العراق .
(٤) عائدته : فضله .

ودغدغته على ذراعيها ، يوم كان صبيّاً في المهد ، وأمها حليمة ترأف به وتحنو عليه . .

فماذا يفعلُ محمد «ﷺ» يا ترى وقد وجَدَ هذه الأخت بين السبايا ؟! . .

لقد قام من فوره يبسط لها رداءه ويجلسها عليه ، ثم يدنو منها محباً ، عطوفاً ، مؤانساً ، يتذكران أيام الطفولة في ديار بني سعد من هوازن ، وكيف عاشا سويّة هناءة تلك الأيام ، ويسألها عن أمه حليمة ، وعن زوجها الحارث ، وعن أخوته وأخواته في الرضاعة ، والناس من حوله يتطلعون ويسمعون ، متفكرين بإنسانية رسول الله «ﷺ» ووفائه ، وبخصاله النبيلة ، التي تسمو على الخصال ، وتعلو على الصفات مهما كبرت عند بني البشر ، فيحمدون الله تعالى أن هداهم إلى الإيمان بفضل هذا الرسول الكريم . .

وبعد أن اطمأنت الشيماءُ وفرحت بلقاء رسول الله «ﷺ» ، خيّرها إنْ أحبت أبقاها عنده عزيزة مكرمة ، يكفل كهولتها ، ويردُّ عنها غائلة الدهر ، وإن أحبت متّعها ورجَعَها إلى قومها ، فاختارت الرجوعَ إلى قومها .

ولم يكن هذا العطف المحمدي ليقتصر على الشيماء بنت الحارث وحدها ، بل وجَبَ أن يشملَ كلَّ من جاؤوه من هوازن مسلمين ، نادمين ، فقال لهم الرسول «ﷺ» : « أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ » . قالوا : « يا رسول الله ، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ! بل تردَّ علينا نساءنا وابناءنا فهو أحبُّ

إلينا » . فقال لهم : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا ما أنا صلَّيت الظهر بالناس ، فقوموا وقولوا : إنا نستشفع رسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم » .

ولما كان الظهر وانتهت الصلاة ، وقف رجال هوازن يستشفعون في أبنائهم ونسائهم ، فقال الرسول ﴿ﷺ﴾ : « وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » .

فقال المهاجرون : « وما كان لنا فهو لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم » .

وقالت الأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم » .

فقال الأقرعُ بن حابس : « أما أنا وبنو تميم فلا . .

وقال عيينة بن حصن : « وأما أنا وبنو فزارة فلا . .

وقال عباس بن مرداس : « وأما أنا وبنو سُلَيم فلا . .

ولكنَّ بني سليم رفضوا موقف ابن مرداس ، وقالوا : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم . .

وهنا قال رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ : « أمَّا من تمسَّك منكم بحقه من هذا السبي ، فله بكل إنسان ستُّ فرائض من أولِ سَبْي أصيبه ، فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم » .

وكذلك رُدَّتْ نساءُ هوازن وابناؤها إليها ، وكان ذلك بفعل إسلامها ، وبفعل عظمة محمد «ﷺ» وإنسانيته التي لا تضاهى . .

وسأل رسولُ الله «ﷺ» عن مالك بن عوف ، ماذا فعل ؟ فقيل له إنه ما يزال بالطائف مع ثقيف ، فقال لوفد هوازن : « أخبروا مالكاً إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل » .

ولم يُعتِّمْ مالك حين أتاه خبر عفو النبيِّ «ﷺ» عنه ـ إن أتاه مسلماً ـ أن تجهّز سرّاً ، حتى لا تراه ثقيف ، ثم خرج من الطائف في وسط الليل حتى قدم على رسول الله «ﷺ» فأعلن إسلامه ، وردت عليه أهله وماله ، وأعطي فوقها مئة من الإبل .

ورأى الناس أن رسولَ الله «ﷺ» يعطي كلَّ من جاءه من هوازن أهلَهُ ومالَهُ ، فخافوا أن تنقص هذه الأعطيات قسمتهم من الغنائم ، فسرى الهمس بينهم ، يُريد كل واحدٍ أن يأخذ فيْئه ، حتى بلغ ذلك الهمسُ رسولَ الله «ﷺ» ، فوقف إلى جانب بعير ، فأخذ وَبرَةً من سَنامِهِ فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعَها وقال : « أيها الناس ، والله مالي في فيئكم ولا هذه الوبرة إلاّ الخمس ، والخمس مردود عليكم » .

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ كل واحد ما غنم ، حتى تقتسم الغنائم بالعدل ، وهو يقول للناس : « فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرةً ، كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة »[1] . ونادى منادي الرسول «ﷺ» : « من أخذ شيئاً فليردّه

حتى الخيط والمخيط » . .

وتدفق الناس يردون غنائمهم ، فجاء رجلٌ من الانصار بكبّة من خيوط الشعر ، فقال : « يا رسول الله ، أخذت هذه الكبّة أعمل بها برْدعة بعير لي » فقال له ﴿ﷺ﴾ : « أما نصيبي منها فلك » . فقال الأنصاري : « أما إذْ بلَغتْ هذا ، فلا حاجة لي بها ، ثم طرحَها من يده بين الغنائم »..

وكان عقيل بن أبي طالب ، قد أتى بإبرةٍ وأعطاها لزوجه ، فاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، قائلاً : « دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك » .

فلما سمع المناداة بإعادة كل شيء ، رجع إلى امرأته يقول لها :

« ما أرى إبرتك إلاّ قد ذهبت » . .

ثم أخذها وألقاها في الغنائم . .

وأتى رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ فخمَّس الغنيمة ، ثم فصل الخمس لنفسه ، ووزع الباقي على الناس . فكان نصيب المجاهد لكل رجل أربع من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة . ووزع من خُمسه على قادة القبائل بُغية تأليف قلوبهم وقد كانوا إلى الأمس القريب أشدَّ أعدائه ، وهم الذين وقفوا في أتون المعركة ينظرون ، وبعضهم يبدي الشماتة ، فأعطى لهؤلاء أكثر من المجاهدين ، فكانت مئة من الإبل لكل من أبي سفيان بن حرب ، وابنه معاوية ، والحارث بن الحارث بن كَلَدَة

والحارث بن هشام ابن المغيرة ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العُزَّى ، والسائب بن أبي السائب ، وغيرهم من رؤساء بني بكر ، وقيس ، وسليم ، وغطفان ، وفزارة ، وتميم . . حتى لم يبق أحدٌ من أشراف القبائل وزعماء العشائر ، ممن تألف بعد فتح مكة ، وحضر وقعة حنين ، إلاَّ وأعطي مئة من الإبل ، وبعض الفضة .

وكان نصيبُ من دون هؤلاء شأناً ، خمسين من الإبل ، وقد بلغ عددهم عشرات . . ؟

وبينما كان رسول الله «ﷺ» يعطي الناس يومئذٍ قام رجل من تميم يقال له « الخُوَيْصرة » ، فقال : إعدلْ يا رسول الله ! . .

فقال النبيُّ «ﷺ» : وَيْلَكَ إنْ لَمْ أعْدِلْ أنا فمَن يعدلْ ؟! . .

فقال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله ، ألا أقتله » ؟

قال له النبي الرحيم : « دَعْهُ ، فإنه سيكون له أتباعٌ يتعسفون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية » . .

وقد كان عطاء الرسول «ﷺ» لهؤلاء المؤلفة قلوبهم كبيراً إلى حدٍ قضى لهم جميع حاجاتهم . فقد أعطى صفوان بن أمية مئة من الأبل ، ثم مئة ، ثم مئة . . ونظرَ إليه الرسول «ﷺ» بعد هذا العطاء الكبير فرآه يرمق شِعباً مملوءاً نِعماً وشاءً ، فقال له :

« اعجبتك هذه الشعب يا أبا وهب » .

قال : نعم . .

فقال له ﴿ﷺ﴾ : « هو لك بما فيه » . .

عندها قال صفوان : « إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلاَّ نبيٌّ ، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسولُ الله » . .

فكان كرمُ رسول الله ﴿ﷺ﴾ هذا سبباً في إسلامه ، قبل انقضاء المدة التي استمهله فيها ليختار بين بقائه على الشرك أو يدخل في الإسلام . .

على أنَّ هذا الذي تألَّف به النبي ﴿ﷺ﴾ قلوب تلك الفئة من قريش ومن قبائل العرب ، لم يعجب بعض المسلمين ، ولم يدركوا الحكمة من ورائه ، مما جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض ، حتى قال قائلهم : « لقيَ والله رسولُ الله قومَه » .

ولشدة تأثُّر الأنصار بما صنعَ الرسولُ ﴿ﷺ﴾ ، جاءَهُ سعد ابن عبادة يبلّغه وجْدَ أنفسهم عليه وهو يقول : « يا رسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، فقسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب ، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار شيء » . .

فقال له الرسول ﴿ﷺ﴾ : « واين أنت منهم يا سعد ؟ » .

قال سعد : « إنما أنا رجل أيِّـدَ قومَـهَ فيما يقولون » .

فقال له الرسول «ﷺ» : « اجمع لي قومك » .

فلما اجتمع الأنصار وقف النبي «ﷺ» يخاطبهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله : «يا معشر الأنصار ، ما قالـةٌ بلغتني عنكم ، وجـدةٌ وجدتموهـا عليّ في أنفسكم ؟ ألـم آتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله ، وعـالـةً فأغنـاكم الله ، وأعـداءً فألّـف الله بـين قلوبكم ؟ » .

قالوا : بلى ! الله ورسولـهُ أمـنُّ وأفضـلُ .

قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار !

قالـوا : بمـاذا نجيبـك يا رسـولَ الله ؟ لله ولرسولـه المنُّ والفضـلُ .

قال : « أما والله لو شئتم لقلتم فلَـصَـدَقْـتُـمْ ولَـصُـدِّقْـتُم . أتيتنا مكـذَّباً فصـدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطـريداً فآوينـاك ، وعائلاً فآسينـاك . أوجَـدْتُـم يا معشر الأنصـار في لُـعَاعَـةٍ (الشيء اليسير) من الدنيا تألّفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلكـتِ الأنصارُ شعباً لسلكـتُ شِعْـبَ الأنصار . اللهم ارحـمْ الأنصارَ وأبناءَ الأنصـار وابناءَ أبناءِ الأنصار » .

هذا الصدقُ المحمديُّ ، وهذا الوفاءُ النبويُّ جعلا الأنصارَ يبكون بحرقة في العيون حتى اخضلّت لحاهم من الدمع ، فقالوا : رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً .

وقاموا إليه ، يتقدمهم الشيوخ والسادة ، يقبلون يديه ، ويرجونه مسامحتهم وهم يقولون : « رضينا بما قسمت يا رسول الله وهذه أموالنا بين يديك فان شئت فاقسمها على قومك ، وإنما قال من قال منا مِنْ غير وغْر صدرٍ ، وغلّ في قلبٍ ، ولكنهم ظنوا سخَطاً عليهم ، وتقصيراً منهم، وقد استغفروا الله من ذنوبهم ، فاستغفر لهم يا رسول الله » .

فقال ﴿ﷺ﴾ : « اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ، ولأبناء أبناء الأنصار » وقد أعادَ هذا التسامحُ السكينة إلى نفوس الأنصار ، فرجعوا إلى رحالهم راضين مستبشرين .

إن هذا الموقف بين رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وبين الانصار ، كأن أبلغ درسٍ في السياسة الرشيدة التي كان يعتمدها ﴿ﷺ﴾ في معالجة شتى القضايا والأمور ، والتي كان من خلالها ينفذ إلى القلوب فيريحها ، والى النفوس فيملأها بالطمأنينة ، وإلى العقول فيتملكها ويأسرها بالإيمان بالله رباً وبه رسولاً ، فذلك كان نهجه الدائم في كل مرة كانت القلوب تحتاج فيها إلى الراحة ، والنفوس الى الاطمئنان ، لانه هو نهجه الذي لا يحيد عنه إذ يخاطب الفكر والعقل في كل مرة يقتضي المواقف العقلانية في المنهجية والتطبيق . .

ولقد كانت تلك المعالجات تتم بالصدق والإخلاص المعروفين

عن الرسول «ﷺ» ، وتوزن بالميزان المحمدي العادل ، الذي لم تعرف البشرية في تاريخها ، لا من قبل ، ولن تعرف من بعد ، مثل هذا الميزان لأنَّ في إحدى كفتيه دائماً حكم السماء ، وفي الكفة الأخرى فِعال البشر ، ولا يمكن لهذه الفعال أن تستوي في نظر محمد ابن عبد الله «ﷺ» إلاَّ إذا توافقت مع حكم الله تعالى ، لأنه وحده الحكم ، الثابت ، الأزلي . .

وهذا الميزان المحمدي كان يطبقه رسول الله «ﷺ» على نفسه ، مثلما يطبقه على الآخرين . فعندما جمَع إليه الأنصار ، ذكّرهم أول ما ذكّرهم بفضله عليهم ، هداية ، وغنى ، وتألبفا للقلوب بإرادة الله سبحانه وحكمته ، ثم عادَ يذكرهم بفضائلهم هم عليه ونصرتهم للدعوة ، وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة الله ، وكل ذلك بلا أي تردّد أو تحفظ ، بل إظهاراً للحقوق والفضائل . .

ولقد أثبتَ رسولُ الله «ﷺ» أن مخاطبته الصادقة لهؤلاء الانصار كانت بمثابة الدواء للوجد الذي أحسّوا به ، وشفاء لوهم الاجحاف الذي ظنّوه ، فإذا هم الأتقياء ، الاصفياء ، المخلصون المستغفرون ، واذا هو الرسول الأعظم الذي ارتفع بهم إلى أعلى مراتب السمو الإنساني التي تعلو بهم على المال والجاه ، وتنأى بهم عن الغنائم والمتاع ، وعن كل ما يُغري الناس ويتدافعون عليه من متاع الحياة الدنيا .

ولم يكن الأنصار وحدهم قد ساورهم بعض الظن في صنع رسول الله «ﷺ» أثناء توزيع الفيء ، بل إنَّ بعض الصحابة أتوه.

قائلين : « يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس مئة ، وتركتَ جُعَيْلَ بْنَ سراُقَةَ الضمّري » .

فقال : « والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من مثل عيينة والأقرع ، ولكنّي تألفتهما ليُسلما ، ووكلتُ جعيل بنَ سُراقة لإسلامه » .

على أنه مهما تكن الظنون التي رافقت نفوس الناس ، أو الاعتراضات التي ظهرت على تقسيم النبيٍّ «ﷺ» للغنائم ، فإنَّ أمراً جوهرياً يجب ألاَّ يغيب عن الأذهان ، وهو أن عطاءه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم للمؤلفة قلوبهم كان من الخُمس الذي هو حق خالص للرسول «ﷺ» يضعه حيث يشاء ويعطيه لمن يشاء من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَموا أنَّما غَنِمْتُم مِنْ شيءٍ فَأَنَّ لله خُمسُهُ وللرّسولِ ولِذي القربى واليتامَى والمساكين وابن السبيل ﴾ .

فقد استعمل رسول الله «ﷺ» خُمسه في أسمى وأعلى غاية ، ألاَ وهي هداية فئة من الناس إلى الايمان الحق ، فقد وجد أن الدعوة الإسلامية توجب تأليف القلوب ، وقد شهد موقعة حنين جماعة من سادة قريش وقادة قبائل العرب الذين لهم منزلة في قومهم ، فلماذا لا يعطيهم الرسول «ﷺ» من هذا الفيء العظيم ، إن كان في هذه العطاءات ، ومهما بلغت ، ما يزيل الضغينة التي ما زالت في قلوبهم على الدعوة ، وقد بدت جلية في مقالتهم أثناء احتدام المعركة ، ويجعلهم على طريق الايمان الحق ، بما يتناسب مع جوهر الدين

الإسلامي الذي يحفل بصاحب الايمان الصادق وليس بمن يدخلون فيه لسبب أو لآخر ، دون أن يلامس ذلك الإيمان قلوبهم ؟! . . .

فتلك هي العبر في ذلك التوزيع ، وتلك هي العظات في تصرف رسول الله (ﷺ) ، هذا فضلاً عن أنّ إعطاء المؤلفة قلوبهم هي فريضة من الله ، واجبة من الصدقات الدائمة في الإسلام ، وليس فقط من الغنائم التي تحصل في ظرف معين ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ إِنَّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراء والمساكين والعاملينَ عليها ، والمؤلَّفة قلوبُهم ، وفي الرِّقاب ، والغارمينَ ، وفي سبيل الله ، وابنِ السبيل ، فريضةً من الله ، والله عليمٌ حكيم ﴾ . .

وكما كانت الدروس الهادية التي أعقبت غزوة حنين والطائف ، كذلك كانت أحداثها مليئةً بالدروس الهادفة المربية . . فقد خرج المسلمون للجهاد في سبيل الله ، ودحر الشرك في بعض الجيوب الداخلية ، بعد فتح أغلاق مكة ، وبعدما دانت قريش القوية المتغطرسة لسلطان الإسلام ، ومكّن الله سبحانه لرسوله وللمؤمنين من نواحي هذا العدو ومن نواحي غيره من العرب .

لقد خرجوا ، وهم في فوْرة الفوز بالفتح المبين ، وفي سوْرة العُجب بما كانوا عليه من كثرة العدد وقوة العتاد . . وقد نظروا إلى كثرتهم تلك فأعجبوا بها ، واطمأنوا إليها ، معتقدين أن هذه الكثرة هي مصدر القوة وسبيل النصر . . إلاَّ أنهم ما عتَّم أن فروا من وجه هذا العدو حين فاجأهم بانحداره اليهم ، مولِّين الأدبار ، لا يُلوون على شيء ، يتدافعون أمامه تدافع السيل ، ويتكبكبون تكبكب الأنقاض من البناء الشامخ حتى انهار اعلاه على أسفله ومما

لا شك فيه أنه لولا ثبات النبي «ﷺ» ومعه تلك الفئة القليلة التي باعت أنفسها لربها ، واحاطت بهذا النبي الكريم الدائم الصلة بربه ، فمدَّها بالثقة واليقين ، وتوجه بقلوبها إلى الباري ، فاستمدت منه العون والمؤازرة . . نعم لقد كان لإخلاص هذه الفئة القليلة ، وحسن صلتها بالله وبرسوله ، والتجائها إلى الايمان ، أكبر الأثر في تسيير سير الموقعة ، إذ أمدَّها الله تعالى سريعاً بالمدد اللازم وهو يوقظ سبحانه وتعالى الضمائر في صدور الفارين ، ويزيل الغشاوة عن بصائر الهاربين ، فينزل السكينة على قلوبهم ، ويعيدهم إلى القتال ليبدلوا اليأس بالبأس ، والضعف بالقوة وتتحول الهزيمة إلى نصر مؤزر .

لقد ركن المسلمون إلى أنفسهم ساعة من الزمن ، فوكلهم الله إلى تلك الأنفس ، وكانت النتيجة غلبة العدوِّ لهم ، رغم كثرة العدد . ولكنهم لـمَّا رجعوا إلى ربهم واستعانوا به ، جاءهم العون فكان لهم النصر الكريم والفوز العظيم . .

وأدرك المسلمون أن النصْرَ حقاً بيد الله وحده ، ومصدر هذا النصر هو دائماً صدق الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه ، أما الكثرة والعتاد ، والتعبئة ، وحسن التنظيم ، وما إلى ذلك من الأمور والشؤون التي يكون التوسلُ بها والاعتماد عليها فإنها كلها ، او كل واحدة منها ، لا تكفي لاحراز النصر ، ولا تأتي إلاَّ في المقام الثاني من أسباب القوة لخوض المعارك وتحقيق الانتصارات ، اذ يبقى المقام الأول ، بل الأساس الثابت هو الاعتماد على الله سبحانه ، لأنّ لا قوة تستمد إلاَّ من الله ، ولا نصر إلا من عنده . .

هذه حقائق لا ينبغي ان تغيب عن أذهان المسلمين ، فهل يدركون هذه الحقائق ؟ وهل يشعرون اليوم بمقدار ضعفهم أمام أعدائهم ؟ وهل يعرفون سرَّ ما هم عليه من ضعف ، على رغم كثرة ما هم عليه من العدد ، وما عندهم من الامكانات والقدرات ، التي يمكن أن تتحكم إلى حد بعيد بمصير العالم كله لو أحسنوا استعمالها واستغلالها ؟.

قد يكون جزافاً القول بأن هنالك سراً لضعف المسلمين يجب عليهم إدراكه ، والحقيقة أنه لا سرَّ هناك على الاطلاق ، ما دام الأمر واضحاً وضوح النهار ، وبمثل هذا الوضوح لا يبقى مجال لأن يغمض المسلمون أعينهم ، ويحاولون نكران ما هو ظاهر لهم ، أو يطالبون بالأدلة على صدق هذا الظاهر . . فاذا كان لا يصح في الأذهان شيء للتدليل على النهار والشمس ساطعة ، فإنه كذلك لا يصح في أذهان المسلمين شيء للتدليل على واقع ضعفهم وتشرذمهم في هذه الأيام . . فقد هجر المسلمون دينهم ونسوا الله خالقهم وبارئهم ، فأنساهم سبحانه وتعالى أنفسهم حتى غدوا كزرع غاض ماؤه ، وانقطع عنه غذاؤه ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً .

إن موقف المسلمين اليوم ، كموقف السابقين في بداية معركة حنين ، ولكن الفارق الذي يبقى بين الموقفين هو أن مسلمي حنين أفاقوا من الغشية التي أصابتهم ، وسارعوا بالرجوع الى ربهم ، فسارع إليهم نصرُ الله تعالى وتأييده ، فالله سبحانه لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

أما مسلمي اليوم فطالما أن هذا التغيير مفقود عندهم ، وطالما أن رجوعهم الى ربهم غير موجود ، فإنهم سيظلون كثرة لا غنى فيها ، وأينما نظرنا إليهم سنراهم فئاتٍ مغلوبة على أمرها ، يتحكم فيها اعداؤها واعداء دينها ، وينعمون دونها بخيرات أوطانها ، ويسخرونها في منافعهم كسخرة الأسياد للعبيد ، ويتحكمون بمصائرها وتقرير مصير حياتها بمثل ما يريدون ووفق ما يرغبون .. وستبقى شعوب الإسلام عاجزة عن اتخاذ القرار رغم كل تمثيلها في المنظمات الدولية والأقليمية ، ورغم كل حضورها في المؤتمرات ، او إبرامها للمعاهدات ، لأن في ذلك التمثيل أو الحضور ، وفي هذا الإبرام ، ما يبقى خفياً عليها ، وعاملاً ضد مصالحها . فكأن المسلمين قد أصبحوا يعنيهم الشاعر بقوله :

ويُقضَ الأمرُ حين تغيب تيمٌ ولا يُستأذَنون وهم شهودُ.

فهل آن الأوان بعد هذه الرؤية الواضحة ، لأن يستيقظ المسلمون ، كل المسلمين ، في مشارق الأرض ومغاربها ، من سباتهم العميق ، ويفيقوا من غفلتهم الطويلة ، حتى يستعيدوا الثقة بأنفسهم ، ويصلوا ما بينهم وبين ماضيهم المجيد ، وعزهم السالف ، وأيامهم الميمونة ! . . .

لا ! لم تصل الأمور بعد إلى درجة اليأس ، فتباشير اليقظة تلوح في الأفق ، والوعي بدأ يدبُّ في العالم الإسلامي ، مبشراً بفجر جديد ، وبمطلع من مطالع النور لهذه الأمة الحائرة في أمرها ، والحيرة هي الظلام الدامس بعينه وهي التي تأخذ بيد صاحبها إلى ساحة التردد

لابعادها عن جادة الهداية . . ولكن عليهم ، وقد أنعم الله تعالى عليهم بنور الهداية ، أن يهتدوا بأشعة هذا النور ، فيخرجوا من الظلمات التي تحيق بهم ، ويتعرفوا على دينهم وما أودع الله تعالى فيه من ذخائر القوة والعزة والسعادة ، وبذلك تكون لهم القوة بعد الضعف ، والعزة بعد المذلة ، والسعادة بعد الشقاء . حقق الله أماني المسلمين الواعين ، المدركين ، وهدانا جميعاً الى الصراط المستقيم .

ولئن كان هذا الربط بين ماضينا وحاضرنا هو ضروري نحتاجه إلى إعادة الوعي فينا ، فإن سيرة خاتم الأنبياء ، محمد بن عبد الله «ﷺ» تبقى ذخراً حيّاً لنا ، نستمدُّ منه الإلهام والعبرة ، والنهج والطريق ، في كل ما نحتاجه ، وما نتطلع إليه . . ولقد أظهر محمد «ﷺ» من العدل ومن بعد النظر وحسن السياسة ، اثناء حنين والطائف وبعدهما ، ما مكّنه من العودة بألوف المسلمين من العرب وكلُّهم راضية نفسه ، مطمئن قلبه ، يعظّم الله سبحانه ، ويحمد رسوله الكريم، ذلك الرسول الأعظم الذي أقام في الجعرانة ، بعد إيذان الأشهر الحرم بالمجيء، فترة من ذي القعدة ، حتى إذا خرج من الجعرانة إلى مكة ، كان معتمراً فلما قضى عمرته ، ثبّت عتاب بن أسيد في استخلافه على مكة ، وخلّف معه معاذ بن جبل ليفقّه الناس في الدين ويعلمهم القرآن ، وعادَ هو والأنصار والمهاجرون إلى المدينة لست ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة ثمانٍ للهجرة .

عادَ رسولُ الله «ﷺ» إلى المدينة ، بعد فتح مكة وانتصاره في

حنين وحصاره للطائف كما فصّلنا سابقاً ؛ وكان مطمئناً إلى تأييد الله سبحانه ، وإلى النصر المؤزر الذي حققه في تلك المسيرة التاريخية التي جعلت شبه الجزيرة برمّتها خاضعة لسلطان الإسلام ، أو على طريق الخضوع لهذا السلطان . ولقد قاسى الرسول (ﷺ) والمؤمنون في تلك المسيرة ، فترة طويلة من العناء والمشقة ، إلاّ أنه (ﷺ) تحمّل منها النصيب الأكبر ، بوصفه القائد الأعلى لجيشه ، والحاكم في شؤون الناس ، والهادي إلى الدين ، فكان بحاجة إلى فترة يهدأ فيها بعد التعب ، ويرتاح من ثقل الأعباء ، وهموم المسؤوليات . . ولكن ! من كان هو محمد (ﷺ) ، الذي يحمل على عاتقه أكبر تكليف نزل من رب العالمين ، فهل يركن إلى الراحة طلباً للراحة ، أم أنه يتخذ من تلك الراحة ، خلوة إلى النفس ، يستجمع فيها الأفكار ويقوِّمُ الأعمال ، ويرسم السبل التي تقوي صروح الإيمان ، والطرق التي تدعّم أركان الدولة ، فتنطلق بهما الدعوة إلى آفاق جديدة ، وإلى بقاع خارج حدود شبه الجزيرة ؟! .

إنه لمن حقه أن يقضي بين أهله والمؤمنين وقتاً من السكينة ، ولكنها تبقى في جميع أحوالها ، سكينة المعرفة التي تتلقى الوحي ، وهدأة الراحة التي تدرس الماضي وعبره ، وبساطة العيش التي ترتقب المستقبل وتطلعاته وتعِدُّ له عدته . . وحقيقة هذه المعرفة بشموليتها واتساعها ، وفي جوهر ما تحتويه من أمور الدنيا ، وأخبار الآخرة ، إنما كانت دائماً وأبداً قبساً روحانياً يهبه الله تعالى إلى نبيه الكريم ، ومنهجاً عملياً يرشد به رسوله العظيم . .

ولكي يمكن لبني البشر إدراك هذه المعرفة ، والوقوف على حقيقتها ، فإن عليهم الاهتداء بنورانية القرآن الكريم .. ومن هنا نرى أن المعرفة تقوم على درجات ثلاث :

أولاها : علم اليقين ، أي المعرفة التي تقوم على الخبر الصادق الأكيد ، كما لو عادَ شخص صادق من مكة المكرمة وأخبر عما رأى خلال زيارته لبيت الله الحرام ، فتكونت لدى سامعه فكرة صحيحة عما أُخبرَ عنه ، ثم راح يرويها كما سمعها ، فهذه الفكرة هي بمنزلة علم اليقين عنده ، وذلك مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **كلاَّ لو تعلمون علم اليقين . لترونَّ الجحيم** ﴾ أي لو كنتم تعرفون المسائل على حقيقتها لكنتم كأنكم تنظرون إلى نار جهنم وترونها رأي العين .

والثانية : عين اليقين : أي المعرفة التي تقوم على المشاهد المحسوس ، وعلى الرؤية بالعين المجردة ، كما لو ذهب من تكوَّن لديه علم اليقين بنفسه إلى الحج ، ووقف بنفسه على معالم هذا الحج ، وذلك مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **ثم لترونَّها عين اليقين** ﴾ أي من المؤكد أنكم سترونها بأعينكم حين تعرض عليكم ، وبعينها وبذاتها ، فتحصل لكم المعرفة اليقينية بالعين والذات ..

والثالثة : حق اليقين : أي المعرفة التي تقوم على التجربة والممارسة الفعلية ، كما لو قام قاصد الحجّ بالطواف على الأماكن ، وتأدية الشعائر والمناسك التي تستلزمها هذه الفريضة ، حتى تتكوَّن لديه المعرفة بالأماكن ويتوفَّر له العمل الفعلي بأداء الواجب ممَّا

يجعله يتحقق يقيناً من كل ما لمسه وقام به ، وذلك ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ إنَّ هذا لهو حق اليقين ﴾ أي الحق الذي توصلت إلى معرفته الحواس بأجمعها فصار حقاً ممثلاً في الإدراك ومجسداً في الفكر ، يلامس الحواس كلّها ، ويستولي اليقين أي التصديق الجازم به على الكيان والعقل والحواس جميعها حتى صار عقيدة . . وإذا كانت درجات المعرفة هذه تواجهنا في جميع شؤون حياتنا ، فإن القرآن الكريم أرادها للتدليل على حقيقة البعث ، ولإقناع الناس بأن هناك فعلاً نشأة أخرى بعد النشأة الأولى . . . فالقرآن الكريم في « سورة التكاثر » كما في سورة « الواقعة » وكما في غيرهما من موارد الكلام عنه = يخبر الناس بأنهم مبعوثون لا محالة . . فالمؤمنون المصدّقون تتكون لديهم المعرفة عن هذا البعث ، وتكون معرفتهم هي علم اليقين ، باعتبار أنهم قد آمنوا بما جاء به محمد ﴿ﷺ﴾ وأيقنوا بصدقه وعلموا أن ما يقوله هو الحق بعينه .

فإذا كان الموت ، وبُعث الناس ، ووجدوا أن ما اخبرهم به القرآن حقيقة يرونها بأم العين ، ويحيونها بالحواس فإنهم هنا يكونون قد وصلوا إلى معرفة عين اليقين ، التي لا ريب فيها ولا شك . . حتى إذا تفرّقَ الأحياءُ المبعوثون ، كلٌ إلى مصيره ، وصار هؤلاء في النعيم ، وزُجَّ أولئك في الجحيم بنتيجة الأعمال في الحياة الدنيا = كان هذا حق اليقين . . فسبحان الله الخالق العظيم ، الذي هدانا إلى الحق والمعرفة ولولاه لما كنا نهتدي . .

ولقد كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يحيا بالقرآن وحياً وتنزيلاً ،

وتوجيهاً وعملاً . فعن طريق « علم اليقين » جاءته الرؤية الصادقة والخبر اليقين من ربه تعالى بفتح مكة . وبمقتضى معرفته بهذا الفتح عقد معاهدة الحديبية التي اعتبرها بعض الصحابة جائرة بحقوق المسلمين . حتى إذا كان الموعد ، وتحقق الوعْدُ الصادق ، ودخل النبيّ «ﷺ» والمؤمنون إلى مكة في عمرة القضاء ، كان ذلك « عين اليقين » . فلما دانت مكة بالإسلام ، وموُرست فيها شعائره ، وطبقت أحكامه ، كان ذلك هو حق اليقين . . فتلك المعرفة القائمة على التوجيه الربّاني ، وعلى الهدى القرآني ، هي التي قادت خطى الرسول «ﷺ» في أعظم مسيرة عرفها التاريخ البشري ، فانطلق يرسي للحياة أسساً جديدة لم تعرفها من قبل ، واندفع يغرس في النفوس حقائق لم يألفوها فيما سلف ، حتى جعلَ الناسَ تقرُّ حقاً بسمو الرسالة التي يحمل ، وبصدق الدعوة التي إليها يدعو . . ولقد بلغ تأثير الإسلام في الناس حداً ، جعل القبائل في شبه الجزيرة تقبل على المدينة طائعة راضية ، لتدخل في الدين الجديد ولتقدم الولاء للرسول العظيم .



وفد طيء

فقد قدم وفد من طيء وعلى رأسهم سيدهم « زيد الخيل » فأقبل زيد على النبيّ «ﷺ» يحدثه فأحسن الحديث وأجاد في إتقان أدب الموقف بين يدي الرسول «ﷺ» فقال له النبي «ﷺ» : « ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلاَّ رأيتُه دون ما يقال فيه إلاَّ زيد الخيل فإنه لم يبلَّغ كلُ ما فيه » . ودعاه زيد الخير بدلاً من زيد الخيل . .

ولقد أقطعه النبي «ﷺ» أرضين ، وكتب له كتاباً بذلك ، وكان ذلك الإقطاع فيما يظهر إقطاع منفعة ، لاستخراج المعادن والزيوت ، وزرع ما يصلح للزراعة ، وكان النبي «ﷺ» يفعل ذلك في الأراضي النائية عن المدينة ، ليُمَكن الناس من اسعلالها ، واخراج ينابيع الثروة من باطنها ، ومنهم من يقدم على ذلك أجراً ، ومنهم من يكون إعطاءه لتأليف القلوب .

وخرج زيد الخير من عند رسول الله «ﷺ» راجعاً إلى قومه كي يدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله «ﷺ» : « إن ينجُ زيدٌ من حُمّي المدينة » ، فلما إنتهى من بلاد نجد إلى ماء من مياهه يقال له « فردة » أصابته الحمّى ، فمات بها ، فلما توفاه الله سبحانه عمدت

امرأته الى الوثائق التي كتبت بين رسول الله «ﷺ» وبين زوجها زيد الخير فأحرقتها جميعها ؛ وبلَغَ خبر عملها هذا علمَ النبي «ﷺ» ، فبعث ، في ربيع الثاني سنة تسع للهجرة ، عليَّ بن أبي طالب (رض) في مئة وخمسين فارساً إلى طيءَ ، يدعوهم للإسلام ، فإنْ استجابوا أمَّنهم وعاهدهم ، وإلاَّ غزاهم وحقَّق أمرَ الله - سبحانه - فيهم . ولم يأبَهْ بنوطيء لدعوة علي (رض) فشَنَّ عليهم غارة عاجلة ، في طليعة الفجر ، انتهت باستسلامهم ، فتقدَّم وفرسانه يهدمون صنمهم « الفُلْس » ، ويأخذونهم أسرى إلى المدينة ؛ ولم ينجُ إلاَّ عدي بن حاتم الطائي - وكان على النصرانية - ففرَّ بأهله إلى بلاد الشام . وكانت بين أسرى طيء إبنة سيدها الشهير حاتم الطائي ، وتدعى « سَفَّانَةْ » فاحتجزت مع السبايا في غرفة بجانب المسجد ، حتى مرَّ الرسول «ﷺ» على الأسرى ، فأعلنت عن نفسها ، ورجَتْه أن يمَنَّ عليها وهي تقول : « يا رسولَ الله ، هلك الوالد وغاب الوافد فامنُنْ عليَّ منَّ الله عليك » . ومثل هذا الرجاء جعلَ الرسول «ﷺ» يتفكَّرُ بما كان لوالد الأسيرة من سمعة طيبة بكرمه وحسن ضيافته بين العرب ، فأمَرَ على الفور بتسريحها من ضيق أسرها إكراماً لشرف بيتها وسماحة أبيها ، ثم كساها كسوة حسنة ، وبعث بها إلى بلاد الشام حيث يقيم أخوها عديّ .

وجاءت « سفَّانَةْ » تلتقي هذا الأخ ، وتحدّثه عن عفو محمد «ﷺ» ورأفته بها ، فيسألها :

- وما ترين في هذا الرجل يا أختاه ؟

فأجابته : « أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإنْ يك نبيّاً فللسابق إليه فضيلة ، وإن يك ملكاً فلن تزال في عز اليمن ، وأنت أنت » . .

فقال ، بعد تفكير طويل : « والله هذا هو الرأي » .

ولم يتمّ عدي بن حاتم الطائي أنْ ارتحل بأهله إلى المدينة ، وأقبل على النبيّ (ﷺ) يُسلِم على يديه ، وذلك لِفضل حسن معاملته وإكرامه لمن يستحق الإكرام من أصحاب البيوتات التي فيها نسمات خير يأمل أن تنضوي تحت لواء الإسلام العظيم . . وهكذا أقبلت القبائل ، وأقبل ساداتها بعد فتح مكة ، على رسول الله (ﷺ) يقرُّون له بالرسالة ويدينون بدين الإسلام ، وهو في مقامه بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شيء من سكينة الحياة العابقة بالهناءة ، الزاخرة بالتطلعات . .

ويشاءُ الله سبحانه ، أن تدخل على هذه الفترة من حياة النبي (ﷺ) سحابة من الحزن الشديد ، والألم العميق ،إذ توفيت ابنته زينب سلام الله عليها بعد ذلك المرض الذي لم يفارقها منذ أن تعرّض لها مشركان خبيثان ، يوم خروجها من مكة ، وأجفلا بها راحلتها حتى وقعت أرضاً ، فاعتلّت منذ ذلك اليوم ، إلى أن وافتها المنية في هذه الفترة . هذا الحادث أثّر في نفس النبيّ (ﷺ) أشدَّ الأثر ، لما كانت تختزنه هذه النفس الصافية من مشاعر إنسانية ، تفيض على القريب والبعيد . . فقد كان صلّى الله عليه وآله وسلَّم رحيماً إلى أقصى غاية الرحمة ، يشارك كل ذي ألم ألمه ، وكلَّ ذي مصاب مصابه ، فلا يترك في المدينة ، ولا في أطرافها مريضاً إلاَّ عاده ، ولا بائساً إلاَّ واساه ، يأسو جراح الكليم ، ويريح قلب

المتعب ، ومن هنا كان حزنه شديداً على ابنته ، خاصة وقد فقدَ بفقدها كل عقب له ، من ذكر وأنثى ، إلاّ فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين عليهم السلام جميعاً ، فقد بقوا قرة عين ، وأحبة فؤاد .

ولكنّ رب محمد «ﷺ» الذي يرعاه من عليائه ، لم يشأ جلّ وعلا أن يتركه لأحزانه ، فرزقه من مارية القبطية غلاماً ، دعاه ابراهيم ، تيمّناً باسم ابراهيم (عليه السلام) أبي الأنبياء ، وصاحب الحنيفية السمحة . ولم تكن ولادة ابراهيم حدثاً عادياً ، فأزواج النبي «ﷺ» جميعاً ، بعد السيدة خديجة سلام الله عليها لم يلدن له ، رغم أنه كانت فيهن الفتاة الفتية ، والنّصف التي أعقبت من قبل . فعلى امتداد سنوات عشر ، ظلت حياة النبي «ﷺ» خلواً من مولود جديد ، حتى وُلد ابراهيم ، فوجد فيه أُنساً لقلبه الكبير ، وراحة لنفسه الرضية .

ولقد أحبّ رسول الله (ﷺ) طفله ابراهيم عليه السلام حبّاً كبيراً ، فكان يمرّ كل يوم بدار مارية ليراه ، وليزداد أنسا بابتسامته البريئة الطاهرة ، ومسرّةً بنموّه وجماله ، فيحمله بين يديه ، ويأخذه إلى زوجاته ، كي يرينه ، ويرين شبهه العظيم به . ولكنّ هذا الحب للطفل البريء ، لم يُنسِهِ قطُّ واجباته تجاه ازواجه ، بل ظلّ يقوم على معاشرتهن بالمعروف ، وبالرحمة التي يعرفنها فيه ، ضارباً في هذا العيش الكريم أعظم مثل وأروعه في المعاملة والتربية البيتية التي يؤديها في بيته ، كما يؤديها في أمته . وكان يقول : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

ومن معالم هذه التربية أنه ما ظهر إنسان في التاريخ يأخذ بيد

المرأة كي يعلي من شأنها ويصل بها إلى بلوغ أسمى مكانة في حياتها كالنبي محمد «ﷺ» ولقد عبّر عمر بن الخطاب (رض) عن هذه المكانة الرفيعة ، التي جعلها «ﷺ» لنسائه والتي لم تكن معروفة قط عند العرب ، إذ حدّث فقال :

« والله إنْ كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمر أأتمره ، إذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها :

ومالك أنتِ ولِمَ أنت ها هنا ، وما تكلّفك في أمرٍ أريده ! فقالت لي :

عجباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد ان تُراجَعَ أنت وإنَّ ابنتك (حفصة) لتُراجع رسول الله «ﷺ» حتى يظل يومه غضباناً .

قال عمر : فأخذت ردائي ثم خرجت ، فدخلت على حفصة ، فقلت لها : يا بنيّة ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يظلّ يومه غضباناً ؟

فقالت : حفصة : والله إنا لنراجعهُ . فقلت :

تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله . يا بنيّة لا يغرّنك هذه التي قد أعجبها حسنُها وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إياها . .

ثم خرجتُ حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها ، فكلّمتها ، فقالت لي أم سلمة : عجباً لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه ! . . قال عمر :

فأخذتني أَخْذاً كَسرتْني به عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها » .

ففي هذا الجو الإنساني الرحيب ، وفي هذا السموّ المجتمعي ، كانت تعيش أزواج رسول الله (ﷺ) . ولكن هذه الحياة ، وإن كانت في جوّ النبوة ، وفي بيوت رسول الله (ﷺ) ، لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية ، والهواتف النفسية عند بعض الزوجات ـ رضي الله عنهن ـ فقد كان يبادر منهن ، أو يشجر بينهنّ ، ما لا بد أن يشجر في قلوب النساء في مثل هذه الحال . فمن قبيل ذلك ما روي عن تعلق زوجاته به ، وغيرتهن من بعضهن البعض .

فقيل إن النبيّ (ﷺ) كان يمكث عند زوجه زينب بنت جحش ، ويشرب العسل . فاتفقت عائشة وحفصة على تنفيره من ذلك المكوث وعلى إبعاده عنه ، وذلك بأن تقول أية واحدة منهما يدخل عليها : « أكلت المغافير . إني أجد منك رائحة مغافير » وقد نفّذت ما اتفقتا عليه إحداهما ، فلما سمع النبيُّ (ﷺ) ذلك قال :

« لا ، ولكنني شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود إليه » .

فأنزل عليه قوله تعالى: « يا أيها النبيّ لِمَ تحرِّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » ومهما يكن من أمر فإن الرواية تدل على المكانة الرفيعة التي جعلها النبيُّ (ﷺ) لنسائه ، حتى اجاز لهن مراجعته بشتى الأمور التي تواجههنّ، مهما كان شأن هذه الأمور ، صغيراً أم كبيراً ، فكان يستمع الى آرائهن ، ويحافظ على مشاعرهنّ ، لتكون

التربية العائلية التي يريدها ، تربية سليمة ، تقوم على احترام كيان المرأة ، واعتبار شخصيتها .

ورغم تلك المعاملة ، في أرفع مستوياتها ، ورغم ما كانت تفيض به من رفق وحنان قلَّ نظيرهما ، فقد ظلت المشاعر البشرية تلجّ بأزواج النبي «ﷺ» أعظم لجاج ، حتى إذا زادَ هذا اللجاج ، وبلَغ حداً لا يجوز أن يشغل به النبي «ﷺ» وقته ، رأى أن يلقي عليهن درساً يكفل ردَّ الأمور إلى نصابها ، ويبعد هؤلاء الزوجات عن تصرفات لا تليق بهنّ ، فاعتمد لأجل ذلك الصرامة والحزم ، وقرر هجرهن ، فإن نفع هذا الهجر وثبنَ إلى رشدهن فذاك ، وإلاَّ متَّعهن وسرّحهنَّ سراحاً جميلاً .

وانقطع رسول الله «ﷺ» عن نسائه شهراً كاملاً ، لا يكلّم أحداً في شأنهنّ ، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه في حديثهن وإنّه «ﷺ» يوماً لفي خلوته إلى ربه وإلى نفسه ، كان بعض الصحابة يجتمعون في المسجد ويتحدثون باعتكاف رسول الله «ﷺ» وفراقه لأزواجه ، وقد استبدَّ بهم القلق ، وأخذهم الهمُّ لأجله ، فيقولون : طلّق رسول الله «ﷺ» نساءه .

ولم يحتمل عمر بن الخطاب (رض) نفسه ساكتاً على هذا الأمر ، فترك رفاقه وقصد النبي «ﷺ» في مقامه طالباً إلى خادمه رباح أن يستأذن له في الدخول . ولكنّ رباحاً خرج من غير أن يقول شيئاً ، فعرف عمر أنه لم يأذن له . وكرر عمر النداءَ ، ولم يجب رباح مرة أخرى ، فرفع عمر صوته قائلاً : « يا رباح !! استأذن لي عندك على رسول الله فإني أظنه ظنَّ مجيئي من اجل حفصة ، والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها » .

وأذن النبي (ﷺ) فدخل عمر ، يجلس بين يديه ، ثم ذكر من أمر المسلمين بالمسجد ما يقلقهم ويحزنهم ، عندهـا كشف له النبي «ﷺ» الحقيقة ، وهي أنه لم يطـلّـق نساءه ، بل أرادَ تأديبهـنَّ بما يبعدهن عن أي لجاج ، فزاد سرور عمـر واستـأذن بأن ينـزل إلى المسجـد ويفضي بالأمـر إلى اولئـك المقيمـين فيه ، يتفـكرون ، وينتظرون بأسًى وحزن .

وفي هذه الأمور التي تتنـاول حياة النبي «ﷺ» ، في بعض شؤون بيته ، نزل قرآن كريم : ﴿ **يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما أحلَّ الله لك، تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلّـةَ أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم** . وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبّـأت به وأظهره الله عليه ، عـرّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبّأها به قالت : من أنبأك هذا . قال : نـبّأني العليم الخبير . إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إنْ طلقكـنّ أن يبدلـه أزواجـاً خـيراً منكن مسلمات مؤمنـات قانتـات تائبـات عابـدات سائحـات ثـيّبـات وأبكاراً ﴾ .

وأدركت أزواج النبـي «ﷺ» خطـأهـنَّ ، وثـاب إليهـنَّ وشدهن ، فاستوت الحياة في بيوته مليئة بالسكينـة . وهـي السكينـة التـي يحتاجهـا كل إنســان ليقــدر على مواجهــة الحياة ، وتحمّـل الأعباء ، فكيف إذا كان مثل رسول الله «ﷺ» الذي يحمل أعظم رسالة وأكبر أمانة من السماء إلى الأرض ؟

فما أروع الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء ، والسماء

تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلاً . تسأل إحدى أزواج النبي «ﷺ» : يا رسول الله ! من أنبأك بأنني حدّثت بما أسرّيت لي ؟ قال : نبأني العليم الخبير . . نعم هذه هي الصورة الرائعة لتدخل السماء ، هذا التدخل الجليل ، الذي يهدف لتسوية كل وضع ، ولبيان الحكم الألهي فيه ، حتى يكون قاعدة ثابتة أزلية على الزمان تدل أن الله سبحانه يحيط بكل شأن من شؤون الإنسان ، وبكل سكنة من سكناته ، لأنه أقرب إليه من حبل الوريد . .

وما أروعها صورة من الحياة البيتية للنبي الكريم ، الذي كان ينهض بإنشاء أمة وإقامة دولة على غير ما هو معروف في دنيا العرب ، بل وفي دنيا الناس كافة ، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الالهية في صورتها الأخيرة ، وتنشيء في الأرض مجتمعاً ربانياً قوامه الأسرة السليمة من العاهات الاجتماعية في صورة واقعية يحياها الناس .

وما أشرفها صورة من حياة إنسان عظيم ، يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته ، فلا تفترق هذه عن تلك ، لأن إرادة الله جرت بأن يكون بشراً رسولاً ، حينما جرت بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير .

وليست هذه الصورة في ترجمتها الحية إلاّ لكي تكون حياة الرسول «ﷺ» كتاباً مفتوحاً يقرأه الجميع وتراجعه الأجيال بعد الأجيال ، فيكون الأثر عميقاً في نفوس المسلمين ، ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من حيث التربية ، والتوجيه ، والتذكير ، وليقوا أنفسهم وأهليهم من عثرات الحياة ، وليأمنوا نار الآخرة وعذاب الجحيم .

على أنه مهما كانت الأمور التي كانت تمرّ بها حياة النبي «ﷺ»

في بيته ، فإنّها لم تغيّر شيئاً في سير الشؤون العامة التي ظلّت تسير على المنهج الذي يوحي به الله تعالى لرسوله وهو يقوم ببناء أمة ، مزودة بالإيمان الراسخ ، قادرة على احتمال كل ما ينشأ عن مقاومة الظلم وإقامة العدل من تبعات ، دون أن تَنيَ عن مطاردة الشر بكل صوره وأشكاله ، وإشاعة الخير بكل آفاقه ومعانيه .

وبمقتضى هذا المنهج الرباني ، تأسست دولة الإسلام في المدينة المنورة ، بعد هجرة الرسول «ﷺ» إليها ، ووضعت لها القواعد التي تضمن سلامة مجتمعها من كل آفة ، وحماية أرضها من كل غاز ، واعداد أفرادها ثقافياً وعسكرياً ، ليكونوا على مستوى المسؤولية ، في النهوض بأعباء الأمة المثالية الخيّرة .

ولم يطل الوقت حتى قامت دولة الاسلام ، بكل المقوّمات التي تؤلف كيانها المستقل ، سواء على صعيد التكيّف الداخلي مع منهج السماء ، أو على صعيد تطلعاتها الخارجية ، إن بالنسبة لشبه الجزيرة التي جعلتها بأطرافها القريبة والبعيدة تدين بالإسلام ، أو بالنسبة لمطامع الدول الكبرى التي راحت تعمل جاهدة لمنع أي حكم قوي يمكن أن يقوم بجانبها . فتلك الدول ، ولا سيما دولتا الفرس والروم ، كانتا صاحبتي السلطان المطلق ، ولهما وحدهما الحق بتقرير مصائر الشعوب من حولهما . فلما ظهرت دولة الإسلام ، وتمتعت بالقوة والسيادة ، أوجس الفرس والروم خيفة منها ، لأن وجودها يعني منافستها على السلطان ، إنْ لم يكن للقضاء على ذلك السلطان . .

ولم تقف مخاوف هاتين الدولتين عند هذا الحدّ ، بل رأتا في وجود دولة الإسلام ما يهدد مصالحهما إن من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية . فمن الناحية السياسية ، كانت تقوم على أطراف الجزيرة قبائل من العرب ، على شكل ممالك تدين للروم أو للفرس ، وتأتمر بأوامرهم ، فكان الغساسنة في بلاد الشام اتباعاً للروم ، وكان المناذرة في العراق أتباعاً للفرس ، وهذه الممالك قد تدين بالإسلام ، مما يجعل خطر دولته حالاً لا محالة . أما من الناحية الاقتصادية ، فكانت التجارة التي تقوم بها قبائل العرب ، ولا سيما قريش ، تذرع أطراف البلاد التي تخضع لدولتي الروم والفرس ، ناقلة إليها المواد والسلع على اختلاف أنواعها . فإن انقطع العرب عن تلك التجارة ، فإنَّ انقطاعهم يسبب لهما خسارة كبيرة في موارد العيش ، وفي شتى المنافع الاقتصادية التي تجنيهما من وراء ذلك .

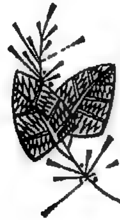
ولقد أمكن لدولتي الروم والفرس أن تفرضا إرادتهما على شبه الجزيرة ، وساعدهما على التحكم بمصائر قبائلها ، ما كانت عليه تلك القبائل من حياة قبلية ، منعت قيام الوحدة الجامعة بينها ، وحالت دون جمع شتاتها وتوحيد كلمتها ، فخلت من وجود الكيان السياسي ، الذي يكفل إقامة الدولة على أراضيها . وظلَّ عرب شبه الجزيرة أحقاباً طويلة على تلك التفرقة ، لا تهتم كل قبيلة إلا بشؤونها الخاصة ، أو بإقامة تحالف مؤقت مع قبيلة أخرى ، فضلاً عن العداوة الدائمة التي يفرضها شظف العيش ، ويدفع إلى الغزو والسلب ، بما أبعد كل فكرة لإقامة الدولة السياسية .

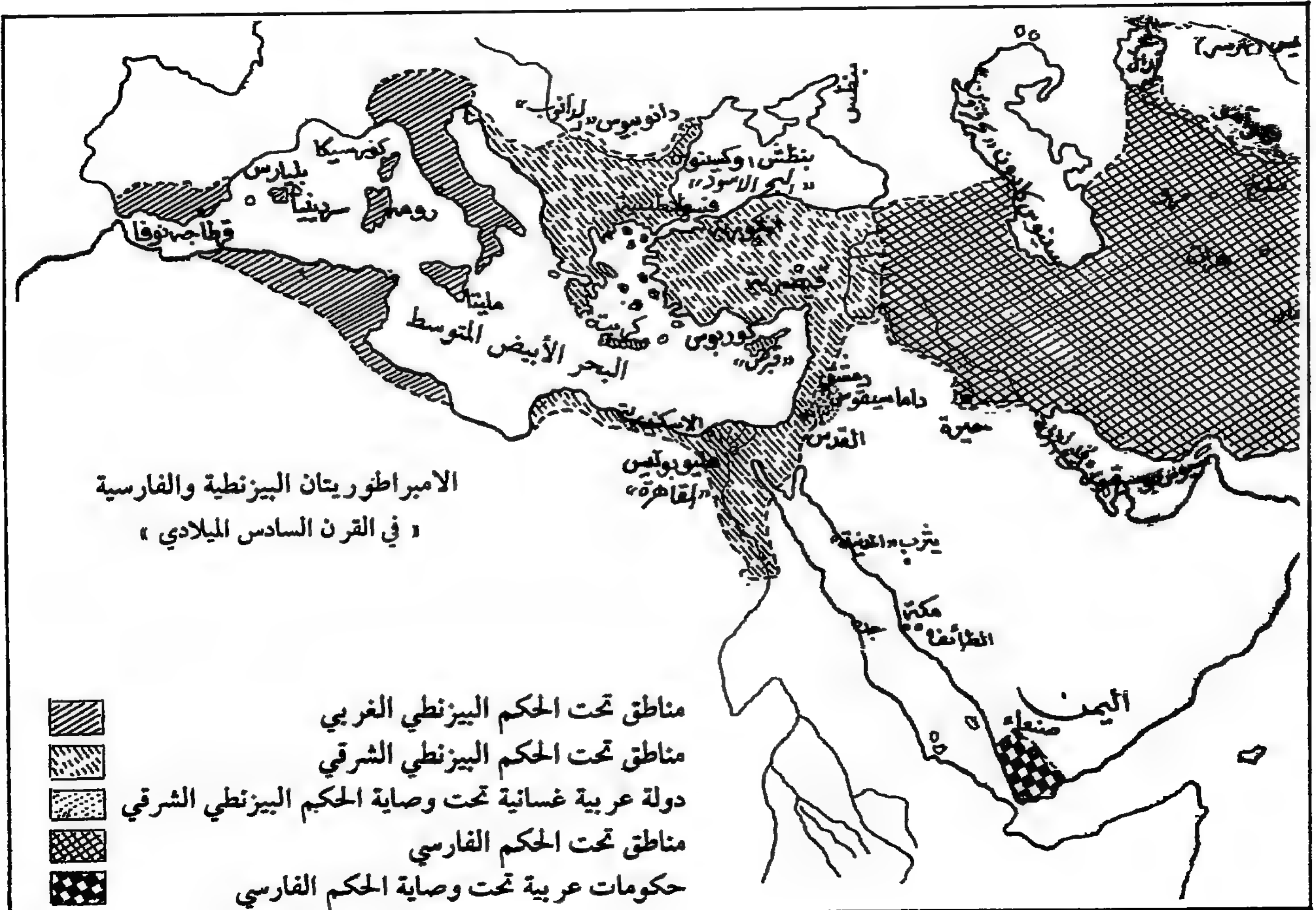
نعم ، أدرك الروم والفرس هذا الواقع ، فعملت الدولتان

على بقائه واستمراريته . ومن هنا كان ظهور الاسلام الذي يحث على التكتل لا التفرقة ، نذير خطر عليهما ، فلما أخذ سلطانه يتوسع شيئاً فشيئاً ، وانتشرت الدعوة فياضة في نواحي الجزيرة كلها ، ثم لما كان فتح مكة وما أعقبه من زوال قوة قريش أقوى عدوّ للدعوة ، فقد أيقن الروم أن الخطر بدأ يزحف عليهم ، ويوشك أن يوقع بهم . ولذا رأوا أنه لا بد من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره .

وكان الروم يومئذٍ في أوج المجد والعنفوان ، وكانوا يظنون أنهم قادرون على تحطيم دولة الإسلام ، بفضل ما عندهم من القوة والعتاد ، فلا بد إذاً من القيام بهذه الخطوة سريعاً ، حتى يمكنهم القضاء على كل أمل لتلك الدولة في البقاء . ومن اجل ذلك راح الروم يعدون العدة ، ويهيّئون لغزو حدود العرب الشمالية بما يحقق لهم أغراضهم .

واتصل نبأ تهيئة الروم لهذا الغزو برسول الله ﷺ مجسّماً أيّما تجسيم ، فقرّرَ مواجهة هذه القوة بأشَدّ منها ، ورأى أن يذهب بنفسه لمواجهة الروم ، على رأس الجيش الذي يعدّه .




الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية
« في القرن السادس الميلادي »
مناطق تحت الحكم البيزنطي الغربي
مناطق تحت الحكم البيزنطي الشرقي
دولة عربية غسانية تحت وصاية الحكم البيزنطي الشرقي
مناطق تحت الحكم الفارسي
حكومات عربية تحت وصاية الحكم الفارسي
البحر الأبيض المتوسط
روما
كورسيكا
سردينيا
مليتا
قسطنطينية
كريت
كودبوس
القدس
الاسكندرية
القاهرة
داماسيقوس
حيرة
يثرب «المدينة»
مكة
الطائف
اليمن
صنعاء
بنطس
بنطش، وكسينوس
«البحر الأسود»
دانوبيوس «الدانوب»
قرطاجنة
بليارس

غـــزوَة تـَـبوك

كان الوقت في أوائل الخريف ، وهي فترة تشتد فيها الحرارة حتى تصبح أشد من قيظ الصيف ، ثم إنَّ الرحلة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة وشاقة ، وتحتاج إلى الجلد وإلى المؤونة والماء . ومثل هذه الأمور ، قد تعسر على جيش ينطلق من المدينة إلى تلك البلاد ، ولذلك يتوجب لها اعداد وتخطيط محكمان ، يختلفان عما اعتاده المسلمون في سالف الغزوات والحروب ، عندما كان رسول الله «ﷺ» يتخذ القرار في الخروج دون أن يفصح عن وجهته ، وأحياناً قد يغير وجهة المسير ، حيث يقود جيشه إلى غير الناحية التي كان يقصد ، تضليلاً للعدو ، وإيهاماً له ، حتى تلتبس عليه الأمور ، ولا يعود قادراً على اتخاذ التدابير التي تمنع عنه الزحف .

من أجل ذلك ، كان قرار رسول الله «ﷺ» أن يعلن منذ البداية عن عزمه لمقابلة الروم على حدود بلادهم ، وأن يستعد المسلمون لحمل السلاح كل من استطاع إليه سبيلاً . فبعث في القبائل جميعا ، يدعوها للتهيؤ ، وفي الوقت نفسه دعا إلى توفير كافة الامكانيات والتجهيزات نظراً لما يحتاجه الجيش الذي يعدّه من أدوات حرب وعتاد ، وما يقتضي ذلك من أموال طائلة ، حض أهل الغنى على أن ينفقوا في سبيلها مما آتاهم الله من فضله .

وقد استقبل الناس دعوة رسـول الله «ﷺ» للإنفـاق والتهيؤ استقبالاً متبايناً . فأما المؤمنون الصادقون ، الذين امتلأت قلوبهـم هدى ونوراً ، فقد أقبلوا يلبون الدعوة خفافاً مسرعين ، ومنهم الفقير الذي لا يجد دابة يحمل نفسه عليها ، ومنهم الغني الذي يضع ماله بين يدي رسول الله «ﷺ» برضى وطيب خاطر .

وجاءَ أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم ، هي ماله وكل ما يملك ، فسأله النبي «ﷺ» إن كان قد أبقى لأهله شيئاً ، فقال أبو بكر (رض) : أبقيت لهم الله ورسوله .

فهو يرى بأنه ينتمي إلى دولة الإسلام ، وهي التي تقوم برعاية شؤونه وشؤون أهله وعياله ، فإن كانت دولته بخير ، فإنما يكون هو ومن يكفل بخير ، ولو كان لا يملك درهماً واحداً ، لأنها هي التـي تكفل حياة أفرادها ، بما يستحقون من كرامة وعناية . أما إذا أزيلت هذه الدولة من الوجود ، فإن أموال الأرض كلهـا وثرواتهـا ، ولـو كانت من الذهب الخالص ، لا تفيده بشيء ، لأنه بزوال دولته يفقد الانتماء ، ويصبح بلا هوية ووطـن .

نعم تلك كانت نظرة أبي بكر الصديق التي ترى في وجود دولة الإسلام وجوداً للمسلمين ، وبفقدانها فقداناً لكيانهـم الجماعـي ، وزوالاً لهوية المسلم الفردية .

هذا من الناحية المادية . أما من الناحية الإيمانية والدينية ، فإنّ أبـا بكر يعهـد بعيالـه إلى الله تعـالى ورسولـه «ﷺ» ، فهما خـير كفيلين ، وخير معينين لكل إنسان على وجه الحياة إن سلم أمـره لله

سبحانه ، وانضوى تحت لواء رسوله الكريم .

وتبقى نظرة أبي بكر الصديق ثابتة بصدقها حتى يومنا هذا . ولئن أضاعَ المسلمون هذه النظرة ولم يهتدوا إليها ، فإن أعداءهم قد أخذوها وتمسكوا بها دستوراً ينشئون على أساسها الدول ويقيمونها ولو بالاعتداء والظلم . فهذا رئيس وزراء اسرائيل ، مناحيم بيغن يصرح أن دولة اسرائيل ، هي لجميع بني يهود في العالم . فهو يرى أن الانتماء الصحيح لليهودي إنما يكون لدولة يهودية موجودة ، دون أن يكون للجنسية التي يحملها اليهودي = أية كانت هذه الجنسية = أي أثر على ذلك الانتماء. وبالفعل نشهد ، ويشهد العالم ، كيف أن اليهود ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يعملون على الدوام لمدّ دولة اسرائيل بكل مقومات العيش ، وبكل أسباب القوة ، حتى تبقى محافظة على وجودها ، ويبقى لهم الانتماء الذي يريدون .

ومثل أبي بكر الصديق انبرى سائر المؤمنين الموسرين ، ينفقون لتجهيز الجيش ، فقدم عثمان بن عفان (رض) عشرة آلاف دينار ، وثلاثمائة بعير وخمسين فرساً وكان لهذا التبرع السخي ، الأثر الكبير في إنجاز تجهيز جيش العسرة.وجاء عمر بن الخطاب (رض) بنصف ماله ، كما جاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة ، وحمل العباس بن عبد المطلب مالاً كثيراً ، قيل إنه بلغ تسعين ألف درهم . وقدّم عاصم بن عديّ كمية كبيرة من التمر قيل بلغت سبعين وسقاً ، أي حمل بعير ، أو في المكيال ستين صاعاً بحيث يزن الصاع ستة ارطال وثلث . ولم يبخل المؤمنون الآخرون بما عندهم ، أمثال طلحة بن عبد الله ، وسعد بن عبادة الأنصاري ، ومحمد بن

سلمة ، وغيرهم ، ممن قدّم ما يقدر عليه . وشاركت النساء في التجهيز ، فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي رسول الله «ﷺ» ما بأيديهن من أساور وخواتم وما في آذانهن من شُنوف وأقراط ، وما بأعناقهن من عقود وقلائد . .

هكذا كان اندفاع المؤمنين ، فكلٌّ يعطي بحسب طاقته ، وما ألهمه .الله سبحانه وتعالى . فمن استطاع أن يجهّز غيره لم يتأخر في ذلك ، ومن لم يستطع اكتفى بتجهيز نفسه .

وجاءَ النبيَ «ﷺ» نفرٌ من المؤمنين ، عجزوا عن تجهيز أنفسهم ، يسألونه أن يحملهم على ما عنده من الركائب ، ولم يكن قد بقي منها شيء يفيض عن الحاجة ، فقال لهم : « ما أجد ما أحملكم عليه » . فتولّوا وعيونهم تفيض بالدمع ، حزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد ، ولكثرة ما ذرفوا من دمع ، بسبب عجزهم عن تجهيز أنفسهم ، سمّوا بالبكائين . وفيهم نزل قول الله تعالى : **﴿ الذين اذا ما أتوْك لتحملهم قلت لا أجد ما احملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألاّ يجدوا ما ينفقون ﴾** .

هذا هو فعل المؤمنين الصادقين ، عطاء وبذل ، وتضحية في سبيل الله ورسوله . أما الذين دخلوا في الدين رغباً ورهباً ـ رغباً في مغانم الحرب ، ورهباً من بأس المسلمين ـ فقد تثاقلوا ، وبدأوا يلتمسون الأعْذار . فهذا الجد بن قيس ، أحدبني سلمة ، يقول له الرسول «ﷺ» ذات يوم وهو في جهازه : « يا جَدّ ، هل لك العام في جهاد بني الأصفر . . ؟

فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتنّي ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عُجبا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر » . فأعرض عنه الرسول «ﷺ» وقال : قد أذنت لك . .

وفي الجَدّ وامثاله من المعذّرين ، نزل قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألاَ في الفتنة سقطوا وإنّ جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ .

ومن الذين لم يدخل الايمان في قلوبهم ، بل هم دخلوا في الإسلام لأغراض ومآرب معينة ، قوم من المنافقين ، رأوا في دعوة رسول الله «ﷺ» لغزو بلادٍ بعيدة ، وفي جوٍّ محرقٍ لاهب ، ما يستدعي هزءهم وسخريتهم فراحوا يتهامسون بذلك فيما بينهم ، ويقول بعضهم لبعض : « لا تنفروا في الحرّ » زهادة في الجهاد ، وشكّاً في الحق وإرجافاً برسول الله «ﷺ» فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحرّ ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً ، وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ . ولم يقفِ المنافقون عند حد تباطُئِهم عن الخروج للقتال ، بل صاروا يحرّضون الناس على التخلف عن ذلك . ورأى الرسولُ «ﷺ» أنّ ما يسعى إليه هؤلاء إنما هو الفتنة بعينها ، لما في دعواهم من تخذيل لغيرهم ، وبذرٍ للشكوك ، وافتعال أعذار كاذبة ، فأخذهم بالشدة ، وضرب على أيديهم بكل قسوة . فلما بلغهُ ان جماعة منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلم اليهودي ، بعث اليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، فحرّق عليهم بيتَ

سُويلم ، وفرَّ الضحاك بن خليفة من ظهر البيت ، فانكسرت رجله ، بينما نجا الباقون بفرارهم . وقد كان للحزم والشدّة اللذين أظهرهما رسول الله «ﷺ» في معاملة المنافقين ، ما خفّف غلواءهم في تخذيل الناس وتثبيط الهمم ، وإنْ لم يقعدهم بتاتاً عن الدّس والتحايل بشتى الأساليب .

وانتهى الاستعداد ، واجتمع الجيش ، فخرج به النبيّ «ﷺ» بعد ان استخلف على المدينة عليّ بن ابي طالب (ع) لأن المدينة دار هجرة الرسول والمسلمين ، ولأن فيها ومن حولها منافقين ربما كادوا للإسلام ، فما ينبغي أن تترك على غير علي (ع) الذي وجودُه بذاته فيها يبقى مرهوباً يخشاه المنافقون . أما علي (ع) فقد وقف بين يدي رسول الله «ﷺ» حزيناً لعدم اشتراكه في الجهاد وهو أبو الزند والسيف الفتّاكين ، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أتخلفني مع النسوة والصبيان ؟ فرفع النبي «ﷺ» اليه طرفه الشريف وقال : « يا عليُّ ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي ؟ إنه لا ينبغي في الظرف الحاضر أن يبقى في المدينة إلاّ أنا أو أنت . فأذعن علي (ع) لقول النبي «ﷺ» لأنه كان يدرك ويشعر بدقة الموقف،وأذهل هذا الاستخلاف المنافقين وأهل الريب الذين علموا أنهم مراقبين من علي الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، وبذلك توارت من أذهان المنافقين صورة الفتنة التي كانت يمكن أن تمرَّ في مخيلاتهم اثناء غياب النبي «ﷺ» عن المدينة المنورة . وحانت ساعة المسير ، فأصدر الرسول «ﷺ» أوامره ، وزحف الجيشُ قاصداً تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة

للهجرة . ثلاثون الفا ،كان يتقدمهم عشرة آلاف فارس على رأسهم رسول الله «ﷺ» بقيادته الحكيمة الرشيدة ، وبقوة شجاعته النادرة ، فخرجت النسوة يشهدن هذا الجحفل الجرار ، وهو يتوجه صوب الشام ، مخترقاً الصحراء ، لا يأبه لظمأ أو حرّ أو جوع ، بل يستهين بكل شيء في سبيل الله ونصرة دينه . . .

وبعد أن انطلق الجيش نحو تبوك ، فكّر المنافقون أن يضربوا ضربتهم القاضية ، ويجعلوا المدينة في قبضة أيديهم ، ولكنهم رأوا أنّ العائق الكبير الذي يقف في طريقهم هو علي بن أبي طالب (ع) فراحوا يرجفون عليه ويقولون : ما خلّفه محمد إلا استثقالاً له وتخفّفاً منه وكان ذلك من شدة مكرهم وخداعهم ، وأمعنوا في المكر ، فراحوا يأتون علياً (ع) متظاهرين بالمودة له ، وبغبطته على ثقة الرسول «ﷺ» به ، إذ أبقاه على الأهل والذراري في الوقت الذي يكابد فيه المسلمون مشاق السفر في الأرض البعيدة ، ويعانون من شظف العيش ومرارة القتال .

وكان علي (ع) يعرف نفاقهم ومكائدهم ، ولكنه كان مطمئناً إلى يقظته وقدرته على أن لا يترك للمنافقين مجالاً للإفساد ، ولا لأهل الريب والطمع فرصة لتحقيق الأغراض الدنيئة . .

فقد فوّت رسول الله «ﷺ» عليهم فرصة الفساد ، بإبقائه علياً (ع) في المدينة ، فما عادوا يرجون وقوع فساد ولا اختلاط أمر ولاشقاقاً ولا نفاقاً .

نعم كانوا يأملون بأن الخسارة سوف تحيق بالمسلمين ، وسوف

تكون نهاية سلطانهم ، وفي أسوأ الحالات ، فإن ربحهم في تلك المعركة إذ حصل ، فسوف يكون ربحاً هزيلاً ، لأنهم سيعودون منهوكي القوى ، ضِعافاً مضعضعين ، بخلاف ما هم عليه وقت خروجهم . ومثل هذا الضعف في المسلمين يبرز للمنافقين قوة فيجعلون من أنفسهم عيوناً لدولة الروم ، ويقدمون لها كافة المساعدات ، التي تمكّنها من معاودة قتال المسلمين والقضاء عليهم . . تلك كانت النوايا التي عقدها المنافقون ، يوم خروج النبي «ﷺ» إلى تبوك ، ولم تخف تلك النوايا الخبيثة على رسول الله «ﷺ» البصير الحكيم ، فاستخلف أخاه علياً على المدينة ، حتى يمنع أهلها من الريب والنفاق ، ومن تحقيق أغراضهم ، إذْ ببقائه في المدينة يضمن سلامة الأمور ، أياً كانت النتائج التي تسفر عنها الحرب مع دولة الروم . .

ثم ما زال الجيش الإسلامي يتقدم في مسيرته ، حتى بلغ الحِجْرَ ، وبها أطلال لمنازل ثمود منقورة في الصخر . هنالك أمر رسول الله «ﷺ» بالنزول فاستقى الناس من بئرها . فلمّا راحوا قال لهم : لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضأوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً . ولا يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلة إلاَّ ومعه صاحب له . ذلك أن المكان كانت تعصف فيه أحياناً عواصف الرمل فتطمر الناس والإبل . ولقد خرج رجلان من بني ساعدة ، أحدهما لحاجته والآخر في طلب بعير له . فطمرت احدهما الرمال ، واحتملت الريح الآخر ، وقد عثر في الصباح علي الأول فنجا ، بينما كانت طيء قد التقطت الآخر ، فعادت واهدته إلى

رسول الله «ﷺ» .

ثم إنَّ رسول الله «ﷺ» سار حتى كان ببعض الطريق ، فاذا رهط من المنافقين يقولون للمؤمنين : أرأيتم أن رسول الله «ﷺ» يقودنا إلى قتال الروم ، « اتحسبون جلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ! والله لكأنّا بكم غداً مُقْرَنين في الحبال » . وكانت غايتهم من ذلك ، كما هو واضح ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . ولعلَّ مقالة هذا الرهط قد بلغت الرسوَل «ﷺ» فدعا إليه عمّار بن ياسر وقال له : « أدرك القوم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا ، فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا . . » . فانطلق إليهم عمّار ، فقال ذلك لهم ، عندها أدركوا بأنه قد أوحي بأمرهم إلى رسول الله «ﷺ» فأتوه يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ، وهو آخذ بحقب ناقة رسول الله «ﷺ» : «يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب » . فنزل فيهم قرآناً بقوله عز وجلّ : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل : استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون** ﴾ ! . .

ثم مضى رسول الله «ﷺ» سائراً في جيشه ، وكان السير شاقاً والناس منه في عُسْرة لشدةٍ من الحر ، وجدْب في البلاد ، في وقتٍ طابت عند الناس فيه الثمار والظلال ، وأحبوا المقامَ في الفيء والظل ، وكرهوا الشخوص إلى منازل بعيدة ، حين جاءَ الأمر بالخروج إلى تبوك ، ووقعت الدعوة إلى الجهاد لدفع عدو غاشم ، ودرء خطر حالّ ، فلم يكن أمام المؤمنين ـ وهم أهل الدعوة

وحماتها ـ إلاَّ الامتثال للأمـر ، والتلبية للدعـوة ، لا يقعدهـم عن داعي الجهاد داعٍ ، ولا يبقيهم سبب ، أياً كانـت الأسباب غير مؤاتية ، ومهما كانت الظروف غير ملائمة : إذ « ما كان لأهل المدينة ومن حولهـم من الأعـراب أن يتخلفـوا عن رسـول الله ولا يرغبـوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهـم ظمأٌ ولا نَـصَـبٌ ولا مخمصـةٌ في سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدوٍّ نَـيْـلاً إلاَّ كتب لهم به عمـلٌ صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا يُـنفقون نفقـةً صغيرةً ولا كبيرةً ، ولا يقطعون وادياً إلا كُـتب لهم ، ليجزيهم الله أحسـنَ ما كانوا يعملون » .

ولقد قاسى رسول الله (ﷺ) والمؤمنون في هذه السفرة مشقة بالغة ، وعنتاً شديداً ، حتى لقد ذكر أن الرجلين من شدة الجوع كانا يقتسمان التمرة بينهما ، وآخـرون يتداولونهـا بمـصّـهـا ثم يشربـون عليها . . ولقد كثرت حاجتهم إلى الماء ، فأصابهم عطش شديد ، حتى قيل إنهم كانوا ينحرون الإبل ، التي هم بأمس الحاجة إليها ، فينفضون أكراشها ويشربون ماءها . .

وليس من عجيب ، وفي اجتماع هذه المشـاقّ من الطعـام ، والماء ، والقيظ ، ومشقة السفـر ، أن يدعـى الجيش الـزاحف إلى تبوك ، جيش العسرة . . إلاَّ أنه مهما يكن الإعسـار ، ومهما تكن الشدة ، فإنَّ المشاق التي عانى منها المسلمون في سيرهم الى تبوك ، كانت امتحاناً من الله سبحانه لهـذا الجيش الكبـير ، إذ أراد به عـزَّ وجل ، تمحيص المؤمنين ، واظهار أهل النفاق ، على حقيقتهـم . ولقد ظهرت الحقيقة ، فكان المؤمن ، صابـراً ، صادقـاً ، متلهفـاً

للقتال في سبيل الله ، بينما بدا المنافق ، الذي يتظاهر بالإيمان ، خائر القوة ، واهن الهمة ، يتسلل من وراء الصفوف ، ليرجع إلى المدينة ، فيقعد مع المتخلفين . . وكان كلما تخلَّف رجل يقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول :« دعوه ، فإنْ يك فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

وكان من هؤلاء المتخلفين الذين لم يخرجوا مع النبي «ﷺ» أبو خيثمة ، الذي لم يلبث ، بعد أن سار مع رسول الله «ﷺ» بضعة أيام ، أن داهمه يوم حار ، فعاد إلى أهله ، ليجد امرأتين له ، في عريشين لهما ببستان ، قد رشّت كل منهما عريشها ، وبرّدتْ له فيه ماءً ، وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : « رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الضّحّ (الشمس) والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ! ما هذا بالعدل والإنصاف » . . ثم نظر إلى امرأتيه وقال : « والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله «ﷺ» فهيّئا لي زاداً . . » .

واحتمل أبو خيثمة زاده ، ثم أتى ببعيره ، فوضع عليه الرحل ، وجدَّ في طلب رسول الله «ﷺ» حتى أدركه وقد ترك تبوك .

ومن بين الذين تخلَّفوا أثناء السير نحو تبوك نجد أبا ذر الغفاري جندب بن جنادة ، قد تأخر به بعيره عن الجيش ، فقيل

لرسول الله «ﷺ» : يا رسول الله ، قد تخلّف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : « دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . .

وكان بعير أبي ذر قد تعب ولم يعد قادراً على أن يلحق بالركب . فلما رآه أبو ذر على هذه الحالة تركه وأخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر الجيش ماشياً . وكان رسول الله «ﷺ» قد نزل في بعض منازله ، فنظر رجل من المسلمين ، وقال : يا رسول الله ، أرى رجلاً يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله «ﷺ» : « كن أبا ذرّ » . فلما قرب ، وعرفه الناسُ ، قالوا :«يا رسول الله ، هو والله أبو ذر » . فقال رسول الله «ﷺ» : « رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » . .

ولئن تتداول الأيام ، وتنقضي السنون ، فإنها تأتي مصدقة لقول رسول الله «ﷺ» ، فقد روى عبد الله بن مسعود ، قال : « لما نفى عثمان أبا ذر إلى الرَّبذة ، وأصابه بها قدره لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن أغسلاني وكفناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرُّ بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فأعينونا على دفنه . فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق . واقبلتُ في رهطٍ من أهلِ العراق وأثناء السير فوجئنا بالجنازة على قارعة الطريق ، قد كادت الإبل تطأها ، وقام إلينا غلام ، فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله «ﷺ» فأعينونا على دفنه . فاستهللت

أبكي واقول: «صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين قال عنك يا أبا ذر : تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . ثم نزلت أنا وأصحابي فواريناه » . .

هـذه صور حيـة عن بعض أولئـك المؤمنـين ، الـذين نذروا أنفسهم للدعوة ، مهما كانت الصعاب وكيفما كان المصير .

وبلغ جيش المسلمين تبوك ، فنزل رسـول الله «ﷺ» وأقـام معسكره هناك ، لا يجد أثراً للروم . . . ذلك أن الروم كان قد بلغهم أمر مسيرة محمد «ﷺ» إليهم ، وما هو عليه من كثرة العدد ، ومناعة القوة ، وكأنهم تذكروا حربهم مع المسلمين أيام « مؤتة » وما شاهدوا من استبسالهم وما رأوا من قدرتهم على الصمود، فأدركوا أنه لا قبلَ لهم على مواجهة هذا الجيش الذي يزحف به محمـد «ﷺ» ، لأنـه سوف يكون بنفس روحية ومناقبية جيش مؤتة ، فكيف إذا كان يفوقه عدداً وعـدة وبقيادة رسـول الله نفسـه ؟!.. ولـذلك آثـر الـروم الانسحاب بالجيش الذي كانوا وجهوه إلى الحدود ، ليحتمي داخل بلاد الشام في الحصون دون أن يلاقـي جيش المسلمـين في حرب أو قتال .

نعم نزل رسول الله «ﷺ» في حصن تبوك ، واكتفـى بهـذا النزول ، إذ لم يـرَ مبرراً لتتبّـع الروم إلى بلادهم مع تعب جيشـه ووصبه ، وطالما أنه قهرهـم بالرعـب والخـوف ، قبـل أن يقهرهـم بالحرب ، وطالما أنه أدخل في روعهم ، أن بلادَ الإسلام ، لن تكون لهم لقمة سائغة كما يتوهمون ، بل هي حصينة منيعة بإيمان أبنائها ،

وبقوة دينها ، وبسلطان دولتها . .

وأقام رسول الله «ﷺ» عند الحدود ، ينازل من شاءَ أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة وضمان هذه الحدود حتى لا يتخطاها بعد ذلك أحد ، وأثناء إقامته بعث ببعض الرسائل إلى أمراء القبائل ، والمقاطعات الواقعة تحت حكم الروم . ومن هؤلاء أهل الجرباء ، وأهل أذرح ، ويوحنّا بن رؤبة صاحب أيْلة ، يدعوهم إلى الإذعان أو الغزو ، فقبلوا جميعهم بالخضوع ، وقدموا الطاعة ، وصالحوه «ﷺ» وأعطوه الجزية . وكتب لهم رسول الله «ﷺ» كتب أمْنٍ ، هذا نص أحدها ، وهو الذي كتبه إلى يوحّنا :

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذه أمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنّة بن رؤبة وأهل أيْلة سفنهم وسيّارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبيٍّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن احدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس . وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر » .

ورأى رسول الله «ﷺ» أنه لم يبق من حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد إقامة المعاهدات مع أهل البلاد الواقعة على الحدود ، إلاّ أنه تحسّب لأكَيْدر بن عبد الملك الكنديّ النصراني ، أمير دومة الجندل (على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة) ومعاونته جيوش الروم إن جاءت من ناحيته ، ولذلك

بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس . .

وخرج خالد على رأس هذه السرية ، وأسرع بالانقضاض على دومة الجندل ، في غفلة من مليكها ، الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسّان ، ونفر من أهل بيته ، يصطادون بقر الوحش ، فإذا بهم يجابهون بخيل رسول الله ﴿ﷺ﴾ تلقاهم في وجوههم ، وتأخذهم أسرى دون أية مقاومة ، إلاّ ما بدر من حسان ، أخ أكيدر ، فإنّ مقاومته أدت إلى قتله . .

وفتحت دومة أبوابها ، وساق خالد منها ألفي بعير وثمانمائة شاة واربعمائة وسق من بُرّ واربعمائة درع ، أخذها وذهب بها ومعه أكيدر ليلحق برسول الله ﴿ﷺ﴾ وقد ترك تبوك بعد أن أقام فيها نحو عشرين ليلة .

عادَ خالد بن الوليد ، وقدّم أكيدر الكندي بين يديّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وكان أكيدر نصرانياً ، فعاقده الرسول ﴿ﷺ﴾ على الطاعة ، وتقديم الجزية .

وكان خالد قد حمل معه ، من جملة ما حمل من مغانم ثوباً مزركشاً بالذهب ، كان أكيدر يلبسه ، لما عرف عنه من إقبال على زخرف الحياة ومتعها ، وإعراض عن جليل الأعمال وشريفها ، فاتخذ مظاهر الدعة والترف مشرباً ومسلكاً له في الحياة . . ولشدة ما تميّز به ذلك الثوب من دقة الصنع ، وندرة الحبكة والتطريز ، لفت نظر بعض الصحابة ، فراحوا يتلمسونه بأيديهم ، وهم معجبون به ، فإذا رسول الله ﴿ﷺ﴾ ينهاهم عن ذلك ، لأنه في الحقيقة ، لا

يعدو عرضاً من أعراض الدنيا الزائفة ، التي قد تطغى على كيان الإنسان ، فتجذبه عن ميزته الإنسانية ، وتفرغه من صدق جوهره ، فإذا كان هذا الحال بالنسبة لبني الإنسان عامة ، فما بال أناس نذروا أنفسهم لله ، وللجهاد في سبيل دينه ، أفلا تقعدهم مثل هذه الأعراض عن العمل في سبيل الغاية الجليلة التي إليها يسعون ؟! .

نعم ، لقد أبى رسول الله ﴿ﷺ﴾ على الصحابة حتى الإعجاب بثوب موشّى بالذهب ، ورفض أن يكون عندهم هذا الأعجاب ، وهم يعرفون أن هنالك نعيماً أبدياً في الآخرة لا يزول ، وجنة سرمدية لا تفنى . . فجاءهم النهي بقوله ﴿ﷺ﴾ : « أتعجبون من هذا ! فوا الذي نفسي بيده ، لمناديل سعد بْن معاذ في الجنة أحسن من هذا » ! .

تلك كانت سرية خالد بن الوليد الى « دومة الجندل » ، وما أعقبها من خضوع مليكها أكيدر ، عامل هرقل الروم ، بموجب كتاب أمان من رسول الله ﴿ﷺ﴾ له ، مقابل دفعه الجزية . .

وكان في طريق العودة من تبوك ماء يخرج من وَشَلٍ ، ليس بغزير ولكن قد يروي بعض الركبان القلائل ، ويقع بوادٍ يقال له المشقَّق ، فلما كان الجيشُ منه على مسافة ، أمر رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ ألاَّ يقربوه ، فقال :

« من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقينَّ منه شيئاً حتى نأتيه » ، ولكنَّ بعض المنافقين لم يمتثلوا للأمر ، بل سبق إليه نفر منهم فاستقوا ما فيه ، حتى إذا أتاه الرسول ﴿ﷺ﴾ لم يجد فيه شيئاً ،

فسأل : من سبقنا الى هذا الماء ؟ فقيل له : يا رسول الله ، فلان ، وفلان . . قال :أ وَلَمْ أنهَهُمْ أن يستقوا منه حتى آتيه ؟! . .

ولعن رسول الله «ﷺ» اولئك النفر ، ودعا عليهم ، لأنَّ ما فعلوه يخالف روح الجماعة وتعاونها ، إذْ كان الجيش كله بحاجة للماء ، والواجب يقضي بأن يُوزَّع هذا الماء على الجميع ، فيستقي كل واحدٍ ولو بِنَزْرٍ يسير ، لا أن يرتوي عدد قليل ، ويُترك الباقون للعطش ، مما يدلُّ على عدم تحسس أولئك المنافقين لمصلحة الجماعة ، والتباعد عن العمل لتأمين تلك المصلحة ، فحق لهم أن ينالوا غضب رسول الله «ﷺ» ودعوته عليهم . .

ونزل رسول الله «ﷺ» عن راحلته ، فوضع يَدَهُ المباركة تحت الوشل[1] ، فجعل يصب في يده منه ، ثم ينضحهُ به ويمسحه ، وهو يدعو الله تعالى ، بدعائه النبوي الذي تتفتق له الحجب وتحمله الملائكة الكرام الى حيث ينبغي أن يُحمل ، وإذا الماء ينبجس من الحجر ، فيسمع له صوت شديد وهو يتفجّر ، فيشرب الناس ويرتوون ، ثم يحملون حاجتهم منه ويرتحلون . .

ومن الحوادث التي رافقت النبي «ﷺ» في طريق عودته من غزوة تبوك ، ما رواه عبد الله بن مسعود ، عن موت أحد المؤمنين الصادقين . قال : « قمت في جوف الليل ، فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية المعسكر ، فاتبعتها فلما وصلت إذا رسول الله صلىّ الله عليه

(١) الوَشَل : الحجر اللذي يقطر منه الماء قليلاً قليلاً ، أو أي مكان يرشح منه الماء . .

وآله وسلم ، وأبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - واذا عبد الله ذو البجادين[1] قد مات . واذا هم قد حفروا له ، وقد نزل النبي «ﷺ» يأخذه منهما يسجّيه في حفرته ، فيقول لهما : « أدْنيا إليَّ أخاكما » . . . فدلّياه إليه ، فلماّ هيأه لقبره ، قال : « اللهم إني أمسيت راضياً عنه ، فارضَ عنه » . . ويتمنى عبد الله ابن مسعود لو يكون هو الميت فيقول : « يا ليتني كنت صاحب الحفرة » . فيا لها من صحبة رفيعة لخاتم أنبياء الله صلوات الله عليه وآله وسلم تبدو في كل مناسبة حتى تصل إلى تمنّي الموت بين يديه ونيل رضاه !!

. . وتابع رسول الله «ﷺ» العودة بجيشه إلى المدينة حتى نزل بـ « ذي أوان » وهو بلد على مسافة ساعة من المدينة . . وفي ذلك البلد ، كان جماعة من المنافقين ، قد ابتنوا لهم مسجداً ، واتخذوه مكاناً للتداول والتآمر على رسول الله «ﷺ» والمؤمنين ، وكانوا يحاولون في اجتماعاتهم هناك ، تحريف كلام الله عن مواضعه ، في سبيل غاية شنيعة ، وهي دسّ التفرقة بين المسلمين ، والعمل على إيذائهم وايقاع الضرر بهم . وتُعبِّر هذه الجماعة عن نواياها الشريرة بقول أحد أفرادها مخاطباً إياها بقوله : « ابنوا مسجدكم ، وأعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ، فآتي بجنده من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه » . وهكذا كانت هذه الجماعة تعمل في الخفاء للإيقاع بالمسلمين ، وقد عقدت العزم على تنفيذ

---

(١) ذو البجادين : البجاد : الكساء الغليظ الجافي . لقب بذي البجادين أنه كان ينزع الى الاسلام فيمنعه قومه عن ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد ليس له غيره ، فهرب منهم إلى رسول الله (ﷺ) ، فلما صار قريباً منه شق بجاده اثنين فأتزر بواحد واشتمل بالآخر فقيل له ذو البجادين .

تآمرها في الوقت الذي كان يتجهّز فيه رسول الله «ﷺ» ويجمع الجيش للمسير إلى تبوك .. ذلك أنها توهمت خطأ بأنّ المسلمين سوف ينهزمون لا محالة ، لأنّهم في ملاقاتهم للروم ، سوف لا يكون لهم قِبل بقتالهم ، فتنزل بهم المصيبة ، ويذهبون أشتاتاً ويفرُّون ضعافاً ، وفي هده الحالة ، تُقدم تلك الجماعة على تنفيذ مخططها الخبيث ، فتقوم بالاتصال بالروم ، حتى يقدموا إلى المدينة ويحتلوها .

وقد جاءت النتائج تكذّب ظنون تلك الجماعة ، وتخيّب آمالها ، وجاءت الأحداث تذهب بأباطيلها ورجس شياطينها أدراج الرياح . إذ عرفت ، أن الروم ، الذين عوّلت عليهم في القضاء على المسلمين ، لم يجرؤا على مواجهة الجيش النازل في تبوك ، بل آثروا الانسحاب إلى داخل بلادهم ، يلوذون بالحصون ، في حين أقام الرسول الأعظم «ﷺ» وجيشه هنالك ما شاء الله تعالى أن يقيموا ..

هذه الجماعة المنافقة = إمعاناً منها في التخفّي والمكر = كانت قد جاءت النبي «ﷺ» تسأله أن يصلّي في المسجد الذي ابتنته وقتَ استعداده وتهيؤه للخروج إلى تبوك ، وقالت : « يا رسول الله ، إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية ، وإنّا نحب أن تأتينا فتصلي فيه » ..

لقد أرادوا بسؤالهم ذاك أن يتخذوا من صلاة النبي «ﷺ» في المسجد الذي زعموه مسجداً ، إقراراً لهم بشرعية بنائه وإثباتا لهم على

صحة عملهم . ولكـنَّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ طلب إليهم التريث لحين عودته ، مبدياً أنه على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو رجع = إن شاء الله = لأتى مسجدهم ، فصلّى فيه .. فلمّا كان نزوله بـ « ذي أوان » ، نزل عليه الوحي بأمر المسجد وبنائه ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، عندها دعا إليه مالك بن الدُّخْشَم ، أخا بني سالم بن عوف ، ومعنَ بن عديّ ، أخا بني العجلان ، وأمرهما بأن ينطلقا إلى ذلك المسجد ، الظالم أهله ، فيحرّقاه عليهم ويهدّماه .

وخرج الرجلان مسرعَين ، فقصد مالك أهله في بني عوف ، وأتى بسَعَف النخل ، ثم عادَ إلى رفيقه ، فأشعلا السعف وحملاه واندفعا إلى المسجد يضرمان النار في جنباته ، فهوى مهدّماً على أهليه ، ولقد أمكن لمن كان فيه من جماعة أهل النفاق أن يفرَّ هارباً قبل أن يحرق مسجدهم على رؤوسهم ، ويهدم على جثثهم ..

ولقد سمي هذا المسجد ، الذي أُسس بنيانه على الكفر والضرر ، مسجد الضرار ، وفيه وفي الجماعة التي ابتنته نزل قول الله تعالى : ﴿ والذين اتَّخذوا مسجداً ضِراراً وكُفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسولَه من قبل ، وليحلفُنَّ إنْ أردْنا إلاَّ الحُسنَى ، والله يشهد إنهم لَكاذبون . لا تَقُمْ فيه أبداً . لَمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يومٍ أحقُّ أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين . أفَمَنْ أسَّس بنيانَهُ على تقوى من الله ورضوان خير ، أمْ مَنْ أسس بُنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم

الظالمين . لا يزال بنيانُهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلاَّ أن تقطَّع قلوبُهم ، والله عليم حكيم ﴾ .

وعادَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعد هدم مسجد الضرار إلى مدينته المنورة ، فتلقَّاه الناس بالتهليل والتكبير ، فرحين بما آتاهم الله من فضل ، وبما أحاطهم من نعم ، إذ أعادَ إليهم الرسولَ العظيم ، والجيش الإسلامي المظفر ، تحفُّ بهم رايات النصر خفاقة ، وتحيط بهم ألوية العزِّ عالية ، من أعسر مسيرة ، وأشق سفر ، وأعظم غزوة .

واستراح النبيُّ ﴿ﷺ﴾ في ظلال هذا الفيء الرباني ، ليستقبل الوحي ، يأتيه بآيات منزلات ، تبين أحوال الناس في المجتمع الإسلامي ، وما تنطوي عليه سرائرهم ، سواء بالنسبة إلى بعض القضايا السابقة حول غزوة تبوك ، أم أثناء تلك الغزوة أو بعدها .

فالمجتمع الإسلامي قبل فتح مكة كان قد خلا من النفاق أو كاد ، إلاَّ أنه بعد هذا الفتح ، وبدخول جماعات كثيرة في الإسلام ، لم يكن الايمان قد استقر في قلوبهم ، عادَ النفاق معها يستشري ، وحاول أهلوه العملَ على هدم البنيان المتين الذي أقيم مدعَّماً بالصدق والإيمان . فجاءت الآيات القرآنية تفضح أفاعيل المنافقين ، وتصوِّر أحوالهم النفسية والعملية ، في حملة طويلة تكشف ما كان لهم في هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته ، وشغله بشتى الدسائس والأكاذيب عن وجهته ، كما أنها في الوقت ذاته تكشف عن حالة الخلخلة وعدم التناسق في

التكوين العضوي الذي صار عليه المجتمع الإسلامي بعد دخول تلك الجماعات وعدم انطباعها بالطابع الإسلامي الصحيح .

وهكذا يبدو من سياق آيات سورة التوبة = ولا سيما من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة = أن في المجتمع الإسلامي فئات متعددة :

فئة السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار ، وهم الذين يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية . وهم الذين عاهدوا الله ورسوله على الحق ، ونذروا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، فنزلت الآيات تبين فضائلهم في تلبية دعوة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وإقدامهم على الخروج معه ، مهما كانت المصاعب والمشاق التي تعترضهم ، وأياً كانت المسافات أو المخاطر التي تنتظرهم . لا يتقاعسون عن واجب ، ولا يقصّرون عن أمر ، بل يلبون النداء بصفاء نواياهم ، ويهبُّون للأمر الجلل بنقاوة ضمائرهم ، فلا يفرطون بذرَّة من عمل أو جهد ، أو من فكر وشعور ، طالما أنها تخدم الغايات الكبرى التي إليها على خلافهم .

وإلى جانب أولئك الأولين الصادقين ، كانت الجماعات الأخرى على خلافهم : من المنافقين والاعراب الذين لم يخالط قلوبهم صفاء الايمان . ومثلهم أهل النفاق في المدينة . وآخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، لأنهم لم ينصهروا في بوتقة الاسلام انصهاراً تامّاً . وهنالك طائفة مجهولة الحال ، كانت تختفي حقيقتها ، وإن كان أمرها لا يخفى على الله سبحانه وتعالى وفق ما يعلمه من حالها ومآلها . يُضاف إليهم جميعاً المتآمرون على الدين المتسترون باسمه .

ففي هذه الفئات نزلت آيات « سورة التوبة » تفضح فعالهم المنكرة ، ثم تحمل عليهم حملة شعواء مليئة بالوعيد والتهديد ، وبسوء ما ينتظرهم من عقاب شديد ، في نار جهنم ، جزاءً لما كانوا يفعلون .

ومن خلال عرض السياق القرآني ، في تلك الآيات الطويلة ، لأحوال المنافقين ، نقع على نموذج لأهل النفاق ظهر قبل غزوة تبوك ، وهذا النموذج يتمثل بقصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، الرجل الورع التقي ، الذي تميّز بحبه للصلاة ، وموافاتها في مواقيتها ، فلا يتخلّف عن فريضة أبداً ، بل يقوم في المسجد ، راكعاً ، ساجداً ، حتى لقب بحمامة المسجد ، لكثرة مكوثه الطويل فيه ، وعدم مبارحته إلاَّ إذا اقتضته ضرورة لمثل هذه المبارحة ، ولكنَّ هذا الإنسان المؤمن العابد ، انقلب إلى رجل منافق ، يطمعُ بالمال ، ويؤثره على كل شيء . . فكيف أتاه هذا النفاق ، حتى مَردَ عليه ، وصار أعمى البصيرة ، غليظ القلب ؟

كان ثعلبة رجلاً فقيرَ الحال ، لا يملك مالاً ولا يقتني ماشية ، إلاَّ أنه يعيش مما يكسب من رزق حلال فيه الكفاية ، والبعد عن الفاقة المدقعة . وسبحان الله ـ الذي يعلم خفايا القلوب ـ كيف أن الهوى امتلك قلبَ ثعلبة ، فأحبَّ أن يكون من ذوي الثروات وأصحاب الأموال ، تأتيه من أي مصدر وبأي طريق ، لأنَّ هذا لا يهمّ ، بل المهم أن تأتيه وتحقق له الحلم الذي يراوده .

وجلَسَ ثعلبة في أحد الأيام إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول :

« يا رسولَ الله ، ادعُ الله أن يرزقني مالاً » .

قال له الرسول الحكيم : « يا ثعلبة ! قليل تؤدي شُكرَهُ خيرٌ من كثيرٍ لا تُطيقه » .

ولم يُدرك ثعلبة أبعادَ نُصْح رسول الله ﴿ﷺ﴾ له ، فعادَ يُلحُّ في طلبه ، فرأى الرسول ﴿ﷺ﴾ أن يسلك معه وسيلة أخرى للإقناع ، فقال له :

« يا ثعلبة ! أما لك في رسول الله أسوة حسنة ؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت » .

لم يرعَوِ ثعلبة ، ولم يتّعظ بحياة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فعاد يقول :

« والذي بعثك بالحق ، لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً ، لأعطِينَّ كل ذي حقٍ حقه » .

عندها دعا الرسول ﴿ﷺ﴾ ربَّهُ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » .

وكانت فترة وجيزة ، وأُلهم ثعلبةُ ، فاتخذ له غنماً . .

ومع الأيام راحت أغنامه تتكاثر بشكل غريب ، وتنمو بسرعة فائقة ، كما ينمو زرع مؤصّل في أرض طيبة. حتى لم تعد زرائبها في المدينة تكفي لاستيعابها ، فلّما رأى ثعلبة ذلك ، تنحى بها عن المدينة ونزل في وادٍ من وديانها .

وامتلكت هذه الأرزاق على ثعلبة كل مشاعره، فلم يعدله من

همّ إلاّها ، حتى تعلقه القديم بالصلاة ، وحبه للإقامة في المسجد بدآ يخبوان شيئاً فشيئاً ، فصار ينقطع عن صلاة الجماعة ، ولا يحضرها إلاّ الظهر والعصر . .

ولعلّها قيلولة الأغنام ، في هذه الفترة من النهار ، هي التي كانت تفسح له في المجال للذهاب إلى هاتين الصلاتين ، إلاّ أنّ الوقت لم يطل به حتى تركهما ولم يعد يحضر إلاّ صلاة الجمعة .

ورأىّ الناسُ ما فعلَ ثعلبة ، وكيف ألهاه الغنى ، وغرّه المال ، إلى حدّ وصل به إلى ترك واجب الفريضة ، فأسف له المؤمنون ، بينما سُرَّ المنافقون لفعله شديد السرور . .

ولم يكن أمره خافياً على رسول الله «ﷺ» ولكنه شاءَ أن يطلقها صرخة لوم ودعوة عليه ، فلماّ كان الناسُ مجتمعين يوماً ، سألهم عنه ، وما آلَ إليه حالُهُ ، فأبدوا ما صارَ إليه من فتنة ، وما آثَرَ من عرض الحياة الدنيا على الآخرة ، فقال الرسول الحكيم : « يا ويح ثعلبة ! يا ويح ثعلبة ! يا ويح ثعلبة » . .

وكان الله سبحانه وتعالى قد أنزل الآيات التي تتعلق بالصدقات ، وفيها الأمر إلى رسوله الكريم : « خذ من أموالهم صدقة » . . فلمّا كان موعد الخروج لجمع الصدقة ، وبَعَثَ بها في ذلك الحول رجلين من المؤمنين ، أحدهما من جهينة ، والآخر من سُلَيْم ، طلَبَ إليهما ألاّ يغفلا ثعلبة بن حاطب ، بل يمرّان عليه حتى يأخذا منه الصدقة . .

وأتى الرجلان ثعلبةَ ، فلمّا عرِف مقصدهما ، صاح

مستنكراً : « ما هذه إلاّ جزية ، ما هذه إلاّ أخت الجزية ، ما أدري ما هذا » ؟ . .

لقد ارتُجَّ على ثعلبة فاختلطت عليه الأمور حتى باتَ لا يميّز بين الصدقة والجزية ، أو قل إنه تنكُّرٌ متعمَّدٌ منه لفريضة هي حق الله على كل صاحب مال ، وإخلافٌ للوعد الذي قطعه على نفسه لرسول الله «ﷺ» بأن يؤدي كل ذي حقٍ حقه ، إن رزقَهُ الله مالاً . . وها هو لا يؤدي أيّ حقٍ ، بما فيه حق الله سبحانه وتعالى ، بل يراوغ صاحبَيْ الصدقة فيقول لهما : انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إليَّ . .

ورجعا إليه ، بعد الطواف في مهمتهما ، فما كان منه إلاّ أن عادَ لاستنكاره السابق ، وصَرَفهما من دون أن يعطيهما شيئاً . . وأتى الرجلان يخبران رسول الله «ﷺ» بما صنع ثعلبة ، فلم يزِدْ على أن ردَّدَ : « يا ويح ثعلبة » . .

وإذا كان ظنُّ ثعلبة أن مالَهُ قد أغناه عن الله ورسوله ، فإنَّ الله سبحانه العليم البصير ، قد شاءَ أن يكشف أمره ، فأنزل فيه قرآناً مبيناً يحشره مع المنافقين ، الذين مردوا على النفاق ، فعشش في قلوبهم لا يتخلّى عنها إلى يوم يلقون الله سبحانه بما أخلفوه من وعود ، فقال عزَّ وجل : « ومنهم من عاهَدَ الله لئن أتانا من فضله لَنصَّدَّقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولَّوْا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أنَّ الله يعلم سرَّهم ونجواهم وأنَّ الله علاّم الغيوب » ؟! . .

وتلقى الناسُ عن الرسول «ﷺ» آياتٍ بيّنات بحق ثعلبة ، وراحوا يتلونها في مجالسهم حتى وصلت إلى مسامعه ، يحملها إليه أحَدُ أقاربه ، إذ ذهَبَ يوبّخُهُ على ما فعل ، حتى أغضبَ الله تعالى وأنزلَ بحقه هذه الآيات التي تحمل عليه بشدةٍ إلى يوم القيامة . .

وزاغت الدنيا في عيني ثعلبة ، إذ امتلكه الخوف وأخذته الرهبة ، فاحتمل نفسه احتمالاً وأتى رسولَ الله «ﷺ» يسأله أن يقبل منه الصدقة ، ولكنَّ رسولَ الله «ﷺ» أبى عليه ذلك ، وقال له : « إنَّ الله منعني أن أقبل منك صدقة » . ورأى ثعلبة أنَّ الله سبحانه قد أنزل به حكمه ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، ويندب حظَّه ، ولكن من غير أن يُبديَ توبةً نصوحاً ، فالتفت إليه رسول الله «ﷺ» وقال له : « هذا عملك . قد أمرتك فلم تطعني . قلت لك :« أما لك في رسول الله أسوة حسنة » ، ولكنَّك لم تنتفع بالموعظة ، فكان حكم الله تعالى فيك نفاقاً ، ولله وحده ملك السموات الأرض ، وهو على كل شيء قدير . .

تلك هي قصة ثعلبة بن حاطب ، المثالُ الحيُّ على كل كاذب ، مخادع ، يتنكر لوعده ، ويخلف عهده . . ولكنْ أين المفرُّ والله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، فلئن أغرَّه المال فبخُلَ به فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أعقبه نفاقاً في قلبه ، لا يحولُ ولا يزول ، بل يستقرُّ فيه إلى أن يلقى وجَهَ ربه الكريم ، فيكون له الحساب على ما أخلفه من وعد ، وما أحدثه من كذب . .

ومن هذا المثال الحي ، الذي تشهده الناسُ في كل زمان

ومكان ، يبدو جليّاً أن النفاق لا يولد مع الإنسان بل يكتسبه في حياته ، تدفعه إليه عوامل نفسية ، وتشدُّهُ إليه اعمالُهُ المادية . .

فالإنسان ، وبوصفه فرداً وسط جماعة ، عليه الالتزام بواجبات معينة هي في مصلحة الجماعة . فإنْ انفلت من أداء واجبه على الوجه الأكمل ، أو أهمل القيام بهذا الواجب ، أو امتنع عن تنفيذ ما يطلب اليه القيام به ، بحق وعدل ، فحينها يكون النفاق قد دخل إلى قلبه ، ومع الزمن يصبح طبعاً متأصلاً فيه ، يتحكّم بتصرفاته ، ويسيّر خطاه . . ذلك أن من يخالف التزاماته الخاصة منها أو العامة ، ولكي يتملّص من العقاب على ما ارتكب من مخالفة ، لا بد وأن يختلق الأعذار الكاذبة لذلك ، فيغدو كاذباً . ثم يتمادى في هذا الكذب ، فلا يعود يصدقُ في قول ولا في فعل ، حتى يغدو خائناً لنفسه ولمحيطه ، ومع الأيام يستمرىء ما قام به ، فتحلو له أكاذيبه ، ويستسيغ طعم خيانته ، حتى يغدو منافقاً ، يمارس أي أسلوب من أساليب المراوغة والاحتيال ، ويسلك أي طريق من طرق الالتواء والتلاعب . وهكذا يكون النفاق علّةً يكتسبها الإنسان من جراء أقواله وأفعاله . وصدق رسول الله (ﷺ) حيث يقول : «صفات المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعَدَ أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

فحذار أيها الناس ، وحذارِ أيها الإنسان المسلم ، من النفاق .

فمثل الذين مردوا على النفاق ، كمثل أبليس مرَدَ على مخالفة أوامر الله حتى أعقبه الله حرمان التوبة ، فسلبت منه القدرة على هذه

التوبة ، فهو على الضلال قائم ، وعلى البغي والفساد دائم ، إلى أن يلقى الله تعالى . .

فهل يقبلُ الإنسانُ أن يكون أبليساً بين عائلته ، وفي مجتمعه ، وفي إنسانيته ؟! .

أم هل يرضى أن يصيبه ما أصاب ثعلبة ، وأن ينتهي إلى ما انتهى إليه ؟

لا ، الإنسان العاقل لا يريد ذلك لنفسه ولا لمجتمعه الذي ينتمي إليه . .

إذن فالبعادُ عن النفاق هو طريق السلامة : سلامة النفس وسلامة السلوك ، وسلامة المصير ،وما عقل إنسانٌ في هذه الحياة إلاّ وعَرفَ قدره فوقف عنده ، إن رامَ مأرباً ، أياً كان هذا المأرب = شرط أن يكون حقاً = فله أن يسعى إليه بكل جوارحه وجهوده ، ولكن بأن يعلم أنه قادرٌ على أن يؤديه حقه . فإن رامَ المال ، فليسْعَ إليه ، ولكن إن أعطيه ، عليه أن يؤديَ حقوقه كاملة ، بالصدقة ، وبالإنفاق الشريف ، والاستثمار الحق . . وإنْ رامَ نفوذاً ، فليعملْ له ، ولكن إن بلغَهُ عليه أن يضع العَدْل نصب عينيه ، فلا أذية ، ولا استغلال ، ولا ظلم . . . وهكذا في شتى شؤون الحياة وأمورها . . وأمّا من ليست لديه الثقة بأنه قادر على أن يؤدي الأمرَ الذي يريده حقه ، إن وصَلَ إليه ، فعليه ألاّ يسعى إليه ، بل والاّ يتمناه في الأصل ، إذ عليه أن يبقى في نطاق الاستطاعة التي يحتملها ، والإمكانية التي يقدر عليها ، وذلك كله مصداقاً لقول

رسول الله «ﷺ» : « قليل تؤدّيه خير من كثير لا تطيقه » . وقوله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم : « ما قلّ وكفى خير مما كثُر وألهى » . . . وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل مثَلَ ثعلبة بن حاطب آيةً دالةً على تصرّف الإنسان وسلوكه ، فيبتعد أبداً عن نقض عهد يأخذه على نفسه ، ويرعوي أبداً عن الكذب على الله وعلى الناس : وإلاَّ فإن ميراثه لنفسه سيكون النفاق في قلبه إلى يوم يلقى ربه : وهذا الأمر الرباني هو الذي مَنَعَ على رسول الله «ﷺ» قبول صدقة ثعلبة ، وقبول توبته التي ظهر بها ، فكان تصرفه «ﷺ» تصرفاً تأديبياً بردّ صدقته ، مع عدم اعتباره مرتداً فيؤخذ بعقوبة الردة ، ولا مسلماً فتقبل منه زكاته . ولكنّ هذا لا يعني إسقاط الزكاة عن المنافقين شرعاً ، لأن الشرع يأخذ الناس بظاهرهم ، أما فيما ليس فيه علم يقيني كالذي كان في حادث ثعلبة ، فلا يقاس عليه . على أنه وبمقتضى الشريعة ، فإن الزكاة تبقى فريضة يعرف المؤمنون أنها نعمة من الله سبحانه ، فمن امتنع عن أدائها أو حرم من قبولها منه ، فهو خاسر لا محالة ، لأنه يحرم من جراء ذلك فضل الزكاة بما فيها من تطهير للأنفس وتزكية للقلوب ، وراحة للأبدان ، وذلك لقوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

ولئن ظهر حادث ثعلبة نموذجاً معيناً عن أهل النفاق في المجتمع الإسلامي ، فإن غزوة تبوك جاءت لتظهر نماذج أخرى من الناس كانوا أكثر إمعاناً في النفاق ، يمارسونه بأشكال عديدة وصور متنوعة .

فمن هؤلاء من كان لا يعبأ بهتاف الجهاد ، حتى إذا كانت دعوة

رسول الله ﴿ﷺ﴾ له في تلك الغزوة ، تثاقلوا عن التلبية رغباً في متاع الدنيا وإعراضاً عن الآخرة . وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل . إلاَّ تنفروا يعذِّبْكُمُ عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير** ﴾ .

وبعد المتثاقلين يأتي طلاب المقاصد السهلة والمنافع العاجلة ، فهؤلاء ينشطون، ويبدون متحمسين إذا دُعوا إلى سفر قصيرالأمد مأمون العاقبة . أما إذا بعدت عليهم الشقة ، فإن عزائمهم تخور ، وهممهم تضعف ، فيستنكفون عن الخروج مُبديْن من النفاق أشدّه ومن الكذب أكثره ، حتى أنهم لا يتورعون عن الحلف بالله أنهم لا يستطيعون هذا الخروج ـ والله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لكاذبون ، كما يصفهم في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تَّبعوك ، ولكنْ بَعُدَتْ عليهم الشُّقةُ ، وسيحلفون بالله لو استطعْنا لخَرَجنا معكم ، يُهلِكون أنفسهم والله يعلمُ إنّهمُ لكاذِبون** ﴾ .

ومن أهل النفاق كانت جماعات لا تغني عند الشدة ، ولا تنجد عند الخطر ، ولا تعين عند الحاجة ، وكيف يكونون ذوي شدة وأولي نجدة ومعونة وفي طبائعهم الجبن والخمول والشُّحُ ! . فهم يشفقون من المتاعب ، وينفرون من المسؤولية ، ويخشون من الانفاق ويؤثرون دَعَةَ السلامة مع الذل والهوان ، على خطر الجهاد مع العزة والكرامة . فهؤلاء يصف القرآن الكريم حالهم بهزء

وسخرية ، وهم يحاولون البحث عن مخابىء يلجأون إليها بعد أن يطلبوا الإذن بالقعود . وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿ ويَحلفون بالله إنهم لَمِنْكُمْ . وما هُم منكم . ولكنهم قوم يَفْرَقون . لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدَّخلاً لولَّوا إليه وهم يَجْمحون ﴾ ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهِدُوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم، وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين ،رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ،وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .

ولكن على خلاف أهل التثاقل وطلاب المقاصد الهيِّنة وأصحاب الذعر من المشاق ، كان هناك بعض المسلمين ممن تخلفوا عن رسول الله «ﷺ» في غزوة تبوك ، ثم أحسّوا وطأة الذنب ، فاعترفوا بذنوبهم ، ورجوا التوبة . فكان منهم التخلف وهو العمل السيِّء ، وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح . وفي هؤلاء نزل قول الله تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم إنَّ الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأنَّ الله هو التواب الرحيم وقل ! اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه والمؤمنون ، وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبِّئكم بما كنت تعملون ﴾ .

وهكذا منَّ الله سبحانه على هذه الجماعة لما علمه من حسن سريرتهم ، وصدق توبتهم فأمر رسوله «ﷺ» أن يأخذ بعض أموالهم يتصدق بها عنهم ، وأن يستغفر لهم . ذلك أن أخذ الصدقة

منهم يرد إليهم شعورهم بعضويتهم الكاملة في الجماعة المسلمة فهم يشاركون في واجباتها وينهضون بأعبائها ، وهم لم يُنبذوا منها أو يبعدوا عنها ، وفي أخذ الصدقات منهم تطهير لهم وتزكية ، وفي دعاء رسول الله «ﷺ» لهم طمأنينة وسكن . وكان من المتخلفين أيضاً ثلاثة من المسلمين ، لم يختلقوا الأعذار ، عند عودة رسول الله «ﷺ» من غزوة تبوك ، ولم ينكروا أحوالهم ، هؤلاء الثلاثة ، كانوا هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، فقد أتَوا رسولَ الله «ﷺ» يصدقونه القول ، فلم ينظر بأمرهم بل أرجأ ذلك حتى يقضي الله تعالى فيهم .

ويقص كعب بن مالك الحالة التي صار فيها ، والتي تنطبق على صاحبيه ، نتيجة لذلك التخلّف . وفي هذه القصة تظهر صورة صادقة عن النفس الحساسة والمؤمنة ، في أروع حالات الصدق والصراحة ، وفي أشدّ الضيق والحيرة . . إلا أنها من خلال ذلك تحظى بالنجاة فتملأها الفرحة ، وتكون لها توبة كاملة وإخلاص نهائي . . وفي القصة صورة أخرى عن المجتمع الإسلامي وهو يرتقي صُعُداً في سلم الوعي ، وسمو الادراك ، وشدّة الإحساس النقي بذنب المذنب وتوبة التائب .

يقول كعب بن مالك ، وهو يخبر قصته :

« حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر مني حينذاك ، والله ما اجتمعت لي راحلتان قطّ من قبل ، حتى اجتمعتا في تلك الغزوة . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلّما يريد غزوة يغزوها إلاَّ ورَّى

بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم بالوجهة التي يريد ، وقد غزا رسول الله ﴿ﷺ﴾ في حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، في وقت طابت فيه الثمار وأورفت الظلال . فلما تجهّز رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتجهز معه المسلمون ، جعلت أغدو لأتجهز معهم ، فأرجع ولم أقضِ حاجة ، فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إن أردتُ . . ولم يزل التردد يتمادى بي حتى شمَّرَ بالناس الجدُّ فأصبح رسول الله ﴿ﷺ﴾ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئاً ، فقلت : اتجهّز بعدهم بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز فلم أقضِ شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وفاتني الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم أفعل ، فكنت إذا خرجت في الناس ، بعد خروج رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فطفت فيهم ، يحزنني أني لا أرى إلاَّ رجلاً متهماً بالنفاق ، او رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .

ولم يذكرني رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في المؤمنين : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، حبسه بُرداه ، والنظر في عطْفيه (أي شغله إعجابه بنفسه) . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! يا رسول الله ما علمنا منه الا خيراً ، فسكت عليه وعلى آله الصلاة والسلام . فلّما بلغني أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد توجَّهَ قافلاً من تبوك ، حضرني همي وحزني ، فطفت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سَخْطة رسول الله ﴿ﷺ﴾ غداً ؟ .

واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد قرب قدومه زاح عني الباطل ، وعرفت أني لا أنجو منه إلاَّ بالصدق ، فأجمعت أمري أن أصدقه . وجاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعلى مثل عادته ، كان إذا قدم من سفر ، بدأ بالمسجد ، فركع ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك ، جاءه المخلَّفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ علانيتهم وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ثم يكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وتقدّمت منه فسلّمت عليه ، فتبسَّم تبسم المغضب ثم قال لي : تعال . .

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلّفك ؟ ألم تكن ابتعت دابة تمتطي ظهرها ؟ قلت : إني يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لما أُعطيتُ من قدرة على الجدل ، وسبك الكلام وحسن التخلّص ، ولكن والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضينَّ عني ، وليوُشكنَّ الله أن يُسخطك عليّ ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تغضب عليَّ فيه ، إني لأرجو عقباي من الله فيه ، والله ما كان لي عذر ، وما كنت قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك . . فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضي الله فيك . فقمت وبادرني رجال من بني سَلِمة ، فاتَّبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبتَ ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت الى

رسول الله ﴿ﷺ﴾ بما اعتذر به إليه المخلَّفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لك . فوالله ما زالوا بي ، يلومونني على صدقي وصراحتي ، حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأكذِّب نفسي ولكني قلت لهم :

- هل لقي هذا أحد غيري ؟

قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثلُ ما قيل لك .

قلت : من هما ؟

قالوا مُرارة بن الربيع العَمْري ، وهلال بن أمية الواقفي .

فلما سمعت بذكرهما ، قلت في نفسي : لقد ذكروا لي رجلَين صالحين ، قد شهدا بدراً ، فلي فيهما أسوة .. فصمتّ ومضيت عنهم في سبيلي ..

ويتابع كعب فيقول :

ونهى رسول الله ﴿ﷺ﴾ المسلمين عن الكلام معنا أو التحدّث إلينا نحن أولئك الثلاثة ، فاجتنبنا الناس ، وتغيَّروا لنا ، حتى تنكَّرتْ لي نفسي والأرض التي أمشي عليها ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف . ولبثنا على ذلك خمسين ليلة .. فأما صاحباي فاستكانا ، وقعدا في بيْتَيْهما ، خلال تلك المدة ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج واشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالاسواق من غير أن يكلمني أحد.. وكنت آتي

رسول الله «ﷺ» فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلّي قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا اقبلتُ على صلاتي نظر إليّ ، واذا التفتُّ نحوه أعرض عني .

وطال عليّ الأمر من جفوة الناس ، ولم أعد احتمل ، فمشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمّي ، وأحبُّ الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ عليّ السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت فناشدته ، فسكت عني ، حتى رددتها ثلاثاً ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي بالدمع ، وتولّيت عن الجدار ثم غدوت أطوف بالسوق ، وإذا نبطي من أنباط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول :

من يدل على كعب بن مالك ؟ فرأيت الناس وقد جعلوا يشيرون له إليّ حتى جاءني ، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسّان ، فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أنّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحْق بنا نُواسِك » .

وما إن فرغت من قراءة الكتابة حتى قلت : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك .

وأسرعت من فوري إلى تنّور أحرق ذلك الكتاب بالنار . .

وكانت انقضت أربعون ليلة ، عندما جاءني رسولٌ من نبي الله «ﷺ» يقول لي : إن رسول الله «ﷺ» يأمرك أن تعتزل امرأتك . .

فقلت له : أطلّقها أم ماذا ؟

قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها . .

وعلمت أنه صلى الله عليه وآله وسلّم أرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك .

فأتيت امرأتي وقلت لها : إلحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاضٍ .

ولكنّ امرأة هلال بن امية ذهبت إلى رسول الله «ﷺ» وقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ، ضائع ، لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟ ولم يمنعها رسولُ الله «ﷺ» عن خدمتها له ، وأفهمها أنه لا يجوز له أن يقربها . فلما علم بعض أهلي ذلك ، جاؤوا يخبرونني به ، ويطلبون إليّ أن استأذن رسول الله «ﷺ» لامرأتي ، كما أذن لامرأة هلال . فقلت لهم : والله لا استأذنه فيها ، ما أدري ما يقول رسول الله «ﷺ» إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب .

ولبثنا بعد ذلك عشر ليال ، حتى اكتملت الليالي الخمسون من حين نهى رسول الله «ﷺ» عن كلامنا . وكنت صلّيت الفجر صبح تلك الليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على تلك الحال وقد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، إذ سمعت صوت رجل يصرخ ، وهو يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك ، أبشر . .

عندها خررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج الله تعالى .

وكان رسولُ الله «ﷺ» قد أعلن توبـةَ الله علينا حين صلّـى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فلما جاءنـي ذلك الرجـل بتلك البشـارة السـنية نزعـت ثوبـيَّ ، فكسوتـه إياهما على بشارتـه ، ثم انطلقت أتيمم مكان رسول الله «ﷺ» ، فتلقاني النـاس يهنئوننـي بالتوبة وهم يقولون : ليهنك توبة الله عليك . . وما زالـوا كذلك حتـى دخلـت المسجـد ، ورسـول الله «ﷺ» جالس ومـن حولـه الناس ، فتقدمت فسلمت عليه ، فقـال لي وهـو مشرق الوجـه من السرور : « أبشر بخير يوم مـرَّ عليك منذ ولدتك أمك ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

قال : بل من عند الله .

وجلست بين يديه ، أنظر إلى وجهـه المضيء ، إذ كان عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، إذ سُرَّ استنار وجهه حتى لكأنه القمـر بكماله ، وكنا نعرف ذلك منه . ولقد آنسني ذلك المنظر البهيج وأنا أتطلع إليه ، فقلت :

يا رسول الله ، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي قربة إلى الله وإلى رسوله .

قال «ﷺ» : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .

فلت : إني ممسك سهمي الذي بخيبر .

ثم قلت : يا رسول الله ، إن الله قد نجاني بالصدق ، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلاَّ صدقاً ما حييت » .

تلك هي قصة كعب بن مالك ورفيقيه ، هؤلاء الثلاثة الذين

تخلفوا عن غزوة تبوك ، ولكنهم كانوا صادقين مع أنفسهم ، ومع رسول الله «ﷺ» حتى أحسّوا أن أنفسهم لم تعد منهم ، وأن الأرض على رحبها لا تطيقهم . . لقد ندموا على ما فعلوا فتاب الله عليهم . ونزل فيهم قرآن كريم : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألاَّ ملجأ من الله إلاَّ إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم . . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

تلك كانت معالجة القرآن الكريم لأحوال الناس النفسية والعملية . وقد برزت تلك المعالجة في الآيات البينات بمناسبة غزوة تبوك ، وما ظهر فيها من صدق نية ومن نفاق . . على أن الله سبحانه وتعالى ، لم يقرر أحكامه العلوية بشأن المتخلفين عن غزوة تبوك وحدها بتلك الآيات البيِّنات ، بل قرر ذلك لكل زمان تكون فيه دعوة للجهاد في سبيل الله . فأولئك الذين تخلَّفوا عن رسول الله «ﷺ» ، فرحين بتخلفهم ذاك ، وداعين إلى عدم الخروج خوفاً من الحر ، يضرب الله فيهم المثل ، لكل جماعة تتخلف عن دعوة حق حين تختلق الأعذار الواهية . . فيذكر الله تعالى أن فرحهم وضحكهم هو آني وموقت ، وأما بكاؤهم فسوف يكون أبدياً في نار جهنم . . وإن جميع الذين يتخلفون عن الركب في أول مرة ، لا يصلحون لكفاح ولا يُرْجَون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة

والتغاضي . ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذي تخلّوا عنه راضين . فإن أظهروا أنهم يُبدون استعداداً لمقاتلة العدو ، فإنهم ممنوعون من ذلك ، لأنهم غير مؤهلين له ، طالما ارتضوا بالقعود والتخلف أول مرة .

نعم هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم . وإنه لطريق الدعوة الاسلامية ورجالها أبداً . فليعرف أصحابها في كل زمان ، وفي كل مكان ، ذلك الطريق ، طالما أن كتاب الله باقٍ في ديمومته ، وفيه قوله تعالى : ﴿ **فرح المخلّفون بمقعدِهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر . قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فلْيضحكوا قليلاً ولْيبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معيَ أبداً ولن تُقاتِلُوا معيَ عدوّاً . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبْك أموالُهم وأولادُهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

ولم يكن بيان الله تعالى في أهل النفاق ، وفضحهم على فعالهم الشنيعة ، إلاّ حفاظاً على وحدة الصف والجماعة ، لأن سلامة الصف ووحدة الجماعة لا يكونان إلاّ بتطهيرهما من المنافقين الذين لا يؤمنون بأهدافهما ، ولا يشاركون في مشاعرهما . وما وجودهم إلاّ عوامل ضعف وخلخلة ، وذهاب بأسباب القوة والمنعة . إذ لو كانوا

من المؤمنين الصادقين ، الذين يريدون الخير العام ، لكانوا دوماً على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الواجب حينما يدعوهم ، فالخير في بقائهم بعيدين عن كل أمر جلل ، وعن كل غاية للمؤمنين ، حتى لا تكون الفتنة ، ولا يكون الاضطراب . وفي كتاب الله التأكيد على ظلم الباغين ، الذين يبتغون الفتنة ، ويقعون بها : « ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدةً ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبالاً . ولأوْضَعُوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ ، وقلَّبوا لك الأمور حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله وهم كارهون . ومنهم من يقول : ائْذَنْ لي ولا تفتنِّي ألاَ في الفتنة سقطوا وإنَّ جهنم لَمحيطةٌ بالكافرين . إن تصبك حسنةٌ تسؤْهم ، وإن تصبْك مصيبةٌ يقولوا : قد أخذنا أمرَنا من قبل ويقولوا وهم فرحون » قال تعالى : ﴿ **سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم انهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ .

واذا كان رسول الله «ﷺ» قد اشتدَّ على المنافقين بعد غزوة تبوك ، فضرب بهم الأمثال مما أرتعدت له فرائصهم ، فخافوا وانزووا ، ولم تقم لهم بعد في حياته الشريفة قائمة ، فإن أمة الإسلام مدعوة اليوم للسير على هدى رسول الله «ﷺ» حتى تنهض بأمانة مقدسة ، فرضها الله تعالى عليها . وإنَّ أول ما عليها في هذا

السبيل أن تحمل على المنافقين حملةً شعواء ، علّها تطهر الصفوف من فتنهم وغواياتهم ، وتسير في الطريق الصحيح الذي شاءها الله تعالى أن تسير عليه .



قدوم الوفود على المدينة
من
نتائج غزوة تبوك

كانت غزوة تبوك ، بأحداثها التي تبدو ، لأول وهلة ، أحداثاً عادية بسيطة ، غزوةً من جملة الغزوات التي انتصر فيها الإسلامُ على أعدائه . ولكنَّ النتائج التي أتتْ بها ، أبَتْ أن تصنّفها في هذه العاديَّة والبساطة من الأمور أو الأحداث ، بل اعتبْرتها فترةً زمنيةً من أهم فترات الدعوة الإسلامية عطاءاتٍ واجتناء ثمراتٍ طيبة . ففي هذه الغزوة لم يجرِ قتالٌ بين المسلمين والروم ؛ إلاَّ أنه بدا واضحاً للعيان ، وجليّاً في الأذهان ، وبصورة خاصة للقبائل العربية ، الواقعة على أطراف شبه الجزيرة ، بأن اولئك الروم الذين تدين لهم بالولاء ، وتستمدّ منهم القوة والنفوذ ، قد ظهروا ضعافاً أمام المسلمين ، بانسحابهم من مواقع المواجهة ، تفادياً لخوض حرب معهم ، فلماذا لا تفكر هذه القبائل إذن وتُعيد النظر بهذه التبعية للأجنبي الروماني ، والدلائل كلها تشير إلى اضمحلال سلطانه ، والتوقعات تدلُّ على زوال حكمه ؟! . .

فمثل هذا الإطار الفكري الجديد ، الذي أخذ يطغى على ذهنية تلك القبائل من العرب ، لم يكن أبداً ليوجَدَ لولا غزوة تبوك ، وقد جاءت العهود التي أعطاها النبيُّ «ﷺ» لبعض الملوك والأمراء ، الذين كانوا يدينون بالولاء للروم ، تدعم هذا الإطار

وتزيده متانة ؛ هذا فضلاً عما ألقاه هذا الاتصال بين محمد ﴿ﷺ﴾ واولئك الحكام من ظلالٍ روحيةٍ جديدة ، تبعث على التلاقي ما بين الفكر النصراني القائم في هذه المنطقة ، وبين الفكر االإسلامي الذي يبدو بملامح مستقيمة ، لا اعوجاج فيها ، إذ تهدف في جملة ما تهدف ، إلى التعامل مع الحياة الإنسانية وفق قواعد جديدة ، وإلى معالجة شتى قضايا الناس وشؤونهم بمفاهيم غاية في الرحابة والسموّ .

هذا بالنسبة إلى قبائل العرب الواقعة على الناحية الشمالية من أطراف شبه الجزيرة .

أما في الداخل ، فقد رأى الأعراب ، ورأت مختلف القبائل والبطون ، في البعيد والقريب ، أنه لا شأنَ بعد اليوم لتلك الكيانات الفردية التي كانت تقوم عليها حياتها . فتلك قريش ، رغم مكانتها ، والسيادة التي كانت تتمتع بها على جميع القبائل ، قد أذعنت لسلطان الإسلام ، وأضحَت تدين له بالولاء ، فهل من العجب إذن ، إن أقبلت تلك القبائل على الإسلام تدخل فيه أرتالاً ، وإنْ جاءَ الناسُ من كل فج عميق ، يدخلون في دين الله أفواجاً ؟! . .

أما على صعيد البنية الإسلامية ، وحيث المجتمع الإسلامي قد قام على أُسس متينة ، فقد كانت غزوة تبوك حداً فاصلاً ، أفرز المسلمين إلى فئاتٍ برزت متباينة في أحوالها النفسية والعملية . فالأولون من المهاجرين والأنصار ، لم يتغيّر في أحوالهم شيء . فهُمُ ، كانوا ، ولا يزالون ، رجالات الدعوة الخُلّص ، يمنحونها

عوامل القوة والاستقرار ، ويمدّونها بكل أسباب الانتشار والاستمرار . إنهم القاعدة الصلبة ، والدعامة الراسخة للمجتمع الإسلامي ، وفوقها يُشادُ البناءُ ويشمخ .

وإلى جانب هؤلاء المؤمنين الصادقين ، كان المنافقون ، الذين تشعَّبت أهواؤهم ، واختلفت نزعاتهم وحالاتهم . منهم الضعاف الجبناء ، المخوفون ، الذين لا يعطون للدعوة بقدر ما يريدون الأخذ منها . ومنهم المتآمرون الدخلاء على هذه الدعوة ، يدّعون الإسلام في الظاهر ، ويعملون في الخفاء للقضاء عليه ، والإجهاض على مسيرته .

وإلى هؤلاء وأولئك يضاف طلاب الدَّعة والراحة ، الذين لا يأبهون كلما دعا الداعي للجهاد ، ولا يتحملون أية مسؤولية في سبيل الصالح العام ، بل يسيرون مع الرياح كيفما اتجهت ، همُّهُمُ الوحيد تأمين المنافع والحفاظ على مصالحهم الشخصية ، يسعون إلى تحقيقها من أي مصدر أتت ، سواء أكان ذلك في ظل حكم قبلي جاهلي ، أم في ظل الإسلام ، أو حتى في ظل التبعية الأجنبية ، أو أي حكم قد يقوم ويسود ، أيّاً كان نوعه وشكله . . .

وقد يبدو هذا الفرز لفئات الناس في المجتمع الإسلامي ، وكأنه مظهر من مظاهر ضعفه ، إلاّ أنه في الحقيقة على خلاف ذلك تماماً ، إذ كان ضرورة حتمية لتصحيح الخلل في هذا المجتمع ، وتخليصه من عوامل الضعف التي تقوم فيه ، ومن أوكار التآمر التي قد تحدث الاضطراب في نواحيه . ومن هنا نزلت الآيات القرآنية

المباركة . تكشف المنافقين ، وتحمل عليهم حملة تقضي على مآربهم الدنيئة ، وغاياتهم السافلة ، حتى تُبعِدَ كل تأثيرٍ لهم في حياة الجماعة الإسلامية .

نعم هذه بعض ثمرات غزوة تبوك ، التي كانت خاتمة غزوات النبيِّ محمد «ﷺ» ، وبعدها تمت كلمة الله في شبه جزيرة العرب كلها ، فأقبل الناسُ وفوداً على المدينة ، يقدِّمون الولاء والطاعة لرسول الله «ﷺ» ويعلنون إسلامهم أمام الله ورسوله والمؤمنين .

وهذه بعضٌ من تلك الوفود ، التي وقع عليها اختيارنا ، تدليلاً على المسيرة العظيمة التي قاد خطاها رسولُ الله «ﷺ» بنجاح وفلاح رائعين .



وفد ثقيف

كان وفد أهل الطائف أولَ القادمين إلى المدينة ، بعد غزوة تبوك ، جاؤوا يعلنون لله إسلامهم ، ولرسوله ولاءهم . ولقد دفعهم إلى هذا المجيء ، ما رأوا من رسول الله «ﷺ» عندما حاصرَ بلدهم ، إذ لم يجعل هذا الحصارَ طويلاً ، رغم ما كان يتمتع به جيشه من قدرة على تهديم حصونهم وإنزال الخراب والدمار في دورهم وأرزاقهم ، وبما كانت عنده من غنائم تجعله يستمر في هذا الحصار حتى يذعن أهل الطائف ، ويستسلمون رغماً عن إرادتهم ، هذا فضلاً عن المعاملة الطيبة التي أبداها الرسول «ﷺ» عندما وافق على طلب ثقيف ، فأمر بوقف حرق كرومها ، وترك مزروعاتها ، ثم لم يطل به الأمر بعد ذلك ، فسار بجيشه تاركاً أهل الطائف لتفكيرهم فيما رأوه وما وجدوه من تلك المعاملة الإسلامية الرحيمة .

وأثناء ذلك الحصار كان عروة بن مسعود ، أحد سادة ثقيف غائباً عن الطائف ، في سفر له باليمن ، فلما عادَ إلى بلده ، وكان النبي «ﷺ» قافلاً من تبوك بذلك النصر المؤزَّر من الله سبحانه ، أسرع إليه يعلن إسلامه ، ويُبدي حرصه على دعوة قومه للدخول في دين الله . ولقد خافَ عليه الرسول الحكيم من حماقة أولئك القوم ،

وما يغلب عليهم من نخوة جاهلية ، تجعلهم يقدمون على عمل طائش ، فحذَّره قائلاً له : « إنهم قاتِلوك » . . ولكنَّ عروة اعتز بمكانته من قومه فقال :

« يا رسول الله ، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم » ، فلا خوف عليّ من قوم مترددين ، بين التلبية لنداء الحق ، وبين البقاء على العناد والعنت ، ولسوف يذعنون ، ويقبلون على الهداية طائعين ، مختارين . .

وذهب عروة إلى ثقيف يدعوها للإسلام ، فلم تستجب له ، بل ولم تُطِقْ صبراً على دعوته تلك ، وهو يُلحُّ عليها ، فقامت إليه ترميه بالنبال ، حتى أثخنته بالجراح ، فأشرف على الموت . . واجتمعَ أهلُه من حوله وهو يُسلِمُ الروح ، فقال لهم :

« كرامة أكرمني اللهُ بها ، وشهادة ساقَها اللهُ إليَّ ، فليس فيَّ إلاَّ ما في أولئك الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله «ﷺ» قبل أن يرتحل عنكم من حصاره للطائف » . . وكان طلبه الأخير لهم ، أن يدفنوه مع الشهداء ، فلما قضى نحبه كان مثواه مع أولئك الأبرار .

ولم يطل الأمر بثقيف حتى ندمت على ما فعلته بسيد من أسيادها الكرام . وزادَ في ندامتها ما اعتراها من خوف ، وهي تجد نفسها وحيدة ، منفردة ، بين العرب ببعدها عن الإسلام ، فلا بلد من حولها ، ولا جماعة قريبة منها ، إلاَّ ودخلت في هذا الدين ، فكيف يكون مصيرها لو استكبرت وعاندت ؟ وهل يقبل محمدٌ «ﷺ» ببقائها على الشرك ؟ أليس هو بقادرٍ على إعادة الكرَّة عليها ، يفتح

بلدها ، ويصليها النار المحرقة ؟! . .

أجل ، لقد ندمت ثقيف على ما فعلته بعروة بن مسعود أشدَّ الندم ، ورأت أنَّه لا طاقة لها على مقاومة الدولة الإسلامية فذهب عمرو بن أمية ، أخا بني عِلاج ، من كبراء القوم ، إلى كبير آخر فيهم يُدعى « عبد يا ليل بن عمرو بن عُمير » وكان المتحدث باسمهم ، فلما اجتمع إليه قال : « إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هِجْرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها ، وليس لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم » . عندها ائتمرت ثقيف بينها، وقال بعضهم لبعض : « ألاَ ترون أنه لا يأمن لكم سرْبٌ، ولا يخرج منكم أحد إلاَّ اقتطع به » ؛ ونتيجة للتداول والتشاور أجمعوا على أن يرسلوا رجلاً يكلّم محمداً «ﷺ» بأمرهم ؛ على أن يكون هذا الرجلُ كُفء عروة بن مسعود ، وعلى مستوى الأحداث التي يعيشونها ؛ فاختاروا لهذه المهمة « عبد يا ليل بن عمرو بن عُمير » ، إلاَّ أن « عبد يا ليل » أبى أن يذهب ، وخشِي أن يُصنعَ به إذا رجَع كما صُنِعَ بعروة ، فقال لهم : « لست فاعلاً حتى تبعثوا معي رجالاً » . فأجمعوا على أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بني مالك . فتألّف وفدٌ من ستة أشخاص : عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دُهمان ، أخو بني يَسَار ، وأوس بن عوف ، أخو بني سالم ، ونُمَيرْ بن خرَشة بن ربيعة ، أخو بلحارث ؛ والحكم بن عمرو بن وهب بن مُعتّب ، وشُرَحْبيل ابن غيلان بن سَلَمة بن معتّب ، بالإضافة إلى عبد يا ليل .

وكان الثلاثة الأخيرون من الأحلاف ـ ؛ وقد رأس ذلك

الوفد « عبد يا ليل » ، فخرج بهم في شهر رمضان من سنة تسع هجرية ، فلما دنَوا من المدينة ونزلوا قناةً ، لقُوا بها أحد أبناء قومهم ، المغيرة بن شعبة ، يرعى طروش الصحابة في نوبته = إذ كانت رعيتها نُوَباً =، فلما أخبروه بمقصدهم ، وافدين على رسول الله «ﷺ» ، وثَبَ المغيرة ليبشِّر الرسول «ﷺ» بقدومهم عليه ؛ وإنّه لفي طريقه يشتدُّ حتى يبلغ المدينة إذْ لقيه أبو بكر الصديق (رض) ، فاستوقفه يسأله عما يُعَجِّل به على هذه الحال ، فقال له : هؤلاء وفدٌ من ثقيف ، بني قومي ، قد قدموا يريدون البيعة والإسلام ؛ فقال له أبو بكر (رض) : « أقسمت عليك بالله لا تسبقنيْ إلى رسولْ الله حتى أكون أنا الذي أحدّثه » . وقَبِلَ المغيرةُ ، فعادَ إلى وفد ثقيف ، يحدّثهم بما يليق بهم ، ويعلّمهم كيف يحيّون رسول الله «ﷺ» بتحية الإسلام : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . . ولكن يبدو أن اولئك الأشخاص لم يفقهوا معنى هذه التحية ، فما أن قدموا على رسول الله «ﷺ» حتّى حيّوهُ بتحية الجاهلية

وكان رسولُ الله «ﷺ» يُدرك غِلظتهم فلم يأْبَهْ لتصرّفهم الجاهلي هذا ، بل أمَرَ أن يُقدَّم لهم مكانٌ في ناحية المسجد ينزلون فيه ، فيأتيهم ويحدّثهم عن الإسلام ، ويبيّن لهم أحكام هذا الدين الذي يؤمن بإله واحد أحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، وما يترتب على هذه الوحدانية من عبودية الناس ، وهي العبودية التي تحقق للذات البشرية خلاصَها ، ورفعتها ، وترسم للعباد جميعاً درب الصراط المستقيم . .

وقد أخَذَ بعضُ الصحابة على أنفسهم ، القيامَ على خدمة هؤلاء الأشخاص ، يُقدِّمون لهم الطعام ، وكلّ ما يحتاجون إليه ؛ إلاّ أنهم لم يطمئنوا إلاّ إلى خالد بن سعيد بن العاص ، إذْ كانوا لا يذوقون طعاماً قُدِّم لهم إلاّ إذا طعم منه ، أو شراباً إلاّ إذا شربَ منه ، وقد ظلوا على هذه الحال ثلاثة أيام ولياليها ، حتى أسلموا وبايعوا وفرغوا من كتابهم .

على أن تلك المدة التي أمضَوْها في رحاب المسجد ، وبين المسلمين ، لم تكن كافية ، لأن ينفذ الدينُ الذي جاؤوا يسعون للدخول فيه ، إلى قلوبهم ، ولأن يشعروا بحلاوة الإسلام ، وطعم الإيمان الحق ، إذ طلبوا من رسول الله «ﷺ» في بقيةٍ جاهلية ، أن يدَعَ الطاغوت ، وهو صنمهم « اللات » الذي كانوا يعبدون ،فلا يهدمه طيلة ثلاث سنين .. ولكنَّ الرسولَ الأمين أبى ذلك عليهم مستنكراً ما يطلبون ، فعادوا يسألونه ان يدعه لهم سنتين ، فأبى ؛ وما برحوا يسألونه سنة فسنة ، وهو يرفض بجزمٍ واستهجان ، حتى سألوه شهراً واحداً بَعْدَ رجوعهم الى بلدهم فأبى أن يدعه ، ورفض الخوض أو الحديث في مثل هذا الكلام ، لأنه لا يمكن أن يجتمع الإسلامُ والوثنية ، إذ لا إيمان مع الكفر ، ولا طهارة مع النجاسة .

وأدرك وفد ثقيف استحالةَ ما طَلَبَ، فعادَ يخفّفُ في الطلب سائلاً رسولَ الله «ﷺ» «ألاّ يهدموا أوثانهم بأيديهم» فوافقهم الرسولُ «ﷺ» على ذلك ؛ ثم عادوا يسألون أن يعفيهم من الصلاة ، فقال «ﷺ» لهم : « أما كسر أوثانكم بأيديكم فأعفيناكم منه ، وأما

الصلاة فلا ، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه » . .

ولعلَّ الإنسان يَعَجبُ من طلب هؤلاء القوم إعفاءهم من الصلاة ، وهم قد أقاموا في المسجد ، يرون بأم العين كيف يتدافع المؤمنون إلى الصلاة ، فيقفون خاشعين لله رب العالمين ، معرضين عن كل مطلب في حياتهم ، وعن كل متاع في دنياهم ؛ ثم يلحظون كيف كان الناسُ يجتمعون إلى رسول الله «ﷺ» بعد الصلاة ، فيحدّثهم بما يهدي إلى نورانية الإيمان ، ويدلُّهم على صدق القول والفعل ، ويبيِّن لهم طمأنينة حسن الطويَّة وصفاء السريرة ، حتى لا يترك أمراً من الأمور التي تبعد الإنسان عن كل ما يبخس قيمته ، أو يحطُّ من كرامته إلاَّ ويلجُهُ ، ولا شأناً من الشؤون التي ترتفع بالإنسان إلى معارج الرقي والكمال ـ حتى ليكاد يبلغ مرتبة الملائكة المقربين ـ إلاَّ ويطرقه . . نعم إنه لمن شديد العجب ألاَّ يأنَسَ وفد ثقيف بتلك الصلوات التي كان يرى ، وألاَّ يتأثَّرَ بنفحات تلك الحلقات التي كان يشهد ، فيجعل جفوة الجاهلية هي التي تغلب عليه ، ويطلب ما يطلب من رسول الله «ﷺ» أن يدَعَ الطاغوت وأن لا تكون لهم صلاة ! . . .

ولكن يبطل العجب عندما يشاهد المرءُ في عصرنا هذا أناساً يشيِّعون صديقاً لهم ، أو قريباً من أقربائهم ، ويدخلونه المسجد للصلاة على جثمانه ظهراً كان أو عصراً فيقفون خارج المسجد وكأنَّ الصلاة لا تخصّهم من قريب أو بعيد .

فهل بعدُ من غرابةٍ من موقف وفد ثقيف من الصلاة وغيرها من

الأحكام الشرعية ونحن نشاهد هؤلاء العازفين عن فريضة فرضها اللهُ على المؤمنين ؟

لا ، فإن وفد ثقيف الذي فُطِر على الوثنية أقل جفوة من هؤلاء الذين فطروا على الإسلام ، وخير منهم ، فإن ذلك الوفد ناقش في الصلاة ثم التزم بها ، ولكنَّ هؤلاء وأمثالهم يماحكون ، واحياناً يناقشون ويجادلون ثم لا يلتزمون . وهم يعلمون ما للصلاة من ثواب وما يترتب على تركها عمداً من عقاب .

وكان الوفد يرى أنَّ النبي «ﷺ» إذا خطب بعد الصلاة ، لا يذكر نفسه ، فتساءلوا :

« كيف يأمرنا أن نشهد بأنه رسول الله وهو لا يشهد به في خطبته أمام الناس » ؟ وسرى تساؤلهم إلى النبيِّ «ﷺ» فأرشدهم وقال : « إني أولُ من شهد أني رسولُ الله » . وفي الذكر الحكيم : « وما محمد إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ . . إنَّ الله وملائكته يصلُّون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً » .

هكذا كان الرسولُ الأعظمُ يبيّن لوفد ثقيف ما يريد تبيانه ، ويردُّ على طلباتهم وتساؤلاتهم بما هو حقٌ ومقنع . وكان عثمان بن أبي العاص ، أصغرهم سناً ، إلاَّ أنه كان أقربهم إلى الهداية ، بما في نفسه من صفاء وما في قلبه من نقاوة وطهارة ، فكان إذا وقف على رحالهم تركها وذهبَ مسرعاً إلى رسول الله «ﷺ» يطلب أن يتلوَ عليه القرآن ، ويشرَحَ له معاني الآيات ، فيقبل عليه الرسول الكريم ،

يُدنيه منه ، ويُشبعُ نفسَهُ بما تحُبُّ ، وعقلَهُ بما يقنع ، حتى فَقِهَ كثيراً من أحكام الدين ، مما جعل رسولَ الله «ﷺ» يكنُّ له عطفاً خاصاً ، ويقدِّمه على سائر اعضاء الوفد ، في الايمان والتقوى .

وكان قد طال مكوث وفد ثقيف في المدينة فأحبَّ أن يرجع إلى قومه ، فذهب إلى النبي «ﷺ» يسأله ذلك فقال رئيسه « عبد يا ليل » : يا رسولَ الله ، هل أنتَ مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا » ؟ .

قال «ﷺ» : « إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم ، وإلاَّ فلا قضية بيني وبينكم » .

قال عبد يا ليل : هنالك أمور نرجو ان تعفينا منها ، فنحن لا نقدر على فراقها وتركها .

ولمَّا سأله الرسول «ﷺ» عن تلك الأمور ، قال : « أفرأيت الزنى ، فإنَّا قوم نغترب ولا بد لنا منه » .

قال «ﷺ» : الزنا حرام ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً » .

قال عبد يا ليل : أفرأيت الرِّبا ، فإنه أموالنا كلها .

قال «ﷺ» : « إنَّ الله تعالى يقول : ﴿ فلكم رؤوسُ أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . . ويقول : يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وذَروا ما بقيَ من الرِّبا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

قال عبد يا ليل : أفرأيت الخمر ، فإنه عصير أرضنا لا بد لنا

منه » .

قال «ﷺ» : « لقد حرَّم الله تعالى الخمر بقوله الحق : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ .

ولم يَعُدْ لدى وفد ثقيف ما يقوله ، فأذعَنَ ، وأقرَّ بما أنزَلَ اللهُ ودعا إليه رسولُهُ ، فقال جميع أعضائه : آمنا وأسلمنا ، ونحن مستجيبون لما أمرَنا اللهُ ورسولُهُ ، وملبِّين لما يطلب منَّا اللهُ ورسوله .

وسألَ وفْد ثقيف رسولَ الله «ﷺ» أن يختار أميراً على بني قومهم ، فاختار أصغرهم سنّاً عثمان بن أبي العاص ، لأنَّ عثمان وحَدَهُ ، وقف من بين أعضاء الوفد ، على حفظ سُوَرٍ من القرآن الكريم ، وعرف معانيها ، وهو يملك من الإدراك ما يجعله قادراً على إرشاد قومه حتى تكون لهم الهداية التامة . . وقد أبقى الرسولُ «ﷺ» إلى « عبد يا ليل » صلاحية التحدُّث إلى ثقيف عند العودة ، لِمَا رأى فيه من جدارة على الإقناع ، وذكاءٍ في النفاذ إلى النفوس . فلمّا خرجوا من عند رسول الله «ﷺ» وتوجهوا إلى بلدهم راجعين ، بَعَثَ الرسول «ﷺ» معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، لكي يهدما « اللات » وبقية أوثان ثقيف . . .

ويتوقف الإنسان عند هذا الاختيار من قبل رسول الله «ﷺ» حتى يتبين الحكمة منه ، وصوابية العمل . . فأبو سفيان بن حرب ، هو زعيم قريش ، صاحبة السيادة فيما مضى على قبائل العرب كلها ، والقائمة فيما سبقَ على شؤون البيت الحرام . ومكة بلده ، منافسة

للطائف في التجارة والغنى . فيكون بعثُهُ لهدم « اللات » معبود الطائف ، دليلاً مقنعاً لثقيف أنه لا أملَ لها في البقاء على الشرك ، لأنَّ أيَّ إنسان ، مهما علا مقامه ، هو طوعُ أمرِ رسول الله «ﷺ» ، وأيَّ جماعة ، مهما كانت مكانتها ، سائرة بلا ريب ، إلى دين الله سبحانه وتعالى .

وأما المغيرة بن شعبة ، فهو من بني ثقيف وقيامه نفسُهُ بهدم اللات ، قهرٌ للتمرّد في نفوس هؤلاء القوم ، وإزالةٌ للتشبث بعناد الرأي ، إذْ إقدام واحدٍ منهم ، كان يعبد هذه الطواغيت من قبل ، يؤكد عدم نفعها أو ضرِّها ، وعدم الجدوى من معارضة هذا الهدم . . هذا بالإضافة إلى أن للمغيرة فضلٌ يجب أن يكافأ عليه ، فهو الذي لاقى وفد ثقيف واهتمَّ به ، إلاَّ أنه تنازل عن طيبة خاطر للصدّيق عندما طلب إليه أن يكون هو من يخبر رسولَ الله «ﷺ» بقدوم ذلك الوفد ، فما بَعثْه في هذه المهمة ، مع ما تتضمن من شرف هدم الأصنام والقضاء على معالم الشرك ، إلاَّ من قبيل المكافأة له على ما يستحق . هكذا نرى تقدير رسولَ اللهُ «ﷺ» في اختياره الرجلين دون سواهما ، وفي هذا الاختيار من الحكمة والصواب ما لا يتوافر لإنسان غير محمد «ﷺ» .

ولمّا وصَلَ الجمعُ إلى الطائف ، أرادَ المغيرة أن يقدِّم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ؛ وأقام أبو سفيان بذي الهرم .

أما الوفد ، فقد اجتمع إلى بني قومه ، وكان « عبد يا ليل »

قد حرّض رفاقه في طريق العودة بأن يكتموا إسلامهم ، حتى يتدبروا الأمر مع بني قومهم . فلماّ اجتمعت ثقيف تسأل عما جرى ، أبدى الوفدُ تخوفاً شديداً ، وخطراً داهماً ، فقد أشاع بين القوم أنَّ محمداً ﴿ﷺ﴾ قد يشنُّ عليهم حرباً لا هوادة فيها ، بعدما سألهم الإذعان لشروطه ورفضوها . وسألت ثقيف عن تلك الشروط ، فقالوا لهم : هدم اللات ، وتحريم الخمر والزنى والربا . .

قالت ثقيف : وما أجبتم ؟

قال أصحاب الوفد : أبَينا ذلك . .

قالت ثقيف : إنه يشترط علينا . . ولكنّا لا نقبل بهذه الشروط ! . .

وهنا قال أصحاب الوفد : ماذا بقي أمامنا يا قوم إلاَّ أن نتهيأ للقتال ونستعدَّ للحرب . . فهيا أصلحوا السلاح ، وهبّوا للقتال ، ورمّوا الحصون ! . .

وهمدت ثقيف ، واعتراها الدعر ! . ما بال هؤلاء النفر منها قد عادوا مرعوبين يسألونها الاستعدادَ للحرب ؟ أذهبوا إلى المدينة دعاة حرب أم طلاب أمن وسلام ؟! . . وبعد تفكير وتشاور ، تراءى لثقيف ما ستؤول اليه الأحوال من سوء العاقبة إن هي وافقت على الحرب ، فقال قائلها : والله ما لنا بقتال محمد طاقة ! لقد دانَ له العربُ كلهم ، فارجعوا اليه وأعطوه ما سأل ، وصالحوه على ما يريد . .

ورأى الوفدُ أنه حقّق غرضه ، إذْ بدا واضحاً أن ثقيفاً لا تريد قتالاً ، وها هي تتنازل لا عن مقدساتها السابقة وحسب ، بل وعن أهم مقومات حياتها الاجتماعية ، في الرِّبا والزِّنى والخمر . . .

ولمّا أذعَنَ القوم للحقيقة ، أظهر « عبد يا ليل » ما كتَمَهُ وأصحابُهُ عنهم ، فقال : « والله لقد أعطيناه ما أحببنا ، وشرطنا ما أردنا ، ووجدنا رسولَ الله «ﷺ» أتقى الناس وأوفاهم ، وأصدقهم وأرحمهم . بُورِكَ لنا ولكم في مسيرنا ، وفيما قاضيناه عليه ، فاقبلوا عافية الله » .

وبهُتَتْ ثقيف ، فقالت بدهشة : « ولِمَ كتمتمونا هذا الحديث وغَمَمْتُمونا هذا الغمَّ » ؟

قال عبد يا ليل : « أردنا أن ينزعَ اللهُ من قلوبكم نخوة الشيطان » .

وبذلك انتهت ثقيف إلى الإسلام ، إلاّ أن معالم الشرك ما تزال قائمة عندها ، فهذه « اللات » وبقية الأوثان في أماكنها ، ولا أحد يجرؤ على إزالتها ، لأنَّ في اعتقادهم أن « اللات » ممنوعة من البشر بقوة خفية ، إذ هي الربَّة المقتدرة ، وما من أحد من البشر يمكنه هدمها ، ولئن حاوَلَ أحدهم مساسها بُضرٍّ ، فإنها ستكون نهايته ، إذ هي ستقضي عليه لا محالة .

وأدرك « عبد يا ليل » ما يجول بنفوس القوم ، وما يسيطر عليهم من وهم ، فأعلن ، منعاً لأي حيرة أو همّ ، أنَّ المغيرة بن

شعبة ما جاء إلاَّ لهدم « اللات » وأنَّ معه لهذا الغَرض ، أبا سفيان بن حرب ، يقوم بمالِهِ بذي الهُـرْم ؛ فذهب على الفور ، من يدعوهما ، فلماّ أتيا ، خرج أهل الطائف جميعاً يشهدون الأمر ، وأغلبُ ظنهم أن مُصاباً سيحُـلُّ بهـادم « الـلات » . . وكان المغيرة يعـرف ذلك الاعتقاد عند بني قومه ، فصممَّ في نفسه على أن يظهر سخَفَ هذا الاعتقاد ، وأن يستهزىء من ظن هؤلاء القوم ، ولذلك ، ما إن تقدم يحمل المعول ويهم بالضرب به ، حتى أوقع نفسه أرضاً ، إلاَّ أنه ما لبث أن قام على عجـل ، يركض مندفعـاً إلى البعيد ، والهلـعُ بادٍ عليه . . وأمام هذا المشهد ، أُرتـج على أهـل الطـائف ، فضجـوا بضجـة واحـدة ، وصاحـوا قائلـين : « أبعـدَ اللهُ المغـيرة ، قتلتـه الربّة ». لقد أخذهم الفَرَحُ وهم يرون المغـيرة يسقـط بتقدمِـهِ من « اللات » ، فعادتْ إلى نفوس بعضهِم نخوةُ الجـاهلية ، فراحـوا يقولون : « من شاءَ فليقترب من الربّة ، فهـا هي على عهدهـا ، مانعة نفسها من كل متطاول معانِد » . . .

لقد فرِحَ معظمُ أهل الطائف وضحـكوا بشماتـة وسخـرية ، ولكنَّهم لم يدروا أن كلَّ ما رأوه لم يكن إلاَّ لعبةً أرادها المغيرة ، وها هو وبمثل البرق الخاطف ، يعودُ من هروبه ليرفع المعوَلَ أمـام الملأ وهو يقول: «قبحكم الله معشر ثقيف إنمـا هي حجـارة ومَدَر» . . . ثـم يتقدم نحـو بـاب « الـلات » فيهشمه ، ويحطمـه ، فلا يكـاد ينتهي منه ، حتى يعلو فوق السـور آخـذاً بهـدم حجارتـه ، مزيلاً مداميكه ، مدماكاً بعد مدماك ، ومن حوله قومُـهُ ، بنـو معتّـب ، خشية أن يُرمى من أحد غدراً ، حتى بدا عليه التعـبُ ، فتقدمـت

جماعة تساعدهُ ، وما زالوا كذلك ، حتى أتوا على بيت « اللات » كله ، ولم يبق منه شيء يرتفع فوق الأرض . وكان صاحب مفتاح « اللات » من جملة الجموع التي جاءت تشهد الحادث ، وقد رأى بأم عينه ما حلّ بمعبودته « اللات » ، فبكاها من قلبٍ محُرق ، وندبها مع نسوة ثقيف وهنّ يُقُلن :

لتُبكيَنْ دفّاع أسلمها الرضّاع

لم يحسنوا المصاع[1]

ولم يُصدّقْ صاحب المفتاح أن ذلك يحدث ، وأبى عليه وهمُهُ أن يذعِنَ للواقع ، فراح يصرخ مولولاً :

« الويل لمن يقترب من الأساس » . .

وسمِعَ المغيرةُ ذلك الصراخ ، فقهقه ساخراً ، ثم صاح بالناس : « هيا وانظروا يا قوم ، عليّ بالأساس » . .

وتقدم المغيرة ، وتقدّم معه ، كل من كان يُعينه في الهدم ، يحفرون أساسَ بيت اللات ، ويخرجون ترابه ، فيذرونه في الفضاء ، حتى لم يبقَ منه موطيء قدم إلاّ وقد حفر ؛ عندها فقط ، أيقنَ أهل المكابرة أن « الربّة » وما تملك من قوة ، لم يكن إلاّ وهماً كاذباً ، خدعوا به أنفسهم ، وخدعتهم به الأجدادُ طوال أجيال ، حتى بَعَثَ اللهُ سبحانه من يُبدّد ذلك الوهم ، ويقضي على ذلك

(١) المصاع : الضرب بالسيف . وهذه الارجوزة تصف رجال ثقيف باللئام لأنهم لم يحسنوا الدفاع عن اللات ضربا بالسيف .

الخداع ، فعادوا إلى بيوتهم ، والكل في شتات من الفكر بين الماضي والحاضر ، يسخرون بأنفسهم من أنفسهم ، متلوّمين ، محنقين ، ساخرين . .

على أنَّه وإنَّ كان اللومُ والحنَقُ قد أخذهما في تلك الساعة ، إلاَّ أنهما كانا تعبيراً عن الانفعال وهم يأسفون على ما أضاعوا من عمرٍ بالتفاهة ويتأسفون على ما صرفوا من أيام على عبادةٍ باطلةٍ . ومهما تكن المشاعر التي أحسُّوا بها ، فقد تبيّن لهم أن الله سبحانه وتعالى قد عوَّض عليهم الآن ، بما أودعَهُ في قلوبهم من إيمان خالص ، سوف يبقى مستقراً في الأذهان ما دامت الأرض قائمة ، وفي النفوس مغلغلاً ما دامت السماءُ مرفوعة .

هُدِمتِ « اللاتُ » وأزيلت أصنام الطائف ، فعادَ المغيرة وأبو سفيان ، يقدّمان لرسول الله «ﷺ» ما احتملاه من الأموال والحليّ التي كانت عندها ، بعدما قضيا منها الديون التي كانت على عروة والأسود ، ابْنَيْ مسعود بن عروة ، الذي ذهب شهيد إيمانه بالله الواحد الأحد .



وفـد همـدان

ومـن بعيد ، من بلاد اليمـن ، أقبـل على المدينـة وفـدٌ من همدان ، منهم مالك بن نَمَط ، وأبوثور وهو ذو المِشعار ، ومالك بن أيْفع ، وضِمام بن مالك السَّلْماني ، وعَميرة ابن مالك الخارفيّ . . جاءَ هذا الوفدُ مُسلماً ، غير متردِّدٍ ولا متلوِّم ، بل مبشّراً بوصـول الإسـلام إلى ديارهـم ، فَسَرَّ رسـول الله «ﷺ» بقدومهـم أعظـم سرور .

وكان هذا الوفد على أتمّ زينة وأحسن مظهر ، يلبس من الحلل المقطعات والحبرات ، ويعتمر من العمائم العدنيّة الخالصة ، فأقرَّهم الرسول «ﷺ» على هذا المظهر ، لأنَّ الاعتناء بالهنـدام ، واللياقـة باللباس ، دليلٌ على احترام الذات والمحافظة على الشخصية ، فكان ارتياح الرسول «ﷺ» لتلك الأناقة التي جاؤوا بها ، ونظرته بعـين الـرضى لأثوابهـم،وقـد خلـت من كل وشْي بالذهـب أو الفضـة ، وبعدت عن أي مظهر من مظاهر الإسراف والترف الفاحشين اللذين لا يقرهما الإسلام .

ورأى وفدُ همدان ما يحيطهم به رسولُ الله «ﷺ» من حفاوة وتكريم ، فأراد بعضُهم أن يبدي امتنانه وسعادته بالتشرف بحضرة النبي «ﷺ» فقام مالك بن نَمَط يرتجز بين يديه :

إليك جاوزنَ سوادَالـريف   في هبـوات الصيفِ والخريفِ
مخطّماتٍ بحبال الليف

ثم عادَ مالك يقول : « يا رسولَ الله ، لقـد جاءك خيارُ القوم من هَـمْدان ، من كل حاضر وبـاد ، أتـوك على قُلص نَواجٍ (إبل فتية) ، لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف (مدينة في اليمن) : خارف ويامٍ وشـاكر ، أهـل السـود (الإبـل) والقـود (الخيل) أجابوا دعوة الرسول ، وفارقوا الآلهات (الأنصاب) ، عهدُهم لا يُنقض ما أقامتْ لَـعْـلَع (جبل في اليمن) .

ثم أقام وفْـدُ همدان في المدينة ما شاءَ اللهُ أن يقيم ، فلَّما أراد العودة إلى بلاده ، جعل رسولُ الله «ﷺ» مالك بن نمَط أميراً على من يُسلم من بني قومه ، وأمَرَه بجهاد من يَقربهُم من المشركين ، وقـد عاونهم النبيُّ «ﷺ» بإرسال خالد بن الـوليد في سرية ، ليدعـو في اليمن إلى الإسلام .

وكان في تلك السرية البراء بن عازب ، فقال ، يتحدث عن تلك السرية : كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد إلى أهل اليمن ، وقد مكث يدعوهم إلى الإسلام ، ستة أشهر ، فلم يجيبُوهُ ، كما كنّا نحب ؛ فبعـث النبيُّ «ﷺ» من بعـد ذلك عليًّ بن أبي طالـب (ع) ، جاءَ يدعو الناس إلى دين الله ، لا بقولٍ ولا بقتـال ، بل بكتاب من رسول الله «ﷺ» . ونزلَ علي (ع) في ديار همدان ، وقد صفـّ المقاتلين معه صفـاً واحـداً ، ثم نادى في القـوم ، حتـى اجتمعوا إليه ، فقرأ عليهـم كتـاب رسـول الله صلىّ الله عليه وآلـه

وسلّم ، وما إن انتهى من قراءته ، حتى تغيرً الموقف فجـأة ، فإذا بالقوم يفاوضونه ، وإذا بهمدان تألف الاسلام ، وتدخل فيه مؤمنة ، راضية .



وفد الأزد

وقدم من اليمن أيضاً وفد من الأزد ، كان على رأسه صرد بن عبدالله الأزدي ، ما إن أقام فترة بين يدي رسول الله «ﷺ» حتى أسلم وحسن إسلامه ، فأمّر الرسول «ﷺ» صرْداً على من أسلم من بني قومه ، وطلب إليه أن يدعو إلى دين الله الواحد بين قبائل اليمن .

وكان بجوار الأزديين مدينة مغلقة يقال لها جرش ، وقد انضمت إلى أهلها خثعم ، فأرادوا محاربة المسلمين حتى يمنعوهم عن متابعة دينهم ، فخرج إليهم صرد بن عبدالله وحاصرهم في مدينتهم نحواً من شهر ، وهم فيها ممتنعون ، مما أجبره على ترك الحصار ، واللجوء إلى جبل يقال له « كشر » ، يعتصم فيه ، متحيّناً الفرصة للانقضاض على عدوٍّ ، بحيثُ يباغتهم مباغتةً لم تكن في حسبانهم .

ورأى المشركون ان يقوموا بغزو الأزديين ، فلمّا خرجوا لهذا الأمر ، وصاروا خلف الجبل ، انعطف عليهم صَرْدٌ بمن معه ، ودارَ بين الفريقين قتال شديد انتهى بنصر المسلمين . . وقد بَلَغَ خبرُ هذه الواقعة رسولَ الله «ﷺ» فسأل بأي مكان حدثت ، فلمّا قيل له عند جبل يقال له « كشر » ، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام : إنه

ليس بكشر ، ولكنه شكر .

ولقد جاءَ بعد ذلك وفد من جرش فأسلموا وحسن إسلامهم ، فأقطعهم رسولُ الله «ﷺ» حول بلدهم حمىً ليستغلّونه ، كما كان يفعل ذلك مع من يسلمون من أهل البلاد ليتمكنوا من استغلال الأرض ، فلا يتركونها بوراً . .



وفد بني تميم

ثم قدم على رسول الله «ﷺ» عُطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدَس التميمي في أشراف من تميم ، وجاء مع ذلك الوفد الأقرع بن حابس ، وعُيينة بن حصن بن حُذيفة الفزاريّ ـ وقد كانا شهدا مع رسول الله «ﷺ» فتح مكة وحصار الطائف ـ ؛ فلمّا دخل وفد بني تميم المسجد ، نادَوْا رسولَ الله «ﷺ» من وراء الحجرات : أن اخرج إلينا يا محمد . فآذى صياحُهم رسولَ الله «ﷺ» فخرج إليهم .

قالوا : يا محمد ، جئناك لنفاخرك فأْذنْ لشاعرنا وخطيبنا .

قال «ﷺ» : أذنتُ لخطيبكم ، فلْيقُلْ .

فقام عطارد بن حاجب ، وقال : « الحمد لله الذي له علينا الفضْل وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً ، وأيسره عُدَّةً ، فمن مثلنا في الناس ! ألسْنا برؤوس الناس وأولي فضلهم ! . فمن يفاخرنا فليعدّدْ مثل ما عدَّدْنا ، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف . أقول هذا الآن لتأتونا بقولٍ مثل قولنا ، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا » .

وما إن جلس ، حتى قال رسول الله «ﷺ» لثابت بن قيس بن

شمّاس أخي بلحبارث بن الخزرج : « قـم فأجِـبِ الرجـلَ في خطبته » .

فقـام ثابـت فقـال : « الحمـدلله الـذي السموات والأرض خَـلْـقُهُ ، قضى فيهنَّ أمرَه ، ووسع كرسيُّه عِلْـمَهُ ، ولم يكُ شيء قطّ إلاَّ من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقِهِ رسولاً أكرمهـم نَسَبـاً ، وأصدَقهـم حديثـاً ، وأفْضَلَهـم حَسَباً ، فأنزل عليه كتابه ، واثتمنه على خَـلْقِهِ ؛ فكان خِيرَةَ الله من العالمين . ثم دعا الناسَ إلى الايمان ، فآمن برسول الله ، المهاجرون من قومه وذوي رحمه ؛ أكرم الناس أنْساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فِعالاً ؛ ثم كان أوّل الخلق إجابةً ـ واستجابَ لله حين دعا رسولُ الله صلىً الله عليه وآله وسلم ـ نحنُ ؛ فنحن أنصارُ الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنـوا بالله ، فمـن آمـن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كَفَرَ جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنـين وللمؤمنـات ، والسلام عليكم » .

قال بنو تميم : يا محمد ! إئذنْ لشاعرنا .

فقال: ﴿ﷺ﴾ : فليفعلْ .

وقام شاعرهم الزّبرقان بن بدران ، فألقى قصيدة مليئة بالمدح والفخار . وردَّ عليه حسان بن ثابت ـ شاعر رسول الله ﴿ﷺ﴾ ـ بما يَـعْلو شعره ، ويستفيض عليه قوةً وبلاغـة . فلماّ فرغ حسـان بن ثابت ، قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤ تّى له (أي

موفق) ! لَخَطِيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولشَاعِرُه أشعرُ من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .

ولمّا فرغ القوم من تلك المبارزة الكلامية والشعرية ، أسلم بنو تميم ، وأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم . وكان عمرو بن الأهتم ، أحد القوم ، قد خلّفوه في رحالهم ، فقال قيس بن عاصم : يا رسول الله ، إنَّه قد كان منّا رجل في رحالنا ، وهو غلام حَدَثٌ وأُزرِي به ، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم .

وفي بني تميم ، أنزلَ اللهُ تعالى قوله : « إن الذين يُنادونك من وراء الحجُرات أكثرهم لا يَعْقِلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » .



قدوم ضِمام بن ثعلبة

وبعث بنو سعد بن بكر ، أحدَ رجالهم ، ضِمام بن ثعلبة إلى المدينة ، كي يقف على حقيقة ما يدعو إليه محمدٌ «ﷺ» . فلما وصلَ أناخَ بعيره على باب المسجد ، وعقَلَهُ ، ثم دخل المسجدَ ورسول الله «ﷺ» جالس في أصحابه ، وكان ضِمام بن ثعلبة رجلاً جَلْداً ، أشْعر ذا غديرتين ، لا يعرف شخص النبيِّ «ﷺ» ، وقد أقبل على الجمع ، مظهراً جفوةً في صوته وهو يسأل : « أيكم ابن عبد المطلب » ؟.

وقد كنّى النبيَّ «ﷺ» بذلك لأنه كان معروفاً فيه عند العرب من قبلُ ، إذ أنَّ جده عبد المطلب هو حاضنُه ومربيه بعد وفاة أبيه عبد الله ، سلامُ الله وصلواتُه عليهم جميعاً .

فلما سمعه الرسول «ﷺ» قال : « أنا ابن عبد المطلب » ؟

قال : يا ابن عبد المطلب ، إني سائلُكَ ومُغْلِظٌ لك في المسألة ، فلا تجِدَنَّ في نفسك .

قال «ﷺ» : لا أجِد في نفسي ، فسَلْ عمّاً بدا لك .

قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو

كائن بعدك ، آللهُ بعثك إلينا رسولاً ؟ .

قال «ﷺ» : اللَّهم نعم .

قال : فأنشدك بالله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك ، وإلٰه مَنْ هو كائن بعدك ، آللهُ أمرك أن تأمُرَنا أن نَعْبُدَهُ وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلَعَ هذه الأندادَ التي كانت آباؤنا تعبد من دونه ؟

قال «ﷺ» : اللّهم نعم .

وتابع ضِمام يسأل النبيَّ «ﷺ» عن فرائض الإسلام فريضةً فريضةً ، فسأل عن الصلوات الخمس ، والزكاة ، والصيام ، والحجّ ، وهو يناشِدُهُ «ﷺ» بنفس الصيغة التي ذكرها ، حتى إذا فرغ ولم يعد في نفسه محلٌّ للتساؤل ، قال : فإني أشهد أن لا آله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنبُ ما نهيتني ثم لا أنقص ولا أزيد » .

وانصرف ضِمام ، فقال رسول الله «ﷺ» حين ولىّ : « إنْ صَدَقَ ذو العَقيصتَينْ[1] يدخل الجنة » وأتى ضِمامٌ بعيرَه فأطلق عِقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، ليفاجئهم بإعلان كفره بأصنامهم ، ويكيل السُّباب والشتائم إلى اللات والعزّى .

فأشفق عليه أبناء قومه مما يقول ، إذ كان في زعمهم أن من

---

(١) العقيصة : الضفيرة من الشعر .

يصيب آلهتهم بسوء فإنه يصاب بمرض البرص أو الجذام ، وقد ثبت ذلك الوهم في أذهانهم منذ القديم ، ولذلك قالوا له :

ـ صهْ يا ضِمام ! اتّق البرصَ ، اتّقِ الجذام ، اتّق الجنون !

قال : وَيْحَكم ، إنهما والله لا ينفعان ولا يضرّان ، ولا يغنيان عنكم من الله شيئاً . إنّ الله تعالى قد بعث رسولاً ، وأنزلَ عليه كتاباً ، استنقذكم به مما كنتم فيه ؛ وإني أشهد ان لا إله الاّ اللهُ وحدَه لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

وراح ضِمام بن ثعلبة يعيد على مسامع بني سعد بن بكر كلّ ما سألَ النبيّ «ﷺ» عنه ، وبما أجابهُ الحبيبُ المصطفى ، والقوم يصغون إليه بكل جوارحهم ، وهُمْ كلما استمعوا إليه كلّما أحسّوا بِاطمئنان لم يعرفوه من قبل ، وبمشاعر لم تداخل أفئدتهم قطّ ، فلامس الايمان قلوب أبناءِ بكر إذْ استجابت لداعي الله ، حتى أنه ما حلّ مساءُ ذلك اليوم ، إلاّ وكان كل رجل او امرأة قد أسلم وشهد بشهادة الحق . فما سمع الناس بوافِدِ قومٍ كان أفضلَ من ضِمام على بني قومه .

وفد بني حنيفة

ومن اليمامة جاءَ وفدٌ من بني حنيفة ، قادماً على رسول الله «ﷺ» . وكان فيهم رجلٌ داهية ، منافق ، حادّ الذكاء ، بارعٌ في المراوغة ، يدعى مسيلمة بن حبيب . نزل هذا الوفد في دار ابنة الحارث ، امرأة من الأنصار ، بعد أن خَلَّفَ مُسَيْلمةَ في رحاله . فلما أسلموا ، وسألوا النبيَّ «ﷺ» فأعطاهم ، ذكروا له مسيلمة قائلين : يا رسول الله ، إنا قد خلَّفنا صاحبنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا . فأمر الرسول «ﷺ» له بمثل ما أمَرَ به للقوم . ثم انصرفوا عن رسول الله «ﷺ» وجاؤوا مسيلمة بما أعطاهُ رسول الله «ﷺ» ، فأخذته العزّة بنفسه ، وغرَّه الغرور ، لأن رسول الله «ﷺ» أكرمَهُ وأعطاه دون أن يَمْثُلَ بين يديه . فما قفل راجعاً إلى اليمامة إلاَّ وهو يدّعي النبوّة ، ويزعم أنَّ الله سبحانه أشركه في الأمر مع محمد «ﷺ» . ثم جَعَل مسيلمة اللعين يسجع السّجعات ، ويقول لهم ، فيما يقول ، مضاهاة للقرآن : ﴿ لقد أنعَمَ اللهُ على الحُبْلى ، أخرج منها نسمة تَسْعَى ، من بين صفاق[2] وحشا ﴾ .

وانطلق مسيلمة الخبيث في ادِّعائه للنبوة ؛ يُحِلّ الخمر والزنا ، ويضع عن قومه الصلاة ، ترغيباً للناس في تصديقه واتِّباعه . ولكي

(١) المضاهاة : المشابهة أو التشبّه .
(٢) صفاق : ما رق من البطن .

يزيد الناس إيهاماً في دعواه ، بعث بكتاب إلى رسول الله «ﷺ» كتب فيه : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلامٌ عليك ؛ فإنّي قد أُشرِكت في الأمر معك ، وإنَّ لنا نِصْفَ الأرض ولقريش نِصفَ الأرض ، ولكنَّ قريشاً قومٌ يعتدون » .

وقد حمل كتابَهَ هذا رسولان ، فلمّا قُرِىءَ لرسول الله «ﷺ» سأل الرسولينْ :

« فما تقولان أنتما » ؟

قالا : نقول كما قال .

فقال «ﷺ» : « أَمَا واللهِ لولا أن الرُّسُلَ لا تُـقْـتَلُ لضربتُ أعناقكما » .

ثم كتب إلى مسيلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من محمد رسول الله إلى مُسيلِمة الكذّاب . سلامٌ على من اتبع الهدى ؛ أما بعد ، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وقد روي أنَّ مسيلمة ما تجرأ وأعلن ادعاءه للنبوة إلاّ بعد انصراف رسول الله «ﷺ» من حجة الوداع ، ومرضته التي مرضها .

على أنه ومهما يكن من أمر الوقت الذي كتب فيه مسيلمة إلى رسول الله «ﷺ» فإنَّ ردَّ الرسول الأعظم «ﷺ» عليه ووصفه بالكذّاب ، جعله سخرية لدى كثيرين من الناس ، يتضاحكون عليه إذا ذكر لهم ، ويهزأون به إذا حدّثهم ، ولا يتورَّعون أن يجابهوه

بالكذب والنفاق حتى دعي مسيلمة الكذّاب ، بدلاً من مسيلمة بن حبيب . إلاّ أنه بوفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ اشتدَّ أمره حتى غلب على اليمامة ، ولقد قتل في خلافة أبي بكر (رض) بسبب دعواه الكاذبة .



قـدوم رسول ملوك حمير

لقد واجهت الدعوة الإسلامية - أكبر وأهم دعوة عرفها العالم - من المحاربة والشدّة ما لا يوصف وذلك من أجل صدّ الناس عنها ، وإيقافها عن مسيرتها ، حتى لا يكون لها أي انتشار في أرض الله الواسعة . ولكنْ أنّى لأهل الكيد ، والتآمر ، وأنَّى لأهل التعصّب والجهل أن يصمدوا في وجه دين الفطرة ، ما إن يهتدي إليه خَلْقُ الله ، ويدركون ما فيه من الحقائق الدامغة ، والمفاهيم السامية ، حتى يقبلوا عليه مختارين ، راضين ، استقامةً لعقولهم ، واطمئناناً لقلوبهم ، وصحة لأنفسهم ..

وإذا كان أهل الحكم ، وأصحاب السلطان ، يرغبون - في أي مكان - عن كل دعوة جديدة ، خوفاً على مكاسبهم من الاندثار ، وعلى نفوذهم من الضياع ، فإنَّ الأمرَ كان مختلفاً مع أمراء القبائل في شبه جزيرة العرب ، وعلى الأخصِّ في اليمن ، فلم يقفوا في وجه أتباعهم ، أو يقيموا الحواجز أمام بني أقوامهم ، وهم يقبلون على الإسلام مهتدين ..

ولم يحبس اولئك الأمراءُ الناسَ عن الإسلام ، وهم يعلمون أنَّ نبيَّهُ الكريمَ لا يظلم أحداً ، بل يحارب الظلم وأهلَهُ ؛ ولا يعتدي على أحدٍ ، بل يقاتل المعتدين على النفوس والحرمات والأرزاق ، ولا

يدعو إلى باطل بل إلى كل ما هو حق وخير وعدل ، ولا يبخس إنساناً حقَّهُ ، ولا يسلب أميراً إمارته بل يثبّتهُ عليها ما استقامَ أمرُهُ ، وعَدَلَ في قومِهِ ، وأنْصَفَ الناسَ جميعاً منه ! . . .

لقد أدرك ملوك حِمْيَرَ ـ وهم أصحاب الكثرة الغالبة في اليمن ـ تلك الحقائق ، وعرفوا بما يهدي إليه الإسلامُ عقلاً وشعوراً ومنهج حياة ، فآمنوا به ديناً لله الواحد الأحد ، لا شريك له . فلما أن عرفوا بتراجع جيش الروم ـ على رغم شهرته في الحروب ، وانتصاره على فارس ـ أمام المسلمين بقيادة النبيِّ العربيِّ الأميّ ، وعادَ الرسول الكريم المؤيّد بنصر الله تعالى إلى مدينته المنّورة ظافراً ، منتصراً ، والرأس مرفوعاً ، والجبين عالياً ، حتى تنادَوا فيما بينهم ، وكتبوا إليه كتاباً يعلنون فيه إسلامهم ، ثم أتوْا برسولهم ، وبَعَثُوهُ معه . .

وصلَ كتاب ملوك حِمْيَرَ إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فقرأهُ وحَمِدَ اللهَ الهادي ، ثم كتب إليهم كتاباً ، يبيّن ما لَهُمْ وما عليهم في شرع الله ، وأحكام الدين التي وجَبَ أن يسيروا عليها ، حتى تكون لهم البيّنة من شؤون حياتهم وأمور آخرتهم ، وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبيِّ ، رسول الله ، إلى : الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قَيْلِ ذي رُعَيْنْ ، وهمدان ومَعافر ، فإني أحمَدُ إليكم اللهَ الذي لا إله إلاَّ هو . أما بعدُ ، فإنه قد وقع بنا رسُولكمُ حين مَقْفَلِنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة ، فبلَّغ ما

أرسلْتُم ، وخبَّرَ ما قِبَلَكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتالكم المشركين ، وإنَّ الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسولَهُ ، وأقمتُمُ الصلاة ، وآتيتُمُ الزكاةَ ، وأعطيتم من المغانِم خُمُسَ الله ، وسهم نبيِّه وصفيِّه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة(١) . من العقار : عشر ما سقتِ العين أو ما سقت السماء ، وكل ما سُقِيَ بالغَرْب (الدلو) نصف العشرِ . .

وفي الإبل : في الأربعين ابنةٌ لَبُون ؛ وفي الثلاثين ابنٌ ذكرٌ ، وفي كل خَمْسة إبلٍ شاة ، وفي كل عشر شاتان ، وفي البقر : في كل أربعين بقرةٌ ، وفي كل ثلاثين تَبيعٌ ـ جذع أو جذعة ـ

وفي الغنم : في كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة .

وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدَقة ، فمن زادَ

---

(١) الصدقة في الأموال : أن شروط المال الذي تجب فيه الصدقة أو الزكاة هي :

١ ـ أن يكون مملوكاً لصاحبه ملكاً تاماً . أما إذا كان ديناً في ذمة الغير ، فإن كان يرجى أداؤه وجب على صاحبه إخراج زكاته مع ماله الحاضر في كل عام . وإن كان لا يرجى أداؤه وجب اخراج زكاته عند قبضه عن سنة واحدة .

٢ ـ أن يكون قابلاً للنماء : أي من شأنه أن يدر على صاحبه إيراداً أو غلة .

٣ ـ أن يبلغ النصاب : والنصاب هو الحد الذي إذا كان المال أقل منه لم تجب فيه الزكاة . وإذا زادَ عنه وجبت فيه الزكاة . فنصاب الذهب عشرون مثقالاً ، ونصاب الفضة مئتا درهم . ونصاب الأوراق النقدية أن تعادل قيمتها عشرين مثقالاً من الذهب تزن ٨٥ غراماً أو ما يعادلها بالعملة في البلد الذي يوجد فيه المال . فاذا كان المسلم يملك أقل من هذا المبلغ لا تجب عليه الزكاة . واذا ملك مثل هذا المبلغ أو أكثر منه وجب عليه إخراج الزكاة وقدرها اثنان ونصف (٢,٥) بالمائة من مجموع المال .

٤ ـ أن يكون المالُ زائداً عن الحاجات الأصلية لصاحبه .

٥ ـ أن تمرَّ سنة كاملة على ملكه للنصاب بالنسبة للأنعام والنقود والسلع التجارية .

خيراً فهو خيرٌ له ، ومن أدَّى ذلك وأشهَدَ على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله . وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنّ له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم . ومَن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتَنُ عنها (لا يرد عنها) وعليه الجزية ، على كل حالم - ذكر أو أنثى ، حر أو عبد - دينارٌ وافٍ أو قيمته من المعافر (ثياب اليمن) أو عِوَضه ثوباً . فمن أدى ذلك إلى رسول الله ، فإنَّ له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدوٌّ لله ولرسوله » .

أما كتابه «ﷺ» إلى زرعة ذي يَزِن ، فقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد ، فإنَّ رسولَ الله محمداً النبيَّ أرسَلَ إلى زرعة ذي يَزن أنْ إذا أتتكمُ رُسُلي فأوصيكم بهم خيراً : مُعاذ بن جَبَل ، وعبدالله بن زيد ، ومالك بن عُبادة ، وعقبة بن نمير ، ومالك بن مُرَّة وأصحابهم ، وأنِ اجمَعُوا ما عندكم من الصدقة ، والجِزْية من مخاليفكم ، وبلّغوها رُسُلي ، وإنَّ أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبَنَّ إلاَّ راضياً .

أما بعد ، فإنَّ محمداً يشهد أن لا آله الاَّ الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إنَّ مالك بن مرة الرهاويّ قد حدّثني أنك أسلمت من أول حمير ، وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيراً ؛ ولا تخونوا ولا تخذلوا فإنَّ رسول الله مولى غنيكم وفقيركم ، وإنَّ الصدقة لا تحمل لمحمد ولا لأهله ، وإنما هي زكاة يتزكّى بها على

فقراء المؤمنين وأبناء السبيل ؛ وإن مالِكاً قد بلَّغ الخبرَ وحفظ الغيب ، وآمركم به خيراً . وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولى ديني وأولي علمهم ، فآمركم بهم خيراً فإنه منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

تلك هي بعض الوفود التي جاءت المدينة . ونحن لم نستطع أن نَسِرَ في زحمة هذه الوفود مساراً يتوافق مع مواقيت قدومها ، لأنَّ التاريخ الإسلامي ، خلوٌ من تعيين وتحديد زمانها ، وإن اتفقت الآراء ، على أن جميع الوفود التي أتت تنضوي تحت راية الإسلام بدأت بعد غزوة تبوك التي انتهت في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة ، واستمرت خلال الأشهر الباقية من هذه السنة ، وعلى امتداد أيام السنة العاشرة حتى انتقال خاتم النبيين «ﷺ» إلى الرفيق الأعلى .

والذي حملَنا على عدم التفصيل في الوفود ، ما كان من تشابه في أمرها ، وتماثل في الغاية التي سعت إليها ، إلاَّ ما رأينا فيه حالةً معينة ، أوحكماً يستوجب الذكر ؛ وإننا وإن لم نفصِّل نذكر اسماء القبائل والبطون التي وفَدت ، وكان من أبرزها الوفود المذكورة أدناه :

(١) مُزينة ، وأسَدَ ، وتميم ، وعبْس ، وفزارة ، ومرَّة ، وثعلبة ، ومحارب ، وكلاب ، وعقيل بن كعب ، وجَعْدة ، وقُسَير بن كعب ، وبني البكّاء ، وكنانة ، وأشجع ، وباهلة ، وسُلَيْم ، وهلال بن عامر ، وعامر بن صعصعة .
(٢) ومن ربيعة جاءت وفود : عبد القيس ، وبكر بن وائل ، وتغلب ، وحنيفة ، وشَيْبان .
(٣) وجاءت من اليمن وفود : طيء ، وتجيب ، وخوْلان ، وجعفّي ، وصُداء ،

ومُراد ، وزُبيد ، وكِندة ، والصَّدِف ، وخُشَين ، وسعد هُذيم ، وبِليّ ، وبهراء ، وعُذْرة ، وسلامان ، وجهينة ، وكلْب ، وجَرْم ، وغسّان ، والحارث بن كعب ، وسعد العَشيرة ، وعَنْس ، والداريّين ، والرُّهاويّين (حي من مذحج) ، وغامِد ، والنَّخَع ، وبجيلة ، وخَثعَم ، والاشعريين ، وحضرموت ، وأزدعُمان ، وغافق ، وبارق ، ودرس ، وثمالة ، والجُدّان ، وأسْلَم ، وجُذام ، ومهرة ، وحِمْيَر ، ونجران ، وجيشّان .



حج ابو بكر رض بالناس وتبليغ «براءه»

كانت سنوات قليلة في عمر الزمان ، وقام الإسلام ديناً لله ، يقهرُ الأعزَّ في جبروته ، ويزيح الطاغية عن طاغوته ، فدخَلَ الناسُ فيه قناعة واطمئناناً .

ولقد برز أصحاب رسول الله ، والمؤمنون من المسلمين ، خلال تلك السنوات ، أوفياءً للعهد ، أمناء على الدعوة ؛ لم يهنوا ولم يَقْعُدوا ، بل بذلوا وأعطوا الكثير ، فخاضوا تحت لواء رسول الله «ﷺ» وبقيادته وحكمته ، معارك الجهاد المقدس ، مسجلين أروع الانتصارات ، ناشرين دعوة الإسلام ، رافعين راية الله سبحانه خفّاقة على الأرض ، حيثُ استطاعوا ان يثّبتوا حقّهم الذي من أجله يجاهدون .

ورأت قبائل العرب ، القريب منها والبعيد ، ما يفعله الإسلامُ بنفوس أصحابه ، وأدركت عظمة هذا الدين ، وجليل أمره ، فأقبلت على المدينة ، وفوداً ، أو زرافات ووحداناً ، تدخل في الإسلام ، دين الله إلى الناس كافةً .

وكان رسول الله «ﷺ» قائماً على ملاقاة تلك الوفود ، صارفاً معظم أوقاته في توضيح معالم هذا الدين الكريم الذي جاءت تسعى إليه ، شارحاً أحكامه ، مبيِّناً دقائقه ، بما يملأ القلوب هدايةً ،

والعقول بصيرةً ، والنفوسَ أمْناً وسكينةً .

ولقد ظلَّ الرسول «ﷺ» على هذه الحالة من الانشغال ، منذ أن عادَ من غزوة تبوك ، التي انتهت في شهر رمضان من سنة تسع هجرية ، حتى حلَّ موسم الحج ، فرأى أنه غير قادر على مغادرة المدينة ، للبقاء على واجبه القدسّي من استقبال الوفود وهدايتها ، وأنه لا شيء يمنع خروج أحد الصحابة حاجّاً في الناس .

الصحابة الأبرار كثيرون . ولكن ، أو ليس الشيخ أبو بكر الصديق (رض) هو أحقّ من يقوم بهذه الفريضة ؟

أو لم يكن أحد الأولين القلائل الذين صدّقوا النبي «ﷺ» وآمنوا ببيعته ، فقام يدعو إلى الاسلام في أصعب الظروف وأدّقها ، باذلاً من ماله لتخليص إخوان له ضعاف من براثن قريش ومخالبها ؟

أو لم يكن رفيقَ رسول الله «ﷺ» في هجرته ، وقد خلَّف وراءه الأهل والديار غير عابىء بأمر ؟

أو لم يكن دائماً إلى جانب رسول الله «ﷺ» في حروبه وغزواته ، وفي مشاوراته ومفاوضاته ، بل وفي كل شأن من شؤون الدعوة الهامة التي أقرَّها الرسول «ﷺ» ، وهو لا ينفك على نفس الطبيعة والدأب ، طائعاً ، مؤمناً ، مصدّقاً ؟ .

لقد وقَعَ اختيارُ رسول الله «ﷺ» على أبي بكر الصديق أميراً على الحجيج ، فخرج في ثلاثمائة رجل من المسلمين في شهر ذي القعدة من هذه السنة ، ومعه عشرون بُدنة لرسول الله «ﷺ» ،

ولنفسه خمس بدنات . وسارَ أبو بكر (رض) على هدى الله ، وبأمر رسوله ، حتى كان بذي الحُليفة ، فإذا عليٌّ بن أبي طالب (رض) في أثره ، يركب ناقة رسول الله «ﷺ» القصواء ؛ فسأله أبو بكر : أمير أم مأمور يا أبا الحسن ؟

لم يكن أبو بكر يعلم بمهمة علي ـ رضوان الله عليهما ـ قبل خروجه من المدينة ، ولذلك أرادَ أن يستوضح منه لمّا لحق به ؟ فأبان له أنه جاءَ مأموراً من رسول الله «ﷺ» ليبلِّغ سورة براءة ، التي فيها آيات بيّنات من الله تعالى ، للناس ، وهم في اجتماعهم على أداء المناسك ، لأنه ، كما قال رسول الله «ﷺ» : « لا يبلّغ عني إلاَّ رجل من أهل بيتي » إذ نزل جبرائيل عليه السلام بهذا الأمر من الله العزيز الكريم .

ولكن ما هي الآيات التي جاءَ عليٌّ (رض) يبلّغها ؟

إنها الآيات التي يحفل بها صدر سورة التوبة من القرآن الكريم ، وفيها بيان لأحكام الله بحق المشركين ، حتى تتحدد العلاقة ، بصورة نهائية ، بين الدولة الإسلامية ، وبقية الأطراف ـ ولا سيما هؤلاء المشركين ـ الذين لا ينتمون إلى هذه الدولة بالايمان .

فدولة الإسلام ، التي تدين بدين الله الواحد الأحد ، وتطبق أحكامه في الارض ، يجب ان تكون ذات كيان خالص لأبنائها ، يعيشون فيه أحراراً ، لا يعارضهم في عقيدتهم معارض ، ولا يدسُّ عليهم في فكرهم دسّاس ، وهذا ، في الوقت نفسه ، هو الذي تقيم فيه علاقاتها الخارجية مع العقائد والأنظمة الاخرى ، بما يتوافق مع

عقيدتها هي ، وبما يحقق لها أهدافها ويصون وجودها ويؤمن سلامتها .

وعلى هذا الأساس الطبيعي ، الذي تقوم عليه الدول يكون لكل منها أمة ووطن ، نشأت دولة الإسلام ، وأحكمت سيطرتها على شبه جزيرة العرب ، ثم انجذبت إليها القبائل التي تعيش باليمن وحضرموت وعمان ، فأتت ، أو بعثت وفودها ، تعلن الولاء لسلطان هذه الدولة ، متحررة بهذا الولاء من حكم فارس التي كانت وحدها صاحبة السلطان على بلاد اليمن وما جاورها ، أحقاباً طويلة من الزمن وبحكم الرومان الذين كانوا يسيطرون على مناطق الشمال . وإذا كانت دولة الإسلام قد قامت وفق ذلك الأساس الطبيعي ، واكتملت كافة عناصرها التي تجعل منها دولة قوية ، فقد كان لا يزال في بعض انحاء شبه الجزيرة بقايا من المشركين ، الذين ظلوا على عهدهم القديم في الجاهلية ، يحجون الى بيت الله الحرام ؛ ومثلهم أولئك الذين عاهَدَهم النبيُّ «ﷺ» لمواعيد مؤقتة ، منتظراً أمر الله سبحانه ، بما قد ينزّل من أحكام تبيّن علاقتهم النهائية بالبيت العتيق ، وبالدولة الإسلامية .

وها هي إرادة الله تعالى تتجلّى بما أنزل من آيات محكمات : أنَّ الله سبحانه وتعالى بريءٌ من المشركين ورسولُهُ ، لا عهد لهم بعد الأشهر الحرم إلاَّ إذا تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة ، فيكونون أخواناً في الدين . إنه قانون السماء الذي لا يقبل بأن يترك من يعبد غير الله ، لأنَّ في تركهم إقراراً بالباطل إلى جانب الحق ، وقبولاً بالجهالة في جانب الإيمان ، وهذا ما تتنزّه القدرة الإلهية عنه .

ثم إنه في قوانين الحكم والاجتماع ، من غير الطبيعي أن يجتمع الناس وهم على تناقض في الفكر والشعور ، ومن غير معنىً أن يتم الاجتماع بين ثائرين على الشرك والاوثان ، وبين مقيمين على عبادتها ، ولا يمكن أن يستقيم الاجتماع حول بيت الله الحرام ، بين عبادتين متناقضتين ، إحداهما تحطم الأصنام والاخرى تقدسها ! . . ولذلك فإنه من حق الدولة الإسلامية ، بل من واجبها ، أن تصون عهد الله ، فتبعد كل ما هو قائم على الشرك بالله ، وأن تحمي شعبها ممن يخالف أفكارهم ، ويعارض مشاعرهم ، حتى تستطيع ان تُطهّر أرضَها ممن ينابذها في العقيدة ، وتحافظ على وجودها ، بعيدة عن عوامل الضعف ، والاضطراب والانحلال .

فإذا كانت عقيدة الإسلام هي الإيمان بالله الواحد الأحد ، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإنّ عقيدة المشركين هي الايمان بالله وبغيره من الشركاء والأنداد .

وهذا التعارض في الجوهر والشكل ، في المعنى والمبنى ، ما بين الإسلام ومناهضيه ، كان من الواجب محاربته والقضاء عليه ، فحقّقتْ كلمة الله العلي القدير ، عندما أنزل آيات « براءة » على قلب رسوله الكريم ، فأودعَها الرسولُ ابن عمه ، وزوجَ ابنته فاطمة الزهراء ، علي بن أبي طالب (ع) كي يبلّغها للناس يوم الحج الأكبر .

وتأتي الحكمة من إبلاغ تلك الآيات يوم الحجّ ، باعتباره اليوم الجامع لأكبر عدد من الناس ، ولأنّ فيها أحكاماً تتعلق بالمسجد

الحرام نفسه . إذ كان من عادة العرب في الجاهلية ، عندما يأتـون ليحجّوا أن يطوف رجالٌ منهم ، وهم عُراةٌ ، ليس على أحد منهم ثوب يستره ، وقناعة الـذين يطوفـون عراةً أنهـم بذلك يعظمـون حرمات البيت ، فيقول أحدهم وهو يطوف عارياً : « أطـوف كما ولدتني أمي ؛ ليس عليَّ شيء من الدنيا خالطه الظلم » .

هذا مثالٌ على تقاليد الجاهليين التي لا تليق بكرامة الإنسان ، ولا بحرمة البيت الحرام . ولكنّـهُ تقليدٌ يرفضه الإسلام رفضاً باتاً ، لأنَّ من أولى أهدافه الاهتمام بتربية الإنسان على ما يشفي نفسَـهُ من الأمراض والرغبات الفاسدة ، ويحرّر جسَدَهُ من النزعات والمظاهـر الإباحية . ولذلك كان رفض الإسلام لكل ما يجعل الإنسان متحلّلاً من القيم الخلقية والآداب العامـة ، وفي مقدمتهـا العُـريُ بجميع أشكاله . . وإذا كان قد وقَرَ في ذهن العربي الجاهلي أن طوافَهَ بالبيت الحرام عرياناً يخلِّصه من ظلم الدنيا ، فإنَّ وسيلته إلى هذا الخلاص غير مبرّرة ، لأنه لا يمكن محاربة الظلم بظلم أشدَّ منه ، أو الشرَّ بشرٍ أعتَى منه . ففي العُري ظلم للنفس ، لأنه إهدار لكرامة الإنسان ، ولو لـم يكن كذلك ، لما هدَى اللهُ سبحانـه وتعـالى ، آدمَ وحـوّاءَ ـ عليهما السلام إلى ورق الشجر يخصفانه ليسترا به عـورتيهما وهما لا حسيب معهما ولا جليس .

ومن العجيب ، أن يعودَ الإنسان ، في القرن العشرين ـ قرن الذرة وغزو الفضاء ـ إلى وثنية عارية ، لا تقيم لكرامة الإنسانية أي وزن أو اعتبار ، فيجيز قوانـين العُـريِ ، ويسمـح للعـراة بإقامـة النوادي والتجمعات ، بترخيص حكومي تحت ستـار المحافظـة على

الحرية الشخصية ، والحقوق الفردية . .

فأين الفرق في هكذاقوانين أوتراخيص، بين الإنسان ـ بكماله الجسدي والروحي ـ وبين الحيوان في الغابة ـ ولا عقل عنده ولا إدراك ؟! . . لا ، أيها الإنسان ! ما غرَّكَ بربِّك الكريم . الذي خلقَك فسوّاك فعدلك . في أي صورة ما شاءَ ركّبك ؟! . . إنك تعبير خالصٌ عن الصورة التي أرادك الله عليها ، جميلاً في الخَلْق ، حسناً في التصوير ، فهل تُذهِبُ هذا الجمال ، وهذا الحسن ، في عُرْيٍ يحِطُّ من قدرك ، ويزيل عنك كرامتك ؟! . . عُدْ إلى الإيمان ، وابتعد عن وثنية العري والاستهتار ، وعن جاهلية الإباحة والخلاعة ، تسلَمْ ، ويسلم معك مجتمعك ، وتسلَمْ إنسانيتك ! . .

لقد حارب الإسلامُ الوثنية والشرك ، وكل ما يقومان عليه من أفكار ومشاعر أو من عادات وتقاليد ، ما دامت تضرُّ بالمسلمين وبالجماعة الإنسانية ، فكان رفضه القاطع لعقيدة المشركين الضارة ، ومنع هؤلاء المشركين من الحجّ إلى بيت الله الحرام لئلا يدنّسوه بالنَجَس . . ولقد كان آخرُ حج لهم في موسم هذه السنة ، التاسعة للهجرة ، عندما اجتمعوا وإلى جانبهم المسلمون ، وكلٌّ يؤدي مناسكه بحسب عقيدته . . المسلمون يؤدونها كما هداهم الإسلام ، والمشركون يؤدونها على عاداتهم الجاهلية وتقاليدها . . المسلمون يطوفون مستورين ، متجمِّلين بكل ما يليق بقدسية المكان وكرامة الإنسان ، والمشركون يطوفون مكشوفين ، متحلِّلين من المقاييس الرصينة والآداب اللائقة . . المسلمون يلبّون قائلين : « لَبيَّك

اللّهم لبّيك لَبّيك لا شريك لك لَبّيك ، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » والمشركون يلبون قائلين : « لبيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك ، تملكه وما ملكك » .. المسلمون يهلّلون ويكبّرون ، والمشركون يصفّقون ويصفّرون ...

تناقض في العقيدة ، وتضارب في الأفعال والأقوال ، وفوضى ، نعم فوضى ، لا تليق بكرامة دولة ولا تُناسبُ وحدة أمة ، ولا تتفق مع الأهداف من الاجتماع حول بيت الله الحرام ..

او ليس الحجُّ اجتماع هؤلاء المؤمنين على عقيدة التوحيد ، يعبدون ربّاً واحداً ، وينسكون نسُكاً واحداً ، ويدينون بدين واحد ؟

أو ليس الحجُّ اجتماع هؤلاء المؤمنين على المحبة والألفة والوفاق ، توحّدهم الأفكار والمشاعر ، ويصهرهم الهدف والمصير ؟

أو ليس الحجُّ ـ كما أرادَه اللهُ سبحانه ـ اجتماعاً موسمياً لأمة الإسلام ، حول بيته الحرام ، حتى تتطهّر القلوبُ وتشفى النفوس ، فتكون المحاسبةُ عما سَلَفَ ، والمناسبة للنظر فيما يهُمُّ من الأمور ، ومعالجة المشاكل ، وتدعيم الروابط والصِلات ؟

وهل يمكن أن تكون للمسلمين تلك الوحدة الجامعة ، الهادفة ، وبين ظهرانيهم عناصر غريبة عنهم في كل شيء : في العقيدة ، وفي التفكير ، وفي الشعور ، وفي المنهج والقول والسلوك ؟!..

فكان من الضروري إذن لأمن الدولة ، وسلامة وجودها ، أن

تحدّد موقفها من كل الجماعات الاخرى غير المسلمة ، وتُصحِّحَ وضْعَهَا على النحو المألوف في كل دولة . . ولهذا انتظر عليٌّ (ع) حتى كان الناسُ على مِنىً ، فوقف ونادى فيهم بأعلى صوته ، حتى إذا اجتمعوا إليه ، طلب إليهم الإصغاء والانتباه ، ثم راح يتلو عليهم صَدْرَ سورة التوبة ، المعروف ببراءة ، بقوله تعالى : ﴿ بَراءةٌ منَ الله ورسوله إلى الذّين عاهدتم من المُشركين ، فَسيحُوا في الأرض أربعة أشهرٍ واعْلَمُوا أنّكم غيرَ مُعجِزي اللهِ ، وأنَّ اللهَ مخزي الكافرين . وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يومَ الحجِّ الأكبرِ أنَّ اللهَ بَريءٌ منَ المُشركين ورسولُهُ ، فإن تُبْتُم فَهُوَ خيرٌ لكم وإنْ تولَّيْتُمْ فاعْلَمُوا أنَّكم غيرُ مُعجِزي اللهِ وبشر الذّين كَفَرُوا بعذابٍ أليم . إلاَّ الذّين عاهدتُمْ من المشركين ثُمَّ لمْ ينقُصُوكم شيئاً ولم يُظاهِروا عليكُم أحَداً فأتِمُّوا إليهم عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إنَّ اللهَ يحُبُّ المتّقين . فإذا انْسَلَخَ الأشهُرُ الحرُمُ فاقْتُلُوا المُشركين حيثُ وجَدتمُوهُمْ وخُذُوهُمْ واحصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ فإنْ تَابُوا وأقاموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ فَخلُّوا سبيلهُمْ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ . . . ﴾ .

وظَلَّ عليٌّ (ع) يتابعُ التلاوة حتى وصَلَ إلى قولِهِ تعالى : ﴿ يا أيهُّا الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحرام بعدَ عامِهِمْ هٰذا ، وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوفَ يُغْنِيكُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ إنْ شَاءَ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ. قاتِلُوا الذّين لا يؤمنون باللهِ ولا باليوم الآخِرِ ولا يحُرِّمونَ ما حرَّمَ اللهُ ورَسولُهُ ولا يَدينُونَ دِينَ الحقِّ من الذّين أوتُوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهُم صاغرون . . . ﴾ .

ثم تتعاقبُ تلاوةُ علي (ع) للآيات البيّناتِ حتى ينتهي إلى قولِهِ تعالى : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهور عند الله اثنا عشرَ شهراً في كتابِ الله يومَ خَلَقَ السّمٰوات والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ . ذلك الدِّينُ القَيمٌ فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفُسَكُمْ وقاتِلُوا المُشركين كافَّةً كما يُقاتِلُونكم كافَّةً واعْلَمُوا أنَّ الله مَعَ المُتَّقين ﴾[1] .

وبَعْدَ أن أتمَّ عليٌ بن أبي طالب تلاوة هذه الآيات المباركات من سورة التوبة على مسامع الحجيج في منىً ، وقَفَ هنيهةً ، ثم صاحَ بأعلى صوته معقبّاً على آيات الله سبحانه : ﴿ أيهُّا النّاس ! إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحجّ بعد العام مشرك . ولا يطوف بالبيت عُريان . ومَنْ كان له عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّمَ عهدٌ فهو إلى مُدَّتِهِ ﴾ .

وكان تبليغ آيات « براءة » ، وتوضيح هذه الأمور الأربعة التي أعقب بها عليٌّ (ع) ، إنذار عامٌ للمشركين ونبذٌ لما بينهم وبين المسلمين من عهود الأمان ، على أن تكون لهم مهلةٌ أربعة أشهر ، وهي مهلةٌ كافية كي يتدبروا أمورهم ، ويحددوا مواقفهم ؛ فإنْ تابوا وآمنوا ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فهم إخوانٌ مسلمون ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ؛ وإنْ رفضوا وأصَرّوا على الشرك ، وهُمْ في أرض الإسلام ، فإنَّ الذَنْبَ يَقعُ عليهم ، واللوم على أنفسهم ، لأنَّ على المؤمنين ، بعد انقضاء تلك المهلة ، أن يملأوها عليهم خيلاً ورجالاً ، وأن يقاتِلوهم كافّةً ، كما أمَرَهُمُ اللهُ تعالى

---

(١) صدر سورة التوبة كله : الآيات من ١ إلى ٣٦ .

بذلك ، حتى يقطعوا بذلك كلَّ دابر للفوضى والاضطراب ، ويقضوا على أهل الغدر والخيانة ، فلا يكون أمامهم مجالٌ للتآمرِ على الدولة ، كما كانوا يفعلون في الماضي ، وكما تدلُّ عليه الشواهِدُ والأحداثُ الكثيرة منذ ظهور الإسلام .. نعم ، إنه لا شيء يجيز للمشركين البقاء بين المسلمين ، وهم على تلك الأحوال المضرّة ، وما عليهم إلاَّ الإذعان للحق ، أو الهروب من وجه هذا الحق ..

وهكذا كان اختيارُ يومِ النحر بمنىً ، لأنه يوم جامع حافل ، فيه يأتي الناسُ من كلِّ فجٍّ عميق ، ويتلاقون من كل صقيع .. ولقد كان اختيار هذا اليوم ، حتى يُعلِنَ الإسلامُ على الملأ كلّهِ ، نبْذَهُ لعهود المشركين ، وإعلان الحرب عليهم عامة ؛ وبذلك فإنَّ الإسلامَ لم يُبَيِّتْهمُ غَدْراً ، ولم يأخُذْهُمْ بغْتَةً ، ولم يُعامِلْهُمْ على نقضِ عهودهم معه بمثل ما يستحقون ، فيأخذهم خِلسةً وهم غافلون .. أبداً لم يكن الإسلامُ ليقف هذا الموقف ، وقد ألِفَهُ كثيراً من أعدائِهِ ، يرمونَ المؤمنين بالغدر والخيانة . فعندما أرادَ أن ينهي العلاقةَ التي فرضت الظروف إقامتَها مع معسكر الشرك ، وأن يضَعَ الحدودَ الفاصلة بينهُ وبين أعدائه ، فلا يكون بعدها رجعة ولا تردد ، نعم عندها أنذر المشركين علانيةً ، وأعطاهم المهلة كي يتدبّروا أمورهم ، ويتصرّفوا على ضوء ما يرون ، فكانت تلك المهلة أربعة أشهر لمن كان لهم عهودٌ غير محدَّدة الأجل ، ونهاية الأجل لمن كان لهم عهود معلومة ومحددة .. وإنَّ لهم خلال هذه المهلة الكافية أن يسيحوا في الأرض ، فينظِّموا أمورهم ، ويدبِّروا أحوالهم ، فمن كانت له تجارة ، أو دين ، أو أية علاقة مع غيره ، عرف كيف يتدبَّرها ، بما

يؤمِّن حقوقه ، ويصون حقوق الآخرين .. هذا هو العدل والإنصاف مع الخصوم ، والشرف والسمو مع الأعداء ، والأمانة والنصاعة مع المعاهدين وغير المعاهدين ، وهو طريق مستقيم للناس أجمعين . وبمثل هذا الأفق الوضيء ، بمداه الإنساني البعيد ، الذي لم يبلُغه إلاَّ الإسلام ، يعطي الإنسان القدرة على الجزم بأنه هو وحْدَهُ الحق تعاملاً ، كما أثبتتْهُ أحداث الماضي وكما تدلُّ عليه أوضاعُ الحاضر .

وكما حدَّدَ الوحيُ للنبيِّ محمد ﴿ﷺ﴾ موقف المسلمين من المشركين ، فقد حدَّدَه له أيضاً من أهل الكتاب الذين يعيشونَ في ظل الدولة الإسلامية ، أو يحيطون بأطرافها . فأمّا أهل الشرك فقد دعاهُمُ اللهُ ورسولُهُ إلى الإيمان بالإسلام واعتناقه عقيدة ومبدأً ، فإنْ لم يلبُّوا هذه الدعوة فلا جَرَمَ أنَّ على المؤمنين قتالهم وإخراجَهم من بين ظهرانيهم ، وإنْ اهتدَوا وأسلموا ، فلا بأس عليهم ولا خوف ، بل إخوةٌ في الإيمان ، وشركاء في الهدف والمصير .. وأما أهل الكتاب ، فلهم الحق المطلق في البقاء على العقيدة التي بها يدينون ؛ ولهم ملْءُ الحق في مشاركة المسلمين في أوطانهم ، ومخالطتهم في معايشتهم ، على أن يكونوا إخوةً متحابين في المجتمع الواحد ، يعملون لخيره وصلاحه ، ويحرصون على سيادته ومنعته ؛ فالكل متساوون في الحقوق والواجبات ، والكل مدعوون لإقامة الأمن والسلم وحسن الجوار .. ولكن إنْ بدا من أهل الكتاب ريحُ غدر أو محاولة فتنة ، أو اعتداء على أمن الدولة ، أو على أخوانهم في الوطن ، أو مخالفة الأحكام الأساسية التي أرادها اللهُ سبحانه لتسوية الأوضاع المجتمعية

وإصلاحها ، نعم إن بدا أنهم يعملون لذلك ، فعلى المؤمنين أن يردعوهم عن ذلك بكل الوسائل حتى يخضدوا شوكتهم ، ويخضعوهم لحكمهم ، وذلك بأمر من الله تعالى : ﴿ قاتِلُوا الذِّين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يُحَرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُهُ ، ولا يَدينون بدين الحق ، من الذِّين أُوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزيةَ عنْ يَدٍ وهُمْ صاغرون ﴾ .

هكذا جدَّدَ الإسلام موقفه من المشركين ، وموقفه من أهل الكتاب ، الذين يعيشون في كنف دولة الإسلام أو على حدودها . وليس في تحديد هذا الموقف ما يخالف الدساتير والقوانين والأسس التي تقوم عليها الدول ؛ لأننَّا نرى ، في الحضارة القائمة اليوم ، أنَّ لكل دولة قوانينها وأنظمتها الخاصة ولها حقوقها الكاملة في اتخاذ كافة التدابير التي ترى فيها حماية شعبها وأرضها ، وتأتي المعاهدات والاتفاقات الدولية لتزيد الترابط والتعاون في العلاقات الدولية ، ولكنَّها لا تمسُّ أبداً بسيادة الدولة على أرضها وشعبها . فكان جديراً بدولة الإسلام أن تضعَ الشرائع وأن تسنَّ القوانين التي ترعى مصالح أفرادها وتحفظ سلامتها وكيانها ، مع الفارق بين هذه الدولة ، وغيرها من الدول الاخرى ، ان ما تضعه من شرائع أو تسنّه من قوانين يجب أن يكون مستقىً من القرآن الكريم ، كتاب الله الأزلي ، الثابت على مدى الدهور ومن السنة النبويَّة الشريفة . . وبحكمة هذا الكتاب المبين ، وبَهْدي« براءة » ، لم يحجَّ - والحمد لله - من يومئذٍ ، مشرك إلى بيت الله الحرام ، ولم يَطُفْ حوله عريان ؛ ومن يومئذٍ وُضِع الأساسُ الثابت الذي تقوم عليه دولة الإسلام في علاقاتها الداخلية والخارجية .

وفاة إبراهيم إبن رسول الله «ﷺ»

كانت الوفود تترى على المدينة ، وملء جوارحها الشوق للقاء النبيِّ الأُمِّيِّ «ﷺ» ، الذي بعثه الله سبحانه وتعالى بشيراً ونذيراً للعالمين ؛ ومنتهى رجائها الاجتماع إليه ، والاهتداء إلى دين الله على يديه .. وكان الرسولُ الأعظم يستقبل تلك الوفود ، بنفس راضية وصدر منشرح ، لا يكترث لتعب ، ولا يعبأ بنصب ، بل يرى في قدومها إليه أروعَ التعبير عن انتشار الإسلام ، وإحقاق كلمة الله التي أضحت هي العليا ، فيُقبِلُ على الوافدين ، مبيّناً عظمة الرسالة التي يحمل ، شارحاً سُمُوَّ التعاليم التي ينشر ، موضِّحاً مصداقية الأحكام والقواعد التي يعلن ، وهو لا يضيِّع ساعةً من وقتٍ ولا يهدر لحظة من زمن إلا على تدبير الشؤون وتسوية الأوضاع ولا يخلو إلى ربه في صلاة او عبادة ولا يذكره في قيام أو قعود إلا وقلبه ولسانه يلهجان بالشكر لله تعالى على ما يهديَ إليه عبادَهُ المؤمنين ، ويأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم ..

على أنه ، في خضمّ هذا الانشغال بالوفود من قريب ومن بعيد ، ورغم جسامة مهمته في القيام بشؤون الأمة ، وعظم مسؤوليته في تسيير شؤون الدولة ، لم يكن النبيُّ «ﷺ» ليغفلَ قطُّ عن رعاية أهل بيته والاهتمام بهم اهتماماً كبيراً ، فإن أنهى استقباله

للوفود والاجتماع إلى الناس ، وإن فرغ من القيام بالأعباء وتدبير شتى الأمور ، انصرفَ إلى شؤونه الخاصة ، وذهب إلى أزواجه ، يطوف عليهن واحدة ، واحدة ، يتفقدهُنَّ بعطفه ، ويستمع إلى مطاليبهنَّ بحنانه ويؤمن لهنَّ حاجياتهن بكفايته وذلك من غير أن يترك زيارته لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام ، والاستئناس بقرب حفيديه الحسن والحسين عليهما السلام ؛ حتى إذا اطمأنَّ الى سلامة الجميع ، وقدَّم لهم ما يتزوَّدون به من زاد الدنيا والآخرة ، انطلق إلى ابنه ابراهيم (ع) ، الذي يعيش في كنف أمِّه مارية على الدفء والحنان ، ويترعرع في ظلال أبيه على المحبة والرحمة ، فيصل إليه ويأخذه بين يديه ، ثم يحتضنه إلى صدره ، ومِلء قلبه الحبُّ لهذا الطفل ، ومِلء نفسه الاطمئنان لجواره . فقد كان ابراهيم (ع) قرَّة عين لأبيه . وهو طفل في شهره السادس عشر ، لا يعرف من هذه الدنيا إلاَّ ما تدركه حواس الطفل المتفتحة ، ولذا كان ثغرُهُ النديُّ يمتلىء بابتسامة عريضة معبّرة كلما أطلَّ عليه أبوه ، ويرتمي على صدره بهدْأة عميقة مريحة كلما احتضَنَهُ إليه . . من عينيه كانت تشع نظرات تطفح بالبهجة ، وفي حركاته كانت تتجلى براءة الطفولة بأروع صورها وأجلى معانيها .

إنه ابن محمد ﴿ﷺ﴾ حقاً ، ولكنه أيضاً التعبير الأسمى عن العطاء الربَّاني في أروع خلق وأحسن تقويم . وهو طفلٌ فعلاً ، ولكنه التجسيدُ الأمثلُ للخلق من لدن رؤوف رحيم ، وقد جَعَل الله سبحانه وتعالى في الطفل حفظاً لاستمرارية الحياة ، واشباعاً للشعور الإنساني ، واطمئناناً للنفس البشرية .

وإذا كانت النفس الإنسانية الصافية ، وما تزخر به من مشاعر صادقة ، أكثر ما يهزُها وجودُ الطفل ، فتُقبل عليه تعطيه من حدبها وحنانها ، وتنصرف إليه تبذل لأجله كلَّ ما بوسعها ، فإنَّ نفس النبيِّ محمد (ﷺ) ، وقد بلغت فيها تلك المشاعر أسمى الصور ، وأعلى الدرجات ، لهيَ أولى النفوس بإدراك معاني الطفولة ، وأصدقها حبّاً للطفل ، وأكثرها اهتماماً به ورأفة عليه . . فكان من الطبيعي إذن أن يكون حبُّه لطفله ابراهيم (ع) حبّاً كبيراً ، وكان من البديهي أن يغدق عليه من نفحات ذلك الحب ، وخالص مشاعره ، ما يؤمِنُ له العيش في أحسن الأجواء ، فيمتلىء عافية وحيوية ، وما يحقق له التربية في أفضل الرحاب ، فيشع نورانية وبهاءً ، ويكون أشبهَ الناس خَلْقاً بأبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

كان كل شيء من حول الطفل يشير إلى أنه سيكبر وينمو إذا شاءَ اللهُ تعالى له الحياة . ولكن من أين للإنسان أن يعلَمَ تقدير الله العزيز الحكيم ، ما دام تقديره ، وما دامَ حكمَتُهُ أبعدَ ما يكونان عن أيِّ إدراكٍ أو توقُّع . . وها هي مشيئةُ الله ـ سبحانه ، تحلُّ على ابراهيم ، ابن رسول الله (ﷺ) ، فيقع ، بين ليلة وضحاها في مرض شديد لا يقوم منه . . ذلك أنَّ أمَّه ، قد أحَسَّت ذات يوم وهي تداعبه بسخونة في جسده ، فخافت عليه وأسرعت تداويه وتسعفه ، ثم تضعه في فراشه ، وتركن إلى جانبه قلقة ، مضطربة . . وراح المرض يثقل على الطفل يوماً بعد يوم ، حتى تغيَّرَ لونه ، وذبل عوده ، من غير أن تفيده مداواة أو أن تجُديه طبابة ، بل على العكس كانت حاله تسوء وتسوء حتى خيفَ عليه ، فقرَّ الرأي على نقله إلى

نخلٍ بجوار العالية ـ التي تعرف اليوم بمشربة أم ابراهيم ـ علّ في الجو النقي ، والمكان الهادىء ، ما يساعد الطفل على ان يُبِلَّ من مرضه ويستعيد عافيته . .

وهنالك ، وبين النخيل ، قامت أمه مارية وأختُها سيرين تمرّضانه ، وتدأبان في السهر عليه ليلَ نهار ، كما راح النبيُّ «ﷺ» يصرف معظم أوقاته ـ خارج انشغاله بالأعباء العامة ـ إلى جانب ابنه ، يحوطه بعنايته ، ويحنو عليه برحمته ، إلاَّ أن مشيئة الله كانت فوق كل شيء ، فلم تمضِ على مرض ابراهيم (ع) ، إلاَّ فترة وجيزة ، وحلَّ فيه قضاء ربِّه الذي لا رادَّ له ، فجاءَ من يخبر النبيَّ «ﷺ» في المسجد ، أنَّ ابنهُ في الاحتضار . .

ووقع الخبرُ على النبيِّ «ﷺ» وقعاً شديداً ، وهو يحُسُّ وكأنَّ جزءاً من كيانه قد اقتطع ، فقام يسعى إلى ابنه ، وقد وهنت بعض قواه بما جَعَلَ قدميه عاجزتين عن حمله للمضي في دربه ، فطلب الى عبد الرحمن بن عوف ، بجانبه ، أن يقترب منه لكي يعتمد على يده . .

وكان جمعٌ كبيرٌ من الصحابة قد وصَلوا والتفّوا حول البيت يسألون عن الطفل ، ويستفسرون عن وضعه ، فما أن رأوْا النبي «ﷺ» قد أقبل حتى أفسحوا له الطريق ، فدخل ليجد ابنه في أحضان أمه ، وهو يجود بنفسه الأخير ، فتقدم يأخذه بين يديه ، ويضعه في حجره ، ثم يحدق في وجهه ، وقلبه يكاد أن ينفطر لمرآه . . وفَتَحَ ابراهيم عينيه الغائرتين ، وكأنَّهُ كان يودع أباه الوداع

الأخير ، ثم أغمضهما مستسلماً لله ـ سبحانه ـ وقدقبضه إليه ، مخلّياً وراءه أباً يعتصره الألم ، وأمّاً تأخذها اللوعة . . لقد شعر الرسول ﴿ﷺ﴾ في تلك الأثناء ، بأن الراحة النفسية التي كان يجسّدها هذا الطفل قد ذهبت ، وومضة الأمَل التي كانت تشعُّ منه قد انطفأت، ففاضت عيناه بالدموع ، وغمرته الآلام والأحزان . . إلاّ أنه وهو النبيُّ الصابر المصابر لم يجعل المصابَ يقوى عليه ، فقال ، وهو يُعزّي نفسه : « يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ، ووعد صادق ، وأ نَّ آخرَنا سيلحق بأولنا لحَزِنّا عليك بأشدَّ من هذا » . . وصمتَ النبي ﴿ﷺ﴾ بعض الوقت ، وأنظاره لا تحيد عن هذا الجسد الصغير المسجّى امامه ، ثم عاد وقال : « تدمع العين ويحزن القلب،ولا نقول إلا ما يرضي الرب . وإنا يا إبراهيم عليك لمحزنون » .

في لغة المشاعر قد يكون أبلغ الفصحاء ألَمُ الأب وهو يفقدُ فلذَةَ كبده . ولكن مهما كَبُرَ ألم الأب فإنَّ ألَمَ الأُمّ يَظلُّ أكبر لأنها بالعاطفة أحْيا ؛ ولذا رأى الناسُ في تلك الساعةَ مارية ، أمَّ ابراهيم ، في حالةٍ من اللوعة لا توصف ، ومن الهلع لا تطاق ، ترتمي على جسد ابنها ملهوفة ، وتلثمه بالعبرات محروقة ، وبجانبها اختُها سيرين تولول وتصرخ ، حتى أبْكَتَا كلَّ مَنْ حضر المأتمَ بأشدَّ من بكائهم على حزن رسول الله ﴿ﷺ﴾ . . .

ورأى النبيُّ ﴿ﷺ﴾ ما تفعله ماريةُ ، واختُها سيرين ، فلم يُرضِهِ ذلك ، فأشارَ إلى الناس بالهدوء ، وقال : « ما عن الحزن نهيت وانما عن رفع الصوت بالبكاء . وإنَّ ما ترون بي من حزن أثَرُ

ما في القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يُبدِ الرحمةَ ، لم يُبدِ غيرُهُ الرحمة عليه » . . ثم خصَّ بكلامه مارية واختها ، وهو يحاول أن يخفف من غلواء حرقتهما ، ويعمل على تهدئتهما في مصابهما ، فقال لهما : « إنَّ له لمرضعاً في الجنة » . . وراحَ النبيُّ ينصَحُ لهما بالقبول بقضاء الله وحكمه ، ويشير إلى أنَّ ابراهيم طيرٌ من طيور الجنة ، يذهب إلى ذلك النعيم الأبدي كي يَسْعَدَ في رحابه غرّيداً ، ويخلُدَ في عوالمِهِ شادياً ، يسبّح بآلاء الله ، ويرتل أنغامه القدسية . .

وفي غمرة الأحزان قام الفضل بن العباس ، ابن عم النبيِّ «ﷺ» فغَسَلَ الطفل وألبسَهُ كفنَهُ ، كي يرتحل عن هذه الدنيا طاهراً مطهَّراً . . حتى إذا أكمل تجهيزه ، وضع على سرير صغير ، فحمله المشيّعون ، ومشت الناس وراء أبيه ، ليواروه جدث الرحمة في مقبرة بقيع الغرقد ، بعد ان صلىَّ عليه الرسول «ﷺ» والمسلمون بالتكبير أربع مرات .

وأُنزل الجسدُ الصغيرُ إلى مثواه الأخير ، ثم سوَّوْا القبرَ عليه ، فأخَذَ النبيُّ «ﷺ» الماءَ وراح يرشُّ على ترابه ويسوّيه بيديه الشريفتين ، ثم يعلّم عليه بعلامة ، وهو يقول : « إنها لا تضرُّ ولا تنفع ولكنها تُقِرُّ عين الحي ، وإنَّ العبد إذا عمل عملاً أحب اللهُ أن يُتقِنَهُ » . .

ووافق ذلك اليوم الذي توفي فيه ابراهيم (ع) كسوف الشمس فدهش الناسُ وظنوها معجزة حققها الله ـ سبحانه ـ كسلوىً لقلب نبيِّه فراحوا يقولون : « كسفت الشمس لموت ابراهيم » . . .

رعندما سمعَ نبيُّ الله ﴿ﷺ﴾ ما يقولُهُ الناس ، وقف يردعهم عن ذلك وهو يقول : « إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد ولا حياته . فإذا رأيتم ذلك فانزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » . .

قد يكون من حق الناس في ذلك العصر ان يعجبوا لكسوف الشمس ، وأن يظنوه معجزة من السماء ، لأنهم لم يكونوا يعرفون ـ كما هي الحال لدى الملايين من البشر في أواخر القرن العشرين ـ كثيراً عن قوانين الطبيعة والفلك ، وعن العلاقة ما بين الشمس والكواكب السيارة التي تدور في فلكها . . نعم نقول إن الملايين من الناس حتى اليوم لا يعرفون بأن الكسوف هو ظاهرة طبيعية ، يأتي عن احتجاب نور الشمس عن قسم من الارض اثناء النهار لوجود القمر بين الشمس والارض . ووجود الثلاثة معاً : الشمس والقمر والارض على خط مستقيم واحد ؛ كما لا يعرفون بأن الخسوف هو ما نراه من ظلمة للقمر في وقت من أوقات الليل بسبب وجود الارض بينه وبين الشمس وعندما يكون الثلاثة على خط مستقيم واحد . . وهذا واقع لا يخفى على المدقّق ، إذ يجد في انحاء كثيرة من المعمورة ، ولدى الأجيال الطاعنة في السن ، جهلاً تاماً عن هذه الظواهر الطبيعية التي تحدث ، لأنهم لم يتعلموه في مدارس ، ولذلك نراهم يهرعون بالفطرة إلى الصلاة وإلى ذكر الخالق وتسبيحه ، لأنهم يشعرون عند حدوث تلك الظواهر ، برهبة في الأعماق ، وبرجفة في الأوصال فيلجأون الى ذكر الله تعالى كي يُبعد عنهم البلاءَ والكوارث . .

وإذا كانت فطرة الإنسان العادي اليوم توحي له بالخشوع وبذكر الله، عند كسوف الشمس أو خسوف القمر ، فإنّ تلك الفطرة قد جعلت أهل المدينة ، منذ أربعة عشر قرناً ، يتوهمون أن الكسوف الذي حصل يوم وفاة ابن رسول الله «ﷺ» هو معجزة ؛ إلاّ أنّ نبيّ الله الصادق، ورسولَه الأمين، أبى على الناس ذلك الوهم، ووقف يظهر حقيقة ما حصَلَ ، وذلك برفضه القاطع لمقولة المعجزة ، وبتبيانه ما لله سبحانه من عظمة في خلق السموات والارض ، وقدرته على تسيير الشمبس والقمر والارض ، وسائر النجوم والكواكب ، وكلِّ ما في الكون من أجرام سماوية وعوالم بعيدة ، وفق نظام كامل ، غاية في الدقة والانضباط ، لأنه يَعلمُ من قرآنٍ كريم أنزلَهُ اللهُ تعالى عليه بأن الشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدَّرناه منازل حتى عادَ كالعرجون القديم ، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمرَ ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون . .

نعم إنه القرآن ، كتاب الله المبين ، الذي فيه كثير من الإشارات والتلميحات إلى أنواع كثيرة من الظاهرات الطبيعية التي يهتم بها علم الفلك اليوم ، حتى تبلغ الآيات التي تدلُّ على هذا العلم حوالي أربعين آية ، هذا بالإضافة إلى الآيات التي تصف الخلق للعالمِ الأرضيِّ والعالم السماوي كله ، ومنه النظام الشمسي ، والتوازن الذي تقوم عليه الأجرام السماوية ، ووجود مدارٍ للشمس وآخر للقمر (ويعبِّر النص القرآني عن المدار بكلمة فلك) ، ودعوة للإنسان إلى غزو الفضاء وما عليه أن ينجز في هذا

الميدان وما سينجزه فعلاً . .

فالقرآن الكريم مثلاً ، قد أكّدَ أنَّ للفطنة والعبقرية البشريتين سلطاناً ، وأنَّ على الإنسان أن يعمل كل ما في استطاعته كي يخرج من النطاق الذي هو موجود فيه إلى ما هو أبعد في أقطار السموات والأرض بدليل قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِنْ أقطارِ السَّمٰوات والأرض فانْفُذُوا لا تَنْفُذون إلاَّ بسلطان** ﴾ وهو سلطان العلم الذي قد يصل إليه الإنسان ويجعله يخترق الفضاء ويصل إلى كواكب أخرى غير الأرض التي يعيش عليها . ولكنَّ عظمة القرآن ليست فقط في حثِّ الإنسان على استعمال السلطات والقدرات التي وهبَها الله تعالى له ، بل على تحديده الدقيق لذلك المشهد الجديد الذي سوف يراه الإنسانُ عندما يصبح خارج طبقة الجو المحيطة بالأرض ، حتى ليُشْدَهَهُ ذلك المنظر ويصبح مسحوراً لرؤياه ، وذلك بدليل قوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ، فظلّوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ . . لقد أمكن للإنسان منذ العام ١٩٦١ الميلادي وهو تاريخ أول طيران له حول الأرض ، وبعد ان غزا الفضاء ، أن يشاهد بأم العين منظراً يختلف عما يراه وهو على الارض ، إذ لا تبدو له السماء بصورتها اللازوردية بل سوداء نتيجة لظاهرات امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسي ، في حين يرى الارض محاطة بهالة لونية زرقاوية . . وإذا كان هذا المشهد الجديد الذي بهَرَ أول إنسان عندما أصبح خارج طبقة الجو المحيطة بالارض ، قد أصبحت صورة كلاسيكية في عصرنا ، فكيف تكون

دهشة الإنسان لو أمكنه ان يصل إلى فضاءات اخرى أبعد مما وَصَل إليه ، والتي يدلُّـهُ عليها القرآن بقوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون** ﴾ ؟!.. إنه لسوف تقع أبصارُهُ على عوالم جديدة تسحره حقاً ، فيرى من آيات الله عجباً . . .

واذا كان علم الفلك الحديث قد أثبت بأن الشمس ليست أكبر مما في السماء من أجرام ، وأن هنالك ملايين الملايين من النجوم ومنها الكثير أكبر من الشمس وأشدّ حرارة وضوءاً ، وإذا كان هذا العلم نفسه قد اكتشف النجم الذي سمّاه « الشِّعرَى اليمانية » وحدَّد ثقله ، وقاس نوره وبُعده ، فقال بأن الشِّعرَى هذه أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشس ، وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف بُعد الشمس عنّا ، فإنَّ القرآن الكريم ، ومنذ أربعة عشر قرناً ، قد ذكر « الشِّعرَى بقوله تعالى : ﴿ **وأنه هو ربُّ الشِّعْرَى** ﴾ . . .

واذا كان الإنسان قد اكتشف مؤخراً بأن الأرض غير ثابتة بل هي في دوران ، فالوحي القرآني قد سبقه بقرون بعيدة إلى ذلك ، عندما أشار إلى حركة الكرة الارضية ووصفها بأنها كفاتا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **ألم نجعل الارض كِفاتاً ، أحياءً وأمواتاً** ﴾ . فالكفات بلغة العرب هو الطائر الذي يطير مسرعاً وقد قبض بجناحيه على شيء يخُصُّهُ . وفي الحقيقة إن الأرض هي التي تحتضن بني البشر أحياءً وأمواتاً ، وهي تسبح بهم في فضائها الفسيح ، وتدور في دورانها السريع ويوم القيامة يقول الله تعالى : ﴿ **وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً ، وهي تمرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ الله الذي أتقنَ كُلَّ**

شيء﴾ . وكما أن الإنسان قد اكتشف أنه بعد خروجه من جاذبية الارض يفقد وزنه ، ويصبح في فضاء ليس فيه اوكسجين ، فالقرآن قد ألمح إلى هذه الحقيقة منذ أن أوحى به الله تعالى لنبيِّه محمد ﴿ﷺ﴾ بقوله عز وجل : ﴿ فمن يُرِدِ اللهُ أن يهدِيَهُ يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يُضلَّه يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّد في السماء ﴾ . . فسبحان الله ، وهو يَدُلُّ الإنسان على أنه عندما يصبح في فضاء خارج فضاء الكرة الارضية التي عليها يعيش ، فإنّه سوف لا يجد نفس الهواء الذي يتنفّس به ويحيا ، وسوف يحسُّ حينئذٍ بذلك الضيق في صدره الذي يودي به ، تماماً كما يشعر في حالة انقطاع الاوكسجين عنه وهو على الارض ، ويؤدي انقطاعه الى اختناقه وموته . . .

واذا كان النص القرآني غني جداً بالإشارة والتلميح إلى ما في خلق الله الواسع من أكوان ، وعوالم ، وما فيهن من خلائق ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى وقد تكفَّل بالقرآن تكفلاً مطلقاً : وحْياً وحفظاً وجمْعاً وبياناً ، قد تركه لأهل الارض ، وللعلماء منهم ، كي يهتدوا به إلى خلقه ذاك من خلال ما يكتشفون بقوة العقل الذي وهبه لهم ، وبشعلة الفكر الذي أنعم به عليهم ، وهذا رغم ما يؤكد القرآن الكريم على أن الإنسان مهما يبلغ في درجات العلم ، فإنَّ علمه لا يعدو جزءاً من علم الله سبحانه بدليل قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً ﴾ . . . إذن ففي القرآن دعوة صريحة لأهل العلم كي يكتشفوا ما في الكون من أسرار تخفى عليهم ، وما في الوجود من عوالم تغيب عنهم . ومن هنا وجَبَ أن نقف على مفهوم الاكتشاف العلمي وأن نفرّق بينه وبين « الحقيقة العلمية » . فإذا كانت

« الحقيقة العلمية » تقوم على نظرية علمية ، فتجربة علمية ، ومن ثم الوصول الى الحقيقة العلمية ، فإنّ الاكتشاف لا تدخل فيه التجربة أبداً ، بل يقتصر على إظهار أو معرفة شيء جديد بطريق التفكير أو التنقيب أو السفر أو الى ما هنالك من طرق أخرى ، وكل ذلك من غير أن تجري التجربة على الشيء المكتشف . . وبعبارة أخرى لا نستعمل في الاكتشاف « الطريقة العلمية » بل نقتصر على استعمال « الطريقة العقلية » التي تقوم في الأصل ، على الملاحظة والاستنتاج فقط ـ بدون اجراء تجربة ـ لأن الدخول في التجربة يفرض على الانسان أن يتخلى أولاً عن جميع الآراء السابقة التي تتعلق بالشيء الذي يجري عليه تجربته ، ثم يضع ثانياً هذا الشيء ضمن ظروف لم يوجد فيها من قبل حتى يمكنه أن يخرج من نظريته ، وما أجرى لها من تجارب بحقيقة معينة ، يطلق عليها اسم « الحقيقة العلمية » . . وهكذا أمكن للإنسان بفضل التجربة أن يحلل الماء مثلاً ، وأن يعرف العناصر التي يتكوّن منها ، في حين أنه عندما عرف النظام الشمسي كان ذلك عن طريق اكتشافه للقوانين التي تحكم هذا النظام ، وذلك بفعل ملاحظته واستنتاجه ، لا بفعل وضع الشمس وما يدور في فلكها على محك التجربة والاختبار ضمن المختبرات . فيكون الاكتشاف العلمي هو وحده فقط الذي أشار أو ألمح إليه القرآن الكريم . وعلى هذا ، فإنّ الملاحظ في كثير من الأحيان ، وجود خلط بين « الحقيقة العلمية » و « الاكتشاف العلمي » وعدم التفريق والتمييز بينهما ، وهذا ما يؤدي الى الوقوع في متاهات الضلالة والبعد عن الحقائق بحيث لا ندرك أن الأولى هي نظرية وتجربة واستنتاج ، في حين ان الثانية محض ملاحظة واستنتاج . . . .

فعلينا إذن أن نفرق بين هذين المفهومين حتى ندرك بأن القرآن الكريم قد ألمح وأشارَ الى كثير من الحقائق المتعلقة بالإنسان ، وبالكون ، والوجود ، وبالحياة الآخرة ، ودعا الإنسان الى التفكير والتعلّم ، كي يكتشف ما في علم الله الواسع ، ويدرك بعضاً من تلك الحقائق التي يكون فيها نفعه في الحياة الدنيا ، ويعمّق إيمانه بربه الذي خلق كل شيء وقدّره تقديراً : « أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلاَّ بالحق وأجلٍ مسمى . . . إنَّ في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » . . هذا هو النهج الذي يدعو إليه القرآن الكريم . إنه يدعو الناس إلى تغيير طريقة تفكيرهم وتناولهم للتصوّر والواقع ، تماماً كما دعاهم الى تغيير عقيدتهم وواقعهم .

وهذا المنهج الرَّباني هو الذي سارَ عليه رسول الهدى ، محمد ابن عبد الله «ﷺ» ، لأنه استقى من الينبوع الرَّباني الأوحد ، وتلقَّى من المصدر الالهي الأول ، فكان علمُهُ ما في القرآن ، وما تنطوي عليه آياته من معانٍ وأبعادٍ ، قلَّما يصل لادراكها الإنسان ، مهما بلغ من العلم والمعرفة . .

لقد تكوَّن لنبيِّ اللهِ محمدٍ «ﷺ» علم القرآن ، فبات حادث الكسوف الذي حَصَلَ يوم وفاة ابنه ابراهيم ظاهرة طبيعية له ، دللَّ عليها بقوله : « بآية من آيات الله » وفي الحقيقة إن كل ما حدث من شيء أو يحدث إلا وهو آية من آيات الله سبحانه . . . ولذلك أبى

على الناس أن يذهلوا لتلك الظاهرة ، وأن يتوهّموها على غير حقيقتها ، فقام يدفن حزنه بين ضلوعه ويتخلّص من آلامه التي أوهنت جسمه كي يواجه الناسَ بالحقيقة ، ويبيّن لهم الصواب من الخطأ ، مؤكداً أن الشمس والقمر لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، حتى ولو كان ابنَ النبيِّ أو النبيَّ نفسه ، وأنّهُ على الناس ، أمام حدث من هذا القبيل ، أن يسلكوا النهج الذي يُرضي الله ، ويعبّر عن عبوديتهم لخالقهم ، فيهرعوا إلى الصلاة ، وإلى ذكر الله بالتسبيح والاستغفار حتى تبقى صلة العباد بربهم قائمة على الخضوع لسلطانه ، والتفكر في عظمته والإقرار بتحكمّه في مصير كل شيء ، حتى الافلاك والنجوم والكواكب وما عداها من خلائق في السموات أو في الارض . . نعم ذلك كان موقف محمد ﴿ﷺ﴾ مما بدا للناس معجزة ، فقام يتصدّى للوهم الذي سيطر على العقول ، ويبدّد الجهل الذي غطّى على الأذهان . . وإذا كان هذا الموقف يَدُلُّ على عظمة صاحبه ، فإنَّ عظمة محمد ﴿ﷺ﴾ كانت حقاً فيما وهَبَهُ الله سبحانه من ذاتٍ كاملة ، وفيما حَمَلَ من رسالة سماوية عظمى ، وفيما كانت له من مَزايا وخصال تفرَّدَ بها ، والتي جميعها أهّلَتْهُ لأن يكون سيداً للبشر ، ورسولاً للناس كافة ، وخاتماً للنبيين والمرسلين .

وإذا كان نبي الله ﴿ﷺ﴾ قد عاش للحقيقة دوماً ، فإنَّ ذلك كان انسجاماً مع نفسه قبل بعثه ، وأداءً للتكليف الذي عهد به إليه ربه بعد ذلك البعث . . هكذا عرفَهُ الناسُ في كل لحظة من لحظات عمره الشريف الذي عاشَهُ على هذه الارض ، مختلفاً عن أبناء بيئته فيما سيطر عليهم من عقلية جاهلية ، وفيما أَلِفُوه من عادات قبيحة أو

تقاليد خرقاء . . ولعلَّ فيما نشهد اليوم من صور الواقع الذي نعيش ، وفيما نعرف عن واقع الحياة التي عاشها ساكن جزيرة العرب ، لأبلغُ العبر عن الإنسان وما تتحكم فيه من أهواء ومشاعر ، وأبرز دليل على تفرّد محمد «ﷺ» بالعظمة وبالكمال الإنساني . . فاليوم نرى في موت الابن أو فقدان عزيز مصاباً كبيراً ، نهلع له ونجزع ، وكثيراً ما يكون المفجوع في حالة من الضياع ، فيُشَلُّ فكرُهُ ، ويزوغُ بصرُهُ ، ويفقدُ إدراكه إلى فترة قد تطول أو تقصر ، وكل ذلك بتأثير العاطفة وسيطرتها عليه ، لأنَّ نزعة الإنسان للتمسك بهذه الدنيا تبقى هي الأقوى . .

واذا كان هذا واقع الإنسان بصورة عامة ، وفي جميع العصور التي عاشها ، فإنَّ الأمرَ كان أدهى عند العرب في عصر النبيِّ «ﷺ» ، إذ كان يرى في موت الولد الذكَرِ مصيبة ما بعدها مصيبة ، ونكبة قد تفوق كل النكبات . أما السبب في ذلك فيكمن في تلك الحياة القاسية التي عاشها العرب في الجاهلية ، وشظف العيش الذي عرفوه مما فرض عليهم حياة الغزو والسلب ، وما تتطلبه تلك الحياة من البحث عن أسباب القوة والمنعة ، التي كانت تتجسد في الرجل ، أو في ابن العشيرة أو القبيلة ، لأن عليه واجبَ حماية الديار ، والذود عن الحياض ، وحفظ الكرامة وصيانة الشرف وغيرها مما كان له عند العربي المكانة الأولى في حياته . . ولكنَّ هذه النظرة إلى الذكَرِ كانت تختلف بالنسبة إلى الأنثى ، فهي ليست موضعاً للعزة والافتخار ، ولا مصدراً للقوة والمنعة ، بل على العكس من ذلك هي عنصر ضعيف في تلك البيئة ، ومحلاً للفقر أو العار لما قد تطلبه من إعالةٍ وسط القلّة ،

أو قد تتعرض له من سبي وسط الإغارة والسبي . . وهذه النظرة هي التي جعلت ابن جزيرة العرب يأنف من ولادة الانثى ، ويكره وجودها ، فإذا أُخبرَ بمولودة جديدة له ، اكفهرَّ وجهه واسودَّ ، وشعر بالخزي والعار ، حتى ليتوارى عن أعين القوم ، من سوء ما بشر به ، وهو حائر يفكر بما يفعل ، أيتركها على قيد الحياة ، وفي ذلك الذل والهون ، أم يدسُّها في التراب ويئدها فتموت ، ويستريح من همومها ؟! . . .

وتلك العقلية الخرقاء التي انتشرت في الجاهلية هي التي جعلت العربي يقترف أشنع جريمة بحق الإنسانية ، عندما يقدم على وأد مولودةٍ جديدةٍ لا تعرف من الدنيا شيئاً وليس لها أيُ ذنبٍ إلاَّ أنها أنثى . . وقد ظلت هذه العادة الذميمة شائعةً حتى جاء الإسلام فحاربها وقضى عليها.وقد صوَّر القرآن تلك الحالة النفسية التي كان يعيشها العربي أدقَّ تصوير وأصدق تعبير حتى انتهى بالحكم عليه ، جزاءً لما احتَملَ من عقليةٍ وما اقترف من خطأ ، وذلك بدليل قوله تعالى : « **وإذا بُشرَ أَحدهُم بالأنثى ظلَّ وجههُ مسوداً وهو كَظيمٌ يَتوارىَ من القوم من سُوءِ مَا بُشرَّ به ،أَ يُـمْسِكُهُ عَلىَ هُونٍ أَم يَدُسُّه فِي التَّراب أَلاَ سَاءَ ما يحَكُمُون** » . . .

في وسط تلك البيئة القاسية عاش محمد بن عبدالله «ﷺ» ، وعايش أهل تلك العقلية الجاهلة ، فحاربها ـ بصورة تلقائية وعفوية ـ بما يملك من سلاح ذاتي ، ينبع من سلامة فكره ، وصفاء نفسه ، وطهارة قلبه ، وتقديره لعظمة الخلق . . ولذلك كان إذا رزقه الله سُبحانه بابنة ، وبُشِّر بها ، سرَّ لذلك أشدَّ السرور ، وأعلن على مسمع الملأ مِن أهله وعشيرته قوله : « ريحانة أشمُّها

ورزقها على الله » . .

إنها فطرة محمد ﴿ﷺ﴾ الصادقة ، وقد فطَرَهُ اللهُ تعالى عليها، ونفسيته الرحيمة التي أبت إلا الرحمة بالعباد، وعقليته التي أنارت بصيرته وبصره ، فرأى في حكمة الله أن قاعدة الحياة تقضي بأن تنشأ الحياة من زوجَين : ذكَرٍ وأُنثَى . . فالأُنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكَر ، بل ربما كانت أشدَّ أصالةً لأنها المستقرُّ ، فكيف يغتمُّ من تولد له أنثى ، وكيف يتوارى عن القوم فيرى أن قد وُلِدَ له سوءٌ كبير ؟! . . . إنه لا يفعل ذلك إلاَّ جاهل لا يعرف أن نظام الحياة لا يقوم أبداً إلا على وجود الزوجَين ، وأنه لا ينكر ذلك إلاَّ جاحد لا يدرك بأن الأنثى هي من خلق الله ، وبأنها نفس إنسانية لا يجوز إهانتها لأن فيها إهانة للعنصر الإنساني الكريم ، وأنَّ وأدها قتل للنفس البشرية ، وإهدار لشطر الحياة ، ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة التي اقتضت بأن يكون الأحياء جميعاً ـ لا الانسان وحده ـ من ذكر وأنثى ! . . .

نعم لقدأدرك نبيُّ الله محمد ﴿ﷺ﴾ذلك كله بعقليته الحكيمة، فَلَـمْ يفرِّق في خلق الله بين ذكَرٍ وأنثى ، وعاشَ لا يميِّز بين مولود ومولودة ، بل يحب الكل حبّاً سواء ، ويعطف على الكل نفس العطف . . وهَبَهُ اللهُ تعالى الذكور والإناث ، فأَجْمَلَ في الثناء على الخالق ، وأقرَّ له بالنِعْمة ، وكان أعظم الآباء للبنين والبنات . . ومن يتأمل في حياة محمد ﴿ﷺ﴾ العائلية يجد إمارات وعلائم لا يعرف تقديرَها وحكمتها إلاَّ الله سبحانه . فلم تلِدْ له من أزواجه إلاَّ السيدة خديجة سلام الله عليها ، فكان منها إبناه القاسم والطاهر ، وقد

توفاهما اللهُ قبل أن يبلغا الثالثة من العمر ، وبناته : زينب ورقية وام كلثوم ، وفاطمة الزهراء ، وقد عِشنَ جميعهن حتى كَبِرنَ وتزوجن ، ولكنْ لم تنجب منهنَّ ، إلاَّ فاطمةُ الزهراء ، زوج علي بن أبي طالب ، وأم السبطينْ : الحسن والحسين ـ عليهم جميعاً سلام الله ورضوانه . . . ثم يتوفىّ اللهُ ـ سبحانه ـ بنات محمد «ﷺ» الواحدة بعد الاخرى ، حتى لم يبقَ له إلاَّ ابنته فاطمة الزهراء ، فكانت سلوى لقلبه ، ومبعث طمأنينة لنفسه . . فلماً رزقه اللهُ ـ سبحانه ـ على الكِبَرِ ابنه ابراهيم من زوجه مارية ، وَجَدَ فيه قرَّةَ عين حقاً إلى جانب فاطمة ، وولدَيها الحسن والحسين ـ سلام الله عليهم ورحمته ـ وتكون حكمةُ الله أن يختار إلى جنانه مولودَهُ الجديد ، وهو ما زال في أول طفولته ، فيدفنه أبوه تحت صفائح الثرى كما دَفَنَ ، من قبلُ ، أخَوَيْه وأخواته ، وهو يحتسب نفسَهُ عند ربِّه ، خاضعاً لإرادته وحكمته ، راضياً بقضائه وحُكْمِهِ ، لأنه يرى في الموت حقّاً ، وفي المنقلب صدقاً . .

ولئن قضت حكمةُ الله تعالى بأن يموت أولادُ نبيّهِ محمدٍ «ﷺ» جميعاً إلاَّ فاطمة الزهراء ، فإنه كان من الطبيعي أن يعيش الأبُ في مأساة دائمة ، وأن تكون حياته سلسلةً من الأحزان والآلام ، مع ما قد يجرُّ ذلك من وَهَنٍ وضعف ، وحسرةٍ وتأسٍّ ، أو مع ما قد يصرف الأبَ عن مواجهة الحياة بنفس العزم والثقة . . . ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحصل في حياة النبي محمد «ﷺ» ، لأن إيمانه بربِّه يعلو على كل شيء ، وقوة ثباتِهِ على مجالدة الصعاب وتقبّل المصائب فوق حدود التصور ، فكان حريّاً به أن يكون المثال الأعلى

للمؤمنين ، وأن يكون للناس أسوةً حسنةً ، ليس أمام الموت وحسب ، بل وفي كل أمر . .

ولقد كان الرسولُ الأعظم حقاً الأسوة الحسنة ، فقد عرفه الناسُ في الحرب قائداً حكيماً ومقاتلاً شجاعاً ، وأمام الشدائد والمصاعب أشدَّ الصابرين وأروعَ المصابرين ، تماماً كما عرفوه في كل فتح وعند تحقيق كل نصر أعظم المسامحين وأكرم العافين . .

لقد كان المثالَ للناس والقدوة ، لأنه الإنسان والرسولُ . فهو الإنسان الذي عاش هموم الناس وأحزانهم ، كما عاش هناءاتهم وأفراحهم ، يشاطِرهم الأحاسيس ، ويشاركهم المشاعر في كل شيء ، وصفحات حياته المجيدة حافلة بتلك الروائع . . ما جاعَ قومُهُ ولا صحابتُه يوماً ، وهو معهم ، إلاَّ وكان أولَّ الجائعين ،وما عطش أحدهم إلاَّ وكان أول العطشانين ، فإذا سهَّلَ اللهُ الأمرَ ، وبعث الرزق، لا يأكل إلاَّ اذا شبع مَن حولَه، ولا يشرب إلاَّ اذا ارتوى من في جواره . . واذا كانت هذه حاله في الأسباب التي تمدُّ الإنسان بالحياة ، فإنه هو ذاته الذي لا يتغير في كل حالٍ أخرى ، يشارك في الفرح كما في الترح ، وفي السعة كما في الضيق ، وبعبارة في كل ما تحبل به حياة الإنسان ، وما تحفل به من تقلبات . كان يستقي من معين الله الذي لا ينضب ، ويستوحي من كتاب الله الأمثل « ولله المثل الأعلى » ، في كل شيء : في الشعور والسلوك ، في الاعتقاد والعمل ، في التصوّر والتعامل ، وفي كل وجود في الأرض والسماوات ، وفي الاكوان والعوالم . . وإنَّ من استقى من ذلك المعين واستوحى من هذا المثال ، لخَليقٌ به أن يكون للناس فيه

أسوة حسنة ، فكان محمد «ﷺ» هو هذه الأسوة الحسنة ، وصدَق الله العظيم ـ حيث جعل في رسوله الكريم هذه الخِصلة الفريدة ـ لقوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة لِمَن كانَ يَرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ وذكَرَ الله كثيراً ﴾ . نعم من كان يرجو لقاءَ ربه ، مطمئن النفس ، ويرجع إليه راضياً مرضياً ، ومن أرادَ أن يفوز في اليوم الآخر ، وينعم في جنات عرضُها السموات والأرض ، فإنَّ اللهَ ربه يأمرهُ أن يتخذ من رسوله محمد بن عبد الله «ﷺ» أسوةً له ، وأن يذكُر اللهَ كثيراً ، في قيامه وقعوده ، وفي قوله وعمله ، وفي شعوره وإحساسه ، وفي صلواته وتهجده . . . وبهذا النهج الربَّاني = ذكرِ الله كثيراً ، واعتمادِ رسول الله أسوة = يكونُ الفوز للإنسان في الدارَين ، الأولى والآخرة . .

لقد كان رسولُ الله محمد «ﷺ» عظيماً في كل أمر من أمور حياته ، حتى إنّه لتتناهى عند عظمته كل عظائم بني البشر ، وكاملاً في صفاته الذاتية وتربيته الربانية ، حتى إنه لا تدانيه في كماله كل مخلوقات الأرض ، فسبحان الله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله الطاهرين وأصحابه الميامين وعلى مَن اقتدى به إلى يوم الدين .

مباهلة وحكم

مات ابراهيم (ع) فصبر أبوه محمدٌ «ﷺ» على المصاب الأليم لأنه الحقُّ من ربه . وفي الصبر ـ ولا سيما في عظائم الأمور كموت عزيز على القلب ـ ترفّعٌ على الألم ، واستعلاءٌ على الشكوى . ولكنّ في صبر محمد «ﷺ» تسليماً لله ، واستسلاماً لما يريده الله من الأمر ، وقبولاً بحكمه ورضاه . هكذا هو صبر النبيّ الكريم «ﷺ» ، مثال للصدق مع ربِّه ، ومثال للصدق مع إيمانه ونفسه ، فمثل صبره يجب ان يكون صبر المؤمنين المخلصين . ومثل صدقه يجب أن يكون صدق الصابرين ، القانتين ، إذْ في الصبر القائم على الصدق اعتزازٌ بالحق الذي هو قوام الوجود .

ويتوافق صبر الرسول الأعظم ، كما يتوافق صدقه ، مع تكاليف الدعوة التي يحمل . أو ليست هي أعظم وآخر رسالات الله إلى خلائقه في الأرض ، ومصير هذه الخلائق على سطح هذا الكوكب مرتهن بأداء الرسالة على الوجه الأكمل ؟ فهل يعقل إذن أن يُقدِّمَ رسول الله «ﷺ» أيَّ أمر على واجب الرسالة ، ويجعل له من نفسه مكانة تعيقه عن أداء هذا الواجب حتى ولو كان هذا الأمر يتعلق بنفسه وبذاته ؟! . . مات ابنه ابراهيم (ع) ، وتلك مشيئة الله وقضاؤه ، فلا يمكن أن يؤثر موته على مسيرة أبيه بشيء ، ولذلك أتمَّ

الرسـول «ﷺ» المراسـم ، وانصرف من فوره إلى الاضطـلاع بأعبائه ، يستقبل الوفود التي كانت تأتيه من كل فجٍ عميق .

ولقد دأب رسول الله «ﷺ» أن يدعو الوافـدين إليه ، أولَ ما يدعوهم ، إلى الإيمان بوحدانية الله المطلقة : « قل هو الله أحد ، الله الصمد » وهي الوحدانية التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية بكل مقوماتها ، وبكل ما يتبعها من آثار عملية في الحياة ، أو في التوجُّـه الى الله تعالى بكل حركة أو نشاط ، وبكل تفكير أو شعور ، وبكل أمر كبير أو صغير . .

وكانت بلاد الجنوب ، وفيها اليهودية والنصرانية والمجوسية ، قد عرفت بالدعوة الإسلامية منذ بضع عشرة سنة ، وقبل أن يهاجر النبيُّ «ﷺ» إلى المدينة ،وذلك عندماكان يعـرض نفسه ، وهوفي مكة على القبائل التي تجتمع في موسم الحج ، وفي مواسم الأسـواق . . وإذا كانت تلك القبائل قد أشاحت ، في الماضي ، بوجهها عن النبيِّ «ﷺ» ولم تستجب له ، فإنَّ هذه الوفود التي تأتيه اليوم إلى المدينة ، من اليمن وحضرموت ، ومن عمان واليمامة ، وغيرها من الأقطار ، لا تأتي إلاَّ للاستماع إليه ، وتبيُّنْ دعوته وحكمته ، لأن الأوضاع قد تغيرت والظـروف قد تبدلـت ، وتحـددَّت علاقـة المسلمـين بسائـر الأطراف والجماعات . . فأما أهـل الشرك ، ومـن أرادَ البقـاء على شركه ، فعلى المسلمـين قتالهـم لقولـه تعـالى : « واقتلوهـم حيثما ثقفتموهم » . وأما أهل الكتاب فقد اختلفت مواقفهم من الدعوة : فاليهـود ، بوجـه عام ، حاربـوا هذه الدعـوة بكل ما لديهـم من امكانيات ووسائل ، وكانت غايتهم القضاء عليها إلاَّ أنهم فشلوا في

ذلك وهُزِمُوا شرَّ هزيمة ، ولذلك كانوا أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا ، بخلاف ما كان ينتظر منهم ، وبين أيديهم التوراة تهديهم إلى الحق . وأما النصارى ، فقد حضنوا الدعوة في أول أمرها بشخص النجاشي ملك الحبشة ، ثم قام نصارى الروم من بعدُ يناصبونها العداء ويدخلون في حربٍ مع النبيِّ «ﷺ» بينما وقف نصارى العرب ، وخاصة في الجنوب ، مطمئنين إلى الدعوة ، وأقربهم مودة للذين آمنوا ، وذلك كلُّه لقوله تعالى : ﴿ لَتجدنَّ أشدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذين آمَنُوا الْيَهودَ والَّذين أشركوا . ولَتَجِدنَّ أقربَهُم مَوَدَّةً للَّذينَ آمنُوا ، الَّذينَ قالُوا : إنَّا نصارَى . ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسين ورُهْباناً وأنَّهم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ .

وبمثل هذا التحديد القرآني للعلاقة بين المسلمين وغيرهم ، سارَ النبيُّ «ﷺ» على نهجه في استقبال الوفود جمعاء ، بل كان يبادر في أحيان كثيرة ، إلى بعث موفدين عنه للاتصال بالناس وبالقبائل ودعوتهم إلى الإسلام ، كما فعَلَ في السنة العاشرة للهجرة ، عندما بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب ، من نصارى نجران وأمَرَه أن يدعوهم للإسلام ثلاثاً ، فإن أجابوا واستجابوا كانت لهم الهداية ، وإلاَّ فعليه مقاتلتهم . واستجاب بنو الحارث لأمر النبيِّ «ﷺ» فلبث عندهم خالد بن الوليد ، مدة من الزمن ، ثم جاءَ المدينة ، وقد صحبه وفدٌ منهم لمقابلة النبيِّ «ﷺ» ، كان فيه : قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغُصَّه ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن عبد المحجَّل ، وعبد الله بن قريظ الزيادي ، وغيرهم . . وبقي هذا الوفد ردحاً من الزمن عند رسول الله «ﷺ»

يستمع إليه ، ويتفقه على يديه ، حتى إذا قفل راجعاً إلى بلده ، أرسل نبيُّ الله «ﷺ» وراءهم عمرو بن حَزْم الأنصاري ، كي يقوم على تعليمهم الشريعة ، ويأخذ الصدقات . .

ثم إنَّ رسولَ الله «ﷺ» عادَ وبعث إلى نصارى نجران ، ممن لم يدخلوا في الإسلام ، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام أو دفع الجزية ، وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«بسم إلّه ابراهيم وإسحاق ويعقوب . أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله تعالى من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام » .

وَصَلَ الكتابُ إلى يد أسقف نجران ، أبي حارثة بن علقمة ، أخي بني بكر بن وائل . فلما قرأه قال لواحدٍ بجانبه : « أُدعُ إليَّ الساعة شرحبيل » . وكان هذا خازن أسراره وموضع مشورته . فلما جاءه قال له : « دعوتك الساعة يا شرحبيل لأمر زاغني وأفزعني . فقد جاءني اليوم كتاب من محمد بن عبد الله يدعوني لدين يسميه الإسلام ويخيّرني بين الجزية والحرب . ولا أكتمك أني دُهِشتُ ممَّا يَعِد ، وذُعِرتُ مما يتوعَّد . فاقتدح زناد فكرك وأشِرْ عليَّ بما عندك فقد ضقت ذرعاً » .

قال شرحبيل : « لست يا سيدنا بصاحب رأي في هذا ، ولو كان لأمر من أمور الدنيا لَرجَوتُ أن يكون لي فيه نصيب أو رأي حازم

أقوله . على أنني علمت ما وعَـدَ الله به من النبوة في ذرية اسماعيل فما أدري أن يكون هو ذاك » . .

ولم يقنع أبو حارثة بما سمعه من مستشاره ، فدعا إليه بعض أهل الرأي غيره ، فما زادَ أحَـدٌ على ما قال شرحبيل ، وهذا ما جعل الأسقف يحارُ في أمره ولا يدري ماذا يفعل . لقد خلا إلى نفسه ، وراحَ يقلّـب الأمور من شتى الوجوه ، فما اهتدى إلى ما يرضي . . ذلك أنه إن أذعن لدعوة محمد ودخل في الإسلام ، فمعناه التخلّـي عن مناصبه ، وإثارة ملوك الروم عليه ، وقطعهم الأموال الطائلة التي يمدونه بها ، فلا يبقى له خدم ولا حشم ، ولا تبقى له المكانة التي يعلو بها . . وإنْ هو رفضَ الاستجابة لدعوة محمد «ﷺ» فإنّ رفضه يعني إيذاناً إما بدفع الجزية أو الحرب . .

كل الأمور وجميع الخيارات وجدها صعبة عليه ، فقام يأمر بالنواقيس أن تدق وبالمسوح أن تعلق بالصوامع ، إيذاناً بدعوة القوم إليه ، كما كانوا يفعلون في ذلك العهد .

وجاءَ القوم وعقد الاجتماع ، فقام الأسقف يخبرهم بكتاب محمد «ﷺ» ويدعوهم للتشاور في أمره . وبعد جدال ونقاش ، قرَّ الرأي على أن يذهب وفدٌ منهم إلى المدينة ، يقابلون النبيَّ «ﷺ» فيحاجونه ، ويجادلونه ، ثم يرون بعده ما يكون . .

وتألّـف وفد نجران من مجموعة كبيرة من الراكبين وفي طليعتهم أميرهم العاقب ، واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو ممثلهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة ، الأسقف نفسه وأخوه كرز بن

علقمة . وخرج هذا الوفد يرأسه العاقب ، وساروا يغذون السير نحو المدينة . وبينما هم في الطريق ، عثرت بغلة الأسقف ، وهي بجانب بغلة أخيه كرز ، فصَرَخ هذا : تعس الأبعد . . (وهو يعني بذلك النبيّ محمداً «ﷺ») ، فنفر الأسقف أبو حارثة من قوله ، وقال له : تعستَ أنت يا كرز ، إنه والله النبيّ الأميُّ الذي كنا ننتظره » ا . .

قال كرز : فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا ؟

قال له : ما صنع هؤلاء القوم (ويعني بهم الروم) ، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا وقد أبَوْا إلاَّ خلافه ، ولو فعلتُ نزعوا منّا كل ما ترى » .

وظل الحديث يدور طوال الطريق حتى وصَلَ الوفد قرب المدينة المنورة ، فنزلوا على ماء يستسقون ويغتسلون ، ويأخذون قسطاً من الراحة ، ثم يقومون إلى رحالهم ، وقد لبسوا أفخر الثياب ، وارتدوا أبهى الحلل ، ووضعوا عليهم الحليّ ، وقلائد من أحجار كريمة ، وخواتم من ذهب وفضة ، وتمنطقوا بالسيوف ، وحملوا الرماح ، ثم اصطفوا صفاً واحداً ، وركبوا إلى المدينة ، يدخلونها بانتظام دقيق ، وفي مظهر يدل على الهيبة والوقار ، حتى أن الناس وقفت ترقب هذا الموكب بإعجاب بالغ . .

وأُنزل القوم بالحرَّة ، في منازل أُعدَّت للوفود ، وبعد أن تناولوا طعامهم ، خرجوا إلى المسجد يريدون الاجتماع بالنبيِّ محمد «ﷺ» ، فرفض مقابلتهم والجلوس معهم ، فعادوا إلى منازلهم

بالحرّة . وعادوا في اليوم التالي ودخلوا المسجد ينتظرون خروج النبيّ «ﷺ» إليهم فلم يفعل ، حتى إذا حان وقت صلاتهم ، قاموا يصلّون ووجوههم نحو الشرق، فرآهم الناسُ واستغربوا وذهب بعضهم يخبر النبيّ «ﷺ» ، فإذا هو ينهاهم عن التعرّض للقوم ، لأنّ لهم أن يصلّوا كيف يشاؤون ، وبالطريقة التي يريدون ، وعلى الوجهة التي يرون ، إذ لأهل كل كتاب طقوس وشعائر ، ولكنها جميعها تصبُّ في غاية واحدة ، ألا وهي عبادة الله ، مالك الملك ، فلا ضير إنْ صلّوا في أي اتجاه ، طالما أنهم يتوجهون الى الله سبحانه ، ﴿ وَلِلهِ المشرِقُ والمغرِبُ ، فأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ، إنَّ الله وَاسِعٌ عَليم ﴾ .

ورأى الناسُ أن النبيَّ «ﷺ» يرفض مقابلة وفد نجران ، فأخَذَهم العجب ، وهم يعلمون أنه كان يُسَرُّ أشدَّ السرور لدى قدوم كل وفد ، ويعجل على لقائه ، فما الأمر إذن حتى يُعْرِضَ النبيُّ «ﷺ» عن هؤلاء القوم ؟

وكان عجب وفد نجران أشَدَّ من عجب الناس لموقف لم يكونوا ينتظرونه من صاحب رسالة ، ومفترض فيه أن يعلّمَ الناسَ أصول المقابلات وحقوق الضيافة ، ومراعاة الكرامات ! . . . فلمّا طال انتظارهم لم يروا بدّاً من الذهاب إلى أصدقاء لهم في المدينة ، مثل عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وقد عرفوهما جيداً من طريق المتاجرة والخروج بالعير . وبالفعل اجتمع أهل نجران إليهما وعرضوا عليهما ما جرى ، ثم سألوا : إن كانوا يبقون في المدينة أم يعودوا أدراجهم إلى بلدهم ؟! . .

ولم يستطع عثمان أو عبد الرحمن ، ان يتبينا حقيقة الأمر ، فأشارا على الوفد انتظارهما كي يذهبا للبحث عن علي بن أبي طالب (ع) ومشاورته ، فأتياه وأخبراه بما جرى ، وطلبا نُصْحَه بقولهما : ما رأيك يا أبا الحسن في أمر هؤلاء القوم ؟

وتفكَّر أبو الحسن (ع) قليلاً ثم أشار على صاحبيه أن يخلع أهل نجران الثياب الحريرية الخالصة ، وأن ينزعوا القلائد والخواتيم الذهبية ، ويأتوا نبيَّ الله في مظهر أقرب ما يكون إلى التواضع والاحترام ، بعيداً عن أي اختيال ومفاخرة ، فقد لا يتأخَّرُ النبيُّ «ﷺ» عندها عن مقابلتهم والاجتماع بهم ، إذا شاء الله .

وصحَّ تقديرُ أبي الحسن (ع) إذ ما إن فعل القوم بما أشارَ ، وجاؤوا النبيَّ «ﷺ» على حالتهم الجديدة حتى خرج يلقاهم ، ويبشُّ في وجوههم ، مثل عادته عند لقاء الناس .

هكذا يبدو رسول الله «ﷺ» دوماً ، وفيّاً لذاته كوفائه لربِّه تعالى . لا يَبهره بهرجُ الدنيا ، ولا يَغُرُّهُ خيلاؤها ، بل على العكس يحارب التكبُّرَ والتفاخر ، وكل ما من شأنه أن يبعد الإنسان عن أصالته . ولذلك ، لمَّا رأى اولئك القوم يفدون إليه بمظاهر الاعتزاز ، أنِفَ أن يلقاهم ، لأنهم لم يفدوا على مَلِكٍ في أبهة ، حتى يلبسوا ما لبسو ، ويتزينوا بما تزينوا ، بل جاؤوا لمقابلة نبيٍّ ، يعيش عيش الفقراء من الناس ، والاتقياء من عباد الرحمن ، وأن كرامته ليست في ثوبٍ أو مال ، بل في رسالة جامعة ، وفي خُلق عظيم . وهذا كله ، بالإضافة إلى التربية النفسانية التي أرادها

رسول الهدى من موقفه ذاك ، إذ أراد أن يجعل أهل نجران أخفَّ في غلواء خيلائهم ، وأقل في شدة تفاخرهم ، لا لأنه يريد الاعتراض على الآخرين في سلوكهم وحسب ، بل ليكونوا الى الحق الذي سيدعوهم إليه أقرب ، وإلى الهداية والتعويل على الأصالة الإنسانية أوصَلَ . . وعقد الاجتماع بين النبيِّ «ﷺ» وبين نصارى نجران الذين جاؤوا يحاجّونه ويناظرونه ، واجتمع حشد كبير من المسلمين يشهد هذه المناظرة التي تجمع بين أهل الرسالتين السماويتين النصرانية والإسلام ، وكل واحد من أهل الفكر يتساءل في نفسه : « أو ليسَ الخلق كلهم عيالُ الله ، وأن أفضلهم عند الله أتقاهم . . أو ليس الدِّين عند الله الإسلام ، وقد بُعِثَ النبيُّ محمد «ﷺ» مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة والأنجيل . . فلِمَ إذن المناظرة ، ما دام هذا النبيُّ الكريم لا ينقض الناموس الأكبر ، الذي يقوم على الحق المطلق وهو أنَّ الله ـ سبحانه ـ هو الواحد الأحد لا شريك له ، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . .

لقد كان الاجتماع بين أهل الفكر من النصرانية والإسلام ، فحق أن يكون مؤتمر التاريخ لما قد يصدر عنه من نتائج أو من عهود ومواثيق . وشتّان بين مؤتمر لبحث قوانين أو وضع اتفاقات ومعاهدات من صنع الإنسان ، وبين مؤتمر ينعقد للبحث في قوانين الله وفي عهوده إلى خلائقه .

ودار الحوار الذي شهده التاريخ ، وسجَّلَ صفحات خالدةً في الرقيِّ الفكري، والتسامح الإنساني، والجدّية في التعاهُد. . . وقد بدأ ذلك الحوار، عندما سأل «السيّد» من وفد نجران الرسولَ

الكريمَ «ﷺ» قائلاً :

ـ يا أبا القاسم ، موسى مَنْ أبوه ؟

فأجابه : عمران . .

وسأل : فيوسف من أبوه ؟

فأجيب : يعقوب . .

فسأل : فأنت من أبوك ؟

قال «ﷺ» : عبد الله بن عبد المطلب . .

فسأل : فعيسى من أبوه ؟

قال «ﷺ» : هو روح الله وكلمته . .

وربما داخلَ الظنُّ « السيدَّ » بأنه قد وَصَلَ إلى ما يرمي إليه من أسئلته تلك ، فقال يبدي عجباً :

- فهل يكون روح بلا جسد ؟

وأجابَ النبيُّ «ﷺ» بقوله تعالى : ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسَى عندَ الله كمثَلِ آدمَ خَلَقَهُ من ترابٍ ثم قال له : كُنْ فَيكون ﴾ .

وعظم على « السيد » الأمر وهو يسمع أن عيسى قد خلق من تراب ، وغضب له ، فقال : « أتزعَمُ أن الله أوحى إليك أن عيسى خُلق من تراب ؟ ما نجد هذا في التوراة ولا في الانجيل . ما وجَدَهُ اليهودُ فيما أوحي إلى رسلهم وما وجَدَهُ النصارى فيما أوحيَ الى نبيّهم » .

وهنا راح النبيُّ «ﷺ» يتلو على المسامع آيات بيّنات من « سورة مريم » في القرآن الكريم ، تدلُّ على حقيقة خلق المسيح عيسى بن مريم ، بقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ في الكِتابِ مريمَ إذ انْتَبذَتْ من أَهْلِها مكاناً شرقياً ، فاتَّخذَتْ من دُونِهِمْ حِجَاباً ، فأَرْسَلْنَا إِلَيْها رُوحَنا فتمثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً . قالت : إِنِّي أعوذُ بالرحمن منكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً . قال : إنَّما أَنَا رَسولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غلاماً زَكِيّاً . قالت : أنَّى يكونُ لي غُلامٌ ولم يَمْسَسْني بَشرٌ ولَم أَكُ بَغِيّاً . قال : كذلكِ قالَ ربُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ولِنَجعلَه آيةً لِلنَّاس ورحمةً منَّا وكانَ أمراً مَقْضيّاً ﴾ . . .

وعلا الوجوهَ الصمتُ لهذه التلاوة ، إلاَّ أن رئيس الوفد ، « العاقب » قطعه بعد قليل وهو يقول :

ـ إنا لَنُنكِرُ والله ما تقول يا أبا القاسم ، ولا نقول في المسيح إلاَّ أنه ابنُ الله وأنه ثالث ثلاثة : ابٌ وابنٌ وروحُ القدس ، وقد سمعنا في قرآن نزل عليك يقول : فَعَلْنا وجعَلْنا وخلقْنا . . . بصيغة الجمع ، ولو كان واحداً لكان يقول : فعلتُ وجعلتُ وخلقتُ ، بصيغة المفرد . . .

وهنا أوضح الرسول الأعظم ، بتلاوة من القرآن الكريم ، كم هي الآيات التي تتكلّم بصيغة المفرد وتدلُّ على وحدانية الله ، إلى جانب الآيات الأخرى التي تتكلم بصيغة الجمع وتدل على وحدانية الله . . . منها قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين الرَّحمن الرَّحيم . مالكِ يومِ الدِّين . . قُلْ هُوَ الله أَحَد . الله

الـصَّـمـدُ . لم يَلِدْ ولم يُـولَـدْ ولَـم يَـكُـنْ لَه كُـفُـؤا أَحَد . . اللهلا إلَه إلاَّ هو الحي القيوم لا تأخذه سِنة ولا نوم . له ما في الـسَّماوات وما في الأرض . . هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استـوىَ إلى السَّماء فسواهـنَّ سبعَ سَماواتٍ وهـو بكلِ شيء عليم . . وإذ قالَ ربُّك للملائـكة : إنـي جاعـلٌ في الأرض خليفـة . قالـوا : أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماء ونحـن نسبِّح بحمـدك ونقدِّس لك . قال : إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ . . . إلى ما هنالك من الآيات البينات التي يفيض بها القرآن الكريم بصيغة المفرد ، مما لا يمكن سردُهُ كله لبيان أقوال الله تعـالى الدالـة على تفـرّده ، ووحدانيته ؟! . . .

ـ قال العاقب: إنا نجد في الانجيل من صفة النبي المبعوث بعد المسيح أنه يصدِّق به ، ويؤمن به ، وأنت تزعم أنـه عبـدٌ ، أفـلا يكون ذلك عدم الإيمان به ، والتصديق به ؟

وتـلا نبيُّ الله «ﷺ» من قوله تعـالى : ﴿ فأشـارت إليه ، قالوا : كيف نكلّم من كان في المهد صبيّـا ؟ قال : إني عبـدُ اللهآتاني الكتابَ وجعلَني نَـبِـيّاً ، وجعلني مُباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حـيّـاً . وبـراً بوالدتي ولـم يَـجعـلْـنـي جـبَّـاراً شقـيّاً . والسـلام عليَّ يومَ وُلِـدْتُ ويومَ أمـوتُ ويومَ أبْـعـثُ حـيّاً . . . ما المسيح ابـن مريم إلا رسـولٌ قد خَـلـتْ من قبلِـه الـرُّسـلُ وأمُّـه صِـدِّيقـةٌ ، كانا يأكلان الطعام ، انْـظُـرْ كيفَ نُبـيِّـن لهم الآياتِ ، ثم انظرْ كيف يؤفكون . . وإذ قال الله : يا عيسى ابن

مريم ، أأنْـتَ قلتَ للناس اتَّـخِذُونـي وأُمِّي إلهَين من دونِ الله؟ قال : سبحانَـك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . إنْ كنـتُ قلـتُه فقد علمتَـهُ ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاَّم الغيوب . ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني به أنِ أعبدوا الله ربي وربكم . وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلماَّ توفيتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

ـ قال العاقب: إنك تقول عن المسيح إنه عبدٌ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلاَّ بأمر الله ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولكن ألم يكن يحُيي الموتى ويبرىء الأكمهَ والأبرص ويُنبئهم بما يُكِنُّون في صُدورهم وما يَدَّخِرونَ في بيُوتهم فهل يستطيع ذلك إلاَّ الله ؟

وهنا أبان نبيُّ الله أنه هو سبحانه الذي مَنَحَ عبدَه ونبيَّه عيسى بن مريم (ع) القدرة على إحياء الموتى وإبراءالأكمه والأبرص ، وغيرهما من القدرات ، وقد آتاها المسيحُ عيسى بن مريم (ع) بإذن الله عز وجلّ ، حتى يؤمِنَ به الناس ويتّبعوه ، شأن النبيين والمرسلين جميعاً يمدُّهُم باعثُهم بمعجزات تؤثر في العقول حتى تتبين مكانةُ المبعوث عن سائر أبناء عصره . . وما كانت لتتأتّى لهم القدرات ، ولا المعجزات إلاَّ في سبيل الأمر الحق الذي إليه يدعون، والغايةالنهائية التي إليها يسعون وهي الايمان بالله الواحد الأحد ، وبأنه هو الأول والآخر ، وله ما في السموات والأرض واليه المصير . وتلا رسول الله (ﷺ) قولهُ تعالى : ﴿ ورسولاً إلى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أنّي أخلُق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللهوأبرىءُ الأكمه والأبرص

وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم ، وجئتكم بآيةٍ من ربكم ، فاتَّقوا الله وأطيعونِ ، إنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

وطال النّقاشُ ، ودام الحوارُ ، وكلٌّ من في وفد نجران يسأل ما يجيش في صدره ، ونبيُّ الله محمدٌ «ﷺ» يقدم لهم البراهين الدَّالة ، والشواهد الثابتة ، والآيات الموحية المعبّرة ، حتى بانَ له أخيراً أن لا أحَدَ في الوفد يريد أن يُقِرَّ بالحقيقة ويذعن لها ، ربما لغاية في النفوس هم يعلمونها . . . . وبعد أن راى الرسول «ﷺ» تشبثهم بآراهم من غير وجه حق،نزل عليه الوحي بأن يطلبهم للمباهلة . والمباهلة هي التضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، وذلك بأن يدعو كل فريق على الآخر كيما يتبينّ الحق من الباطل ، ويظهرُ الصادقُ من الكاذب . فأعلنَ النبيُّ «ﷺ» للوفد ذلك ، وتلا دعوة الله للمباهلة بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حاجَّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جاءَك من العِلْم فَقُلْ : تعالَوْا ندْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ، ونساءَنا ونساءَكم ، وأنفسَنا وأنفسكم ، ثم نبتهلْ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبين . . ﴾ .

وبُهت القومُ لهذه الدعوة ، إذ لم تكن في حسبانهم ، ورضخوا للأمر الواقع وإنْ فاجأهم ، فقال قائلهم : « أنصَفْتَ يا أبا القاسم ، فإنَّ المباهلة آية معجَّلة بيننا وبينك » .

وانصرف الجمعُ ، وعادَ أهل نجران إلى منازلهم في

« الحـرَّة » ، وهمُّهم الأوحد تلك المباهلة التي تنتظرهم . وبعد فترة من الراحة ، قال بعضهم لبعض : « قد جاءكم الرجل بالفصل من أمره وأمركم ، فانظروا بمن يباهلكم .. أبكافة أتباعه وأهل المكانة من أصحابه ، أو بذوي الخشوع والمسكنة والصفوة منهم ، وهم دائماً قليل .... » .

قال أحدَهم : « صدقت يا هذا ! لئن جاءنا بالكثرة وذوي الشدة ، وهذا صنع الملوك ، باهلناه ، وكان النصر لنا دونه ، وليس هو نبيّاً من عند الله . أما إن أتانا بنفر قليل من صحابته ، أو من أهل بيته خاصَّة ، كما هي سجيّةُ الأنبياء وصفوتهم ، فلا نُباهله .. وإياكم يا قوم عندئذٍ والمباهلة ، فإنَّهُ لا يقدم على أهل بيته ، وعلى كبار صحابته ، إلاَّ وهو صادق .. وهذه لكم إمارة » ..

وهكذا ظل وفد نجران يتشاورون فيما بينهم بما يصنعون ، وهم يتصورون كل الاحتمالات التي سيواجهون ، والطرق التي سوف يسلكون ...

أما النبيُّ (ﷺ) فقد صلَّى بالناس ، ثم أمَرَ مَنْ يذهبُ إلى المكان الذي عُيّنَ للاجتماع كي يصار الى تنظيفه وتسويته ، وإزالة ما فيه من حجر وكدر ، وحيث هنالك شجرتان متقاربتان ، قد التفَّت أغصانهما وتشابكت، فأعطت الظلال والفيء، فلما كان صباح الغد ، عادَ وبَعَثَ بكساء كبير أسود ، رقيق ، كي ينشر على الشجرتين ويتدلى من الجوانب ، فيكون على شكل خيمة ، تَسَعُ

بعض الأشخاص فقط .

وفي أول شوّال من السنة العاشرة للهجرة ، وعند مقبرة البقيع في المدينة المنوّرة حضر اليوم المشهود وفدُ نجران ، وجمعٌ غفير من كبار الصحابة والمسلمين كان فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم ـ إذ جاءَ الوفد وفي طليعته أسيادُه : الأسقف أبو حارثة ، والعاقب والسيد ، وفي صحبة هذين الأخيرين ابناهما : صبغة المجنّ وعبد المنعم ، وابنتاهما : سارة ومريم . . جاء الوفد إلى البقيع على نفس المظهر الذي أتى به المدينة ، بالحلل الفاخرة ، والزينة الباهرة ، ليجد أهلَ مدينة الرسول ، بمهاجريها وأنصارها ، وبالقبائل من حولها قد اصطفت وتجمعت وأمامها الألوية والرايات ، لتشهد الحدث الأكبر . .

وما إن أخذَ الوفدُ مكانه ، وراحَ يسوّي أموره حتى ارتفع صوتٌ بالتكبير : الله أكبر . . الله أكبر . . فاشرأبت الأعناق ، وجالت الأنظار ، وإذا برسول الله ﴿ﷺ﴾ قد قدم محتضناً الحسين (وهو في حوالي الخامسة من عمره) وآخذاً بيد الحسن (وهو في حوالي السابعة من عمره) ، ومن خلفه مشى علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة الزهراء ـ عليهم سلام الله ورحمته ـ هؤلاء كانوا عترة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأهل بيته : فالمباهلون هم : رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ وابنتُه فاطمة (نساءنا) وبعلُها علي (انفسنا) وحفيداه السبطان الحسن والحسين (أبناءَنا) أجل ، جاء بهم ، لأنهم يمثّلون له الأبناء والنساء والأنفس ، فيكونون القربان الذي يقدمه لله تعالى على مذبح الحق واليقين . وتقدَّم نبيُّ الله يشير أمام الجموع إلى أهل بيته ، ثم

يدخلهم تحت الكساء ، ويقف أمامه وهو يقول لهم : إذا دعوتُ فأمِّنُوا ـ أي قولوا : آمين . . ثم ارتفع بناظرَيه ويديه نحو السماء ، ودعا الله سبحانه قائلاً : « اللّهمَّ هؤلاء أهل بيتي » . . .

ورأت الناسُ ، ورأى وفد نجران أن هؤلاء الأربعة الذين أدخلهم رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ تحت الكساء : هم وحدَهم الّذين سيباهلُ بهم ، ولا أحَدَ غيرهم من المؤمنين ، فخافَ أصحابُ الوفد ، بعدما رأوا بأمِّ العين ، ما حدَسوا وظنّوا ، فقال « السيد » لهم : « وَالله إني لأَرَى وجُوهاً لو سألُوا ربَّهم أن يُزيل الجبلَ عن مكانِه لأجابَهُمْ وأزالَهُ » . . فما تقولون يا قوم ، أَنُباهِلُ الرجلَ ؟

وخافَ القومَ على مصيرهم من الزَّوال ، فقالوا لبعضهم البعض : « لا تُباهلوا فَتَهلكوا ، أَوَمَا عَلِمتُم أنه ما باهَلَ قومٌ قطُّ نبيّاً إلاَّ خسروا » ؟! . .

واقترب « السيد » من الأسقف ، وهو يقول له : « أَدْنُ يا أبا الحارثة ، فأنت حبرُنا وأسقفُنا وأعلمُ الناس فينا ، وتقدَّم أمامنا لمواجهة محمد بن عبد الله » . .

ورفض أبو الحارثة التقدم ، وهو يقول لصاحبه : « إني والله لأَرَى رَجُلاً جَرِيئاً على المُباهَلَةِ وأخافُ أن يكونَ صادقاً ، فلا يحولُ علينا الحولُ ونحن على قيد الحياة . انظر إليه إنه والله جثا أمام كسائه ، كما جثَا الأنبياء قبلَهُ للمبَاهَلَة » . .

ويئس « السيد » من دفع أبي الحارثة لِمُباهلةِ محمد

«ﷺ» ، فعاد إلى « العاقب » يستحثّـه أن يتقدم للأمر ، وأن يظهر للجموع الغفيرة أنهم قادرون على المباهلة ومطمئنون الى النتيجة ، إلاّ أن « العاقب » رفض الاستجابة له ، ووقف يقدح زنادَ فكره بما عليه أن يصنع ، فإذا به استنبط حجة ظنَّـها السبيل إلى الخلاص من المأزق ، فتقدم من رسول الله «ﷺ» فقـال : أبهؤلاء تباهلنا ؟

وأدرك النبيُّ «ﷺ» ما يَـرمي إليه سيد وفد نجران ، إلاّ أنه أبى أن يدَعَ له حجـةً يختبىء وراءها ، فأبدى الاهتمام بدعواه وراح يبيِّـن له أنه قد جاءَ بأهله وأبنائـه ، فليأتِ منهـم من شاءَ بأهلـه وأبنائه ، فيكون لكل فريق أنفسـهُ التي تشهـدُ عليه ، عدداً بعدد ، لا بأقـلّ أو أكثر . . ذلك لأن الكثرة ، في مثل هذه المواقف ، لا تأثير لها ، فالابتهال الى الله ؛ والـدُّعاء على الكاذب في دعواه ، يمكن أن يصدرا عن إنسان واحـد ، وعـن نفس واحـدة ، فإن كان صادقـاً صـدّقه الله تعالى وأجزاه ، وإن كان كاذباً كـذّبه الله تعـالى وأخـزاه وحاق به العذاب الذي يستحق .

واستمع « العاقب » إلى رسول الله «ﷺ» ، فرأى أنه لم يعد لديه ما يحتـجُّ به ، فطلب الفرصةَ للتشاور مع قومه ، فأجابَـهُ رسولُ الهدى إلى سؤلـه ، وعادَ إلى جماعته يتشاورون ويتدبَّـرون أمرهـم ، فقال أحدهم : « ويحكم يا قوم ! اذكروا ما عثرتـم عليه في الجامعة من صفات هذا الرجل ، فوالله إنكم لَـتَـعلمون حقَّ الْعِـلْـم إنـه لَـصَـادق » . . وراح الرجـل يحـذّرهـم ، ويعظهـم بمـا أحـلَّ الله سبحانه بالأمم الغابرةمن مسخ وخسف لتكذيبهم الرسل ، وبما أنزل

بها من عذاب ، فهلع القوم لقوله ، وقد تمثلَ لهم المصيرُ المشؤوم الذي ينتظرهم إن هم ظلّوا على المكابرة ، وأقدموا على المباهلة عنتاً ، فقال أحدهم للمنذر ، أخي أبي الحارثة الأسقف ، وكان على حظ كبير من العلم والمعرفة : ما بالك يا رجل لا تبدي رأياً ولا تعظنا بما نفعل » ؟ وهنا خرج المنذر عن صمته وقال لأصحابه : « أتعلمون يا قوم ! إنه ما باهل قوم نبياً قطُّ إلاَّ كان الله مهلكهم كلمح البصر ، وقد علمتم وعلم كل ذي إرْبٍ من ورثة الكتب أن محمداً هذا هو الرَّسولُ الذي بشَّرت به الأنبياء وكتب السماء .. انظروا إلى محمد ، والى الأربعة من أهله ، تجدونهم مستعدين أبداً لرفع أيديهم نحو السماء ، والابتهال الى الله ، وإنهم لمنتظرون منكم قبولاً .. يا ويلكم يا قوم إن تَفَوَّهَ هذا النبي بكلمةٍ من بهْلَة ، فإنّا لا نتدارك من بعدها هلاكاً ، ولا نرجع إلى أهل ولا إلى مال » ..

استمع القوم إلى ما قاله المنذر ، فازدادوا هلعاً ورعباً . وإذْ أيقن الأسقف أبو الحارثة أنه لا سبيل لهم إلى المباهلة ، قال لهم : « يا قوم ! إن الأنبياء إذا ظهروا بأمر لا يرجعون إلاَّ بقضائه ، وإنَّ الحظّ لنا في النكول ، فالبدارَ البدارَ إلى محمد نصالِحْهُ ونُرضيه ، ولا نؤخرنَّ ذلك ، فإنّا والله ، ومن معنا ، بمنزلة قوم يونس ، لمّا غشيهم العذاب » ..

وإذْ توافق وفد نجران على رأي أسقفهم بمصالحة محمد ﷺ ، على أن يرضى ألاَّ يباهلهم ، فقد ندبوا المنذر بن علقمة إلى مهمة التفاوض معه ، وهم يقولون له : « يا أبا المثنّى ، كن أنت

الذي تلقى محمداً ، وكن الكفيلَ لنا عنده بكل ما يريد ، ولا تبطئنَّ في ذلك لنطمئنّ بما ترجع إلينا » .

ونهض المنذر يتقدم خفيفاً إلى رسول الهدى ، ويحييه بتحية الإسلام ، وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا آله إلا الله الذي بعثك بالحق ، وإنك وعيسى ، عبدان لله ، مُرْسلانِ » . .

لقد دخَلَ الإسلام إلى قلب المنذر بن علقمة ، ففرح رسول الله «ﷺ» به فرحاً شديداً ، ثم انتحى به جانباً عن الكساء ، حيث أهل بيته ، فأجلسه بجانبه ، وأقرَّه على إسلامه ، فأخبره المنذر بما قرَّ عليه الرأي عند بني قومه ، بألاَّ تكون بينهم وبين نبيِّ الله مباهلة ، على أن يدفعوا الجزية التي تُفرض عليهم .

وانتهى المؤتمر ، وعادَ الجميع إلى منازلهم وتدبّر شؤونهم ، حتى كان الموعد الذي ضربه رسولُ الله «ﷺ» لوفد نجران ، فاجتمعوا إليه ، وعقد لهم عهداً ، دوَّنَهُ بوثيقة خطية ، وفيه أن يقدّموا أَلْفَي حلةٍ وألفَ دينار ، يؤدُّون النصف في شهر محرم ، والنصف الثاني في شهر رجب ، القادمين ، على أن يؤدوا كلَّ عام ألفَ سيف وألفَ درع . وقد جاء في عهد النبيِّ «ﷺ» إلى أهل نجران ما يؤمِّن أهل الكتاب على دينهم ويحفظ جوارهم ما داموا للعهد حافظين ، فكتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبيِّ ورسول الله الى الأسقف أبي الحارثة بن

علقمة ، وأساقفة نجران ، وكهنتهم ورهبانهم ، وأهل بيتهم ورقيقهم ، وملّتهم ، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، جوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا من سلطانهم ، ولا مما كانوا عليه . على ذلك جوارُ الله ورسوله ، أبداً ما نصحوا وأصلحوا غير منقلبين بظالم ولا ظالمين » .

وهكذا عادَ وفد نجران[1] إلى بلاده مقراً بنبوة محمد بن عبد الله ، ومعجباً بحكمة هذا النبي وقدرته على التعامل مع الناس واعطاء كل ذي حق حقه . .

---

(١) نجران اسمٌ لمكان آهل عُرف في عدة بلدان ، ومنها :
- نجران من مخاليف اليمن ، وبها خبر الأخدود ، وإليها تنسب كعبة نجران .
- نجران من أرض البحرين .
- نجران في حوران من نواحي دمشق .

ويتبين القارىء أننا أتينا على ذكر وفود نجران ، أحدهما قدم الى مكة ، وآخران قدما إلى المدينة ، وربما تكون هذه الوفود قد قدمت من الامكنة الثلاثة المذكورة آنفاً ، بعدما انتهى إليها العلم بالإسلام أو بعثَ إليها النبيُّ (ﷺ) بكتاب يدعوها للدخول في دين الله ، فاقتضى التوضيح . .

رعاية شؤون البلاد

كانت الدعوة التي أذَّنَ بها عليٌّ (ع) في الناس ، يوم الحجّ الأكبر ، أحَدَ أهم الدوافع التي أقنعت المشركين ، في الغالبية الساحقة منهم ، بأن الخلاص لا يكون إلاَّ بالدخول في الإسلام ، لأن بقاءَهُم على عبادة الأصنام والأوثان ، لا يُجيزُ للمسلمين قتالهم وحسب ، بل سيحرمهم من زيارة البيت العتيق ، وهو البيت الذي له في نفوسهم جذور عميقة ، وليس في يدهم إمكانية انتزاعها . . وبالتالي لا يمكنهم التخلي عنه .

ويشاءُ الله سبحانه أن تتطّهر شبه الجزيرة ، من أقصاها إلى أقصاها ، من رجس الوثنية ، فينتشر الإسلام في شتى الربوع ، وتصبح له دولة مترامية الأطراف ، شاسعة الرقعة ، مما يقتضي معها تنظيم شؤونها وإدارتها بما يتوافق وأحكام الشريعة . . ولذلك عيّن رئيس الدولة (وهو الرسول الأعظم) الولاة والقضاة ، وفرّق العمالَ على الصدقات ، وعهد إليهم بالمهمات ، وأعطاهم الصلاحيات التي تمكّنهم من ضبط أمور الناس وتسيير شؤونهم ، وإشاعة العدل في ربوعهم . . وفي كثير من الأحيان كان يعهد إلى نفس الشخص أن يقوم بكافة الوظائف ، في الإدارة والقضاء وجباية الأموال ، وأخذ ما كتب على المسلمين من صدقات .

ولقد كان يتخيّر حكّامَهُ وولاته من ذوي الفضل إيماناً وعلماً وخُلُقاً ، حتى يكونوا على مستوى المهام التي يتحمّلونها خاصة وأنَّ عليهم ، إلى جانب الاضطلاع بمسؤولية الحكم ، حملَ الدعوة التي لا تنقطع ، وتعليمَ الناس القرآن ، وتفسيرَ أحكام الدين وتوضيح معالمه . أما بشأن عباد الله ، فإنّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان تشدّده مُنْصبّاً على أن يكون الحاكم أو الوالي ليّناً مع الناس في الحق ، وشديداً عليهم في الظلم ينهاهُمُ عن العصبية إنْ رأوا هَيْجاً إلى القبلية أو عودة إلى العشيرة ويوجههم التوجيه الصحيح ، حتى يكون التوجّه خالصاً لله وحده لا شريك له ، مع ما يحمل هذا التوجُّهُ ، من قضاء على العقلية الجاهلية البائدة ، والتخلي عن العادات والتقاليد البالية ، ومع ما يتضمن من تربية جديدة غايتها تكيّف الناس مع أجواء عقيدتهم ، واعتمادهم المنهجَ السويَّ ، الذي ترسمه هذه العقيدة لحياتهم .

وكان الرسول الأعظم «ﷺ» زيادة في الاطمئنان إلى صلاح الحاكم وعدله ، يختبره بطريقة تظهر مدى كفاءته وجدارته للمنصب ، فإن وجده على مستوى المسؤولية عيّنهُ ، وإلاَّ اختار غيرَهُ ممَّن تتوفر فيه الشروط كافة لتولية الحكم . من ذلك مثلاً حديثُهُ لمعاذ بن جبل الخزرجي ، حين أرادَ بعثه على بعض مقاطعات اليمن ، إذ سأله : « يا معاذ ، بما تحكم » ؟

قال معاذ : بكتاب الله .

قال النبيُّ «ﷺ» : فإن لم تجد ؟

قال معاذ : بسنَّة رسول الله .

قال النبيُّ «ﷺ» : فإن لم تجد ؟

قال معاذ : أجتهد رأيي .

قال النبيُّ «ﷺ» : « الحمد لله الذي وفّقَ رسولَهُ لما يحبه الله ورسولُهُ » .

واستعدَّ معاذُ يريد الخروج الى اليمن ، ومعه سرية من المسلمين ، وجاءَ يودِّع رسولَ الله «ﷺ» فكانت وصيته له في خروجه ذاك : « لا تقاتِلوهم حتى تَدْعوهم ، فإنْ أبَوْا فلا تقاتِلوهم حتى يبدأوكم ، فإنْ بدأوكم فلا تقاتِلوهم حتى يَقتُلوا قتيلاً منكم ، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم : هل الى خيرٍ من هذا سبيل ؟ . فلئن يهدي الله تعالى على يديك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

هذا فيما يتعلق بحالة القتال ، أما فيما وجب على المؤمن في كل حال ، فقد كانت وصية الرسول الأعظم لمعاذ : « لا تشرك بالله شيئاً وإنْ قُتِلْتَ وحُرِّقت . ولا تَعُقَّنَّ والديك وإنْ أمَراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركنَّ صلاةً مكتوبة متعمّداً فإن من ترك صلاةً مكتوبةً متعمداً فقد برئت منه ذمةُ الله ، ولا تشربنَّ خمراً فإنه رأسُ كل فاحشة . وإياك والمعصية فإنَّ بالمعصية يحلُّ كلُّ سُخط ، وإياك والفرار من الزحف ، وإنْ هلك الناس ، وإذا أصابَ الناسَ موتٌ وأنت فيهم ، فاثبُتْ . وانفِق على عيالك من طولك ولا ترفع عنهم عصاك أبداً واخْبَهْهُم في الله عزَّ وجل » .

وأما بخصوص أهل الكتاب فقد جاءت وصية رسول الله «ﷺ» لمعاذ : « يسّر ولا تعسّر ، وبشر ولا تنفّر ، يا معاذ . وإنك ستقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى ، الواحد الأحد ، فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أنه فرض سبحانه عليهم زكاةً تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخُذْ منهم ، وتَوَقَّ كرائم أموالهم ، واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

بمثل هذا الهدْي النبوي بَعَثَ عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ـ معاذَ بن جبل عاملاً على مخلاف(مدينة أو مقاطعة بلغة اليمن)، وعبد الله بن قيس (أبا موسى الأشعري) على مخلاف آخر ، فكانا متجاورين ، يذهب كل منهما إلى صاحبه ، يتشاوران ويتدبَّران ، تنفيذاً لأوامر النبيِّ «ﷺ» ، إذ أوصاهما ، بأن يتطاوعا ولا يختلفا .

وعيّن غيرهما من الولاة والعمال على الصدقات كثيرين أمثال : عتاب بن أسيد على مكة ـ بعد فتحها ـ وخالد بن سعيد بن العاص على صنعاء ، وزياد بن لبيد بن ربيعة الأنصاري على حضرموت ، والعلاء بن الحضرميّ على البحرين ، وعمرو بن العاص على عمان ، وباذان بن ساسان ـ بعد إسلامه ـ على أجزاء من اليمن ، كما بعَثَ «ﷺ» عدي بن حاتم الطائي على صدقات طيء وأسد ، ومالك بن نُوَيرة على صدقات بني حنظلة ، وجعل الزبرقان ابن بدر وقيس بن عاصم على صدقات بني سعد ، وبعث عليٌّ بن

أبي طالب (عليه السلام) الى نجران ليجمع الصدقات ويأخذ الجزية .

ولم تكن عناية النبيِّ «ﷺ» بشؤون الادارة أكثر من عنايته بالقضاء وذلك لما للقضاء من أهمية في حياة الشعوب والأمم . إذ لا حضارة أو مدنية ، ولا ازدهار أو تقدم ، ولا حقوق للإنسان أو تحقيق لعدالة ، إلاَّ في ظل قانون سيِّد مطلق ، متوافق مع عقلية أبناء المجتمع ونمط عيشهم . . وأولى الناس تطبيقاً للقانون ، وتحقيق سيادته على الجميع بالسواء ، دون محاباة أو تقصير ، هو القاضي ، صاحب السلطة القضائية ، وحامل لواء العدل . . فهو يملك سلطة لا تعلوها سلطة حتى أنها تصل إلى حد الحكم بالحياة أو الموت . ومَن كانت له هذه السلطة القوية وجَبَ أن يكون أهلاً لها ، وإلاَّ فقد ساء كل شيء ، لأنه ويلٌ للأمة إذا نخَرَ السوسُ عظامَ القضاء فيها ، فمات ضميرُ القاضي وانْدحَرَتِ العدالة على مذبح القوسِ الذي يجلس عليه . . وويل للشعب إذا سادَ مجتمعه الظلم ، وعمَّهُ الباطل ولم يجد المصلحَ الاجتماعي ، والقاضيَ النزيه ، وأنصارَ الحق ذوي الضمائر الصافية ركناً شديداً يأوي أبناؤه اليه،وحاكماً قوياً عادلاً يستندون عليه . . ومن هنا كان اهتمام رسول الله «ﷺ» بالقضاء ، لأنه عرف أهميته في حياة الشعوب والأمم ، بعدما وقف على جوهره وعلم أبعادَهُ وهو يستقي معرفته ، وعلمه به من مصدره الأول ، وهو الله سبحانه ، الحاكم ، الحكيم ، العادل . . ونتبينّ العدل على حقيقته وفي أصوله ، في حياة النبيِّ «ﷺ» عندما نتذكّر أنه جَعَلَ سعدَ بنَ معاذ قاضياً بينه وبين اليهود في المدينة على أثر غزوة الأحزاب ، إذ أنه ، على الرغم من كونه رئيساً للدولة يومذاك ،

وقاضي القضاة بل وسيِّدَ القضاء في الناس ، فإنه لم يُصدِرْ حكمه على اولئك اليهود قبل إدانتهم ، لأنه يعلم علم اليقين بأنه لا يجوز في القضاء الجمعُ بين الخصم والحكَمْ ، ولذلك كان تكليفُهُ لسعدٍ حكماً بينه وبين اليهود ، وقاضياً له ملء الصلاحية بأن يحكم بما يراه عدلاً في أمرهم . وهذه هي القاعدة الصحيحة لتحقيق العدالة ، وجعل العدل أساساً للملك والحكم . .

ولقد كان في عادات العرب أن يتولّى القضاءَ ، أسنُّ الرجال واكثرهُم حكمة وتجربة ، وأشدّهم معرفة بعادات الناس وأنماط عيشهم . ولكن ورغم تلك العادة التي لم ينْقضْها الرسول «ﷺ» ، لسلامتها وصحتها ، فإنه اختار للقضاء على اليمن ، ابن عمه عليَّ بن أبي طالب (ع) وهو في سن مبكرة ، لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره . . ويروي علي (ع) إمام الهدى ، كيف أنه تهيّب الموقف ، ورسولُ الله «ﷺ» يعيّنه في هذا المنصب ، فحدّث عن ذلك ، فقال : « بعثني رسولُ الله ، صلىًّ الله عليه وآله وسلّم ، إلى اليمن ، فقلت : يا رسولَ الله ، تبعثني إلى قوم أسنّ مني ، وأنا حدث لا أبصر القضاء . فوضع يده على صدري وقال : اللهم ثَبّتْ لسانَهُ واهدِ قلبَهُ . . ثم نظر إليَّ وقال : يا عليُّ ، اذا جاءك الخصمان فلا تقضِ بينهما حتى تسمع من الآخر ما سمعتَ من الأول ، فإنّك إن فعلتَ ، تبينّ لك الحق » . قد نجد في الاستماع إلى الخصمين أمراً بديهيّاً في عصرنا اليوم ، ولكن إذا عرفنا بأنَّ داود (ع) كما يقرّر القرآن الكريم ، قد أصدَر حكمهُ بعدما تراءى له الحق في جانب الخصم الذي ادّعى ، وقبل أن

يستمع إلى دفاع الخصم الآخر ، فنهاه ربُّ العالمين عن ذلك وأمَرَه أن يقف على رأي الفريقين قبل الحكم ، لتبينّ لنا أن هذه القاعدة الأصيلة قد سنَّها كتاب الله المبين ، فأبانها النبيُّ «ﷺ» لقضاته ، وفي طليعتهم عليٍ (ع) وهو يولّيه على قضاء اليمن . . وأما دعوتُهُ له : بأن يثبّتَ الله لسانه ويهديَ قلبَهُ ، فكانت دعوة نبوية أُعطيت لعلي (ع) وحده ، ولم تُعطَ لأحدٍ غيره ، فكان بعدها أخطب الناس وأثبتهم قولاً وعدالةً بعد رسول الله «ﷺ» ، إذ كان مهديّاً لا يلين في حقٍ أو يُمالىء في باطل ، أما هدايته في القضاء فكانت هداية تامة ، ما اختلف عليه بعد تلك الدعوة السنيّة قضاءٌ بَعدُ ، وحياته حافلة بالمآثر في هذا المضمار ، وخاصة مع أخيه في الإسلام ، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ الذي قال : « لولا علي لهلك عمر » . . فقد كان يعود إليه في كل معضلة تستعصي فيجد عنده الحلَّ العادل لها ، ويكفي دلالة على مصداقية قضاء علي (ع) قول النبي «ﷺ» : « أقضاكم علي . . لا يقضي أحدكم وعلي في المسجد » .

ولم تكن تولية علي قضاء اليمن إلاَّ من وحي الفكر النبويّ الثاقب الذي يرتكز دوماً على الحقائق التي بها يؤمن ، فقد عرفَ فيه ملكات وقدرات كبيرة حباه الله ـ سبحانه ـ بها ، وعنده تجارب وخبرات كثيرة اكتسبها في كنف النبوة حتى شبَّ ولديه علمٌ وافرٌ وغزير وإلى جانب هذه الصفات كان علي (ع) قد اطلع على عادات أهل اليمن ووقف على أحوالهم من خلال المهام العديدة التي ندَبهُ اليها رسولُ الله «ﷺ» في تلك البلاد . فقد بعثه الى هناك في

أول مهمة إسلامية سنة ثمانٍ للهجرة ، على أثر فتح مكة ، ثم عادَ وبعثه الى بني همدان ، وقد أسلموا على يديه ، فكتب يومَها إلى رسول الله «ﷺ» يعلمه بإسلامهم ، فسرَّ الرسولُ «ﷺ» للبشرى السعيدة ، وسجد شكراً لله تعالى ، ثم قال ثلاث مرات : السلام على همدان . . كما أنه بعثَهُ بعد ذلك الى بني مذحج ، ومعه ثلاثمائة فارس ، وقد أوصاه حين خروجه إلى اولئك القوم : « سرْ بكلاءة الله حتى تنزل في ساحهم ، وتحلَّ في فنائهم ، فَادعهُم الى الإقرار بالشهادتين ، فإنْ أجابوا فَمُرْهُمْ بالصلاة ولا تَبْغِ منهم غير ذلك ، فلئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت (تماماً كما في وصيته «ﷺ» لمعاذ بن جبل ، وذلك لشدة حرصه على هداية الناس وإقبالهم على دين الله الحق) ، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » . . وقد عمل علي (ع) بأمر رسول الله «ﷺ» ووصيته ، فما أن انتهى إلى بني مذحج حتى دعاهم إلى الإسلام ، إلاَّ أنهم رفضوا الاستجابة ، وبادروه بالعداء ، فجمعوا الجموعَ ورمَوْه وأصحابه بالنبال ، حتى كان ما كان ، وحَمَلَ عليهم ، يفرّق جموعهم ، وينزل فيهم القتل حتى فقدوا عشرين رجلاً منهم . . ولما رأى بنو مذحج أنه لا قِبَلَ لهم بمتابعة قتاله ، طلبوا الكفَّ عنهم ، واجتمع إليه زعماؤهم يفاوضونه ، فانبرى ، بما عُهِدَ فيه من إيمان صادق ، وإخلاص للدعوة ، يبيّن لهم حقيقة الإسلام وما ينطوي عليه من التساهل والتسامح والمساواة ، وما يرمي إليه من الإخاء والمحبة والمنعة . واستمر هكذا بتقديم الأدلة والبراهين على صحة الدعوة ، حتى أجابوه ودخلوا في دين الله

مختارين ، فتبعهم أبناءُ قومهم وصاروا جميعاً ، بفضل الله ، مسلمين . .

نعم إنّ ما كان لعلي بن أبي طالب (ع) من صفات شخصية ، وما اكتسبه من علم النبوة ، وما قام به من مهام في اليمن جعلت كثيراً من الناس يسلمون على يديه. إنّ هذه الأمور مجتمعة كانت وراء اختياره لتولية القضاء على اليمن ، فلبث في تلك البلاد يقضي بين الناس ، ويعلّمهم الدِّين ، ويحفظهم القرآن ، ويجمع الصدقات . . حتى وافى الرسول الكريم في مكة أثناء حجة الوداع . .

هذه بعض الملامح الوجيزة للإدارة الرشيدة ، وللرعاية الحكيمة ، كما توخّاها محمد ﴿ﷺ﴾ ، وأرسى لها القواعد المتينة ، وشيد لها البنيان المرصوص . فهو منذ وصَلَ المدينة راح يعمل لإقامة الدولة الإسلامية بدستور ثابت ، وجهاز كامل ، وهدف سام . .

ولقد قامت سياسته الداخلية على بناء المجتمع الاسلامي الصافي ، كما أقام سياسته الخارجية على المعاهدات والمواثيق التي تحفظ حق الله ، وحق العباد . . ولذلك كان اختياره للحكام والولاة مِنْ أمثل مَنْ دخلوا في الإسلام فهماً للعقيدة ، وإخلاصاً للمبدأ ، وصدقاً في المعاملة . على أنه رغم هذه الصفات المميزة لهم ، فإنّه ﴿ﷺ﴾ كان يزوّدهم بالوصايا التي تمهّد لهم النهج القويم ، وتمدُّهم بالطرق والوسائل السويَّة ، ومنها على الأخص ما يتعلق بأهل الكتاب ، فإن أسلَمَ من كان يهودياً أو نصرانياً إسلاماً خالصاً من نفسه فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن

كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتن عنها . .

وكان الرسول الأعظم لا يكتفي بذلك كله ، بل يكشف عن حال الولاة والعمال ، ويتقصّى أخبارهم على الدوام . . فقد أمر واليهُ عندما بعثه على البحرين ، وقال له : « استوصِ بعبدقيسٍ خيراً وأكرم سراتهم » . . فجاءه يوماً وفد من عبد قيس شاكياً عامله العلاء ابن الحضرمي ، فعزلَهُ . .

وكان يدقق في حسابات عماله ويحاسبهم على المستخرج والمصروف . فقد استعمل رجلاً على الصدقات ، فلما عاد وجاءَ وقت محاسبته ، قال الرجل : « هذا لكم وهذا أُهْدِيَ إليَّ » مما جعلَ رسولَ الله «ﷺ» يفاجأ لما يسمع ، ويقول : « ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولاّنا الله ، فيقول : هذا لكم وهذا أُهْدِيَ إلَيَّ ، أفلا قعَدَ في بيت أبيه وأمه فننظر أيُهْدَى إليه أم لا » ؟ . . ثم التفت إلى مَنْ حوله وقال : « من استعملْناه على عمل ورزقناه رزقاً ، فما أخذَ بعد ذلك فهو غلول » . .

ومن الشكاوى التي وصَلَتْ رسولَ الله «ﷺ» شكاية أهل اليمن من تطويل معاذ في الصلاة ، فزجره ، وقال : « مَن أمَّ في الناس فليخفِّف » . . وقد جاءه يهود خيبر يشتكون عبد الله بن رواحة ، الذي كان يبعثه كل عام إليهم ، يخرص عليهم تمرهم ، فسأله النبي «ﷺ» عن ذلك ، فنفاه نفياً قاطعاً ، مبدياً أنه لا يتوخى إلاَّ قسمة الحق ، فلا يأخذ من نصيب اليهود ، ولا يحيف بحقوق المسلمين . . فلما رأى يهود خيبر أنَّ شكواهم الكاذبة لم تنفع ، لجأوا

إلى وسيلة أخرى ، وهـي محاولـة تقـديم الرشـوة إلى عبـد الله بن رواحة ، فجلّلوا له حلياً من حلي نسائهم ، وقـدّموها له قائلين : « هذه لك ، وخفّفْ عنا وتجاوز في الْـقَسْم » . . فضحك عبد الله مستهزئاً وقال لهم : « يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلـيّ ومحمد صلّى الله عليه وآله وسلم أحـبُّ الناس إلـيّ ، وهذا ليس بحاملي على أن أحيف عليكم ، وأما ما عرضتم من الرشوة فإنها الـسُّحـتُ ، وإنَّا لا نأكلها » . . وبهذا اقتنع يهود خيبر أنّـه لا رشـوة في الدولـة الإسـلامية ، ولا مرتشٍ وهـو مسـلـمٌ صادق ، فقالوا : « بهذا قامت السموات والأرض » . .

ولما كان اهتمام رسول الله «ﷺ» بقضايا الناس اهتماماً شديداً ، وعنايته بأحوالهم كبيرة ، فإنه لم يكتفِ بتعيين القضاة ، بل عـيّـن أشخاصاً يُـعنَـوْن بالمظالـم ، فوجّـهَ راشـد بن عبـد الله أمـيراً على القضاء والمظالم ، وجَـعَـلَ له صلاحية النظر في قضـايا المظالـم ، حيث يقف على شكاية المظلومين ، ويرد الحيف عنهم . .

في كل أمر من أمور الناس اهتـمَّ رسول الله «ﷺ» ، وفي كل شأن من شؤونهم اعتنى . . أدارَ مصالح النـاس وعـيّـن الـكـتّـاب لإدارة هذه المصالح ، فكانوا بمقام مديري الدوائـر اليوم ، وهـكذا جعل علـيّ بن أبي طالب (ع) كاتب العهود إذا عاهَـدَ والصلح إذا صالح ، والحارث بن عون المري على خاتمه ، ومعيقيب ابـن أبـي فاطمـة كاتبـاً على الغنائـم ، وحذيفـة بن اليمان يكتـب خرص ثمار الحجـاز ، والزبـير بن العـوام يتـولى كتابـة أمـوال الصدقـات (الـزكاة) ، والمغيرة بن شعبـة يكتـب المدينـات والمعامـلات ،

وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات الى الملوك . .

وبمقتضى هذا النهج قامت دولة الاسلام منيعة ، لا محلّ فيها للانحلال والتفكك في الداخل ، ولا مجال لإرهابها أو إضعافها من الخارج ، وذلك بفضل ايمان أبنائها ، وقوة شجاعتهم ، وما لديهم من وسائل وإمكانيات يُرْهِبُونَ بها عدوّ الله وعدوّهم . ذلك أن رسولَ الله «ﷺ» ومنذ بداية تكوين الدولة رأى أنه لا يمكن أن يكون لدين الله سلطانٌ إلاّ إذا اعتمدت الدولة على نفسها في توفير كافة أسباب القوة وتأمين السلاح والعتاد اللازمين فعلى الفور بعث شباب المسلمين الى اليمن كي يتعلموا صناعة الأسلحة المعروفة في ذلك العصر وفي يقينه أنّ لا شأن لدولة إلا برجالها وسلاحها ، وبما تملكه من قدرات في هذينَ المجالَين الرئيسيين ، فكان اهتمامه بصناعة السلاح وتأمينه ، كما كان اهتمامه بشراء ما يحتاج من عتاد إذا أعوزه الصنع . . وهذا لعمري ما تحتاج إليه بلاد الإسلام اليوم ، إن أرادت أن يكون لها موقع قدم على هذه الكرة الأرضية ، وأن تصبح في مصاف الدول العظمى االتي تمتلك حالياً صناعة السلاح ، وهو الذي مكّنها من أن تكون أقوى الدول وأعتاها وجعلها تتحكم في مصائر الشعوب الصغيرة المستضعفة . .

وإذا كانت مثل هذه القدرات بحاجة إلى الإمكانيات المالية ، فإنّ رسولَ الله «ﷺ» قد أمّن الجانب المالي بما وضع من إلزامات مالية على عاتق جميع الرعايا في دولته ، من مسلمين وغير مسلمين ، وبما فرض من ضرائب ورسوم على الأراضي والثمار والماشية ، وذلك عن طريق الزكاة والضرائب والفيء والخراج والجزية وعلى أن توزع

حصيلة تلك الأموال أو تصرف وفقاً للغايات المعينة لها ، بينما توزع أموال الزكاة على الأشخاص الثمانية الذين عيَّنهم القرآن الكريم دون غيرهم لقوله تعالى : ﴿ **إنما الصَّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾ .

تلك بعض الملامح الوجيزة عن الإدارة الرشيدة للدولة ، والرعاية الحكيمة لشؤون الناس ، كما أقامها خاتم النبيين «ﷺ» وأرسى لها القواعد القويمة ، وأشادَ لها البنيان المرصوص . ويكفي الحاكم المسلم أن يهتدي إلى كتاب الله المبين ، وأن يقتدي بسيرة رسوله الكريم ، حتى يَصْلُحَ ويُصلِحَ أحوال العباد بما يُرضي الله ورسولَهُ . ولا نظنُّ حكماً يقوم على القرآن الكريم وعلى سنَّة النبي محمد «ﷺ» إلاَّ ويكون أمثل حكم في الأرض ، لأنه يستقي من الينابيع الصافية الأصيلة ، ويستوحي من المصادر الشريفة الوحيدة . .



حجة الوداع

لكل جماعة بشرية عاداتها وتقاليدها التي تفرضها طبيعة الوسط الذي تعيش فيه ، كما أن لها طقوسها وشعائرها التي تنبع عن العقيدة أو النظرة الدينية التي بها تؤمن .

ويتصرف المرء عادة وفق المعطيات المجتمعية التي تسود حياته ، ولا سيما فيما يخضع له من قوانين وأعراف ، إلاَّ أنه يبقى متميّزاً بسلوكه عن غيره ، بمقدار ما تؤثر فيه أحكام عقيدته الدينية وفرائضها . وعلى هذا فإنَّ من يجعل للإيمان الديني المقامَ الأولَ في حياته يكون هو الإنسان الأمثلَ خُلُقاً واستقامة ، والأنفع لنفسه وأبناء مجتمعه ، بل وللإنسانية بأسرها ، وما ذلك إلاَّ لنظرته الخاصة إلى الماديات ، واعتقاده الدائم بأنها قليلة الشأن ، مهما كان لها من أهمية تؤثر على مجرى حياته ، وتَعاطيه مع الواقع ، إذ تبقى عنده ، غير مؤهلة لأن تبعث في نفسه تلك السعادة الحقة التي يحياها في ساعة انصراف إلى العبادة أو إخلادٍ إلى التقوى ، ولا ذلك الشعور بالاطمئنان الذي يواكبه ، ويجعله نقيَّ الضمير ، صافيَ التعامل . . ومن هنا كانت أهمية الدين في حياة الأفراد ، كما في حياة الجماعات . . ومن هنا كان تطلع الإنسان ، مُذ وُجد على هذه الكرة الأرضية ، إلى قوة غيبيَّة ، يؤمن بأنها هي سيدة الكون ، وهي

وحدها قادرة على تسييره والتحكم بمصيره . وعن هذا الاعتقاد بوجود تلك القوة المهيمنة انبثقت عبادات الناس ، وكانت لكل جماعة الطقوس والشعائر الخاصة التي تمارسها .

على أن ما صادف الإنسان في مسيرته الحياتية ، جَعَلَهُ يتباعد شيئاً فشيئاً عن التمسك بالإيمان الديني ، ويولغُ في المادة بحثاً عن تطلعات كثيرة ومتنوعة ، وكأنه خالدٌ في هذه الحياة الدنيا أبداً ، غير قانع بما يحقق وغير متفكر بأنَّ كل شيء إلى زوال ، وأن دنياه هذه هي دار بلاءٍ وفناء ، لا دارَ سعادةٍ وبقاء ... ومن هنا نرى الناس ، معظمهم يتبّرمون من هذه الحياة ويشكُون مما يلاقون من همّ وما يعانون من شقاء ، وفي ظنّهم أنهم ظُلِمُوا بالنسبة الى غيرهم من أقرانهم من بني البشر .. ومثل هذه الظنون مخالفة للحقيقة ، لأنهم لو اطّلعوا على سريرة غيرهم ، ودخائل من يغبطونهم على عيشهم لوجدوا أن معاناة هؤلاء لا تقل عن معاناتهم ، بل قد يشفقون على الكثيرين منهم ، وبالتالي يحمدون الله على ما هم عليه من عيش كريم ، ويوقنون أنهم ، وسواهم ما خلقوا للهوٍ وعبث ، ولا لنيل أكبر قسط من المتعة بإشباع الشهوات ، بل خلقوا في دار بلاء ، وما عليهم إلاَّ الإقرار بهذا الواقع ، وتغيير أنماط عيشهم على أساس أن هذه الدنيا ليست للراحة والقرار ، ولا للسعادة والبقاء ... ولئن أدركوا هذه الحقيقة فإنهم لا يتأففون بعدها ولا يتذمَّرون ، بل يحيَون راضين بحكم ربهم ، سائلين المولى عند كل نازلة تحل بديارهم أن يلطف بهم ويرحمهم ، لأنه هو الرحمن الرحيم ..

ومثل هذا الإطار العام للحياة الذي يجمع ما بين الماديات

والروحانيات ، لم يخرج عنه سكان شبه جزيرة العرب في قديم حياتهم ولذلك كانت لهم نظرتهم الدينية التي تقوم على معرفة الله سبحانه وتعالى ، والايمان بأنه هو صاحب القدرة والمقام الأسمى ، إلاّ أنهمْ أشركوا بهذا الايمان ، ولم يهتدوا الى طريقه الصحيح ، فاتخذوا من الانصاب والأزلام والأصنام والأوثان ، زلفى تقرّبهم إلى الله ، ولذلك دانوا لها بالولاء والطاعة . . على أن شيئاً واحداً ظلّ العرب يُجمعون عليه ، رغم عقيدة الشرك التي اعتنقوها ، وهو بقاؤهم على سنَّة ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - في تقديس الكعبة واعتبارها بيت الله الحرام ، فكانوا يحجون إليها كل عام ، ويُقيمون في رحابها ومن حولها المناسك التي توارثوها عن الآباء والأجداد ، والشعائر التي وصلت اليهم بتعاقب الأجيال . . وجاءَ الإسلام فأبقى للكعبة الشريفة حرمتها وقدسيتها ، بل وزادَها رفعةً ومقاماً بأن جعلها قبلةً للمسلمين ، وجعلَ زيارة البيت الحرام فريضة من فرائض شريعتهم ، بحيث يحجُّ إلى هذا البيت وكعبته كلٌّ من استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ولم تنحصر نظرة الإسلام بالحج إلى بيت الله على أنه فريضة وحسب ، قوامها الإيمان بالله الواحد الأحد ، وعمادها الطهارة والإخلاص في العبودية بعيداً عن موبقات المادة والتمسك بأعراض الدنيا ، بل تعدتها إلى نواحٍ حياتية لا تقلُّ أهمية عن الناحية الدينية ، ومنها أن الحجّ وحده هو الذي يحقق المساواة التامة والفعلية في أوضح مظاهرها وأجلاها ، وهو الذي يفرض على المسلمين الاجتماع للتشاور والبحث في شؤون الدعوة وشؤون المسلمين ،

والتعرف إلى مشكلاتهم ، وطرح الحلول لها ، وذلك من خلال هذا المؤتمر العام الذي فُرِضَ أن تكون رحاب الكعبة الشريفة مكانه الطبيعي ، وأن يسودَ هذا المؤتمر روح إسلامية صرف ، بحيث تأتي نتائجه إيجابية كلها ، ولا ينبعث عنها إلاَّ الخير والنفع العميم . .

هذا على الصعيد الإسلامي العام ، أما على الصعيد الفردي ، فإن نظرة الإسلام إلى الحج ترمي إلى وضع الفرد أمام محاسبة دقيقة للنفس ، فيها يستذكر ماضي أيامه كلها ، ويراجع ما أتاه من خير أو شر ، وما قدمه من نفع أو ضرر ، فيوطِّن النفس على متابعة عمل الخير والنفع ، ويتعهّد أمام الله سبحانه بالتوبة عن المعصية والخطأ ، وإنَّ في ذلك إخلاصاً للخالق لا يتناهى ، وسموّاً بالنفس لا يُدانى ، وتقويماً لمسيرة الحياة لا يُضاهى . .

وإذا كان هذا هو معنى الحج إلى بيت الله الحرام ، بروحيته العامة والخاصة ، فإنَّ هذا المعنى قد بدأ يغيب عن أذهان المسلمين رويداً رويداً ، وبات الحج فريضة واجبة ، يسعى الكثيرون إليها ، دون التمسك بأهدافها وغاياتها ، حتى لنجدنَّ كثيراً ممن حجُّوا ، قد عادوا ولم يبقَ في نفوسهم ، أيُ أثر لذلك التعهد أمام الله تعالى ، وحتى لنرينَّ بأن الروحية الإسلامية الجامعة لإيجاد سبل الصلاح لأحوال المسلمين قد فقدت وغاب مؤتمرهم العام ، الذي فيه وحدة أهدافهم وتطلعاتهم ، والذي وجب أن يكون أهم ما يعمل على تحقيقه المسلمون بل وإنجاحه بشتى الوسائل والسبل . . .

واذا كان الإسلام قد أكَّدَ على هذه النظرة الشمولية للحجّ ،

وفقاً لما أرادَهُ الله سبحانه ، فإننا عرفنا بأنه تَعالى قد أفْسحَ في المجال ، حتى سنة تسع هجرية ، للمسلمين وغير المسلمين ، بزيارة البيتِ الحرام ، فكان الناس يجتمعون في الموسم على عادات متضاربة وعلى شعائر متناقضة ، حتى إذا آن الأوان ، وأُبلغت « براءة » وَجَبَ التفريق بين المسلم والمشرك ، ووجب أن لا يحَجّ إلى الكعبة إلاَّ من اتخذ الإسلام ديناً ، ما دامت روحية الحجّ تعنيهم وحدَهم ، دون غيرهم ، وما دامت الأهداف التي يرمي إليها تترتّب على عاتقهم دون سواهم . . .

ولم تكن المناسك والشعائر حتى تلك السنة قد توضحت معالمُها بالشكل السَّوِي ، ولذلك كان لا بد أن يشهد الحجَّ رسولُ الله «ﷺ» حتى يبيِّن للناس الطريق التي يسيرون عليها في حجهم ، والسُّنَّةَ التي يقتدون بها في إقامة مناسكهم وعباداتهم . ولم يكن عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام قد حجَّ من قبل الحجَّ الأكبر ، وإن كان قد اعتمر ، وحج الحجَّ الأصغر مرتَين . ولذلك رأى بثاقب بصيرته ، وبهداية ربه ، أنَّ عليه أن يحُجَّ بالناس ، ولقد دعاه إلى ذلك برهان ربه ، إذ كان الاسلام قد أكمل انتشاره في ربوع شبه الجزيرة ، وأصبحت تلك البقاعُ أمةً واحدةً يظلّلها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله «ﷺ» ، وتدينُ كلها بدين واحد هو الاسلام ، وتتجهُ قلُوبها جميعاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، بعد أن طُهّرَتْ من رجس الوثنية ، واستراحت الى حكم الديَّان . . هذا البرهان الربَّاني استجاب له الرسول الأعظم ، فلمَّا هلَّ ذو القعدة من سنة عشر للهجرة أذَّنَ في الناس للحجّ ، وراح يتجهّز

له ، وفي مقاصده أن يشهد الناسُ كيفية قيامه بالمناسك ، وطريقة أدائه للشعائر ، حتى تبقى لهم السُّنة النبويَّة قائمة على مدى الزمان ، وأن يسمعوا منه كلمة جامعة عن الدِّين الذي بعثه الله تعالى به ، فيكون ما قام به أمامهم ، وما سمعوه من قوله ، الطريقَ الذي يهديهم إلى الحق ، والسبيلَ الذي يقودهم إلى الرشاد ، والجُنَّة التي يعتصمون بها عند الزلل ، ويسترشدون بها من الضلال . .

وما كاد الناس يعرفون ما صحَّ عليه عزم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ودعوته إياهم للحج معه ، حتى انتشرت تلك الدعوة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية ، فأقبل الناس على المدينة المنوّرة - عاصمة الدولة وقاعدة حكمها - ألوفاً مؤلفة ، جاؤوها من كل حدب وصوب ، من المدائن والبوادي ، ومن الجبال والصحارى ، ومن كل بقعة من أراضي هذه الدولة المترامية الأطراف ، والتي أنارها الاسلام بنور الله ، وبهَدْيِ رسوله الكريم . . وحول المدينة المنوّرة ضربت الخيام لأعداد كبيرة ، ولجموع غفيرة ، تزيد على تسعين ألفاً من الناس ، جاؤوا يلبُّون دعوة نبيِّهم ، وقد جمعت بينهم أخوَّة الإسلام ، بعد أن كانوا إلى سنواتٍ خلت أعداءً متنافرين .

وراحت تلك الألوف تجوس خلال المدينة - مدينة الرسول الحبيب إلى قلوب أصحابها - وكلٌّ منهم كان مطمئن النفس ، هانىء البال ، فيّاض الشعور ، لأنَّ في اجتماعهم هذا أكبر برهان على انتصار الحق ، وانتشار نور الله انتشاراً قلَّ نظيره في الوجود ، حتى جمع بينهم على تلك الرابطة واللُّحمة ، وجعلهم جميعاً كالْبُنيان المرصوص .

وحلَّ الخامس والعشرون من ذي القعدة في تلك السنة ، فكان يوم سبت ، وفيه خرج رسول الله ﴿ﷺ﴾ قاصداً بيت الله الحرام ، وقد أخذ معه نساءه جميعاً ، وابنته فاطمة الزهراء ـ عليهن السلام ـ وكانت كل واحدة منهنّ في محفَّة خاصة بها بعد أن كتب إلى علي (ع) ان يتوجّه الى الحج من اليمن ، فيلاقيه هناك .

وسارَ الرسول الأعظم في ذلك الجمع الزاخر من المسلمين ، وقد ملأت قلوبهم الغبطة وبدا على وجوههم الإشراق ، ما داموا يتوجهون إلى بيت الله الحرام ، ويؤدون برفقة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فريضة الحج الأكبر . وبلغ الحجيج « ذا الحليفة » فنزل به النبي ﴿ﷺ﴾ هناك وأقاموا ليلتهم ، حتى إذا أصبحوا أحرم النبيُّ ﴿ﷺ﴾ وأحرم معه المسلمون ، فلبس كل واحد إزاره ورداءه ، وصاروا بزي واحد ، هو أبسط ما يكون زيّاً ، ولكنّه الزيُّ الذي يحقق المساواة بأحلى مظاهرها وأسمى معانيها . وبعد الإحرام ركب الرسول ﴿ﷺ﴾ ناقته ، فلما استوى عليها وهمّت به قائمة ، رفع صوته ملبّياً ، فصاح الناسُ جميعاً ، من شتى أنحاء هذا البحر المتماوج من البشر ، وبصوت واحد : « لَبيّك اللّهمَّ لَبيّك ، لَبيك لا شريك لك لَبيك ، إنَّ الحمد والنعمةَ لك والمُلك ، لا شريك لك » . وتجاوبت البطاح والهضاب للنداء يُدوِّي في فضائها الواسع ، وانطلقت مسيرة السلام في دروب الصحراء سعياً إلى بيت الله الحرام ، فخشع كل ما في تلك الدروب ، من إنسٍ ووحشٍ وطير ، يسبِّح لله في مسيرة خلقه إليه ، مسيرة الأمان والاطمئنان لكل شيء ، ومسيرة السلام والوئام لكل حي .

إنه خشوع الخلائق لهذه الجموع من المؤمنين الذين جاؤوا يسعون إلى رضاء ربهم ، وفي جوارحهم الشوق يحدوهم الى بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً . . وإنه تسبيح لهذه الألوف المؤلفة من المسلمين الذين تدفقوا في الصحراء ، لا يصعدون نجداً ولا يهبطون واديا من الأرض ، ولا ينزلون منزلاً أو يقيمون صلاة ، ولا يستذكرون حادثاً أو يرون مظهراً من مظاهر الطبيعة التي خلقها الله تعالى ، وبثَّ فيها الرونق والجمالَ ، إلاَّ وانطلقت أصواتهم تعجُّ بالتلبية ، وألسنتهم تهلل بالتوحيد . .

هكذا انطلق ركب الحجيج بقيادة رسول الإسلام ، وشعاره السلام لكل ما في الوجود . . أو ليس هو السلام الذي لا ينوي غدراً بأحد ، ولا يُضمر شراً لمخلوق . . أو ليس هو ركب الإيمان الذي لا يحمل سلاحاً يخيف به الإنسان ، أو يمتشق أداة يؤذي بها الحيوان ، أو يعتمد وسيلة يهيج بها الطيرَ ويقطع الشجر ، ويتلف الزرع ، أو يحقّر الجهاد ؟! نعم إنه هو السلام الحقيقي ، لأنه سلام الإسلام ، فحقٌ أن تكون مسيرتُه شعارَ البشرية للسلام ، وحقٌ أن يكون ركبُه ركبَ الحضارة الإنسانية ، بل ركبَ الوجود الإنساني بأسره في تطلعه نحو أسمى الغايات وأشرف المرامي . . إنه سلام الإسلام الذي وحده يجب أن تعرفه الأرض وعليه تبني محبتها ، ما دام هو السلام الذي يقوم على الإيمان بالله الذي لا شريك له ويقرٌ بالعبودية له وحده ، ويتطلع إلى استجلاب رأفته ورحمته بعباده وخلائقه كلها ، ألا إنه هو الرحمن الرحيم ، الغفور الحليم ، والرؤوف بالناس أجمعين . .

وإذا كان هذا هو سلام محمد «ﷺ» في مسيرته بالناس إلى الحجّ ، فأي معنى للسلام من بعده ؟! . . .

يتحدث الناسُ في أيامنا هذه ، وفي أواخر القرن العشرين ، عن السلام ، ويتطلعون إلى تحقيقه على وجه الأرض ، ولقد أقاموا من أجل ذلك المنظمات الكثيرة ، وعقدوا المعاهدات ، وأوثقوا الاتفاقات ، ومع هذا كله ، ورغم ما بذلوا من جهود وما وجَّهوا من دعوات ، هل رأينا بأن السلام قد تحقق فعلاً ، وعاشَ الناس بالأمان الذي ينشدون ؟! . . .

لا ، لا نوارب الحقيقة ، ولا نخالف الواقع ، إن قلنا بأنَّ إنسان اليوم لا يعرف السلام ، فلا السلام النفسي متوفر ، ولا السلام المادي قائم . . لقد سادت المفاهيم التي قسّمت الناسَ إلى عوالم ، منها المتخلف والنامي والمتقدم ، وليس في عالمٍ منها سلام حقيقي . فالموصوفون بالعالم الثالث ، وهم المتخلفون حتىَ على طريق النمو ، يعيشون دوماً على الحروب والأزمات ، لا تهدأ في بلد حتى تنشب في بلد آخر ، وكلهم خوف وقلق على المصير ، حتى لا يأمن الإنسان بأنَّ غدَهُ قد يطلع عليه وهو مطمئن تماما إلى خلوّه من المصاعب والمآزق الناجمة عن أزماته المتواصلة ، فباتت حياته كلها لا تعرف الاستقرار وتقوم على الخوف والحذر والترقّب . . وإذا كان هذا هو سلام العالم الثالث الذي يفرز الثورات والانقلابات والحروب ، والقلق على المصير ، فإنَّ سلام العالَم الآخر ، الموصوف بعالم التمدّن والرقي ، وبعالم التصنيع والاختراع ، ليس أفضل ولا أحسن ، ففي نفس إنسانه عشّشت التعاسة ، وفي

محيطه استشرت الأمراض العصبية ، وداهمه التحلّل الخلقي والتفسّخ العائلي حتى ضاع عن حقيقة وجوده ، وبات في حرب مع نفسه قد تكون أشدّ وأعتى من حروب النار والحديد . .

إنه الواقع الأليم الذي يعاصره الإنسان في كل مجتمع ، وفي كل بقعة منْ الأرض ، لا يعرف معنى للارتياح ، ولا يشعر بالأمان لأنّ السلام الحق قد غاب عنه . واذا كانت وراء ذلك أسباب عديدة ومتنوعة ، فإنّ أهمها يبقى على الاطلاق تباعد الإنسان عن الايمان الديني ، ومجافاته للحياة الروحانية الصحيحة . ومن هنا كان السلام الذي برز في مسيرة النبيّ محمد «ﷺ» بالناس إلى الحجّ هو السلام الذي ينشده الإنسان ، لأنّ تلك المسيرة قد عمرها الإيمان ، فجمعت جحافل من الناس ، قد يختلفون في ظروف حياتهم وطرق عيشهم إلاّ أنهم أصحاب إيمان واحد ، بعقيدة واحدة ، وقد جاء كل منهم يواكب تلك المسيرة بنفسٍ تجرّدت عن النوازع والشهوات ، وترفّعت عن فوارق الطبقات ، وتخلّت عن أعراض الدنيا ، فأيقنت بأنه لا رفث في الحج ولا فسوق، ولا جدال ولا خصام ، ولا أسود ولا أبيض ، ولا غني ولا فقير ، بل إخوة متحابون بالله ورسوله ، وأبناء درب سويّ زادُهُم التقوى وغايتهم رضوان الله تعالى . . .

وما أكرمه من زاد ، وما أعظمها من غاية ، إنها مبعث الاطمئنان حقاً ، ومنبع السعادة فعلاً ، لكل إنسان أراد أن يهتدي بالايمان ويسير على دروبه الخيّرة ، كما يفرض ذلك الإسلام بروحية عقيدته ، وجوهر حجّه . . وبمثل هذا السلام انطلقت تلك المسيرة

الإسلامية العظيمة بقيادة رسول الله «ﷺ» ومقصدها بيت الله الحرام في مكة ، وراحت تسيل في طريقها على تلك النفحات الإيمانية ، حتى بلغت الجموعُ سرَفاً (وهي محلة بين المدينة ومكة) فنادى الرسول «ﷺ» منبّهاً الناس : أنَّ من كان معه هدْيٌ فهو حاجٌّ ، ومن لم يسُقِ الهَدْيَ فَلْيَجعلها عمرةً لأنَّهُ لا حجَّ بلا هَدْي . . وقد ضرب المثلَ بنفسه ، إذ ساق معه يوم خروجه ستاً وستين بدنةً جعلها هدياً له . .

وامتثلَ الناسُ لنداء النبيِّ «ﷺ» وعقدوا النوايا ، فمنهم من نوى الحجَّ ، ومنهم من نوى العمرة ، ثم تتابَعَ السيرُ حتى بلغوا مشارف مكة ، فالتقاهم علي بن أبي طالب (ع) وقد جاءَ من اليمن نزولاً عند أمر رسول الله «ﷺ» بعد أن قادَ جيشه معه ، إلاَّ أنه خلَّفه وراءه وجعَلَ عليه أحد فرسانه ، كي يعجِّل للقاء حبيبه محمد «ﷺ» ويرتاح للاجتماع به والايناس بقربه . وما أن رآه النبي «ﷺ» مقبلاً عليه حتى شاعت نفسه بالفرحة ، وانبسطت أساريره الطاهرة برؤيته ، فأجلسه بجانبه يتقصّى أخباره ويقف على ما فعل باليمن ، فأفاضَ له علي (ع) ببسط كل ما جرى معه ، منذ أن غادرَ المدينة حتى عودته هذه الساعة ، فأثنى رسول الله «ﷺ» على همته ، ودعا له بالتوفيق ، ثم سأله بماذا أهلَلَ ، فقال علي (ع): « لم تكتب لي إهلالك يا رسول الله ، ولا أنا عرفته ، ولكنني عقدت نيتي بنيتك ، فقلت حين أحرمت : اللهم إني أُهِلُّ بما أهَلَّ به نبيك وعبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وآله وسلّم » . . واطمأنَّ النبي «ﷺ» لإهلال علي (ع) ، ولكنه عادَ وسأله :

« وهل معك هدي » ؟

فأجاب : نعم ، لقد سقت معي أربعاً وثلاثين بدنة . .

فقال النبي (ﷺ) : « الله أكبر ، قد سُقْتُ معي ستاً وستين بدنة ، فأنت شريكي في حجي ومناسكي وهديي ، فأقم على إحرامك وعد الى جيشك ، فعجل بهم حتى نجتمع بمكة إن شاء الله تعالى » .

وانطلق عليٌّ شريك النبي محمد (ﷺ) في حجه الأكبر عائداً الى جيشه ، فوجَدَ الرجل الذي استخلفه عليه قد جعل لكل فرد من أفراده حلةً من البز يكتسي بها ، فأدهشَهُ هذا التصرف غير المسؤول ، ودفعه لأن يغضب فصرخ في الرجل : « ويلك ما هذا » ؟! . .

قال : كسوت الجند لكي يتجمّلوا به اذا قدموا في الناس .

قال له علي (ع) : « ويلك يا هذا ! إنزع عنهم هذه الحلل قبل أن ننتهي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم . .

وعلى الفور سارع الجنود يخلعون ما لبسوا من حلل امتثالاً لأمر قائدهم علي (ع) الذي أبى أن يركبَ الناسُ النعام أو أن يلبسوا الأثوابَ التي جمعها من الصدقات والجزيات ، لأنها كانت ما تزال أموالاً عامة ولم تجر عليها القسمةُ بعدُ . وإذا كان تصرّف علي (ع) هو تصرف المسؤول الحكيم ، الذي يخافُ الله ورسولَهُ ، ويحرص على المال العام حرصَهُ على نفسه وأشدّ ، فإنّ تصرّفه هذا لم يعجب جيشه ، فراح يبدي التذمرّ ، ويظهر الشكوى ، وما

انفكَّ على تلك الحالة ، بعد دخوله مكة والقيام بفرائض الحج ، حتى بلغت شكواه مسامع النبي «ﷺ» ، فقال موضحاً للناس جميعاً : « لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله ، وفي سبيل الله » .

هذا ما كان من أمر علي (ع) مع جنده . أما النبي «ﷺ» فكان قد بلغ في مسيرته « طوىً » فنزل فيها وبات ليلته ، ثم قام في صبيحة اليوم التالي ، الرابع من ذي الحجة ، فاغتسل ومضى على حجه ، فدخَلَ مكة نهارَ ذلك اليوم ، ووجهتُه بيتُ الله الحرام ، فلما إن أقبل عليه حتى رفع يديه نحو السماء بالدعاء ، وقال : « اللّهم زد هذا البيت تعظيماً وتشريفاً ومهابة ، وزد من عظّمه ـ ممّن حجّهُ واعتمرَهُ ـ تعظيماً وتشريفاً وتكريماً وبراً » . . وتابَعَ صلوات الله عليه وعلى آله تقدُّمه نحو البيت العتيق ، ولسانه يلهج بالشكر لله سبحانه وتعالى ، وبالدعاء والتلاوة المباركة حتى بلَغَ المسجد الحرام ، فنزل يطوف حول البيت سبعة أشواط ، ثم يعقبها بصلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم (ع) وبعد هذه الصلاة انطلق الى السعي بين الصفا والمروة حتى إذا أتمَّ سعيَهُ استراحَ وقصرَّ من شَعره واظافره ، ثُمَّ أعلَن في الناس أنَّ على من لم يَسُقْ معه هدْياً أن يتحلل من إحرامه إلى يوم التروية - وهو اليوم الثامن من ذي الحجة - وبعده يهِلُّ بالحجِّ مذ أن يخرج إلى منى .

وانقضت أول أربعة أيام من الحج والنبي «ﷺ» قائمٌ في مكة يصلي ويطوف ويسعى ؛ وفي أصيل يوم التروية وعندما مالت شمس الثامن من ذي الحجة إلى المغيب ذهَبَ النبيُّ «ﷺ» إلى منىً ، فأقام

بخيامه فيها وقضى الليل حتى مطلع الفجر ، فقام يصلي حتى بزغت الشمس ، فركب ناقته القصواء ويـمـّمَ بها جبل عرفات والناسُ من ورائه ، فلـّما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته وهم يُلَبُّون،وضُربت للنبيّ «ﷺ» قبة بِنَمِرة (قرية بشرق عرفات) ثم طلب ناقته القصواء فركبها الى بطن الوادي من عرفة ، وهنالك وقف على راحلته ، ثم نادى في الناس أن يجتمعوا إليه . .

وانطلق نداء النبي «ﷺ» يطرق أسماعَ الألوف ، فهبّت تلبي النداء ، وعلى عجل تراصّتِ الصفوف ، وحدّقت العيون وأصاخت الآذان ، إلى حيث يقف نبيٌّ الهدى والإيمان ، فإذا بتلك الجموع تستمع إلى خطبة جامعة منه ، كان يلقيها وربيعة بن أمية بن خلف ، الجهوري الصوت ، يردِّدُ كل كُلمة منها ، حتى لا يفرت على السامعين شيء منها قطٌّ . .

وبدأ رسولُ الله «ﷺ» خطبته تلك بحمد الله تعالى والثناء عليه ، ثم راح يبيّن ما يريد بيانه للناس ، فقال : لعليٌّ لا ألقاكم بعد عامي هذا .

« أيها الناس ، أتدرون في أي شهر أنتم ، وفي أي يوم أنتم ، وفي أي بلد أنتم » ؟

ورددت الجماهير : « في شهر حرام ، وفي يوم حرام ، وبلد حرام » . .

قال النبيٌّ «ﷺ» : « فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم

هذا ، في بلدكم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . . ألا هل بلَّغت » . .

قالوا : نعم .

قال ﴿ﷺ﴾ : « اللهم اشهد » . .

ثم تابع يقول : « ألا ومَنْ كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائْتَمَنَهُ عليها . ألا وإنَّ كل ربا في الجاهلية موضوع (مهدور) . ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ، قضى الله تعالى أنه لا ربا ، وإنَّ أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، فهو موضوع كله . وإنَّ كل دم في الجاهلية موضوع ، وإنَّ أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . ألا هل بلَّغت » ؟

قال الناس : نعم

قال الرسول ﴿ﷺ﴾ : « اللَّهم اشهد » .

وتابع رسول الله ﴿ﷺ﴾ خطبته فقال : « أيها الناس إنما النسيء[1] زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً ليواطئوا عِدَّةَ ما حرَّم الله فيحلوا ما حرَّم الله ويُحَرِّموا ما أحلَّ الله .

« وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات

---

(١) كان العرب في الجاهلية يبادلون بين الأشهر الحرم فيحلون بعضها عاماً ، ويحرمون بعضها عاماً آخر ، تبعاً لأهوائهم ، فنهاهم الرسولُ (ﷺ) عن ذلك .

والأرض ، وإن عـدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهـراً منهـا أربعـة حُـرُم ، ثلاثة متوالية ، ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان . ذلك الـدِّين القيِّـم فلا تظلمـوا فيهـن أنفسكم ، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . . ألا هل بـلَّـغت » ؟

قالوا : نعم .

قال ﴿ﷺ﴾ : الـلَّـهم اشهد . .

ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقاً ولهـنّ عليكم حقـاً ، لكم عليهـنّ ألاَّ يُـوطِئْـنَ فُـرُشَـكم أحـداً تكرهونه ، وألاَّ يُـدْخِـلْـنَ بيوتكم أحداً إلاَّ بإذنـكم ، وعليهـن ألاَّ يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرّح ، فان انتهين فلهـنَّ رزقهنَّ وكسـوتُهـنَّ بالمعـروف فإنهـنَّ عنـدكم عوانٍ[1] لا يملـكن لأنفسهـن شيئاً ، وإنـكم إنمـا أخذتمـوهـنَّ بأمانـة الله واستحللتـم فُروجَـهـن بكلمات الله ، فاتَّـقوا الله في النساء ، واستوصوا بهـنّ خيراً . . ألا هل بـلَّـغت » ؟

قالوا : نعم .

قال ﴿ﷺ﴾ : « اللهم اشهد » .

ثم عادَ يخطبهم فقال : « أيها الناس ، إنما المؤمنون أخـوة ،

---

(١) عوان : أسرى أو كالأسرى ، الواحدة عانية .

ولا يحل لامرىء مال أخيه إلاَّ عن طيب نفس منه فلا تَـظلموا أنفسكم أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضـلٌ على أعجمي إلاَّ بالتقوى . . ألا هل بـلَّغت » ؟

قالوا : نعم .

قال «ﷺ» : « اللَّهم أشهد » .

وتابع يقول : « أيها الناس ، إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبدَ بأرضكم هذه ، ولكنـه إنْ يُـطَعْ فيما سوى ذلك فقـد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بـلَّغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلـوا أبداً ، أمراً بيِّـناً : كتاب الله وسنَّـة رسوله وإنكم ستسألون عنهما فما أنتم قائلون » ؟

وردد المسلمـون : « نشهـد أنـك قد بلّغـت وأديت ونصحت » . فجعـل الرسـول «ﷺ» يشير بإصبعـه السبابـة إلى السماء ، ثم إلى النـاس ، وهـو يقـول : اللَّهـم اشهـد ، اللَّهـم اشهد » . . فلما فرغ الناس من الترداد ، قال : ألا فليبلغ الشاهد منـكم الغائـب ، فلعـلَّ من يبلغـه يكون أوعـى له من بعض من سمعه » .

كان النبي «ﷺ» يلقي هذه الخطبة الجامعة وربيعة واقفاً تحت صدر ناقته ينقلها الى الناس ، حتى إذا فرغ نزل عن ناقته القصواء ، وأمَرَ بلالاً فأذّن للصلاة ، ثم تقدم يصلّـي بالجموع ، فجمع بين

الظهر والعصر . وراح يتلو القرآن الكريم ويكثر من الدعاء لله تعالى والاستغفار لربه ، وما زال على تلاوته ودعائه واستغفاره حتى غابت الشمس ، وذهبت صفرتُها من السماء ، فأفاض من عرفات ، وأفاض الناسَ معه إلى المزدلفة ، وهو لا يفتأ يوصي بالسكينة والرفق في السير ، وبألاّ يغلب قويّهم ضعيفهم . وفي المزدلفة صلّى جامعاً بين المغرب والعشاء ، ثم استراح يقضي ليلهُ هناك ، فلما كان الغدُ صلىّ الفجر ، ثم ركب ناقته وأتى المشعر الحرام[1] ، فوقف يدعو ويكبّر ويهلل حتى أسفر الصبح وبان النهار ، فخرج من المشعر الحرام الى منىً بعد شروق الشمس . وهنالك استقبل العقبة الكبرى[2] أي مكان رمي الجمرات ، فرمى بها سبع حَصَيات كان قد جمعها من المزدلفة . وبعد هذا الرمي ذهب إلى خيامه بمنىً ، فَنَحَرَ ثلاثاً وستين بدنة ، واحدةً عن كل سنة من سني عمره الشريف على هذه الأرض ، ثم طلب إلى علي (ع) أن ينحرَ باقيَ الْهَدْي وما ساق معه هو الآخر .. وبعد النحر أحلّ النبي ﴿ﷺ﴾ من إحرامه ، فحلق رأسه وقصّ أظافره ، وتطيّب ولبس ثيابه ليعود إلى ما كان عليه قبل إحرامه ، وبذلك أتمّ النبيُّ ﴿ﷺ﴾ حجَّه ، ثم نادى مناديه في الناس : إنها أيام أكل وشرب وحلّ ..

وكان الرسول ﴿ﷺ﴾ بعد ذلك يرمي الجمار عند زوال الشمس من كل نهار ، حتى مرَّت أيام التشريق الثلاثة : الثاني والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى المبارك ، عادَ بعدها إلى مكة ليودّعَ

(١) المشعر الحرام مكان بين المزدلفة ومنى .
(٢) توجد ثلاث عقبات . الكبرى والوسطى والصغرى .

البيت الحرام ، ويقفل راجعاً إلى مدينته المنوّرة . . وأثناء الطريق ، وعندما وصَلَ إلى « غدير خُم » - وهو مكان قريب من الجحفة - أمَرَ الرسولُ «ﷺ» الناس بالنزول ، فنزلوا ، واختار مكاناً له تحت شجرة ، فسوّوه ونظفوه ، فاستراح فيه إلى أن حلّت صلاة الظهر ، فنودي إلى صلاة جامعة ، حتى أنهى الرسول «ﷺ» تلك الصلاة دعا عليّ بن أبي طالب (ع) إلى جانبه ، ثم أمر المؤمنين أن يُصغوا إليه ، ورانَ السكوت على الناس ، كما في عادتهم ، عندما يدعوهم نبيُّهم الكريم للاستماع اليه ، فوقف وخطبهم بعد أن حَمَدَ الله وأثنى عليه ، فقال : « أيها الناس الستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ؟

قالت الجموع : بلى يا رسولَ الله .

قال «ﷺ» : « الستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه » ؟ ، فأجابت الجماهير : بلى يا رسول الله . .

وهنا أخذ النبي «ﷺ» بيد علي بن أبي طالب (عليه السلام) ورفعها حتى يرى الناسُ جميعاً ثم قال :

« من كنت مولاه ، فعليٌّ مولاه .اللّهمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه وَانْصُر مَن نصرَه ، واخذُلْ من خذَلَه » .

وفرح المسلمون بهذه التولية لعلي (ع) تأتيه من نبيِّ الله ورسوله الكريم ، فتقدموا يهنئونه على هذا الشرف العظيم وكان أول المتقدمين أخوه في الدين ، عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما وارضاهما - وهو يقول له :

« بخٍ بخٍ لك يا عليُّ ، أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة » .

ثم تبِعَه أبو بكر (رض) فهنَّأ علياً وقال لهِ كما قال عمر ابن الخطاب (رض) وازدحم الأصحاب على تهنئته ، يتقدَّمون إليه زرافات ووحداناً . والنبيُّ صلىً الله عليه وآله واقفٌ على ذلك كلّه يشهده ويباركه ، مغتبطاً مسروراً بأنه قد استجاب لدعوة ربه سبحانه وتعالى حين خاطبه قائلاً : «يا أيهًا الرسول بلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصِمُك من الناس » . . رفع الرسول «ﷺ» يديه إلى السماء فحمد الله وأثنى عليه ، وشكَرهُ على حسن توفيقه ، فنزل عليه جبرائيل الأمين بقوله تعالى : ﴿ أَلْيَومَ أَكْمَلْتُ لكم دِينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ . فقرأها النبيُّ صلىً الله عليه وآله على النَّاس وقال بعد تلاوتها : « الحمد لله على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضاء الرَّب » . فهلَّل الحجيجُ وكبَّر لاغتباط الرسول صلىً الله عليه وآله بأداء رسالته كاملةً غير منقوصة ، وحمدوا الله على توفيقهم لما فيه مرضاة الله سبحانه وتعالى ومرضاة رسوله «ﷺ» .

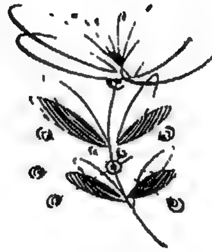
ومن « غدير خم » انطلق الركب عائداً الى المدينة المنوّرة ، بعدما أرى الرسول الأعظم الناسَ مناسكهم ، وأعلمهم سُنَنَ حجهم ، وبعدما خطب خطبته التي بيّن فيها بجوامع كَلِمِه ما بيَّن وأبلغ ما عنده واتمَّ . .

لقد حجَّ رسولُ الله «ﷺ» إلى بيت الله الحرام في السنة العاشرة من الهجرة ، ولكنها كانت هي حجته الأخيرة ، وفيها ودَّع الجموعَ الغفيرة من المسلمين عندما قال لهم : « لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً » ، ومن أجل ذلك سميت هذه الحجة ، حجة الوداع . على أنَّ بعضهم يسميها حجة البلاغ ، وآخرون يسمونها حجة الإسلام . وهي في الحقيقة ذلك كله . فقد كانت حجة الوداع لأنَّ النبي «ﷺ» لم يودع المسلمين وحسب ، بل لقد رأى فيها مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة . وكانت حجة البلاغ بلاغَهُ للناس بما أَمَرَه الله من أمور دينهم الذي ارتضاه لهم « وما محمد إلاَّ نذير وبشير لقوم يؤمنون » فقد بيَّن للناسَ شَرْعَ الله في الحج قولاً وفعلاً ، وببيان أحكام الحج ، يكون رسول الله «ﷺ» قد أوجز كل قواعد الإسلام وأحكامه ، وبذلك يكون قد أدى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، بصورة كاملة ، وأوصاهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب ، ليكونوا شهداء على الناس يبلغونهم ما بلّغهم رسول الله «ﷺ» ، كما كان هو شهيداً عليهم .

وهي حجة الإسلام ، لأنَّ الله تعالى أكمل فيها للناس دينَهُ وأتم عليهم نعمته .

وهكذا تكون هذه الحجة ذات معنى خاص ، وأهمية بالغة في حياة الإسلام ، إذ وضَعَ الرسولُ «ﷺ» أثناءها رسالتَهُ أمانةً في أعناق المسلمين ، يتناقلونها جيلاً بعد جيل ، ويتواصون بالمحافظة عليها والعمل بها دهراً بعد دهر ، ولأنها الأمانة الكبرى التي أوكلها

الله ورسولُـهُ إليهم ، فقد وجب عليهم أن ينشروها بين الناس بصدق ، وأن يبيِّنوا ما تشتمل عليه من خير ونفع لبني الإنسان ، باذلين من أجل ذلك المهَج والأنفس ، مُقْدِمين على الجهاد في سبيل إيصالها إلى القلوب والعقول ، حتى تعمَّ جميع أقطار الأرض ، وتشمل كل نواحيها ، فيجتمع البشر ، كل البشر على الدِّين الذي أراده الله ديناً للناس كافة ، وأكمله لهم ، حتى تكون بكماله قد تمت نعمته الكبرى على الناس كل الناس ، فيعيشون في ظلاله سعداء آمنين .



وفاة خاتم النبيين

محمد بن عبد الله «ﷺ»

أثناء العودة من حجة الوداع ، والناس وقوفاً بين يدي رسول الله «ﷺ» بغدير خم نزل البلاغ الأخير من الله رب العالمين إلى عباده وسائر خلقه ، بأنه ـ سبحانه ـ قد أكملَ لهم الدين ، وأتمَّ عليهم النعمةَ ، ورضي لهم الإسلام ديناً ، فرأى الناسُ النبي «ﷺ» مشرقَ الوجهِ سعيداً ، مطمئن النفس راضياً . .

ولقد كان الناس يسمعون النبيَّ «ﷺ» وهو في وسط ايام التشريق من حجه الأخير هذا ، أنه يكثر من تلاوة سورة النصر : ﴿ إذا جاءَ نصرُ الله والْفَتْحُ ، ورأيتَ النـاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ الله أَفْواجاً . فسبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً ﴾ .

على أنَّ النبي «ﷺ» لم يكن يكثر من تلاوة هذه الآيات بالذات ، وفي تلك الأيام المباركة عينها ، إلاَّ لأمر عرفَهُ وأيقن بحدوثه ، ألا وهو اقتراب أجله ، ولحوقه بالرفيق الأعلى . فآيات سورة النصر ، تحمل فيما تحمل ، الأمرَ له من ربه بأن يسبِّح بحمده ويستغفره ، وما هذا الاستغفار إلاَّ للتعبير عن العلاقة الوثيقة التي قامت بين محمد وربِّه ، منذ أن قُدِّرَ له ، وكان في علم الله وحده ، بأن يكون محمدٌ الرسولَ الأعظم ، وخاتم النبيين

والمرسلين ، وحتى يبقى هذا الاستغفار على مدى عمر الزمان ، الطريقَ الأمثَلَ الذي يربط ما بين السماء والأرض .

وإذا كانت آيات السورة تعبق بفوح النصر ، وتزهو بجلاله ، فإنَّ النصرَ من عند الله ، يؤتيه من يشاء ، وقد آتاه للنبيِّ محمد «ﷺ» في كل شيء : فيما وهبه من ذات إنسانية كاملة ، وما منحه من قوة على الاحتمال ، والائتمان على أكبر رسالة سماوية الى الأرض ، وهي الرسالة الخاتمة ، كما أن حاملها هو النبيُّ الخاتم .. فلا عجب إن كان جُلّ اهتمام الرسول «ﷺ» التسبيحَ بآلاءِ الله وحمده والاستغفار إليه في كل أمر ، والاستزادة في شكره والامتنان له على فضائله ونعمائه ، حتى ينطلق في تسبيحه واستغفاره وشكره ، من قيود الذات وتكون روحه معلقة بالملأ الأعلى ، وليس لها غاية إلاَّ محبة الله ومرضاته ..

ولقد شهد الناسُ على الأرض ، وشهدت الملائكة في السماء بأن رسولَ الهدى ، ونبيَّ الحق ، ما كان يوماً إلاَّ مسبحاً ومستغفراً وشاكراً حتى صلَّى الله عليه وملائكتُهُ في السماء ، وما عرفته الأرضُ والحياة والبشرية إلاَّ منطلقاً من قيود ذاته ، وتوجهه أبداً إلى الخير المطلق والحق المبين ، فكان جهادُهُ نصرةً للدين ، ومبدأه إحقاقاً للعدل ، وعقيدته إقراراً للعبودية ، وعمله عمارةً للأرض،وترقيته للحياة ترقيةً نظيفة ، وقيادته للبشرية قيادةً رشيدةً ، وقوام ذلك عنده ، والاتجاه فيه كله لله سبحانه وتعالى وحده ..

علامات كثيرة ظهرت في حجة الوداع وكانت توحي بأن سيدَ المرسلين ، وخاتَم النبيين ، قد قرب انتقاله الى الرفيق الأعلى ،

ولئن بدت تلك العلامات في أفق حياة النبيِّ «ﷺ» واضحة ، أثناء تلك الحجة ، فإنَّ كلَّ شيء بعدها بات يوحي به . . فهذه الرسالة الكبرى التي كُلِّف بها قد بُلِّغتْ ، والأمانة العظيمة التي عَهِدَ بها الله سبحانه إليه قد أُدِّيَتْ ، ثُمَّ إنَّ الوحيَ قد اكتمل ، والنعمة على عباد الله قد تَمَّتْ ، فهل بعدُ من شيء غيره لانتهاء المهمة ، والإخلاد الى الراحة في أسمى الرحاب التي يَعِدُ الله تعالى بها عبادَه الصالحين ، ويختارُ إليها أنبياءَهُ ورُسُلَهُ المصطفَين،وهي رحاب جنات عرضُها السموات والأرض حيثُ النعيمُ المقيم الأبدي . .

لا ، لم يبقَ بعدُ شيء إلاَّ أن يرتحل صاحب المهمة لملاقاة الباعثِ ، العزيز الرحيم ، وقد أحَبَّهُ من عليائه ، فقدَّر له أن يكون سَيِّدَ البرية ، وعنوانَ كمال البشرية ، فكانت الآيات الدّالة ، والعلامات المبيِّنة . .

وجاءت الأيام تصدِّق حقيقة تلك العلامات . فمنذ عودة رسول الله «ﷺ» من حجة الوداع ، ومكوثه في المدينة المنوّرة ، لم ينزل عليه أيُ وحيٍ ، ولم يُؤمَرْ بأي تكليف يتعلق بحلال أو حرام ، بل بات ساهراً على تطبيق الشريعة والالتزام بأحكامها ، مع ما يشمل هذا التطبيق من بيان لجميع الأحوال والعلاقات ، وتوضيح لكل السُّبل والمعاملات ، فلا تبقى شاردة أو واردة إلاَّ ويكون لها المصدر والدليل ، فيما تركَ من إرثٍ في الأرض قوامه قرآنٌ كريمٌ به يهتدون ، وسنَّة نبوية شريفة بها يتمسكون ، وعترة طاهرة بها يقتدون ، والاعتصام بهذا كله في الدين والدنيا ، كما علَّم هو نفسه «ﷺ» وهدى ، وأرشد ، وذكّر ، وحذّر ، حتى لم يخلُ شيء ،

ولم يبقَ أمرٌ إلاّ وأبان منهجه ومرماه ، في مقامه بين المسلمين وتفقيه أصحابه المجتبين . .

وكانت تلك الأيام هانئة بالنسبة إليه «ﷺ» لا يعكر صفو طمأنينته فيها شيء يمكن أن يحسب له حساب ، حتى ما بلغَهُ عن ادّعاء بعض الأشخاص النُبوّة ، فإنه لم يهتمّ له أو يُثِرْ عنايته ، وذلك ليقينِهِ القاطع بأنه هو خاتم النبيين ، فلا نبيّ بعده ، ولأنّ أيّ ادّعاءٍ للنبوة لا يعدو ضَرْباً من الجهالة والمهاترة ، ولن يكون له تأثير يُذكر على الإسلام من قريب أو بعيد ، طالما أن سلطانه قد عمّ شبه جزيرة العرب كلها ، وعنت وجوهُ الناس للحي القيوم ، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار ، وقال له سبحانه وتعالى : إنّا نحن نزّلْنَا الذِّكْرَ وإنّ له لحافظون ، ثم أراح باله بقوله عزّ وجلّ : لِيُظْهِرَهَ - أي ينصره على الدِّين كُلِّهِ ولو كَرِهَ الْمُشرِكون . .

ولكن برغم ذلك الاطمئنان ، فإنّ شيئاً واحداً ظلّ في بال النبيّ «ﷺ» ، ولا يفارق مخيّلتَهُ ، وهو ضرورة توطيد دعائم الدولة الإسلامية على حدود الروم ، حتى لا يكون لأمبراطورية رومية مجالٌ تنفذ منه إلى داخل الدولة ، وتعمل على إضعاف قوتها ، وتهديد كيانها ، بل على العكس من ذلك تماماً حيث يكون في توطيد تلك الدعائم ما يمّهِدُ السبيلَ أمام جيوش المسلمين لتنطلق الى البعيد ، وتنشر دينَ الله الحق ، فتصل بهذا الدِّين إلى المدى الذي يريدُهُ الله سبحانه وتعالى أن يَصِلَ إليه . .

وقد زادَ النبيّ «ﷺ» تفكيراً في هذا الأمر ما بلغه عن فروة بن

عمرو الجذامى . فقد كان فروة والياً من قبل الروم على معان وما جاورها ، إلا أنَّ الله سبحانه قد هداه فاعتنقَ الإسلام ، وهذا ما لم يُعجب أسيادَهُ القدامى ، من الروم ، فجردّوا عليه حملةً كبيرة أمكن لها أن تعتقِلَهُ وتودِعَه السجن ، ثم تجري محاكمته ويقررّ فيه حُكم الاعدام . . وجاءَ يوم التنفيذ فاقتادوه من سجنه وهو لا يعبأ بهم ولا يتأثر ، بل يقول وهم يقدّمونه للقتل :

بلِّغ سراة المسلمين بأنني سلم لربِّي أعْظُمي ودِمائي

وضُرِبَ عنُقُه على ماء بفلسطين يقال له عفراء ، ثم تُرِكَ مصلوباً في مكانِ قتْلِهِ ، حتى يكون عبرةً لغيره من الولاة والحكام ، بل ولكل منْ تسوِّل له نفسه الخروج على سلطان الروم ، أو التفكير في الدخول في الإسلام . . هذا الحادث ، وغيره من الحوادث التي افتعلتها دولة الروم أولاها النبيُ «ﷺ» اهتماماً كبيراً ، وجعلته دائم التفكير في تلك الهدْأة من عودته بعد حجّهِ الأكبر ، ولذا لم يطل به المقام كثيراً في المدينة حتى أمَرَ بتجهيز جيش إلى الشام ، وكان ذلك لأربع ليالٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة هجرية ، وقد جَعَلَ فيه المهاجرين الأولين ، وكبار الصحابة المقرَّبين ، أمثال أبي بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وطلحة والزبير وغيرهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ .

وفي الغداة ، دعا إليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وجعلَهُ أميراً على الجيش الذي أمَرَ بتجهيزه ، ثم أوصاه وقال له : « سرْ إلى موضع مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولَّيتك على هذا

الجيش . واغْزُ صباحاً على أهل أُبْنى[1] ، وحرِّق عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله بهم ، فأقِلَّ اللبْث فيهم ، وخُذْ معك الأدلاّء ، وقدِّم العيونَ والطلائع أمامك » . .

هذه كانت أوامر رسول الله «ﷺ» لأسامة بن زيد وهو يؤمِّرُهُ على جيش يغزو به بلادَ الروم ، ويوطيء بخيوليهِ تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، قريباً من مؤتة حيث قتل أبوه زيد بن حارثة ، فينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ، معتمداً كل ما أمكنه من وسائل وسبل للظفر بهم ، وعلى أن يتمَّ ذلك دراكاً فلا تسبقه الأخبارُ ، حتى إذا أظفرَهُ الله تعالى بأولئك الأعداء ، فلا يلبث بينهم إلاَّ قليلاً ثم يعود غانماً تحفُّ به ألوية النصر . .

لم يمَضِ أكثرُ من يوم واحد على تأمير أسامة قائداً على جيش المسلمين ، حتى ظهرت بوادرُ المرض على رسول الله «ﷺ» إذ ما إن طَلُعَ صباح الأربعاء من أواخر شهر صفر ، حتى داهمتْهُ حمَّى شديدة ، كان أكثرها إيلاماً الصداع القوي في رأسه ، مما اضطره لملازمة فراشه فلا يبارحُهُ إلاَّ في صبيحة اليوم التالي ، وقد احتمَل أوجاعَهُ ، وصابَرَ على كربه ، حتى يخرج ويعقد اللواءَ بيده لأسامة ، ثم يدعوه للتوكّل على الله تعالى فيقول له : « اغْزُ بسمِ الله ، في سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله » . . ثم لا يلبث أن يعودَ إلى الفراش منهكاً ، خائر القوى . .

وخرج أسامة يعسكر في الجرف (على مقربة من المدينة) حتى

---

(١) أبنى هو مكان قريب من مؤتة .

يكمل الجيش تجهيزه ، ويتم استعداداته للمسير إلى أرض فلسطين ، ولكن يبدو أنَّ تأميرَهُ على هذا الجيش ، وفيه المهاجرون الأولون ، وكبار الصحابة ، قد أثار حفيظة البعض ، ممن كانت نزعة الأنانية تغلب في نفوسهم ؛ فلم يتقبَّلوا الأمر إلاَّ على مضض ، وراحوا يتقوَّلون بما ليس فيه حق ، وبعضهم كان يقول : « يستعمل رسول الله «ﷺ» هذا الغلام على المهاجرين الأولين » ؟! . .

وبلغت هذه المقالةُ سمعَ الرسول «ﷺ» ، فغضب لها غضباً شديداً ، دفعه لأن يقوم من فراشه ، فيخرج الى المسجد ، وهو عاصبُ الرأس ؛ ثم يعتلي منبره ، مخاطباً الناس ، بلهجة مقتضبة فيها استفسار وعتاب وتحذير ، فيقول لهم : « أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة . لئن طعنتم في إمارته ، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل . وأيم الله إنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

ونزل الرسول «ﷺ» عن المنبر ، وعادَ سريعاً إلى فراشه لشدة تأثّره وازدياد الألم عليه ، حتى مرّت فترة من النهار لا يرغب فيها أن يحدّث أحداً بشيء . .

وانقضت عدة أيام ، والحمى ما تزال عالقة في جسد رسول الله «ﷺ» لا تفارقه ، تشتدُّ عليه آناً فتُسكِنُهُ عن الحركة ، وتخفُّ آناً فيرجع إلى سابق عهده ، من تلطُّفٍ بأهله وأزواجه ورعاية لشؤونهم .

أجل ، كان النبي «ﷺ» يعاني من مرضِهِ أشدَّ المعاناة ، فيقضي نهارَهُ موجعاً ، وليلَهُ قلقاً ساهراً . . وفي زحمة هذه المعاناة ، أحسَّ ذات ليلة بأنه يريدُ الخروج الى الفلاة ، والتأمّل في الكون ، في ساعة صفت فيها السماءُ ، وهدأت الحركة على الأرض ، ولكنه ما إن أطلَّ على القمر بنوره ، والليلَ بسكونه حتى جذبَهُ شعورٌ قويٌّ الى بقيع الغرقد ، حيث مقابر المسلمين ، فنادى على مولاه « أبي مويهبة » يستصحبه معه الى تلك المقابر . وهنالك بين القبور ، راح النبيُّ «ﷺ» يتجوّل ، متنقلاً من قبر إلى قبر ، مستذكراً هؤلاء الذين ضمَّهُمُ الثرى ، ومعدّداً مآثرهم واحداً ، واحداً في سبيل الله سبحانه ، حتى اذا طاف بهم جميعاً ، وقف يخاطبهم ، مسلّماً ومهنئاً ، فقال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، هنيئاً لكم بما اصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبعُ آخرُها أولَها . الآخرة شر من الأولى » .

وعن رفقة رسول الله «ﷺ» تلك الليلة ، حدَّث مولاه « ابو مويهبة » أن النبيَّ قال له أولَّ ما بلغا بقيع الغرقد : « إني أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي » فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب ، أقبل ناحية أبي مويهبة ، فقال له : « يا أبا مويهبة ، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة » . قال أبو مويهبة : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال محمد «ﷺ» : لا والله يا أبا مويهبة ! لقد اخترتِ لقاء ربي والجنة » .

وأمضى رسولُ الله «ﷺ» بعد تلك الليلة عدة أيام عصيبة ، لا يقوى فيها على جمع الناس من حوله بل جُلّ ما يقوم به هو ان يؤمّهم بالصلاة ، ثم يعود ليلازم فراشه، بل ويشتدّ عليه المرض حتى لم يَعُدْ قادراً على التنقّلِ بين أزواجه فدعاهُنّ إليه ، وهو في بيت السيدة أم سلمة ، وأخبرهُنّ أنه لم يَعُدْ يطقْ مغالبة الألم ، وأنه يرى نفسه في حاجة الى التمريض ، مستأذناً أن يُمرّض في بيت عائشة ، فوافَقْنَهُ على ما يريد . وكيف لا يوافقن وكلّ الأمل عندهن راحتُهُ والحرصُ عليه . .

ورقَدَ رسولُ الله «ﷺ» في فراشه ، ولا همّ يؤرّقُهُ إلاّ إنفاذ جيش أسامة ، ولذلك دعا إليه جمعاً من كبار الصحابة يسألهم عن هذا الأمر ، فلما اجتمعوا إليه قال لهم : « ألم آمركم أن تنفذوا بعْثَ جيش أسامة » ؟

قالوا : بلى يا رسولَ الله .

قال لهم : فلِمَ تأخرتم عن أمري ؟

وحار الصحابة فيما يجيبون ، فخيَّمَ عليهم الصمت ، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة . .

لقد كانوا يعرفون شدّة اهتمام الرسول «ﷺ» ببعث جيش إلى بلاد الروم ، ولكنّهم لما رأوا ما يعانيه من آلام ولاحظوا اشتدادَ هذا المرض عليه حتى كان يقعده عن الخروج ساعات متواصلة أحياناً ، دبّتْ بهم الحيرة ووقعوا في الارتباك لا يدرون ماذا يصنعون . فمثل هذا الذي أصابَهُ كان عجيباً ، إذ لم يعهد أحدٌ من قبل شكايته من مرض يجبره على ملازمة الفراش ، أو إصابته بوهن أو ضعف يقعده

عن الحركة ، وذلك رغم كثرة المصاعب التي اعترضته في حياته ، وشدّة النوائب والمخاطر التي حفّت به في مسيرته .. فلّما رأوه على تلك الحالة ، وكانت المسافة بين المدينة وفلسطين طويلة ، والمشقة قاسية ، خالطهم الخوف من السفر ومنعتهم الحيرة عن الخروج ، فكانت ساعة ضعف غلبت فيها العاطفة ، وأنستهم أن في مخالفة أمر النبي إثماً كبيراً يرتكبه المؤمن ، فقعدواعن تجهيز أنفسهم وراحوا ينتظرون ويرقبون .. وهذه الحيرة هي التي أوقعتهم في الارتباك ساعة أن دعاهم الرسول «ﷺ» يسألهم عن التأخير في نفاذ أمره ، فصمتوا حتى عادَ يأمرهم بالإجابة ، فقال أبو بكر (رض) : « إني خرجت ثم رجعت يا رسولَ الله لأجدِّد بك عهداً » .. ثم قال من بعده عمر بن الخطاب (رض) : « يا رسول الله ، إني لم أخرج لأنني لا أحب أن أسألَ عنك الركبان ، ولكني أسألُ الله لك العافية » ..

فلم يَزِد النبي «ﷺ» على أن قال : « انفذوا جيش أسامة ... » . وردَّدَ قوله هذا ثلاثَ مرات ثم أشاحَ بناظريه عن الحضور ، وأغمض عينيه لشدّة التأثّر ، حتى ظُنَّ أنه أغمي عليه ، وتوهَّمَ البعض أنها غيبة الموت ، فأربك على الجميع ، وعلت الأصوات بالضجيج والبكاء ، فأشار عليهم بالتزام الصمت ، والانصراف من حوله .. لقد آذتْه مخالفة أمره ، وأعياه التأثرُ كثيراً بعد هذا الاجتماع بالصحابة فلما حاول أن يقومَ في غده ليصلي بالناس كما عوّدهم لم يقدر على ذلك ،عندهاقال « مروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس » .

وكانت عائشة ترى في أدائه للصلاة مظهراً من مظاهر الصحة والتماسك ، فقالت : « إنَّ أبا بكر رجلٌ رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن » . . فقال النبي «ﷺ» : « مروه فليُصل بالناس » . فكررت عائشة قولها ، فصرخ النبي «ﷺ» بها والمرض يَهزّه : « إنكن صواحب يوسف ! مروه فليصل بالناس » . وذهب من يبّلغ أبا بكر (رص) أمر نبيه الكريم ، فراح يصلّي بالناس ، فكانت صلاته بهم سبع عشرة مرّة . .

وكان وجَعُ النبي «ﷺ» يزداد كل يوم شدّة ، فرأى ضرورةَ التحدث إلى الناس حتى يعهد إليهم ، فقال لأهله وازواجه : « هَرِيقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم ». وجيء بالماء من آبار مختلفة . وقعد النبي «ﷺ» في مِخْضب[1] لزوجه حفصة ، فصببن عليه ماء القرب السبع حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » . . ولبس ثيابه وعصب رأسه ، ثم قام يعتمد بيده اليمنى على علي بن أبي طالب (ع) وعلى ابن عمه الفضل بن العباس بيده اليسرى ، ويخرج الى المجلس ، فيعتلي المنبر ويحمد الله ثم يصلّي على أصحاب أُحد ويستغفر لهم ، بل ويكثر من الصلاة عليهم ، ويعودُ إلى مخاطبة الناس ، فيقول : « معاشرَ الناس ، قد حان مني خفوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطِهِ إيّاها ، ومن كان له عندي دين فليخبرني به .

معاشر الناس ، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو

---

(١) المخضب : الطست أو الاناء الواسع .

يصرف عنه شراً إلاَّ العمل الصالح .

أيها الناس ، لا يدّعي مدّعٍ ولا يتمنّى متمني ، والذي بعثني بالحق نبياً لا يُنجي إلا العمل مع رحمة الله ، ولو عصيت لهويت . اللهم هل بلّغت ؟ » .

وسكت النبي «ﷺ» هنيهة خيَّمَ الصمت على الناس أثناءها ، ثم عاد إلى الحديث ، فقال : « إنَّ عبداً من عباد الله خيَّرَهُ الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله » . . وسكت النبي «ﷺ» من جديد ، والناس كأنما على رؤوسهم الطير ، وهم يدركون بأنَّ النبي «ﷺ» يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسَهُ ، فأجهش كثيرون بالبكاء ، ومنهم أبو بكر الصديق (رض) الذي لم يستطع أن يمسك شدّة تأثره فقال : « بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » . .

ونزل رسولُ الله «ﷺ» عن المنبر يريد أن يعود الى بيته ، على أنه لم يلبث ان التفت نحو الناس وقال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً ، فإنَّ الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وإنهم كانوا عيبتي[1] التي أويت اليها ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » .

عادَ النبي «ﷺ» إلى بيته ، معتمداً على صاحبيه كما جاء ، ليشتدَّ به المرض أكثر ، وتزيد به الحمى حتى لقد كانت عليه قاسية مضنية . فإذا وضع أحدٌ يده عليه شعَرَ بحرِّ هذه الحمّى حتى لا

(١) عيبتي : خاصتي وموضع سري .

يكاد يطيقها ، كما وصفها أبو سعيد الخدري ، إذ عادَ النبيَّ «ﷺ» يوماً ، فجلس بجانبه ومدَّ يدَهُ يتحسَّسُهُ ، فرفعها وهو يقول : « والله إني لا أستطيع أن أضع يدي عليك يا رسول الله لشدة حمَّاك » ، فقال له النبي «ﷺ» : « إنَّا معاشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر » . . وقد قال «ﷺ» أثناء مرضه أيضاً : « أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة شُدِّد عليه » .

وفيما هو في هذه الشدّة ، وفي البيت رجال ، قال : « إئتوني بدواة وصحيفة اكتبْ لكم كتاباً لا تَضِلّوا بعده أبداً » . قال بعض الحاضرين :«إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن، وحسبُنا كتاب الله ».ويذكرون أنَّ عمر (رض) هو الذي قال هذه المقالة . واختلف الحضور ، فمنهم من يقول : قرّبوا يكتُب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، ومنهم من يأبى ذلك مكتفياً بكتاب الله . فلما رأى النبيُّ «ﷺ» خصومتهم قال : قوموا ! ما ينبغي أن يكون بين يدَي النبيِّ خلاف». . وما فتيء ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أرادَ النبيُّ إملاءه . .

ومثل هذه الشدة من المرض جعلت بعض أهل النبي «ﷺ» يرون أن يسعفوه بعلاج ، فأعدّت أسماءُ ، قريبة ميمونة ، شراباً ، عرفته أثناء مقامها بالحبشة ، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمى فصبّوه في فِيهِ . فلما أفاق قال : من صنع هذا ؟ ولِمَ

فعلتموه ؟! قال عمه العباس وكان أحد الذين قرَّ رأيهم على ذلك : خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب . قال : « ذلك داء ما كان الله عز وجل ليقذفني به » ! ثم إنه أمر بمَنْ في الدار ، ان يتناولوا هذا الدواء ، ولم يُستثنَ منهم أحد خلا عمّه العباس .

وكان عند النبي ﴿ﷺ﴾ سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله اليه وما تزال باقية عنده ، فأمَرَ أن يتصدّقوا بها . فلما كان يوم الأحد الذي سبق وفاته ، أفاق ، وكان أول ما سأل عن الدنانير ما فعلوا بها ؟ فأجابت عائشة (رض) أنها ما تزال عندها ، فطلب إليها أن تحضرها ووضعها في كفه ثم قال : « ما ظَنُّ محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه ». ثم تصدّق بها على فقراء المسلمين .

أفاق النبي ﴿ﷺ﴾ ذلك اليوم ، فقضى ليله هادئا ، اذ نزلت عنه الحمى ، فلما كان الصبح ، وفيما أبو بكر (رض) يصلّي بالناس ، إذا بالرسول ﴿ﷺ﴾ قد أزاح الستارَ عن بيت عائشة (رض) ثم وقف ينظر إلى جموع المصلين بعين ملؤها الارتياح والرضى ، ولكن من غير أن يتلفظ بكلمة واحدة ، حُبّاً بالصلاة وتقديساً لها . وانفلتت من بعض المصلين لمحات بصر وقعت على رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقد رأوه واقفاً والبشر على وجهه بادٍ بوضوح ، فظنوا أنه شفي وأبلَّ من مرضه مما جعل الفرح يأخذ بألبابهم حتى كادوا يفتنوا في صلاتهم . ولاحظ رسول الهدى انفعالاتهم تلك ، فأشار لهم ان اثبتوا في صلاتكم . .

ولم يعرف هؤلاء المصلون كيف أنهوا صلاتهم ، حتى صرخوا

بملء أفواههم : ها هو رسول الله «ﷺ» واقفاً في الباب ينظر إليكم . . . فهبت جموع المصلين تتدافع نحوه ، وكلٌّ يريد أن يلمس يده ، او يقبّل رأسه ، أو يمسك طرف ثوبه ، واحيط به من كل جانب ، وقد اختلطت الأصوات ببعضها البعض فلا يسمع أحدٌ ما يقوله الآخر ، وهم بلسان واحد يهنئون نبيهم بالسلامة ويدعون له بالشفاء الكامل كي يعود إليهم ، ويقودهم في المسيرة العظيمة التي حمل لواءها بعزم وثبات . .

وأشارَ النبي «ﷺ» ببعض من هدوء ، ثم خاطب الناس ، وقد رفع صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد ، فقال : « أيها الناس ، سُعّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . وإني والله ما تمسكون عليّ بشيء . إني والله لم أحِلّ إلاّ ما أحلّ القرآن ولا أحرّم إلاّ ما حرّم القرآن » .

وراح رسولُ الله «ﷺ» بعد هذا البيان الوجيز الواضح يسألُ عن الأحوال وعن الشؤون ، ويستفسر عن كل أمرٍ يريده ، حتى قضى بعض الوقت بين الناس ، ثم دعاهم للتمسك بحبل الله ، والمواظبة على الجهاد وعلى العمل الصالح ، ما دامت الأرض قائمة ، وما دام فيها مسلمون لا يريدون إلاّ وجهَ الله عز وجلّ . وعَظُمَ فرح المسلمين بما رأوا من ظاهر التقدّم في صحة النبي «ﷺ» ، فقاموا يسعون إلى أرزاقهم ، وكلٌّ مطمئن إلى زوال الخطر عنه ، فتقدّم أبو بكر (رض) يمثُل بين يديه قائلاً :

« يا نبي الله ، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما

نحب ، فنسأل الله تعالى لك العافية ، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها » ؟ . فأذن له النبي «ﷺ» بالذهاب ، وانطلق أبو بكر (رض) إلى السُّنْحِ بأطراف المدينة حيث تقيم زوجه .

هكذا كان لقاء المسلمين لنبيّهم في صبيحة يوم الاثنين ، الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة ، وهي صبيحة رأوها مباركة لعودة الرسول إليهم ، فتفرقوا وكلهم سعيد بتلك العودة ، ومطمئن إلى الغد ، من غير أن يدور بخلد أحد منهم قطُّ ، أنها كانت اللحظات الأخيرة التي يرى فيها الرسولَ «ﷺ» على تلك الحالة من رونق الحياة ، وأنه الاجتماع الوداعي الذي لا لقاءَ بعدَهُ في هذه الدنيا ، وأنَّ ما رأوه من ظاهر الصحة لم يكن إلاَّ الصحو الذي يسبق الموت ، والومضة التي ينتهي فيها زيت السراج وينطفىء . .

لم يترك الرسولُ «ﷺ» المسجدَ إلاَّ بعد أن فرغ من المؤمنين ، فقام يدور في جوانبه ، ويتأمّلُ كلَّ ناحية فيه ، ثم لا يلبث أن يعودَ إلى فراشه ، وقد انحطَّ منه كل عزم ، وخارت كل قوة . . وكان يوماً قائظاً ، فدعا إليه بإناء فيه ماء بارد ، راح يضع يدَهُ فيه ويَمسح بمائه وجهه ، وقد اجتمع إليه أهلُهُ وأزواجه، الذين لازموه في مرضه ، ولم يفارقوه أبداً ، بل ظلّوا يحيطون به ، كما يحيط الرمش بالعين ، وهم يخدمونه بمحبة ، ويقومون على تمريضه بكل طيب خاطر ، حتى أنَّ كلاً منهم كان يحاول أن يسبقَ الآخر في خدمة هذا الحبيب إلى قلوبهم جميعاً ، وتأمين ما يحتاج ، وهو يتمنّى لو يكون طريح الفراش بديلاً عنه ، بينما هو يقف فوق رأسه يخفف آلامه ، ويدعو

له ، لأنه خليقٌ به أن يخفف الآلام ، وأن يُستجابَ له الدعاء . .

لقد كانت الساعات الأخيرة من عمر النبي «ﷺ» في هذه الدنيا ، ولكنَّها ساعات مضنية حقاً ، اشتدت فيها الحمى ، وقوي الألم ، ونبيٌّ الله يعالج سكرات الموت بصمت ، ويقاسي من الأوجاع بصبر ، لا تَبْدُرُ منه بادرةُ تأفّفٍ ، ولا تَخرُجُ من فمه كلمةُ تأوُّهٍ ، بل جلُّ ما يفعله أنّه كان ينظر إلى أهله وأحبائه بعين ملؤها الحنان ، ثم يرنو بناظريه الى السماء ، مسبحاً بحمد ربه ، مثنياً عليه ، مستغفراً ، شاكراً ، مثنياً . . ولقد كان النبي «ﷺ» يحرص كلما دخلت عليه ابنته فاطمة الزهراء أن يقوم إليها ويقبلها ثم يجلسها في مجلسه ، حتى كان في شدّة المرض ، فباتت تجلس الى جانبه ، ملتصقة الى فراشه تتلمّسُهُ بلهفة ومحبة ، وتنظر إليه بحرقة ولوعة حتى ليشُقَّ عليها ان تراه على هذه الحال ولا تستطيع ان تقوم بعمل يخفف عنه آلامه وما يكابدُه من كرب ، فتبكي وتتأوّه ، وهي تقول : « واكرب أبتاه » ، ولكنَّ الأب العظيم يهدّىء من روعها ، فيقول لها : « لا كرب على أبيك بعد اليوم يا بنية ، إذا أنا مُتُّ فلا تخمشي عليَّ وجهاً ولا ترخي شعراً ، ولا تنادي بالويل ، ولا تقيمي عليَّ نائحة » .

وأدركت فاطمة الزهراء (ع) أنَّ كلَّ شيء قد انتهى ، أو شارف على الانتهاء . فهذا المرض الذي أكرَبَ أباها سيزول عنه ، ولا يوجد بعد اليوم همٌّ أو غمٌّ أو أيُّ أمرٍ مهما عظم أو اشتدَّ أن يقترب منه . ذلك أن حياة المؤمن في هذه الدنيا مليئة بالشقاء ، حُبلى بالمكاره ، لأنه يعيش في نطاقه الضيِّق ، سجيناً في جسده ، وفي

حيّزه المحدود ، مقيداً بأقواله وأفعاله ، ولا يمكن له التحرر من ذلك السجن ، والانعتاق من هذه القيود إلاَّ إذا توفاه الله سبحانه وتعالى ، فينطلق عندها الى الرحاب القدسية ، ويخلد الى الراحة الابـدية .

واذا كان المؤمن على هذا الكرب في دنياه ، تلاحقه الهموم ، وينزل عليه الشقـاء كونـه يعيش في دار تكليف وبـلاء فكيف يكون كرب الرسول الأعظم ، بما عُـهِد اليه من عظيم التكليف ، وبما ألقي على عاتقـه من جسيم المسـؤولية ، حتـى حَـمَلَ غـمَّ جميع النـاس وهمومهم ، الأشقياء منهم والأتقياء ، على حد سواء .. فأشقياؤهم كان يُـذْهِـب نفسه عليهم حسراتٍ ، لأنه يرى مصيرهم إلى النار ، ومـا فتـيء يتحـسَّـرُ عليهـم إلى أنْ نهاه ربُـهُ عن ذلك بقولـه عـزَّ وجـلَّ : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » لأنهم غير أهل لها . وأتقياؤهم كان يحزنه ما يحزنهم ، ويؤلمه ما يؤلمهـم ، لشـدة حرصـه عليهم ، ورأفته بهم ، كما وصفه ربُ العالمين وهو يخاطب المؤمنين بقوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنيتم ، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أظهر للمؤمنين شـدَّة تعاطف رسولهم معهم ، وحرصه على كل أمر من أمورهم ، واهتمامـه بكل شأن من شؤونهم ، فإنَّـهُ عـزَّ وجـلَّ قد أمرهم بطاعة هذا الرسول ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، يفعلون ما يأتيهم به ويتركون ما ينهاهم عنه ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ..

ولقد أبانَ الرسولُ الأعظم للناس الطريق الذي يسلكون إذا

أرادوا الجنة مأوى ومثوى ، وذلك بالمجالدة على النوائب ، والصبر على المصاعب ، بعيداً عن الرغبات والشهوات ، وعن المطامع والمكائد ، وعن كل عرض من أعراض الدنيا ومتاعها لانهم يعلمون بأن متاع الدنيا في الآخرة قليل وهذا بخلاف من يركضون وراء أهوائهم ، ولا يميزون بين حلال أو حرام وبين هيّن وصعب ، مهما كان الهيّن شراً أو الصعب خيراً ، فهؤلاء مصيرهم النار .. ويتجلّى هذا البيانُ النبويُ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الجنة حُفَّت بالمكاره ، والنار حُفت بالشهوات » ..

واذا كان هذا هو رسول الله ﴿ﷺ﴾ نحو كل الناس في حياته ، رؤوفاً ، رحيماً ، متعاطفاً وهادياً ، فإنَّ ذلك الكرب العظيم الذي حَمَلَهُ في دنياه سوف يفارقه في الآخرة ويرتاح منه ولذلك قال قول الحق والصدق لابنته فاطمة الزهراء : « لا كرب على ابيك بعد اليوم يا بنية » .

واذا كان لا راحة لمؤمن إلاّ بلقاء ربه ، والله - سبحانه - هو أكرم الأكرمين على عباده الذين اصطفى ، فكيف بأكرم وافد إليه ، وخير من اصطفى على الإطلاق ؟ . إنه حقاً سيفارق الكرب ، وينزل عن أكتافه العبءُ الثقيل ، في نفس اللحظة التي ينتقل فيها إلى الرفيق الأعلى ..

وتدرك فاطمة الزهراء (ع) ذلك كله ، وتنزل عند رغبة أبيها ، فلا تثور ، ولا تندب ، ولكنها الحرقة التي تشتدُّ في جوارحها ، ولا تجد لها متنفّساً إلاّ الدموع تنهمر من مآقيها ، لتغطيَ وجهها الحزين ، الشاحب .. لقد أدركت أن أباها محمداً

«ﷺ» سوف يفارق هذه الدنيا ، فركنت بقربه تلتصق به ، وتشدُّه إليها بشوق يغلب كل الأشواق ، وبمحبة تفوق كل الأحباب .. أو ليس هذا الأب غير سائر الآباء ؟ إنه نبيٌّ ورسولٌ حقّاً ، ولكنه الأب ـ الإنسان الذي كان لها كل شيء في الوجود ، أعطاها من نفسه ومن قلبه فأحياها بأبوّته ، وأعطته من نفسها ومن قلبها فسرَّته ببنوَّتها . كان هو الذي يشدُّها إلى الحياة أكثرَ من الحياة نفسها ، وبما في هذه الحياة من زوج وأولاد ، وكانت هي التي تؤنس وجوده الأرضي بطبيعته الإنسانية ، التي كانت تستوعب خلقَ الله كلهم ، ثم تخصّها لوحدها بالقدر الكبير .

إنسانٌ وإنسانة كانا ، وأبٌ وابنةٌ عاشا ، ولكن تداخلت روحاهما ، وتمازجت نفساهما ، حتى باتا يؤلفان وحدة من المشاعر لا تنفصم ، وكتلة من الأحاسيس لا تنفصل ، والرسول الكريم «ﷺ» يؤكد هذا بقوله : « فاطمة بضعة مني من أغضبها اغضبني » .

عاشتْ فاطمة الزهراء لأبيها فشقّ عليها أن تراه في المرض ، وعظم عليها أن تراه في الكرب ، ولذلك لم تفارقه أبداً في أيامه الأخيرة ـ إلاَّ ما دعتها ضرورة او حاجة ـ وظلت بقربه ، حتى حانت الساعة التي لا بدَّ منها ، ورأى النبي «ﷺ» أنه مشارف على مفارقة هذه الدنيا ، فأسرَّ إليها حديثاً فبكت ، وآلمه أن يراها تبكي بحرقة ولوعة ، فعاد يشير إليها أن تُدْني أذنها من فِيهِ فأسرَّ إليها حديثاً آخر فضحكت ، وتنفرج أساريره لرؤياها ضاحكة ، فترتسم على ثغره

ابتسامة هناءة واطمئنان. ولشدَّ ما أدهشَ الحاضرين ما يرون .. بلحظات تحوّلت فاطمة من العبوس والدمع إلى الانفراج والابتسام ، ومن التجهم والكرب إلى الانشراح والارتياح .. إنه مشهد غريب حقاً ، يستدعي العجب ويثير التساؤل لدى كل من يرقب ويشهد ، فسألتها عائشة في ذلك ، فقالت : ما كنت لافشي سرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وحاوَلَ كثيرون ، غير عائشة (رض) أن يعرفوا السرَّ ، ولكنّه ظلَّ في وجدان صاحبته ... إلاَّ أنَّ هذا الانشغال بالسرِّ لم يدم إلاَّ هنيهات ، وفي ومضة عين وارتداد طرف ، رأى الحاضرون أن عينيَّ النبي ﴿ﷺ﴾ قد أغمضتا ، وأنفاسه قد توقفت ، فظنّوا أنها سكرةٌ من سكرات المرض قد عاودته ، وإغماءة قد أثقلت عليه ، ولكنَّ الحقيقة كانت غير ذلك ، إذ كان خاتم النبيين قد قُبض ، وصعدت روحه الطاهرة الى بارئها لتستقبل حياة الخلد في جنة الله الواسعة .

... مات محمد ، مات رسول الله ، أولا تدرون ؟! ...

هذا ما صرخ بهذ أحد الحاضرين ..

ورانت لحظات هدوء وكأنَّ شيئاً لم يحصل ، وخيّمت السكينة وكأنَّ لا أحَدَ بقرب الجسد الشريف المسجّى .. إنها لحظات الذهول ، فيها طاشت الأفئدة ، وطمست العقول ..

على أنَّ تلك اللحظات لم تَـدُمْ بمداها الزمني إلاَّ قليلاً ، وأفاقَ الحاضرون من الغيبوبة ليجدوا أن المصيبة الكبرى قد وقعت ، والكارثة المروعة قد حلّت ، فانفلتت العواطف من هلعها ،

وانعتقت الأحاسيس من ذهولها ، فإذا البكاء والصراخ والضجيج والنواح تملأ الأرجاء وتصل إلى أطراف المدينة فتذعرها . .

ولم تصدق عيون الرائين بأنّ عين النبيّ محمد (ﷺ) قد أغمضت فلا تفتح على هذه الدنيا بعد ، ولم توقن الأنفس بأن جَسَدهُ الطاهر ، الذي كان على امتداد عمره السني يمتلىء حيويةً ونشاطاً ، يمكن أن يصبح جثةً هامدة لا حراك فيها . .

لا أحد يريد ان يتقبَّل ما يرى أو يسمع ، لأنه ينشُدُ في أعماقه الهروب من الواقع الأليم المرّ ـ فلا تجبهه الحقيقة بأن رسولَ الله قد مات ، فكان ان سيطر الذهول المقيت على الناس ، واعترتهم الدهشة القاتلة . .

كان الحدث مفاجأة كبرى للناس ، والمصيبة شديدة على المسلمين . . الجميع قد اذهلتهم المفاجأة ولكن كثيرين لم يصدّقوها . . وكيف يصدقون وهم في صباح هذا اليوم قد رأوا النبيَّ أبلَّ من مرضه ، نجاء المسجد ، وتحدث الى الناس ، وعلائم العافية والارتياح بادية عليه ، فراحوا يتساءلون حائرين : ولكن ماذا عاد وحدث ، وماذا حلَّ به ؟

وكان الجواب القاطع ، من كل من أفاق ووعى الحقيقة : إنه الموتُ قد خطفه منا ، ونحن في غفلةٍ من الزمن . . . أمّا من عقَلَ النبأُ الفاجعُ لسانَهُ ولم ينطق بكلمة ، فقد اندفع إلى بيت رسول الله (ﷺ) وهو بين الشك واليقين ، يريد أن يتأكَّدَ مما يُشاعُ ويقالُ ، فلعلَّهُ دسٌّ من المنافقين ، أو شعوذة من المشعوذين ! .

وكان أول من هرع ، وقد جاءَ على جناح السرعة ، وهو يقطع طريقَهُ ركضاً ، عمر بن الخطاب (رض) إذْ دخَلَ على بيت رسول الله «ﷺ» وأقبل على فراشه ، يزيح الغطاء عن وجهه ، ثم يهبُّ واقفاً ومن غير أن يدري ما يفعل ، يروح ويصرخ في وجوه الناس : أن اخفضوا الأصوات ، واقطعوا الضجيج حتى لا توقظوا رسول الله «ﷺ» وهو في إغفائه . . لقد تراءى له ، وهو يحدّق في وجهه الشريف أنه نائم ، فلم يَعُدْ يفرّق بين إغماضة الموت وإغفاءة الحياة . . وعبثاً حاوَلَ البعض أن يعيده من عالم اللاوعي حتى يرى الواقع ، ويقبل الحقيقة ، فلم يفلح أحدٌ في ذلك ، وتقدّم المغيرة بن شعبة في محاولة لتهدئة هيجانه وانفعاله ، فلمّا ألحّ عليه صاحَ في وجهه : « كذبت يا هذا ، إنَّ رسولَ الله لم يَمُت » . .

وانقلب عمر (رض) إلى داخل المسجد ، وهو ما يزال في حدة الانفعال ، وراح يصرخ في الناس : « إنَّ رجالاً من المنافقين زعموا بأن النبي توفي ، وأنا أقول ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ورجع الى قومه بعد أربعين ليلة . والله ليرجعَنَّ رسول الله كما رجع موسى بن عمران ، فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » . . .

وجاءَ أبو بكر الصديق (رض) بعد أن طارَ إليه سالم بن عبيد ، يؤكد له الخبر ، وعيناه تهملان بالدمع ، وأنفاسه تتقطع في صدره من اللُّهاث ، جاءَ ينكبُّ على الجسد الطاهر المسجى ،

ويلثم حبرتَـهُ اليمنية بحرقة ،وهو يجهش بالبكاء على قائد المسيرة ، ورفيق العمر ، وحامل اللواء ، ثم يلتفت إلى الملهوف علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ فيراه كسير الخاطر منهمر الدمع ، حتى ليجده من ينظر إليه إنساناً آخر ، وليس الفتى علـيّاً ، الشجاع ، المقدام ، المجالد على الصعاب ، المصابر على النوائب .

وكشف الصدّيق عن الوجه الغالي على قلبه ، وراح يحدّق به ، وهو يقول : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله » . .

واجتمع حول الجسد الطاهر كبارُ الصحابة محزونين ، هلعين ، كلٌّ يندبُ نفسَهُ ، ويندبُ معها الدنيا بأسرها لفقد سيد المرسلين ، وقائد البشرية الحكيم والرفيق الرؤوف ، والمعلم الهادي . .

في بال كل واحد الخواطر تتزاحم ، والأفكار تتشتّت ، والمشاعر تأسَى ، وكأنّ كلاً منها تريد أن تقول : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله . .

بأبي أنت وأمي يا حبيب الله . .

بأبي أنت وأمي يا رفيق العمر ، ويا ملاذ الصحبة وعشير الروح ، ويا صنو الفؤاد . .

بأبي أنت وأمي ، كيف نفقدك ونبقى على قيد الحياة من بعدك ؟! . .

ما بال هذه الدنيا لا تضحّي إلاّ بنبراس الأخيار ، وسامي

الأبرار ثم تتركنا من بعده يتامى ، حيارى ، في الهموم قابعين ، وفي الفواجع مكلومين ؟! . .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، يا من كنت أحبَّ الناس إلى قلوبنا وأقرب الأحياء إلى ضمائرنا ونفوسنا ، كيف تفارقنا وأنت قوام وجودنا ، ومطلع شمسنا وغروبها ؟! . .

بأبي أنت وأمي يا من وداعه يدمي ، وبعاده يُضني . . لئن اختارك الله تعالى إليه ، فأنت رسولُهُ المختار ، ونبيه المصطفى ، وحبيبه المجتبى ، ولكنّنا من بعدك على العهد قائمين ، وعلى حمل المشعل ساهرين ، فإلى جوار الله صُعُداً ، وإنّا لله وإنا إليه لراجعون » . .

بكى الصحابةُ وأبكَوْا الناس ، ولكن أيٌّ بكاء هذا وفقيدهم هو غيرُ كل من يبكون ؟ أو ليس هو محمد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ؟! إذن فليبكوا وليكثروا من البكاء ، لأنَّ بكاءهم مهما كان يبقى قليلاً على هذا الفقيد ، وعلى هذه الخسارة العظيمة التي لا تعوّض . .

الناسُ في بكاء وجزع ، ولكنَّ أهل البيت هم أشدُّ الناس إيلاماً ، وأوجعهم حزناً ، وامرُّهم قهراً لأنهم الاكثر مصاباً وفاجعة . .

لقد كان فيهم وهو ينبض بالحياة ، فيجعل للحياة معنىً ، وها هُمُ الآن يحيطون به ، جسداً بلا نفس ولا روح ، فأي غاية من الحياة بعدُ يرومون ، وإلى أي أملٍ بعد يتطلعون ؟! . . .

لقد هزَمَهُمُ المصابُ الأكبرُ ، فتاهوا في الضياع واختلطت عليهم الأمور ، فتراهم في تلك اللحظة بشراً حقاً ، ولكنهم في الأعماق كتلةٌ من الأحساس لا تعرف إلاَّ الألم ، ونبضات من المشاعر لا تخالطها إلاَّ الحرقة . .

أهل البيت ، والناس جميعاً ، حَزانَى ، ثَكالى ، فاقدون ، مصابون مكْلومون ! . .

نعم كلُهمُ هكذا ، بل وأكثر مما لا يمكن التعبير عنه ، لأن المصاب ما بعده مصاب ، والخسارة ما بعدها خسارة . .

الجميع في ذعر ! . .

الناسُ على الأرض في مأتم ، ولكنَّ الملائكة في الفردوس في عرس .

إنه عرس السماء لأنَّها تستقبل أكرم الوافدين إلى الله عز وجلَّ خالق السماوات والأرض .

وهو مأتم الأرض لأنها فقدت سيِّد البرية ، وحامل مشعل الايمان بالله الرحمن الرحيم .

وفي مأتم الأرض ، قعدت فاطمة الزهراء (ع) ابنة رسول الله «ﷺ» تذرف الدموع ، وتزفر بالعبرات ، وهي تنعي أباها إلى السماء والأرض قائلة : وأبتاه ! . . أجاب داعٍ دعاه ، وأبتاه ! الفردوس مأواه . . وا أبتاه ! إلى جبريل ننعاه » . .

إنه مأتم أهل الأرض حقاً بموت الحبيب على القلوب ،

العطوف على الفقراء ، الحاني على الضعفاء ، الساعي إلى إشباع الجائعين والعامل على إرواء الظمآنين ، إن في الجوع والعطش المادي ، أو في الجوع والعطش المعنوي . . فمن يكون لكل هؤلاء من بعده ، ومن يقدر على عطائه الذي كان يعطيه ، أو يستطيع أن يكون له الفضل الذي يُسديه ؟!

الكل بات يتيماً بارتحال محمد «ﷺ» عن هذه الأرض .

ليس أبناء الإسلام وحَدَهم من حاق بهم هذا اليتم ، بل والإنسان بوجوده وتكوينه ، وبما جُبِلَ عليه من صفات ومزايا خيّرة بات أيضاً يتيماً ، فأحسّ العطف والوفاء يُتماً ، ومثلهما الجودُ والحنان ، أما المحبة والرحمة والرأفة فكانت الأكثر يُتماً ، وقد انكبت عليها المثلُ العليا وجاءتها المعاني السامية ، لتقيم جميعها حفلة تأبين على الراحل العظيم .

لئن كان موتُ محمد «ﷺ» قد خشَعَ له الوجود ، والعوالم ، لأنَـهُ حدث يتعدى بآثاره نطاق الأرض حتى يَصِلَ الى السماء ، فإنَّ ما أصابَ أهل مدينة الرسول المنوّرة من ذهول ، ودهشة ، وما اعتراهم من خوف وذعر ، لم يكن إلاَّ خلجة من خلجات الشعور بالمأساة الكبرى ، فلا عجب إن لم يصدق الكثيرون أن الرسول قد مات ، ولا عجب إن بقي عمر بن الخطاب (رض) واقفاً في المسجد يرعد ويزبد ، ويتهدد ويتوعّد كلَّ من تسوّل له نفسه بالقول إن محمداً قد مات حتى جاءَ أبو بكر الصديق ، يمسكه بكتفه ويَهُزُّه ، طالباً إليه أن يصغي ، ثم يخاطب الناس قائلاً : « أيها الناس ، من

كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت » ، قال تعالى : ﴿ وما محمد إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسُلُ أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يَضُرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ .

كان الناسُ ينصتون ، وما إن سمعوا قولَ الله عز وجلَّ ، وابو بكر يتلوه ، حتى عادَ إليهم الوعي وكأنَّهم والله ، لم يعلموا أن هذه الآية قد نزلت من السماء حتى سمعوها في تلك الساعة ، وأخذها الناسُ من فورهم ، وراحوا يرددونها ، فإذا هي على كل شفة ولسان ، تهدّيء من الروع ، وتهدي الى الحق الذي لا مراءَ فيه ، ألا وهو أن محمداً «ﷺ» بشري كسائر البشر وعليه يقع الموت ، كما يقع على سائر خلق الله « كل نفس ذائقة الموت » ، وأنّ كلَّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام لأنه وحده الحيُّ القيوم ، الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم بيده الحياة والبقاء ، وبيده الموت والفناء . . لقد أدركوا أن الموت حقٌ ، فتتالت في أذهانهم آيات الله تعالى الدالة على هذا الحق ، ومنها قوله تعالى وهو يخاطبُ النبيَّ «ﷺ» : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، ثم إنه الموت ، ولكنه الحق من ربهم ولا يجوز التفجع به لأنَّه يكون بمثابة اعتراض على حكم الله عز وجلَّ ، وحاشا للصحابة الكرام أن يفعلوا شيئاً خلافاً لأمر الله تعالى ، أو يأتوا شيئاً نهاهم عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم . .

وهدأت سكينة عمر (رض) ، ولكنَّ تصوره بفقدان رسول الله «ﷺ» كان أقوى من احتماله ، فإذا به يقع على الأرض لا تحمله

قدماه ، كما وصَفَ نفسَهُ في تلك الساعة ، فقال : « فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها . فدهشت وتحيرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسولَ الله قد مات » . . .

مات محمد رسولُ الله ﴿ﷺ﴾ حين اشتدَّ الضحى من يوم الاثنين الموافق للثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة هجرية ، وقد بلغ من العمر ستين وثلاثة أعوام .

وفي نفس هذا اليوم ، وقبل أن يُغسل ، اتجه الصحابةُ لإقامة خليفة يُعهد إليه بشؤون المسلمين ، بينما انشغل أهل الرسول ﴿ﷺ﴾ بتجهيزه للرحلة الطويلة ، فاجتمع من حول جسده الطاهر ابن عمه وصهره عليُّ بن أبي طالب (ع) وعمه العباس ، وابنه الفضل - (رض) - وغيرهم كثيرون من بني هاشم ، الذين فدوه بكل ما يملكون من مهج وأموال يوم تألّبت عليه قوى الشرّ في مكة ، لتمنعه من أداء واجبه القدسي ونشر دين الله . .

وتكفّل علي (ع) بغَسْل النبي ﴿ﷺ﴾ ، فكان يحسُّ بفوح الطيب يعبق منه ، فيقول كلّما صبَّ عليه الماءَ : « بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً يا رسولَ الله » ، وقد غسّلَهُ بالماء والسدر ، بعد أن جُفِّف ثم صنع به مما اختلط بالماء ، وكفّنَهُ في ثلاثة أثواب ، اثنين أبيضين صحاريين ، والثالث بُرد حبرة أُدرج فيه إدراجاً .

وروي عن علي (ع) نفسه ما قام به أثناء غَسْلِ النبي ﴿ﷺ﴾ إذ قال : « أوصى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن لا يغسله أحدٌ غيري ، فكان الفضل بن العباس وأسامة بن زيد يناولانني الماء من وراء

الستر ، فشقّيت قميصَهُ من قُبُلِ جيبه حتى بلَغَ سُرَّتَـهُ ، وتوليت غسله وتحنيطه وتكفينه ، والفضل يعطيني الماء ويُعينني ، حتى إذا فرغت من تجهيزه وقفت وصلّيت عليه لوحدي ، والمسلمون يخوضون في مَنْ يؤمُهم بالصلاة على رسول الله كما يخوضون في مكان دفنه ، فخرجت إليهم وقلت : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم إمامُنا حيّاً وميتاً ، فليدخل عليه فوج بعد فوج منكم ، فيُصلّوا عليه وينصرفون ، وإنَّ الله سبحانَهُ وتعالى لم يقبض رسولاً في مكان إلاَّ وقد ارتضاه لرمسه فيه . وإني لدافنٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجرته التي قبض فيها . فسلَّم الناس لذلك ورضوا به » .

وصلّى المسلمون على رسولِ الهُدى أرسالاً متتابعين ، من غير أن يؤمهم أحدٌ في هذه الصلاة فدخل المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم النساء والغلمان . . . وقد جاءَ ابو بكر (رض) بعد أن تمهدت الأمور وبويع خليفة ، فدخل وصلّى ، ثم قال ، وقد استوى المكان بالناس : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتمَّ الله النصر لدينه ، وأنه وفى بوعده ، وأمر ألاّ نعبد إلا الله وحده لا شريك له » . . وكان المسلمون ، الذين امتلأ بهم المكان ، يجيبون عند كل جملة من كلام أبي بكر (رض) في هيبة وخشوع : آمين آمين . .

وبقي الجثمان الطاهر في مكانه إلى ما بعد ظهر اليوم التالي الثلاثاء (١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ) ، وقد أنفذَ عليٌّ (ع)

ابن عمه الفضل بن العباس إلى زيد بن سهل فأتى وحفر قبر رسولَ الله «ﷺ» وفق ما لزم . وحانت ساعة الوداع الأخيرة ، فوقفت الجموعُ في الخارج ، بينما تولّى الدفن علي ، وعمه العباس ، وابنه الفضل ، وأسامة بن زيد (رضوان الله عليهم) ، فنادت الأنصارُ من وراء الباب :

« يا علي ! إنا نذكرك الله وحقنا اليومَ من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ، أدخل منا رجلاً يكون لنا به حظ من مواراة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جدث الرحمة » ! . .

فطلب إليه أَوَسَ بنَ خوليّ من بني عوف ، من الخزرج ، وكان بدرياً فاضلاً ، ومقداماً في الجهاد ، باسلاً ، فلمّا صارَ في داخل الحجرة ، أشار إليه عليٌّ (رض) أن ينزل إلى اللحد ويتناول منه الجسد الشريف ففعل ، فاحتضنَ علي (رض) حبيبَهُ الى صدره ، وحمله على يديه ، ثم ناولَهُ الى أوس ، فوضعه على هيّن في أرض قبره ، ونزل إليه عليٌ (رض) وحده ، يكشف عن وجهه المشرق ، ويجعل خدَّه ملامساً التراب ، ووجهه نحو القبلة في بيت الله الحرام ، وقد لحده على جانبه الأيمن . .

وغُطّيَ لحدُ رسول الله «ﷺ» باللبن ، ثم هَيل عليه التراب حتى استوى قبره قائماً ، فربَّعَهُ عليٌ (رض) ووضع اللبنَ فوق التراب حتى ارتفع عن الأرض بمقدار شبر وأربع أصابع . .

رقدَ جَسَدُ رسول الله «ﷺ» في مثواه الأخير ، وبقي أن

يدخل المسلمون يقرؤونه السلامَ ، ويتلون على روحه الطاهرة سورة الفاتحة من القرآن الكريم ، إلاَّ أنَّ أول المتقدّمين كانت فاطمة الزهراء (ع) ابنة الراحل العظيم ، إذ جئت فوق القبر تهمر الدمعَ غزيراً ، ثم تمسك ترابَـهُ فتشمّـهُ ، وتمسح به وجهها وتكحّل به عينيها ، وهي تنشِدُ قائلة :

ماذا على مَنْ شَمَّ تربة أحمد	أن لا يَشُمَّ على الزمان غواليا
صُبَّت عليَّ مصائبُ لو انها	صُبَّت على الأيام عُدْنَ لياليا

وغصَّت ، بعد ابنة الرسول «ﷺ» ردهة القبر المقدس بالمسلمين ، يتبركون من تراب الثرى النبوي ، ويسلّمون على النبي تسليماً كثيراً . . وها هو الآن القبرُ ، وبعد أربعة عشر قرناً ، مزاراً لكل مسلم مؤمن يذهب لأداء فريضة الحج ، يأتون إليه في مماته ، كما أتَوْا إليه في حياته ، من كلّ فجّ عميق ، فينحنون على المزار خاشعين ، متبركين ، ويغدون إلى المسجد الشريف ، وفوقه القبة الخضراء ، مصلّين ، تائبين . .

طيَّبَ الله ذلك الثرى بالمدينة المنوّرة ، وقد أنارها الله بهُدى رسوله محمد بن عبد الله «ﷺ» . وعطَّرَ ذكر صاحبه وذكراه ، وجعلَهُ دائماً وأبداً مقصداً للناس ، ومحجةً للمسلمين ، وملاذاً للمؤمنين ، في رحابه يطمئنون ، وبجواره يستغفرون . .

هكذا انتهت الحياة الدنيوية لأكرم خلق الله ـ سبحانه ـ على الله . وخرج محمد «ﷺ» من هذه الدنيا لا يحمل معه إلاَّ كفنَهُ وريحَهُ الطيب وعملَهُ الصالحَ ، الخيِّر ، المعطاء . . لقد أطلَّ

على الحياة وليداً من البشر ، فعاش بين الناس مكتمل الصفات الفردية ، ومثالاً أعلى للإنسانية ، حتى إذا أنزَلَ الله تعالى عليه الوحيَ ، وانتدبَهُ لحمل أكبر رسالة سماوية الى الأرض ، امتثلَ للأمر السنيّ وانطلق يجاهد في سبيل الله ، ولم تكنْ إلاَّ مدة قصيرة لم تتجاوز أكثر من ثلاث وعشرين سنة ـ هي لا شيء في عمر الزمان ـ ونشر الإسلام ديناً لله على الأرض ، ثم لا يلبث بعدها أن يفارق هذه الدنيا وقد خلَّفَ ميراثاً للحق لا يحول ولا يزول ، ودعوة للإيمان لا تستكين ولا تنقطع ، يُلزم المؤمنون بحملها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، حتى تبقى الهداية قائمة ، والإيمان ثابتاً ، والاتصالُ ما بين الأرض والسماء مستمراً . .

هذا ميراث محمد «ﷺ» الذي خلّفه على الأرض ، وانطلق الى الرفيق الأعلى ليخلد في الجنة سيداً مع النبيين المصطفين الأخيار ، والرسل الطاهرين الأبرار ، والثلة المختارة من عبادِ الله الصالحين . .

لقد صَدَقَ الله تعالى رسولَهُ وعدَه ، وصَدَقَ رسولُهُ مع عباده وعْدَهُ ، وكان آخرُ بيانٍ لصدق رسول الله «ﷺ» ما وعدَ به ابنته فاطمة الزهراء (ع) وهو على فراش الموت ، ساعةَ أنْ أودعَها سرّاً فأبتْ أن تكشفه لأحد ، وهو ما زال على قيد الحياة . فلمّا كانت في بيتها تعيش على ذِكْرِ هذا الأب ، سألها زوجُها علي (رضي الله عنهما وأرضاهما) عن ذلك السرّ فذكرت أنه في المرة الأولى أسرَّ إليها أنه سيُقبض في مرضه فبكت ، ثم أسرَّ أنَّها أولُّ أهله يلحقُهُ فضحكت . وصَدَق وعْدُ رسول الله «ﷺ» إذ لم تلبث

فاطمة الزهراء بعد أبيها إلاَّ قليلاً ولحقت به ، رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه إلى جانب أبيها محمدٍ سيِّد المرسلين وخاتم النبيين . . . .



الخاتمه

تبارك الذي خلق كل شيء فقدَّرَهُ تقديراً ، وكان من تقديرِهِ السَّنيِّ أنْ يجعل خليفةً على الأرض ، فيحيا مؤمناً بالله الواحد الأحد لا شريك له ، ويعيش مديناً لربه بالطاعة والخضوع والعبودية ، حتى ينطلق من رحاب هذا الإيمان ، ومن هذه العبودية للديّان ، إلى عمارة الأرض ، نقي الفكر والنفس ، طاهر القلب والضمير ، باعث البِرِّ والخير ، فيستحق الخلافة ويكون لها أهلاً . .

وكان الإنسان ، هذا المخلوق البشري ، هو الذي اصطفاه خالقه ليكون سيّداً على الأرض في مرتبته الإنسانية ، وليوثّق العلاقة ما بين الأرض والسماء ويجعلها على الحق المبين ثابتةً ، وعلى الدين القويم قائمة ، فيرتقي بفضل ذلك إلى الكمال ، ويحقق السعادة في الدارين : الدنيا والآخرة . . ذلك ممّا كان في تقدير الله عزَّ وجلَّ ، وتلك كانت منتهى غاية الوجود الإنساني . .

ولكنْ ما الذي حَدَثَ بالفعل والواقع ؟

. . . لقد ساحَ الإنسان على وجه هذه البسيطة ، وتاهَ في أطراف الدنيا ، ليشهد على نفسه بنفسه ، أنَّ مسيرته مع الحق ، لم تكن دائماً ، كما شاءها الله تعالى أن تكون مسيرةً خالصةً لوجهه

تعالى ، بل نأى عن الهداية وانحرف عن الصراط المستقيم ، حتى لجَّ به المقامُ ، وغلب عليه الضلال ، فانحدَرَ إلى الدرك الأسفل من الانحطاط الفكري ، وإلى أشقى حالةٍ من المرض النفسي ، وهو يعيش بين ظهراني أترابه من بني البشر الذين اتخذوا من دون الله آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً . . قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره ، من أي شيء خَلَقَهُ ، من نطفةٍ خَلَقَهُ فقدَّرَه ، ثم السبيلَ يَسَّرَه ، ثم أماتَهُ فأقْبَرَه ، ثم إذا شاءَ أنْشَرَه ، كلاَّ ، لمّا يقضِ ما أمره . .

إنَّ هذا التنكُّرَ للإيمان بالوحدانية والإقرارَ بالعبودية ، وهو التنكّر الذي يشكل فعلاً المأساة الحقيقة التي يعيشها الإنسان مع نفسه ، لم يقابله الله تعالى إلاَّ بالرأفة والحلم ، وبالعطف والشفقة ، ألا إنه هو الرحمان الرحيم ، فبعث في الناس النبيين والمرسلين ، يحملون إليهم تعاليمَ من السماء حقة ، لو اتبعوها لتكفّلت بردهم الى الرشد والصواب ، وأوصلتهم ، لو حفظوها ، إلى أعلى الدرجات من النضوج الفكري ، والقدرة على التمييز ، وأمّنتْ لهُمْ لو اعتنقوها ، العافية في الأبدان ، والسلامة في الأنفس، من جميع الشوائب . . وكان الناس يهتدون إلى تلك التعاليم حيناً من الدهر ثم لا يلبثون بعده أن يعودوا إلى سابق العهد من الجحود والغواية ، غير عابثين بدينٍ ، ولا مكترثين بخُلُق ، بل همهم المطامع والشهوات ، ودأبهم اكتساب أعراض الدنيا الزائفة ، حتى عمَّ الفسادُ واستشرى ، وظهر في بَرِّ الأرض وبحرها ، كما بيَّنَهُ الله

تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **ظهر الفسادُ في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس** ﴾ . . نعم ، هذا الفسادُ العامُ ، وفي وقتٍ حاقَ الكفرُ والشركُ بأهله ، وخيَّمَ الجهلُ والضلالُ على دنياه ، وسيطر على أناسِهِ الظلمُ والاستعبادُ ، لم يبقَ مَعَهُ إلاَّ أنْ تحقَّ كلمة الله، فينزِّل الرسالة السماوية الأخيرة ، وتكون رسالةَ الإسلام الجامعة الشاملة ، وأن يحمل هذه الرسالة سيدُ البرية وخيرُ المصطفين ، فيكون خاتم النبيين والمرسلين . . وحقَّتْ كلمةُ ربك ، فبعثَ منذ أربعة عشر قرناً ونيفٍ ، النبيُّ العربي الأميُّ ، محمد بن عبد الله «ﷺ» بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كرِهَ المشركون . .

ولقد نزل عليه الوحيُ من ربه ، وهو في الأربعين من عمره ، وفيه يعهد بالإسلام ديناً لله ، وبأحكامه وفرائضه عقيدة للناس ، وبدستوره نظاماً للعباد ، وبتعاليمه منهجاً للحياة ، وذلك في قرآن كريم ، فتبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . .

وهكذا يتجلّى بوضوحٍ أنَّ سيِّدنا محمداً «ﷺ» قد جاءَ إلى هذه الدنيا ورائحةُ الفسادُ تزكمُ الآناف فطهَّرَ بأنفاسه العطرة أرجاءها ، وأطَلَّ على العالم والظلمُ يقتُلُ الناس فأقام في كل ناحية دخل إليها قواعِدَ العدل والإنصاف ، وذلك بعد أن وجَدَ الالتواء يهيمن على العقليات فسوّاهُ ، والاعوجاج يسيطر على المعاملات فقوّمَهُ ، حتى شَمِلَ عمله ، وقيامُهُ بتكليفِهِ كلَّ شيء في الوجود . .

ولم يكن تحقيق المسيرة العظيمة لإعلاء كلمة الله وهداية الناس بالسهل على الإطلاق ، ولذا كانت مسيرة محمد «ﷺ» شاقةً وعسيرةً إلى أبعد حدود التصور ، وهو يحمل الأمانة الكبرى بكل ثقة وعزم ، ويضطلع بالعبء الثقيل بكل إخلاص وجهد ، وقد انبرى يحارب الشرك بأعتى أشكاله ، ويقضي على الكفر بأبشع صوره ويحطم الوثنية بأسوأ مظاهرها . . ولقد لاقى من جراء ذلك العنت والقهر من بني قومه ، وواجَهَ مشقة الحرمان والحصار في شعاب مكة من مختلف قبائل بيئته ، فما زاده ذلك إلاَّ إيماناً وبالإسلام تبشيراً . . . آذوه وعذَّبوا المسلمين الأوائل ، وابتدعوا كلَّ وسيلة للقضاء على الدعوة حتى لم يبقَ إلاَّ التآمُر على قتله فأتمروه ، ولكنَّ الله باعِثَهُ كان مانِعَهُ ، فأمَرَه بالهجرة إلى يثرب ليلتفَّ حولَهُ جنودٌ لله من المهاجرين والأنصار ، فيكون وإيّاهُمُ سيوف الحق مسلولة على الباطل وأهله من الكفرة والمشركين حتى مكَّنَ الله سبحانَهُ رسولَهُ من دحرهم وتحقيق النصر عليهم ، ألا إنَّ النصرَ من عند الله يؤتيه من يشاء . .

وأقام الرسولُ الأعظمُ في المدينةِ المنورةِ دولةَ الله على الأرض ، وبعثَ بالرُسُلِ إلى حكامِ أقوى دولِ العصرِ ، والى سائر الملوك والأمراء في المقاطعات والأقطار المجاورة ، يدعوهُمُ ورعاياهُمُ للدخولِ في دينِ الله الحنيفِ ، فيهتدي من يهتدي عن بيّنة ، ويضلّ من يضل عن بيّنة . . وقد لاقتْ دعوتُهُ الايجاب من البعض والرفض من آخرين ، ولكن هذا الرفض لم يؤثر على مسيرةِ الدعوةِ وانتشارِها ، فكان أن عمَّ سلطانُ الاسلام ربوعَ شبه الجزيرة

كلها ، وآمنتِ النفوسُ بالواحدِ الأحدِ ، وعنتِ الوجوهُ للحيِ القيوم . .

نعم لقد حُفَّتْ المسيرة العظيمة بالمخاطر والمؤامرات ، واعترضتها الصعاب والعقبات . . . وفعلاً تألَّبتْ جميع قوى الشر ضدَّ حامل الدعوة كي تقضي عليه وتمنَعَ دينَ الله من أن يُبصِرَ النورَ فلا يسود الأرضَ ، ولكنَّ ذلك كله لم يَثْبُتْ أمام غَلَبَةِ الإيمان الحق ، وأمكن للنبي محمد «ﷺ» بعد مضي ثلاث وعشرين سنة فقط ، أن يحقق من الانتصارات المادية والمعنوية ما لا تقدر الأمم والشعوب على تحقيقه خلال أجيال عديدة ، وحقبات مديدة . . إنه حقاً الإيمانُ الذي حملَهُ محمدٌ «ﷺ» وأصحابُهُ، كان هوالباعث لتحقيق تلك الأنتصارات ؛ لأنَّ العبرة دائماً بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل ومظهره . فقد يكون الباعثُ طيباً ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون حادثاً عارضاً أو فكرة طارئة فلا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير ، ولا بخط سير الحياة العريض . . فلا بُدَّ إذن من الإيمان ليشُدَّ النفس إلى أصلٍ تصدرُ عنه في كل اتجاهاتها ، وتتأثر به في كل انفعالاتها ، وحينئذٍ يكون للعمل الصالح معناه ، ويكون له هدفه ، ويكون له اطّرادُهُ ، وتكون له آثارُهُ وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله برباطه الوثيق ، ويجعل لكل حركة وظيفةً وأثراً في كيان هذا الوجود ، وفي قيامه بدوره وانتهائه إلى غايته .

وإذا كانت انتصارات محمد «ﷺ» التي حققها وهو يدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، تعتبر بنفسها وبنتائجها ، انجازات غير

محدودة للناس كافة ـ كما كان هو الرسولَ للناس كافة ـ فإنَّ أعظم تلك الانجازات تبقى تلك الحضارة الإسلامية التي شهدها العالم ، وقد أقامَها رسولُ الإسلام على أسسٍ وقواعد لا تتغير مع الزمان ، بل تبقى ثابتة عادلة ، لترافق مسيرة الإنسان ، وتدفعه أبداً نحو التقدم والرقي والتكامل ، وذلك وفق طرق للعبادة مُغْنيَة ، وقواعدَ للمعاملاتِ مُرْضِيَة ، لا تخرجُ في جوهرها عن غنى الأخلاق ورِفْعَتِها ، ولا تحيدُ في صميمها عن تهذيب النفوس وشفائها ، ولا تميل في حقيقتها عن تنقية الضمائر وصفائها،وإنارة العقول وتفتحها ، فيرقى الفردُ من خلالها إلى ذُرى إنسانيته ، وتحقق الجماعة بواسطتها وجودَها المجتمعي ، والناسُ جميعاً تطلُّعَهم الإنساني ، على أسس من التكافل والتضامن ولا أروع ، وعلاقات من المساعدة والتعاون ولا أصدق . .

هذه بعض شذرات من ميزات محمد «ﷺ» الشخصية، وخصاله الإنسانية وهي لا يمكن أن تنطبق إلاَّ على ذاته المقدسة ، وتلك بعض جوانب من نهضته الإيمانية ، ومواقفه النبوية ، وحضارته الإسلامية وهي لا يمكن أن تنبعث إلاَّ عن تنزيل من حكيم حميد ، فكان لذلك المثالَ الأعلى إنْ في ميزاته وخصاله ، وإنْ في إيمانه بربه وخالقه ، وإنْ في معرفته المطلقة بحقيقة هذا الخالق ، وبحقيقة الكون ، والخلق ، والحياة ، والموت ، وحقيقة البعث ، أو أية حقائق أخرى أتى على ذكرها القرآن الكريم ، ووقف على جوهرها وحدودها وأبعادها الرسول الكريم ، فأوصلها إلى قلوب الناس

وعقولهم ، لتكون على الدهر مِشعل هداية للناس ، وقبس نور لنجاتهم . .

إنه خاتم النبيين محمد بن عبد الله «ﷺ» العظيم بذاته ، العظيم بإيمانه ، العظيم بحمل رسالته وأدائها . . لقد أقام الدينَ الحقَّ ، وألَّفَ بين القلوب ، وطهَّرَ النفوسَ ، وهدى العقولَ ، فكان النورَ الذي يشعُّ حكمةً ومعرفةً ، والينبوعَ الذي يَروي محبةً ورحمةً ، والقوة التي تزرَعُ الطُّهرَ والقداسَةَ ، والقدرةَ التي تنشُرُ الخيرَ والسلام . . عاشَ عمرَهُ كلَّهُ من أجل الإنسان ، وفي سبيل الله ، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلاَّ وهو في غاية الرضى والاطمئنان ، فكان الرضيَّ المرضيَّ على وجه هذه الأرض الطيبة ، كما هو الرضيُّ المرضيُّ عند ربه في جنة الخلد المباركة . . إنه محمدٌ في الأرض ، وأحمدُ في السماء ، يصلّي الله وملائكته عليه في السماء ، كما يصلي عليه المؤمنون في الأرض ، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً .

أيها القاريء الكريم :

لقد سعينا نحن لأن نقتفي آثار السيرة النبوية الشريفة ، وأن نستقي من معنى حياة محمد «ﷺ» العظيمة ، وقد عملنا لأجل ذلك بما اسعفنا الله تعالى عليه ، وبما أمدَّنا به الجهد ، وقدَّرنا عليه الإخلاص ، وغايتنا من وراء ذلك ليس فقط إبراز ما حفلت به تلك الحياة العظيمة من سماتٍ بارزة خاصة بصاحبها ، وما امتلأت به مسيرة تلك الحياة من وقائع واحداث على اختلافها ، ولكن لنستخرج

من هذه الحياة الرشيدة ، البانية ، التي تفيض بالعبر والآيات والعظات ، وتزخر بالدروس والمواقف والأمثولات ، صوراً كثيرة ومتنوعة ، هي خطيرة إذا عكسها الإنسان ، ومثيرة اذا تفكر بها ، وعظيمة إذا اقتدى بمثالها . . ولا نقول ذلك إلاَّ لأنَّ حياة كل فردٍ منا ، تقوم منذ ولادته وحتى مماته ، على ما عنده من قوى ذاتية ، وعلى ما يطرأ على هذه القوى من تبدلات أو تحولات بفعل ما تأخذه وتلتقطه ، ثم تتأثّر به من صور الحياة الشتى . . ويمكن التدليل على ذلك بما اكتشف في العصر الحاضر من أن العين ـ كأداة للبصر ـ يمكن أن تُصَوِّرَ وتسترجعَ من الصور ما يقارب الخمسين الفاً في اليوم الواحد . ومن الطبيعي أن تكون هذه الصور متنوعة الأشكال والأجناس والألوان ، وفقاً لما تقع عليه العين ، وأن يكون من بينها الخطير والمثير والحقير ، وما عداه من تعدّد وتنوّع في الميزة والوصف . .

فحواس الإنسان إذن تلتقط ، وملكاته تختزن وتسترجع . . إلاَّ أنه عادةً قلّما يستذكر أو يسترجع إلاَّ تلك الصورَ أو الأشياء أو الحالات التي أثّرت فيه إلى درجة اعتبرها الأكثر خطورة أو إثارة بالنسبة اليه ، في حين أنَّ ما اعتبرَهُ ممتهناً أو حقيراً أو قليلَ الشأن ، فإنّه قلّما يسترجعه وقد يصبح بعد مدة في عالم النسيان عنده . . إذن فالعبرة بالنسبة للإنسان هي بالصور أو الأشياء أو الحالات الخطيرة والمثيرة لأنها المؤثرة فيه . .

ولكن كيف يحدث الاسترجاع ؟

عندما يخلو الإنسان إلى نفسه تبدأ العملية الفكرية بإعادة ما

اختزن في الذاكرة من صور الواقـع وحالاتـه التـي كانـت الحـواس الخمس قد نقلتـه من هذا الواقـع وطبعتـه في حافظـة الــذاكرة من الدماغ . فما مـرَّ من أحداث خطيرة وهامة ومثيرة تتشـخّـص أمـام الإنسان بصورها المتنوعة ، طبقاً لما تفـعَـلُ فيها العملية الفكرية . ولما كانت العين هي التي تنقل واقع الأحداث المرئية الى الدماغ فتنطبع فيه ، فالاسترجاع لا يكون إلاَّ للصورة التي تكون العين قد نقلتها . وهكذا وبعد استرجاع الصور المؤثرة التي تعترض حياة الإنسـان ، وتبين مواقفه تجاهها وتحدد ردات الفعل من قِبَلِـهِ عليها ، فإنه إمّـا أن يعتبَ على نفسه ويلومَـها ، وإمّـا أن يرضي عنها ويطمئن إليهـا ، وعادة لا يكوْن العتب واللوم على نفسٍ إلاَّ لكثرة أخطائها ، وعدم حسن تصرفها وإدراكها . .

من هنا أيها القارىء ، وقد اطلعت على سيرة خاتم النبيين ، ووقفت على ما فيها من صور هامة وخطيرة ومثيرة ، فإنك اذا خلوت إلى نفسك ، فأنـت مدعـوٌّ لاسترجـاع مواقف رسـول الله وأقـوالِـهِ وتذكُّرها بصورة دقيقة وواعية ، حتى تَـ[illegible]ـن تلك الصـور ، وهـذه المواقف ، المثالَ الذي تحتذي به في كل مرة قد يهبك الله نعمةً ، أو يحـفُّ بك نصرٌ ، أو يطـرأ عليك حادث . . ففـي أي حالـةٍ ، تَـصَـوَّرْ تَـصَـرُّفَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، والموقـفَ الذي وقـفَـهُ حِيالَ الواقع الذي واجَـهَ ، سواءً إنْ كان عنـدَ إحلالِ نعمةٍ ، كما عندما تزوج أم المؤمنين السيدة خديجة (رض) وما كانت عليه من الغنى والجاه ، وما قدمت له من حنان الأم ، وصداقة الأخت ، واخلاص الزوجة ، فما استكبر ولا استعلى بل ظـلَّ على خلقه العظيم مثلما كان

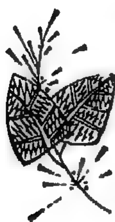
أيام العسرة والفقر والضيق... أو عند تحقيق نصرٍ ، كما في فتح مكة ، كيف لم تبهره هالةُ النصر ، ولم تأخذه نشوةُ القائد المنتصر ، بل انحنى على ظهر راحلته شاكراً لله ، محتسباً ومستغفراً . . . أو عند واقعة خاصة ألمت به ، كما في موت أبنائه وبناته ، كيف كان جلداً ، صبوراً ، مصابراً ، حكيماً ، مذعناً لأحقية الموت ، رغم ما يكابد من أحزان . . . أو خطر داهَمَ الدعوةَ والمسلمين ، كما في غزوة الخندق حيث بلغَ الخوف بالمؤمنين أشدّه وصاروا في الحالة التي وصفهم الله تعالى بها بقوله عز وجل : ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ ﴾ ، فلم يؤخذ الرسول «ﷺ» بذلك الخوف ، بل ظلَّ مُصِراًّ في نفسه على النصر ، ضارعاً إلى الله تعالى هو والمؤمنون يرَدِّدون من بعده بدعاء يقول فيه : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » .

هذه صورٌ خاطفة من حياة الرسول الأعظم ، أوردناها مثالاً عن تلقّي الرسول للحادث وموقفه منه ، وردة فعله عليه . . وأنت أيها القارىء دعوتُنا إليك بأن تكون لك نفس المواقف وردات فعلها لأنَّ عليك الاقتداء برسول الله «ﷺ» امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله عزّ وجلّ : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ . . وإنك إنْ فعلتَ واقتديتَ بالرسول محمد «ﷺ» العظيم ، لاهتديت وخرجت عظيماً . .

وفي الختام ، إننا نضع السيرة النبوية الشريفة بين أيدي المسلمين لتكون الكائن الحي بين ظهرانيهم ، وذلك حتماً بعد القرآن الكريم ، كتاب الله المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه . . ولعلّنا إن عدنا إلى هذين المصدرين : الكتاب والسنة ، لاهتدينا إلى الإيمان الخالص وحققنا الغاية من وجودنا . . وفي ذلك ما فيه الكفاية على إدراك حقيقة الإسلام ، ومعرفة عظمة النبي محمد «ﷺ» الذي بُعث لحمل هذا الدين وإيصاله إلى الناس . فصلوات الله وسلامه على سيد الخلق ، وخاتم النبيين محمد بن عبد الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ورضي الله تعالى عن أصحابه الأبرار الميامين . . ونسألُ الله تعالى أن نكون قد وفّينا الرسولَ الأعظم جزءاً يسيراً مما يستحق ، واستشفّينا قبساً من أنواره النبوية ، وأن نكون قد دخلنا مدخل صدقٍ إلى جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم تحت لوائه ، راجين رضوان الله تعالى في تقديم هذا العمل المتواضع الذي تناول « قصص الانبياء في القرآن الكريم » ومنها هذا الكتاب في جزءيْن ، الخاص بحياة خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً . .

والسلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته .



جوامع

كلام رسول الله «ﷺ»

قال «ﷺ» : « لقد أُعطيتُ جوامعَ الكَلِم » . .

ومن جوامع كلامه :

١ ـ رأسُ الحكمة مخافةُ الله .

٢ ـ الحكمةُ ضالَّةُ المؤمِن .

٣ ـ قُلِ الحقَّ ولو كان مُرّاً .

٤ ـ يدُ الله مع الجماعة .

٥ ـ كما تكونون يُولّى عليكم .

٦ ـ خيرُ الناسِ أنفعُهم للناس .

٧ ـ من اتّقى الله اتّقى الناس .

٨ ـ ادرَأوا الحدودَ بالشبهات .

٩ ـ لا فقرَ أشدَّ من الجهل .

١٠ ـ المستشارُ مُؤتَمَنٌ .

١١ ـ الحياءُ من الإيمان .

١٢ ـ الغيرةُ من الإيمان .

١٣ ـ الزنى يورِثُ الفقرَ .

١٤ ـ الجنةُ تحتَ أقدام الأمهات .

١٥ ـ من تواضَعَ لله رفَعَهُ .

١٦ ـ أكثرُ أهلِ النارِ المتكبرون .

١٧ ـ أعجلُ الشرّ عقوبةُ البَغْي .

١٨ ـ رحِمَ الله من قالَ خيراً فغَنِمَ أو صَمَتَ فسَلِمَ .

١٩ ـ اسْتعينوا على أمورِكم بالكتمان .

٢٠ ـ إذا آتاكُمُ كريمُ قومٍ فأكرِمُوهُ .

٢١ ـ استعْفِفْ عَنِ السؤالِ ما استطَعت .

٢٢ ـ التمسوا الرزقَ في خبايا الأرض .

٢٣ ـ شرُّ المكاسب الربا وشرُّ المآكلِ أكلُ مالِ اليتيم .

٢٤ ـ خيرُ الغِنى غنى النفس وخيرُ الزادِ التقوى .

٢٥ ـ اعطُوا الأجيرَ أجرَهُ قبل أن يجِفّ عرَقُهُ .

٢٦ ـ بِرُّ الرجل بولده بِرُّهُ بوالده .

٢٧ ـ الأمانة تجرُّ الرزق والخيانةَ تجرُّ الفقرَ .

٢٨ ـ ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى .

٢٩ ـ صنائعُ المعروف تقي مَصارعَ السوء .

٣٠ ـ ما هَلكَ امرؤٌ عرَفَ قدْرَ نفسهِ .

٣١ ـ لا تَجسَّسُوا ولكنْ تَحَسَّسُوا(١) .

٣٢ ـ اتَّقُوا فراسةَ المؤمِنِ فإنَّهُ ينظُرُ بنور الله تعالى .

٣٣ ـ اتّقُوا الحرامَ بالبنيانِ فإنَّهُ أساسُ الخراب .

٣٤ ـ إذا سألتَ فاسْألِ الله وإذا اسْتَعَنتَ فاستعِنْ بالله .

٣٥ ـ إنَّ الحسدَ لَيأْكُل الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطبَ .

٣٦ ـ لا تُظهِرِ الشماتةَ بأخيك فَيُعافيه الله ويَبْتَليكَ .

٣٧ ـ جُبِلَتِ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إليها .

٣٨ ـ حسن الخلق وحسنُ الجوار يعمرّان الديار .

٣٩ ـ خيرُكُمْ من يُرجى خيرُهُ ويؤمنُ شرُّهُ .

٤٠ ـ لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجيهاً عند الله .

٤١ ـ قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يُرْديك .

٤٢ ـ الصبرُ سِتْرٌ من الكروب وعَوْنٌ من الخُطوب .

٤٣ ـ ما أقرَّ قومٌ المُنكَرَ إلاَّ عمَّهُمْ بعذابٍ مُحْتَضَر .

٤٤ ـ نِعمَ المطيَّةُ الدنيا فارتحلوها تُبلِغْكُمُ الآخرةَ .

٤٥ ـ ودُّ المؤمنِ للمؤمنِ من أعظم شِعَب الإيمانِ .

٤٦ ـ السعيدُ من وُعِظَ بغيرِهِ والشقيُّ من وُعِظَ بنفسِهِ .

٤٧ ـ ما أنزلَ الله داءً إلاَّ وأنزلَ له شفاءً .

(١) التجسس يعني التفتيش عن بواطن الأمور للشر ، بينما التحسس تطلُّب الشيء للخير .

٤٨ ـ ما خُيِّرت بين أمرين إلاَّ واخْترتُ أيسَرَهُما .

٤٩ ـ لَقِّحوا عقولَكُمْ بالمذاكرةِ واستعينوا على أموركم بالمشاورة .

٥٠ ـ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

٥١ ـ نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ، وبلّغها من لم يسمعها ، فكم من حامل فِقْهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه .

٥٢ ـ سِرُّكَ أسيرُك إذا تَكَلمتَ به فأنتَ أسيرُهُ .

٥٣ ـ طوبى لمن تَركَ شهوةً حاضرةً لموعودٍ لَمْ يَرَهُ .

٥٤ ـ البكرُ تستأذنُ وإذْ نُها صماتُها والثيِّبُ يُعرِبُ عنها لسانُها .

٥٥ ـ الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

٥٦ ـ عليك بالجماعة فإنّ الذئبَ يأخذ القاصية .

٥٧ ـ لا تختلفوا فإنَّ من كان قَبْلكم اختلفوا فَهَلكوا .

٥٨ ـ الأميرُ الجائر خيرٌ من الفتنة وكل لا خير فيه ، وفي بعض الشر خيارٌ .

٥٩ ـ لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموه فاثبتوا .

٦٠ ـ المؤمنُ للمؤمن كالبنيان المرصوص يَشُدُّ بعضُهُ بَعْضاً .

٦١ ـ المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ إذا رأى فيه عيباً أصْلَحَهُ .

٦٢ ـ المؤمن للمؤمن كالمرآة إذا وجَدَ به عيباً نبَّهَهُ إليه .

٦٣ ـ سبابُ المؤمن فسوقٌ وقتالُـهُ كفرٌ .

٦٤ ـ المسلمُ أخو المسلم لا يظلمُـهُ ولا يثلمُـهُ .

٦٥ ـ المسلمـون إخـوة تتكافـأ دماؤهـم وهُـمْ يـدٌ على من سواهـم ويَسعى بذمتهم أدناهُـم .

٦٦ ـ من أعان ظالماً على ظلمِهِ سلّطَـهُ الله عليه .

٦٧ ـ أفضـلُ الجهاد كلمـةُ حقٍ بين يدَيْ سلطانٍ جائر .

٦٨ ـ الايمان نصفان ، نصفٌ في الصبر ونصفٌ في الشكر .

٦٩ ـ أقيلوا ذوي المروءات عثراتِـهم فما يَعثُرُ منهم عاثِرٌ الاَّ ويَـدُهُ بيد الله .

٧٠ ـ الهديةُ تورث المحبةَ وتَسِلُّ الاحقادَ ، والهديةُ ثلاثٌ : هديـةُ مكافأةٍ ، وهديةُ مصانعةٍ ، وهديةٌ لله .

٧١ ـ إذا أرادَ الله إنفاذ قضائه سَلَبَ من ذوي العقول عقولهم حتى ينفذَ فيهم .

٧٢ ـ عش ما شئتَ فانـك ميتٌ ، واحببْ ما شئتَ فانـك مفارقٌ ، واعمـلْ ما شئتَ فإنك مجزي عليه .

٧٣ ـ شر المعذرة حين يحضرُ الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ، ومن اعظم خطايا اللسان الكذب .

٧٤ ـ ما خاب من استخار ولا ندِمَ من استشار ولا عالَ من اقتصد .

٧٥ ـ من أرادَ الله به خيراً حالَ بينه وبين شهوته وحـال بينـه وبـين

قلبه ، وإذا أرادَ به شراً أوكلَـهُ إلى نفسه .

٧٦ ـ إذا أقبلت الدنيا على إنسانٍ أعارَتْـهُ محاسينَ غيرِهِ وإذا أدْبَـرتْ عنه سلَـبَـتْـهُ محاسِنَ نفسه .

٧٧ ـ شرُّ الناس من باعَ آخرته بدنياه وشرٌّ من ذلك من باعَ آخرتَـهُ بدنيا غيره .

٧٨ ـ أعجز الناس من عجز عن الدعـاء وابخـل النـاس من بخـل بالسلام .

٧٩ ـ بادر بأربع قبل أربع : شبابِك قبـلَ هرمِكَ ، وصحتِكَ قبل سقمِك ، وغناكَ قبل فقرِك ، وحياتِكَ قبـلَ موتِك .

٨٠ ـ خصلتان ليس فوقهما من البِرّ شيءٌ : الايمانُ بالله والنفع لعباد الله . وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيءٌ : الشرك بالله والضُرُّ بعباد الله .

٨١ ـ ثلاثة لا يغِلُّ عليها قلب عبد مسلـم : إخـلاص العمـل لله والنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم .

٨٢ ـ خيركم من لم يترك آخرتـهُ لدنياه ولم يترك دنياه لاخرتِـهِ ولم يكن كـلاّ على الناس .

٨٣ ـ خيرُ الأعمال ما نفع وخير الهدى ما اتبع وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى .

٨٤ - إذا كان أمـراؤكم أخياركم واغنياؤكم سمحـاءكم وأمـركُم شورى بينكم فظهـرُ الأرض خيـرٌ لكم من بطنِهـا . وإذا كان امـراؤكم شرارَكم ، واغنياؤكم بخـلاءكم ، وأمـورُكُمْ إلى نسائِكم فبطـنُ الأرض خيـرٌ من ظهرها .

٨٥ - من أمسى وأصبحَ وعندَهُ ثلاثٌ فقد تـمّـتْ عليه نعمةُ الدنيا ، منْ أصبح وأمسى معافىً في بَـدَنِـهِ ، آمناً في سريره ، عندَهُ قوتُ يومِهِ ، فإنْ كانـتْ عندَهُ الرابعةُ فقد تـمّـتْ عليه نعمـةُ الـدنيا والآخرة وهي الإيمان .

٨٦ - المؤمن القويُ خيرٌ من المؤمن الضعيف وفي كـلّ خيرٌ . إحرصْ على ما ينفعُـك واستعِـنْ بالله ولا تَـعْـجَـزْ ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَـقُـلْ لو أني فعلتُ كذا وكذا . . ولكـنْ قُـلْ : قـدَّرَ الله وما شاءَ فَـعَّـلَ ، فإنَّ « لو » تفتحُ عمـلَ الشيطان .

٨٧ - العلـمُ خزائـنٌ ومفاتيحها السؤالُ فاسْـألـوا رَحِـمَـكُـمُ الله فإنـه يُـؤجَـرُ أربعـةٌ : السائلُ والمتكلمُ والمستمعُ والمحبُّ لهم .

٨٨ - كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تَـكُـنِ الخَـامـسَ فَـتَـهـلَـكْ .

٨٩ - إنَّ الله لا يقبـض العلم من صدورِ الرجالِ وإنّـما يقبضُـهُ بموتِ العلماء ، فإذا لم يبقَ عالـمٌ اتخذَ الناسُ رؤساءَ جُـهّـالاً ، فإذا استفتوا أفتَـوْا بغيرِ علمٍ فضَـلّـوا وأَضَـلُّـوا .

٩٠ - أربعـةٌ تُـلزِمُ كُـلَّ ذي حجىً وعقلٍ من أمتي : استماعُ العلم وحفظُـهُ ونَشرُهُ والعمـلُ به .

٩١ - إنَّ لله عباداً اختصَّهُمْ لقضاء حوائجِ الناسِ يَفْزَعُ الناسُ إليهم لقضاء حوائجهم ، أولئك هُمُ الآمنونَ من عذابِ الله يومَ القيامة .

٩٢ - كيف بكم إذا فَسَدَ نساؤكم وفَسَقَ شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنْهوْا عن المنكر قيل له : ويكون ذلك يا رسولَ الله ؟ قال : نعم . وشرٌّ من ذلك : وكيف بكم إذا أَمَرْتُمْ بالمنكرِ ونَهيْتُمْ عن المعروف . . قيل : ويكون ذلك : قال : نعم . وشرٌّ من ذلك : وكيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ مُنكراً والمُنكرَ معروفاً .

٩٣ - من نقلَهُ الله من ذُلِّ المعاصي إلى عِزِّ الطاعةِ أغناهُ بلا مالٍ وأعزَّهُ بلا عشيرةٍ وآنسَهُ بلا أنيس ، ومن خافَ الله أخافَ منه كلَّ شيء ، ومن لم يَخَفِ الله أخافَهُ الله من كل شيءٍ ، ومن رضيَ عن الله باليسير من الرزق رضيَ الله عنه باليسير من العمل ، ومن لم يَسْتَحِ من طلب الحلال مِنَ المعيشة خفت مؤنتُهُ ورخي بالُهُ ونعِمَ عيالُهُ ومن زَهِدَ في الدنيا (أي في طلب الحرام) أثبتَ الله الحكمةَ في قلبِهِ وأنطَقَ بها لسانَهُ وبصَّرَهُ عيوبَ الدنيا داءَها ودواءَها وأخرجَهُ من الدنيا سالماً إلى دار القرار .

٩٤ - من أحبَّ أن يكون أعزَّ الناسِ فَلْيتَّقِ الله . ومن أحبَّ أن يكونَ أقوى الناس فليتوكَّلْ على الله . ومن أحبَّ أن يكون أغنى الناس فليكنْ بما في يدِ الله أوثقُ منه بما في يدِهِ .

٩٥ - قال «ﷺ» : أوصاني ربي بتسعٍ : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصدِ في الفقرِ والغنى ، وأن أعفوَ عمَّن ظلمني ، وأعطي من حَرمني ، وأصِلَ مَنْ قطعني ، وأن يكون صمتي فِكراً ، ومنطقي ذكراً ، ونظري عِبَراً .

٩٦ - وقال «ﷺ» في صفة العاقل والجاهل : صفة العاقل أن يحلُمَ عمَّن جهِلَ عليه ويتجاوزَ عمَّنْ ظَلَمَهُ ويتواضعَ لمن هو دونَهُ ، ويسابقَ مَنْ فوقَهُ في طلب البر ، وإذا أرادَ أن يتكلمَ تدبَّرَ فإنْ كان خيراً تكلَّمَ فغنم وإن كان شراً سكت فسَلِمَ ، وإذا عرضَتْ له فتنةٌ استعصَمَ بالله وأمسكَ يَدَهُ ولسانَهُ ، وإذا رأى فضيلةً انتهزَ بها لا يفارقُهُ الحياءُ ولا يبدو منه الحرص فتلك عشرُ خصال يعرف بها العاقل .

وصفةُ الجاهل أن يظلم من خالطهُ ويتعدّى على مَن هو دونَهُ ويتطاولَ على مَنْ هو فوقَهُ ، كلامُهُ بغير تَدبُّرٍ إن تكلمَ أثِمَ وإنْ سكتَ سها وإن عرضَتْ له فتنةٌ سارَعَ إليها فأرْدَتْهُ وإن رأى فضيلة أعرَضَ وابْطَأَ عنها لا يخافُ ذنوبَهُ القديمةَ ولا يرتدِعُ فيما بقي من عمره عن الذنوب ، يتوانى عن البّرِ ويبطئ عنه غيرَ مكترثٍ لما فاتَهُ من ذلك أو ضيَّعَهُ ، فتلك عشر خصالٍ من صفة الجاهِلِ الذي حُرِمَ العقل .

٩٧ - في فضائل شهر رمضان المبارك

وخطب رسولُ الله «ﷺ» هذه الخطبة يبيّن فيها فضائل

الشهر المبارك ، فقال :

أيها الناس لقد أقبَلَ إليكُمْ شهرٌ رمضان بالبركة والرحمة والمغفرة ، شهرُهُ أبْركُ الشهور وأيامُه أفضلُ الأيام ولياليه أفضلُ الليالي وساعاتُهُ أفضلُ الساعاتِ ، وقد دُعيتُمْ فيه إلى ضيافةِ الله ، وجُعِلتُم فيه من أهلِ كرامتِهِ ، أنفاسُكم فيه تسبيحٌ ونومكم فيه عِبادَةٌ ، وعملكم فيه مقبُولٌ ، ودعاؤكم فيه مُستجابٌ ، فاسْألوا الله ربَّكُمْ بِنِيّاتٍ صادقةٍ وقلوبٍ طاهرةٍ أن يوفّقكُمْ لصيامِهِ وتلاوةِ كتابهِ ، فالشقيُّ من حُرِمَ غُفران الله فيه ، فاذكروا بجوعكم وعطشكم جوعَ يومِ القيامة وعطشِهِ ، وتصدّقوا على فقرائِكُمْ ومساكينكم ، ووقّروا كبارَكُمْ وارحموا صِغاركم وصِلُوا أرحامَكُمْ وغُضّوا عمّا لا يَحُلُّ النظرُ إليه أبصارُكُمْ ، وعما لا يَحُلُّ الاستماعُ إليه أسماعَكُمْ ، وتحنّنوا على أيتام الناس يتحنّنِ الله على أيتامِكُمْ ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم ، وارفعوا إليه أيديَكم بالدعاء في أوقاتِ صلواتِكم فإنها أفضلُ الساعات ينظُرُ الله عبادَهُ فيها بالرحمة ويجيبُهُمْ إذا ناجُوهُ ويُلبيهم إذا نادُوهُ ، ويستجيبُ لهم إذا دَعُوهُ .

أيها الناس ، من حَسُنَ في هذا الشهر خُلقُهُ كان له جوازٌ على الصراط يوم تزِلُّ فيه الأقدامُ ، ومَن خفّفَ فيه عما ملكتْ يمينُهُ خفّفَ الله حسابَهُ ، ومن كَفَّ فيه شَرَّهُ كفَّ الله عنه غَضَبَهُ يومَ يلقاهُ ، ومن وصَلَ فيه رحمَهُ وصَلَهُ الله برحمتِهِ يوم يلقاهُ ، ومن تطوَّعَ فيه بصلاةٍ كُتِبَ له براءة من النار ، ومن أدّى فيه فرضاً كان له ثوابُ مَنْ أدَّى سبعينَ فريضةً فيما سِواهُ من

الشهور ، ومن كثَّرَ فيه من الصلاة ثقَّلَ الله ميزانَهُ يومَ تخِفُّ الموازينُ ،ومن تلا فيه آيةً من القرآن كان له أجرُ من ختَمَ القرآنَ في غيرِهِ ، ألا إنَّ أبوابَ الجنةِ مُفتَّحةٌ فيه فاسألوا ربَّكم أنْ لا يغلِقَها عنكم ، وأبوابَ النار مُغلقةٌ فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم والشياطينَ مغلولةٌ فاسألوا ربكم أن لا يُسلِّطَها عليكم .

٩٨ - صنفان من أمتي إذا صَلُحا صَلُحتْ أمتي : الفقهاء والأمراء .

٩٩ - مَثَلُ أهلي كسفينةِ نوحٍ من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غَرِق .

١٠٠ - إني تارك فيكُمُ الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

١٠١ - إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تَضِلّوا بعدِي أبداً ، كتاب الله وسُنَّتي .

١٠٢ - من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان غدُهُ شراً من يومِهِ فهو ملعونٌ ، ومن لم يتفقد النقصان في عملِهِ كان النقصانُ في عقلِهِ ، ومن كان النقصانُ في عملِهِ وعقلِهِ فالموتُ خيرٌ له من حياتِهِ .

١٠٣ - والله لن تؤمنوا ، حتى تحابّوا، أفأدُلُكم على شيءٍ إن فعلتموه تحاببتم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إفشوا السلام بينكم .

غـزوات

رسـول الله «ﷺ» وسرايـاه

روي أن عدد مغازي رسول الله «ﷺ» التـي غزاهـا بنفسـه كانت تسعاً وعشرين غزوة ، وسراياه التي بعث فيها سبعاً واربعين سرية ، وما قاتَـلَ فيه من المغازي كان تسعَ غزوات .

والمغازي هي :

١ ـ ودان أو الأبواء

٢ ـ بُـواط

٣ ـ العشيرة

٤ ـ سفوان

٥ ـ بدر الكبرى

٦ ـ بني سليم

٧ ـ بني قينقاع .

٨ ـ السويق

٩ ـ قرقرة الكدر

١٠ ـ غطفان أو ذي أمر

١١ ـ بحران الحجاز

١٢ ـ أحد

١٣ ـ حمراء الأسد

١٤ ـ بني النضير

١٥ ـ ذات الرقاع

١٦ ـ بدر الآخرة أو بدر الموعد

١٧ ـ دومة الجندل

١٨ ـ بني المصطلق أو المريسيع

١٩ ـ الخندق

٢٠ ـ بني قريظة

٢١ ـ بني لحيان

٢٢ ـ الحديبية

٢٣ ـ ذي قرد

٢٤ ـ خيبر

٢٥ ـ وادي القرى

٢٦ ـ عمرة القضاء

٢٧ ـ فتح مكة

٢٨ ـ حنين والطائف

وأما السرايا فهي التي لم يكن فيها رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، فإن كان فيها أكثر من واحد قيل لها سرية ، وإن كان واحداً قيل لها بعثٌ . وقد اقتصرنا في متن الكتاب على عددٍ من السرايا ولم نذكرها جميعها لما يوجب التطويل مع وجود التشابه في الأسباب والوقائع والنتائج ، فكان اكتفاؤنا بأهم السرايا فقط .



زوجات رسول الله (ﷺ)

تزوج رسول الله (ﷺ) خمس عشرة امرأة وبنى بثلاث عشرة ، وجمع بين إحدى عشرة ، وتوفي عن تسع وله من العمر ٦٣ سنة :

توفي رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية ... وحفصة تتلوهن هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة ... ثلاث وست ذكرهن مهذب

١ ـ خديجة بنت خويلد

٢ ـ سودة بنت زُمْعة

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر الصديق

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب

٥ ـ زينب بنت خزيمة بن الحارث

٦ ـ زينب بنت جحش

٧ ـ رملة بنت ابي سفيان (أم حبيبة)

٨ ـ ام سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي .

٩ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية .

١٠ ـ صفية بنت حي بن أخطب

١١ ـ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار

١٢ ـ خولة بنت حكيم

١٣ ـ مارية القبطية .

ولم يَبْنِ بأميمة بنت النعمان لأنها أحبّت أن تتعالى على رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولا بإمرأة من بني مرة لأنه وجدها برصاء .

أبناؤه وبناته ﴿ﷺ﴾

القاسم ، زينب ، رقية ، فاطمة ، أم كلثوم وعبد الله (الطيب والطاهر) ـ من أم المؤمنين خديجة .

مات ابنه القاسم ، ثم عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمي « قد انقطع ولده فهو أبتر » فأنزل الله تعالى ﴿ إنَّ شانئك هو الأبتر ﴾ .

وابنه ابراهيم من مارية القبطية .

وقد توفي جميع أبنائه وبناته على حياة عينه ولم يبقَ منهم إلاّ فاطمة الزهراء ، توفاها الله بعد ستة أشهر من موت أبيها .

فيكون للنبي ﴿ﷺ﴾ سبعة أولاد : أربع بنات وثلاثة بنين .

حراسه ﴿ﷺ﴾

سعد بن معاذ حرسه ليلة يوم بدر .

محمد بن مسلمة حرسه يوم أحد .

الزبير بن العوام حرسه يوم الخندق .

المغيرة بن شعبة حرصه يوم الحديبية .

ابو أيوب الأنصاري حرس خيمته ليلة عودته من خيبر .

بلال ، وسعد بن أبي وقاص ، وذكوان بن قيس حرسوه بوادي القرى .

ابن ابي مرثد الغنوي حرسه ليلة وقعة حنين .

وبعد نزول الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ، أي يحرسك الله من القتل ومن الكفار ، أمَرَ الرسول (ﷺ) أن ترفع عنه الحراسة ، كما قال لسعد وحذيفة حين نزلت هذه الآية ، اذ أخرج رأسه من قبة أدم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله » . وقد عصمه الله تعالى حقاً إلى آخر حياته .

شعراؤه (ﷺ)

حسان بن ثابت . ويقال له شاعر رسول الله (ﷺ) .

عبد الله بن رواحة خزرجي .

كعب بن مالك من الخزرج .

هؤلاء الشعراء الثلاثة كانوا من الأنصار ، يناضلون عن رسول الله بشعرهم ، وبسيوفهم ويهجون قريشاً ويعيبون عليهم عبادة الاصنام ، ويفخرون بانتصار المؤمنين ، ولم يكن من المهاجرين شعراء كالأنصار إذ تحاشوا هجاء قوم ، تشدهم إليهم روابط عديدة ،

ولكنّ ذلك لم يمنع أن يحاربوهم دفاعاً عن عقيدتهم ، وان لم يهجوهم شعراً .

مؤذّنوه «ﷺ»

بلال بن رباح وابن أم مكتوم بالمدينة

وسعد القرظ ، وأبو محذورة واسمه « أوس بمكة بعد الفتح .

رباح الأسود : كان يؤذن لرسول الله أحياناً .

خدمه «ﷺ»

- أنس بن مالك الأنصاري ، خدمه منذ قدومه المدينة حتى وفاته «ﷺ» ، كان يخدم في السفر والحضر .

- عبد الله بن مسعود كان صاحب سواكه ونعله ، وكان يمشي بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة .

- معيقيب الرومي كان صاحب خاتمه .

- عقبة بن عامر الجهني كان صاحب بغلته .

- اسقع بن شريك صاحب راحلته .

- بلال بن رباج كان على نفقاته .

ومن النساء : امة الله بنت رزينة ، خولة جدة حفص بن سعيد ، مارية أم الرباب ، ومارية جدة المثنى بن صالح بن مهران .

موالي رسول الله «ﷺ»

١ ـ زيد بن حارثة تبناه النبي «ﷺ» حتى نزلت الآية : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ . والآية : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين ﴾ .

٢ ـ شقران واسمه صالح ، وكان عبداً حبشياً لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي «ﷺ» فصرفَهُ من الحديبية وأعتقه .

٣ ـ أبو رافع وقيل اسمه : أسلم ، وصالح . كان مولى للعباس بن عبد المطلب ، وهبه للنبي «ﷺ» فأعتقه .

٤ ـ سلمان الفارسي وكنيته ابو عبد الله من أهل أصبهان وقد تقدمت ترجمة حياته في هذا الكتاب .

٥ ـ سفينة من الفرس ، كان لأم سلمة زوج النبي فأعتقته واشترطت عليه خدمة رسول الله . وقيل اسمه مهران وقيل رومان . وكنيته « ابو عبد الرحمن » . وقد سمّاه الرسول «ﷺ» سفينة لأنه حمل أمتعة للصحابة ثقلت عليهم .

٦ ـ أبو كبشة ، واسمه سليم اشتراه رسول الله «ﷺ» وأعتقه .

٧ ـ رُوَيفع : ابو مويهبة اشتراه رسول الله «ﷺ» وأعتقه .

٨ ـ رباح الأسود : كان يؤذن أحياناً .

٩ ـ فضالة من أهل اليمن ، ولم يذكر عنه شيء غير ذلك .

١٠ ـ مِدْعَم ، عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد الجذامي لرسول الله «ﷺ» فأعتقه .

١١ ـ يسار : الراعي الذي كان يرعى إبل الرسول «ﷺ» فقتله العرنيون .

١٢ ـ مهران : مهران مولى آل أبي طالب أعطوه للنبي «ﷺ» فأعتقه .

١٣ ـ مابور ، أهداه المقوقس للنبي «ﷺ» مع مارية واختها سيرين . وكان خصيّاً .

١٤ ـ سندر

ومن النساء :

أم أيمن ، وأميمة ، وسيرين قبل أن يتزوجها حسان بن ثابت .

خيله وبغاله وإبله

١ ـ الخيول :

كان له سبعة جياد وهي :

ـ السكب تشبيهاً بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه ، وكان كميتاً بين السواد والحمرة ، أغرَّ .

ـ المرتجز واسمه مأخوذ من الرجز لحسن صهيله ولونه أبيض .

ـ اللحيف

ـ اللزاز

ـ الظَّرِف

ـ الورد بين الكميت والأشقر
ـ سَبحـة أي سريع الجري .

٢ ـ البغال :

بغلة شهباء يقال لها (دُلدُل) ، وأخرى يقال لها (فضة) ، وبغلة اهداها له كسرى وأخرى من دومة الجندل ، واخرى من عند النجاشي .

وكان عنده حمار يقال له (يعفور) نَـفَـقَ في حجة الوداع .

الإبل :

ناقة يقال لها (القصواء) ، وناقة يقال لها (الجدعاء) وناقة يقـال لهـا (الغضبـاء) . وقـد قيل إن هذه الأسماء الثلاثـة لناقـة واحدة .

أسـماء الأسلحـة

كان لرسول الله ﴿ﷺ﴾ من السيوف تسعة ، ومـن الـدروع سبعة ، ومن القسّي خمسة ، ومن الأتراس ثلاثـة ، ومـن الرمـاح اثنان ، ومن الحراب خمسة ، ومن الخوذ اثنتان .

السيوف :

ـ مأثور ورثه عن أبيه .
ـ العضب اي القاطع .
ـ ذو الفقار .
ـ الصَّمْصامة وهو سيف عمرو بن معد يكرب .
ـ القلعي نسبة الى برج القلعة وهو موضع بالبادية .
ـ الحتف اي الموت .

ـ الـرّسوب الذي يرسب ويستقر في الضربة ، ويقال إنه أحد السيوف التسعة التي أهدتها بلقيس لسليمان عليه السلام .

ـ المِخْذَم اي القاطع .

ـ القضيب ، من قضب الشيء : قطعه .

الدروع :

ذات الفضول (طويلة جداً) .

ـ ذات الوشاح .

ـ ذات الحواشي .

ـ السفرية .

ـ الفضة .

ـ البتراء لقصرها .

ـ الخِرْنِق لنعومتها .

القسي :

ـ قوس يقال لها « البيضاء » .

ـ الروحاء .

ـ الصفراء .

ـ الزوراء .

ـ السداد .

الأتراس :

ترس يقال لـه « الأزلوق » لأن السلاح يزلق عنها ـ وتـرس يقال له « مُتَق » ، وآخر على شكل تمثال لعقاب ، كرهـه ﷺ وأذهبَـهُ عنه .

الرماح :

المثْنى .

- المشْوى .

الحراب :

- النبعة .

- البيضاء .

- العنزة وهي صغيرة تشبه العكاز .

- المهر .

- النمر .

الخوذ :

خوذة يقال لها « الموشح » وأخرى « ذات السبوغ » أو « السبوغ » .



مراجع الكتاب

القرآن الكريم	
تفسير القرآن الكريم	للطبرسي
تفسير القرآن الكريم	للطبري
تفسير القرآن الكريم	للقرطبي
تفسير القرآن الكريم	لابن كثير
في ظلال القرآن	للسيد قطب
لسان العرب	لابن منظور
أعيان الشيعة	محسن الأمين
السيرة النبوية	لابن هشام
الكامل	لابن الأثير
صحيح البخاري	
صحيح مسلم	
حياة محمد	محمد حسين هيكل
خاتم النبيين	محمد أبو زهرة
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
محمد رسول الله	محمد رضا

صور من حياة الرسول	أمين دويدار
القرآن وقضايا الإنسان	لابنة الشاطىء
أحسن الأثر	سليمان مروة



الفهرس



كتب للمؤلف

الاسلام وثقافة الإنسان

طريق الإيمان

عوامل ضعف المسلمين

السياسة والسياسة الدولية

الثقافة والثقافة الإسلامية

الصوفية في نظر الإسلام

خطوط عريضة الاقتصاد . الاجتماع . الحكم

المسلمون من هم

لمن الحكم



صدر حديثاً

قصص الأنبياء مجلد
تفسير مفردات القرآن الكريم
صفات الداعية معدل ويتضمن واقع المسلمين في اوائل الثمانينات .
الإسلام وايديولوجية الإنسان يتضمن « التضخم وكيفية معالجته في الإسلام » .
قصص الأنبياء أجزاء من آدم والتكوين
إلى زكريا وعيسى عليهم السلام
ومترجمة باللغتين العالميتين الفرنسية والانجليزية .
خاتم النبيين بثمانية كتب .

